

فكر ودراسة

THOUGHT STUDIES

د. نهار محمّد نوري

العلمانيّة البريطانيّة

دراسة في نشوء المفهوم وتطوّره



العلمانيّة البريطانيّة

دراسة في نشوء المفهوم وتطوّره

العلمانيّة البريطانيّة: دراسة في نشوء المفهوم وتطوّره/ فكر - دراسات
د. نهار محمّد نوري/ مؤلّف وأكاديميّ من العراق
الطبعة الأولى، 2015



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسيّ:
المصيطبة، شارع ميشال أبي شهلا، متفرّع من جسر سليم سلام
مفرق الجامعة اللبنانيّة الدوليّة LIU، بناية النجوم، مقابل أبراج بيروت
ص. ب 5460-11، الرمز البريديّ 1107-2190، بيروت، لبنان
هاتفاكس 707891/2 1 961+
e-mail: mkpublishing@terra.net.lb
موقع الدار الإلكترونيّ: www.airpbooks.com

التوزيع في الأردنّ:
دار الفارس للنشر والتوزيع
ص. ب 9157، عمّان 11191 الأردنّ،
هاتف 5605431 6 962+ / 5605432 6 962+ هاتفاكس 5685501 6 962+
info@airpbooks.com

تصميم الغلاف والإشراف الفنّيّ:
® عمّان، هاتف 95297109 7 962+
لوحة الغلاف الأماميّ: (بورتريه مخترع مصطلح العلمانيّة جورج هوليوك)، بريشة أخيه الفنّان **وليم هوليوك**/ بريطانيا
الصفّ الضوئيّ: **المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر**/ بيروت، لبنان
التنفيذ الطباعيّ: **ديمو برس**/ بيروت، لبنان

ISBN 978-614-419-571-0



د. نهار محمّد نوري

العلمانيّة البريطانيّة

دراسة في نشوء المفهوم وتطوّره



المحتويات

المقدمة

ما زالت العلمانية تحظى باهتمام متزايد من الباحثين والكُتّاب بمستوياتهم العلمية ومشاربهم الفكرية كافة . وعلى الرغم من أن الأقلام التي كتبت عن العلمانية قد ازدادت كماً ونوعاً في الآونة الأخيرة ، إلا أن اقتصار أغلب الدراسات والبحوث على الخوض في تجربة الكتابة عن مفهوم وتاريخ العلمانية وتطورها من منطلقات وأُطر إيديولوجية مسبقة ، وهو ما وسم أغلب الكتابات العربية عنها بالذات ، جعل من الكتابة عنها وإعادة النظر في أصولها ومرجعيتها الفكرية ومن ثم تجاربها وتطبيقاتها العملية على أرض الواقع أمراً بالغ الأهمية في ميدان البحث التاريخي الأكاديمي الجاد .

إن الكتابة عن العلمانية بوصفها مفهوماً فكرياً أوربي المنشأ قد جعل من أمر الخوض فيه يتطلب الركون إلى معطياته وخلفياته التاريخية وسبر غور أدبياته وتجلياته الفكرية ، بل وحتى تفحص المفاهيم الفكرية التي التقت معه والتي تمخضت من تفاعلاتها وصيرورة نموها التاريخي قبل وبعد ظهور مصطلح العلمانية . وضمن هذا السياق ، انصب الاهتمام بموضوع العلمانية البريطانية لمحاولة استجلاء وتقصي الواقع التاريخي- المفاهيمي لنشأة العلمانية ونموها بوصفها أحد المفاهيم الفكرية الناتجة خلال العصر الفكتوري[1] ؛ ذلك العصر الذي لا زال يحظى باهتمام الباحثين لكونه

---

(١) نسبةً إلى الملكة فكتوريا Queen Victoria (١٨١٩-١٩٠١/١٨٣٧-١٩٠١) : ملكة بريطانيا وأيرلندا وإمبراطورة الهند . والدها أدوارد دوق كنت (١٧٦٧-١٨٢٠) ، ووالداتها الأميرة ماري (١٧٨٦-١٨٦١) . أرتقت العرش خلفاً لعمها الملك وليم الرابع (١٧٦٥-١٨٣٧/١٨٣٠-١٨٣٧) . شهِد عصرها أعمالاً وأحداثاً مهمة على الصعد كافة ، توفيت في ٢٢ كانون الثاني ١٩٠١ . لمزيد من التفاصيل أنظر : الخيقاني ، حيدر صبري شاكر ، الملكة فكتوريا وأثرها في السياسة البريطانية (١٨٣٧-١٩٠١) ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب- جامعة بغداد ، ٢٠٠٩ .

واحداً من أهم بل والأطول حقبةً في التاريخ البريطاني لغاية هذه اللحظة ، وليس أدل على ذلك الاهتمام ، على سبيل المثال لا الحصر ، تخصيص دورية تُعنى به حملت عنوان : دراسات فكتورية Victorian Studies تولت مطبعة جامعة أنديانا الأمريكية Indiana University Press إطلاقها منذ عام ١٩٥٧ ولا تزال تصدر لحد الآن .

إن ارتباط العلمانية ، بوصفها مفهوماً فكرياً ، بالعصر الفكتوري ينطلق من اعتبارات مهمة تقف في مقدمتها صياغة مصطلح العلمانية ، بجذره الإنكليزي ، خلال هذا العصر ، وبالتالي أحاول في هذا الكتاب وضع الإطار الزمني والتاريخي للتجربة العلمانية البريطانية تحديداً . وتنطلق الفرضية التي أتبناها من محاولة التفريق بين المفهوم الفكري الذي أرسته العلمانية البريطانية ، بوصفه حقلاً وتجربة خاصة ، وبين المظاهر العلمانية السابقة على المفهوم العلماني البريطاني . ومن هذه النقطة بالذات أرى إن الدراسات المتعلقة بالعلمانية كثيراً ما تخلط بين الأطر والمظاهر الفكرية المدنية السابقة للمفهوم العلماني وبين التجارب العلمانية التي ولدت بعد نمو المصطلح العلماني ودخوله المعجم الفكري ليؤشر بذلك مرحلة أخرى لها أبعادها ومرتكزاتها وحيثياتها .

ووفقا لما تقدم ، لا بد من القول إن المظاهر العلمانية السابقة لظهور مصطلح العلمانية قد ركز عليها المؤرخون بوصفها أحد المرتكزات التي ساعدت على وضع الملامح الأولى لما يعرف بنمو التوجه المدني- العلماني في الفكر الإنساني ، ولهذا رأى بعض المؤرخين إن النظريات الأولى التي وضعت للتفريق بين الحاكم الزمني والديني في التاريخ الأوربي تحديداً تعد أساساً ليس فقط لبروز بواكير التوجهات المدنية بمعزل عن التأثيرات الدينية أو المتوافقة معها بل وملمحٌ مهمٌ لتفسير الجذور التاريخية للعلمانية الأوربية بمجملها ، وليس أدل على ذلك من اعتبار نظرية السيفين Two Swords Theory أو ما تعرف بنظرية جلاسيوس Gelasian Theory في أواخر القرن الخامس الميلادي ، نسبةً إلى البابا جلاسيوس الأول Pope Gelasius I (٤٩٢-٤٩٦)[١] والقائلة بوجود سلطتين متساويتين ومستقلتين عبر عنهما بالسيفين ، واحدة من أبرز تلك الملامح والنظريات التي وضعها رجل دين للتفريق بين السلطتين

---

(١) يشير هذا التاريخ إلى مدة تسنمه سدة البابوية في روما .

الروحية والزمنية والتي أشار لها المؤرخون في تفسير المفاهيم العلمانية[١] . وعلى الرغم من وجاهة الاتكاء على هذه النظرية في مراجعة الأصول الأولى لمظاهر العلمانية ، إلا أنها تعرضت إلى انحدار في تطبيقاتها فيما بعد حينما أرسى الملك شارلمان بتتويجه إمبراطوراً عام ٨٠٠م ، على سبيل المثال ، خطوةً تنم عن تحطيمها وصهرها في بوتقة واحدة ليمهد بذلك لما يعرف بنظرية السيف الواحد One Sword Theory في الحكم والقاضية بدمج البعد الروحي والمدني في شخصه[٢] .

ويغدو الأمر أكثر تعقيداً إذا ما علمنا إن المراجعة الاصطلاحية الدلالية للمظاهر العلمانية الأولى السابقة على مفهوم العلمانية[٣] قد نوهت عن وجود نعت علماني منذ وقت مبكر داخل المنظومة الكنسية وتحديداً لما عرف بالقسيس العلماني Secular or Lay Priest[٤] ، للدلالة على طبقة من رجال الدين يقومون على خدمة الشؤون الدنيوية لعامة المتدينين (وخدمة المسيح) ، وذلك تمييزاً لها عن طبقة الرهبان والقساوسة المتفرغين لشؤون العبادة والتبتل الروحي بصورة كاملة وبمعزل عن الشؤون

(1) Sheppard, James, Christendom at The Crossroads: The Medieval Era, Westminster John Knox Press, 2005, p.8;

سباين ، جورج ، تطور الفكر السياسي ، تر : حسن جلال العروسي ، مراجعة وتقديم : محمد فتح الله الخطيب ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠١٠ ، الكتاب الثاني ، ص ص ٩٤-٩٧ .

(2) Sharma & Sharma, S. K. & Urmila, Western Political Thought, New Delhi, Atlantic Publishers & Distributors, 2006, Vol. I, p.240;

عمارة ، محمد ، العلمانية بين الغرب والإسلام ، ط١ ، المنصورة ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٩٦ ، ص ٦ .

(٣) عالجت جزء من هذه الإشارات في المبحث الخاص بإنشاء الإطار النظري لمفهوم العلمانية وبالذات في الهامش رقم (٣) في ص ١٤٦ .

(4) Merriam- Webster's Dictionary of Synonyms: A Dictionary of Discriminated Synonyms with Antonyms and Analogous and Contrasted Words, Massachusetts, Merriam- Webster Inc., 1984, p.642.

الدنيوية[١] . كما أستخدم نعت علماني للإشارة إلى العاب الفروسية التي تقيمها الكنيسة على رأس كل مائة سنة ميلادية احتفالا بانقضاء قرن ودخول آخر جديد ؛ مثلما أستخدم المصطلح لاحقاً للإحالة إلى العالم الخارجي الواقع خارج الفضاء الكنسي وما يطبعه من روح دنيوية مادية (أي خارج حدود الكنيسة)[٢] . ومما كرس ذلك التقاسم بين ما هو مدني وروحي في القرون الوسطى ، وعزز بالتالي لدى المؤرخين العودة لهذه الإشارات والتدليل على كونها المظاهر الأولى لبواكير العلمانية ، رواج النزاع بين السلطتين الدينية والمدنية تجاه ما عرف بالتقليد العلماني Lay Investiture[٣] ، الذي اتبعه الحكام الأوربيون لتنصيب رجال الدين في مواقعهم الوظيفية في السلك الكهنوتي[٤] .

---

(١) عبد السلام ، رفيق ، تفكيك العلمانية في الدين والديمقراطية ، ط١ ، بيروت ، دار لبنان للطباعة والنشر ، ٢٠١١ ، ص ٢٨ ؛ عبد السلام ، رفيق ، في العلمانية والدين والديمقراطية : المفاهيم والسياقات ، ط١ ، بيروت ، مطابع الدار العربية للعلوم ، ٢٠٠٨ ، ص ٢٠ .

(2) Fitzgerald (ed.), Allan D., Augustine Through The Ages: An Encyclopedia, Cambridge, Wm. B. Eerdmans Publishing Co., 1999, p.893;

عبد السلام ، في العلمانية ، ص ٢٠ .

ومما تجدر الإشارة إليه إلى أن الألعاب العلمانية The Secular Games ، المستمدة من الجذر اللاتيني Saeculum والتي تعني قرن من الزمان أو الجيل أو العصر أو من Saeculares (العلماني) ، سبق وأن كانت جزء من الألعاب والمسرحيات والعروض التي أقامتها مدينة روما قبل الميلاد مرة كل مائة عام أو كل مائة وعشرين عاماً ، ولهذا فقد دخلت إلى الموروث المسيحي عبر الأباطرة المسيحيين الأوائل إحياءً لذكرى تأسيس روما . لمزيد من التفاصيل أنظر :

Spence, H. Donald M., Early Christianity and Paganism, London, Cassell and Company, Limited, 1902, p.259.

(٣) بيشوب ، موريس ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، ط١ ، تر : علي السيد علي ، القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٥ ، العدد ٥٦٦ ، ص ٥٤ .

(٤) وعملياً هو ذلك التنصيب أو التقليد الذي تولاه الأمير أو الملك أو الإمبراطور لرئيس الدير أو الأسقف قبل تسنمه مقعده أو كراسته (أي البدء بالتبشير والدعوة الإنجيلية) من خلال أعطاءه الخاتم والصولجان Ring and Staff ، فالخاتم هو الرمز الأسقفي لرسامة الكاهن (أي إعطاء =

وينجلي جزء من هذا التعقيد إذا ما أدركنا إن الأصل المعجمي للترجمة العربية لمصطلح العلمانية قد جاء ليس من الأصل الاصطلاحي الإنكليزي بل من المصطلح الفرنسي ؛ وكان إلياس بقطر Ellious Bocthor (١٧٨٤-١٨٢١)[١] ، أول كاتب عربي نحت الترجمة العربية للمصطلح الفرنسي Laique تحت اشتقاق «عالماني» في أول قاموس فرنسي- عربي طبع في باريس (في مجلدين) خلال ١٨٢٨-١٨٢٩ ، ووضع بجانب اشتقاق «عالماني» كلمتي (عامي ؛ وعوام) كتراجم أخرى للمصطلح الفرنسي المذكور ، فضلاً عن تفسير مقتضب أشار فيه بأن هذا الاشتقاق يقصد به لا إكليركي ولا ديني[٢] . ليمهد بذلك إلى إطلاق عنان الكُتاب العرب لمخيلتهم في توظيف التعبير العربي الجديد سواء أجاء بصيغة العِلمانية (بكسر العين) أو العَلمانية (بفتح العين) ، وليفتح الباب على مصراعيه للجدل البيزنطي العقيم لصحة انتساب الصيغة الأولى للعلم أم لا ، ودقة الثانية في انتسابها لجذرها الأول العالمانية (من العالم أو الدنيا أي غير المنتسب للعالم الروحي)[٣] . وكان الموسوعي اللبناني بطرس البستاني

= الدرجة الكهنوتية) فضلاً عن كونه رمزاً لرعاية البابوية لأتباعها من رجال الدين ، أما الصولجان فيشير إلى حق ممارسة السلطة في قيادة الرعية ضمن الحضيرة المسيحية . لمزيد من التفاصيل أنظر : بيشوب ، المصدر السابق ، ص ٥٤ ؛ اليوسف ، عبد القادر ، العصور الوسطى الأوروبية ٤٧٦-١٥٠٠ ، بيروت ، دراسات تاريخية ٢ ، ١٩٦٧ ، ص ص ١٥٠-١٦٢ ؛

Berman, Harold J., Law and Revolution: The Formation of The Western Legal Tradition, Harvard, Harvard University Press, 1983, pp.97-98; Stagaman, David J., Authority in The Church, Liturgical Press, 1999, p.93.

(١) مصري قبطي إلتحق بجيش نابليون في مصر مترجماً ، وغادر مصر بعودة الحملة الفرنسية إلى فرنسا . عين في كرسي اللغة العامية العربية في مدرسة اللغات للشباب في باريس التي أضطلعت بمهمة تعليم اللهجات العامية الموجودة في البلاد العربية للشباب الفرنسيين الذين سيعملون في القنصليات الفرنسية في البلاد العربية . وكان بقطر أول من شغل هذا الكرسي في تلك المدرسة . أنظر : بدوي ، عبد الرحمن ، موسوعة المستشرقين ، ط٣ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٩٣ ، ص ١١٢ .

(2) Bocthor, Ellious, Dictionnaire Franais- Arabe, Revu Et Augmenté: Caussin De Perceval, Paris, Chez Firmin Didot Freres, Libraires, Rue Jacob, No.24, 1829, Tome Deuxieme, p.3.

(٣) العظمة ، عزيز ، جولة أفق في العلمانية وشأن الحضارة ، **مجلة الآداب** ، بيروت ، ٧/ ٨/ ٩-٢٠٠٧ ، ص ٥ .

(١٨١٩-١٨٨٣) أول من وضع في قاموس عربي- عربي لفظة العَلْمَاني لتكون مرادفاً للعامي غير الإكليركي في عام ١٨٧٠[١] .

وسط هذه التداخلات الاصطلاحية أحاول في هذا الكتاب توضيح المكانة المهمة للتطورات والملامح الفكرية التي اكتنفت المفهوم والتجربة العلمانية البريطانية في العصر الفكتوري ، والتدليل على كونها حركة تاريخية فرضتها ظروف المرحلة الزمنية التي عاشتها بريطانيا آنذاك . ولهذا يعتقد المؤلف وفقاً للمنهج الوصفي- التحليلي الذي اعتمده في تفسير الأحداث التي رافقت التحقيب الزمني المعتمد ، إن العلمانية بوصفها مفهوماً وحركة فكرية- اجتماعية في آن واحد ، قد شكلت تحدياً مهماً انعكس على الواقع البريطاني ؛ ففي ضوء مقولة نظرية التحدي والاستجابة Challenge and Response التوينبية[٢] ، التي تبناها المؤلف ، حظيت العلمانية باستجابتين إصلاحيتين سياسيتين مهمتين خلال العصر الفكتوري وظفتا في مبحثين خاصين في هذا الكتاب .

احتوى الكتاب بين دفتيه على أربعة فصول رئيسة ؛ خصص الفصل الأول المعنون : «الجذور التاريخية للنزعة العلمانية البريطانية- المرتكزات الأولى ١٥٩٣-١٨٣٧» ، للمنابع المكونة لنمو النزوع العلماني الإنكليزي وتطوره ، حيث عرّج على أهم المدارس الفكرية التي شكلته كالنقد العقلاني للفكر الديني ودور المفكرَين الإنكليزييَن توماس هوبز وجون لوك في إرساء دعائم المجتمع العلماني المدني . كما سلط الضوء على أثر نشوء المذهب الربوبي في تعزيز واشتداد النزعة العقلانية ، وأثر المكتشفات الجيولوجية والفلسفة المادية في زعزعة مكانة الفكر الديني التقليدي ودوره ، الأمر الذي أسهم في تعزيز التوجهات والطروحات العلمانية . فضلاً عن مكانة الفلسفتين الحتمية والنفعية في تعجيل التحولات الفكرية المدنية . وتمت

---

(١) البستاني ، بطرس ، محيط المحيط : قاموس مطول للغة العربية ، بيروت ، مكتبة لبنان ، ١٩٨٧ ، ص ٦٢٨ .

(٢) نسبةً إلى المؤرخ الانكليزي الشهير أرنولد جوزف توينبي Arnold Joseph Toynbee (١٨٨٩-١٩٧٥) ، من أشهر أعماله : «دراسة في التاريخ» التي صدرت في ١٢ مجلداً خلال (١٩٣٤-١٩٦١) . أنظر : Encyclopedia Britannica, CD., 2010 .

معالجة الثورة الفرنسية وأثرها في نمو التقليد الراديكالي البريطاني بنزعته المتطرفة الممثلة بالتقليد البيني[1] الذي لعب دوراً مهماً في بلورة العقلية الفكرية النقدية العلمانية ولا سيما لدى الجيل المبكر من الزعماء العلمانيين . وإختتم بالمكانة التي لعبها التقليد الكارليلي[2] ونشاط الصحافة والجمعيات التي وسمت (بالتجديفية) في صياغة البواكير الأولى للأدبيات النقدية العلمانية وملامح التنظيمات الموجهة لها مع مقدم العصر الفكتوري .

ركز الفصل الثاني المعنون : «الاتجاهات والمظاهر العلمانية منذ مطلع العصر الفكتوري عام ١٨٣٧ ولغاية تأسيس الجمعية العلمانية الوطنية عام ١٨٦٦- نشوء المفهوم والحركة العلمانية ونتائجها» ، على نمو الاتجاهات والطروحات العلمانية قبل وفي أثناء وبعد نحت مصطلح العلمانية ، وتناول أبرز المنابع الفكرية التي استمد الزعماء العلمانيون منها ديمومة نشاطهم الفكري ، ودور الزعيم العلماني جورج جاكوب هوليوك في وضع الإطار النظري لمفهوم العلمانية الانكليزي الأول في الأدبيات الفكرية والمعجمية وانعكاس تلك الخطوة على نمو الجمعيات العلمانية الوليدة . ومن أجل استكمال الصورة تم التطرق إلى المحاولات المبكرة لعلمنة المجتمع الفكتوري في ضوء رواج المالثوسية الجديدة ، ذلك الاتجاه الذي ألقى بظلاله على قضايا حساسة في المجتمع كالقضايا الجنسية التي رافقت عملية علمنة الأسرة وفق محددات المدرسة العلمانية الاجتماعية في تفسير أطر الحياة بمعزل عن المؤثرات الدينية . ولأجل إثبات إن التحولات التي رافقت عملية ظهور العلمانية قد أدت إلى تحقيق استجابة سياسية للرؤى العلمانية ، تم بحث مسألة دخول اليهود في البرلمان البريطاني في عام ١٨٥٨ بوصفها أولى تلك الاستجابات السياسية التي أدت بدورها إلى تقليص العوائق الدينية وتحقيق المساواة المدنية . كما تم توضيح أبعاد الرؤى الفكرية العلمانية التي روج لها المفكر جون ستيوارت مل في مقالته الشهيرة : «عن الحرية» عام ١٨٥٩ ، وأثرها في إرساء دعائم التحولات العلمانية في المجتمع الفكتوري . وإختتم هذا الفصل بمبحث تولى الإجابة عن مقومات الانتشار العلماني؟

---

(١) نسبةً إلى المفكر الراديكالي توماس بين . أنظر الصفحات ٨١-٨٩ من الكتاب .

(٢) نسبةً إلى المفكر الراديكالي ريتشارد كارليل . أنظر الصفحات ٩٢-١١٠ من الكتاب .

ولهذا تم إبراز المنهجية التي أُتبعت في النشاط العلماني ودور الصحافة العلمانية الوليدة التي لعبت دوراً محورياً في ترويج المنطلقات والطروحات الفكرية العلمانية .

تصدى الفصل الثالث المعنون : «العلمانية البريطانية منذ تأسيس الجمعية العلمانية الوطنية عام ١٨٦٦ ولغاية النزاع العلماني من أجل التمثيل السياسي عام ١٨٨٠- مرحلة الانتعاش العلماني» ، لمعالجة نمو العلمانية البريطانية في إطارها التنظيمي ودور العلمانيين في ترويج النزعة العلمانية وانتعاش دورهم من خلال الخوض في نزاعات مريرة من أجل نيل حقهم في نشر الرؤى المدنية الفكرية الجديدة وترويجها وفيما اعتقدوه إنه إصلاحٌ ومعالجة لمشكلات المجتمع الفكتوري عبر إعادة ترويج مواضيع تحديد النسل وعلاقتها بتقنين الفقر المرتبط بالتضخم السكاني وسبل معالجته من خلال التطرق لحياة الفرد الإنكليزي الجنسية ، فضلاً عن قدرة ذلك النزاع في تعزيز الحرية الفكرية وإصلاح القانون . وتصدى مبحث خاص للإجابة عن مدى قدرة العلمانيين في توظيف رؤاهم في المؤسسة التعليمية وما مدى استجابة الحكومة البريطانية في ذلك؟ وبقدر تعلق الأمر بانتعاش الطروحات العلمانية عكس التنافس بين الزعماء العلمانيين والانشقاق الذي حدث على زعامة تشارلز برادلو للجمعية العلمانية الوطنية أثراً بالغاً في ديمومة الانتشار العلماني وفقاً للتنظيمات والجمعيات العلمانية المنبثقة على إثر هذا التنافس . ولاستكمال الوجه الكامل لمرحلة الانتعاش العلماني ، تم استعراض ركائز هذا الانتعاش من خلال متابعة كرونولوجية- جغرافية لأبرز الجمعيات العلمانية ومناطق تواجدها وتعليل دواعي إطلاقها أو اندماجها أو انحلالها . وأختتم هذا الفصل بمبحث عني بالتحليل البنيوي لطبيعة النشاط العلماني وأساليبه من خلال تفسير العناصر المكونة والمعتمدة ضمن هذا النشاط ودرجة تأثيرها في ديمومة وحيوية الطروحات والتصورات العلمانية .

عالج الفصل الرابع المعنون : «اتجاهات العلمانية البريطانية منذ النزاع العلماني من أجل التمثيل السياسي عام ١٨٨٠ ولغاية نهاية العصر الفكتوري عام ١٩٠١- مرحلة الذروة والتنوع» ، محددات الاتجاهات التي وجهت العلمانية البريطانية نحو أقصى مدياتها ، مستهلاً بالنزاع الذي خاضه الزعيم العلماني برادلو من أجل نيل حق التمثيل السياسي وأثره في تعميم حق التأكيد بدل القسم في البرلمان البريطاني ، وبالتالي أثره ، بوصفه ثاني استجابة سياسية للرؤى العلمانية ، في توظيف التحول المدني في المؤسسة البرلمانية ومدى تنقيتها من المؤثرات الدينية؟ كما

تم التطرق لدور العلمانيين في الوقوف بوجه قوانين التجديف ومرسوم المنشورات الفاضحة التي وقفت حجر عثرة أمام تنامي النزعة العلمانية والرغبة في الانعتاق من الوصاية الدينية التي تكتنف التفسيرات القانونية المنظمة لمنع حرية التعبير والنشر . وكرس المبحث الذي تلاه إلى تنامي النزعة اللا أدرية ، بوصفها إحدى الأوجه الجديدة الداعمة للرؤى العلمانية ، وعلاقة العلمانيين بها . وفي إطار تكريس العمل العلماني من أجل دعم المؤسسة التعليمية على إثر التحولات النوعية التي شهدها السلك التعليمي في بريطانيا منذ سبعينيات القرن التاسع عشر ، جدد العلمانيون نشاطهم هذه المرة من خلال منهجة محددات تعليمية- معرفية خاصة للعضو العلماني كان لها دورٌ فاعلٌ في ترقية الملكات الشخصية ، فضلاً عن دورهم في النزاع والوقوف بالضد من الأصول الفكرية الدينية المتغلغلة في المدارس مقابل ترقية المستوى التعليمي وإضفاء بدائل نوعية تنحى منحى الجانب الأخلاقي والإنساني في مرجعيتها الفكرية وبمعزل عن الولاء الطائفي- الفئوي . وعرّجت في هذا الفصل على الدور الذي لعبه تنافس الزعماء العلمانيين فيما بينهم وأثره في تعزيز اتجاهات علمانية جديدة كالحركتين الأخلاقية والاشتراكية ودور العلمانيين فيهما . واختتمت الفصل بإبراز ركائز النشاط الفكري العلماني وملامحه خلال مرحلة الذروة .

اعتمد المؤلف على مصادر ومراجع عديدة ، يمكن تقسيمها إلى مجموعتين الأولى : المصادر الوثائقية المعاصرة للأحداث من دوريات أطلقها الزعماء العلمانيون تباعاً ، فضلاً عن كم كبير من الكراريس والكتيبات والنشريات التي اضطلع الكثير من هؤلاء بنشرها والترويج لها كلما سنحت الفرصة لهم لترويج الطروحات العلمانية أو الرد والدفاع عنها . والكتب المرجعية المهمة التي صدرت طوال العصر الفكتوري والتي تعنى بتقصي الأحداث وتحوي في طياتها كماً كبيراً من الوثائق والمراسلات والجدالات المعاصرة التي لا غنى عنها لأي باحث يروم تقصي أحداث العصر المذكور . والثانية : المراجع والدراسات الأكاديمية المتخصصة التي عنيت بطريق أو بآخر بالطروحات الفكرية التي تعالج جوانب مهمة من الفكر العلماني- المدني . ولولا إتاحة الفرصة لاستقصاء ونيل كلتا المجموعتين من خلال المواقع والصروح الثقافية التي تُعنى بنشر النتاجات العلمية وإتاحتها على شبكة الانترنت سواء بمقابل مادي أو مجاني لعجز الباحث عن نيل الحد الأدنى من أمهات تلك المصادر والمراجع ؛ وأخص بالذكر موقع الأرشيف العالمي الشهير www.archive.org الذي يُعنى بالمراجع

المرقمنة[١] والرقمية طبق الأصل والمصورة عن المصادر القديمة فضلاً عن الأفلام والصور والصوتيات الوثائقية ، وموقع گوگل للكتب www.books.google.com المعني بالكتب المرقمنة والرقمية القديمة والحديثة منها على السواء ، والوحيد تقريباً الذي ينفرد بعرض أحدث الإصدارات مع عرض لصفحات متفرقة عنها .

يعد كتاب جون أدوين مكغي John Edwin McGee المعنون : «تاريخ الحركة العلمانية البريطانية A History of The British Secular Movement» ، واحداً من أقدم المراجع التي كتبت عن تطور العلمانية البريطانية منذ نشأتها وحتى منتصف القرن العشرين ، حيث استمد الكاتب مصادره المنوعة والعديدة من المؤلفات الصادرة في العصر الفكتوري سواء تلك التي دونت بأقلام الزعماء العلمانيين من صحف أو كراريس أو نشريات أو مذكرات يومية أو تلك التي عالجت جوانب كثيرة من الطروحات العلمانية . وعلى الرغم من أهمية الكتاب المذكور باعتباره أقدم دراسة عن العلمانية البريطانية ، إلا ان ما يؤاخذ عليه قلة التحليلات واختصار بعض الأحداث لحساب الطابع الكرونولوجي الذي غطى بعض المواضيع .

أما مؤلفات إدوارد رويل Edward Royle الأستاذ المتمرس ، الغزير النتاج ، في جامعة يورك البريطانية والمتخصص بالتاريخ الاجتماعي والسياسي البريطاني ، فتعد من أبرز المراجع الأكاديمية التي تصدت لموضوع العلمانية البريطانية بروح موضوعية قلما أحاط باحث آخر بها ، وبسعة وغزارة المعلومات والمصادر الموثقة التي استخدمها من مصادر أولية تعنى بتاريخ الزعماء العلمانيين وآثارهم الكتابية ، فضلاً عن متابعة متأنية لكم كبير من الدوريات العلمانية التي صدرت في أثناء العصر الفكتوري . وكان أبرز من إنطبق عليه هذا الوصف من مؤلفاته كتاب : «الكفرة الفكتوريون : جذور الحركة العلمانية البريطانية ١٧٩١-١٨٦٦ Victorian Infidels: The Origins of The British Secularist Movement 1791-1866» ، إذ احتوى على تحليلات قيمة تناول فيها حقبة زمنية غنية شكلت العمود الفقري لكثير من المعالجات التي تناولها المؤلف

---

(١) المرجع المرقمن : هو أي مصدر أو مرجع كان بالأساس ورقياً ومن ثم تم مسحه ضوئياً عبر الماسح الضوئي (السكنر) بهدف التقاط صور طبق الأصل عنه وبالتالي أتاحته الكترونياً أي رقمياً ، وتتم قراءته تحت أي صيغة من صيغ قراءة الكتاب الالكتروني (على سبيل المثال تحت نظام PDF وما شابه) .

لغاية منتصف العصر الفكتوري تقريباً . وتطلب تقسيم رويل للأحداث إفراد مباحث خاصة تعنى بالجوانب الفكرية والاجتماعية والسياسية . النقطة السلبية الوحيدة تقريباً التي رافقت مؤلفه هو عدم تناوله لانعكاسات الطروحات العلمانية على الطوائف الدينية في بريطانيا ، ولاسيما التحول المدني الذي رافق دخول اليهود للبرلمان البريطاني ودور العلمانيين تجاهه ، فضلاً عن عدم تناول دور المفكرين الإنكليز في التمهيد للتحولات العلمانية أمثال توماس هوبز وجون لوك وجون ستيوارت مل .

ويعد كتابه الآخر المعنون : «الراديكاليون والعلمانيون والجمهوريون : الفكر الحر الشعبي في بريطانيا ١٨٦٦-١٩١٥ :Radicals, Secularists and Republicans Popular Freethought in Britain 1866-1915» بمثابة الجزء المتمم لكتابه سالف الذكر ، أكمل فيه النصف الثاني من الحقبة الزمنية المتبقية من العصر الفكتوري ، واعتمد أيضاً كماً كبيراً من المصادر التاريخية والدراسات الأكاديمية الموثقة والإصدارات المعاصرة لوقائع المرحلة الزمنية التي غطت المرحلة الممتدة منذ إنشاء الجمعية العلمانية الوطنية في عام ١٨٦٦ ، فضلاً عن متابعة دقيقة للتنظيمات والجمعيات العلمانية التي انبثقت بُعيد إنشاء الأخيرة ، والقضايا الفكرية الخلافية التي أثارها النزوع العلماني في المجتمع الفكتوري وانعكاساتها وتفاعلاتها مع بقية التيارات والنزعات المدنية ولاسيما التي لعب العلمانيون فيها دوراً محورياً رائداً كالحركتين الأخلاقية والاشتراكية ، فضلاً عن النزعة اللا أدرية ، وأثر الأخيرة في إسباغ ازدواجية التقمص والترادف لمصطلحي العلماني واللا أدري للشخص المنتمي للجمعيات والنزعة العلمانية . وعلى الرغم مما اكتنف هذا الكتاب من متابعة دقيقة وإحاطة شبه شاملة بمختلف الجوانب التنظيمية التي رافقت النشاط العلماني ، إلا أن الفرضية التي تبناها رويل في الاعتقاد بأن المرحلة التي تلت منتصف ثمانينيات القرن التاسع عشر قد شهدت الضعف والانحدار بسبب تراجع أعداد الجمعيات العلمانية قياساً بالمرحلة التي سبقتها ، لا يمكن الركون إليها على نحو دقيق لتعليل جميع النشاطات والطروحات العلمانية المنوعة التي شهدها العقدان الأخيران من العصر الفكتوري ؛ ولهذا فالضعف والانحدار ينطبق فقط على تفسير تراجع أعداد الجمعيات العلمانية من الناحية التنظيمية وليس جميع مقومات وأوجه واتجاهات النشاط العلماني ككل .

واعتمد المؤلف على كم لا بأس به من الدراسات والمؤلفات التي اضطلع بتأليفها

علماء الاجتماع المتخصصون بالظواهر الاجتماعية ، والتي لا غنى عنها في تفسير الكثير من النزعات الفكرية التي راجت في أثناء العصر الفكتوري وتعليل التحولات الاجتماعية القيمية في تصورات الأسرة والمجتمع الفكتوري وبما ينم عن مدى الاستجابة للمؤثرات القيمية المدنية الجديدة والابتعاد عن المؤثرات الدينية التقليدية . وشكلت هذه الدراسات والمؤلفات عماد بعض مواضيع الكتاب التي عالجت انعكاسات وأبعاد علمنة المجتمع الفكتوري . وتعد مؤلفات عالم الاجتماع والمؤرخ الإنكليزي جوزف أمبروز بانكس (1920-2005) Joseph Ambrose Banks الرائدة في هذا المجال ، وأخص بالذكر من بين مؤلفاته كتابه القيم والمعنون : «القيم الفكتورية : العلمانية وحجم العوائل Victorian Values: Secularism and The Size of Families» الذي عالج فيه أثر الأبعاد الفكرية والتحولات الاجتماعية التي رافقت نمو العلمانية في بريطانيا ومدى تأثيرها في الأسرة والمجتمع الفكتوري ، فضلاً عن تناوله العديد من المباحث التي عنيت بالمرأة ومدى انعتاقها من وصاية الآباء والزوج والمعتقدات الدينية ، ودرجة تأثير الطروحات العلمانية على المؤسسة التعليمية ومدى تقبل أرباب العوائل للتحولات المدنية ذات الطابع العلماني عبر متابعة دقيقة للفروقات بين الريف والمدينة في بريطانيا .

وبقدر تعلق الأمر بالمصادر الوثائقية ، استخدم المؤلف عدداً لا بأس به من المصادر القيمة التي تتسم بالإحاطة الشاملة لأحداث العصر الفكتوري ، كالموسوعات والقواميس والكراريس والكُتيبات والإصدارات الحكومية الخاصة التي صدرت جميعها في أثناء هذا العصر . ولا بد من ذكر المصدر الذي لا غنى عنه في توثيق الرواية الرسمية لمجريات المناقشات السياسية والاجتماعية والاقتصادية للبرلمان البريطاني ، والتي تولى نشرها توماس كرزن هانسرد Thomas Curson Hansard (1776-1833) بمجلدات ، تجاوز الكثير منها الألف صفحة ، حملت اسم عائلة الأخير تباعاً منذ عام ١٨٠٣ ولغاية الآن تيمناً بدوره وباسمه ، وتحت عنوان : المناقشات البرلمانية لهانسرد Hansard's Parliamentary Debates ، التي تعكس بحق ، فضلاً عن قيمتها العلمية والتاريخية ، مدى الشفافية البرلمانية التي تمتعت بها بريطانيا منذ القرن التاسع عشر ، والتي تفتقر الكثير من البلدان في الوقت الحالي لها ؛ إذ تتأتى أهمية هذا المؤلف من احتوائه للمناقشات التي دارت في مجلسي العموم واللوردات وعلى كل خطبة أو تعقيب أدلى به عضو أو مسؤول فيهما ، ولهذا احتوى بين دفتيه

محاضر المجلسين المذكورين . في الحقيقة كانت لمعلوماته أثر بالغ في تبديد الغموض والإجابة عن الكثير من التساؤلات التي رافقت ملابسات النزاع الذي خاضه الزعيم العلماني برادلو من أجل الحصول على مقعد برلماني وأثره في تعميم حق التأكيد بدل القسم في البرلمان البريطاني . واستطاع المؤلف بعد جهد طويل تحميل ، عبر مواقع الانترنت ، ما لا يقل عن مائتي مجلد غطت أحداثها القرن التاسع عشر جميعه تقريباً .

كما اعتمد المؤلف على كم كبير من الدوريات العلمانية التي مثّلت مَعيناً وثائقياً لاستقاء معلومات في غاية من الأهمية سهلت متابعة الدور الذي لعبه العلمانيون في رفد الطروحات المدنية وترويج النزعة النقدية- الشكية التي اتسمت بها كتاباتهم وبالتالي زعزعة الموقع التقليدي الذي لعبه الدين والمؤسسة الكنسية في التأثير فكرياً وعقائدياً في داخل المجتمع الفكتوري . إن الأهمية الملازمة لهذه الدوريات تنطلق من كونها المرآة العاكسة لتوجهات الزعماء العلمانيين وأعضاء الجمعيات العلمانية وأنصارهم ؛ فقد تولى هؤلاء الزعماء رئاسة تحرير عدد كبير منها ووجهوا رؤاهم الفكرية من خلالها . وقُدر لعدد كبير منها نقل أخبار العلمانيين وتطلعاتهم لعدد كبير من المدن البريطانية مما أسهم في انتشارها وديمومتها ، وأخص بالذكر دوريات The Oracle of Reason ، The Reasoner ، The National Reformer ، The Freethinker . ومع ذلك ، تجدر الإشارة إلى صعوبة تناول وقراءة مقالات هذه الدوريات نظراً لتقادم الزمن عليها واختلاف لغة وتشبيهات العصر الفكتوري عن الوقت الحالي فضلاً عن أسلوب التورية والتفخيم الذي دَرج بعض الزعماء العلمانيون عليه ناهيك عن تبني بعضهم أسماء مستعارة في المقالات الافتتاحية . ولولا خاصية التكبير والبحث الداخلي السريع ضمن الأعداد المرقمنة المحملة من مواقع المكتبات على الانترنت ، وهي الميزة التي تفتقر لها المصادر الورقية العينية ، لصعب على المؤلف فهم وقراءة ومتابعة الكثير منها .

وأفاد المؤلف من كم كبير من البحوث والدراسات الأكاديمية التي تولت نشرها مجلات ودوريات حديثة ، فضلاً عن الموسوعات والمعاجم التاريخية والاجتماعية واللغوية المتخصصة التي ساعدت في فهم الكثير من الاصطلاحات والأسماء وترجمة سير الأعلام ، وكم كبير من الكراريس التي صدرت خلال العصر الفكتوري والكتب الوثائقية والأطروحات والرسائل الجامعية المنشورة وغير المنشورة ، والتي لا

مجال لعرضها هنا ويمكن متابعتها في ثنايا الكتاب وقائمة المصادر والمراجع .

وفي الختام ، أرجو أن أكون قد وفقت في إنتاج جهد يستحق القراءة ويحظى بقبول القارئ العربي الكريم ويسهم في إضافة عمل متواضع إلى المكتبة التاريخية العربية .

المؤلف

١٦/ ١٠/ ٢٠١٢

الفصل الأول

الجذور التاريخية للنزعة العلمانية البريطانية-

المرتكزات الاولى ١٥٩٣-١٨٣٧

أولاً: النقد العقلاني للفكر الديني- بداياته الأولى

تعود الجذور الأولى للطروحات العلمانية المبكرة في إنكلترا، إلى البدايات الأولى للكتابات النقدية العقلانية للكتاب المقدس The Bible . حيث لم تستهدف هذه الكتابات تنقية الفكر الديني من الفكر الدخيل الممثل بالاتجاهات الطائفية المخالفة أو القراءات والتفسيرات المشوهة فحسب، بل إقامة نظام حكم سياسي يكون الفكر الديني جزءاً مكملاً في بعض الاحيان . وكان خير من مثّل هذه الاتجاه اللاهوتي الإنكليزي ريتشارد هوكر Richard Hooker (١٥٥٤-١٦٠٠) ، الذي عُد جذراً لما أطلق عليه فيما بعد الفكر الحر Freethought[١] . فقد كتب هوكر رسالة تحت عنوان : «الحكومة الاكليركية Ecclesiastical Polity» في عام ١٥٩٣ ، كانت بمثابة دفاع عن الإنكليكانية Anglicanism (مذهب الكنيسة الإنكليزية) من خلال الدفاع عن الأسقفية الإنكليزية القائمة آنذاك والتسوية الإليزابيثية[٢] ، ومهاجمة حرفية البيوريتان Puritan[٣]

---

(1) Wilder, T. E., At The Origins of English Rationalism, *Contra Mundum*, No. 1 Fall 1991, p.3.

(٢) المقصود تسوية القضايا الكنسية التي وقفت ورائها ملكة إنكلترا اليزابيث الاولى Elizabeth I (١٥٣٣-١٦٠٣-١٥٥٨/١٦٠٣-١٦٠٣) وهما مرسوم السيادة لعام ١٥٥٩ الذي أقر إعادة تأسيس كنيسة إنكلترا بالاستقلال عن روما وإعتبار الملكة اليزابيث رأساً للكنيسة ، ومرسوم المذهب الموحد لعام ١٥٥٩ الذي الزم كنيسة إنكلترا بإعتماد كتاب الصلاة الموحد . أنظر :

Encyclopedia Britannica, CD., 2010; Levin, Carole, The Reign of Elizabeth I, First Published, New York, Palgrave, 2002.

(٣) أو البيوريتانية Puritanism : نسبةً إلى حركة الاصلاح الديني التي ظهرت في إنكلترا في أواخر القرن السادس عشر والقرن السابع عشر التي سعت إلى «تطهير» كنيسة إنكلترا من بقايا تأثيرات البابوية والكنيسة الكاثوليكية ، ولهذا أطلق عليهم لقب المتطهرون البروتستانت المتشددون . وأتخذ البيوريتان الانجيل القانون الالهي وأرادوا صياغة كنيسة إنكلترا وفقاً لمعتقداتهم ، ونادوا بالحد من =

في تفسيرهم للكتاب المقدس[1] .

وعبّر هوكر عن فكرة القانون الطبيعي[2] الجوهري الناشئ من الرب بإعتبار إن كلا البشر والقوانين الدينية من المفترض أن يأتلفا في بوتقة واحدة . وشدد في الوقت نفسه على طروحات التأثير العقلاني للمدنية في الحكومة الإكليركية . وكان دفاعه عن كنيسة إنكلترا قائماً على مخالفة الكنيستين الرومانية الكاثوليكية والبيوريتانية ، حينما أكد على التقليد الانكليكاني ، القائم على رباط ثلاثي لا ينفصم بسرعة

= دور القساوسة في الكنيسة ، وطالبوا تنظيمها وفق مجالس مشيخية بدلاً من الاساقفة وتبسيط الطقوس والاعتماد على الصلوات الخاصة بدلاً من الرسمية ، وحثوا على العفة والتقوى ومحاسبة النفس بوصفها وسائل لنيل الفضائل الدينية . وحينما يئسوا خلال القرن السابع عشر من إصلاح الكنيسة رحلوا للاقامة في أمريكا الشمالية حيث أقاموا مستعمرة فيرجينيا وشكلوا الحياة الاجتماعية والحكومة والدين وفقاً لقيمهم ، وأسسوا كليتي هارفارد وييل وأقاموا نظاماً مدرسياً خاصاً هناك . أنظر :

Encyclopedia Britannica, CD., 2010; Coffey, John, Puritanism and Liberty Revisited: The Case for Toleration in The English Revolution, *The Historical Journal*, Cambridge University Press, Vol. 41, No. 4 (Dec., 1998), pp.961-985; George, C. H., Puritanism as History and Historiography, *Past & Present*, Oxford University Press on behalf of The Past and Present Society, No. 41 (Dec., 1968), pp.77-104.

(1) Gibbs, Lee W., The Source of The Most Famous Quotation From Richard Hooker's Laws of Ecclesiastical Polity, *The Sixteenth Century Journal*, The Sixteenth Century Journal, Vol. 21, No. 1 (Spring, 1990), pp.77-86.

(٢) Natural Law : قانون أو مجموعة قوانين مشتقة من الطبيعة ، ويعتقد أنها ملازمة لتصرفات البشر بصرف النظر عن القوانين التي وضعتها سلطة الانسان أو إشتراكها معها . وفي الفلسفة هي نظام الحق أو العدالة لعامة البشر ، مشتقة من الطبيعة بدلاً من قوانين المجتمع أو القانون الوضعي . أنظر : قربان ، ملحم ، قضايا الفكر السياسي- القانون الطبيعي ، ط١ ، بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ١٩٨٢ ؛ الشاوي ، منذر ، مذاهب القانون ، بغداد ، دار الحرية للطباعة ، بلا . ت ، ص ص ١١-٣٤ ؛

Encyclopedia Britannica, CD., 2010.

والمتكون من الكتاب المقدس والكنيسة والعقل[١] . وعلى الرغم من ذلك ، فإن مأزق الإيمان الديني في بواكير عصر النقد العقلي كان قد وضع على المحك على يد جون درايدن John Dryden[٢] حينما كتب في مؤلفه : «قصائد دينية Religio Laici» عام ١٦٨٢ :

كيف يتسنى للاقل أهمية بأن يستوعب الاعظم [الخالق]؟
أو كيف يصل العقل المحدود إلى المطلق ؟
ولاجل ماذا يفهم الرب لاكثر مما هو[٣] .

لذلك أضحى الوحي ضرورياً لاكمال العقل في هذه المرحلة الزمنية ، وكانت تلك هي القاعدة التي إرتكزت عليها الخلاصة اللاهوتية الكبرى للقديس توماس الاكويني St. Thomas Aquinas[٤] . وجرت محاولة جادة للوصول إلى معرفة الرب

---

(1) McGrade & Hooker, Arthur S. & Richard, The Public and The Religious in Hooker's "Polity", *Church History*, Cambridge University Press on behalf of The American Society of Church History, Vol. 37, No. 4 (Dec., 1968), pp.404-422;

لوكلير ، جوزيف ، تاريخ التسامح في عصر الاصلاح ، ط١ ، تر : جورج سليمان ، مراجعة : سميرة ريشا ، بيروت ، المنظمة العربية للترجمة ، ٢٠٠٩ ، ص ص ١٠٠٣-١٠١٠ .

(٢) جون درايدن (١٦٣١-١٧٠٠) : شاعر إنكليزي ، وكاتب مسرحي ، وناقد أدبي . ويعد من أبرز الشخصيات الادبية التي ناصرت عودة الملكية لال ستيورات عام ١٦٠٠ ، وفي ثمانينيات القرن السابع عشر تحول نحو الهجاء السياسي بالضد من الويك . وبعد وصول جيمس الثاني (١٦٣٣-١٧٠١/١٦٨٥-١٦٨٨) إلى العرش ، غدا درايدن من الكاثوليك عام ١٦٨٦ ، لكن بوصول وليم الثالث (١٦٥٠-١٧٠٢/١٦٨٩-١٧٠٢) خسر الاحسان والتبجيل الملكي . لقد جادل ببلاغة في مؤلفه «قصائد دينية» في نصرة الانكليكانية ضد غير المؤمنين والمنشقين من البروتستانت والكاثوليك الرومان . أنظر :

Kenyon, J. P., Dictionary of British History, London, Sphere Books Ltd., 1988, p.116; Encyclopedia Britannica, CD., 2010.

(3) Royle, Edward, Victorian Infidels: The Origins of The British Secularist Movement 1791-1866, London, Butler & Tanner Ltd., 1974, p.9.

(4) القديس توماس الاكويني (١٢٢٥-١٢٧٤) : لاهوتي دومينيكي إيطالي ، طور إستنتاجاته الخاصة من الفرضيات الارسطوطالسية ، أبرزها في ميتافيزيقيا الشخصية والخلق والعناية الالهية . وعلى =

ليس عن طريق الوحي بل عن طريق العقل المجرد ، ومن خلال الاستقراء[١] العلمي من المعلومات المتاحة ، لتثار تساؤلات مهمة . هل كان التأكيد على العقل قد عني بأن الوحي غير ذي صلة بالامر؟ وماذا لو أن الدليل العقلي لوجود الرب وطبيعته يناقض الدليل المنزل في الكتاب المقدس؟ وإذا كان كل شيء يعمل وفقاً للقوانين الطبيعية ، فما هو المجال المتاح للمعجزات؟ وسيكون أكثر مدعاة للقلق إذا ما تم تحديد مسار الحياة طبقاً لمثل تلك القوانين الطبيعية ، فما هو المجال المتاح حينئذٍ للإرادة الحرة البشرية؟[٢] .

وكانت نقطة الإنطلاق للعديدين هو ما قام به الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت

= الرغم من أن العديد من علماء الدين الكاثوليك المحدثين لا يجدونه متجانساً روحاً وطبعاً ، فأنه مع ذلك يعرف في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية كفيلسوفها ولاهوتيها الغربي الاول . شملت مؤلفاته الفلسفة واللاهوت ، من بين أبرزها : «الخلاصة اللاهوتية» : وهي عرض شامل للعقيدة المسيحية ، وفقاً لمنهج علمي دقيق ، وهي موجهة إلى المؤمنين ليتبنوا حقيقة إيمانهم من ناحية صدوره عن الوحي غير المخالف للعقل . أنظر : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، تر : فؤاد كامل وآخرون ، مراجعة : زكي محمود نجيب ، القاهرة ، مؤسسة طباعة الالوان المتحدة ، ١٩٦٣ ، ص ص ٦٣-٦٩ ؛

Encyclopedia Britannica, CD., 2010.

(١) الإستقراء Induction : هو تعميم أو إصدار حكم كلي إعتماداً على ملاحظة حالات جزئية . والإستقراء شكل من أشكال الإستدلال ينطلق من قضايا جزئية للوصول إلى قضية كلية . وهو إستدلال لا يفيد يقيناً تاماً إلا إذا كان الإستقراء تاماً أما فيما عدا ذلك فإنه يبقى في حدود تصفح حالات جزئية لا يأتي عليها جميعاً وبالتالي تكون النتيجة غير يقينية . وبصفة عامة فإن كل الاحكام الكلية التجريبية هي أحكام إستقرائية بإعتبار أن التجربة لا تقع إلا على ما هو جزئي . ويمكن أن نقابل بين الإستقراء والإستنباط أو الإستنتاج ، إذ الإستنباط هو إستدلال ينطلق من العام إلى الخاص أو من الكلي إلى الجزئي . أنظر :

Encyclopedia Britannica, CD., 2010; Nix & Paris, C. J. & J. B., A Note on Binary Inductive Logic, *Journal of Philosophical Logic*, Springer, Vol.36, No.6 (Dec., 2007), pp.735-771.

(2) Royle, Victorian, pp.9-10.

Rene Descartes[١] في القرن السابع عشر ، حينما إبتدأ بعقل الانسان الفردي ، حيث أفترض بأن هناك مبادئ أو صفات أولية محددة للمعرفة الذاتية أو الفطرية ؛ وهناك تناقضاً بين الروح والمادة[٢] ، وإن واحدة من أهداف العقلانيين إنصبت على سبل التوفيق بينهما[٣] . فقد هاجم جون لوك John Locke[٤] المبادئ الديكارتية

---

(١) رينيه ديكارت (١٥٩٦-١٦٥٠) : فيلسوف فرنسي وعالم ورياضي . تعلم في المدرسة اليسوعية ، وفي جامعة بواتييه ، وخدم في الجيش ، وأقام في هولندا للبحث والتأمل ، ثم لبى دعوة ملكة السويد ، لكنه مات بعد وصوله إلى السويد بقليل . لديه العديد من الانجازات في المجال الرياضي ، وأبتكر الهندسة التحليلية ، ثم حاول تطبيق المنهج الرياضي على الفلسفة ، وأقام فلسفته على الشك المنهجي ، فشك في معارفه جميعاً ، لكنه وجد أن ثمة شيئاً لا يقبل الشك ، وهو حقيقية كونه يشك ، ولما كان الشك تفكيراً ، فهو موجود لانه يفكر ؛ بهذا إنتهى ديكارت إلى عبارته المأثورة : «أنا أفكر فإذن أنا موجود» ومن هذه البداية اليقينية ، إنتقل إلى إثبات وجود الرب ، ثم إثبات وجود العالم . وديكارت ثنائي ، يفصل بين الفكر والمادة ، اللذين لا يتصلان إلا بتدخل الرب . إمتد تأثيره فيمن جاء من بعده ، حتى ليسمى عادة بأبي الفلسفة الحديثة . وقواعده في البحث عن الحقيقة كانت في الواقع أساساً للتربية الحديثة التي تهدف إلى تدريب العقل على التفكير المنظم الحر . أنظر : غربال واخرون ، محمد شفيق ، الموسوعة العربية الميسرة ، بيروت ، دار نهضة لبنان للطبع والنشر ، ١٩٨٧ ، م١ ، ص ٨٣٤ ؛ الموسوعة الفلسفية المختصرة ، ص ص ١٣٨-١٤٦ .

(2) Stephen, Leslie, English Thought in the Eighteenth Century, London, Smith, Elder & Co., 1876, Vol.I, pp.19-33;

ولقراءة معمقة لاعمال وفلسفة ديكارت . أنظر : برهييه ، أميل ، تاريخ الفلسفة ، ط٢ ، تر : جورج طرابيشي ، بيروت ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، ١٩٩٣ ، ج٤ ، القرن السابع عشر ، ص ص ٦٣-١٣٤ ؛ بلدي ، نجيب ، ديكارت ، ط٢ ، القاهرة ، دار المعارف ، بلا .ت ، سلسلة نوابغ الفكر الغربي- رقم ١٢ ؛ فضل الله ، مهدي ، فلسفة ديكارت ومنهجه : دراسة تحليلية ونقدية ، ط٣ ، بيروت ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، ١٩٩٦ .

(3) Royle, Victorian, p.10.

(٤) جون لوك (١٦٣٢-١٧٠٤) : فيلسوف تجريبي ومفكر سياسي إنكليزي ، تعلم في أوكسفورد وحاضر بها . مؤلفه المشهور : «مقالة في الفهم البشري» ١٦٨٩-١٦٩٠ ، وأخذت شهرته تزداد حتى عرف في أوربا كلها بأنه نصير الحرية ، وله «رسالة في التسامح» في عام ١٦٨٩ و«رسالتان عن الحكومة» =

تلك ، من خلال تحدي إحتمالية الافكار الفطرية . وحتى إزاء فكرة وجود الرب ، جادل لوك بالقول بأن هذه الفكرة هي ليست غريزية وإنما متولدة من الانطباعات الحسية ، المخزونة في الذاكرة التي ينظمها العقل . ولهذا فإن الافكار ، طبقاً للوك ، لا تنطوي على معرفة فطرية وإنما تعتمد على الدليل الخارجي ، وكان أقوى وأكبر شاهد في مصلحة المسيحية قد تمثل بالمعجزات[1] . في حين أن لوك عرض هذا الامر بوصفه دفاعاً عقلانياً وعلمياً عن إيمانه ، بيد أن ضعف حجته جعلت الاخرين يخوضوا غمار هذه المسألة على نحو مخالف لما أراده لوك . فقد كان الايمان بالرب المرتكز على دليل خارجي قد خلق إحتمالية حدوث فكرة متناقضة عن تلك التي

= في عام ١٦٩٠ . أكثر شهرته مستندة إلى نظريته السياسية ، فهو ، على العكس من الفيلسوف الانكليزي توماس هوبز (١٥٨٨-١٦٧٩) ، رأى في حالة الفطرة أن الانسان يكون سعيداً وموسوماً بالحكمة والتسامح ، ويكون الناس جميعاً سواسية ومستقلين . وليس لاحد أن يؤذي غيره في حياته وصحته وأملاكه وحريته . ثم تعاقد الناس مختارين على إقامة الدولة ، لتعمل على الاساس الفطري نفسه ، فتتكفل للافراد حريتهم وثمار مجهوداتهم ، وإذا حادت الدولة عن مهمتها لم تكن الثورة عليها حقاً للافراد فحسب ، بل واجبٌ عليهم . ولقد أخذت عنه الثورة الامريكية مبادئها . ويعد من كبار رواد المدرسة التجريبية الانكليزية . أنظر : غربال وآخرون ، المصدر السابق ، م٢ ، ص ١٥٧٨ ؛ إسلام ، عزمي ، جون لوك ، القاهرة ، دار المعارف بمصر ، سلسلة نوابغ الفكر الغربي- رقم ١٦ ، ١٩٦٤ .

(1) Stephen, English Thought, Vol.I, pp.36-38, 100-101;

شوفالييه ، جان جاك ، تاريخ الفكر السياسي ، ط٥ ، تر : محمد عرب صاصيلا ، بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ٢٠٠٦ ، م١ ، ص ص ٣٦٨-٣٩٠ ؛ لوك ، جون ، الحكومة المدنية وصلتها بنظرية العقد الاجتماعي لجان جاك روسو ، تر : محمد شوقي الكيال ، مطابع شركة الاعلانات الشرقية ، بلا .ت ، سلسلة أخترنا لك- رقم ٨١ ، ص ص ١٣-٢٢ ؛ لوك ، جون ، رسالة في التسامح ، ط١ ، تر : عبد الرحمن بدوي ، بغداد ، مطبعة سرور ، ٢٠٠٦ ؛ برهييه ، المصدر السابق ، ج٤ ، القرن السابع عشر ، ص ص ٣٢٤-٢٤٤ ؛

Yeates, Owen Dennis, Tolerating on Faith: Locke, Williams, and The Origins of Political Toleration, Doctor Dissertation Submitted in Department of Political Science in The Graduate School- Duke University, 2007.

يعكسها الكتاب المقدس ، وإن الاحتكام إلى المعجزات في هذه المرحلة كان بمثابة التسليم بأن قوانين الطبيعة غير ذات تأثير شمولي . وبطريقة أو بأخرى فإن نظرية لوك عن الافكار شكلت الاساس الذي إرتكزت عليه الكثير من رؤى الفكر الحر في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر(١) .

تمثل التأثير الثاني الكبير على الفكر في بواكير النقد العقلاني بالفلسفة الجديدة التي إرتبطت بإسمي فرنسيس بيكون Francis Bacon(٢) وإسحاق نيوتن Isaac Newton(٣) . إذ أدى منهج البحث العلمي الخاص بالملاحظة والاستقراء ، إلى إظهار وكشف القوانين الفيزيائية للكون ، وبالتالي جذب إنتباه العقول المثقفة والشعبية على حد سواء وعلى نحو كبير لهذا الأسلوب بإعتباره منهجاً ملائماً لكل المعارف .

---

(1) Royle, Victorian, p.10.

(٢) فرنسيس بيكون (١٥٦١-١٦٢٦) : فيلسوف وعالم ومحام وخبير قانوني إنكليزي . تمحور دوره العظيم في (المنهج التجريبي الجديد) الذي أنهى به عهد الفلسفة الاسكولائية (فلسفة العصر الوسيط : القائمة على اللاهوت المدمج مع الفلسفة الارسطية) ، ليبدأ عهد العلم الطبيعي الحديث ، إذ كان السائد هو القياس الارسطي الذي لا ينتج علماً جديداً ، لان النتيجة تضمنته في المقدمات . أما بيكون فمذهبه قائم على الملاحظة والتجربة ، ومنهج الاستقراء . وأهم كتبه : «أطلنتس الجديدة» و«تقدم وترقية العلم» . أنظر : برهييه ، المصدر السابق ، ج٤ ، القرن السابع عشر ، ص ص ٣١-٦٠ ؛
Encyclopedia Britannica, CD., 2010; Scott, Mary Agusta, The Essays of Francis Bacon, New York, Charles Scribner's Sons, 1908.

(٣) إسحاق نيوتن (١٦٤٣-١٧٢٧) : عالم طبيعي ورياضي وفلكي وفيلسوف ولاهوتي إنكليزي . يعد من أعظم علماء القرن الثامن عشر في الفيزياء والرياضيات ، وله تجارب خاصة بالضوء ، ومن أبرز أعماله وضعه لقانون الجاذبية العام وقوانين الحركة ، حيث يعد كتابه : «المبادئ الرياضية للفلسفة الطبيعية» عام ١٦٨٧ من أكثر الكتب تأثيراً في تاريخ العلم ، لانه وضع الاساس لمعظم نظريات الميكانيكا الكلاسيكية ، أزال الشكوك المتبقية التي ثارت حول نظرية مركزية الشمس مما أدى إلى تقدم الثورة العلمية . أنظر :
Encyclopedia Britannica, CD., 2010; Brewster, David, The Life of Sir Isaac Newton, New York, Harper & Brothers, 1836.

وحينما حاول جورج بيركلي George Berkeley[1] ، دحض نظرية لوك الخاصة بالأفكار ، كان الذي إستطاعه هو البحث فقط في مجال المبدأ الديكارتي الثنائي ، الذي يفصل ما بين الفكر والمادة . وبدلاً من ذلك جادل بيركلي بالقول إنه لا يمكن أن يتواجد أي شيء مالم يدرك أو يكون محسوساً ، وعليه فإن الافكار لا وجود لها إلا في العقل . وهكذا ، أفعال العقل على المادة هي في الواقع قوة الافعال على الذرة ، وأن العقل العظيم الذي يقف خلف الكون برمته ، يرعاه ويعطيه تماسكه ، هو الرب[2] .

كانت هذه هي الفكرة الاساسية التي دارت في نطاق النقد العقلاني في مرحلته الاولى ؛ حيث صُوّر الكون كوحدات مؤتلفة لمادة خامدة تحكمها قوى تعمل لاجلها . وعليه فإن كل تأثير له علته ، وإن المحرك الرئيس للكون هو الرب . ولذا فإن البرهنة على وجود وطبيعة الرب مرهونة بالدراسة العلمية للخلق ، التي ستقود بطبيعة الحال الباحث إلى الخالق . ولخص الكسندر بوب Alexander Pope[3] بعناية هذا

---

(١) جورج بيركلي (١٦٨٥-١٧٥٣) : أسقف إنكليكاني من أصول إنكليزية- إيرلندية ، وفيلسوف وعالم عرف بفلسفته التجريبية . أكد بأن كل شيء يمتلك وجوداً روحياً بقدر ما هو مدرك بالاحاسيس . وإدعى إنه لا يوجد شيء إسمه مادة على الإطلاق وما يراه البشر ويعتبرونه عالمهم المادي لا يعدو أن يكون مجرد فكرة في عقل الرب . من مؤلفاته : «محاولة نحو نظرية جديدة للرؤية» عام ١٧٠٩ . أنظر : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، ص ص ٧٧-٨٣ ؛ خليفة ، فريال حسن ، فكرة الالوهية في فلسفة باركلي ، ط١ ، بلا .م ، مكتبة الجندي ، ١٩٩٧ ؛

Encyclopedia Britannica, CD., 2010.

(2) Stephen, English Thought, Vol.I, pp.40-43.

(٣) الكسندر بوب (١٦٨٨- ١٧٤٤) : شاعر إنكليزي من أشهر الشخصيات الادبية في القرن الثامن عشر ، أشتهر بمقاطع شعرية ساخرة وبترجمته لهوميروس . بدأ دراسة الشعر والنقد الادبي مبكراً . نشرت قصيدته الشعرية : «مقالة في النقد An Essay on Criticism» عام ١٧١١ ، وفيها حدد الاذواق والمقاييس النقدية . له قصائد تدل على عمق في الشعور وصدق فائق في التعبير . ومن بين أعماله المعروفة أيضاً ترجمته للالياذة والاوديسا ، وقصيدته الفلسفية «مقالة عن الانسان An Essay on Man» عامي ١٧٣٣-١٧٣٤ . أنظر :

Encyclopedia Britannica, CD., 2010.

الجدل في «مقالة عن الانسان An Essay on Man (١٧٣٣-١٧٣٤)» :

قل أولاً ، الرب أعلاه ، أو الانسان أدناه ،
ما الذي نقدر على إدراكه ، لكن ما الذي نعرفه؟
وللانسان ، ما الذي نراه نحن لكن مكانه هنا ،
فلمَ الادراك ، أو إلى ماذا يشير؟[١]

لقد تمركز هذا الدين على الانسان والعقل ، وكان بعيداً كل البعد عن المسيحية التي قسمت أوربا لاكثر من قرن بفعل الحروب الاهلية والدينية . وإن بداهة التنزيل ، والرب المتجسد بإنسان ، الذي كان المخلّص أيضاً ، سرعان ما أستبدل بمفهوم لا يمت إلى التجسيد . وعلى الرغم من ذلك ، إستمر بعض المسيحيين المدافعين عن المسيحية أمثال صموئيل كلارك[٢] Samuel Clarke ، بالتأكيد على أهمية الوحي ، بل وأعترفوا عموماً بالاساس المتين للربوبيين[٣] فيما بعد ، ذلك أن كلاً من الكُتاب المسيحيين

---

(1) Roscoe, William, The Works of Alexander Pope, London, Harvard College Library, 1824, Vol.V, p.30.

(٢) صموئيل كلارك (١٦٧٥-١٧٢٩) : لاهوتي وفيلسوف إنكليزي ونصير علم الطبيعة النيوتيني . أشتهر بتأثيره في علم اللاهوت والفلسفة الانكليزية خلال القرن الثامن عشر . أعتقد بأن المسيح ليس بشراً كاملاً ولا إلهاً كاملاً . كان صديقاً وتابعاً لاسحاق نيوتن في جامعة كامبردج ، وساهم في نشر مفاهيم نيوتن ، وبالتالي عارض الجو الفكري الديكارتي الذي كان سائداً في كامبردج . نشر «برهنة في وجود الرب وصفاته» عام ١٧٠٥ ، والذي هاجم فيه منكري الدين الطبيعي والدين المنزل . أنظر : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، ص ص ٢٥٧-٢٥٨ ؛

Clarke, Samuel, A Demonstration of The Being and Attributes of God, London, Elibron Classics, 2005; Encyclopedia Britannica, CD., 2010.

(٣) الربوبية : تعريب لكلمة Deism والمشتقة من الكلمة اللاتينية رب Deus . وهي مذهب وفلسفة أطلق عليها (الدين الطبيعي) تؤمن بوجود خالق عظيم خلق الكون وبأن هذه الحقيقة يمكن الوصول إليها بإستخدام العقل ومراقبة العالم الطبيعي وحده دون الحاجة إلى أي دين . معظم الربوبيون يميلون إلى رفض فكرة التدخل الإلهي في الشؤون الإنسانية كالمعجزات والوحي ، إذ رفضت الربوبية فكرة إن الاله كشف نفسه للإنسانية عن طريق كتب مقدسة ، وترى ضرورة وجود خالق للكون والإنسان ، وهم يختلفون بذلك عن الملحدين أو اللاربوبيين بينما يتفقون معهم في اللادينية . برزت الربوبية =

وغير المسيحيين سلموا بصحة مزايا الدين الطبيعي والعقلاني[(١)] . وإن إستمرار هذا التقليد أو هذه المدرسة الفكرية في النقد العقلاني كان مرهوناً ، إلى حد ما ، أو مرتكزاً في كثير من جوانبه على ما طوره كل من توماس هوبز Thomas Hobbes[(٢)]

= في القرنين السابع والثامن عشر ؛ أذ وجدت تعبيرات هذا التوجه عند الكُتاب الانكليز وبدايةً مع أدوارد هربرت Edward Herbert (١٥٨٣-١٦٤٨) في النصف الاول من القرن السابع عشر . أنظر :

Berrow, Capel, Deism Not Consistent With The Religion of Reason and Nature, London, Pall.Mall, 1780; Hefelbower, S. G., Deism Historically Defined, *The American Journal of Theology,* The University of Chicago Press, Vol.24, No.2 (Apr., 1920), pp. 217-223; Lovejoy, O., The Parallel of Deism and Classicism, *Modern Philology*, The University of Chicago Press, Vol. 29, No. 3 (Feb., 1932), pp.281-299.

(1) Royle, Victorian, p.11.

(٢) توماس هوبز (١٥٨٨-١٦٧٩) : فيلسوف وعالم ومؤرخ إنكليزي ، أشتهر من خلال مؤلفه عن الفلسفة السياسية المعنون : «اللفيثان أو الوحش Leviathan» الصادر عام ١٦٥١ ، والذي كان بمثابة كناية عن سطوة الدولة وقدرتها ، كما دافع فيه أيضاً عن حكم الملوك المطلق . وقال بحياة فطرية سابقة على نشأة الجماعة ، ولكنها حياة فوضى وصراع إضطر الافراد معها إلى التعاقد لانشاء الجماعة السياسية . وهذا التعاقد تم فيما بينهم ، وإختاروا بمقتضاه حاكماً لم يكن طرفاً في العقد ، ولم يرتبط لذلك تجاههم بشيء ، وخصوصاً إن الافراد تنازلوا بالعقد عن جميع حقوقهم الطبيعية . وترتب على ذلك إن سلطان الحاكم غير مقيد بشيء ، وهو الذي يضع القوانين ويعدلها حسب مشيئته . ومع ذلك إشترط العقد أن يوفر الحاكم لشعبه ثلاثة أمور هي : الامن والغذاء (أو ما يعرف بتحقيق الرخاء) والانصاف (أو تحقيق العدالة) ، وإذا أخفق في توفيرها يحق للمحكومين (الافراد فقط وليس المجتمع) المقاومة المشروطة حينما تتهدد حياتهم فقط . وفلسفة هوبز تجريبية ترد المعلومات إلى الخبرة الحسية وما يحدث لها من روابط . أنظر الدراسة الشاملة عن هوبز : أمام ، أمام عبد الفتاح ، توماس هوبز فيلسوف العقلانية ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ١٩٨٥ ؛

Doyle, Phyllis, The Contemporary Background of Hobbes' "State of Nature", *Economica*, Blackwell Publishing on Behalf of The London School of Economics and Political Science, No.21 (Dec., 1927), pp.336-355; Milner, Benjamin, Hobbes: On Religion, *Political Theory*, Sage Publications, Inc., Vol.16, No.3 (Aug., 1988), pp.400-425.

وجون لوك في ميدان نقد الفكر الديني وتطوير النزوع العلماني في الفكر الانكليزي تحديداً .

ثانياً: الفكر المدني عند توماس هوبز وجون لوك وأثره في وضع أساس المجتمع العلماني المدني الاول في الفكر الانكليزي

تعد رؤية وطروحات المفكرين الانكليزيين توماس هوبز وجون لوك بشأن المجتمع المدني العلماني ، خير مثال على أسبقية الفكر الانكليزي ليس في رسم ملامح علاقة الدولة بالدين فحسب بل في تحديد أبعاد كل مؤسسة ودور كل منها في إطار بناء الدولة المدنية الحديثة المفترضة وفق متطلبات المرحلة الزمنية التي عاشها كلاهما . وبناءً على ذلك ، كان البناء الثقافي الذي إرتآه كل من هوبز ولوك للمجتمع المدني هو ثقافة إنسانية مدنية تتسم بطابع العقلانية في مختلف جوانبها .

لقد إرتكز البناء الثقافي للمجتمع المدني عند هوبز على الفلسفة المادية والعقلانية والعلم والفضائل المدنية المستمدة من القانون الطبيعي ، حينما أكد بأن الاخلاق ومفاهيم الخير والشر والفضيلة والرذيلة ستغدو كلها محددة بالقانون المدني ؛ ولا هدف للاخلاق إلا المنفعة وأهم المنافع هي السلام والامن والحياة الطيبة . وبهذا فلا فاعلية للدين في النسق الثقافي إلا بما تأمر الدولة ، ليضحى الكومنويلث Commonwealth (حكومة الصالح العام) أو السلطة الحاكمة كما اشار لها هوبز في كتابه «الوحش The Leviathan»[(١)] ، هي المقررة للمبادئ الدينية في المجتمع . فلم يحافظ هوبز على الطابع الديني للمجتمع ، إذ حجَّم من دور المؤسسات الدينية وشل فاعليتها وقوتها السياسية بهدف الاحتفاظ بسلطة الدولة وسيادتها ممثلة بسلطة واحدة قوية ، حتى لا يحدث إزدواج في السلطة يسهم في إضعاف قوة الدولة وينال من

---

(١) لقراءة مفصلة عن هذا الكتاب ، أنظر : هوبز ، توماس ، اللفياثان : الاصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة ، ط١ ، تر : ديانا حبيب حرب & بشرى صعب ، مراجعة وتقديم : د . رضوان السيد ، أبو ظبي ، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة) ، ٢٠١١ ؛

Martinich, A. P., The Two Gods of Leviathan: Thomas Hobbes on Religion and Politics, Cambridge, Cambridge University Press, 2002; Hull, Gordon, Hobbes and The Making of Modern Political Thought, London, MPG Books Group, 2009, pp.118-123.

سيادتها من جهة ، ويتمزق المواطن بالتالي بين سلطتين من جهة أخرى . ولهذا فإن هوبز ، أراد على المدى الطويل ، علمنة المجتمع حينما يعتاد الناس أن يروا أن كل تعليم وأمر ديني لا يصدر إلا من الدولة ، وعليه ما سيبقى من الدين ونواهيه سوف تشرعه الدولة بقانون مدني[١] .

ومن أجل تسويغ الثقافة المدنية وإضفاء شرعية العقل عليها بوصفها مطلباً ضرورياً مقترناً ببناء النسق الاجتماعي الجديد ، أخذ هوبز يفكك المدارس الفكرية الفلسفية والدينية من أجل إعطاء بعد علمي رصين للمجتمع المفترض . حيث إبتدأ بنقد الثقافة المدرسية ، ووقف وراء ذلك تحقيق أمرين ، الاول : هدم الفلسفة المدرسية Scholasticism Philosophy[٢] ، لكونها المسؤولة عن إشاعة الخرافة بين البشر بما

---

(١) خليفة ، فريال حسن ، المجتمع المدني عند توماس هوبز وجون لوك ، ط١ ، القاهرة ، مكتبة مدبولي ، ٢٠٠٥ ، ص ٧٣ ؛ سباين ، جورج ، تطور الفكر السياسي ، تر : راشد البراوي ، تقديم : أحمد سويلم العمري ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠١٠ ، الكتاب الثالث ، ص ص ٢٠٤-٢٠٥ .

(٢) أو الفلسفة الاسكولائية : وهي الفلسفة التي اتصلت فيها التقاليد الدينية بالفلسفة اليونانية إتصالاً تاماً ، وكان العامل الفلسفي الرئيس في كل حالة هو النصوص الارسطية بمصاحبة تيار غامض من الافلاطونية الجديدة التي أثرت على تفسير أرسطو . وتتلخص روح فلسفة العصر الوسيط أحياناً في الجملة التي تتحدث عن الفلسفة بإعتبارها خادماً للاهوت ، إذ كان كبار فلاسفة العصر الوسيط في الوقت الذي يصرون فيه سلفاً على صدق المسيحية ، كانوا يبحثون في حماس وإصرار عن أي ضوء يمكن القاؤه على رأيهم عن العالم بما يمكن أن يستعيدوه من الفلسفة اليونانية . ونتيجة لذلك لا ينتج علماً جديداً ، لان النتيجة تضمنته في المقدمات . كما أطلق عليها بالمدرسية لانها تدل على الفلسفة التي تدرس في المدارس في القرون الوسطى . ومن هنا فإن لفظ مدرسي يطلق على كل من يدرس في المدارس في القرون الوسطى ، أو على من حصّل جميع المعارف التي كانت تدرس في المدارس أنذاك . ونشأت هذه المدارس أولاً في عهد شارلمان ، وتطورت المعرفة فيها إبتداءً من القرن الثاني عشر ، حينما تمت ترجمة كتب أرسطو إلى اللاتينية عن طريق العربية والعبرية ، وعرفت في القرن الثالث عشر جميع كتب أرسطو . وهناك من جعل الفلسفة المدرسية تمتد فلا تنتهي في القرن الثالث عشر وإنما تصل لغاية القرن التاسع عشر . أنظر : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، ص ص ٢٣٦-٢٣٨ ؛ بدوي ، عبد الرحمن ، فلسفة العصور الوسطى ، ط٣ ، بيروت ، دار القلم ، ١٩٧٩ ، ص ص ٤٣-٤٥ ؛ رسل ، برتراند ، حكمة الغرب ، تر : فؤاد زكريا ، الكويت ، سلسلة كتب عالم =

أقامته من خلط بين أفكار أرسطو والدين ، والثاني : كشف أثر الفلسفة المدرسية في إضعاف سلطة الدولة السياسية ، وتمزيق المواطن بين سلطتي الكنيسة والدولة[1] .
وفي سبيل الامعان في نقد الاساس المعرفي للفلسفة المدرسية ، كان لدى هوبز منهجٌ للنقد وأساس معرفي مسبق ، وتجلى ذلك حينما أثار تساؤلاً عن معنى الفلسفة؟ والذي أجاب عنه بالقول : «**بأن الفلسفة معرفة مكتسبة عن طريق الاستدلال بإستنباط أي شيء عن الصفات أو من الصفات . وطريقة الاستنباط الممكنة من الصفات عينها تكون في النهاية قادرة على إنتاج تلك المعلومات بوصفها مطالب للحياة الانسانية بقدر ما تسمح المادة والقوة الانسانية**»[2] .

وعكس هذا التعريف عند هوبز شيئين ، الاول : إن الفلسفة معرفة مكتسبة ، والثاني : هو أن منهج الفلسفة هو الاستنباط ، أي إستنباط المعلومات من العللِ أو العكس . ومعنى أن تكون الفلسفة مكتسبة ينكر على الفطنة أن تكون جزءً من الفلسفة ، لأن الفطنة تعتمد على خبرات مضت وليس على الاستدلال ، وكذلك

= المعرفة- رقم ٦٢ ، ١٩٨٣ ، ج١ ، ص ص ٢١٣-٢٥٨ ؛

Rickaby, Joseph, Scholasticism, London, Archibald Constable & Co. Ltd, 1908; Wulf, M. De, Scholasticism Old and New: An Interoduction to Scholastic Philosophy Medieval and Modern, Translated By: P. Coffey, Dublin, M. H. Gill & Son, Ltd., 1907.

(١) إمام ، توماس هوبز ، ص ٤٢٦ ؛

Langholm, Odd, The Legacy of Scholasticism in Economic Thought: Antecedents of Choice and Power, First Published, Cambridge, Cambridge University Press, 1998, p.156; Letwin, Shirley Robin, Hobbes and Christianity, *Daedalus*, The MIT Press on Behalf of American Academy of Arts & Sciences, Vol.105, No.1 (Winter, 1976), pp.1-21.

(2) Smith, Pogson, Hobbes's Leviathan, Second Edition, Oxford, Oxford University Press, 1929; Lubienski, Z., Hobbes' Philosophy and Its Historical Background, *Journal of Philosophical Studies*, Cambridge University Press on Behalf of Royal Institute of Philosophy, Vol.5, No.18 (Apr., 1930), pp.175-190;

خليفة ، المجتمع المدني ، ص ٧٤ .

الوحي المتجاوز للطبيعة ، وتعاليم الكتب المقدسة لان ما يعرفه الانسان بالوحي لا يكون إستنباطاً من المعلول إلى العلة ، ولا من العلة إلى المعلول لانه لا يكون معرفة بل يكون إيماناً . وعلى هذا الاساس الذي إرتكز عليه هوبز في تفسير معنى الفلسفة ومنهجها ، شدد على تأكيده في كتابه «الوحش» على ظلام الفلسفة العقيمة والتقاليد الخرافية ، مشيراً إلى أن الفلسفة المدرسية المختلطة بفلسفة أرسطو هي في حقيقة أمرها خيالية ولعب بكلمات لا معنى لها ، حينما ذكر : «**الكلمات لا يكون لها معنى إلا عندما تقترن بصفات الحس أو الشعور بصورة مباشرة أو غير مباشرة وصفات الحس أو الشعور ناتجة فينا عن حركات الاجسام الفاعلة في جسمنا . . . ولما كان لدى الناس قدرة على إستخدام الاشارات أطلقوا أسماء على خيالاتهم ، وبعض الاسماء تكون كلية تدل على التشابه في صفة ما ، لذلك فنحن عرضة لان نتعثر بالكلمات مالم ننتبه بعناية إلى تعاريفها**»[١] .

ولهذا إعتبر هوبز إن إفتراض كلمات وأسماء مجردة تدل على ماهيات موجودة على نحوٍ مستقل عن الاجسام هو منبع يفيض بالاخطاء الفلسفية ، وعدها أخطاء دخلت إلى الدين من ميتافيزيقيا أرسطو وإختلطت بالكتاب المقدس ، حينما شكلت الالهيات المدرسية (أو اللاهوت المدمج مع الفلسفة الارسطية) ، وأُقر وجود عالم الماهيات اليقينية عالم منفصل عن الاجسام ، والذي أُطلق عليه الماهيات المجردة أو الصور الجوهرية ، حيث عّد هوبز أخذ الكنيسة بهذه الآراء أساس الظلام اللاهوتي المؤكد بإقرارها الاشباح والارواح والشيطان[٢] . كما إنتقد هوبز تصورات المدرسيين في الفلسفة الطبيعية ، إذ رأها فلسفة باطلة فضلاً عن إنتقاده فلسفتهم الاخلاقية ،

---

(١) خليفة ، المجتمع المدني ، ص ص ٧٤-٧٥ ؛

Stephen, Leslie, Hobbes, London, Macmillan & Co., Limited, 1904; Chabot, Dana, Thomas Hobbes: skeptical Moralist, *The American Political Science Review*, American Political Science Association, Vol.89, No.2 (Jun., 1995), pp.401-410.

(2) Greach, Peter, The Religion of Thomas Hobbes, *Religious Studies*, Cambridge University Press, Vol.17, No.4 (Dec., 1981), pp.549-558;

خليفة ، المجتمع المدني ، ص ٧٥ .

حيث لم يرَ فيها إلا جملة أفكار متناقضة ، حينما قال : «**يتخذون من الرب السبب الاول لكل شيء ، وإذا فعل الانسان فعل الظلم ، يقولون إنه فعلٍ مضاد للقانون ، وعلى الرغم من أن الرب هو السبب الاول للقانون وهو أيضاً السبب الاول لكل الافعال الاخرى يقولون أن الرب ليس سبباً للظلم على الاطلاق ، فالظلم هو عدم توافق الفعل مع القانون . . . وإدّعوا إن ذلك مبدأ الارادة الحرة ، وكأن إرادة الانسان ليست خاضعة لارادة الرب . فكيف يتسق هذا والقول بأن الرب فاعل كل شيء؟**» . وفي خاتمة كتابه ، أورد هوبز فصله الاخير في «الوحش» تحت عنوان : «مملكة الظلام» ، وتكلم فيه عن الارواح الشريرة والخوف من الشيطان ، وعن المغانم التي يجنيها الكهنة من وراء ذلك ، حيث أشار إن أصل الدين هو القلق الانساني : «**الخوف من قوة غير منظورة ، سواء كانت وهماً من أوهام الفكر أو كانت مما يتخيله المرء عموماً ، ذلك هو الدين**»[(١)] .

أما فيما يتعلق بالفضائل المدنية التي أوردها هوبز في معرض حديثه عن ملامح المجتمع المدني وطبيعة العقد ؛ فقد أكد على إن الاحترام والتعاون هي فضائل مدنية من العقد ، فضلاً عن أشكال أخرى للفضيلة المدنية (أو قوانين أخرى للطبيعة) مفيدة في خلق روح التماسك والتناغم في المجتمع ، ومنها الامتنان والشكر وإرادة الخير والرضا والعفو . وذكر إنه يجب أن ينشر البشر ويذيعوا الشكر والاعتراف بالفضل والامتنان عندما يفعل الاخرون لهم الشيء نفسه ، وبدون توقع أي شيء . حيث أمِلَ في خلق ثقافة مدنية خالية من التصور العدائي بين البشر ، حينما يساعد الامتنان والشكر على تحقيق هذه الغاية : «**لاننا إذا رفضنا أن ننسب الإرادة الخيرة للذين يغدقون الهبات علينا فإننا لن نجد أساساً لتدعيم الثقة أو الاريحية بين البشر ، وبهذا الاعتبار يجب أن تظهر نحو الاخرين فضيلة الرضا . . . فهذه**

---

(١) توشار ، جان ، تاريخ الفكر السياسي ، ط٢ ، تر : علي مقلد ، بيروت ، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٣ ، ص ٢٦٠ ؛ إمام ، توماس هوبز ، ص ٤٣٠-٤٣١ ؛

Stillman, Robert E., Hobbes's "Leviathan": Monsters, Metaphors, and Magic, ELH, The Johns Hopkins University Press, Vol.62, No.4 (Winter, 1995), pp.791-819; Strauss, Leo, Hobbes's Critique of Religion and Related Writings, Translated and Edited By: Gabriel Bartlett & Svetozar Minkov, Chicago, The University of Chicago Press, 2011, pp.53-61.

الفضيلة تجعله أقدر على تقبل التباين الواسع للمنافع والمصالح والحاجات . . . يجب أن يتعلموا العفو عن الاخرين عما صدر منهم في السابق ، ويتغلبوا على إغراء الانتقام على أخطاء الماضي . . . بل إن البشر لا يمكنهم أن يؤمّنوا السلام في المجتمع إلا عندما يوافق كل فرد على أن يعامل كل فرد آخر بوصفه مساوياً له ، أي إن الكل متساوون ، وإبطال هذا المبدأ هو رذيلة الغرور»(١) .

لقد إفترض هوبز بأن التزام البشر بهذه الفضائل المدنية يعلمهم التعامل مع خلافاتهم ونزاعاتهم من خلال وسائل سلمية . ففي المواقف التي يختلف الافراد فيها في الرأي ويسقطون في تعارض بشأن ما إذا كان فعل معين مسموحاً به بموجب قانون الطبيعة ، الذي يقبله المواطن ، ولا يستطيع أن يكون هو القاضي في حالة شموله هو نفسه ، لذلك يجب أن يضع البشر ثقتهم في طرف ثالث محايد هو الدولة ، التي يفترض إنها تستطيع أن تعامل كل فرد بإنصاف وعدل(٢) .

أما لوك فقد إرتكزت أفكاره المدنية على الفلسفة التجريبية والعقل ، وإقترانهما معاً يفضي إلى أن كل حقيقة ستغدو حقيقة إنسانية محددة بالعقل وقدراته المعرفية ، وبذلك يكون للفضائل المدنية اساس معرفي كما في فضيلتي التسامح والاحترام وغيرهما من الفضائل المدنية . ودافع عن العقل والحقيقة الانسانية بالضد من حماة الحقيقة المطلقة آنذاك ، عبر زوايا مختلفة في كل مؤلفاته ، وكان محور الارتكاز هو نظرية المعرفة الانسانية التي قدمها للبشرية في مؤلفه : «مقالة في الفهم البشري» ، وهي النظرية ذاتها التي أشار إليها في معرفة قانون الطبيعة تحت مسمى «نور الطبيعة» على ما جاء في «رسائل قانون الطبيعة» . حيث أكد أن كل ما يدركه الانسان من

---

(١) خليفة ، المجتمع المدني ، ص ص ٧٨-٧٩ ؛ ديلو ، ستيفن م . ، التفكير السياسي والنظرية السياسية والمجتمع المدني ، ط١ ، تر : فريال حسن خليفة ، القاهرة ، مكتبة مدبولي ، ٢٠٠٨ ، ج ٢ ، ص ٣٠ ؛ إهرنبرغ ، جون ، المجتمع المدني : التاريخ النقدي للفكرة ، ط١ ، تر : علي حاكم صالح & حسن ناظم ، بيروت ، المنظمة العربية للترجمة ، ٢٠٠٨ ، ص ص ١٤٩-١٥٣ .

(2) Ward, Ian, Thomas Hobbes and The Nature of Contract, *Studia Leibnitiana*, Franz Steiner Verlag, Bd.25, H.1 (1993), pp.90-110;

ديلو ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ص ٣٠-٣١ .

حقائق محدود بالخبرة الحسية والاستدلال العقلي ، ولا يستطيع الانسان أن يدعي معرفة أي حقيقة بمعزل عن الخبرة الحسية والعقل ؛ وهما الطريق لادراك الحقائق المادية والروحية والاخلاقية ، وكل ما يدركه الانسان من خلال هذه القدرات الطبيعية هو إدراك إنساني للحقيقة . وسواء كانت هذه الحقيقة خاصة بالالوهية أو النفس أو الجوهر المادي أو قانون الطبيعة أو مبادئ الاخلاق ، وإستحالة الحقيقة من حيث هي مطلق عن متناول ملكاتنا المعرفية يعني أن كل ما يناله الانسان من الحقيقة لا يتجاوز حدود ملكاتنا الطبيعية من الادراك الحسي والاستدلال العقلي . ووضع الحدود معناه إستحالة تأسيس نسق معرفي على نحو مطلق ، ومن ثم يمتنع تأسيس نسق أخلاقي مطلق أو نسق سياسي مطلق ما دامَ المطلق يستحيل معرفياً(١) .

لم يكن الدين بمنأى عن هذه الرؤية المعرفية التي طرحها لوك ، إذ إشترط الاخير خضوع الدين للعقل إذا ما كانت هنالك رغبة في إعتبار الوحي موضوعاً للايمان . ذاكراً بأنه ليس أمامنا من سبيل أن نصدق بأية قضية على إنها وحي إلا من خلال قدرتنا المعرفية التي وهبها الرب لنا من حس وحدس وبرهان ، وهي قدرات تُربّى وتكتسب بالتنشئة وعلى أساس قدرات العقل المعرفية يكون التعدد في فهم الوحي ؛ حيث الفهم الحرفي والرمزي والروحي للوحي ، جميعها فهم إنساني للوحي . أما المعنى الحقيقي ، والمطلق للوحي فلا يعلمه إلا الرب . ولهذا إشترط لوك ، في إطار إنسانية الحقيقة ، ضرورة التخلي عن وهم إمتلاك الحقيقة المطلقة معتبراً إياها واجباً

---

(1) Emmens, S. H., Selections From Locke's Essay on The Human Understanding, Third Edition, London, Crosby Lockwood and Son, 1890; Locke, John, An Essay Concerning Human Understanding, London, R. Griffin and Co., 1829; Gregory, Raymond, A Study of Locke's Theory of Knowledge, Dissertation Presented in Partial Fulfillment of The Requirements for the Degree of Doctor of Philosophy in The Graduate School of The Ohio State University, Wilmington, Ohio, 1919;

خليفة ، المجتمع المدني ، ص ص ٧٩-٨٠ ؛ ديلو ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ص ٤٣-٦٦ .

عقلياً يلزم الفرد التسامح مع الاختلاف والتعدد(١) . وعدّ لوك فضيلة التسامح واحدة من أبرز الفضائل المدنية ، لان الالتزام بها يمتع البشر بحماية حقوقهم الطبيعية والمدنية في المجتمع ، حيث أكد على التسامح قائلاً : «**إن التناقض بين الكنائس بشأن حقيقة وصدق مبادئهم العقائدية ونقاء عباداتهم هو أمر يتساوى فيه الكل مع أنه لا يوجد في أي مكان على الارض من يستطيع أن يحدد ما هو الصواب وما هو الخطأ ، لان القرار في هذه القضية إنما هو يخص الحاكم الاسمى لكل البشر- أي الرب**»(٢) . وبذلك يكون التسامح حماية لحقوق الفرد وحريته في التفكير ، والاختلاف حماية لاهل العقائد المختلفة في كل الاديان(٣) .

وعلى الرغم من أن لوك قد أكد على أن التسامح فضيلة مدنية لحماية حقوق الافراد في المجتمع ، إلا أنه رأى عدم التسامح مع الملحد ، لانه ، ووفق وجهة نظره ، ينكر كل الاديان والعقائد ، ذاكراً أنه يمكن أن نتسامح مع الكافر أو المرتد إلا أنه لا تسامح مع الملحد ، معللاً ذلك بالقول بأن الفرد يكون ملتزماً بالقوانين المدنية بقدرة الزام القانون الطبيعي في داخله ، والقانون الطبيعي عند لوك هو أمر الارادة الالهية ويعرفه الانسان بالعقل ومن ثم هو مؤمن بوجود الرب . والملحد خلاف ذلك ، فلا يمكن للحكومة المدنية أن تتسامح معه ، لان الملحد لا يقيم إعتباراً لوعد أو عهد أو

---

(1) Locke & Nuovo, John & Victor, John Locke: Writings on Religion, Oxford, Oxford University Press, 2002; Zuckert, Michael P., Locke: Religion: Equality, *The Review of Politics*, Cambridge University Press for The University of Notre Dame Du Lac on Behalf of Review of Politics, Vol.67, No.3 (Summer, 2005), pp.419-431;

خليفة ، المجتمع المدني ، ص ص ٨٠-٨١ .

(2) Yeates, Op.Cit., pp.191-336;

لوك ، المصدر السابق ، ص ص ٦٥-١٢٨ .

(3) Schwartzman, Micah, The Relevance of Lockes's Religious Arguments for Toleration, *Political Theory*, Sage Publications, Inc., Vol.33, No.5 (Oct., 2005), pp.678-705;

خليفة ، المجتمع المدني ، ص ٨١ .

قسم أو ميثاق . فجميع روابط المجتمع الانساني لا سلطة لها على الملحد[١] . والمجتمع إذا سمح لاعضائه بالانفصال عن قوانينه ومعاييره لن يكون في وسعه البقاء[٢] .

ولهذا أكد لوك على الرؤية العلمانية للحفاظ على حق الفرد وحريته في الاعتقاد والاختلاف ، ورأى ضرورة الفصل والتمييز بين عمل الحكومة المدنية والمؤسسات الدينية . وفي هذا الفصل عمل لوك على نقل الدين من الحق العام للمجتمع إلى الحق الخاص للفرد ، مشدداً بوضوح بشأن هذا الفصل حينما حدد وميز بين حدود المؤسستين المدنية والدينية قائلاً : «**ليس من حق الحاكم ، وليس من حق البابا أو أي إنسان عادي الاعتداء على الحقوق المدنية للبشر بإسم الدين**»[٣] .

لقد كانت نظرة لوك للمجتمع المدني مستندة على إعتبار إنه يضم تجمعات إرادية ذات شخصية منفصلة كالكنائس مما يستلزم أن تكون فضيلة التسامح مدعمة بالفضيلة المدنية للاحترام المتبادل ، وإن هذا الاحترام يرمز إلى أن إرادة الافراد إرادة خير واضحة بما يتعلق بالاخرين ، حتى أولئك الذين نختلف معهم . وبهذه الطريقة من الفهم يخلق البشر شروطاً تجعل المختلفين يتقدمون في المجتمع ويكونون في حماية ، ويسيرون في حياتهم مقتنعين بآرائهم الاخلاقية والدينية الخاصة . ولذلك تكون حقوق الافراد مهددة عندما لا يكون الاحترام المتبادل موجوداً حيث لا يجد المختلفون مكاناً آمناً في المجتمع لممارسة آرائهم الخاصة . وهذه المشكلة لا يمكن التغلب عليها في مجال التجمعات الارادية المنفصلة في المجتمع المدني إلا حينما يشكل الاحترام

---

(1) Lorenzo, David J., Tradition and Prudence in Locke's Exceptions to Toleration, *American Journal of political Science*, Midwest Political Science Association, Vol.47, No.2 (Apr., 2003), pp.248-258; Tuckness, Alex, Rethinking The Intolerant Locke, *American Journal of political Science*, Midwest Political Science Association, Vol.46, No.2 (Apr., 2002), pp.288-298;

عزمي ، المصدر السابق ، ص ٢١٤ .

(٢) خليفة ، المجتمع المدني ، ص ٨١ .

(3) Dunning, Wm. A., The Political Philosophy of John Locke, *Political Science Quarterly*, The Academy of Political Science, Vol.20, No.2 (Jun., 1905), pp.223-245;

خليفة ، المجتمع المدني ، ص ٨١ .

المتبادل جانباً داعماً في ممارسة الفضيلة المدنية للتسامح[١] . وبهذا ، فقد إعتبر كل من هوبز ولوك مسألة الفضائل والحقوق المدنية أمراً مسلماً به وضرورياً ولا يجوز الاعتداء أو التجاوز عليها تحت أي مسمى ، طالما تساهم وتكفل التعايش السلمي وتؤدي بالمحصلة إلى حصانة الدولة من التمايزات بكافة أوجهها . ومن هذه النقطة بالذات يمكن تحديد معالم وأبعاد البناء النظري والثقافي للدولة والمجتمع المدني العلماني المبكر في الفكر الانكليزي .

ثالثاً: نشوء المذهب الربوبي واشتداد النزعة العقلانية

يعد جون ري John Ray[٢] ، من أوائل الذين مثلوا الخط الطويل من رجال الدين الذين دمجوا الفلسفة الطبيعية[٣] باللاهوت

---

(١) ديلو ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ص ٦١-٦٤ ؛

Kraynak, Robert P., John Locke: From Absolutism to Toleration, *The American Political Science Review*, American Political Science Association, Vol.74, No.1 (Mar., 1980), pp.53-69.

(٢) جون ري (١٦٢٧- ١٧٠٥) : عالم طبيعي إنكليزي ، ويعد أبو التاريخ الطبيعي الانكليزي . وضع تصنيفاً مرتباً كاملاً لعالمي النبات والحيوان ، مثلما وضع العديد من المؤلفات بهذا الخصوص . دعي مؤلفه : «حكمة الرب» باللاهوت الطبيعي ، وكان بالاساس مقالة في الدين الطبيعي . لقد جادل بأن إرتباط الشكل والوظيفة في الطبيعة العضوية يبرهنان على ضرورة وجود الخالق العليم . تأسست عام ١٨٤٤ «جمعية ري لنشر المؤلفات العلمية» ، تمجيداً لذكره . أنظر :

Raven, C. E., John Ray: Naturalist, Cambridge, Cambridge University Press, 2000; Encyclopedia Britannica, CD., 2010.

(٣) الفلسفة الطبيعية أو فلسفة الطبيعة Natural philosophy or The philosophy of Nature : أشتقت من التعبير اللاتيني Philosophia Naturalis ، وهو مصطلح ينطبق على الدراسة المتعلقة بالطبيعة والكون الطبيعي التي كانت مهيمنة قبل تطور العلم الحديث . وتعد بذلك منطلقاً للعلوم الطبيعية التي عرفت بالطبيعيات . أنظر :

Grant, Edward, A History of Natural Philosophy: From The Ancient World to The Nineteenth Century, Cambridge, Cambridge University Press, 2007.

الطبيعـــي[١] ، وبالذات في مؤلفه الصادر عام ١٦٩١ : «حكمة الرب تتجلى في أعمال الخلق The Wisdom of God Manifested in The Works of Creation» الذي عـالج فيـه ورفض إحـتـمـاليـة الالحـاد[٢] . ولم يكن الربوبي شـافـتـسـبـري Shaftesbury[٣] ، بأقل حدة حينما نبذ الاعتقاد الالحادي المحتمل ، فقد عرّفَ «الملحد المثالي A Perfect Atheist» بأنه : «**شخص لا يؤمن بأي مبدأ أو رأي ما ، ولا بأي سبب ، أو قانون ، أو قياس للأشياء ، ما خلا الصدفة**»[٤] . وكانت فكرة الصدفة منافية للعقل آنذاك ، وبدأ الجدل بشأن نظرية النظام والتدبير (الخاصة بوجود الرب وإنعكاس تجلياته في الخلق) لاول مرة على يد الرياضي الهولندي برنارد

---

(١) اللاهوت الطبيعي Natural Theology : فرع من اللاهوت يعتمد على العقل والتجربة العادية . وبهذا فهو يتميز عن حقل اللاهوت الذي يعتمد على التنزيل Revealed Theology (أو الدين الموحى به) الذي يعـتـمـد على الكتاب المقدس والتجارب الدينية ؛ كـمـا يتـمـيـز عن اللاهوت الفـوقي Transcendental Theology وهو اللاهوت الذي يعنى بالعقل الاستنتاجي أو إعتماد المنطق أكثر من التجربة . أنظر :

Bascom, John, Natural Theology, New York, G. P. Putnam's Sons, 1880.

(2) Willey, Basil, The Eighteenth Century Background: Studies on The Idea of Nature in The Thought of The Period, London, Chatto & Windus, 1962, p.42.

(٣) أنتـوني آشلي كـوبر ، الايرل الثـالث لشـافـتـسـبـري Anthony Ashley Cooper, 3rd Earl of Shaftesbury (١٦٧١-١٧١٣) : فيلسوف وسياسي وكاتب إنكليزي ، أحد زعماء المذهب الربوبي . تلقى تعليمه الباكر على يد جون لوك ، ودخل البرلمان عام ١٦٩٥ ، وورث لقب إيرل شـافـتـسـبري الثالث عام ١٦٩٩ . أكدت فلسفته على وجود الحس الاخلاقي الطبيعي في الانسان . وعزز من هذا المفهوم بالضد من التعاليم المسيحية التقليدية وتجاه الافتراض القائل بأن دولة الطبيعة هي دولة لا مفر من التنازع فيها . نشر مؤلفه المعنون : «خصائص الرجال» عام ١٧١١ ، الذي جمع فيه أعماله الرئيسة ، وكان تأثير هذا العمل فورياً حيث شعرت به القارة الاوربية حالها حال إنكلترا . وفي الواقع كانت الربوبية الانكليزية قد إنتشرت في المانيا جميعها تقريباً من خلال ترجمة كتاباته . أنظر :

Encyclopedia Britannica, CD., 2010.

(4) The Oracle of Reason, 6 November 1841.

نيونتيت[1] Bernard Nieuentytt خلال القرن السابع عشر، وإستمر ليغدو شعبياً حتى ثلاثينيات القرن التاسع عشر، حينما تم تأليف ثمانية مجلدات عظيمة الشأن تحت عنوان: «رسـائل بريجـووتر Bridgewater Treatises»[2]. ومع ذلك فلم يكن الكاتب الاكثر إرتباطاً باللاهوت الطبيعي، هو من بين مؤلفي بريجووتر وإنما كان وليم بالي William Paley[3]، حينما جادل في مؤلفه: «اللاهوت الطبيعي: أو الشاهد

(١) برنارد نيونتيت (١٦٥٤-١٧١٨): فيلسوف ورياضي وطبيب ولاهوتي هولندي. يعد أحد أتباع ديكارت ومن معارضي الفيلسوف الهولندي باروخ إسبينوزا (١٦٣٢-١٦٧٧). كتب العديد من المؤلفات باللغة الهولندية ومنها مؤلفه: «الاستخدام الصحيح للمفاهيم العالمية» عام ١٧١٥، الذي جادل فيه بشأن وجود الرب وهاجم إسبينوزا وأسلوبه الهندسي بإعتباره غير مناسب للمنهج التجريبي في العلم. أنظر:

Berkel & Other (eds.), Klass Van, A History of Science in The Netherlands: Survey, Themes and Reference, Brill, Leiden, 1999, pp.543-544.

(٢) وهي المؤلفات التي صدرت بين ١٨٣٣-١٨٤٠، وألفها مجموعة من المختصين، والتي أكدت على إستكشاف قوة وحكمة وعظمة الرب كما تتجلى في الخلق. أنظر:

Topham, Jonathan, Science and Popular Education in The 1830s: The Role of The "Bridgewater Treatises", *The British Journal for The History of Science*, Cambridge University Press on Behalf of The British Society for The History of Science, Vol.25, No.4 (Dec., 1992), pp.397-430.

(٣) وليم بالي (١٧٤٣-١٨٠٥): قس إنكليكاني إنكليزي وفيلسوف نفعي. له أعمال مؤثرة عن المسيحية والاخلاق والعلم، التي تناول في بعضها تفسير اللاهوت الانكليزي من خلال «الجدلية الغائية» (المقصود الاعتقاد بأن كل شيء في الطبيعة مقصود به تحقيق غاية معينة) التي تؤكد على وجود الرب. إذ قدم حججاً لصالح «نظرية النظام والتدبير»، وذهب إلى أن التعقيدات الموجودة في الكون ضرورية وهي تستلزم وجود خالق يعلو فوق البشر، وأن إستنتاج وجود الرب يمكن أن يتم عن طريق تدبر صور النظام في جميع المخلوقات. أهم أعماله: «مبادئ الاخلاق والفلسفة السياسية» عام ١٧٨٥، و «نظرة في شواهد المسيحية » عام ١٧٩٤، و«اللاهوت الطبيعي» عام ١٨٠٢. أنظر:

Gillespie, Neal C., Divine Design and The Industrial Revolution: William Paley's Abortive Reform of Natural Theology, *Isis*, The University of Chicago Press on Behalf of The History of Science Society, Vol.81, No.2 (Jun., 1990), pp.214-229; Encyclopedia Britannica, CD., 2010.

على وجود وصفات الرب ، المجتمع من تجلي الطبيعة» الصادر عام ١٨٠٢ ، بشأن ما أطلق عليه وبات يعرف بـ : «نظرية النظام والتدبير» حينما ذكر بأن الخلق هو من أكثر التعابير وضوحاً ، وبأن الملحد هو شخص ساخر لا يرى خالق العالم من خلال الأعمال التي بين متناول يديه ، تماماً كصانع الساعة الذي بمقدوره أن يرى التصميم الحاذق وبراعة صناعة الساعة . إلا أن بالي لم يكن غافلاً لضعف مثل ذلك المنطق الجدلي الذي إنصب في صالح رب مسيحي . ففي الواقع ، أعلن في مقدمة كتابه ، تبريره للمسيحية كإعتراض على الربوبية المحضة التي وجدت في أعماله الاخرى ، والتي من أكثرها بروزاً كانت في مؤلفه : «نظرة في شواهد المسيحية A View of The Evidences of Christianity» الصادرعام ١٧٩٤ ، الذي إحتكم فيه إلى القرائن التاريخية على المعجزات ودلائل الكتاب المقدس الداعمة كالنبوة[1] .

لقد شغلت القرائن التأريخية الحيز الرئيس في النزاع الذي دار بين الربوبيين والمسيحيين خلال القرن الثامن عشر ، إذ جادل جون تولاند John Toland[2] في

---

(1) Royle, Victorian, pp.11-12.

(٢) جون تولاند (١٦٧٠-١٧٢٢) : فيلسوف عقلاني إيرلندي وجدالي ومفكر حر . أجبرت فلسفته مؤرخي الكنيسة على إعادة النظر وبجدية بالمسائل المتعلقة بالقوانين الكنسية . نشر عام ١٦٩٦ عمله الشهير : «المسيحية بدون أسرار» حيث أبان فيه بأنه ليس جميع تعاليم الكتاب المقدس تتطلب الايمان من أجل فهمها ، بل هي بالاحرى واضحة تماماً أمام العقل الانساني غير المتأثر بالوحي الالهي . تسبب كتابه بإحداث ضجة عامة ، وأتخذت ضده إجراءات أدت إلى هروبه إلى دبلن . له مؤلفات منها : «أصول اليهود» الذي إدعى فيه بأن اليهود يعودون لاصول مصرية ، وإقترح في كتابه المعنون : «Pantheisticon» عام ١٧٢٠ إقامة قداس يشتمل على نصوص وثنية . حفزت كتب تولاند على مناقشة عصرية للعهد الجديد ، وبحثه بشأن دين عقلاني نجم عنه كتابه «المسيحية بدون أسرار» الذي بقي بوصفه شرحاً كلاسيكياً عن الربوبية . أنظر :

Heinemann, F. H., John Toland and The Age of Enlightenment, *The Review of English Studies*, Oxford University Press, Vol.20, No.78 (Apr., 1944), pp.125-146; Reedy, Gerard, Socinians, John Toland, and The Anglican Rationalists, *The Harvard Theological Review*, Cambridge University Press on Behalf of The Harvard Divinity School, Vol.70, No.3/4 (Jul.- Oct., 1977), pp.285-304.

مؤلفه : «المسيحية بدون أسرار» الصادر عام ١٦٩٦ ، بأنه ليس هنالك من شيء جلي في العهد الجديد New Testament ما لا يمكن إدراكه عقلياً أيضاً . ولهذا فإن الوحي هو أمر غير ضروري . وكان رد المسيحية ، إنه على الرغم من حقيقة الوحي التي أثبتها العقل ، إلا أن العقل البشري غير قادر بذاته على فهم جميع أسرار الكون . لقد إفترض هذا الجدل ، في حقيقة الامر ، إنه ما من تناقض بين العقل والدين الطبيعي . أما الربوبيون فقد سارعوا للاشارة بأن هذا الامر ليس على هذا النحو ، حيث أشار ماثيو تندال Matthew Tindal[1] إلى تباين رب الطبيعة مع الرب اليهودي في الكتاب المقدس . أما المسيحية التي على شاكلة الربوبية أو طبقاً للحجج المستخدمة من المسيحيين العقلانيين ، فأقل ما يقال عنها إنها غير مثالية . ولذلك ركز معارضو المسيحية على مظاهر الفكر المسيحي التي بدت لديهم مناقضة للعقل كالمعجزات والنبوة وقيامة المسيح[٢] .

لقد عدت مسألة قيامة المسيح ، التي سجلها الكتاب المقدس بأهمية بالغة ، مسألة مصيرية . وكان الخلاف بشأنها قد إبتدأ على يد الربوبي توماس وولستون

---

(١) ماثيو تندال (١٦٥٧-١٧٣٣) : ربوبي إنكليزي ، أثرت مؤلفاته تأثيراً كبيراً في مطلع عصر التنوير ، وتسببت في إحداث خلاف وتحدي كبيرين للاجماع المسيحي في ذلك الوقت . درس القانون ، وأصبح أستاذاً بجامعة أوكسفورد عام ١٦٧٨ . الف العديد من المؤلفات منها : «دفاع عن حقوق الكنيسة المسيحية» ، الذي عُدّ بمثابة دعوة إلى ضرورة خضوع الكنيسة لسلطة الدولة ، وتمت مقاضاة هذا الكتاب حيث أمر مجلس العموم بإحراقه عام ١٧١٠ . ومن أشهر أعماله : «المسيحية قديمة قدم الخليقة» عام ١٧٣٠ ، الذي عدّهُ الربوبيون كتابهم المقدس ، وأثار زوبعة من ردود الافعال . ومع ذلك فقد ترجم إلى الالمانية فكان السبب في تأثر الالمان بالمذهب الربوبي الذي كان الانكليز أول دعاته . أطلق تندال على نفسه لقب : «الربوبي المسيحي» إعتقاداً منه بعدم وجود تعارض بين الاثنين وبأن المسيحية الحقة تطابق دين الطبيعة الخالد . والجدير بالذكر إن تندال إستقى مذهبه الربوبي من مذهب لوك التجريبي . أنظر : عوض ، رمسيس ، الالحاد في الغرب ، ط١ ، القاهرة ، سينا للنشر ، ١٩٩٧ ، ص ص ١٤٣-١٤٤ ؛

Lalor, Stephen, Matthew Tindal, Freethinker: An Eighteenth- Century Assaulat on Religion, New York, Continuum, 2006.

(2) Royle, Victorian, p12.

Thomas Woolston[(١)] ، حينما عالج جميع المعجزات في مؤلفه المعنون : «ست مطارحات عن قدرة معجزات منقذنا على الشفاء» بين الاعوام ١٧٢٧-١٧٣٠ ، بما فيها مسألة قيامة المسيح ، التي تناولها على نحو مجازي . الامر الذي دفع الاسقف توماس شيرلوكThomas Sherlock[(٢)] إلى الرد عليه عام ١٧٢٩ في مؤلفه : «محاكمة الشهود Trial of The Witnesses» ، عارضاً الاسباب التقليدية للايمان بالعهد الجديد فضلاً عن تناول مسألة قيامة المسيح بوصفها تعبيراً مجازياً . وشجع هذا الامر توماس تشوب Thomas Chubb[(٣)] لاخضاع مسألة قيامة المسيح لبعضٍ من النقد التاريخي ،

---

(١) توماس وولستون (١٦٧٠-١٧٣٣) : كاتب ديني وربوبي إنكليزي . شدد في تفسيره المجازي للكتاب المقدس على الصفات الروحية وليس المادية للخلق . ودخل بنزاع مع الحكومة ، وخاض مجادلات الربوبية حينما أصدر مؤلفه : «الوسيط مابين الكافر والمارق» عام ١٧٢٥ . طبق مبادئه في عمله المعنون : «ست مطارحات عن قدرة معجزات منقذنا على الشفاء» ، الذي بيع منه ٣٠,٠٠٠ نسخة . وبهذا لعب وولستون دوراً محورياً بإنكار المعجزات في الانجيل . ألقي القبض عليه عام ١٧٢٩ بتهمة التجديف وحكم عليه بالسجن لمدة عام وبدفع غرامة وإستمرار الاعتقال لحين تسديدها ، ونظراً لعدم تمكنه من دفعها لقي حتفه وهو رهن الاعتقال . أنظر :

Israel, Jonathan I., Radical Enlightenment: Philosophy and The Making of Modernity 1650-1750, Oxford, Oxford University Press, 2002, pp.471-474: Encyclopedia Britannica, CD., 2010.

(٢) توماس شيرلوك (١٦٧٨-١٧٦١) : قس إنكليزي ، عمل أسقفاً لمدة ٣٣ عاماً في كنيسة إنكلترا في لندن . ويعد في تاريخ الكنيسة واحداً من المدافعين المهمين عن العقائد المسيحية . أنظر :

Haakonssen (ed.), Knud, The Cambridge History of Eighteenth- Century Philosophy, First Published, Cambridge, Cambridge University Press, 2006, Vol.II, pp.693-695.

(٣) توماس تشوب (١٦٧٩-١٧٤٧) : فيلسوف وربوبي إنكليزي . كتب عن العقلانية في مطلع القرن الثامن عشر ، وكان أول مانشره مقالة بعنوان : «سيادة الاب مؤكدة» عام ١٧١٥ ، و«مطارحة تتعلق بالعقل» عام ١٧٣١ ، و«الانجيل الحقيقي المصان ليسوع المسيح» عام ١٧٣٩ ، و«مطارحة عن المعجزات» عام ١٧٤١ . أنظر :

Hastings & Selbie (eds.), James & John A., Encyclopedia of Religion and Ethics, Kessinger Publishing, 2003, Part 9, pp.313-314; Encyclopedia Britannica, CD., 2010.

حيث ذكر بشأن الاناجيل بأنها قد كتبت بعد وقت طويل من أحداثها على يد أشخاص لم يشهدوها بأنفسهم ، وبالتالي يجب عدم التعامل معها بوصفها نماذج موثوقة[1] . وبعد ثلاث سنوات لاحقة كتب بيتر أنيت Peter Annet[2] رداً أكثر حدة ، حين تناول كتاب «محاكمة الشهود» للاسقف شيرلوك بوصفه إحتيالات

---

(1) Chubb, Thomas, A Discourse on Miracles, London, T. Cox, 1741.

(٢) بيتر أنيت (١٦٩٣-١٧٦٩) : ربوبي إنكليزي ، عمل مديراً لمدرسة ، غدا بارزاً بعد مهاجمته للاهوت التقليدي ، فضلاً عن عضويته في جمعية روبن هود (وهي جمعية «البحث الحر والخلاص» التي إزدهرت في لندن في القرن الثامن عشر ويحتمل تأسيسها عام ١٧٤٢ ، أشتهرت بإسم روبن هود لان أعضائها كانوا أحياناً يجتمعون في حانة تحمل علامة روبن هود لمناقشة أفكار متعددة ، وكان معظم أعضائها من الربوبيين) . برز حينما وجه نقداً قاسياً ضد أسقف لندن شيرلوك حينما سعى الاخير لتفنيد آراء وولستون التي انكرت قيامة المسيح . ونشر في ١٧٤٤-١٧٤٥ نبذتين أستهزأ فيهما بالانجيل نفسه ووصفه بأنه لا يعدو أن يكون هراء غير جدير بالتصديق ، مشبهاً قيامة المسيح بتلك الحكايات الخرافية الواردة في الاساطير . إلا ان السلطة أكتفت بطرده من الوظيفة ، لينشر نبذة لاذعة أخرى أتهمت القديس بولس بالكذب والنفاق والتعطش للسلطة . وأصدر في عام ١٧٦١ دورية أسبوعية اسمها «Free Inquirer» قامت الحكومة بإغلاقها بعد صدور تسعة أعداد منها . ودأبت المجلة على مهاجمة التوراة والنبي موسى وبخاصة الاسفار الخمسة التي إرتبطت بإسمه ، وزعم أنيت أن هدفه تطهير المسيحية من أدران اليهودية وأوشابها وأن يبين إن الدين المسيحي دين طبيعي قديم قدم الخلق نفسه . وقارن بين معجزات موسى وبين الحكايات الخيالية . وعلى أثر ذلك تمت مقاضاته بتهمة نشر الالحاد وبث الافكار الشيطانية وزعزعة أركان العقيدة المسيحية ، وعلى الرغم من أن الحكم خفض إلى عام واحد بسبب عمره البالغ ثمانية وستين عاماً ، بيد أن المحكمة أمرت بوقوفه مرتين في المُشهِرة (Pillory : أداة تعذيب وتشهير خشبية أو معدنية يوضع فيها رأس ويدا المتهم) وقد علقت على جبينه ورقة مكتوب عليها كلمة تجديف ثم أرسل بعد ذلك إلى إصلاحية ليعمل فيها عملاً شاقاً لمدة عام واحد وبدفع غرامة وضمانة مالية كبيرة لضمان حسن سيره وسلوكه في المستقبل . أنظر : عوض ، المصدر السابق ، ص ص ١٦٤-١٦٦ ؛

McCalman, Iain, Ultra-Radicalism and Convivial Debating-Clubs in London 1795-1838, *The English Historical Review*, Oxford University Press, Vol.102, No.403 (Apr., 1987), pp.309-333.

مبتذلة . وإستخدم ، في غضون ذلك ، أنتوني كولينز Anthony Collins[١] ، أحد أبرز المفكرين الاحرار المبكرين ، الانتقاد التاريخي ليضع مسألة النبوة تحت دائرة السؤال ، حيث تساءل : «**إذا كان العهد الجديد متوافقاً مع العهد القديم[Old Testament] ، فإن نبوءات العهد القديم يجب أن تُنسب إلى أو تروى وفقاً للعهد الجديد**» . وفي الواقع ، إدعى بأنها لم تكن كذلك ؛ وإن : «**كثيراً من قضايا كتب النبوة- أمثال سفر دانيال- قد كتبت بعد فترة زمنية طويلة من التاريخ المفترض لحدوثها**»[٢] .

وفي الوقت الذي كان فيه بعض الاشخاص يسبرون مع عقولهم معضلات اللاهوت ، إستمر الدين لشريحة عظمى من الناس يمثل شأناً عاطفياً وغير عقلاني ومتعلقاً بالقلب . إذ إن عهد الربوبية الانكليزية العظيم قد جاء في أواخر القرن السابع عشر ومطلع القرن الثامن عشر ، ليحدث التغيير ، بمرور نصف قرن ، في الجو السائد المرتبط بالترويجات الرومانسية والخيالية ، وليفتح الطريق أمام اليقظة الانجيلية- البروتستانتية[٣]

(١) أنتوني كولينز (١٦٧٦-١٧٢٩) : ربوبي ومفكر حر إنكليزي بارز ، تعلم في كامبردج ودرس القانون ، وكان صديقاً لجون لوك . كتب أول مؤلف مهم بعنوان : «مقالة تتعلق بإستخدام العقل في مقترحات الدليل لما تعتمده الشهادة البشرية» عام ١٧٠٧ ، رافضاً فيه التمييز بين (العقل العلوي) و (مخالفة العقل) ، وطالب بضرورة توافق الوحي مع الافكار الطبيعية للانسان تجاه الرب . وكتب أيضاً : «مطارحة في الفكر الحر» عام ١٧١٣ ، الذي قال فيه : «الجهل أساس الالحاد والفكر الحر علاجه» . كما كان مدافعاً عن المذهب الجبري . أنظر :

Gerrish, Brian Albert, Continuing The Reformation: Essays on Modern Religious Thought, Chicago, University of Chicago Press, 1993, pp.80-81; Encyclopedia Britannica, CD., 2010.

(٢) Stephen, English Thought, Vol.I, pp.186-277.

(٣) الانجيلية Evangelicalism : إعتقاد مسيحي يؤكد على الخلاص الشخصي والتعويل أو الاعتماد على الكتاب المقدس . أصبح مؤثراً على نحوٍ قوي في بريطانيا (بوراثة التقليد البيوريتاني) في الكنائس البروتستانتية والمجتمع منذ أواخر القرن الثامن عشر . كما يشير المصطلح إلى أولئك الانجيليين الذين بقوا إنكيليكان بعد الانفصال عن كنيسة إنكلترا تقريباً في عام ١٧٨٥ . أنظر :

Bebbington, D. W., Evangelicalism in Modern Britain: A History From the 1730s to The 1980s, London, Taylor & Francis e- Library, 2005; Kenyon, Op.Cit.,pp.133-134.

في الدين في انكلترا[١] .

لقد إحتكم الانجيليون إلى القلب وليس إلى العقل . فقد أعادوا التأكيد الذي يقول بأن المسيح هو منقذ العالم . وأعادت تعاليمهم بشأن روح القدس إلى الرب مكانته من موقعه في التأثيرات الخارجية للكون المتحرك ، ليلعب على نحو مباشر الدور المناط به في حياة الانسان الآثم ؛ إذ إن الانسان يبرأ من الاثم من خلال إيمانه بالمسيح «وبقدرة وفاة المسيح على التكفير»[٢] . وعلى النقيض من ذلك ، وجد الربوبيون في منتصف القرن الثامن عشر أن الفكرة الكلية التي تقر بوجود أبن للرب فكرة منافية للعقل ، بل عدّوا موت المسيح المكفر عن الذنوب فكرةً متجاوزة للطبيعة . فالربوبية والمسيحية تقفان على طرفي نقيض من بعضهما . والانجيليون عّلموا المسيحيين بأن لا يقيموا إيمانهم على الافتراضات العقلية للربوبيين ، بل الوقوف بثبات مع كلمة الرب المتمثلة بالوحي وليس العقل[٣] .

إن جميع المسيحيين يستندون على الكتاب المقدس ، إلا أن ثمة فرق بالنهج بين الانجيليين واللاهوتيين العقلانيين . لقد كان وليم بالي على قناعة بالجدال بشأن صحة الادلة المسيحية ، ولم ينزعج كثيراً للانتقادات الثانوية إزاء النصوص المقدسة . وكان يدرك التناقضات إلا أنه وجدها غير ذات أهمية . أما المسيحيون الذين هم أكثر إلتزاماً بالتفسير الحرفي والاصولي بالتوراة (أي المؤمنين مطلقاً بالخليقة كما جاءت بالتوراة والذين لا يؤمنون بتطور تفسيره)[٤] فقد وجدوا إيمانهم ينوء تحت تزايد هجوم

(1) Royle, Victorian, pp.12-13.

(٢) نسبةً إلى «عقيدة الفداء والخلاص» : إحدى أبرز العقائد المسيحية التي تقوم على خطيئة آدم بعد أكله من الشجرة المحرمة وسقوطه مع حواء في الخطيئة ، على الرغم من نهي الرب لهما . إذ تبنت التفسيرات الكنسية وفقاً لذلك فكرة خلاص الجنس البشري غير التام إلا بالموت على إعتبار إن الخطيئة الاولى قد إنتقلت إلى الجنس البشري بأجمعه عبر الولادة وليس الاقتداء ، وإن تكفير الخطايا لا يتم إلا بسفك دم إبن الرب . ولهذا يرى المسيحيون إن إرسال المسيح من الرب كان لتكفير هذه الخطيئة عبر خلاصهم منها بعد صلب المسيح . أنظر : محمد ، أثمار أحمد ، اللاهوت المسيحي : نشأته- طبيعته ، ط١ ، دمشق ، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع ، ٢٠١٠ ، ص ص ٥٩-٦٦ .

(3) Royle, Victorian, p.13.

(٤) برينتون ، كرين ، منشأ الفكر الحديث ، تر : عبد الرحمن مراد ، دمشق ، مطبعة المفيد الجديدة ، بلا . ت ، ص ٧٦ .

الباحثين . وتنبه المسيحيون العقلانيون إلى أن الانجيليين قد يساهموا في الواقع بنشر الكفر ، حيث لام أحد المحافظين معلقاً في نهاية القرن الثامن عشر حينما أشار : «إن **المتصوفين المسيحيين الباطنين Mystics ، والمگليتونيين Muggletonians[١] والمؤمنين بالالفية Millennaries[٢] ، وشخصيات غريبة الاطوار في مختلف الطوائف ، لهم أسلوب مضحك في الدفاع أو إجبار المسيحيين المختلفين عنهم عقائدياً ، مما أدى إلى تنامي الاعتراضات تجاه الايمان المسيحي ، في عقول**

---

(١) نسبةً إلى لودفيك مگليتون Lodowicke Muggleton (١٦٠٩-١٦٩٨) : قائد ديني بيوريتاني إنكليزي ، عرف أتباعه بالمگليتونيين . كان يؤمن بأنه نبي ، وادعى تلقيه الرؤى الروحانية في بداية عام ١٦٥١ ، ليبدأ هو وأبن عمه جون ريف John Reeve بإعلان إنهما شهود النبوة . ويؤمنان بأن للرب جسم بشري حقيقي ، وحسب ما يؤمنان به ، فإن الذنب الذي لا يغتفر ما هو إلا عدم الايمان بوصفهما نبيين حقيقيين . إلا أن أفكارهما الغامضة أثارت معارضة كبيرة . أعتقل مگليتون بتهمة التجديف عام ١٦٥٣ ، وحوكم في عام ١٦٧٧ وغرم بدفع مبلغ مقداره ٥٠٠ جنيه إسترليني . بقيت طائفته تمارس نشاطها حتى مطلع القرن العشرين . أنظر :

The Works of John Reeve and Lodowicke Muggleton: The Two Last Prophets of The Only True God, Our Lord Jesus Christ, London, Subscription, 1832, 3 Vols.; Encyclopedia Britannica, CD., 2010.

(٢) الألْفيّة Millennium : عقيدة دينية تؤمن بأن السيد المسيح سيحكم العالم مدة الف عام . كما إنها أحياناً تمثل حركة دينية تدعو إلى إنتظار خلاصاً وشيكاً وجماعياً يعم الارض كلها . أما الجذور الفكرية للألْفيّة المسيحية فإنها متأصلة في نصوص كتابية في العهد القديم ، وكما في سفر «الرؤيا» ليوحنا في العهد الجديد ، وهو أشهر الكتابات التي أوحت للالفيين ، والتي كانت لرمزيتها تفسيرات عدة منذ القرن الميلادي الاول حتى أيامنا هذه . والنص الأكثر مباشرة ووضوح والتباس في آنٍ معاً هو الفصل العشرون من سفر الرؤيا ، ولا سيما الآيات الخمس عشرة الأولى منه وبتحديد أكبر : الآيات ٤و٥ و٦ . أنظر :

Fisher, Lyman J., That Day of Days: A Glimpse of The Millennium, Ohio, 1902; Encyclopedia Britannica, CD., 2010.

أولئك الاشـخـاص الذين لم يصـبـهم التـشـوش عن طريق حـدة ذهن الكفار»[1] .

كان الهجوم على الكتاب المقدس ، مع ذلك ، كافياً حقيقةً ، وحتى أكثر معقولية لدى الناس ليعدلوا ، مع الوقت ، من نظرتهم لكلمته المقدسة . وإستمر التوجه العام بالنقد للكتاب المقدس لمدة قرن ونيف . فقد أشار توماس هوبز في كتابه «الوحش» في عام (١٦٥١) بأن موسى لم يكن بمقدوره كتابة الجزء المتعلق بسفر التثنية الذي أقرَ بأن مكان قبر موسى ما زال مجهولاً لحد يومنا هذا ؛ مثلما أثار عدداً من الملاحظات المماثلة بشأن تواريخ الاسفار المتباينة في العهد القديم[2] .

وكان العمل الاكثر أهمية قد تمثل بمؤلف باروخ إسبينوزا Baruch Spinoza[3] ،

(1) Reid, William Hamilton, The Rise and Dissolution of The Infidel Societies in This Metropolis, Second Edition, London, 1800, p.19.

(2) Martinich, A. P., Hobbes: A Biography, First Publishing, Cambridge, Cambridge University Press, 1999, pp.247-248; Brandon, Eric, The Coherence of Hobbes's Leviathan: Civil and Religious Authority Combined, New York, Continuum International Publishing Group, 2007, pp.88-89.

(٣) باروخ إسبينوزا (١٦٣٢-١٦٧٧) : فيلسوف هولندي من أسرة يهودية ، يعد الداعية الاول للعقلانية في القرن السابع عشر ، فر من البرتغال بسبب محاكم التفتيش . كان مستقل الرأي مما أدى إلى طرده من الجماعة اليهودية ، وحرمانه من حقوقه الدينية عام ١٦٥٦ ، بسبب إدعائه أن الرب يكمن في الطبيعة والكون ، وأن النصوص الدينية هي عبارة عن إستعارات ومجازات غايتها أن تعرّف بطبيعة الرب ، وغادر أمستردام ليستقر بلاهاي ، وعاش بتواضع على صناعة العدسات . له مؤلفات عديدة منها : «رسالة موجزة في الرب والانسان وسعادته» عام ١٦٦١ . أغضبت فلسفته ، التي توحد بين الرب والطبيعة فترى الربوبية ماثلة في الاشياء كلها ، أهل عصره حتى لم يسمح بنشر مؤلفاته في حياته ، لكنها كانت عميقة الاثر فيما بعد . توفي بمرض السل . أنظر : غربال وآخرون ، المصدر السابق ، م١ ، ص ١٣٨ ؛ الموسوعة الفلسفية المختصرة ، ص ص ١٨٠-١٨٤ ؛ إسبينوزا ، رسالة في اللاهوت والسياسة ، ط١ ، ترجمة وتقديم : حسن حنفي ، مراجعة : فؤاد زكريا ، بيروت ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، ٢٠٠٥ ؛

Hunter, Graeme, Radical Protestantism in Spinoza's Thought, Hampshire, Ashgate Published Limited, 2005.

المنشور في هولندا عام ١٦٧٠ والمعنون : «رسالة في اللاهوت والسياسة» ، الذي يعد أول نقد تحليلي جدي عن العهد القديم(١) . إلا أن التطور المهم والحقيقي في الدراسات المتعلقة بأسفار موسى الخمسة وهي (التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية)(٢) كان في عام ١٧٥٣ ، حينما ميّز جان أستروك Jean Astruc (١٦٨٤-١٧٦٦) ، الطبيب الفرنسي ، الفرق بين أسم الالوهية الوارد بصيغتين تحت مسمى إلوهيم Elohim ويهوه Jehovah الواردين بروايات الخليقة في الاصحاحين الاول والثاني من سفر التكوين(٣) . ولهذا ، وتدريجياً ، أضحت المعرفة مكتسبة لتغدو

---

(1) Gray, Edw. Mcqueen, Old Testament Criticism: Its Rise and Progress form The 2d Century to The End of The 18th, New York, 1923, p.86; Frankel, Steven, The Invention of Liberal Theology: Spinoza's Theological- Political Analysis of Moses and Jesus, *The Review of Politics*, Cambridge University Press for The University of Notre Dame Du Lac on Behalf of Review of Politics, Vol.63, No.2 (Spring, 2001), pp.287-315.

(٢) السفر الاول : وهو سفر التكوين أو الخلق ، وذكر فيه خلق العالم ، وقصة آدم وحواء وأولادهما ، ونوح والطوفان والانبياء . السفر الثاني : ويسمى سفر الخروج ، أي خروج اليهود من مصر ، وفيه قصة موسى وبعثته ، وفرعون مصر وخروج بني إسرائيل من مصر ، وصعود موسى الجبل وتلقيه الالواح من الله . السفر الثالث : سفر اللاويين ، أي الاحبار ، وفيه حكم القربان والطهارة ومايجوز أكله ، وغير ذلك من الفرائض والحدود . السفر الرابع : سفر العدد ، بعضه في الشرائع ، وبعضه في أخبار موسى وبني إسرائيل في التيه وقصة العجل . السفر الخامس : سفر التثنية أو الاشتراع أو تثنية الاشتراع ، ومن الواضح أن أصل التسمية تأت من كونه سفراً تشريعياً تكتمل معه الشريعة اليهودية . أنظر : Blenkinsopp, Joseph, The Pentateuch: An Introduction to The First Five Books of The Bible, Yale University Press, 2000; Warren, William F., The Origin of The Pentateuch, *The Biblical World*, The University of Chicago Press, Vol.18, No.3 (Sep., 1901), pp.194-196.

(٣) شازار (تحرير) ، زالمان ، تاريخ نقد العهد القديم من أقدم العصور حتى العصر الحديث ، تر : أحمد محمود هويدي ، تقديم ومراجعة : محمد خليفة حسن أحمد ، بلا . م ، الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية ، المجلس الاعلى للثقافة ، المشروع القومي للترجمة- رقم ٢٠٤ ، ٢٠٠٠ ، ص ص ١٠٥-١٠٧ ؛

Legaspi, Michael C., The Death of Scripture and The Rise of Biblical Studies, Oxford, Oxford University Press, 2010, pp.136-137.

الحقيقة الحرفية للكتاب المقدس وعلى نحو جاد تحت طائلة التساؤل . ولتبلغ ذروتها مع نهاية القرن الثامن عشر ، حينما طرح الكسندر غيديس Alexander Geddes (١٧٣٧-١٨٠٢) ، القس والعالم اللاهوتي الكاثوليكي الاسكتلندي ، ترجمة جديدة للكتاب المقدس في عام ١٧٩٣ ، مؤرخاً أسفار موسى الخمسة لزمن الملك سليمان ؛ وعالج في عمله : «ملاحظات نقدية عن الكتب المقدسة» عام ١٨٠٠ ، الرواية الموسوية للخليقة بوصفها أسطورة . ولقي غيديس إستهجاناً على إثر ذلك على يد أساقفته ، إذ كان فرداً معزولاً في بريطانيا ، ولم يتم إعادة طبع مؤلفاته ، بيد أنه ومع ذلك كان له بعض التأثير على القارة الاوربية(١) .

لقد قدّر إدوارد بوسيEdward Pusey(٢) التأثيرات المتبادلة في الفكر الربوبي في الساحة الاوربية ، وكان مؤلفه المعنون : «تحقيق تاريخي في العلل المحتملة للشخصية

---

(١) شازار ، المصدر نفسه ، ص ص ١١١-١١٢ ؛

Robertson, J. M., A History of Freethought in The Nineteenth Century, London, 1929, Vol.I, pp.129, 133-136.

(٢) إدوارد بوسي (١٨٠٠-١٨٨٢) : لاهوتي إنكيليكاني إنكليزي وزعيم حركة أوكسفورد Oxford Movement (عبارة عن مجموعة داخل كنيسة إنكلترا حاولت بين الاعوام ١٨٣٣-١٨٤٥ أن تستعيد تقاليد القرن السابع عشر للكنيسة التي تشابه الطقوس الكاثوليكية) ، أختير بوسي ليغدو زميلاً في كلية أوريل حيث إلتقى بالكهنة جون كيبل John Keble (١٧٩٢-١٨٦٦) وجون هنري نيومان John Henry Newman (١٨٠١-١٨٩٠الذي أصبح فيما بعد الكاردينال نيومان) ومعهما إشترك في قيادة حركة أوكسفورد ، وقام بعدها بدراسة اللاهوت واللغات الشرقية في المانيا . أسهم في كتابة : «كراريس للازمنة» عام ١٨٣٤ التي كان الغرض منها نشر المبادئ الانكليكانية ضد البابوية والانشقاق . في الوقت الذي أنعشت فيه الحركة الكراسية Tractarian Movement or Tractarianism (هكذا كانت تسمى حركة أوكسفورد أحياناً) الطقوس الدينية التي ارجيء العمل بها مؤقتاً ، وأكدت التزامات الكنيسة الاجتماعية ولا سيما من خلال توفير الاستقرار في أحياء فقيرة من المدن الكبيرة ، وإستهلت إدخال الجماعات الدينية داخل الكنيسة الانكليزية . كان بوسي محافظاً في نقده للكتاب المقدس . من مؤلفاته : «الانبياء الثانويون» عام ١٨٦٠ . وبقي بوسي وكيبل يعملان على إعطاء صورة للتقاليد الانكلو- كاثوليكية عن طريق علومهم ونصائحهم . أنظر : بالمر ، الآن ، موسوعة التاريخ الحديث ، تر : سوسن فيصل السامر ويوسف محمد أمين ، ط١ ، بغداد ، =

العقلانية في اللاهوت الالماني» الصادر خلال (١٨٢٦-١٨٣٠) ، واحداً من الاعمال الانكليزية التي وجدها الالمان جديرة لان تترجم إلى لغتهم ، إلا أن هذا الدفاع التقوي في التحقيق اللاهوتي دفع ببوسي للخشية من أن يُدّعى بأنه رَكِنَ إلى الميثودية Methodism[(١)] بدل العقلانية في الخوض في التجربة الدينية . وأبقى العديد من الرجال أفق أفكارهم قائمة على الفكر العقلاني ، أما الفكر الالماني فقد كان إستقباله بطيئاً في إنكلترا . وحينما نُشر كتاب هنري هارت ميلمان Henry Hart Milman[(٢)] المعنون : «تاريخ اليهود» عام ١٨٢٩ ، تسبب في إحداث ضجة عامة مما

= دار الحرية للطباعة ، ١٩٩٢ ، ج٢ ، ص ص ١٥٦-١٥٧ ؛

Cruttwell, C. T., Six Lectures on The Oxford Movement: And Its Results on The Church of England, London, Skeffington & Son, Piccadilly, W., 1899; Kenyon, Op.Cit.,pp.270-271; McNeill, John T., Anglicanism on The Eve of The Oxford Movement, *Church History*, Cambridge University Press on Behalf of The American Society of Church History, Vol.3, No.2 (Jun., 1934), pp.95-114.

(١) أو المنهاجية : طائفة مسيحية بروتستانتية ظهرت في القرن الثامن عشر على يد الانكليكاني جون ويزلي John Wesley (١٧٠٣-١٧٩١) ، ونشأت تحديداً عام ١٧٢٩ ، ورأت الميثودية أن الانكليكانية إبتعدت عن الايمان الحقيقي بسبب التدين الخارجي فدعت الناس للعودة إلى أعماق الايمان إستناداً إلى نظام تَقَوي يقوم على التأمل ولهذا سميت بهذا الاسم ، وأُسست الكنيسة الميثودية عام ١٧٨٤ ولم يحدث تصادم مع الكنيسة الانكليكانية حتى عام ١٧٩٥ ، وأكدت في تعاليمها على حاجة الانسان إلى إقامة علاقة شخصية مباشرة مع الرب وطالبت بالإلتزام بالبساطة في العبادة والحرص على مساعدة المحرومين . أنظر :

Yrigoyen & Warrick (eds.), Charles & Susan E., Historical Dictionary of Methodism, Second Edition, Maryland, Scarecrow Press, Inc., 2005; Brown, Richard, Church and State in Modern Britain 1700-1850, First Published, London, Routledge, 1991, pp.121-126.

(٢) هنري هارت ميلمان (١٧٩١-١٨٦٨) : مؤرخ وإكليروسي إنكليزي ، ولد في لندن ، وتعلم في أيتون وأوكسفورد . شملت مؤلفاته الدين والتاريخ . هوجم وإنتقد كتابه «تاريخ اليهود» لانه أول مؤلف لرجل دين إنكليزي إعتبر اليهود مجرد قبيلة شرقية . أنظر : =

دفع الناشر إلى وقف طباعة السلسلة التي شكل جزء منها . ووصف العميد ستانلي Dean Stanley[(١)] ، زعيم المجلس الكنسي ، عمل ميلمان فيما بعد : «**بأنه الاستهلال الحاسم الاول للاهوت الالماني في إنكلترا ، والدليل الواضح الاول على أن الكتاب المقدس يمكن أن يدرس كأي كتاب آخر ، والاشخاص والاحداث في التاريخ المقدس يمكن معالجتهما**»[(٢)] . ولعبت شخصية المانية أخرى دورها في تلخيص الروح العلمانية والنقدية للاهوت القارة الاوربية في إنكلترا ، ألا وهو شتراوس Strauss[(٣)] حيث تُرجم عمله المعنون : «بحث

Horowitz, Elliott, Reckless Rites: Purim and The legacy of Jewish Violence, New Jersey, Princeton University Press, 2006, p.17; Phillips, Paul T., The Controversialist An Intellectual Life of Goldwin Smith, First Published, Greenwood Publishing Group, Inc., 2002, pp.4, 18.

(١) أرثر بنرين ستانلي Arthur Penrhyn Stanley (١٨١٥-١٨٨١) : رجل دين إنكليزي ، أصبح عميد ويستمنستر ؛ عرف بإسم العميد ستانلي . وموقعه الوظيفي تمثل في زعامة المجلس الكنسي ، له مؤلفات خاصة بتاريخ الكنيسة . أنظر :

Dean Stanley, *Proceedings of the American Academy of Arts and Sciences*, American Academy of Arts & Sciences, Vol.17 (Jun., 1881- Jun., 1882), pp.461-465.

(2) Hunt, John, Religious Thought in England in The Nineteenth Century, London, Gibbings & Co., Limited, 1896, p.114.

(٣) ديفيد فريدريتش شتراوس David Friedrich Strauss (١٨٠٨-١٨٧٤) : فيلسوف جدلي بروتستانتي ولاهوتي الماني ، أكد على التطور الاجتماعي من خلال الكفاح الداخلي للقوى المعارضة . تناول روايات المسيح في العهد الجديد على نحو أسطوري ، حيث إعتبر المسيح شخصية تاريخية نافياً عنها الصفة الالوهية . درس في جامعتي برلين وتوبنجن . كتب مؤلفه المعنون : «بحث نقدي عن حياة يسوع» في مجلدين ١٨٣٥-١٨٣٦ ، وفيه أنكر القيمة التاريخية للاناجيل ورفض إدعاءاتها الخارقة للطبيعة واصفاً إياها بـ«الاسطورة التاريخية» ، أو الاسطورة المتجسدة المختلقة بدون قصد على يد كُتاب القرن الثاني ، إذ عدّها تعبيراً عن الامال الشعبية البدائية المسيحية . وأدى ذلك إلى إمتعاض البروتستانتيين الالمان منه ، ونشر كتاب بعنوان : «الايمان القديم والجديد» عام ١٨٧٢ ، الذي جازف فيه بالقول بإستبدال المسيحية بالمادية العلمية . أنظر : =

نقدي عن حياة يسوع» إلى اللغة الانكليزية على يد جورج إليوت George Eliot[١] في عام ١٨٤٥ ، وغدا أحد الاعمال التي شاركت فيما عرف بـ : «أزمة الايمان Crisis of Faith» في منتصف العصر الفكتوري فيما بعد . وعلى الرغم من ذلك ، لم يكن غالبية سكان إنكلترا مدركين لهذا كله ؛ فقد إستمر الكتاب المقدس يمثل الكلمة الحقيقية والحرفية للرب ، وأن إيمانهم يعتمد عليه . وبدا إنتشار النقد التاريخي كضربة قاسية وجهت بالضد من محاولة رجال الدين المحمومة للوصاية على الارواح البشرية بإسم الدين ، إلا أنه بدا مبرراً في الوقت المناسب لدى العقلانيين الذين ، لقرن ونيف ، تحدوا مسألة الوحي بإسم العقل[٢] .

رابعاً: أثر المكتشفات الجيولوجية والفلسفة المادية في زعزعة الفكر الديني التقليدي

كانت المكتشفات الجيولوجية أكثر إثارة ودراماتيكية من عمل اللاهوتيين ، وأكثر عمقاً بسبب ما إنطوت عليه من نقاش موسع . فقد يخطئ الباحث بشأن تاريخ التوراة ، وهو ما تم تجاهله دائماً من الباحثين غير المحايدين ، إلا أن الدليل الجيولوجي

Krüger, Gustav, David Friedrich Strauss, *The American Journal of Theology*, The University of Chicago Press, Vol.4, No.3 (Jul., 1900), pp.514-535; Encyclopedia Britannica, CD., 2010; Smart & Other (eds.), Ninian, Nineteenth Century Religious Thought in The West, Cambridge, Cambridge University Press, 1988, Vol.I, pp.215-260.

(١) جورج إليوت : الاسم المستعار لماري آن إيفانس Mary Ann Evans (١٨١٩-١٨٨٠) : روائية وصحفية ومترجمة إنكليزية ، طورت خاصية التحليل النفسي للقصة الحديثة . نشرت أول رواية كاملة بعنوان : «أدم بيد» Adam Bede عام ١٨٥٩ . أنظر :

Tomlinson, May, The Beginnings of George Eliot's Art: A Study of "Scenes of Clerical Life", *The Sewanee Review*, The Johns Hopkins University Press, Vol.27, No.3 (Jul., 1919), pp.320-329; Cooke, George Willis, George Eliot: A Critical Study of Her Life, Writings and Philosophy, Cambridge, Cambridge University Press, 2010.

(2) Royle, Victorian, p.15.

تميز بكونه دليلاً لواحد من أكثر العلوم شعبيةً آنذاك ، وإتسم هذا الدليل الذي قدمه الجيولوجيون بالضد من الحقيقة الحرفية لسفر التكوين بكونه دامغاً وفارضاً نفسه[١] .
ولم يكن الدين في صراع مع العلم على نحوٍ مباشر خلال القرن الثامن عشر . ففي النتاج العظيم للاهوتيين الطبيعيين ، أكدت هذه الاعمال كلمة الرب . ولكن ، ووفقاً لما ذكره توماس بيرنت Thomas Burnett (١٦٥٦-١٧١٤) بحذر في عام ١٦٩٠ : «**إنه لشيء خطر إقحام أحكام الكتاب المقدس بنزاعات العالم الطبيعي ، بل ومناقضاً للعقل ، حيث الخشية من أن تجلب كل الاشياء تحت الضوء ، حينها سنكتشف بأنها مزيفة بوضوح عما تصورناه في الكتاب المقدس من تأكيد**»[٢] . في الوقت الذي وصف فيه سفر التكوين بوضوح الخلق كسلسلة من المعجزات المتعاقبة . وإنبرى رئيس الاساقفة جيمس آشر James Ussher[٣] بالقول ، في تقسيماته الزمنية (الكرونولوجيا) ، بأن خلق الكون قد حدث تحديداً عام ٤٠٠٤ قبل الميلاد . ومع ذلك ، كانت فكرة تكوين العالم القائلة بوجوب الديناميكية والصيرورة المستمرة من أجل توجيه الانسان وإعلاء عظمة الرب ، قد ظلت على حالها . بل إن التأييد لهذه الفكرة قد إنخفض بإضطراد في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر[٤] .

---

(1) Royle, Victorian, pp.15-16.

(2) Burnett, Thomas, Theory of The Earth, Third Edition, London, R. N. For Walter Kettilby, 1697, Preface; Willey, Op. Cit., p.38.

(٣) جيمس آشر James Ussher (١٥٨١-١٦٥٦) : أسقف إنكلو- إيرلندي للكنيسة الانكليكانية ، أصبح رئيس أساقفة . وضع جدولاً زمنياً لاحداث نشأة الارض طبقاً للقراءة الحرفية للكتاب المقدس ، وزعم فيه إن الكون تكّون منذ بضعة الاف من السنين . أنظر :

Carr, J. A., the Life and Times of Archbishop James Ussher, An Intriguing Look At The Man Behind The Annals of The World, Master Books, Inc., 2006; Encyclopedia Britannica, CD., 2010; Wallace, Colin V. Murray, Understanding 'Deep' Time-Advances Since Archbishop Ussher?, *Archaeology in Oceania*, Oceania Publications, University of Sydney, Vol.31, No.3 (Oct., 1996), pp.173-177.

(4) Royle, Victorian, p.16.

لقد تطورت مدرستان فكريتان بما يتعلق وطبيعة التكوين أو الخلق عند الجيولوجيين . وإتفقت غالبية الآراء مع اللاهوتيين الطبيعيين ، القائلة بأن الحالة الراهنة للارض كانت ساكنة وإن جل عملية التكوين ماهي إلا نتاج سلسلة من حقب الكوارث النشطة . وتوافر دليل دعم هذا الرأي ؛ تمثل بإجراء الحفريات التي أكدت حقيقة طوفان العالم . وعلى النقيض من ذلك ، قاد جيمس هتن James Hutton (١٧٢٦-١٧٩٧) ، الجيولوجي والكيميائي الاسكتلندي ، وجهة نظر مخالفة ، حينما طرح نظرية تقول بأن قوى التغيير مستمرة بفعاليتها وأدائها . وكان لآراء هتن دلالات ومعاني خطيرة لرواية الكتاب المقدس المتعلقة بالتكوين . إذ تم الافتراض ، أنه إذا لم تأخذ بنظر الاعتبار تقسيمات رئيس الاساقفة آشر الزمنية ، فإنه وعلى الاقل هناك تاريخ حديث نسبياً لتكوين العالم ؛ غير أن هتن رأى : «**إنه لا أثر للبداية ولا توقع للنهاية**» . وقاد ريتشارد كروان Richard Kirwan (١٧٣٣-١٨١٢) ، رئيس الاكاديمية الايرلندية الملكية ، التيار المضاد لنظرية هتن ، حينما إعتبرها ذات خطورة بالغة . ودافع جون بليفير John Playfair (١٧٤٨-١٨١٩) ، العالم الرياضي والفيلسوف الطبيعي الاسكتلندي ، عن هتن ونبذ روع أولئك الذين : «**جعلونا نعتبر تخميناتهم الجيولوجية كتعليق على نص موسى**» . فقد وجد تأكيداً بدلاً من إنكار ، طبقاً لرب اللاهوتيين الطبيعي ، في إتساق الخلق وفقاً لما صاغته أعمال الرب في البدء أياً كان زمانها[١] .

وأكدت التقنيات الجديدة عدم ملائمة التواريخ التقليدية لعصر موسى ؛ فقد تبين بأن قشرة الارض قد تشكلت منذ حقبة طويلة ، وأستدل على وجود حياة للحيوان خلال الحقبة ذاتها . وصحح وليم سمث William Smith (١٧٦٩-١٨٣٩) ، المهندس المدني والجيولوجي ، التعاقب السليم لطبقات كل من إنكلترا وويلز . ووجد بأن مجموعة من القيعان تميل لان تحوي على القشور الكثيرة ذاتها والمنتشرة على نطاق واسع في مناطق متفرقة . ففي الوقت الذي كان فيه الاعتقاد القديم لمايعرف بـ«سلسلة الوجود Chain of Being» ، التي تنطلق من الرب فنازلاً إلى مخلوقاته

(1) Gillispie, Charles Coulston, Genesis and Geology: A Study in The Relations of Scientific Thought, Natural Theology, And Social Opinion in Great Britain 1790-1850, Harvard University Press, 1996, pp.48-56, 73-79.

الاشد وضاعة راسخاً ، كان إكتشاف الحيوانات المنقرضة ومختلف المتحجرات في طبقات الارض في مختلف المناطق ذو وقع صادم لدى الاصوليين المعتقدين بالكتاب المقدس وأرجحية قدمه . ولهذا تم التخلي عن فكرة مقياس الزمن القصير[1] .

وكانت أكثر محاولة محنكة للمواءمة بين المعرفة العلمية الحديثة والكتاب المقدس قد جرت على يد وليم بكلاند William Buckland (١٧٨٤-١٨٥٦) ، الجيولوجي الانكليزي ، من أوكسفورد . فقد هدف في محاضرته الافتتاحية إلى جمهور قراء الجيولوجيا في عام ١٨١٩ : «**إلى إظهار بأن دراسة الجيولوجيا تميل إلى تأكيد أدلة الدين الطبيعي ؛ وإن تطور الحقائق فيها متوافق مع روايات التكوين وذكر الطوفان[2] الوارد في الكتابات الموسوية**» . وأقر بأن ثمة الكثيرين ممن لا زال لديهم شك بإستمرار رقابة الرب ، «**مؤكدين بأن نظام الكون مستمر بعمله بواسطة قوة القوانين المفروضة بالاصل في الكينونة ذاتها ، وبدون الاعتقاد بضرورة التدخل المتواصل أو الاشراف المستمر من جهة الخالق**» . لكنه ، ومع ذلك ، أدرك قدرة تلاقي مثل هذه الاعتراضات . كما أظهر اللاهوت الطبيعي بوضوح «**إن أسباباً ثانوية تنتج تلك الاضطرابات العنيفة التي تحدث في حقب متعاقبة ، لا كيفما إتفق وبعشوائية ، وإنما بإتجاه نهايات محددة وذات فائدة**» . وكان الدليل الاكثر بياناً لمصلحة التدخل الالهي قد تمثل في

---

(1) Royle, Victorian, p.17.

(٢) أو الطوفان العالمي Universal Flood : تسمية تطلق على قصة طوفان عظيم حصل بسبب طغيان البشر على الارض ، وعلى الرغم من إختلاف القصة في مختلف الديانات والمعتقدات ، إلا إنها جميعها تتفق على حصوله ونجاة الناجين على سفينة أبحرت فوق الارض ؛ أما وجهة نظر المؤرخين فتشير إلى أنه حصل حوالي ٣٠٠٠ ق.م ، وأطلق عليه أيضاً بطوفان نوح نسبةً إلى النبي نوح .
وجاءت قصة الطوفان في العهد القديم وبالذات في الاصحاحات ٦-٩ من سفر التكوين . أنظر :
Rappaport, Rhoda, Geology and Orthodoxy: The Case of Noah's Flood in Eighteenth-Century Thought, *The British Journal for the History of Science*, Cambridge Uinversity Press on Behalf of the British Society for The History of Science, Vol.11, No.1 (Mar., 1978), pp.1-18; Kraeling, Emil G., the Earliest Hebrew Flood Story, *Journal of Biblical Literature*, The Society of Biblical Literature, Vol.66, No.3 (Sep., 1947), pp.279-293.

خلق الحيوانات ، لانه «**قدم إثباتاً عن طريق الجيولوجيا بأن هنالك حقبة معينة لم يكن فيها وجود عضوي : إذن لابد وأن كان لهذا الوجود العضوي بالتالي من بداية في هذه الحقبة؟**» . وأدى إحتدام النقاش على هذا النحو إلى إظهار إن لدى أصحاب الفكرة الكارثية في التكوين موقعاً أفضل في الجدل ، في الوقت الذي أبقى فيه هذا الجدل أصحاب فكر إندماج الاسباب في التكوين قدرتهم على إظهار كيف أن مسألة ظهور الحيوانات قد حصلت بدون تدخل إلهي ، إلا أن جدالاتهم تلك لم يكن لديها قدرٌ كافٍ من الاقناع(١) .

لقد أدرك بكلاند بأن إستخدام اللاهوت الطبيعي على هذا النحو لن يكون متوافقاً بالكامل مع الفصول الاولى لسفر التكوين ، إلا أنه كان واثقاً من عدم وجود تناقض أساسي . فلم ينكر سفر التكوين وجود العوالم السابقة أو التعامل مع أي تاريخ طبيعي . وإن تفسير الخلق في ستة أيام غدا ، على نحو بسيط ، كستة عصور حيث الرب أعَدَّ المكان لآدم وجميع الحيوانات الاخرى للخلْق الحالي . ولهذا قُدّر لبكلاند أن يعتمد حقبة أطول زمنياً عما كان سابقاً يقبله على نحو تقليدي ، بيد أن جُلّ نظريته إستندت على إفتراضٍ واحد هو : «**أن الادلة لجميع الحقائق التي لم تعتمد بعد في الجيولوجيا تتوافق مع ما سجله التاريخ المقدس والتقليد الوثني لتؤكد الاستنتاج القائل بأن الوجود البشري لا يمكن تضمينه على إفتراض بداياته قبل ذلك الزمن الذي حدد في الكتابات الموسوية**»(٢) . وفي هذا الوقت ، وجد جون مكنري John McEnery (١٧٩٦-١٨٤١) ، الاب الكاثوليكي ، بقايا بشرية إلى جانب تلك الثديات المنقرضة في كهف كنت Kent's

---

(1) Gordon, the Life and Correspondence of William Buckland, London, Watson, & Viney, Ld., 1894; Buckland, William, Vindiciae Geologicae: Or, The Connexion of Geology With Religion Explained, Oxford, 1820, pp.18-19, 21; Edmonds & Douglas, J. M. & J. A., William Buckland, F.R.S. (1784-1856) and An Oxford Geological Lecture, 1823, *Notes and Records of The Royal Society of London*, The Royal Society, Vol.30, No.2 (Jan., 1976), pp.141-167.

(2) Buckland, Op.Cit., p.23.

Cavern[١] . وُطرحت القضية ذاتها على يد بعض البيولوجيين ومحترفي الطب[٢] ، ليغدو التفسير المادي للحياة ممكناً على الرغم من عدم إحتماليته الشديدة . فلم ينكر ماديو القرن الثامن عشر وجود الرب بداهةً ، والقلة من أمثال جوزف بريستلي Joseph Priestley[٣] ، ممن كانوا خلاف ذلك . إلا أن التأثير العام للجدال المادي كان قد أدى إما إلى إحالة الرب إلى البداية حينما فرض قوانينه الطبيعية الثابتة على المادة ، أو على التفكير الاستدلالي الذي يؤدي إلى إلغائه تماماً[٤] .

---

(١) كهف كنت : ويدعى أيضاً حفرة كنت Kent's Hole ، كهف كلسي كبير يقع قرب توركي Torquay في ديفونشاير Devonshire في إنكلترا ، وجد فيه إحدى البقايا الاولى عن تعايش الانسان مع الحيوانات المنقرضة ، وربما يكون القس مكنري أول من تحرى ذلك خلال الاعوام ١٨٢٥-١٨٢٩ وإدعى هذه الحقيقة . ويعود تاريخ الكهف إلى مليوني عام مضت تقريباً . أنظر :

Sheehan, Thomas Canon, Father John McEnery and Palaeolithic Man 1796-1841, *Studies: An Irish Quarterly Review*, Vol.21, No.83 (Sep., 1932), pp.471-479; Encyclopedia Britannica, CD., 2010.

(2) Robertson, A History, Vol.I, p.117; Daniel, Glyn, The Idea of Prehistory, London, 1964, pp.42-43.

(٣) جوزف بريستلي (١٧٣٣-١٨٠٤) : لاهوتي إنكليزي وُمنظّر سياسي وعالم طبيعي . أسهمت أعماله بتقدم وتحرر السياسة والدين من خلال الكيمياء التجريبية . إذ يُستذكر من خلال أفضل مساهمة في حقل كيمياء الغازات ، حينما إكتشف غاز الاوكسجين في عام ١٧٧٤ . نشر في عام ١٧٧٧ مؤلفه : «بحوث تتعلق بالمادة والروح» ، الذي رد فيه كل الاشياء بما فيها النفس إلى المادة ، ونشر في عام ١٧٨٢ مؤلفه : «تاريخ مفاسد المسيحية» الذي نبذ فيه المعجزات والتعاليم الكالفنية المتعلقة بالخطيئة الاولى وسقوط آدم وكفارة المسيح ، كما رفض التثليث (أو الثالوث : الاب والابن وروح القدس) . أنظر :

Schofield, Robert E., The Enlightened Joseph Priestley: A Study of His life and Work From 1773 to 1804, The Pennsylvania State University Press, 2004; Encyclopedia Britannica, CD., 2010; Brown, Ira V., The Religion of Joseph Priestley, *Pennsylvania History*, Penn State University Press, Vol.24, No.2 (April, 1957), pp.85-100.

(4) Royle, Victorian, p.18.

وواجه الماديون تحدياً تمثل في ثنائية مفهوم العقل والمادة ، وطبقاً لما إعتبره بيركلي من أن كل شيء روحي هو ما تدركه حواسنا ، فإن الماديين رفضوا المفهوم النيوتني بشأن الذرة والقائل بأنها بناء مصمم دائم تشارك في تغيير العالم في الوقت الذي تبقى فيه هي بذاتها غير قابلة للتغيير . وجادلوا بأن المادة هي نشطة وليست هامدة ، وسعوا لايجاد أصل الحركة ليس في جزء من الطاقة الدالة الخارجية والاستدلال ، ولكن في خواص المادة ذاتها . وأوضح أعظم الماديين الفرنسيين ، هولباخ Holbach[1] ذلك التمايز قائلاً : «**إذا ما أدركنا ، من خلال الطبيعة ، الكمية الهائلة من المادة الميتة ، بأنها خالية من كل الخواص وهامدة تماماً ، فإننا وبلا شك سنكون مجبرين في البحث خارج هذه الطبيعة عن أصل حركاتها . ولكن إذا ما فهمنا وعبر الطبيعة بأنها وحقيقةً هي ، كل الاجزاء المنوعة التي فيها مختلف الخواص ، وتسير وفقاً لهذه الخواص ، وفي حالة تفاعل مستديم فيما بينها- فإننا لن نحتاج للإستعانة بالقوى الخارقة لكي نفسر الاشياء والظواهر التي نراها**»[2] . وبهذا غدا تحديد أسباب التغير لا يعزى لإرادة الوجود الخارجي ، بل عبر تفاعلها مع بيئتها المادية ، وهي النظرية المشتقة من نظرية لوك في المعرفة الحسية ، التي كدّ بيركلي في سبيل نقضها . ومن خلال الركون إلى إستنتاجاتها

---

(١) بول هنري ديتريش ، بارون دي هولباخ Paul-Henri Dietrich, Baron D'Holbach (١٧٢٣-١٧٨٩) : موسوعي وفيلسوف فرنسي ، وأحد أبرز مفكري عصر التنوير الفرنسي . أشتهر بنصرته للنزعة الالحادية والمذهب المادي . ساهم هولباخ بـ ٣٧٦ مقالة في دائرة المعارف مترجمة عن النصوص الالمانية وأغلبها عن الكيمياء أو موضوعات علمية . أكثر كتبه شعبية هو : «نظام الطبيعة» عام ١٧٧٠ الذي نشر تحت إسم مستعار . هاجم المسيحية لكونها مناقضة للعقل والطبيعة . ونشر : «النظام الاجتماعي» عام ١٧٧٣ ، حيث وضع الاخلاق والسياسة في إطار نفعي . أنظر :

Holohan, David, Christianity Unveiled By Baron d'Holbach: A Controversy in Documents, Hodgson Press, 2008; Encyclopedia Britannica, CD., 2010; Newland, T. C., D'Holbach, Religion, and The "Encyclopédie", *The Modern Language Review*, Modern Humanities Research Association, Vol.69, No.3 (Jul., 1974), pp.523-533.

(2) Willey, Op. Cit., p.152.

المنطقيـة ، ووفـقـاً لما بينه المؤرخ رويل ، كـان لهـذه المادية نتـائج خطيـرة على النظرة اللاهوتية للانسان :

أولاً ، لانهـا بُنيت على أن العـقل الذي يحـتـوي على النور الالهي وفق التـفـسـيـر الديني ، وهو المَعلم الذي يميز الانسـان عن الحيـوان ، لا يعـدو كـونه وظيـفة يؤديهـا المخ . وتوصل بريستلي إلى هذا الاستنتـاج المبـدئي ، حيث الملاحظة البسيطة أوحت إليه بأن : «**القدرة على الحس أو الادراك والفكر . . . لم يتم إيجـادها البـتـة إلا من خـلال الارتبـاط بنظام مـرتب ومعين في المادة ، ولذلك فـإن وجـود هذه القـوى ضـروري . . . ومن خـلال الظروف التي تصاحب ذلك كونيـاً ، فإن حكمنا في جميع القضايا الاخرى ليس بإستطاعتنا ولكن لدينا إستنتاج مفاده ، إن في الانسان خاصية النظام العصبي أو بالاحرى ما يعرف بالمخ**»[١] .

ثانيـاً ، إثارة تسـاؤل مـفـاده ، إذا كـان العـقل على شـاكلة مـا روي في قـصـة الطوفـان العالمي ، عندها ما هي مكانة العقل الالهي في الكون؟ حيث نبذ الفيلسوف إسبينوزا الثنائية الديكارتية Cartesian Dualism (التي تفصل مـا بين الفكر والمادة) ، وقـدم نظامـاً بديلاً يقـوم على «وحـدة الوجـود البـاطنيـة Mystical Pantheism» ، القـائل بأن كل شيء يخـفض لينتـسب إلى الجـوهر الوحـيـد المتـمـثل بالرب . وتبنى بعض من المفكرين الاحـرار هذه الفلسـفـة ، إلا إنهم جردوها من العنصر الصوفي ، وحولوها من وحدة الوجود إلى الالحاد الفعلي . وتبنى آخـرون «الفرضـيـة السـديميـة Nebular Hypothesis» (الخـاصـة بتكون المجـموعـة الشـمـسـيـة إثر تصـادم سـديم ورمـاد دقيق) لتـفـسـيـر أصل الكون . إذ تتحدر هذه النظرية من أصحاب الفكر الذري اليونانيين ، وتنبذ معضلة الخالق من خـلال الاسـتـغناء عن مسـألة الخلق . فـقـد أنعش باحث عـصـر النهـضـة جـيـوردانو برونو Giordano Bruno[٢] هذه النظرية ، لتـتطور في القـرن الثـامن

---

(1) Royle, Victorian, p.19.

(٢) جـيـوردانو برونو Giordano Bruno (١٥٤٨-١٦٠٠) : فـيلسـوف وعـالـم فلكي ورياضي إيطالي . طور نظرية كوبرنيكوس (١٤٧٣-١٥٤٣) القائلة بأن الارض تشكل أحد توابع المجموعة الشـمـسـية وتدور حـول الشـمـس ، حـينمـا أشـار إلى وجـود مـجـمـوعـات شـمـسـيـة كـثـيـرة أخـرى إلى جـانب =

عشر على يد إيمانويل كانت Immanuel Kant[1] ولابلاس Laplace[2] الذي

= مجموعتنا الشمسية والتي لا يستطيع سكان الارض رؤيتها ، كما أكد هو ، بسبب بعدها الكبير . وتوقع وجود الحياة فوق الكواكب الاخرى ؛ وبهذا رفض النظرية الجيوسنترية القائلة بمركزية الارض لينتقل إلى النظرية الهليوسنترية القائلة بأن الشمس هي مركز المجموعة الشمسية التي تدور حولها . وجه نقداً قوياً للاخلاقيات المسيحية ، ولا سيما تجاه المبدأ الكالفيني للخلاص القائم على أساس الايمان فقط . قضى نتيجة أفكاره تلك داخل أقبية السجون ثماني سنوات بين جدران محاكم التفتيش وأقبية تعذيبها المرعبة تم بعدها حرقه علناً في إحدى ساحات روما في تشرين الثاني عام ١٦٠٠ ، ودافع برونو بثبات عن أفكاره ، فقد تميز بشجاعة خارقة وصلابة نادرة ، حتى أنه توجه إلى الحكام في أثناء صدور حكم الموت عليه حرقاً قائلاً لهم بتهكم : «أغلب الظن إنكم تصدرون حكمكم بخوف أكبر مما أتلقاه به أنا» . أنظر : أحمد ، كمال مظهر ، النهضة ، بغداد ، دار الحرية للطباعة ، سلسلة الموسوعة الصغيرة- رقم ٣٧ ، ١٩٧٩ ، ص ص ٥٣-٥٤ ، ٦٣ ؛

Whittaker, Thomas, Giordano Bruno, *Mind*, Oxford University Press on Behalf of The Mind Association, Vol.9, No.34 (Apr., 1884), pp.236-264; Encyclopedia Britannica, CD., 2010.

(١) إيمانويل كانت (١٧٢٤-١٨٠٤) : فيلسوف الماني مشهور ، فند مذهب هيوم في الشك ، وخلق منظوراً واسعاً في الفلسفة . نشر أعمالاً مهمة عن نظرية المعرفة والقانون والدين والتاريخ ، وأكثر أعماله شهره هو : «نقد العقل المجرد» الذي كان بحثاً وإستقصاءً عن محدوديات وبنية العقل نفسه . إعتقد بأنه خلق طريقاً وسطاً بين التجريبية والعقلانية ، وقال إن إستخدام العقل بدون التجربة يقود حتماً إلى الوهم . دعيت فلسفته أيضاً بالفلسفة النقدية . أنظر :

Williams, Michael C., Reason and Realpolitik: Kant's "Critique of International Politics", *Canadian Journal of Political Science*, Canadian Political Science Association, Vol.25, No.1 (Mar., 1992), pp.99-119; Clarke, Michael, Kant's Rhetoric of Enlightenment, *The Review of Politics*, Cambridge University Press for The University of Notre Dame Du Lac on Behalf of Review of Politics, Vol.59, No.1 (Winter, 1997), pp.53-73.

(٢) بيير سيمون ، ماركيز دي لابلاس Pierre-Simon, Marquis De Laplace (١٧٤٩-١٨٢٧) : رياضي وعالم فلكي وفيزيائي فرنسي . ذاع صيته بتحقيقاته المتعلقة بإستقرار النظام الشمسي . =

ترجم مؤلفه الصادر عام ١٧٩٦ والمعنون : «تفسير نظام العالم» إلى الانكليزية عـام ١٨٠٩ ووظفـه السـيـر جـون هيـرشـل Sir John Herschel[(١)] في مـؤلفـه المعنون : «رسالة عن علم الفلكTreatise on Astronomy» عام ١٨٣٣[(٢)] .
لقد تمثلت المعضلة آنذاك في توضيح لِمَ على نظام المادة أن يتغير ، ولماذا يجب على الكائنات الحية أن تنمو لتتطور؟ وحاول لامارك Lamarck[(٣)] تفسير ذلك في

= طور من نظرية دعيت بنظرية الاحتمالات . طرح رؤية النظرية السديمية من خلال كتابه : «تفسير نظام العالم» الذي ذكر فيه أن النظام الشمسي تطور من كتلة دوارة من الغاز تكثفت فتكونت الشمس ثم إنطلقت منها بعد ذلك سلسلة من الحلقات الغازية صارت الكواكب وبينما هذه الكواكب في حالتها الغازية إنطلقت منها حلقات صارت توابع . أنظر :

Gilllispie, Charles Coulston, Pierre-Simon Laplace 1749-1827: A Life in Exact Science, New Jersey, Princeton University Press, 1997; Encyclopedia Britannica, CD., 2010; Whittaker, Edmund, Laplace, *The Mathematical Gazette*, The Mathematical Association, Vol.33, No.303 (Feb., 1949), pp.1-12.

(١) السير جون هيرشل (١٧٩٢-١٨٧١) : رياضي وفلكي وكيميائي ومخترع فوتوغرافي إنكليزي . أول من عـرّف العـالم بمصطلحـات تصـوير Photography عـام ١٨٣٩ ، ونيكاتيف (سلبي) وبوزتف (إيجابي) . أنظر :

Sutton, M. A., Sir John Herschel and The Development of Spectroscopy, *The British Journal for The History of Science*, Cambridge University Press on Behalf of The British Society for The History of Science, Vol.7, No.1 (Mar., 1974), pp.42-60; Encyclopedia Britannica, CD., 2010.

(2) Robertson, A History, Vol.I, pp.113-114.

(٣) جان بابتيست لامارك Jean- Baptiste Lamarck (١٧٤٤-١٨٢٩) رائد البيولوجيا الفرنسية ، عُرف من خلال فرضيته في التطور القائلة بأن المميزات هي مكتسبة بالوراثة ؛ لتدعى فيما بعد باللاماركية Lamarckism ، حيث اعتقد لامارك أن التطور يتم عن طريق تمدد الاعضاء في الكائنات الحية ، فعلى سبيل المثال : الزرافة حظيت برقبة طويلة لانها دائماً ما ترفع رقبتها إلى الاشجار . ومع ذلك تم تفنيد فرضيته فيما بعد لصالح نظرية التطور عن طريق الانتخاب الطبيعي . أنظر : =

فرضيته الخاصة بالارادة ، حينما إعتقد بأن الموجودات الحية تبذل جهدها بنفسها في سبيل أن تتواجد في بيئتها ، لتتكيف من ثم فيها . وكانت النتيجة لمثل هذا التكيف أن أصاب بعض الكائنات الحية الاهمال والاضمحلال ، بينما تطور الباقي . وهذه الصفات المكتسبة ستنتقل إلى الجيل التالي ، وهلم جرا . وعلى الرغم من أن «فرضية التطور Development Hypothesis» تلك قد إحتوت على نقص جلي ، إلا أنها لاقت إستحساناً عظيماً في النصف الاول من القرن التاسع عشر ؛ وفسرت علناً في صالات المعرفة للجماهير وكتب عنها في مجلات الفكر الحر[1] . وأخذت مداها الشعبي الواسع في العصر الفكتوري ولا سيما في منتصف القرن التاسع عشر . وبالنتيجة غدا سفر التكوين بالضد من الجيولوجيا ؛ والعقل بالضد من المادية . وتلك هي القضايا التي أسهمت ، في مطلع القرن التاسع عشر ، في نمو الادراك ، حيث العلم غدا مناهضاً للايمان المسيحي . وأصبحت المعرفة العلمية متاحة ، ليتخلى المدافعون المسيحيون عن مواقعهم الاخيرة التي يشغلونها ، حينما وصلت أزمة الايمان إلى ذروتها في منتصف القرن[2] .

خامساً: بروز الفلسفة الحتمية ونتائجها في نمو الفلسفة النفعية وانعكاسهما على التحولات الفكرية المدنية

على الرغم من ذلك ، لم ينأى المفكرون الاحرار بأنفسهم عن كل الصعوبات العقلية ، وكانت النتيجة الطبيعية للمادية هي الفلسفة الحتمية Determinism[3] . إذ

Packard, Alpheus S., Lamarck, The Founder of Evolution, Wildhern Press, 2008; Encyclopedia Britannica, CD., 2010; Stafleu, Frans A., Lamarck: The Birth of Biology, *Taxon*, International Association for Plant Taxonomy (IAPT), Vol.20, No. 4 (Aug., 1971), pp.397-442.

(1) The Co-operative Magazine, 1826; The Oracle of Reason, 1841-1843.

(2) Royle, Victorian, p.21.

(٣) الحتمية : فرضية فلسفية تقول إن كل حدث في الكون بما في ذلك الاختيارات الاخلاقية خاضعة لتسلسل منطقي سببي محدد سلفاً ، وإن ما يعرف بالارادة الحرة ما هي إلا وهم باطل . وبالتالي لا مجال لحوادث عشوائية غير محددة سلفاً ، إذ يعترف الحتميون بأنه ربما يصعب على الانسان =

كتب هولباخ في مؤلفه الواسع الشهرة : «نظام الطبيعة» عن القانون الطبيعي قائلاً : **«إن الانسان دائماً يخدع نفسه حينما يتخلى عن التجربة ليتبع أنظمة خيالية . إنه عمل الطبيعة وهو خاضع لقوانينها ، وغير قادر أن يخلص نفسه منها . إنه لا يستطيع أن يخطو أبعد منها حتى بالفكر»**[(١)] .

وغدت النتيجة المترتبة على هذا الاعتقاد هو تغلغل القانون الطبيعي بعامته في أعمال الفلاسفة الحتميون ، الذين كان من أولهم هوبز ، حينما وضع تعريفات أساسية إعتمدت عليها الفلسفة الحتمية ، إذ قال : **«إن الحرية والضرورة متوافقتان ، كما في الماء ، الذي له ليس الحرية فحسب ، بل حتمية تدفقه من مسلك الانحدار ، وعلى نحو مشابه كما يحصل حينما يقوم الناس بأفعالهم طواعيةً ، بسبب إن فعلهم هذا أنطلق من إرادتهم . . . ولكون إن كل فعل إنساني إرادي ، وكل رغبة ، وميل ناجم عن سبب محدد . . . يعود في إرتباطه الاول بالرب المسبب الاول لكل المسببات . . . حيث بإستطاعته رؤية إرتباط تلك المسببات ، لتغدو جميع الافعال الطوعية للناس ليست حتمية فحسب ، بل مدركة بجلاء»**[(٢)] . وتطورت هذه الفكرة على يد كولنز في مؤلفه :

= أحياناً معرفة النتيجة مسبقاً نتيجة عدم قدرته تحديد الشروط البدئية للتجربة ، أو عدم إمتلاكه للصياغة الدقيقة للقانون الطبيعي ، لكن هذا القانون موجود والنتيجة محددة سلفاً . أنظر : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، ص ص ١٣٥-١٣٦ ؛

Brighouse, Carolyn, Determinism and Modality, *The British Journal for The Philosophy of Science*, Oxford University Press on Behalf of The British Society for The Philosophy of Science, Vol.48, No.4 (Dec., 1997), pp.465-481; Encyclopedia Britannica, CD., 2010; Bobzien, Susanne, Determinism and Freedom in Stoic Philosophy, Oxford, Oxford University Press, 2004.

(1) Bradlaugh, Charles, Half Hours with The Freethinkers, *Cowen Tracts*, Newcastle University, No.10, Sunday, February 15, 1857, p.75.

(2) Chappell (ed.), Vere, Hobbes and Bramhall on Liberty and Necessity, Cambridge, Cambrudge University Press, 2003, p.95; Ross & Other (eds.), Ralph, Thomas Hobbes in His Time, London, Oxford University Press, 1974, p.43.

«تحـقـيق فلسـفي يتـعلق بالحـرية الانسـانيـة Philosophical Inquiry Concerning Human Liberty» عـام ١٧١٥ ؛ وعند ديفـيـد هيـوم David Hume[١] في مـؤلفـه : «تحـقـيق يتـعلق بالفـهم البـشـري An Inquiry Concerning "Human Understanding» عام ١٧٤٨ ؛ وديفيـد هارتلي David Hartley (١٧٠٥-١٧٥٧) ، الفيلسوف والطبيب الانكليـزي ، في مـؤلفـه : «مـلاحظات عن الانسـان Observations on Man» عـام ١٧٤٩ ؛ لتنتـقل ضـمن كـتـابات القـرن التـاسـع عـشـر وعلى يد بريستلي في مؤلفـه «توضيح مذهب الحتمية الفلسفية» عام ١٧٧٧[٢] .

وجادل فلاسـفة الحتمية والقانون الطبيعي بأن وراء كل شيء سبب ، سواء كنا مدركين له أم لا . وفي علم النفس البشري يطلق على هذا السبب بـ«الدافع» ، ذلك إن الظروف المؤثرة على الانسان من خلال عواطفه تجعل من غاية إرادته خاضعة لها . إلا أن ذلك لم يكن مجرد حتمية ميكانيكية ، بسبب إمتلاك الانسان لقوة العقل الذي يؤثر في رسم الطريق الدافع لارادته . ومن خـلال التـجـربة ، تعلم الانسـان بأن

---

(١) ديفيد هيوم (١٧١١-١٧٧٦) : فيلسوف واقتصادي ومؤرخ وتجريبي إسكتلندي . مذهبه نتيجة منطقية لفلسفة لوك وبيركلي التجريبيتين . أشتهر بتجريبيته الصارمة ، وجمع بين الشك الديني والنزعة المحافظية (التورية) . أعظم أعماله ربما أولها المعنون : «رسالة عن الطبيعـة البشرية A Treatise of Human Nature» في ثلاث مـجلدات ١٧٣٩-١٧٤٨ . قـال أن كل شيء ، بما في ذلك الانسـان ، سلسلة حالات متتابعة . فمعرفتنا سلسلة إنطباعات حسية تتجمع وفق قوانين للترابط . وإن العلاقة السببية إقتران مطرد بين السبب والمسبب . ولما كان هذا الاقتران مرهوناً بتجربتنا الحسية ، فهو محتمل الصدق ، وليس إقتراناً محتوم الحدوث منطقياً ، ومن هنا عرف مذهب هيوم بالشك . أنظر : برهييه ، المصدر السابق ، ج٥ ، القرن الثامن عشر ، ص ص ١١٢-١٣٣ ؛ دولوز ، جيل ، التجريبية والذاتية : بحث في الطبيعة البشرية وفقاً لهيوم ، ط١ ، تعريب : أسامة الحاج ، بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ١٩٩٩ ؛

Kenyon, Op. Cit., p.181; Schmidt, Claudia M., David Hume: Reason in History, The Pennsylvania State University Press, 2003; Marshall, Geoffrey, David Hume and Political Scepticism, *The Philosophical Quarterly*, Blackwell Publishing for The Philosophical Quarterly, Vol.4, No.16 (Jul., 1954), pp.247-257.

(2) Royle, Victorian, p.21.

الاسباب المحددة لها مؤثرات محددة ، وأن هذه المعرفة الحقيقية تتمثل بتغير في الظروف . وهكذا فإن الطبيعة المدروسة تُمكّن الانسان من النأي بنفسه . وعلى هذه الشاكلة وجد المذهب الحتمي في القرن التاسع عشر تعبيره الواضح في كتاب تشارلز بري Charles Bray (١٨١١-١٨٨٤) ، الفيلسوف والمصلح الاجتماعي البريطاني ، المقروء بنهم والمعنون : «الفلسفة الحتمية» ، حيث عّرف بري المذهب أو الفلسفة الحتمية قائلاً : **«إن المذهب الحتمي ، بلغة بسيطة ، يعني بأن الانسان غير قادر في أي حال أن يعمل بخلاف العمل الذي قام به ، على إفتراض إن حالة عقله التي كان عليها ، والظروف المحيطة به ، متماثلان ؛ بحيث يمكن القول بتجرد بأن الاسباب المماثلة تنتج دائماً تأثيرات مماثلة . فالبشر عرضة إلى إفتراض بأنهم يمكن أن يفعلوا الفعل بطريقة أخرى ، بسبب ، إعادة النظر بسلوكهم ، حيث نتائج ذلك ستكون- أو الخبرة المستقاة منها- مختلطة مع الدوافع التي قررت لهم من قبل ، وعليه فإن قرروا أن يفعلوا ثانيةً ، فإن ظروف مختلفة يجب أن تؤخذ بالحسبان»**[١] .

لقد أعطى مذهب الحتمية إنطباعاً عميقاً في فكر القرن التاسع عشر ، وأضحى على يد بريستلي تبريراً فلسفياً وإصلاحاً اجتماعياً . وبعيداً عما شجعه المذهب الحتمي في بروز الفلسفة الجبرية Fatalism (أو الايمان بالقضاء والقدر)[٢] فإنه حفز الناس بفعالية لامر آخر أشار له بريستلي بالقول : **«إن الادراك بأن مساعيهم هي من أجل نيل سعادتهم سيكون له تأثير مؤكد وضروري ، وسوف لن يحكم على جهد إرادتهم بالضياع : وبدلاً من توجيههم بإرجاء عملهم ، سيتشجعون بأنفسهم ببذل قوة مضاعفة ؛ وإن الرغبة بالسعادة ستكون غير**

---

(1) Bray, Charles, The Philosophy of Necessity or The law of Consequences As Applicable to Mental, Moral, Social Science, London, Longman, Orme, Brown, Green and Longmans, 1841, Vol.I, pp.167-168; The New Moral World, 23 April 1842.

(2) Solomon, Robert C., On Fate and Fatalism, *Philosophy East and West*, University of Hawai'I Press, Vol.53, No.4 (Oct., 2003), pp.435-454; Taylor, Richard, Fatalism, *The Philosophical Review*, Duke University Press on Behalf of Philosophical Review, Vol.71, No.1 (Jan., 1962), pp.56-66.

ممكنة إلا أنه سيسمح أن يكون لها التأثير ذاته على كل الانظمة»[1] .

إن اللغة الاخلاقية هذه قادت بالتالي إلى ما عرف فيما بعد بمذهب أو فلسفة المنفعة Utilitarianism[2] ، إذ تحول كل من مصدر وقاعدة الاخلاق من إرادة الرب إلى إرادة الانسان . والسلوك أنتج عاقبة الغريزة العقلانية- وهي ثمرة الانفعالات المقدرة من العقل وفي ضوء التجربة- حينما أفترض إن الانسان أناني بالاصل ، يسعى خلف سعادته ويتفادى الالم . وعلى تلك البديهيات سعى جيرمي بنثام Jeremy Bentham[3] لينشيء مبادئ العالم الاخلاقي على شاكلة نيوتن حينما وضع المبادئ الفيزيائية . إلا أن بنثام إنفرد عن العديد من المفكرين النفعيين أمثال :

---

(1) Priestley, Joseph, The Doctrine of Philosophical Necessity Illustrated, London, J. Johnson, 1777, p.97.

(2) Lyons, David, Forms and Limits of Utilitarianism, Oxford, Oxford University Press, 2002; Bhattacharya, Malini, Utilitarianism and The Concept of Authorial Autonomy in Early 19th Century England, *Economic and Political Weekley*, Economic and Political Weekley, Vol.17, No.31 (Jul.31, 1982) pp.49-57.

(٣) جيرمي بنثام (١٧٤٨-١٨٣٢) : فيلسوف وخبير قانوني وإقتصادي ومصلح إنكليزي . بعد تخرجه من جامعة أوكسفورد أصبح محامياً ولكنه لم يمارس المهنة . وقام عام ١٧٧٦ بنشر كتابه : «شيء عن الحكومة» وهو كتاب يعبر عن موقف رجل إصلاحي يهاجم صيغة القانون في إنكلترا في ذلك العهد . وقبيل عام ١٧٨٠ صاغ نظرياته بشأن فلسفة التشريع . وتتسم فلسفته المعروفة عموماً باسم «مذهب المنفعة» بتحقيق اعظم الخير لاكبر عدد من الناس ، وبأن العقاب عمل من أعمال الشر لا يمكن تبريره إلا إذا كان ذلك العقاب يحول دون وقوع شرور أكبر . ولهذا يعد المفسر الرئيسي الاول لمذهب أو فلسفة المنفعة . أنظر : بالمر ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ص ١٠٥- ١٠٦ ؛ Crimmins, James, Bentham and Hobbes: An Issue of Influence, *Journal of The History of Ideas*, University of Pennsylvania Press, Vol.63, No.4 (Oct., 2002), pp.677-696; Crimmins, James E., Bentham on Religion: Atheism and the Secular Society, *Journal of The History of Ideas*, University of Pennsylvania Press, Vol.47, No.1 (Jan.- Mar., 1986), pp.95-110; Roberts, David, Jeremy Bentham and The Victorian Administrative State, *Victorian Studies*, Indiana University Press, Vol.2, No.3 (Mar., 1959), pp.193-210.

هارتلي ، وهيوم وبريستلي ووليم غودوين William Godwin[١] وبالي الذين جميعهم إستخدموا الجدالات ذاتها . إذ أشار بنثام إلى مذهب المنفعة أو مبدأ السعادة الاعظم قائلاً : «**إن الافعال هي صحيحة بقدر ما تقدم من سعادة ، وتكون الافعال خاطئة بقدر ما ينتج عنها ما يناقض السعادة أو يبطلها . والمقصود بالسعادة البهجة وغياب الالم ، وعدم السعادة هو ألم وحرمان من البهجة**» . ولهذا أكد بنثام في مناقشة هذا المذهب في إثبات كيف يكون المبدأ مفيد في صناعة الاحكام المتعلقة بتطور القوانين والنظام والحكم . وأعطى قائمة طويلة لما أفترضه بالسعادات الممكنة من جملتها صنع الثروة وتحقيق السمعة الطيبة ، والقوة المكتسبة وتحقيق الارادة الخيرة ، وإمتلاك الامل في المستقبل[٢] .

لقد كان مذهب المنفعة الاخلاقي متغلغلاً في التعاليم الاخلاقية الإنكليزية في

---

(١) وليم غودوين (١٧٥٦-١٨٣٦) : صحفي وفيلسوف سياسي وروائي بريطاني . أحد الذين أسهموا في دفع الحركة الرومانسية الانكليزية ، من خلال كتاباته ، نحو تقديم الالحاد والفوضوية والحرية الشخصية . ولهذا يعد من أوائل المنادين بالمذهب النفعي والفوضوية . إرتكزت ليبراليته المثالية على مبدأ السيادة المطلقة وقدرة العقل لتحديد الاختيارالافضل . من أشهر أعماله : «مبحث يتعلق بالعدالة السياسية وأثرها على الفضيلة والسعادة العامة» عام ١٧٩٣ ، وهو رفض للحكومة التقليدية من خلال عرض شر الافساد والطغيان . وإقترح أن يحل محلها جماعات مكتفية ذاتياً . آمن بفساد النظام الملكي وضرورة أن يستبدل بالنظام الجمهوري ، وإعترض على عقوبة الاعدام وهاجم التملك وإكتناز المال ورأى إن نظام الزواج يقوم على الإثرة والرغبة في التملك ، وجميعها آراء ذات طابع شيوعي ، وقيل عنه إنه يعبد العقل . كما دعا إلى إعتناق مبدأ الجبر ذاهباً إلى أن كل شي في العالم إنما يحدث كنتيجة حتمية لاسباب لا مفر من أن تؤدي إلى هذه النتيجة . أنظر : عوض ، المصدر السابق ، ص ص ١٩١-١٩٥ ؛

Scrivener, Michael, H., Godwin's Philosophy: A Revaluation, *Journal of The History of Ideas*, University of Pennsylvania Press, Vol.39; No.4 (Oct., Dec., 1978), pp.615-626; Encyclopedia Britannica, CD., 2010; Kramnick, Isaac, on Anarchism and The Real World: William Godwin and Radical England, *The American Political Science Review*, American Political Science Association, Vol.66, No.1 (Mar., 1972), pp.114-128.

(٢) ديلو ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ص ١٤٠-١٤١ .

عصر التنوير Enlightenment Age . أما بنثام فقد كان مؤمناً بهذا المذهب إيماناً راسخاً وإتخذ منه مبدأً أساسياً لتفكيره ودعامة رئيسة لمذهبه وأمده بثروة ضخمة من المادة التجريبية ، وحاول إقامة توازن بين اللذة والالم في السلوك البشري أو ما يسمى «بحساب اللذات Hedonistic Calculus» وطبق هذه الافكار على أشد مجالات الحياة العملية تبايناً ولا سيما السياسة والاصلاح الاجتماعي(١) . فقد جعل مبدأ المنفعة أهم العوامل لإخضاع الحياة الاخلاقية بأسرها لعنصر الكم تماماً . وبالتالي أزال عن الاخلاق كل العناصر الكيفية وجميع الشروط والمشاكل الميتافيزيقية والدينية(٢) . ومن خلال ذلك ، الغى بنثام دور الدين وإسهامه في رسم الاخلاق ، وأكد على وجود أخلاق وأهداف فردية أصيلة وحقيقية في رغبة الانسان تسبق الدين في ضروراتها الحياتية ووجودها الانساني ، وتمنح الفرد منطلقاً مدنياً آخر بعيد عن تحديدات الدين وأخلاقياته .

أما الفلسفة الحتمية ، مع كل آثارها ، فقد كانت واحدة من أهم مواريث عصر التنوير . فقد هيأت هذه الفلسفة لفكرة التناسق في الطبيعة ، الارضية لان تندمج مع قوى العقل الخلاقة ، كما هيأت نظاماً علمانياً للاخلاق ليغدو صنواً للمفهوم العلماني للقانون الطبيعي . فضلاً عن تهيئتها للاهوت العلماني للربوبية والدين الطبيعي . وأصبح العلم التدبير الجديد ، وغدا التعليم المُخلّص للبشرية ؛ عبر الادراك والسيطرة على الظروف . وبناءً على هذا المخطط الكبير الهادف إلى منح الكمال للانسان ، لم يبقَ للمفاهيم القديمة المتعلقة بالخطيئة الاصلية والخلاص سوى مساحةً صغيرة . فقد تصارع العقل مع معضلات الحياة وأفضى إلى إستنتاجات تعارض

---

(1) Tännsjö, Torbjörn, Classical Hedonistic Utilitarianism, *Philosophical Studies: An International Journal for Philosophy in The Analytic Tradition*, Springer, Vol.81, No.1 (Jan., 1996), pp.97-115; O'Hear (ed.), Anthony, Philosophy, The Good, The True and The Beautiful, Cambridge, Cambridge University Press, 2000, pp.134-137; Stone, Julius, Human Law and Human Justice, California, Standford University Press, 1965, pp.109-113.

(٢) متس ، رودلف ، الفلسفة الانجليزية في مائة عام ، تر : فؤاد زكريا وزكي نجيب محمود ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٣ ، ج١ ، ص ص ٥٠-٥١ .

الوحي المسيحي ؛ حيث وجد الفكر الحر في القرن التاسع عشر قاعدة تعاليمه مهيأة من فلسفة وفلاسفة عصر التنوير[1] .

سادساً: أثر الثورة الفرنسية في بريطانيا - نمو الراديكالية المتطرفة البريطانية Ultra- Radicalism والتقليد البيني:

لم تكن الآراء المؤثرة بشدة في القضايا الدينية والسياسية ، التي أحدثت ضجة في القرن السابع عشر محمية ، بل تم إعاقتها ، بحيث تمتعت قضايا الكنيسة والدولة في بريطانيا القرن الثامن عشر بهدوء ظاهري لم يعكر صفوها سوى إضطراب تثيره من حين لآخر تلميحات فكرية ذات أسلوب خفي . وحينما تنشأ إثارة على هذا النحو سرعان ما توسم بـ«الكفر Infidelity» ، وهي كلمة تستخدم لوصف المعتقدات الخارجة عن التعاليم المسيحية التقليدية من أي نوع سواء تم الاعتقاد بها أو تداولها أشخاص من الطبقات الدنيا[2] .

وأسهمت أشهر الاندية والجمعيات الجدالية في لندن في تهيئة الجو الفكري الجدالي العلمي ، هي «جمعية روبن هودRobin Hood Society»[3] ، التي ناقشت مختلف المسائل المتعلقة بالادب والدين والسياسة . وكان المؤرخ وليم هاملتون ريد William Hamilton Reid (١٧٦٠-١٨٢٦) قد وصف أحد دعاتها بأنه «كاهن

---

(1) Royle, Victorian, p.23.

(2) Morgan, R. W., Christianity and Modern Infidelity, New York, Daniel Dana, Jr., 1859; Pearson, Thomas, Infidelity; Its Aspects, Causes, and Agencies, New York, Robert Carter & Brothers, 1854; Royle, Victorian, pp.23-24; Houchen, Charles, Infidelity: The Cause and Effects Asserted, *Bristol Selected Pamphlets*, University of Bristol Library, J. H. Purdy, 1861, pp.1-56; Infidelity, *The Catholic Layman*, Catholic Layman, Vol.7, No.82 (Oct. 19, 1858), pp.113-114.

(3) Money, John, Experience and Identity Birmingham and The West Midlands 1760-1800, Manchester, Manchester University Press, 1977, pp.111-113; McCalman, Iain, Radical Underworld: Prophets, Revolutionaries and Pornographers in London 1795-1840, First Published, Cambridge, Cambridge University Press, 1988, p.113.

الطبيعة Priest of Nature» يلقي المحاضرات خلال الاعوام ١٧٧٥-١٧٧٦[1] . ولاحظ ريد قضايا متشابهة بين تلك الجمعيات في إنكلترا ، وفرنسا والمانيا ، وقارن الوضع الانكليزي خلال منتصف القرن السابع عشر وآواخر القرن الثامن عشر . وغدا حقيقة مؤكدة إن راديكاليي غرب أوربا وشمال أمريكا يتشاطران الارث الثقافي العام ، على الرغم من إن الربوبية في إنكلترا كانت قد حققت تقدماً قليلاً بعد عام ١٧٥٠ . ومع ذلك ، الهمت الاحداث التي وقعت بعد عام ١٧٨٩ في فرنسا ، أنصار الراديكالية المتطرفة في بريطانيا ، حيث لاقت جمعيات ونوادي الجدال الغامض مجالاً حيوياً جديداً . فقد أُسست جمعية الايرلنديين المتحدين The Society of United Irishmen[2] في دبلن آواخر عام ١٧٩١ ، وإتسع تأثيرها ولا سيما في لانكشاير Lancashire وغربي أسكتلندا[3] ؛ لتستهل مبكراً جمعية لندن

(1) Reid, Op. Cit., pp.87, 90-92.

(٢) جمعية الايرلنديين المتحدين : منظمة سياسية إيرلندية شكلت في تشرين الاول ١٧٩١ على يد ثيوبولد وولف تون Theobald Wolfe Tone (١٧٦٣-١٧٩٨) ، وجيمس نابر تاندي James Napper Tandy (١٧٤٠-١٨٠٣) ، وتوماس راسل Thomas Russell ، لتحقيق تحرير الكاثوليك ، ومن خلال التعاون مع البروتستانت ، تجاه المطالبة بالاصلاح البرلماني . سعت الحكومة البريطانية من خلال عدة محاولات كبح الوجه الاجتماعي للتنظيم لكونه حركة سرية مكرسة لضمان الاستقلال الايرلندي الكامل . وفي نيسان عام ١٧٩٤ فتحت الجمعية باب المفاوضات مع فرنسا الثورية في سبيل المعونة العسكرية ، ولكن سرعان ما علمت الحكومة البريطانية بهذا النشاط . أنظر :

Donnelly, James S., Propagating The Cause of The United Irishmen, *Studies: An Irish Quarterly Review*, Irish Province of The Society of Jesus, Vol.69, No.273 (Spring, 1980), pp.5-23; Encyclopedia Britannica, CD., 2010; Durey, Michael, The Dublin Society of United Irishmen and the Politics of The Carey- Drennan Dispute 1792-1794, *The Historical Journal*, Cambridge University Press, Vol.37, No.1 (Mar., 1994), pp.89-111.

(٣) انظر ملحق رقم -١- .

للمـراسلة[1] London Corresponding Society ، حـينمـا إرتبطت وتناغـمت مع مطالب أصحـاب الحرف وغيـرهم من أبناء الطبـقات الدنيـا في العـاصـمة الذين لم يكونوا بعد قد شاركوا بالفعل في الحركات المبكرة للاصلاح البرلماني . كما إن فروع جمعية لندن للمراسلة ، أو كما أطلقوا على أنفسهم جمعيات المراسلة أو الدستورية ، سرعان ما تأسس لها فروع في مختلف المراكز السكانية[2] .

ونادى الراديكاليون الاسكتلنديون بسلسلة من الاجتماعات العامة خلال عامي ١٧٩٢-١٧٩٣ ، ونظمـوا في تشرين الثـاني عام ١٧٩٣ مـا عرف بـ«**المؤتمر البـريطاني لممثلي الشعب لإقرار الاقتراع العام وإجراء إنتخابات سنوية للبرلمان**» ، حيث توجه إليه الممـثلون من أيرلندا ولندن . في الوقت الذي مارست فيـه الحكومة أقسى أساليبها في التضييق على هذه النشاطات ، حيث ألقت القبض على ممثلي جمعية لندن للمراسلة . وإندفعت لاتخاذ أقصى الاجراءات ، إذ عُلّق العمل بقانون المثول أو

---

(١) جمعية لندن للمراسلة : جمعية أو هيئة معتدلة ، أسستها في ٢٥ كانون الثاني ١٧٩٢ مجموعة ضـمت المحامي جون فـروست John Frost (١٧٥٠-١٨٤٢) ، وصـانع الاحـذية والراديكالي تومـاس هاردي Thomas Hardy (١٧٥٢-١٨٣٢) . تمثل هدف الجمعية في إجراء إصلاح برلماني ، ولا سيما في توسيع تمثيل أبناء الطبقة العاملة . أنظر :

Thale (ed.), Mary, Selections From The Papers of The London Corresponding Society 1792-1799, First Published, Cambridge, Cambridge University Press, 1983; Hampsher-Monk (ed.), Iain, The Impact of The French Revolution: Texts From Britain in The 1790s, First Published, Cambridge, Cambridge University Press, 2005, pp.263-270.

(2) Weinstein, Benjamin, Popular Constitutionalism and The London Corresponding Society, *Albion: A Quarterly Journal Concerned With British Studies*, The North American Conference on British Studies, Vol.34, No.1, (Spring, 2002), pp.37-57; Secord, Anne, Corresponding Interests: Artisans and Gentlemen in Nineteenth- Century Natural History, *The British Journal for The History of Science*, Cambridge University Press on Behalf of The British Society for The History of Science, Vol.27, No.4 (Dec., 1994), pp.383-408.

الاشعار القضائي[1] Habeas Corpus في أيار عام ١٧٩٤ ، على الرغم من إعتراض أقلية من الويك[2] في مجلس العموم البريطاني House of Commons ، وخلال

---

(١) أو أمر الاحضار أو ما يعرف بالهيَبس كوربس : نسبةً إلى كلمة لاتينية معناها التقريبي : «أن تأخذ الشخص» ، وهو نص تقليدي لاوامر إلقاء القبض في إنكلترا في القرون الوسطى ، وتحديداً منذ القرن الثالث عشر . كما إنه نص أو فعل قضائي ، إستطاع من خلاله السجين أو المحجوز نيل إطلاق سراحه من الحجز غير القانوني ، بمسعى من السجين أو من شخص آخر يأتي لمساعدته . وهذا الامر نظمه القانون الانكليزي بمرسوم عام ١٦٧٩ ، الذي هدف بالاساس فرض عقوبات على المسؤولين الذين يتجاهلون الامر القضائي ، وغلق الثغرات المحددة التي تنجم عن إستخدامه ، وغطى المرسوم التهم الجرمية فقط ، إلا أنه في عام ١٨١٦ مددت فقراته لتشمل في تغطيتها قضايا الاحتجاز المدني . يعد المرسوم من الناحية التاريخية أداة قانونية مهمة لحماية الحرية الفردية من الاداء الحكومي الاعتباطي . أنظر :

Kenyon, Op.Cit.,p.161; Oaks, Dallin H., The "Original" Writ of Habeas Corpus in The Supreme Court, *The Supreme Court Review*, The University of Chicago Press, Vol.1962 (1962), pp.153-211; D., Writ of Habeas Corpus, *The American Law Register*, The University of Pennsylvania Law Review, Vol.9, No.12 (Oct., 1861), pp.705-717.

(٢) الويك Whig والتوري Tory : مصطلحان أستخدما في عام ١٦٧٩ خلال الصراع المحتدم بشأن تقديم مشروع لائحة إبعاد جيمس (دوق يورك) عن وراثة العرش (بعد ذلك أصبح الملك جيمس الثاني ١٦٣٣-١٧٠١/ ١٦٨٥-١٦٨٨) . ومصطلح الويك ، يعود في أصوله إلى لفظة غالية- إسكتلندية ، أستخدم للاشارة إلى لصوص الاحصنة ، وفيما بعد ، تجاه المشيخيين الاسكتلنديين ؛ وتضمن المنشقين على الكنيسة الانكليزية والتمرد كما سميوا بالعرائضيين لتقديمهم لائحة الابعاد ضد جيمس . أما التوري فهو مصطلح أيرلندي يشير إلى الخارجين عن القانون البابوي في إيرلندا ، وأطلق على أولئك الذين دعموا الحق الوراثي لجيمس على الرغم من إيمانه بالكاثوليكية ، ونعتوا بالمشمئزين من مطالبة الويك بسلطة إبعاد الوريث عن العرش ، أشتق المصطلح من لفظة إيرلندية قديمة هي Tóraidhe وفي الايرلندية الحديثة Tóraí التي تعني الخارج عن القانون والسارق ، والـ Tóir تعني مطاردة ، أو الخارجين عن القانون المطاردين . مثّل نبلاء التوريين بصورة رئيسة حجر عثرة إزاء التسامح الديني وغدت النزعة التورية Toryism متطابقة مع الانكليكانية . وعلى أية حال لم يكن التوريون رجعيين على نحو ثابت فإنجاز تحرير الكاثوليك Catholic Emancipation لعام ١٨٢٩ =

السنة اللاحقة ، تم طرح مرسومين ، أحدهما تميز بإتخاذ صرامة أشد إزاء تطبيق قانون الخيانة ، والثاني تمثل في تقييد حق عقد إجتماع علني ، الامر الذي أجبر الجمعيات الراديكالية لان تتحول نحو النشاط السري(١) .

لقد كانت الحكومة بحق متخوفة من هذا النشاط ، فقد بدا إن الراديكاليين قد تحالفوا مع فرنسا ، وإهتاجت إيرلندا مع التمرد ، إذ كان لدى جمعية الايرلنديين المتحدين نشاط في بريطانيا : حيث أسست جماعات مناصرة حول ليفربول ومانشستر ، وإستهلت الجماعات الاسكتلندية المتحدة بعملها في غلاسكو وأيرشاير Ayrshire وفق الاسلوب نفسه . وقيل بأن الراديكاليين ذكروا بأنهم سيتعلموا

= مثل إنفصالاً كبيراً على التقاليد . إلا أن التوريين كانوا يقفون بعناد ضد إصلاح البرلمان ، وكان قبول بيل رئيس وزراء بريطانيا (١٧٨٨-١٨٥٠/ ١٨٣٤-١٨٣٥ ، ١٨٤١-١٨٤٦) بمرسوم الاصلاح لعام ١٨٣٢ قد وضع علامة لما بات يعرف فيما بعد بحزب المحافظين Conservative Party وحزب الاحرار Liberal Party . أنظر : بالمر ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ص ٣٣٤- ٣٣٥ ؛ السوداني ، صادق حسن ، التطورات السياسية في بريطانيا في العصر الفكتوري ، محاضرات غير منشورة ألقيت على طلبة الدكتوراه (التاريخ الحديث) ، قسم التاريخ ، كلية الاداب- جامعة بغداد ، ٢٠٠٩ ، ص ٩ ؛ Encyclopedia Britannica, CD., 2010; Kenyon, Op.Cit., pp.339-340, 359-360; Willman, Robert, The Origins of Whig and Tory in English Political Language, *The Historical Journal*, Cambridge University Press, Vol.17, No.2 (Jun., 1974), pp.247-264.

(١) وهما مرسومي عام ١٧٩٥ : الاول هدف إلى توسيع القوانين المعنية بالخيانة وفق : «مرسوم الممارسات الخيانية Treasonable Practices Act» ، والثاني تعلق بقمع الاجتماعات وهو : «مرسوم الاجتماعات التحريضية Seditious Meetings Act» . كلاهما عرفا بـ«مراسيم التقييد» Gagging Acts . أنظر :

Williams, E. N., The Eighteenth Century Constitution: Documents and Commentary, Cambridge, Cambridge University Press, 1970, pp.424-431; Weindling, Paul, Science and Sedition: How Effective Were the Acts Licensing Lectures and Meetings 1795-1819?, *The British Journal for The History of Science*, Cambridge University Press on Behalf of The British Society for The History of Science, Vol.13, No.2 (Jul., 1980), pp.139-153.

الفرنسية بغية تسهيل الغزو الفرنسي . إلا أن الاجراءات المشددة التي إتخذتها الحكومة أدت إلى كبح جماح تلك التنظيمات الراديكالية ، فقد تم سحق الانتفاضة الايرلندية عام ١٧٩٨ لتضم إيرلندا إلى بريطانيا في عام ١٨٠١ ، كما تم تشديد القوانين ضد الصحافة خلال عامي ١٧٩٨-١٧٩٩ ، وتم إعتبار جمعيات المراسلة غير قانونية عام ١٧٩٩ ، ونقحت القوانين الخاصة بتجمعات العمال عامي ١٧٩٩-١٨٠٠ ، وإستمر تجديد تعليق قانون المثول[١] .

نشرت كتابات المفكر الراديكالي توماس بينThomas Paine (١٧٣٧-١٨٠٩)[٢] في خضم عالم من آمال وإخفاقات الحركة الراديكالية تلك ، حيث روج لها وتم قراءتها بنهم . وإعتلى بين أعلى هرم الفكر الحر السياسي والديني ، ومع ذلك فلم يكن بمفكر أصيل . إذ قدمت كتاباته خلاصات عصر التنوير وعصاراته ، وإرتبطت مع التصور الكفري Infidelity الناشئ من كتابات توماس تشوب وبيتر أنيت ، وإنطبعت بطابع الحماسة الثورية لفرنسا . لينمو ولكن على نحو أكثر ليبرالية ، بعد منتصف القرن التاسع عشر ، التقليد البيني Tradition Paine بوصفه فكراً مهيمناً بين زعماء حركة الطبقة العاملة البريطانية ، ولتعاد تعاليمه مع تغيير ضئيل أو بدون ذلك عند جيلين لاحقين أو أكثر[٣] .

---

(1) Williams, Gwyn A., Artisans and Sans- culottes: Popular Movements in France and Britain During The French Revolution, London, Libris, 1989; Veitch, George Stead, The Genesis of Parliamentary Reform, London, Archon Books, 1965; Hansard's Parliamentary Debates, London, Longman, Hurst, Rees, Orme & Brown, 1819, Vol.XXXIV, pp.579-657.

(٢) أنظر : بالمر ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١٥٩ ؛

Conway (ed.), Moncure Daniel, The Writings of Thomas Paine, New York & London, G. P. Putnam's Sons, 1906, 4 Vols.; Blanchard, Calvin, Complete Works of Thomas Paine, Chicago and New York, Belford, Clarke & CO., 1885; Wheeler (ed.), Daniel Edwin, Life and Writings of Thomas Paine, New York, Vincent Parke and Company, 1908, 10 Vols.

(3) Foner (ed.), Philip Sheldon, The Complete Writings of Thomas Paine, New York, Citadel Press, 1945; Collins (ed.), H., The Rights of Man, London, 1969, Introduction; =

ولد بين في ثيتفورد Thetford في نورفولك Norfolk في بريطانيا عام ١٧٣٧ ، من أب حرفي ، وعمل موظفاً في الضرائب ، وكان صحفياً راديكالياً في أمريكا خلال حرب الاستقلال حيث صنع سمعة له هناك . وعاد إلى أوربا عام ١٧٨٧ ، متأملاً أن تقوم الثورة في العالم القديم مثلما شهدها العالم الجديد . في هذا الوقت قاد إدموند بيرك Edmund Burke[1] ، المناصر للثورة الاميركية ، عام ١٧٩٠ قوى الرجعية في بريطانيا حينما نشر مؤلفه الشهير : «إنطباعات عن الثورة في فرنسا Reflections on The Revolution in France»[2] ، وفيه هاجم محاضرة ريتشارد برايس Richard

---

= Royle, Edward, Radical Politics 1790-1900: Religion and Unbelief, London, Harlow-Longman, 1971; Leffmann, Henry, The Real Thomas Paine, Patriot and Publicist, A Philosopher Misunderstood, *The Pennsylvania Magazine of History and Biography*, Historical Society of Pennsylvania, Vol.46, No.2 (1922), pp.81-99.

(١) إدموند بيرك (١٧٢٩-١٧٩٧) : رجل دولة بريطاني وخطيب برلماني ومفكر سياسي . على الرغم من تمسكه بمبادئ الويك كانت له ردود فعل ضد الثورة الفرنسية سبقت ردود أي من معاصريه ، إذ تخوف من الافكار الجديدة لانها تشكل بنظره خطراً على التقاليد البريطانية ، وبالتالي أيد الرجعية في مؤلفه المعنون : «إنطباعات عن الثورة في فرنسا» عام ١٧٩٠ . كان من أكثر المؤيدين قيام الحرب ضد فرنسا عام ١٧٩٣ . وعلى الرغم من دفاعه المستمر عن الحرية الامريكية وهجومه المستمر على شركة الهند الشرقية ، كان في الاساس مفكراً محافظاً إستند في إدانته للسلطة الملكية على تبجيل الحل السياسي الذي وضعه حزب الويك عام ١٦٨٨ . أنظر : بالمر ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ص ١٤٣-١٤٤ ؛

Encyclopedia Britannica, CD., 2010; Gottschalk, Louis, Reflections on Burke's Reflections on The French Revolution, *Proceedings of The American Philosophical Society*, American Philosophical Society, Vol.100, No.5 (Oct., 15, 1956), pp.417-429; McConnel, Michael, Establishment and Toleration in Edmund Burke's "Constitution of Freedom", *The Supreme Court Review*, The University of Chicago Press, Vol.1995 (1996), pp.393-462.

(٢) لاحظ الباحثون التناقض الذي إتسمت به كتابات بيرك إزاء مناصرته للثورة الامريكية ومعاداته للثورة الفرنسية ؛ فعلى الرغم من مناصرته للاولى إلا أنه أعاب على السياسة البريطانية غباءها الذي =

Price[1] ، التي دافع فيها عن فرنسا ، ليندفع بين إلى الطباعة في عام ١٧٩١ نحو ما عدّه جواباً وتبريراً لفرنسا بالضد من بيرك . وكان ذلك قد تجسّد في مؤلفه : «حقوق الانسان Rights of Man» بجزئه الاول ، الذي بيع مقابل ثلاثة شلنات للنسخة ، ولاقى إطراءً حتى من المصلحين المعتدلين . ونشر بين الجزء الثاني عام ١٧٩٢ ، إلا أن هذا الجزء كان عملاً مختلفاً : لانه إتسم بالرخص والتحريض ، وفيه هاجم وبشدة حماقات ما سمّي بالدستور البريطاني والملكية الوراثية على حد قوله ، ليعبر عن نفسه

= دفع الامريكيين إلى الانفصال عن بريطانيا ، ووقف وراء معاداته للثورة الفرنسية تخوفه من القضاء على الارستقراطية الحاكمة في بريطانيا إذا ما قامت الثورة على غرار ما حدث في فرنسا ، إذ إعتقد إن المجتمع الذي يخلو من طبقة أرستقراطية حاكمة هو مجتمع فاسد ، بل إعتبر إن الارستقراطية والكنيسة هما العمادان اللذان ترتكز عليهما الاخلاقية الفاضلة والتقاليد الاجتماعية القويمة في المجتمع . أنظر : أبو زيد ، أحمد ، حقوق الانسان ، **مجلة عالم الفكر** ، الكويت ، وزارة الارشاد والانباء ، م١ ، ع٤ ، يناير- فبراير- مارس ١٩٧١ ، ص٤ ؛ الحميد ، عبد الله محمد صالح ، إدموند بيرك والثورة الفرنسية : تفسير بديل ، **مجلة كلية التجارة للبحوث العلمية** ، جامعة الاسكندرية ، م٤٤ ، ع٢ ، سبتمبر ٢٠٠٧ ، ص ص ١-٥٤ ؛

Dreyer, Frederick, The Genesis of Burke's Reflections, *The Journal of Modern History*, The University of Chicago Press, Vol.50, No.3 (Sep., 1978), pp.462-479.

(١) ريتشارد برايس (١٧٢٣-١٧٩١) : فيلسوف أخلاقي بريطاني ، وخبير في الشؤون المالية ، ومناصر متحمس للثورتين الامريكية والفرنسية . إهتم بالمستعمرات الامريكية وعارض الحرب معها ، ونشر في عام ١٧٧٦ كراسته المعنونة : «ملاحظات عن طبيعة الحرية المدنية» لترتفع نسبة مبيعاتها في أمريكا وإنكلترا . مجد الثورة الفرنسية في محاضرته الشهيرة : «مطارحة عن حب بلادنا» عام ١٧٨٩ . أنظر :

Holland, J. D., An Eighteenth- Century Pioneer Richard Price D.D, F.R.S. (1723-1791), *Notes and Records of The Royal Society of london*, The Royal Society, Vol.23, No.1 (Jun., 1968), pp.43-64; Peterson, Susan Rae, The Compatibility of Richard Price's Politics and Ethics, *Journal of the History of Ideas*, University of Pennsylvania Press, Vol.45, No.4 (Oct.- Dec., 1984), pp.537-547.

بوضوح بوصفه أصل وإمتداد الرؤية الجمهورية[١] .

ولم يكتب بين مؤلفه : «عصر العقل : تحقيق بشأن اللاهوت الحقيقي والخرافي «Age of Reason: Being An Investigation of True and Fabulous Theology» حتى عام ١٧٩٤ ، حينما كان منفياً في باريس ، ورأى بقلق كيف إندفع الشعب الفرنسي بحماسة نحو الالحاد . لقد كان في واقع الامر رجلاً متديناً للغاية وصاحب آراء لاهوتية متحفظة الى حد بعيد ؛ إذ كتب في «حقوق الانسان» قائلاً : «**إن كل دين صالح لكونه يُعلّم الانسان أن يكون صالحاً ؛ وأنا أعلم إنه لن يوجهه نحو السوء**»[٢] . ولهذا كان بين إنسانياً وربوبياً ، وحاول في باريس أن يمنح لمعتقداته شكلاً مؤسسياً من خلال إطلاق جمعية المحسنين الالهيين Society of Theophilanthropists[٣] ، التي كان هدفها ، وكما عبرت عنها كلمات السياسي الامريكي صموئيل آدامز Samuel Adams (١٧٢٢-١٨٠٣) هو : «**لتجديد العصر من خلال الغرس في عقول**

---

(1) Kates, Gary, From Liberalism to Radicalism: Tom Paine's Rights of Man, *Journal of The History of Idea*, University Of Pennsylvania Press, Vol.50, No.4 (Oct.- Dec., 1989), pp.569-587; Turner, John, Burke, Paine, and the Nature of Language, *The Yearbook of English Studies*, Modern Humanities Research Association, Vol.19, (1989), pp.36-53.

(2) King & Begler (eds.), Ronald F. & Elsie, Thomas Paine: Common Sense for The Modern Era, First Edition, San Diego State University Press, 2007, p.248; Conway (ed.), Op. Cit., Vol.3, pp.504, 515; Fruchtman, Jack, The Political Philosophy of Thomas Paine, Maryland, The Johns Hopkins University Press, 2009, p.36.

(٣) أو أصدقاء الرب والانسان (Friends of God and man) : وهي كذلك طائفة ربوبية شكلها بين في فرنسا في الفترة الاخيرة من الثورة الفرنسية ، حينما قام مع أتباع روسو وروبسبيير بإنشاء دين جديد دعي ثيوفلانثروبي (أو الاحسان الالهي) Theophilanthropy جمع بين ربوبية روسو والفضيلة المدنية لروبسبيير . أنظر :

Sandford & Others, D. K., The Popular Encyclopedia, Glasgow, Blackie & Son, 1841, Vol.VI, Part I, pp.591-592; Blanchard, Calvin, The Life of Thomas Paine, New York, Calvin Blanchard, 1860, pp.53-54.

الشباب خشية ومحبة الرب والاحسان الكوني»[١] .

كان بين أكثر تحفظاً في كتاباته اللاهوتية مقارنة ببريستلي والفلاسفة الفرنسيين . فقد قبل بإستنتاجات العلم النيوتني من غير سؤال أو تعديل ؛ ورفض الفلسفة المادية : «**فالحركة ليست خاصية في المادة**» كتب قائلاً : «**إن الحركة أو التغير في المكان ، جاء بفعل مؤثر خارجي وقع على المادة**»[٢] . وآمن بالخلود بوصفه : «**إدراكاً بالوجود . . . الذي لا يعتمد على الشكل أو المادة ذاتها**»[٣] . وبهذا ، ومن خلال التأكيد على ثنائية المادة والروح ، رفض بين فكرة بعث الجسد ؛ بينما رفض بريستلي الثنائية وتعامل مع إبقاء فكرة بعث الجسد . كما أكد بين أيضاً على إحتمالية وقوع المعجزات ، لا بسبب الافعال الالهية المناقضة لقوانين الطبيعة ولكن بسبب ما إشترطه بالقول : «**مالم نعلم الامتداد الكلي لهذه القوانين ، وما يطلق عليها عادة بقوى الطبيعة ، فإننا عاجزون عن الحكم بإمكانية ظهور أي شيء جميل سواء تخلله الاعجاز ، أم كان له بعد آخر ، أو كان مناقضاً ، لقواه الطبيعية الفاعلة**»[٤] . وكانت نظريته النفسية مجرد إمتداد لساعة مجازية : «**إن النابض الرئيس الذي يفرض على الجميع الحركة هو مطابق للتصور ؛ فالبندول المصحح والمنظم للحركة هو مطابق للحكم ؛ والذراع وعقرب الساعة كالذاكرة يسجل العملية**»[٥] . ويقف خلف هذه الآلية صانع عظيم :

---

(1) Sandoz, Ellis, Republicanism, Religion, And The Soul of America, Missouri, University of Missouri Press, 2006, p.45; Alexander, John K., Samuel Adams: The Life on An American Revolutionary, Maryland, Rowman & Littlefield Publishers, Inc., 2011, p.319.

(2) Walters (ed.), Kerry, The Age of Reason: Thomas Paine, Toronto, True to Type, 2011, pp.122-123; The Works of Thomas Paine: A Hero in The American Revolution, Philadelphia, E. Haskell, 1854, Vol.I, p.107.

(3) Paine, Thomas, The Political and Miscellaneous Works of Thomas Paine, London, R. Carlile, 1819, Vol.II, p.78.

(4) Paine, The Political and Miscellaneous Works, Vol.II, p.47.

(5) Whale, John, Imagination Under Pressure 1789- 1832: Aesthetics, Politics and Utility, Cambridge, Cambridge University Press, 2004, p.43.

«الرب هو قوة السبب الاول ، والطبيعة هي القانون ، والمادة تخضع للفعل الواقع عليها»[1] . فقد كان بين ضمن الاتجاه السائد للاهوتيين الطبيعيين . وإستخدم ، بعد أعوام لاحقة ، على شاكلة بالي ، الجدل بشأن النظام أو مايعرف بـ«نظرية النظام والتدبير» لبرهنة وجود الرب ، إذ قال : «**فالخلق هو بذاته دلالة على وجود الخالق**»[2] وكتب أيضاً : «**حينما نرى الساعة ، يقع بين أيدينا دليلٌ قاطع على وجود صانع الساعة ، كأننا رأيناه**»[3] .

في هذا الوقت أنيطت مهمة نشر الجزء الاول من مؤلف بين «عصر العقل» بالدبلوماسي والمفكر الحر الامريكي جويل بارلو Joel Barlow (١٧٥٤-١٨١٢) ، بسبب إلقاء القبض على بين تحت طائلة إعتباره عدو أجنبي في فرنسا[4] . وحينما كان في سجن لوكسمبورغ ، ألف الجزء الثاني . وعلى غرار الجزء الثاني من «حقوق الانسان» فقد تضمن ما عُدّ جانباً سلبياً من فكره ؛ إذ شن فيه هجوماً ضارياً على المسيحية ، وهذا ما برر وصفه بالكافر حينما منح قراؤه القاعدة والاساس لنقد المسيحية التقليدية[5] . وكانت نقطة إنطلاقه هي ما عَدّه سخافة التعاليم المسيحية ، وبدأ بإشمئزاز أخلاقي مضاد لفكرة الكفارة التي قدمت الرب القدير بوصفه : «**إنسان إنفعالي يقتل إبنه في الوقت الذي عجز عن الانتقام لنفسه بأي طريقة**

---

(1) Walters (ed.), Op. Cit., p.123.

(2) The Theological Works of Thomas Paine, London, R. Carlile, 1824, p.322.

(3) Foner (ed.), Op. Cit., p.751; Vincent, Bernard, The Transatlantic Republican: Thomas Paine and The Age of Revolutions, Amsterdam, Amsterdam Monographs in American Studies, 2005, p.151.

(٤) حينما هاجم بين حكومة وساسة إنكلترا المناوئين للثورة الفرنسية قررت الحكومة البريطانية محاكمته ، إلا أنه هرب إلى فرنسا خشية المقاضاة عام ١٧٩٢ ، وأصبح مواطناً فرنسياً ثم عضواً في المؤتمر الوطني ، ولكنه لم يلبث أن سجن في باريس عام ١٧٩٤ وكاد يعدم بالمقصلة ، بعد إلغاء مواطنته ، نتيجة إعتراضه على إعدام الملك الفرنسي لويس السادس عشر ، ولم يفرج عنه إلا بوساطة السفير الامريكي في فرنسا . أنظر : عوض ، المصدر السابق ، ص ١٥٨ .

(٥) سوينكلر ، ستيفن ، خلاصة الفكر السياسي منذ الثورة الفرنسية ، تر : مجيد عبد الله وخدوري خدوري ، بغداد ، مطبعة المعارف ، ١٩٤٥ ، ص ٤٣ .

أخرى»[١] . وأن ديناً على هذه الشاكلة هو مفسدة للقيم الانسانية حينما صيغت مكانته فوق الحاجات الانسانية . وكتب في مقالة عنوانها : «عن أجراس الكنائس» مستهجناً : «**التحدث عن القساوسة والاجراس بينما العديد من الرضع يلقون حتفهم في المستشفيات ، والعجزة والفقراء الواهنون في الشوارع ، من أجل الضروريات**»[٢] . وأعلن بأن دينه الخاص ، في المقابل ، بعبارة دوت عبر عقود : «**إن معلم واحد جيد لهو خير من مائة قسيس**»[٣] .

مثّل الكتاب المقدس حجر الزاوية في النظام المسيحي ، ولذا كان الموضوع الرئيس لبين في الجزء الثاني من «عصر العقل» قد تمحور في كيفية : «**إظهار الكتاب المقدس على إنه مزور ، من خلال تنحية الاساس المرتكز عليه ، وإسقاط التركيب الكلي للخرافة القائم على ذلك**» . ومع ذلك ، واجه نقداً من أصحاب الفكر التقليدي ، إذ أشار ريد : «**إن ملاحظات السيد بين ، تحت هذه الرمزية ، من الممكن أن تكون صحيحة أمام العديد من أبناء المدارس . أما معه ، فلا إستعارة ولا حكاية رمزية يسمح بها في الدين!**» . ومع ذلك ، سلّم ريد بنفسه ، بأن الاصوليين المعتقدين بالكتاب المقدس كانوا قد لعبوا دوراً مع أصحاب الفكر الحر في ذلك الامر[٤] .

لقد إرتكز كل رفض بين للكتاب المقدس على أسس قوية ، منوهاً على عدم إتساقه مع الطبيعة . إذ إحتج قائلاً : «**إن إيماني بكمال الرب لا يجيز لي الايمان بأن كتاباً غامض على نحوٍ جلي ، وغير منتظم ، ومتناقض يمكن أن يكون من**

---

(1) Davidson & Scheick, Edward H. & William J., Paine, Scripture, and Authority: The Age of Reason as Religious and Political Idea, London, Associated University Presses, 1994, p.22.

(2) Keane, John, Tom Paine: A Political Life, London, Bloomsbury Publishing, 2009, p.606.

(3) Foner (ed.), Op. Cit., p.497; The Works of Thomas Paine: A Hero in The American Revolution, Vol.I, p.117;

عوض ، المصدر السابق ، ص ص ١٦١-١٦٣ .

(4) Reid, Op. Cit., p.70.

صنعه . **وإني أستطيع كتابة كتاب أفضل بنفسي»**[1] . وأشار إن رفضه للكتاب المقدس بسبب كونه : «**تاريخ الفظاعة أدى إلى إفساد وتوحيش الكائن البشري . . . وإني أبغضه بحق مثلما أبغض أي شيء قاس»**[2] . وذكر أن الكتاب المقدس صنع مزاعم مستحيلة لذاته ، حيث وجد بأنها تعاليم لا تصدق . إذ كان سفر التكوين : «**كتاب مجهول القصص والخرافات وتقليدي ويبتدع السخافات وفيه أكاذيب صريحة»**[3] . وأن الكتاب المقدس ، بوصفه كتاباً ومصدراً للتعليم ، لم يكن بارزاً أو أصيلاً كفاية حينما يقارن بكتابات أديان عظيمة أخرى . وأخيراً ، أشار بين إلى التناقضات المتداخلة التي إتسم بها الكتاب المقدس ، حينما فرّق ما بين إسمي الرب إلوهيم ويهوه في سفر التكوين في الاصحاحين الاول والثاني ، وألمح بأن هذا العمل ، هو بمثابة كتاب وثني[4] .

لقد كانت تلك هي مساهمة بين اللاهوتية في ميدان التقليد الراديكالي ؛ إذ أضاف القليل لما بناه الربوبيين مطلع القرن الثامن عشر . وإن أهميته متأتية من تكلمه بلغة إنكليزية بسيطة متجاوزاً القلة المتعلمة ليصل إلى شبه المتعلم ، بل وحتى الأمي ، حينما تحدث بلسانين توأمين للكفر آنذاك هما الدين والسياسة في زمن الهيجان السياسي والاجتماعي . ولهذا سرعان ما خشى أحد قادة حركة الاصلاح في ثمانينيات القرن الثامن عشر ، كريستوفر وايفل Christopher Wyvill

(1) Blakemore, Steven, Crisis in Representation: Thomas Paine, Mary Wollstonecraft, Helen Maria Williams, and The Rewriting of The French Revolution, London, Associated University Presses, 1997, p.86.

(2) Lawrence, Michael A., Radicals in Their Own Time: Four Hundred Years of Struggle for Liberty and Equal Justice in America, First Published, Cambridge, Cambridge University Press, 2011, p.115; Harmer, Harry, Tom Paine: The Life of a Revolutionary, First Published, London, Haus Publishing Limited, 2006, p.91.

(3) Claeys, Gregory, Thomas Paine: Social and Political Thought, First Published, London, Routledge Taylor & Francis Group, 1989, p.182.

(٤) لمزيد من التفاصيل أنظر : خليفة ، فريال حسن ، العقل والمقدس عند توماس بين ، ط١ ، القاهرة ، مكتبة مدبولي ، ٢٠٠٤ ، ص ص ٢٧-٥٥ ؛ عوض ، المصدر السابق ، ص ص ١٦١-١٦٤ .

(١٧٤٠-١٨٢٢) ، قائلاً : «إذا ما كان السيد بين قادراً على إنهاض الطبقات الدنيا ، سيغدو تدخلهم من المحتمل كإشارة لعمل همجي ، وكل ما نملكه الان ، سواء كان ملكية خاصة أو مكتبة عامة ، سيغدو تحت رحمة رعاع خارجين عن القانون وهائجون»[١] .

وكانت ثمة صلة وثيقة بين نمو الاندية الراديكالية وإنتشار الادب الراديكالي ، إذ أشارت التقارير الواردة إلى مجلس العموم البريطاني خلال ١٧٩٤-١٧٩٩ ، وملاحظات ريد ، بأن رواج هذا الادب راجع إلى نشاط الاندية تلك . فسرعان ما أعادت جمعية لندن للمراسلة طباعة عمل بين «حقوق الانسان» وترويجه في طبعة رخيصة ، حيث بيع منها أكثر من مائتي ألف نسخة بحلول عام ١٧٩٥ ، فضلاً عن قيامها بطباعة مؤلف هولباخ «نظام الطبيعة» وأعمال بيتر أنيت . وفي شفيلد ، أعلنت «الجمعية الدستورية Constitutional Society» عن عزمها إعادة طبع «حقوق الانسان» ، وعن عزمها قراءته خلال الاجتماعات العامة بصوت مرتفع . وحينما رُوِّج لمؤلف «عصر العقل» بالطريقة ذاتها ، أبدى أسقف لندن تذمره لكون هذا المؤلف قد قُرئ حتى بين عمال مناجم كورنوول Cornwall . كما أعادت جمعية لندن للمراسلة طباعة مؤلف هولباخ «نظام الطبيعة» فضلاً عن إعادتها طبع أعمال بيتر أنيت عبر سلسلة إسبوعية مقابل نصف بنس ، إلا أن الملاحقات القضائية أوقفت تلك التوجهات[٢] .

إن تأثير مثل هذا النشاط على المؤسسة المحلية ، وفقاً لرواية ريد ، وما إعتبره آنذاك جمعيات كافرة Infidel Societies في لندن كان ملموساً . فجماعات النقاش كان لها وجود طويل في الصالات الخاصة والمقاهي ، إلا أنها غدت أكثر تشدداً خلال تسعينيات القرن الثامن عشر ، لانها ناقشت وجادلت الافكار التي أثارها وطرحها بين وغيره من المؤلفين المفضلين لدى تلك الجماعات . وذكر ريد بأنه إلتقى ببعض أعضاء

---

(1) Thompson, E. P., The Making of The English Working Class, New York, Pantheon Books, 1964, p.24; Perkin, Harold, The Origins of Modern English Society 1780-1880, London, Routledge & Kegan Paul Ltd, 1971, p.195.

(2) Collins, Op. Cit., p.36; Simon, Brian, Studies in The History of Education 1780-1870, London, Lawrence & Wishart, 1960, pp.182-183; Reid, Op. Cit., pp.6-7, 29.

إحدى هذه الجمعيات التي تدعى «الوحش الاخضرGreen Dragon» حيث تعقد الاجتماعات في مسائي الاربعاء والاحد خلال ربيع عام ١٧٩٥ . وحاول القضاة السيطرة على هذه الاماكن عبر تهديد أصحاب الاماكن المخولين ، فقد تم تعقب جمعية الوحش الاخضر من صالة إلى أخرى حتى عام ١٧٩٧ . والتقت جمعية أخرى في حديقة بنثال كرين Benthal Green خلال أيام الاحد لقراءة ومناقشة كتاب «عصر العقل» ، بينما درست بقية الجمعيات أعمال فولتير وغودوين(١) .

لقد أعطى توسع المنظمات والادب المتطرف أملاً بمقدم الثورة في إنكلترا على غرار ما حصل في الولايات المتحدة وفرنسا . فسرعان ما إخترقت الافكار الراديكالية المجتمع ، وبدأت الطبقات الموصوفة بالخطرة والمضطربة تتحدث عن الدين والسياسة بطريقة نقدية وثورية . ووصف ريد تسعينيات القرن الثامن عشر بأنها : «**الحقبة الزمنية الاولى التي من خلالها ذاعت فيها التعاليم الكفرية على نطاق واسع بين الطبقات الدنيا**» ، وحينما توسعت جمعية لندن للمراسلة بسرعة بين ١٧٩٤-١٧٩٥ ، وصفها بأنها : «**الوسيط الوحيد ، لاول مرة ، في جعل الكفر مألوفاً وممكناً بين الطبقات الدنيا**»(٢) .

وعلى الرغم من ذلك ، بدت سياسة الحكومة الكابحة مستمرة العمل ؛ إذ تم تقييد الرأي العام وراء قوى القانون والنظام ، الأمر الذي كان بحد ذاته ذو وقع صادم وقوي على الراديكاليين . ففي عام ١٧٩٢ دافع توماس إرسكين Thomas Erskine(٣)

---

(1) Reid, Op. Cit., pp.8, 10-13, 18; Haakonssen (ed.), Knud, Enlightenment and Religion: Rational Dissent in Eighteenth- Century Britain, Cambridge, Cambridge University Press, 2003, p.325.

(2) Reid, Op. Cit., pp. 3, 16, 17; Stack, David, Nature and Artifice: The Life and Thought of Thomas Hodgskin 1787-1869, First Published, Woodbridge, Boydell & Brewer Ltd, 1998, p.21; Goodwin, Albert, The Friends of Liberty: The English Democratic Movement in The Age of The French Revolution, Harvard University Press, 1979, p.484.

(٣) توماس إرسكين (١٧٥٠-١٨٢٣) : محامي بريطاني من حزب الويك . مساهمته الرئيسة تمثلت في حماية الحريات الشخصية ، ودافع عن شخصيات سياسية ومصلحين لدرء تهمة الخيانة على إثر الاجراءات القمعية التي إتخذتها الحكومة البريطانية بعد الثورة الفرنسية ، كما ساهم في =

عن كتاب «حقوق الانسان» ؛ ليقود الادعاء بعد خمسة أعوام لاحقة ضد كتاب «عصر العقل» . وزيادة على ذلك ، كان الرأي الراديكالي منقسماً على نفسه أيضاً . فلم يكن كتاب «عصر العقل» بالشعبية ذاتها التي حظي بها كتاب «حقوق الانسان» ، إذ أدى قيام جمعية لندن للمراسلة بطباعة «عصر العقل» إلى إنشقاق صفوفها ، إذ إنفصل عدد من الراديكاليين الدينيين التقليديين بعيداً عن الجسم الاصلي الممثل بالجمعية . ووقع إنقسام آخر نجم عن تسلل عناصر الايرلنديين المتحدين داخل الجمعية[1] . وخلال هذه السنين ، وعلى الرغم من هذه النكسات ، ولد التقليد الثوري . وغدت المثالية مدركة ، وتم التعبير عن الآمال والافكار سوية خلال تسعينيات القرن الثامن عشر . فلم يُقدّر للكبح والقمع السياسي أن يلغي كل تلك النشاطات . وكما إستنتج ريد بشأن الجماعات الراديكالية : «**على الرغم من أن إجتماعاتهم لم تعد تعقد ؛ فلا زالوا أفراداً مبعثرين ، إلا أن أعدادهم وافية في إيقاع أذى معتبر ؛ ويبدو إن الجماعات التي تتبنى أفكاراً إلحادية ، على نحو خاص ، أكثر رسوخاً**» . فقد مالت راديكالية الجيلين اللاحقين بأفكارها نحو الماضي وإلى أصولها وإستلهاماتها خلال تسعينيات القرن الثامن عشر[2] .

سابعاً: التقليد الكارليلي ونشاط الصحافة والجمعيات (التجديفية) ونتائجها

لقد تعثرت الراديكالية المتطرفة بدلاً من أن تنتهي خلال الحروب النابليونية ، وحينما تحول الوضع الاقتصادي من سيء إلى أسوأ عام ١٨١٢ ، بدأ السخط بالظهور مرة ثانية . وعلى الرغم من حلول السلام ، فقد حلت هزة إقتصادية عظيمة ، لتشتعل حركة شعبية مرة أخرى ؛ إذ أعطت عشرون سنة من التطور الاقتصادي لراديكالية ما بعد الحرب مزيداً من القواعد الواسعة إجتماعياً وجغرافياً ، حينما إلتحق كل من المقاطعات وعمال المصانع الجديدة بهذه الموجة ، ليبدأ ميزان القوى بالانتقال من لندن بإتجاه

= قانون المسؤولية الجنائية . أنظر :

Encyclopedia Britannica, CD., 2010; Cleveland, Charles D., English Literature of The Nineteenth Century, Philadelphia, E. C. Biddle, 1857, pp.143-148.

(1) Royle, Victorian, p.31.

(2) Reid, Op. Cit., p.116.

الشمال ، وحينها كسبت الراديكالية المتطرفة الطبقة العاملة الناشئة إلى جانبها[١] .

وقادت الصحافة الراديكالية هذا النهج من خلال أفكار تسعينيات القرن الثامن عشر التي أخذت تشيع بين الطبقات الدنيا مرة أخرى . ووقف وراء ذلك ، واحداً من أفضل مروجي الايديولوجية البينية وهو ريتشارد كارليل Richard Carlile (١٧٩٠-١٨٤٣) ، الذي لم يكن يعرف أي شيء عن السياسة الراديكالية إلى أن جاء إلى لندن عام ١٨١٣[٢] ، وقرأ لاول مرة مؤلف بين «حقوق الانسان» في عام ١٨١٦ ليلتحق بسرعة بعالم الناشرين الراديكاليين ووكالات بيع الصحف . إستهل في السنة اللاحقة ببيع صحيفته الاسبوعية الراديكالية The Black Dwarf[٣] لينضم مع شاب آخر معجب ببين إسمه وليم شيروين William Sherwin[٤] ، الذي إستهل عمله بإطلاق دورية راديكالية ذات إسم جريء هو : The Republican ، ليتحد شيروين مع كارليل حيث تم تسمية الدورية بـ Sherwin's Political Register[٥] .

وعلى الرغم من هذا النشاط ، إعتقل كارليل فوراً على إثر بيعه كتاب : «محاكاة ساخرة لكتاب الصلاة العامة» Parodies on The Book of Common Prayer

---

(1) Royle, Victorian, pp.31-32.

(2) Campbell, Theophila Carlile, The Battle for The Freedom of The Press as Told in The Story of The Life of Richard Carlile, London, 1899; Aldred, G. A., Richard Carlile: Agitator, Third Edition, Glasgow, 1941; Cole, G. D. H., Richard Carlile 1790-1843, London, Fabian Society, 1943; Wickwar, W. H., The Struggle For The Freedom of The Press 1819-1832, London, Johnson Reprint Corp., 1928; Holyoake, George Jacob, The life and Character of Richard Carlile, London, *Bristol Selected Pamphlets*, 1855, pp.7-40.

(3) Hendrix, Richard, Popular Humor and "The Black Dwarf", *The Journal of British Studies*, The University of Chicago Press on Behalf of The North American Conference on British, Vol.16, No.1 (Autumn, 1976), pp.108-128.

(٤) لم أعثر على سنوات حياته .

(5) Wiener, Joel H., The Press and The Working Class 1815-1840, *Victorian Periodicals Newsletter*, The Johns Hopkins University Press on Behalf of The Research Society For Victorian Periodicals, Vol.4, No.1 (Feb., 1971), pp.1-4.

للكاتب الانكليزي وليم هون William Hone (١٧٨٠-١٨٤٢) ليرمى في السجن لثمانية عشر شهراً ، حيث أتم تعليمه الراديكالي من خلال قراءة كتاب «عصر العقل» هناك . وبدا طريقه واضحاً الان : فمهمته فضح وإدانة مكر الملكيين والكهان ، وحقق مبتغاه هذا من خلال طريقتين : الاولى ، إعادة إصدار أعمال بين من جديد وغيرها من أعمال الفكر الحر الكلاسيكية ، والثانية ، حينما حاولت الحكومة إيقافه ، غدا معروفاً بوصفه شهيداً لتتشكل عبر البلاد مجاميع من الاتباع ممن كرسوا أنفسهم في سبيل قضيته[١] .

وكان نتاج كارليل النشري معتبراً ، حيث إرتكزت جهوده على الدورية الاسبوعية Sherwin's Political Register التي إستأنف إصدارها تحت عنوانها الاصلي The Republican ، بعد توقفها إثر إعتقاله ، خلال شهر آب من عام ١٨١٩ ، وإستمر بنشرها ، مع فترات إنقطاع مؤقتة ، لغاية نهاية عام ١٨٢٦ . وعرضت الدورية في بادئ الامر ستة عشر صفحة بحجم الثمن الكبير مقابل بنسين ، لكن بعد فرض «مرسوم القذف التجديفي والتحريضي» في عام ١٨٢٠ ، تحولت إلى صغيرة ، ذات أوراق رخيصة وغير مرخصة . وبلغ حجم توزيعها في الايام الاولى من الف إلى الف وخمسمائة خلال عام ١٨١٩ . وكما علق كارليل في عام ١٨٢٦ : «**بأن The Republican لم تبلغ أقصى إنتشارها ؛ لكن تأثيرها كان قوياً حين تقرأ**»[٢] . لقد كان فحواها المضمون نفسه دائماً تقريباً : كتعليقات على بعض أفعال الحكومة ومقتطفات ، ربما طويلة ، عن الفكر الحر الكلاسيكي وجدالات عن الدين . وعلى الرغم من كونه في السجن ، أدار كارليل الدورية من هناك ، ونبعت أغلب المقالات الاصيلة من معين قلمه[٣] .

---

(1) Holyoake, The Life and Character of Richard Carlile, pp.11-12; Ingelhart, Louis Edward, Press and Speech Freedoms in The World From Antiquity Until 1998: A Chronology, First Published, Greenwood Publishing Group, 1998, p.129.

(2) The Republican, 30 June 1826.

(3) Wiener, Joel, Richard Carlile and "The Republican", *Victorian Periodicals Review*, The Johns Hopkins University Press on Behalf of The Research Society for Victorian Periodicals, Vol.13, No.3 (Fall, 1980), pp.79-85.

وكانت ردة فعل كارليل الاولى بعد قراءاته لكتاب «عصر العقل» قد تمثلت في إعادة طباعته وإصداره في مجلدين عام ١٨١٨ . ومع ذلك لم يكن البيع الاولي كبيراً ، فقد بيعت بضعة مئات من النسخ في الشهر الاول ، ولكن في الوقت نفسه بدأ بإعادة طباعة أعداد آخرى من المؤلفات ولكن بأشكال أرخص ثمناً : حيث أصدر «الحس العام Common Sense» و«حقوق الانسان» لبين من خلال نشره لاجزاء إسبوعية مرفقة مع دورية Sherwin's Political Register ، وظهر «حقوق الانسان» بمجلديه في مجلد واحد مقابل نصف كراون Half-Crown[١] ، وفي مجلدين فاخرين مقابل جنيه واحد ، وتم تداول ما تبقى مما أعيد طباعته عبر سلسلة إسبوعية تحت عنوان : «الربوبي أو الفيلسوف الاخلاقي Deist or Moral Philosopher» . وعلى الرغم من هذا النشاط المحموم ، لم تتخذ الحكومة أي إجراء في بادئ الامر ، إذ كان عام ١٨١٨ هادئاً نسبياً على الجبهة السياسية وغدا كارليل في موضع غير مهدد ، إلا أنه ومع مطلع عام ١٨١٩ إختلف الامر ، حيث أطلقت هيئة خاصة على نفسها لقب : «جمعية قمع الرذيلة Society For Suppression of Vice» لتبدأ عملها بالملاحقة القضائية . وكانت النتيجة المباشرة لهذا العمل هي زيادة مبيعات كتاب «عصر العقل»[٢] .

وبعد مذبحة بيترلو Peterloo[٣] في آب عام ١٨١٩ ، أرادت الحكومة تهدئة الوضع . وكان كارليل متواجداً في بيترلو ، ونشر رواية لما وقع ، ليعتقل عقب ذلك

---

(١) عملة بريطانية تساوي شلنين وست بنسات . أنظر :

Cuhaj (ed.) & Others, George S., Standard Catalog of World Coins 1801-1900, 6th Edition, Krause Publications, 2009, p.537.

(2) Carlile, R., A Letter to The Society For The Suppression of Vice, London, R. Carlile, 1819, pp.3-11.

(٣) مذبحة بيترلو (آب عام ١٨١٩) : ترتبط هذه المذبحة بالتاريخ الانكليزي ، بكونها تشتيت وحشي قام به الفرسان بأمر من القائد العسكري ولنغتون (١٧٦٩-١٨٥٢) بحق إجتماع راديكالي عقد في سانت بيتر فيلدز في مانشستر . أطلق عليها بيترلو سخريةً ببطل معركة واترلو ولنغتون حينما إنتصر على نابليون بونابرت عام ١٨١٥ . كما إنها تعد شاهداً للخوف العميق للطبقات ذات الامتيازات من دنو ثورة اليعاقبة العنيفة في إنكلترا بعد سنين من الحروب النابليونية . أما فيما يخص الراديكاليين والمصلحين فأن بيترلو رمزت إلى صلابة المحافظين وطغيانهم . أنظر : =

بتهمة التشهير التحريضي . وحينما اقتربت محاكمته في مبنى البلدية خلال شهر تشرين الاول عام ١٨١٩ ، كانت تهم التجديف قد أوصي بها مسبقاً ضده . وأدين على إثرها وحكم عليه بعامين في السجن وبدفع غرامة مقدارها الف جنيه إسترليني لاقدامه على نشر كتاب «عصر العقل» ولمدة عام واحد والتغريم بخمسمائة جنيه إسترليني على إثر نشره كتاب «مبادئ الطبيعة Principles of Nature» للناشط الربوبي الامريكي اليهو بالمر Elihu Palmer (١٧٦٤-١٨٠٦) . وهكذا أرسل إلى السجن ، ونتيجة لرفضه دفع الغرامات ، لم يطلق سراحه في واقع الامر حتى تشرين الثاني عام ١٨٢٥[١] .

كانت النتيجة المترتبة على هذه المحكمة وهذا العقاب هو في إشتداد معارضة ما نجم عنهما . فقد بيعت الفي نسخة من كتاب «عصر العقل» خلال ستة أشهر . وكان كارليل قد قرأ أجزاءً منه في محاكمته كجزء من دفاعه . وعلى الرغم من كل تلك المضايقات فقد إنتعش متجر كارليل ودعي بـ«معبد العقل The Temple of Reason» ، ومع أن ضباط الشرطة قاموا بإزالة المخزن التابع وأغلقوا المبنى حينما أدين كارليل ، إلا أن زوجته ومن ثم أخته أخذتا على عاتقيهما عملية إعادة فتح المتجر لحين إلقاء القبض عليهما . ومع هذا لم تتوقف مسيرة إنتاج ما عُدّ إنها أعمال تجديفية ؛ إذ أبقى المتطوعون أبواب المتجر مفتوحة وإستمروا ببيع The Republican وأعمال بين وبالمر وتقرير عن المحاكمة ، لكنهم شرعوا بمغامرات جديدة ، تمثلت في إصدار (القرآن)[٢] مقابل ثلاثة

Lobban, Michael, From Seditios Libel to Unlawful Assembly: Peterloo and The Changing Face of Political Crime c1770-1820, *Oxford Journal of Legal Studies*, Oxford University Press, Vol.10, No.3 (Autumn, 1990), pp.332-349; Encyclopedia Britannica, CD., 2010.

(1) Clark, J. C. D., English Society 1660-1832: Religion, Ideology, and Politics During The Ancien Regime, Cambridge, Cambridge University Press, 2003, p.494; Cole, Richard Carlile, pp.37-38; Royle, Radical , pp.104-105.

(٢) أشارت دورية The Republican إلى أن نشرات أجزاء القرآن المتتابعة من المؤمل أن تكتمل مع حلول الاول من كانون الثاني ١٨٢٦ ، لكنها لم تشر إلى مترجمها إلى اللغة الانكليزية . أنظر :
The Republican, 23 December 1825.

بنسات فقط . وفي عام ١٨٢٦ لم يتأخر كارليل حينما واتته الفرصة على إستئناف عمله وهو قابع في السجن ، إذ سرعان ما إتفق مع شركة كتب مساهمة Stock Book Company التي أعادت إصدار من بين أعمال أخرى عديدة ، تسعة أعداد من صحيفة بيتر أنيت Free Inquirer[١] .

كان للمساعي العظيمة التي تولتها جمعية لندن للمراسلة في توزيع أعمال الفكر الحر خلال تسعينيات القرن الثامن عشر أثرها البالغ ، إذ دان راديكاليو القرن التاسع عشر في تعرفهم على الكتابات الرئيسة لعصر التنوير إلى كارليل . ولم يقدر للتقليد البيني أن يحظى بالتواجد ويرى النور مالم يبعثه من جديد كارليل في حقبة ما بعد الحروب الفرنسية . فلم يكن كارليل رجلاً بسيطاً ، إلا أن نظرته الخاصة إزاء إنتاجه في آواخر عام ١٨٢٢ لم تكن بخاطئة حينما ذكر : «**إن عصر العقل . . . هو أول هجوم جدي وخالص على الصنمية المسيحية في هذا البلد . ولاقى الكثير من التهكم والسخرية . . . ولكن لم يكن هناك هجوماً جاداً حتى ظهور الجزء الاول . . . حسبك أن تحسب عدد الاشخاص الذين قدّر لهم قراءة نسخة واحدة منه . . . فلدي معرفة بعدد من الاشخاص يحتفظون بنسخ ، الذين إشتروها مني عام ١٨١٩ . . . وشهدتُ حالات كيف أن نسخة واحدة تمر بين أحضان خمسين عائلة ، حيث أقروا جميعاً بقراءتهم لها . وتلك هي طريقة إحتساب قوة آلة الطبع . إذ حافظ كتاب عصر العقل على رواجه منذ ظهوره الاول . . . وشهرته متأتية من تماسكه القوي لمدة عشرين عاماً**»[٢] .

وتمثل الانجاز الثاني لكارليل في الربط بين التنظيمات الراديكالية المتطرفة في أرجاء البلاد . فخلال الفترة الاولى من الاضطهاد الفكري ، حينما كانت الصحافة الراديكالية تحت طائلة الهجوم ، أضحى وجود التنظيم الرسمي ضرورة ملحة ، ليغدو بنّاء المجاميع الراديكالية في المقاطعات ، في فترة ما بعد عام ١٨٢١ ، تحت إطار سياسة مدروسة . إذ لم يكن كارليل قبل عام ١٨١٩ سوى قائداً راديكالياً واحداً وسط العديد من الراديكاليين . وحينما بدأ الاضطهاد في عام ١٨١٩ ضد ناشري أبناء العاصمة

(1) Wickwar, Op. Cit. pp.90-96; The Republican, 31 March, 17 November, 29 December 1826; The Reasoner, 5 June 1859; Royle, Radical , pp.104-105.

(2) The Republican, 1 November 1822.

والاقاليم وباعة الادب الراديكالي ، أدى ذلك إلى إبراز كارليل بوصفه قائداً وطنياً مهماً[1] . ليستمر فتح المتجر الواقع في شارع الصحافة Fleet Street في لندن لا بوصفه مسألة مبدئية فحسب بل نابع من ضرورة صرفة ، إذ لم يكن بمقدور كارليل أن يبقى لمدة أطول في الحبس طالما كان هناك دخل واف يلبي متطلباته[2] .

وفي تشرين الاول عام ١٨٢٠ أطلق نداءه الاول قائلاً : «**إذا ما صمم نصف دزينة من الاشخاص على نحو ناجح على معارضة مجتمع الرذيلة ، فستغدو ملاحقتهم قضائياً ذات فائدة عظيمة في سبيل إستنباط مبادئ جيدة**» . وظهر إن نداءه لم يذهب أدراج الرياح[3] ، إذ سرعان ما تجمعت جماعات قليلة متعاطفة في البلدات والقرى عبر البلاد وأرسل بعضهم البنسات إليه ، وبهذه الطريقة فإن جيلاً من القادة الراديكاليين المحليين كان قد أعطى درساً في التربية السياسية[4] ، لتبدأ التنظيمات عملها في كانون الاول عام ١٨٢١ ، حينما شكلت جمعية زيتيتك

---

(1) Wickwar, Op. Cit., pp.96-114; Hollis, Patricia, The Pauper Press: A Study in Working-Class Radicalism of The 1830s, Oxford, U. P., 1970, p.117; Gilmartin, Kevin, Popular Radicalism and The Public Sphere, *Studies in Romanticism*, Boston University, Vol.33, No.4 (Winter, 1994), pp.550-556.

(2) Belchem, John, Republicanism, Popular Constitutionalism and The Radical Platform in Early Nineteenth- Century England, *Social History*, Taylor & Francis, Ltd., Vol.6, No.1 (Jan., 1981), pp.15-30; Wiener, Joel H., The Journalism of Richard Carlile, *Victorian Periodicals Newsletter*, The John Hopkins University Press on Behalf of The Research Society For Victorian Periodicals, Vol.9, No.3 (Sep., 1976), pp.75-80.

(3) The Republican, 2 October 1820; Cole & Filson, George Douglas Howard & Alexander Warnock, British Working Class Movements: Select Documents 1789-1875, London, Macmillan, 1951, p.167.

(4) Royle, Radical , p.108.

لمفكري أدنبـره الاحـرار Zetetic Edinburgh Freethinkers[١] وجـمـعـيـة زيتيـتك Zetetic Socitey ، لدعم كارليل[٢] . ووقع الشيء ذاته في ليدز حينما عقد إجتماع لـ«اصدقاء التحرر العقلاني The Friends of Rational Liberty» ، برئاسة الراديكالي الانكليزي جيمس واتسون James Watson (١٧٩٩-١٨٧٤)[٣] .

وإستهلت جمعية في لندن للترويج عن «المبادئ الربوبية من خلال المحاضرات والمناقشـات ونشـر الكراريس»[٤] . وهكذا غـدت فكرة الراديكاليـة المحليـة أو أندية الزيتيتك المؤيدة لكارليل في إنتشار متسارع . وبدأت التبرعات تتدفق على نحو كبير من هدرسفيلد Huddersfield . وكانت المناسبة الاكبر التي جمعت هذه التنظيمات تمثلت في الذكرى السنوية لعيد ميلاد بين المصادف ٢٩ كانون الثاني ١٨٢٢[٥] .

وإتبـعت بقيـة القـرى والبلدات هذا الاتجـاه خـلال الاشـهـر القليلة اللاحـقـة . وبإستـثناء أدنبـره ولندن ، جاءت معظم النشاطات من ويست ردنك West Riding ولانكشاير وجشر Cheshire . وشهـد مطلع عام ١٨١٩ مـجموعـة من المتعـاطفين مع كـارليل ؛ إذ إلتـقى «أصـدقـاء النقـاش الحـر The Friends of Free Discussion» في مانشستر في آيار عام ١٨٢٢ للبحث عن السبل الكفيلة لمساعدته[٦] . ومع ذلك ،

---

(١) يعود أصل كلمة Zetetic إلى جذور يونانية وتعني يسعى أو يبحث أو إجراء تحقيق . أنظر :

Wiener, Joel H., Radicalism and Freethought in Nineteenth- Century Britain: The Life of Richard Carlile, Greenwood Press, 1983, p.119; Shipley, Joseph Twadell, The Origins of English Words: A Discursive Dictionary of Indo- European Roots, London, The Johns Hopkins Press Ltd., 1984, p.146.

(2) The Republican, 18 January, 22 February 1822; Parolin, Christina, Radical Spaces: Venues of Popular Politics in London 1790-1845, Canberra, ANU E Press, 2010, pp.204-205.

(3) The Republican, 11 January 1822.

(٤) لم تشر دورية The Republican إلى إسم هذه الجمعية . أنظر :

The Republican, 4 January, 3 May, 25 October, 13 December 1822.

(5) The Republican, 18 January-15 March 1822.

(6) The Republican, 28 June 1822.

خلّف ولاء الراديكاليين المحليين لكارليل وراءه سبباً قوياً لمعاناة أولئك الأعضاء الذين ذهبوا إلى شارع الصحافة في لندن في سبيل المساعدة . ففي الوقت الذي إحتفلت فيه ليدز بعيد ميلاد كارليل عام ١٨٢٢ ، أُلقي العديد من أنصاره في السجن ، وكان جيمس واتسون قد سجن أيضاً لبيعه مؤلف بالمر المعنون : «مبادئ الطبيعة»[١] . وكانت قوانين التجديف الاسكتلندية أشد قساوة من نظيرتها الانكليزية ، فسرعان ما تم ملاحقة جمعية زيتيتك أدنبره قضائياً لتغرق في مشاكلها الخاصة بسبب إستخدامها ما عُدّ إنها تعابير تجديفية ، لتغلق عنوةً[٢] .

وشهد العام ١٨٢٤ تجدداً في سلسلة الملاحقات القضائية في لندن . فما بين عامي ١٨١٩-١٨٢٤ ، قُدمت أغلب الشكاوى التي إستلزمت ملاحقات قضائية إما من «جمعية قمع الرذيلة» أو «الرابطة الدستورية The Constitutional Association»[٣] ، إلا إنهما لم يحققا نجاحاً مميزاً . ووصلت الملاحقات القضائية أقصى مداها عام ١٨٢٤ وإنصبت بالضد من مقر شارع الصحافة في لندن على يد وزارة الداخلية البريطانية Home Office الممثلة آنذاك بوزيرها روبرت بيل Robert Peel[٤] . ومارست محكمة

(1) Smith, Francis Barrymore, Radical Artisan, William James Linton 1812-1897, Manchester, Manchester University Press, 1973, p.18.

(2)Wickwar, Op. Cit., pp.217-218; The Republican, 24 May, 6 December 1822, 25 April 1823, 23 January, 24 September, 10 October 1824.

(٣) أسست في عام ١٨٢٠ وإسمها الكامل «الرابطة الدستورية لمعارضة تقدم مبادئ الخيانة والتحريض The Constitutional Association For Opposing The Progress of Disloyal and Seditious Principles» ، بوصفها نظير علماني لمجتمع الرذيلة ، وعرفت شعبياً بلقب «عصابة شارع الجسر The Bridge Street Gang» ، إثر وجود مكاتبها قرب جسر بلاكفريرس Blackfriars . أنظر :
Wickwar, Op. Cit., pp.180-204; Jennings, Ivor, Party Politics, Cambridge, Cambridge University Press, 2009, Vol.III (The Stuff of Politics), pp.166-168.

(٤) روبرت بيل (١٧٨٨-١٨٥٠) : وزير داخلية (١٨٢٢-١٨٢٧) ورئيس وزراء بريطانيا (١٨٣٤-١٨٣٥/١٨٤١-١٨٤٦) ومؤسس حزب المحافظين بشكله الحديث . وقف وراء إلغاء قوانين الحبوب عام ١٨٤٦ . أنظر : =

أولد بيلي Old Bailey[١] في حزيران عام ١٨٢٤ إطلاق أحكامها التي تراوحت بين الستة أشهر وثلاث سنوات سجن تجاه راديكاليين نشروا دورية The Republican و«عصر العقل» لبين و«مبادئ الطبيعة» لبالمر . ومع ذلك ، إستمر العمل الراديكالي في شارع الصحافة في لندن . وسرعان ما حث إخفاق هذه الملاحقات القضائية بيل على تبديل سياسته ؛ فلم تكن هناك إعتقالات أخرى بعد عام ١٨٢٤ ، وألغيت الغرامات والضمانات المالية الملقاة على عاتق كارليل في تشرين الثاني عام ١٨٢٥ ، ليغدو حراً مرة ثانية بعد ستة أعوام[٢] .

وخلال هذه السنوات ، وضعت مطبوعات كارليل وحادثة السجن التي تزامنت معها البصمة الاخيرة على الراديكالية الانكليزية . فقد مُنح كارليل دعماً هائلاً : إذ تجمع لديه أكثر من ١٤٠٠ جنيه إسترليني خلال الاعوام ١٨١٩-١٨٢٥ . وإزدهرت جمعيات زيتيتك والجمعيات المشابهة[٣] . وبدا وكأن صنوف عدة من الناس قد آزرت كارليل ، إلا أن أغلبهم كانوا من الحرفيين وأصحاب المتاجر ؛ وكما قال كبير القضاة السير وليم ري Sir William Rae (١٧٤٩-١٨٢٤) عن «جمعية زيتيتك أدنبره» عام ١٨٢٣ : «**كان يرتادها ما يمكن وصفهم بأدنى الاشخاص ؛ ولم يكن أعلاهم**

Newbould, Ian, Sir Robert Peel and The Conservative Party, 1832-1841: A Study in Failure?, *The English Historical Review*, Oxford University Press, Vol.89, No.388 (Jul., 1983), pp.529-557; Encyclopedia Britannica, CD., 2010.

(١) إسم شارع في مدينة لندن ، ويستعمل عادةً أو شعبياً للمحكمة الجنائية المركزية الموجودة هناك . أنظر :

Collins Concise Encyclopedia, London, Peerage Books, 1985, p.416; O'Donnell, Bernard, The Old Bailey and Its Trials, New York, The Macmillan Company, 1950.

(2) Wickwar, Op. Cit., pp.229-238; The Republican, 21 May, 4, 11 June, 30 July 1824, 25 November 1825.

(3) The Republican, 27 December 1822, 30 December 1825; McCalman, Iain, Females, Feminism and Free Love in An Early Nineteenth Century Radical Movement, *Labour History*, Australian Society for The Study of Labour History, Inc., No.38 (May, 1980), pp.3-25.

شأناً من المنتمين لها سوى بقال . مثلما إستهلت جمعية شفيلد على يد سبعة من صانعي السلال ؛ وضمت العضوية في بولتن عدداً من الحائكين»[١] . لقد ضمت هذه الجمعيات شيباً وشباباً ، كما ضمت أيضاً من هم على غرار جون گيل جونز John Gale Jones (١٧٦٩-١٨٣٨) ، العضو المخضرم الابرز في جمعية لندن للمراسلة الذي نحى منحاً راديكالياً بعد صدمته من مجزرة بيترلو[٢] .

كان إطلاق سراح كارليل من الحبس في عام ١٨٢٥ مثار إحتفال عظيم أُجري مع مولد بين في كانون الثاني ، وحالما إنتهى دوره بوصفه (شهيداً) حتىً بات دعمه يتبدد . ففي السجن تناهى إلى سمعه التململات والذرائع ، إذ ندبت مانشستر حظها بشأن الاسهم الكاملة في شركة الكتب ذات الاسهم المشتركة ، البالغة مائة جنيه ؛ إذ كلفت تذاكر حفل بين في نُزل مدينة لندن City of London Tavern في عام ١٨٢٦ نصف جنيه ، وحضر فقط خمسة وسبعون فرداً ، على خلاف ما كان متوقعاً بحضور ثلاثمائة فرد ، ليغلق كارليل دورية The Republican بحلول نهاية عام ١٨٢٦ . وأراد أن يستهل نشاطه بإصدار صحيفة بديلة مرخصة وأكثر إحتراماً وتأثيراً إلا أن جهوده أخفقت حينما طرحته الآم مرض الربو والروماتزم التي جاءته من طول بقائه في السجن[٣] ، لتتغير وجهات نظر كارليل عن الدين حينما وقع تحت تأثير أحد أكثر الشخصيات لفتاً للنظر ألا وهو رجل الدين المنشق القس روبرت تايلر Robert Taylor (١٧٨٤-١٨٤٤)[٤] .

---

(1) The Republican, 23 August, 10, 17 May 1822, 25 April 1823.

(2) The Republican, 28 June 1822, 30 April 1824; The Lion, 31 July 1829; Hovell, Mark, The Chartist Movement, Manchester, Manchester University Press, 1970, p.49; Hole, Robert, Pulpits, Politics and Public Order in England 1760-1832, Cambridge, Cambridge University Press, 2004, p.200.

(3) The Republican, 28 July, 6 January, 3 February, 8 December 1826; The Lion, 4 January 1828.

(4) Aldred, Guy Alfred, The Devil's Chaplain: The Story of Rev. Robert Taylor, M.A., M.R.C.S. (1784-1834), Glasgow, The Strickland Press, 1942; Cutner, Herbert, The Devil's Chaplain Robert Taylor (1784-1844), London, Pioneer Press, N.D.

لقد أصبح تايلر ، بعد رفضه الديانة المسيحية وسعيه لشجبها وطرده من الكنيسة ، محاضراً عن الربوبية . وأصدر في دبلن سلسلة كراريس ربوبية تحت عنوان : «نقد الاكليركية «Clerical Review . وإستهل عمله بما عرف بـ«جمعية الخير الكوني Society of Universal Benevolence» . وقصد لندن عام ١٨٢٤ ، ليستقبل على وجه السرعة من جون گيل جونز وغيره من الراديكاليين ، وليستهل العمل بـ«جمعية الدليل المسيحي Christian Evidence Society» ، التي حاضر بإسمها في نُزلي كراون Crown وأنكور Anchor عن دواعي عدم الايمان بالدليل المسيحي . ففي السجن طرق سمع كارليل هذا التوجه الجديد ورحب به[١] ، وعلى الرغم من إطلاق سراحه ومقابلته لتايلر في السجن إلا أنه في بادئ الامر لم يكن معجباً به ؛ إذ كان تايلر ربوبياً ولم يكن ملحداً ، وكانت محاولاته لتعريف الكفر عبر «قداس» ضمن نشاطاته قد حظيت بالموافقة من كارليل بسخرية حينما صورها الاخير على أنها نفاق . ومع ذلك ، فقد تبنى كارليل ، تدريجياً ، وجهة نظر تايلر ، وتعمقت صداقتهما . وبدأ كارليل حينذاك بتقدير القوة العقلية التي إستطاع إستحضارها رجل الدين السابق ، إذ كانت مجادلات تايلر مقصورة على فئة معينة من الطروحات وغير مألوفة ، وإعتمدت جزئياً على النقد التاريخي لنصوص الكتاب المقدس وإلى حدٍ ما الدين المقارن ، والاساطير وعلم فقه اللغة . وأضحى عمله الرئيس : «الحكاية Diegesis» الذي كتبه في السجن عام ١٨٢٨ عملاً كلاسيكياً جديداً في ميدان الفكر الحر[٢] .

وسرعان ما أُلقي تايلر في السجن بتهمة التجديف في عام ١٨٢٨ ، ورسّخ ذلك بقوة صداقته مع كارليل . وفي هذا الوقت ، إستهل الاخير إصدار دورية جديدة دعيت The Lion مع مطلع عام ١٨٢٨ ، وأبقى عليها على الرغم من خسارتها بهدف إعطاء تايلر منفذاً لوجهات نظره . وزاد تجدد الملاحقات القضائية من تصميم كارليل وأنصاره لتعزيز المساعدة مرة ثانية عبر الاقاليم والاشتراكات لاعلاء شأن ما عدوه

(1) Priestman, Martin, Romantic Atheism: Poetry and Freethought 1780-1830, Cambridge, Cambridge University Press, 2004, p.212; Godwin, Joscelyn, The Theosophical Enlightenment, New York, State University of New York Press, 1994, p.67.

(2) Cutner, Op.Cit., p.80; Mendum & Bennett, J. P. & D. M., Revelations of Antichrist Concerning Christ and Christianity, Kessinger Publishing, 2003, p.34.

(شهيداً) جديداً لقضيتهم[١] . وحينما أطلق سراح تايلر في شباط عام ١٨٢٩ ، قرر هو وكارليل إستمرار ما أُعتبر من منتقديهما بـ«المهمة الكفرية Infidel Mission» ونيل «الريع الكفري Infidel Rent» المقترح دفعه جراء مساعيهما . ولهذا رحلا في بادئ الامر إلى كمبردج حيث طرح تايلر تحديات جدلية إلى جميع رؤساء الكليات وعلق نسخاً كتبت باللاتينية واليونانية على باب مكتبة الجامعة . وعلى الرغم من ذلك ، لم تبدِ الجامعة أية ردة فعل تجاه هذا الامر ، بإستثناء تجريد القيم على نُزلهم من الرخصة ، ليرحلا على إثرها إلى الشمال . وكانت النتائج مخيبة للأمال في أول الامر ، فلم يكن هناك دعماً مفتوحاً على الرغم من نيل بضعة أموال ، ولم يكونا قادرين على تأجير قاعات لدعوتهما بسبب ضعف الاقبال[٢] .

وأخذت القاعدة بالاتساع بعض الشيء في لانكشاير على يد أحد أكثر المهتمين بنشاط الزيتيتك ، ألا وهو رولاند ديتروسير Rowland Detrosier (١٨٠٠-١٨٣٤) . فقد بزغ نجم هذا الراديكالي وغدا جديراً بالاحترام ، وتلقى دعماً من المنشق المصلح والسياسي جوزف برذرتون Joseph Brotherton (١٧٨٣-١٨٥٧) ، الذي منحه رخصة الوعظ عبر منبر في كنيسة ماونت برينكسوي الصغيرة Mount Brinksway Chapel ، قرب ستوكبورت Stockport ، إلا أن جدالاً مع أعضاء من جميعة زيتيتك المحلية كان قد لعب دوراً في تحوله نحو الربوبية . ومع مطلع عام ١٨٢٨ وظّف دفاعه عن الربوبية في دورية The Lion التابعة لكارليل ، وتحول إلى مانشستر ، حيث أضحى قائداً مؤيداً لتعليم الطبقة العاملة . وكان لدى ديتروسير عدداً ضخماً من الاتباع في لانكشاير وجشر ، فضلاً عن ولائه المستقل لنوع من الافكار المشابهة لما ناصره كل من تايلر وكارليل في لندن والتي قدر لها أن تحظى بقبول واسع ، ولا سيما تلك الافكار المعارضة للتصور المسيحي التقليدي في بلدات النسيج في الشمال الغربي حيث قُدر لزعماء لندن بناء قواعدهم الفكرية بسهولة هناك[٣] .

---

(1) The Republican, 9 April 1824, 15, 29 April, 16 December 1825, 11 August 1826; Cutner, H., Op. Cit., pp.42-53, Appendix V.

(2) The Lion, 29 May-25 September 1829.

(3) Williams, Gwyn A., Rowland Detrosier: A Working Class Infidel 1800-1834, First Published, York, University of York- Borthwick Papers No.28, 1965; The Lion, 18

وعلى العموم ، أكد التجوال والمسح الميداني للمناطق الذي جرى عام ١٨٢٩ ، الخطة المفترضة للدعم من خلال الدوريات . فقد كانت كل من لانكشاير وجشر وويست ردنك معاقلاً لهذه الخطة ، إلا أن إستمالة كارليل إتسمت بالمحدودية فقد إستقطب مجموعة صغيرة نسبياً من النشاطات . ومع ذلك ، أصاب كل من تايلر وكارليل الرضى عند عودتهما إلى لندن ، وأملا بعمل جولة في مقاطعات أخرى خلال عام ١٨٣٠ ، ولكن ، وبسبب تجدد أزمة الاصلاح التي حدثت خلال هذا العام ، قررا تركيز جهودهما الكلية على لندن . لذلك إستأجر كارليل قاعة مستديرة Rotunda كمسرح لالقاء المحاضرات على الراديكاليين[١] ، وإبتدأ بإطلاق صحيفة إسبوعية أخرى دعيت The Prompter ، كرست من أجل قضية الاصلاح[٢] . وكان تايلر واحداً من أبرز المعجبين بالقاعة المستديرة ؛ إذ ألقى خطبه في أيام الاحد بما دعاه بخطب «منبر الشيطان Devil's Pulpit» في هذه القاعة[٣] ، ليُلقب على إثرها من هنري هنت[٤] Henry Hunt بوصفه «قسيس الشيطان Devil's Chaplain» . وليقع هو

January, 9, 16 May 1828; Kargon, Robert H., Science in Victorian Manchester: Enterprise and Expertise, New Jersey, Transaction Publishers, 2010, pp.22-23.

(1) Davis & Helmstadter (eds.), R. W. & R. J., Religion and Irreligion in Victorian Society: Essays in Honor of R. K. Webb, First Published, London, Routledge: Taylor & Francis Group, 1991, pp.55-64.

(2) The Lion, 17 July, 25 December 1829.

(3) Taylor, Robert, The Devil's Pulpit: or Astro- Theological Sermons, New York, Calvin Blanchard, 1857.

(٤) هنري هنت (١٧٧٣-١٨٣٥) : مصلح وسياسي راديكالي إنكليزي ، ناصر الاقتراع العام والبرلمانات السنوية . جذب الانتباه الوطني حينما ترأس تجمعاً مؤلفاً من ستين ألف متظاهر مطالبين بالاصلاح البرلماني في شارع سانت بيتر فيلدز St. Peter's Fields في مانشستر (١٦ آب ١٨١٩) . وأدت الاعتقالات بحق هنت والقادة الاخرين بحدوث إرباك وعنف ؛ إذ جرح حوالي ٥٠٠ من المتظاهرين وقتل ١١ شخصاً ، لتعرف الحادثة بـ«مجزرة بيترلو» . أنظر :

Encyclopedia Britannica, CD., 2010; Belchem, J. C., Henry Hunt and The Evolution of The Mass Platform, *The English Historical Review*, Oxford University Press, Vol.93, No.369 (Oct., 1978), pp.739-773.

وكارليل في مشكلة مرة ثانية ، حينما تناهى لسمع وزارة الداخلية ما دار خلال محاضرات القاعة المستديرة[1] .

ونتيجة لذلك سجن كارليل لمدة عامين في كانون الثاني ١٨٣١ لنشره خطاباً بعنوان : «إلى العمال الزراعيين العصاة» في صحيفته The Prompter ، وجُرّم تايلر لنشره ما عُدّ بكونهما محاضرتين تجديفيتين عن الجمعة العظيمة (اليوم الذي يسبق عيد القيامة ، وهو عيد مسيحي) وعيد الفصح (عيد القيامة أو أحد القيامة عند المسيحيين) في عام ١٨٣١ ، ليحكم عليه بسنتين[2] . ومع ذلك ، بدأت الاشتراكات تتواكب مرة أخرى ، على الرغم من أنها لم تبلغ العدد السابق المرجو . وإستمر الاصدقاء في لندن بتدوير عجلة العمل في أثناء غياب القادة : حيث إفتتح جيمس واتسون كنيسة فنزبري الصغيرة Finsbury Chapel لعقد المناقشات عبر أربع أمسيات إسبوعياً[3] . ومع هذا ، قاسى كارليل نوعاً من التحول الروحي ، فعلى مدى الاعوام العشرة الاخيرة من حياته أدرك هذا الملحد المبكر بالكاد بأنه غدا يتلمّس طريقه من خلال المجالات الروحانية والاسطورية في التفسير المجازي للديانة المسيحية . ففي عام ١٨٣٢ أعلن ، عبر بيان موجز ، في النشرة الاسبوعية في لندن ، إيزيس The Isis :

«أعلن بأني قد تحولت إلى الحقيقة كما هي في إنجيل يسوع المسيح . وأعلن بأني مؤمن بحقيقة الديانة المسيحية . . . أعلنها روحياً ورمزياً ومبدأ متحدياً مزاعم الوثنية للمسيحية في حقل النقاش»[4] .

وعلى الرغم من ذلك ، تدخل في السياسة بأسلوب أكثر جرأة من المتوقع ، ففي

---

(1) Prothero, Iorwerth, Artisans and Politics in Early Nineteenth- Century London: John Gast and His Life, London, J. W. Arrowsmith Ltd, 1981, pp.278-282.

(2) The Prompter, 27 November 1830, 29 January, 23 April, 9 July 1831; Dyck, Ian, William Cobbett and Rural Popular Culture, Cambridge, Cambridge University Press, 1999, p.262; Jackson, Thomas Alfred, Trials of British Freedom: Being Some Studies in The History of The Fight for Democratic Freedom in Britain, New York, Burt Franklin, 1968, p.109.

(3) Cole, Richard Carlile, pp.25-26; The Lion, 14 August 1829.

(4) The Isis, May 1832, Quoted in: Cole, Richard Carlile, p.26; Wiener, Radicalism and Freethought, p.185.

عام ١٨٣٣ ، إستهل العمل بصحيفة غير مرخصة ، عنوانها The Gauntlet ، وخاض في جولة لتدوين أسماء ثلاثة الآف متطوع من أجل إجبار الحكومة على تخفيض الضرائب . ليعاني في العام اللاحق من حبسه الاخير جراء تسببه بإزعاج عام حينما أبدى إحتجاجه ومناهضته إزاء عائدات الكنيسة ؛ إذ عبّر عن ذلك من خلال إظهاره من شباك متجره في شارع الصحافة في لندن دمى تجسد ضابط يؤدي الحجز مع الاسقف يداً بيد مع الشيطان . وفي هذا الوقت لم يعد لديه أي شيء مهم ليقوله لاتباعه ؛ إذ حتى صحيفته The Prompter لم يبع منها أكثر من ألف نسخة ، أغلبها في لندن ولانكشاير(١) . لقد تمثلت أعظم إنجازات كارليل في ترسيخ التقليد البيني ؛ إذ قال في عام ١٨٢٢ : **«إني سأغدو مسروراً إذا ما أثرت في سكان شفيلد بدعوتهم للمضي قدماً ، لا لتأييد هذا الرجل أو ذاك ، بل بدعم تلك المبادئ المطروحة في كتابات توماس بين»**(٢) . وكان هناك بالفعل بعض الراديكاليين الذين تحولوا نحو هذه المبادئ خلال تسعينيات القرن الثامن عشر(٣) .

وفي الوقت الذي بث فيه كارليل أفكار بين ، إلا أن عمله هذا لم يكن بعيداً كلياً عن المصلحة الشخصية حينما شدد على صرامة التقليد البيني المخالف للمسيحية التقليدية ، فقد كان غير مؤمن ، على نحوٍ كامل ، بذلك التقليد بجميع نواحيه . وحينما حث راديكاليو شفيلد أن يكونوا مخلصين تجاه بين ، وجه كارليل في الوقت نفسه ضربة قاصمة لهنت ، حينما شجب بشدة «اتحاد هنت الراديكالي الشمالي العظيم Hunt's Great Northern Radical Union» في عام ١٨٢٢ ، الذي أملَ الاخير من ورائه تأمين إنتخابه في البرلمان . أما فيما يتعلق بكارليل فإن بين غدا أكثر من مجرد إسم راديكالي عظيم ؛ فسرعان ما تحول إلى رمز لدى أولئك المغرمين بالنزعة الجمهورية The Republicanism ومنبعاً لأفكارهم ، ولهذا إستخدم كارليل هذا الاسم ووظفه أداةً لمهاجمة الزعماء الراديكاليين الاخرين(٤) . وضمن السياق

(1) The Isis, May 1832, Quoted in: Cole, Richard Carlile, p. 26; Hollis, Op. Cit., p.211; Wickwar, Op. Cit., p.296.

(2) The Republican, 23 August 1822.

(3) The Republican, 2 August, 7 June, 27 September 1822.

(4) The Lion, 23 October 1829.

ذاته ، غدا إسم كارليل مع الوقت مترافقاً مع بين بوصفه نوعاً جديداً من التقليد الذي أُعلي شأنه من خلال تنافس الجماعات الراديكالية المتطرفة في الجيل اللاحق ، ليقوم التقليد البيني- الكارليلي بتأسيس ماعرف بإيديولوجية الراديكالية المتطرفة(١) .

لقد مثلت كتابات كارليل أحياناً إنعكاساً ، على نحو دقيق ، لروحية بين . إذ كتب في عام ١٨٢٢ رسالة مفتوحة إلى السياسي الانكليزي جورج كاننك George Canning(٢) ، عرّف فيها النزعة الجمهورية والربوبية بالتناغم مع ما وظفه بين في كتابيه «حقوق الانسان» و«عصر العقل» ، لكنه في العام السابق تخلى عن ربوبية بين في الواقع ، ليحل محلها نوعاً من الالحادية المادية الخالصة المناهضة لما ورد في كتاب «عصر العقل»(٣) . وأقر كارليل بهذا التعديل في العدد الاخير من The Republican ، وأعلن عن مبادئه الخاصة عبر كلمات أظهرت بدقة الشخصية المنقحة لهذا التقليد حينما قال : **«ليس ثمة عمل أضاف أي شيء إلى صلابة ومنفعة مبادئ السيد بين السياسية ، ما عدا الشعبية الواسعة التي منحت لها ، لكن هناك عملاً قد أضاف الكثير إلى صلابة ومنفعة مبادئه اللاهوتية . لقد أدى أو دافع عن النظام وحافظ على إبقاء رب ، بحيث جازفنا بالتساؤل- ما هو الرب؟ لم نجد من يجيب عن هذا التساؤل بجملة واضحة ، ولم يزودنا أي أحد ليجيب عن هذا التساؤل ، ولم يكن لدينا أي جواب ، لنجد الباحث الصادق وبعد أن رأى الحقيقة إن عليه أن يمضي من غير أن يستخدم كلمة رب»**(٤) .

---

(1) Royle, Victorian, p.41.

(٢) جورج كاننك (١٧٧٠-١٨٢٧) : رجل دولة بريطاني ، إمتاز بسياسته الخارجية الليبرالية حينما كان وزير خارجية (١٨٠٧-١٨٠٩/١٨٢٢-١٨٢٧) ورئيس وزراء لمدة أربعة أشهر خلال عام ١٨٢٧ . أنظر :

Taylor, George Robert Stirling, English Political Portraits of The Nineteenth Century, Ayer Company Publishers, 1967, pp.53-100; Hodge (ed.), Carl Cavanagh, Encyclopedia of The Age of Imperialism 1800-1914, First Published, Greenwood Publishing Group, Inc., 2008, Vol.I, p.135.

(٣) The Republican, 27 September 1822.

(4) The Republican, 29 December 1826.

ولم يبدِ أتباع كارليل أي إنزعاج مفرط تجاه تأرجح التعاليم الدينية التقليدية عنده[1] . وكان من اليسير على هذه الاختلافات الجوهرية أن تبرر لكون الربوبيين والملحدين كلاهما مناهضان للمسيحية . ولم يعدُ الالحاد في الواقع في بعض الاحيان عن كونه إسلوباً مناهضاً للتوجه الاكليركي . وكان كل من بين وكارليل على خط واحد في مقتهما للكنيسة واللاهوت المسيحي ، وكان أتباعهما إزاء كل وجهات النظر هذه سعداء تماماً . فلم يجد مؤيدو كارليل صعوبة بإتباعه حينما تحول من الربوبية إلى الالحاد وحتى حينما عاد مرة أخرى لشكلٍ ما من الربوبية ، طالما كانت شعارات أنصار التوجهات الملكية والكهنوتية متداخلة مع بإضطهاداتها في حقب زمنية متكررة[2] .

وتوقف كارليل من أن يغدو شخصية مهمة خلال ثلاثينيات القرن التاسع عشر لتمر القيادة الراديكالية لغيره ، أمثال الزعيم الجارتي[3] هنري هيثرنكتون Henry

---

(1) The Republican, 23 August, 20 September 1822; Aldridge, Alfred Owen, Man of Reason: The life of Thomas Paine, London, Lippincott, 1959, p.230.

(2) Royle, Victorian, p.42.

(٣) نسبةً إلى الحركة الجارتية Chartist Movement (١٨٣٨-١٨٥٢) : حركة الطبقة العاملة البريطانية التي هدفت إلى إجراء إصلاحات برلمانية تنادي بتنفيذ مطالب الميثاق الشعبي People's Charter الستة لعام ١٨٣٨ وهي : التصويت العام للذكور ، التصويت بالاقتراع السري ، دوائر إنتخابية متساوية ، إنتخابات برلمانية سنوية ، دفع رواتب لاعضاء البرلمان ، إلغاء مؤهل الملكية لعضوية البرلمان . قامت بمظاهرات من أجل تلبية مطاليبها ، وتعرضت الحركة إلى إنشقاق كبير خلال المدة ١٨٤٠-١٨٤٢ . عكست الاضطرابات الاخيرة للحركة في عام ١٨٤٨ الاضطرابات العامة في عموم القارة الاوربية . أخفقت الحركة الجارتية بسبب ضعف قيادتها ، وسوء تنظيمها ، وعدم إتصالها بأعضاء حركة نقابات العمال ، فضلاً من أن أهدافها لم تكن بالوضوح والمباشرة التي إتصفت بها أهداف منافستها المعاصرة لها أي عصبة مقاومة قوانين الحبوب . لمزيد من التفاصيل أنظر : حسن ، علي جبر ، الحركة الجارتية في بريطانيا ١٨٣٨-١٨٥٢ ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الاداب- جامعة بغداد ، ٢٠٠٦ ؛ بالمر ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ص ١٧٨-١٧٩ ؛

Taylor, Miles, Rethinking The Chartists: Searching for Synthesis in Historiography of Chartism, *The Historical Journal*, Cambridge University Press, Vol.39, No.2 (Jun., 1996), pp.479-495; Prothero, Iorwerth, Chartism in London, Past & Present, Oxford University Press, No.44 (Aug., 1969), pp.76-105.

Hetherington (١٧٩٢-١٨٤٩)[1] الذي شاطر وجهات نظره تلك لكنه لم يعجب بكارليل . وكان الصراع بالضد من القيود المفروضة على الصحافة وعبر قوانين التجديف والتحريض قد أستأصل من خلال الحملة المناهضة للاعباء المالية ، ولا سيما تجاه قضية طابع الصحف[٢] . وعلى الرغم من أن نجم كارليل الشخصي أفل ، إلا أن تأثيره على العالم الراديكالي لم يتحطم ؛ إذ عكست الانتقائية الطبيعية لدى أتباع الراديكالية أسباب تحول مؤيدو كارليل خلال ثلاثينيات القرن التاسع عشر بسهولة تامة ليعملوا مع هيثرنكتون وصحيفته Poor Man's Guardian ، على الرغم من أن كارليل بقى عدائياً بشدة له ولاصحابه . فالزعيم كارليل حينما إنحسر دوره عنى ذلك للاتباع إن حركة جديدة قد أعطتهم بطلاً جديداً وإن نسقاً من الافكار الجديدة قد أضيفت إلى القديمة ، حتى حينما يكون الابطال أنداداً والافكار غير متوافقة . فرجل مثل جيمس واتسون كان قادراً على تأييد كارليل وهيثرنكتون في الوقت ذاته . وعلى هذا النحو أقيمت الراديكالية التقليدية ، إذ أضيف الحاد كارليل إلى ربوبية بين ؛ مع تشخيصات كارليل لعلل البلاد في المجالين الملكي والديني . وكان الاصلاح هو الهدف ، على الرغم من أن النزاعات الشخصية غالباً ما حجبت الوحدة الجوهرية القائمة في الراديكالية البريطانية آنذاك[٣] .

لقد جاءت التوجهات والنزعات العلمانية في بريطانيا كحصيلة معرفية متراكمة

---

(1) Holyoake, George Jacob, The life and Character of Henry Hetherington, *Cowen Tracts*, London, 1849.

(٢) لعب هيثرنكتون دوراً قيادياً في الحملة بالضد من أداء ضريبة الطابع الثقيلة على الصحف والكراريس ، ونجم عن هذه الحملة إصلاحات عدة في القانون ، ففي عام ١٨٣٣ إنخفضت الضريبة على الصحف وبخاصة على رسم الاعلان من ٣ شلن و٦ بنسات إلى ١ شلن و٦ بنسات ، وفي عام ١٨٣٦ إنخفضت الضريبة على الصحف من ٤ بنسات إلى بنس واحد . أنظر :

Hartley, John, The Politics of Pictures: The Creation of The Public in The Age of Popular Media, First Published, London, Butler & Tanner Ltd, 1992, pp.174-175; Eaman, Ross, Historical Dictionary of Journalism: The A to Z of Journalism, Maryland, Scarecrow Press, Inc., 2009, p.272.

(3) Royle, Victorian, p.43.

عبر عدة مراحل زمنية . وكان من أبرز مظاهرها نمو التشكيك العقلي عند النخبة الثقافية بالضد من الكيان الديني القائم . وهدفت هذه النخبة تحقيق غايتها المتمثلة في تنبيه الاذهان ومحاولة تغيير المجتمع من مجتمع ديني تقليدي إلى مجتمع علماني مدني . ولم تكن وسائل بعض هذه التوجهات خالية من نقد بناء تمثل في إظهار عيوب الدين والدولة ، في الوقت الذي أظهرت وسائل أخرى حدة بالغة تمثل في تعمد النيل من الرموز الدينية ومحاولة خلق البديل ؛ ولا سيما محاولة أنصار التقليد الكارليلي Carlile Tradition إقامة الكنائس الصغيرة Chapel بهدف إقامة التجمعات في يوم الاحد على نسق الكنائس المسيحية ، فضلاً عن نشاط الصحافة العلمانية الذي غدا مرحلة مهمة في تطور التوجه العلماني مع إنطلاقة العصر الفكتوري في عام ١٨٣٧ .

الفصل الثاني

الاتجاهات والمظاهر العلمانية منذ مطلع العصر الفكتوري عام ١٨٣٧ ولغاية تأسيس الجمعية العلمانية الوطنية عام ١٨٦٦ - نشوء المفهوم والحركة العلمانية ونتائجها

أولاً: التقليد الاويني والاشتراكية الراديكالية وأثرهما على الدين في المجتمع الفكتوري

أدى تنامي الطروحات والافكار الاشتراكية[1] في بريطانيا إلى تعزيز الرؤى العلمانية ؛ وكانت إحدى أوجه تلك الطروحات المشاريع التعاونية التي تناولت في بنائها الوظيفي تعزيز روح التعاون والاعتماد على الاكتفاء الذاتي في تطبيقاتها العملية وفقاً لمشاريع مستوطنات ومجتمعات وقف وراءها رواد أوائل أسهموا في خلق هذه المشاريع[2] . وعلى الرغم من أن الكثير منها قد إتسم بعدم ديمومته لاسباب

(١) الاشتراكية Socialism : مذهب إجتماعي وإقتصادي يدعو إلى ذيوع الملكية العامة بدلاً من الملكية الخاصة ؛ أو بعبارة أخرى يدعو إلى التحكم بالملكية والمصادر الطبيعية . وطبقاً للرأي الاشتراكي ، فإن الافراد لا يمكنهم العيش أو العمل معزولين وإنما يحيون بتعاون أحدهم مع الآخر . وفضلاً عن ذلك ، فإن أي شيء ينتجه الناس هو بشكل أو بأخر ناتج مشترك ، وإن أي أحد يسهم في الانتاج المفيد له الحق في المشاركة فيه . ولهذا فإن المجتمع برمته من المفترض أن يمتلك أو على الاقل أن يتحكم بالملكية لمنفعة جميع أعضائه . ويرجع أول إستخدام لمصطلح الاشتراكية في عام ١٨٠٣ في نص مطبوع باللغة الايطالية ، أما الاشارة الانكليزية لمصطلح الاشتراكي في عام ١٨٢٧ فقد أوردته الدورية Co-operative Magazine الاوينية لتعني تحديداً أتباع مذهب أوين التعاوني ، على الرغم من أن أوين هو أول من استخدم مصطلح الاشتراكي منذ عام ١٨١٧ . أما مصطلح Socialisme فظهر إلى عالم الطباعة في المجلة الفرنسية Le Globe عام ١٨٣٢ . أنظر : كول ، ج .د . هـ . ، رواد الفكر الاشتراكي ١٧٨٩-١٨٥٠ ، تر : منير البعلبكي ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦١ ، ص١٢ ؛ بالمر ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١٥٥ ؛

Encyclopedia Britannica, CD., 2010.

(٢) من أجل متابعة دقيقة للحركة التعاونية والمشاريع التعاونية . أنظر :

Harrison, J. F. C., Robert Owen and The Owenites in Britain and America, First Published, Oxford, The Alden Press, 1969.

مالية ، إلا أن مرجعيتها الفكرية ظلت مؤثرة لدى التيار العلماني الوليد ، بل أسهمت على نحو فعال في خلق أرضية لهذا التيار نظراً لما تمتعت به من أفق فكري وأيديولوجي ساعد في منح الطروحات العلمانية قاعدة فكرية مهمة ؛ وكان التقليد الاويني Owen Tradition أو الاوينية Owenism من أوائل المنابع المؤسسة التي تأثر بها العلمانيون مع مقدم العصر الفكتوري .

لقد خلّف روبرت أوين Robert Owen[1] إرثاً فكرياً مهماً ؛ إذ تعود جذوره

---

(١) روبرت أوين (١٧٧١-١٨٥٨) : إشتراكي ورائد الحركة التعاونية ، ولد في مونتغمريشاير . عمل في لندن وإقترض المال بعدها لينشئ معملاً في مانشستر . أنشأ معملاً في نيولانارك في إسكوتلنده ، وإتبع نظام خطوط العمل النموذجية ورفض إستخدام الاطفال ووفر تعليماً أعلى للاولاد الكبار ، وحدد ساعات العمل للبالغين . وعلى الرغم من أن أوين كان أول من إستخدم مصطلح «إشتراكي» في بريطانيا عام ١٨١٧ ليعبر عن تجربته ، إلا أنه لم يتعاطف مع الهجمات على الاغنياء ولم يكن يحاول تشجيع الكراهية الطبقية . وطرح في مؤلفه «نظرة جديدة للمجتمع» (١٨١٢-١٨١٤) قيم أهداف التعاونية ؛ إذ أكد بالحجة إن الاقتصاد المخطط له يستطيع إزالة مصائب الفقر ، مثلما أكد فيه على شجبه لتأثيرات الدين . قضى السنوات (١٨٢٥-١٨٢٩) في الولايات المتحدة الامريكية يكافح عبثاً لتكوين جماعة إشتراكية في نيو هارموني في إنديانا ، وخلال عودته إهتم بتوسيع الحركة التعاونية . كان ابنه روبرت ديل أوين Robert Dale Owen (١٨٠١-١٨٧٧) قائداً إشتراكياً في ولاية نيويورك . أنظر : بالمر ، المصدر السابق ، ج٢ ، ص ١٥٥ ؛ كول ، المصدر السابق ، ص ص ١٣٥-١٥٦ ؛ غولدمان (تحرير) وآخرون ، ل . أ . ، من تاريخ الحركات الاجتماعية والفكر الاجتماعي ، ط١ ، تر : طنوس شلهوب ، بيروت ، دار الفارابي ، ١٩٨٧ ، ص ص ٧١-١٣٠ ؛ ليدلر ، هاري . و . ، الحركات الاشتراكية ، تر : محمد ماهر نور ، مراجعة : محمد حلمي مراد ، القاهرة ، مطابع الدار القومية ، ١٩٦٦ ، ص ص ١٣١-١٥٠ ؛ دروز وآخرون ، جاك ، التاريخ العام للاشتراكية من الاصول إلى عام ١٨٧٥ ، ط١ ، تر : أنطون حمصي ، دمشق ، مطابع وزارة الثقافة ، دراسات فكرية رقم «٤٧» ، ١٩٩٩ ، ج١ ، ق١ ، ص ص ٣٦٨ -٣٨٩ ؛

Harrison, Robert Owen; Kenyon, Op. Cit., p.270; Miliband, Ralph, The Politics of Robert Owen, *Journal of The History of Ideas*, University of Pennsylvania Press, Vol.15, No.2 (Apr., 1954), pp.233-245; Podmore, Frank, Robert Owen and Cooperation, The Economic Journal, Blackwell Publishing for The Royal Economic Society, =

الفكرية إلى الطروحات العقلانية التي كانت سائدة في عصر التنوير ، في حين إنه حقق شهرة عالمية عبر تطوير مخططاته في نيولانارك[1] . وكان قد طرح مبادئه الرئيسة عبر مقالاته الاربع المتعلقة بتكوين الخُلق[2] البشري (١٨١٣-١٨١٤) ، لانه أخذ يفكر بالمجتمعات ليس فقط في سبيل إيجاد حل لمشكلة الفقراء فحسب ، بل بهدف إيجاد مخطط يعزز من السعادة العملية ويجددها في سبيل البشرية جمعاء . وفي الوقت الذي بدت مبانيه المقترحة كالاديرة وفقاً لوصف الصحفي الانكليزي وليم كوبت William Cobbett (١٧٣٥-١٧٦٣) الذي نعتها ساخراً بإسم مجتمعات متوازيات الاضلاع للفقراء Parallelograms of Paupers[3] ؛ وجد الراديكاليون في أفكار أوين فلسفة جديدة للحياة[4] .

وعلى الرغم من ذلك ، يمكن القول إن أفكار أوين المعادية للدين المسيحي أخذت تشيع وتنتشر على نحو ينذر بالخطر منذ عام ١٨٣٧[5] . وإن الخلفيات التي بنى عليها أوين موقفه المعادي للدين كانت قد تجسدت في إصداره المقالة الثالثة بشأن تشكيل

= Vol.15, No.58 (Jun., 1905), pp.257-265; Kumar, Krishan, Utopian Thought and Communal Practice: Robert Owen and The Owenite Communities, *Theory and Society*, Springer, Vol.19, No.1 (Feb., 1990), pp.1-35.

(1) Owen, Robert, Outline of The Rational System of Society, Hume Tracts, UCL Library Services, 1839, p.2.

(٢) نسبةً إلى فكرته القائلة : «بأن خُلق الناس- أي أنماط سلوكهم وموازين قيمهم- رهن بالاموال التي تكتنفهم» . أنظر : كول ، المصدر السابق ، ص ١٣٨ .

(٣) جاءت هذه السخرية لتحاكي مقترح أوين القاضي بإنشاء قرى تعاونية يعيش أفرادها في مبان كبيرة مربعة الاضلاع . أنظر : ليدلر ، المصدر السابق ، ص ص١٤٠-١٤١ ؛ Kumar, Op. Cit., p.12; Garnett, R. G., Co- operation and The Owenite Socialist Communities in Britain 1825-45, Manchester, Manchester University Press, 1972, p.8.

(4) Owen, R., The Life of Robert Owen, London, 1857-1858, Vol.1, p.230; Podmore, F., Robert Owen, London, 1923, pp.240-141; Cole, G. D. H., The Life of Robert Owen, Third Edition, London, 1965, p.204.

(٥) عوض ، المصدر السابق ، ص٢١٠ .

الخُلق في عام ١٨١٤ ، التي جادل فيها بضرورة معارضة الديانة المسيحية ، لا بسبب مناهضة الاكليركية أو المسلمات الشعبية الدارجة فحسب ، ولكن لدواع واقعية وعقلانية وأخلاقية . لقد كان أوين ، وبقى ، واحداً من ربوبيي القرن الثامن عَشر ومن أتباع الدين العقلاني للطبيعة . وآمن بتناغم الإنسان وإنسجامه مع الطبيعة معتبراً المسيحية تتعارض مع هذا التناغم وتخالفه ، بسبب عدم إدراكها المبدأ الجوهري لطبيعة الانسان[١] .

وتصاعد موقفه ذلك عبر خطابه الشهير في نُزل لندن في ٢١ آب عام ١٨١٧ قائلاً : «**لقد منعتم حتى من أن تدركوا ما حصل حقيقة ، فقط نتيجة الاخطاء . . . التي تجمعت من المفاهيم الاساسية لجميع الاديان . . . إن الاخطاء التي إنطوت عليها هذه الانظمة جعلت من الانسان حيواناً معتوهاً ؛ أو متعصباً عنيفاً ؛ أو منافقاً بائساً**»[٢] . وهكذا إسترسل في الخطاب مهاجماً الدين بوصفه مصدراً لعدم التناغم والتجانس في العالم بأسره . فقد وضع الفرضية العقلانية القائلة بأن الحقيقة هي في تكشفها ، وتمكن الناس جميعاً من رؤيتها وإدراكها بكونها حقيقة وتقبلها في حياتهم[٣] .

وعلى إثر ذلك تصاعدت الشكاوى تجاه ماعُدّ إنها تأثيرات خبيثة لآراء أوين اللاهوتية بعد عام ١٨٢٨ ؛ إذ لم تؤدِ المسألة الدينية هذا القدر من التأزم إلا بعد عودته من الولايات المتحدة الامريكية ، حينما أثارت محاضراته الصباحية ليوم الاحد حفيظة بعض المتدينين[٤] . فقد لاقت محاضراته تلك التي ألقاها في نُزل لندن عام ١٨٢٩ وأخرى عديدة في قاعات لندن خلال عامي ١٨٣٠ و١٨٣١ حضوراً من مختلف مشارب راديكاليي لندن ، بضمنهم بعض أتباع كارليل وتايلر . وفي هذه الفترة بالتحديد ، وعلى خلفية الركود الاقتصادي وعدم الاستقرار السياسي ، تم

---

(1) Owen, R., Life, Vol.1, p.299.

(2) Address Delivered at The City of London Tavern on Thursday, August 21st, and Published in The London Newspapers of August 22nd, 1817, in: Owen, Op. Cit., Vol.1, p.115.

(3) Royle, Victorian, p.60.

(4) Lovett, W., The Life and Struggles of William Lovett, London, 1876, p.43.

وصف الاوينية من خلال قرنها مع ما أشيع عن كفر كارليل وتايلر . وبعبارة أخرى لم يكن كفر أوين يتمثل بطبيعة آرائه ، بقدر ما تمثل بمن كان يشاطره إياها آنذاك[١] .

وخلال ثلاثينيات القرن التاسع عشر وهي الفترة التي غدت فيها آراء أوين تجاه الدين شعبية ، سرعان ما تم إعتبارها سوقية فضلاً عن التوكيد على الجوانب السلبية لافكاره على حساب الايجابية منها . وكانت مجمل هجماته العنيفة التي شنها على المؤسسات القائمة في المجتمع ، التي قاد فيها سويةً كلتا الانتقادات العقلانية والاشتراكية ، قد شجعت أغلب الراديكاليين من أتباعه[٢] . وليتم بعد عام ١٨٣٤ التبشير بالدين العقلاني Rational Religion ، الذي كان في الواقع دين إنساني دنيوي مجرد من أي ضرب من ضروب المعتقدات اللاهوتية[٣] . ونجم عن هذا الوضع بالتأكيد ظهور أشخاص معادين للاوينية . فقد قام أوين بطرح قضيته للنقاش وللمرة الاولى على الملأ في عام ١٨٢٩ حينما ناقش القس الكسندر كامبل Alexander Campbell (١٧٩٦-١٨٧٠) بشأن بعض المسائل الشائعة مثل : «**إن جميع أديان العالم قد تأسست على جهالة البشر**» ، وفي عام ١٨٣٧ كان قد أستأنف نشاطه في بريطانيا حينما ناقش أفكاره في مانشستر مع أحد القساوسة . وكان كل ذلك أشارة لعدد متزايد من الجدالات التي تم عقدها خلال السنوات القليلة اللاحقة التي أجراها اوين ودعاته مع الذين نصبوا أنفسهم مدافعين عن الايمان المسيحي . لقد كان أوين رجلاً دمثاً ، وكان يكرر بديهياته على نحوٍ ممل وبصبر مطلق وبتجاهل تام لما يثيره خصومه من جدالات ، إذ ظل الجدال له لا يعدو كونه مجرد محاضرة ، إلا أن البعض من دعاته كانوا أكثر تحريضاً . وبوجود الجماهير التي كانت تميل نحو هذه الجهة أو تلك ، فقد غدت هذه النقاشات في بعض الاحيان مصدراً لبعض التراشق الحاد ، التي شعر أوين بأنها ملائمة فقط فيما دعاه ساخراً بالعالم اللاأخلاقي القديم[٤] .

وكان هناك مظهران في فكر أوين في ثلاثينيات القرن التاسع عشر عكسا إتجاهه ، على نحوٍ شبه كامل ، نحو ما أعتبر في حينه ، منابع الراديكاليين الكفار :

---

(1) Royle, Victorian, pp.60-61.

(2) The New Moral World, 29 November 1834.

(٣) كول ، المصدر السابق ، ص ١٩٧ .

(4) Royle, Victorian, p.62.

الاول ، جداله بشأن طروحاته مع رجال الدين ، والثاني ، ما تعلق بمحاضراته بشأن الزواج . فقد كانت الاخيرة ، التي ألقاها عام ١٨٣٥ التي طرحت على نحو غير دقيق في دوريته The New Moral World في ذلك الوقت ، قد تم طرحها على نحو موسع في عام ١٨٣٨ حينما قام الجارتي والاشتراكي البريطاني جوشوا هوبسن Joshua Hobson (١٨١٠-١٨٧٦) بنشرها على هيئة كتاب ، ليعنون فيما بعد تحت عنوان : «محاضرات بشأن الزواج لدى كهانة العالم اللاأخلاقي القديم» متضمناً طروحات مثيرة : كإعتبار الزواج وسيلة شيطانية كهنوتية من أجل وضع الجنس البشري تحت طائلة خرافاته الوضيعة ، وجعله ذليلاً أمام كل نواياه[١] .

وتجسد إزدياد نشاط الاوينيين بصيغتين واضحتين : ظهور المجتمعات الجديدة (أو ما دعيت بالمُشتركات[٢] Communities) وقاعات العلم الكبيرة . وأدى هذا النشاط ، لما عُدّ رمزاً من رموز الكفر آنذاك ، إلى إثارة السكان المحليين . وكانت الاحداث التي جرت في ليفربول أحداثاً نموذجية في هذا الصدد ؛ إذ تم عقد الاجتماعات في Tarlton Street Institute في عام ١٨٣٨ واستقطب هذا المعهد الآلاف من الجماهير ، وشرع أعضاؤه ببناء قاعتهم الخاصة ، حيث وضع حجر الاساس في حزيران ١٨٣٩ . وأدى تشييد هذه القاعة إلى تأجيج المعارضة الدينية[٣] ، لتشهد أماكن أخرى كهدرسفيلد وبرادفورد التضييق ذاته على المحاضرين الاشتراكيين . ونتيجة لذلك عبأت هذه الاستفزازات المحلية الاشتراكيين بالغضب تجاه المسيحيين وديانتهم ، وبالتالي غدا من العسير تطبيق المبدأ الاويني القاضي بالتهدئة والتسامح العقلاني[٤] .

وخلال الاعوام ١٨٣٩-١٨٤١ بلغت الاعتراضات الدينية بشأن الاشتراكية ذروتها وتعاظمت حدتها نتيجة الشعور بإنتشار النشاطات الاوينية في البلاد ، بحيث

---

(1) Podmore, Op. Cit., p.490; The Movement, 20 April 1844.

(٢) المُشترك Community : جماعة ذات تنظيم مشترك أو مصالح مشتركة أو تحيا في موطن واحد وفي ظل قوانين واحدة . أنظر : البعلبكي ، منير ، المورد : قاموس انكليزي- عربي ، ط ٣٨ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ٢٠٠٤ ، ص ١٩٩ .

(3) Royle, Victorian, p.63.

(4) The New Moral World, 9, 23 March 1839, 14 March 1840.

تم تداول ٢٢ مليون كراسة دينية ، فضلاً عن نصف مليون كراسة وزعت في برمنغهام في عام ١٨٣٩ لوحدها . كما تم عقد خمسين نقاشاً رسمياً خلال عام واحد مع رجال الدين فضلاً عن ما يقارب ١٥٠٠ محاضرة ألقيت (من بينها ما يقارب ستمائة محاضرة تمحورت حول مواضيع لاهوتية وأخلاقية) ، مقابل زيارة ٣٥٠ بلدة على نحو منتظم من أربعين داعية إشتراكي . أما العدد الكلي للجماهير فقدر ما بين ١٠-١٢ ألف في الاسبوع الواحد ، وأدى ذلك بالمحصلة إلى رواج دورية The New Moral World بين شهر تشرين الاول عام ١٨٣٨ وحزيران عام ١٨٤٠[١] .

وتزامن كل ذلك مع فترة الانحلال الاقتصادي وتصاعد الاضطراب الجارتي[٢] ، وكان بعض رجال الدين قد إعتقدوا بأن الاشتراكيين يمثلون «أكبر تهديد غادر» للدولة من الجارتيين ، ولا سيما حينما قام زعمائهم بإنتقاد مسألة الزواج وأخبروا جماهيرهم بأن الانسان غير مسؤول عن تصرفاته . أما الاوينيين فقد توصلوا ، على نحو ميلودرامي ، إلى إستنتاج مفاده أن السبب الحقيقي لمعارضتهم من جانب رجال الدين هو مساندتهم للمعرفة الايجابية وليس للتعليم الايماني الصوفي بصنائع الطبيعة ، ولهذا غدوا بالمحصلة ملحدين ومجدفين في أعين الاساقفة والقساوسة الذين إستغلوا سذاجة الناس[٣] . فعلى سبيل المثال ، كتب الناشط العلماني جوزف باركر Joseph

(1) Holyoake, George Jacob, The History of Co-operation, London, T. Fisher Unwin I, Adelphi Terrace, Mcmvi, 1906, Vol.I, p.244; The New Moral World, 27 June 1840, 29 May 1841.

(2) Holyoake, George Jacob, The History of Co-operation, London, T. Fisher Unwin I, Adelphi Terrace, Mcmvi, 1908, p.559; Royle, Victorian, p.313.

(3) Jones, L., The Life, Times and Labours of Robert Owen, Fifth Edition, London, 1912, p.323; *The Quarterly Review*, December 1839, Quoted in: Silver, H., The Concept of Popular Education, London, 1965, p.229; *Herald of the Future*, March 1840, Quoted in: Simon, Studies in The History of Education, p.240; Frost, Thomas, Forty Years' Recollections, London, 1880, p.16.

Barker[١] ، الذي كـان في هذه المرحلة كـاهناً ، عـام ١٨٤٠ قـائلاً : «**إن جـمـيـع كـتـابات هؤلاء تهـدف إلى الاطاحـة بالمجتـمع . . . فـقـد صـرحـوا عـلانيـةً أن نواياهم هي التخلص من جميع الاديان ، وإلغاء كافة تنظيمات ومؤسسات المجتـمع ، والتـخلص من الزواج من أجل تدمـيـر كل مـرتكزات العـائلة الواحدة ، حيث رمي الملكية والنساء والاطفال ضـمن بوتقة واحدة عـامة ، للعيش والتجمع معاً على غرار وحوش البراري**»[٢] .

وإلتمس رجال الدين فضلاً عن بعض الشخصيات العامة إتخاذ موقف من طرف البرلمان ، إلا أن الحكومة آنذاك ، فضلت عدم القيام بشيء ، الامر الذي أدى إلى إثارة غـضب هنري فلبـوتس Henry Phillpotts (١٧٧٨-١٨٦٩) ، أسـقف إكستر Exeter ، أحد أكثر المنادين بمطالب الانكليكانيين ، الذي سرعان ما سعى مع إفـتتـاح الجلسـة الجديدة في كـانون الثـاني ١٨٤٠ إلى إعـلان حـملته[٣] . وخـلال الاسابيع القليلة اللاحقة كثف جهوده لحث الحكومة حتى تمكن أخيراً من إقناعها

---

(١) جوزف باركر (١٨٠٦-١٨٧٥) : ناشط إنكليزي ، كان مبشراً للطائفة الميثودية وعارض الاشتراكية ، شكل طائفته الباركرتية Barkerite عام ١٨٤١ حيث سُمي أتباعه على إسمه . إنتمى لطائفة الموحدين عام ١٨٤٥ ، كما غدا زعيماً جارتياً لويست ردنك فيما بعد . أنتخب في مجلس بلدة ليدز عام ١٨٤٨ ، هاجر إلى الولايات المتحدة الامريكية عام ١٨٥١ . وأصبح مفكراً حراً عام ١٨٥٣ ، عاد إلى إنكلترا عـام ١٨٥٤ في زيارة قـصيـرة ، وفي عـام ١٨٦٠ . حـرر دورية The National Reformer ١٨٦٠-١٨٦١ مع تشارلز برادلو ، وتخاصم مع الاخير بشأن دعاية تحديد النسل ، كما حرر دورية Barker's Review ١٨٦١-١٨٦٣ ، وأصبح ميثودياً مرة أخرى عام ١٨٦٣ . عاد إلى أمريكا عام ١٨٦٨ . أنظر :

Barker (ed.), John Thomas, The Life of Joseph Barker, London, Hodder and Stoughton, 1880; Royle, Victorian, p.307; The Reasoner, 23 January 1859; Embley, Peter L., The Origins and Early Development of The Plymouth Brethren, Cheltenham, St. Paul's College, 1966, pp.78-93.

(2) Barker, Joseph, The Abominations of Socialism Exposed, in Reply to The Gateshead Observer, Newcastle, 1840, p.2.

(3) Hansard's Parliamentary Debates, 1840, Vol.LI, pp.237-238.

بالموافقة على إجراء تحقيق، وتوجيه القضاة إلى ضرورة القيام ببحث دقيق للكتب ذات الطبيعة التجديفية والتحريضية[1]. وكانت النتيجة الاساسية المترتبة على ذلك هو في تنفيذ قوانين التجديف ومقاضاة الناشرين الراديكاليين أمثال هيثرنكتون وجون كليف John Cleave(١٧٩٠-١٨٤٧) وأيبل هيوود Abel Heywood (١٨١٠-١٨٩٣)، لنشرهم مؤلف سي. جي. هاسلم C. J. Haslam (١٨١١-١٨٩٨) المعنون: «رسائل إلى رجال دين جميع الطوائف» الذي كان بمثابة نقد ربوبي للكتاب المقدس. حينها سعى كل من هيثرنكتون وواتسون بملاحقة أربع دور نشر رصينة قضائياً في لندن لنشرها مؤلف: «Queen Mab» لشيلي Shelley[2] الذين أدين قبل عدة سنوات، عندها تم إسقاط القضية المقامة ضد هيوود، أما كليف فقد تم تغريمه مبلغاً قدره ٢٠ جنيه استرليني وأبطل الحكم بالسجن الذي كان قد صدر بحقه، في حين لم يتخذ أي إجراء بحق هيثرنكتون إلى أن قام كل من هيو ستوويل Hugh Stowell (١٧٩٩-١٨٦٥)، قس سالفورد وأسقف إكستر فلبوتس بتأجيج الوضع، عندها تم إصدار عقوبة مخففة بحق هيثرنكتون تمثلت بالسجن لمدة أربعة أشهر[3].

وعلى الرغم من أن الحكومة كانت تميل إلى عدم إتخاذ إجراء ضد الاشتراكيين، إلا أن بعض رجال الدين المحليين والقضاة كانوا متحمسين لاستغلال نفوذهم المعتبر من أجل كبح ما عُد بنظرهم كفراً. وكانت مانشستر مرتع النشاط الاويني وقلبه النابض، حيث حقق إشتراكيو سالفورد تقدماً سريعاً في ثلاثينيات القرن التاسع عشر. وفي آواخر العام ١٨٣٨ وسعوا من دائرة نشاطاتهم وتمكنوا من إفتتاح «قاعة النجارين Carpenters Hall» في مانشستر لإلقاء المحاضرات، وتكلل هذا

---

(1) Hansard's Parliamentary Debates, 24 January-17 February 1840, Vol.LI, LII; The New Moral World, 15 August 1840.

(٢) بيرسي بيش شيلي Percy Bysshe Shelley (١٧٩٢-١٨٢٢): شاعر إنكليزي رومانسي كبير، أول أعماله الشعرية: «الملكة ماب» نشرت في عام ١٨١٣، التي عكس فيها نقده للاوضاع القائمة. أنظر:

Encyclopedia Britannica, CD., 2010.

(3) The New Moral World, 15 August 1840, 20 February 1841; Barker, A. G., Henry Hetherington, London, 1938, pp.29-36.

النجاح حينما شرعوا بخططهم لافتتاح قاعة جديدة في كامبفيلد في ديانزغيت . وفعلاً قام أوين بوضع حجر الاساس في شهر آب ١٨٣٩ ، الامر الذي أدى إلى إمتعاض القس جي . دبليو . كد J. W. Kidd حينما شرع بعض الاشتراكيين هناك بتعكير الاجواء على إثر تجمعهم في موقع البناية في أيام الاحد . وسرعان ما قام كد بتشكيل «**لجنة لاتخاذ فعل مضاد وإزالة القبح المتولد من الكفر تحت مسمى الاشتراكية**» . لقد تمخض مسعى هذه اللجنة في محاولتها كبح الاشتراكية في مانشستر الموقف القانوني الصعب الذي واجهه أصحاب المعتقدات غير التقليدية مع بداية العصر الفكتوري[1] .

ومع حلول منتصف حزيران ١٨٤٠ قام كد بمقاضاة ثلاثة من متعهدي الابواب Door Stewards جراء تقاضيهم النقود خلال يوم الاحد ، خلافاً للمرسوم ٣٩ الفصل التشريعي ٧٩ القسم ١٥ الصادر منذ عهد الملك جورج الثالث (١٧٣٨-١٨٢٠/١٧٦٠-١٨٢٠) . عندها طالب الاوينيون بإعفائهم من هذا المرسوم على أساس إن قاعة العلوم Hall of Science تم تسجيلها بقصد إستخدامها لاغراض العبادة الدينية من جانب المجلس البروتستانتي الذي يُدعى المتدينون العقلانيون Rational Religionists . ولكن وطبقاً للمرسوم ٥٧ الفصل التشريعي ١ القسم ٢٦ الصادر في عهد الملك جورج الثالث ، فقد قضت المحكمة بعدم السماح للاشتراكيين بجمع الاموال لاغراض خيرية مالم يؤدِ المتهم اليمين أو القسم ويقدم الدليل . ونظراً لانهم أعتبروا كفاراً ، لم يكن بإمكانهم أداء اليمين ، وعليه فقد غرم كل متعهد مبلغاً قدره ٢٠ جنيه إسترليني . وفيما بعد ، على خلفية الدفاع الذي قدمه الاشتراكيون ، رفع كد دعوة قضائية على كل من أوين ودعاته لكونهم مثلوا أمام مبشر منشق وأدوا القسم[2] .

إن هذه الحادثة قد لا تكون مهمة بحد ذاتها ، إذ أبلى الاشتراكيين بلاءً حسناً في مواجهة الحملة التي شنها عليهم أسقف إكستر . وكانت المضايقة التي تلقاها

(1) The New Moral World, 26 October 1839, 9 May, 21 August 1840.

(2) The New Moral World, 20 June, 4, 11 July, 1 August 1840; The Manchester and Salford Advertiser, 13 June, 4 July 1840; The Manchester Courier, 27 June 1840.

الاشتراكيون محط إهتمام أقلية من رجال الدين[١] . وساعد في تنامي هذا التخوف ، النظر إلى مخطط أوين وأتباعه على أنه مخطط واسع مشؤوم موجه ضد النظام القائم في الكنيسة والدولة[٢] . ولكن في هذه الاثناء ، تميزت ردة فعل داعية إشتراكي آخر بحدة أكبر ، ذلك هو تشارلز ساوثويل Charles Southwell(١٨١٤-١٨٦٠) ، الذي إفتتح ، مع مطلع ثلاثينيات القرن التاسع عشر ، متجراً للكتب الراديكالية المتطرفة في ويستمنستر تلبية لاحتياجات الحركة الراديكالية ، وإنضم مع آخرين في إطلاق المدرسة العقلانية ، حيث نشر خطابه الاول لدعم بعض من وصفوا آنذاك بأنهم باعة الصحف التجديفية والتحريضية[٣] .

لقد كان ساوثويل بطبيعته مغامراً وصِدامياً على نحوٍ محموم ؛ وقبل أن ينتعش داخله حبه للمجادلة بوقت ليس بالطويل ، كان قد إقتنع بأن يعمل محاضراً في المواضيع المناهضة للاهوت في الاماكن المفتوحة وبالذات في ساحة كننكتون كومون ، ومع مطلع عام ١٨٤٠ قام بجولة ألقى خلالها المحاضرات في يوركشاير ، لتأخذ سمعته بعد ذلك بالنمو . وفي الوقت الذي كان فيه أسقف إكستر يشجب الاشتراكية في مجلس اللوردات ، غدا ساوثويل المدافع الاول عما أشيع بأنها الاشتراكية الكافرة Infidel Socialism[٤] . وكانت رسالته واضحة ، حينما خاطب جمهوره قائلاً :

«الدين هو الرابط الذي يوحد المجتمع الانساني برمته ، وهو السياسي السطحي الذي يعيد صياغة المجتمع دون أن يعي ما هي طبيعة الرابط الديني»[٥] . فلم يكن ساوثويل يكن الاحترام للرب ولا حتى لاوين نفسه ، وإدعى فيما بعد بأنه كان قد طالب بتعيين لجنة تقوم بدراسة الاخطاء الفلسفية والفعلية لكل الاعمال التي يقف ورائها المجتمع . إن فرداً واقعياً على غرار ساوثويل شعر بأن

---

(1) Hansard's Parliamentary Debates, 4 February 1840, p.1202.

(٢) كول ، المصدر السابق ، ١٤٥ .

(3) Southwell, Charles, Confessions of a Freethinker, *Cowen Tracts*, London, Newcastle University, 1848, pp.36-38, 44, 55.

(4) Southwell, Op. Cit., pp.56-59; The New Moral World, 10 August, 7 September, 14 December 1839, 4, 18, 25 January 1840.

(5) Southwell, Op. Cit., pp.56-57.

تعاليم أوين القائلة : «**بأن خُلق الانسان هي أمور تشكلت له ولم يكن له يد فيها**» لا يمكن أن تكون حقيقية وواقعية ، إذ إنه آمن بأن الانسان هو مخلوق وخالقاً للظروف . ولهذا إصطدم مع أوين في العام اللاحق حينما طالب بإيجاد كتيب منهجي آخر للدعاة عوضاً عن مؤلف : «كتاب العالم الاخلاقي الجديد» لاوين[١] .

لقد كان الاشتراكيون في هذا الوقت يهتمون بالاشتراكية بوصفها حركة تهدف إلى التحسين المادي والاكتفاء الذاتي وتثقيف الطبقات العاملة ، وطالما أظهر الدين معارضته لهذه الامور ، لذا غدا هؤلاء مناهضين للدين . أما أوين ، من ناحية أخرى ، فكان جل إهتمامه منصباً على تحويل جميع طاقات الحركة بإتجاه خلق نموذج لما دعاه بعالم الاخلاق الجديد . ولم يكن لديه مفهوماً للحركة الشعبية ، إلا أن مخططه بقي شعبياً ، لانه دعا فيه إلى التخلص من النظام الرأسمالي التدميري للمجتمع والانتقال إلى جنة العالم الاخلاقي الجديد وفقاً لوجهة نظره . وببساطة ، إن التباين والفارق بين أوين وساوثويل هو أن الاخير مال للعنف وأكد بأن المحاضرات والتثقيف هما وسيلتي التطور[٢] .

وعلى الرغم من ذلك ، أصيب الاشتراكيون المحليون في بريستول بالفزع ، حينما أرسل ساوثويل في عام ١٨٤١ إلى هناك لمدة ثلاثة أشهر ، نتيجة لما عُدّ بُدعاً في أفكاره . ففي هذه الاثناء إعتراه الغضب تجاه ما إعتبره إضاعة للوقت في خدمة نفاق الفكر الرأسمالي . وفي النهاية ، تخلى عن مهمته بوصفه محاضراً وأطلق دوريته الشخصية المعارضة لدورية The New Moral World . وساعده في هذه المخاطرة رئيسه في العمل الاشتراكي الاويني وليم شيلتون William Chilton (١٨١٥-١٨٥٥) أحد أعضاء فرع بريستول القلائل الذين كانوا يتفقون مع آراء ساوثويل اللادينية ، فحينذاك إقترح ساوثويل ، إنه يجب عليهم البدء بهذه الدورية ، حيث غدا شيلتون المسؤول عن الطباعة وساوثويل رئيس التحرير فضلاً عن مسؤوليته عن توفير المواد المعدة للطبع ، وهكذا ولدت الدورية (الالحادية) The Oracle of Reason[٣] . فقد أدى نمو

---

(1) The Investigator, No. 5, 29 April 1843; Southwell, Op. Cit., pp.61-64; The New Moral World, 6 June 1841.

(2) Royle, Victorian, pp.70-71.

(3) Southwell, Op. Cit., pp.65-66; The Oracle of Reason, 11, 1843;

أنظر ملحق رقم -٢- ، نموذج رقم -١- .

الاشتراكية وفق التقليد الاويني ومن ثم الراديكالي على يد ساوثويل إلى منح القواعد العقلانية للنزعة العلمانية التي ترتكز على نقد الدين ليس في إطار فكري فحسب ، وكما ميز المرحلة السابقة ، وإنما في إطار خلق صيغ جديدة لبناء وتركيب المجتمع وفق آلية إقتصادية- معرفية ، وكان النقد الموجه للرؤى الدينية التقليدية قد تبنته الدوريات العلمانية ، وأشر بذلك المرحلة المميزة في تاريخ نشوء العلمانية البريطانية .

ثانياً: الاتجاهات العلمانية وبروز نشاط الزعماء العلمانيين الاوائل

تزامن ميلاد دورية The Oracle of Reason مع ظهور شخصية مهمة لتبوأ الزعامة العلمانية ، قدر لها أن ترسم ملامح التيار العلماني الوليد ونحت مفهومه الحديث ، ألا وهي شخصية جورج جاكوب هوليوك George Jacob Holyoake (١٨١٧-١٩٠٦) ، العراب الثاني في دورية The Oracle of Reason ، الذي كان في هذه المرحلة داعية إشتراكي ومن ثم أويني في برمنغهام ، حيث إفتتح في الاخيرة عام ١٨٤٠ مدارس مقاطعة برمنغهام العقلانية[١] .

وفي هذه الاثناء ، حققت دورية The Oracle of Reason نجاحاً ملحوظاً في مستهل مشوارها ، إذ بيع منها ما معدله أربعة الآف نسخة إسبوعياً . وتميزت مواضيعها المتعلقة باللاهوت بالراديكالية المتطرفة : «**بإختصار ، نحن في حرب ليس مع الكنيسة ، بل مع المذبح ، وليس بالضد من أشكال العبادة ، بل مع العبادة ذاتها ، ولسنا مع الرموز بل بالضد من وجود الالوهية**»[٢] . وتميزت نبرتها بالغلو ، بل إن جل الاطراء الذي تلقته كان بسبب نهجها هذا . وبعد مرور شهر على صدورها ، قام داعية لندن الاويني فردريك هولك Frederick Hollick (١٨١٣-١٩٠٠) بإصدار دوريته ، في كانون الاول ، المعنونة : Atheist and Republican ، أما في الشمال فقد أصدرت دورية عنوانها : The Blasphemer ، في حين أصدر هيثرنكتون ، على مستوى أعلى ثقافياً ، دوريته المعنونة : Freethinker's Information for The People ، التي إحتوت على كم كبير من المواضيع المتنوعة التي

---

(1) Royle, Edward, Mechanics' Institutes and The Working Classes 1840-1860, *The Historical Journal*, Cambridge University Press, Vol.14, No.2 (Jun., 1971), pp.318-320.

(2) The Oracle of Reason, 12 February 1842.

كان بإمكان كُتاب ومحاضري الفكر الحر أن يستقوا منها أمثلتهم وأفكارهم ؛ إذ وجد الزعماء الراديكاليون أنه من الضروري القيام بإصدار الدوريات من أجل بث تطلعاتهم ونزعاتهم الفكرية . وعلى الرغم من المزاعم التي أطلقت فيما بعد بأن دورية The Oracle of Reason هي المطبوع الوحيد والحصري ذي النزعة الالحادية في أي عصر أو مكان ؛ إلا أنها ، على نحوٍ دقيق ، كانت الوحيدة التي إنفردت بالصدور من بين عدد من الدوريات المماثلة في سنوات التوتر الاجتماعي التي أعقبت حروب نابليون ومن ثم في سنوات الجوع خلال أربعينيات القرن التاسع عشر[1] .

إن تميز دورية The Oracle of Reason على أقرانها من الدوريات المعاصرة الاخرى لا بسبب رسالتها بل بسبب لغتها ؛ وهذا ما أكده غودوين بارمبي Goodwyn Barmby (١٨٢٠-١٨٨١) ، رئيس جمعية الدعاية الشيوعية في لندن ، حينما وصف إنطباع العديد من الراديكاليين المتطرفين عن دورية The Oracle of Reason في صحيفته Promethean ذاكراً : «**إنها تمثل الحديث عن الذكريات الماضية ، والنتاج الوضيع ، والطباعة التافهة والمخزية . . . وحينما نقول أن The Oracle of Reason تهاجم الديانة المسيحية على القدر ذاته من التعصب واللاتسامح ، وعلى القدر نفسه من الاساءة اللفظية البذيئة حينما يهاجم الكافر من المسيحي ، عندها نكون قد قلنا الحقيقة ، وما يكفي ليحط من قدرها**»[2] . لقد كان هذا التوجه الحاد سمة إمتازت بها هذا الدورية ، إذ قام ساوثويل بإستفزاز متعمد حينما إستبدل الحرف الاول الكبير لكلمة المسيحية بآخر صغير christianity ، كما قام بكتابة مقالة في العدد الرابع عنوانها : «كتاب اليهود» ، التي إفتتحها بالكلمات الاتية : «**إن النتاج المقيت والمقرف لليهود . . . كان على مر عهود مثالاً لجميع أنواع الحمقى ، إذ إنه مصدر فخر الاشرار وقرف الحكماء ، وهو تاريخ طويل من النزوات واللواط ومذابح بالجملة . . . وهو أكثر أجزاء التاريخ شناعة قد جمعت في كتاب قبيح واحد**»[3] ، ليعتقل على الفور ساوثويل بتهمة التجديف وليحكم بالسجن لمدة عام

---

(1) The Oracle of Reason, 12 February 1842.

(2) The Oracle of Reason, 19 March 1842.

(3) The Oracle of Reason, 27 November 1841.

وبغرامة مقدارها ١٠٠ جنيه استرليني[١] .

وعلى إثر ذلك عزم كل من ساوثويل وشيلتون ، أكثر من أي وقت مضى ، على إبقاء دورية The Oracle of Reason متداولة . وبالفعل تمكن شيلتون من نشر العدد الخامس في الوقت المحدد ، على الرغم من إرجاء العدد السادس حتى مقدم السنة الجديدة ، إذ كان شيلتون في هذه الاثناء يبحث عن محرر جديد ، ورفض أن يضع نفسه بموضع خطر ، لانه إعتقد بأنه سيغدو أكثر فائدة إذا ما بقي خلف الكواليس . ولهذا إقترح ساوثويل أن يدفع بهوليوك لهذا المنصب[٢] . ووافق الاخير ، على نحو تلقائي ، على أن يغدو زعيماً لما دعي بالاشتراكيين الكفار . وكانت تلك هي المرحلة الاخيرة في طريق هوليوك نحو الالحاد ، لتغدو الادانة الفكرية في طريقها خلال الاشهر الاثني عشر التالية . وحتى ذلك الوقت ، كان هوليوك مناهضاً للسياسة الإكليروسية أكثر من كونه مناهضاً للايمان[٣] .

لقد بدا موقف هوليوك بشأن النقاش اللاهوتي ، لدى أكثر زملائه بروزاً ، أكثر من مجرد نظرة شكية . ففي مطلع عام ١٨٤٢ كتب إلى محاضرين إشتراكيين آخرين داعياً لوضع خطة تقضي بفصل اللاهوت عن الاشتراكية من خلال إقامة دروس نقاشية لاهوتية في الفروع الاشتراكية ، الأمر الذي أثار إنقساماً في الرأي[٤] . لقد كان لهذا الانقسام في الاراء وقعه في حث الحركة العلمانية وتهيئتها . فكل طرف إعتقد بأن رأيه

---

(1) Southwell, Charles, The Trial of Charles Southwell, (Editor of "The Oracle of Reason") For Blasphemy: Before Sir Charles Wetherall, Recorder of The City of Bristol, January The 14th, 1842, *Hume Tracts*, London, Hetherington, Wine Office Court, (1842), pp.3-4, 102; Herrick, Jim, Against The Faith: Essays on Deists, Skeptics, and Atheists, Prometheus Books, 1985, p.159.

(2) The Oracle of Reason, 11, 1843.

(3) Holyoake, George Jacob, The Spirit of Bonner in The Disciples of Jesus, *Bristol Selected Pamphlets*, University of Bristol Library, 1842, p.4; The Oracle of Reason, 18 June 1842; Holyoake, George Jacob, Bygones Worth Remembering, London, T. Fisher Unwin, 1905, Vol.II, pp.215-245.

(4) The Oracle of Reason, 30 July 1842.

هو الاصوب ، وكان هوليوك محقاً برأيه ، وإن محاولته للفصل بين اللاهوت والاشتراكية كانت منسجمة مع تعاليم أوين ، وتجلت الصعوبات في مخطط هوليوك حينما دعي لالقاء محاضرة في شيلتنهام في ٢٤ آيار ، إذ سأله أحد الوعاظ المحليين في نهاية المحاضرة قائلاً : ما هو الحيز الذي يحتله الرب في المجتمع الاشتراكي؟ فأجابه هوليوك ، وفقاً لشاهد عيان ، بالجواب التالي : «**أعتقد ومن جانبي إن أهالي هذه البلدة يجب أن لا يكونوا تحت أي دين ، لكونهم فقراء للغاية ، ثم قال : أما من ناحيتي فأنا لا أعتنق أي دين البتة ، وقال إن أولئك أصحاب الدين المزعوم ما هم إلا عبدة شيطان الجشع ، أما أنا فلا أعتقد بأن ثمة مثل رب كهذا**»(١) .

ونتيجة لهذه المحاضرة أعتقل هوليوك بتهمة التجديف ، ورُحّل سريعاً إلى سجن غلوستر . وكانت مسألة إعتقال هوليوك ومحاكمته من بين أعظم الاحداث التي مرت في حياته ، إذ منحته هالة الاعتقال تلك التي حاقت به تأكيداً لزعامته للفكر الحر الراديكالي . ولم يكن هوليوك هو الرجل الوحيد الذي تم إعتقاله خلال هذه السنوات نتيجة لمعتقداته ، ففي العام ١٨٤٠ تم إعتقال كل من الزعيم الجارتي وليم لوفيت William Lovett (١٨٠٠-١٨٧٧) وإلقائه في سجن ووروك لمدة تسعة أيام من دون محاكمة . أما حكومة المحافظين ، فقد برز لديها في العام ١٨٤٢ من المعضلات والمخاوف الذاتية ما صرفت إهتمامها عن هوليوك وحتى عن الحركة الاشتراكية بأسرها . فمن بين أكبر القضايا التي أقلقت الحكومة ، كانت قضية الانقسام الحاصل في الكنيسة الاسكتلندية ، فضلاً عن إنشغالها في شهري تموز وآب بأحداث شغب Plug Plot Riots(٢) التي جرت في مانشستر(٣) .

(1) Royle, Victorian, p.78.

(٢) ويعرف أيضاً بإضراب ١٨٤٢ العام ، الذي أنطلق من عمال المناجم في ستافوردشاير في إنكلترا ، وكان قد تأثر بالحركة الجارتية بعد أن قدمت الاخيرة العريضة الثانية في البرلمان في نيسان ١٨٤٢ . وتعود التسمية إلى قيام العمال بإيقاف الانتاج عبر إزالة مقابس المراجل من المكائن البخارية في مصانعهم . أنظر :

Ketabgian, Tamara Siroone, The Lives of Machines: The Industrial Imaginary in Victorian Literature and Culture, Michigan, The University of Michigan Press, 2011, p.196; Plowright, John, The Routledge Dictionary of Modern British History, First Published, New York, Taylor & Francis Group e-Library, 2006, p.115.

(3) Lovett, Life and Struggles, p.221.

لقد أدت ردود أفعال الراديكاليين في لندن إلى تهويل حجم قضية هوليوك ، إذ بدا لهم إنه ضحية أهداف دعائية في الصراع الطويل من أجل حرية الاعتقاد والتعبير . فقد بقي ملقى في السجن حتى ١٨ حزيران ، ومن ثم تم إطلاق سراحه بكفالة من أجل تهيئة دفاعه ، ليقصد على إثرها لندن للمرة الاولى بعد زيارة مقتضبة إلى برمنغهام ، حيث منحته هذه التجربة أفقاً جديداً لتوسيع نطاق تطلعاته فضلاً عن إعتماده على معرفته بالراديكالية السياسية ، لينضم على إثرها إلى العديد من المناقشات في مختلف المقاهي الحضرية ؛ وتكللت بإلقاء المحاضرات في مؤسسة John Street Institution في لندن وكذلك في القاعة المستديرة(١) .

وعكس هوليوك من خلال دفاعه في المحكمة الاسباب التي وقفت وراء موقفه هذا ، وإلى عدم الايمان بالرب مقابل إيمانه بالطبيعة المستقلة للاخلاق ؛ وعرجَ على طبيعة الاضطهاد . وحاول القاضي أن يجعله يختصر مرافعته قائلاً : «**إن تمكنت من إقناع هيئة المحلفين إن المعنى الذي كنت تقصد ، هو وجوب تقليل العائدات الكنسية ولم يكن في نيتك إهانة الرب ، عندها سيكون لزاماً عليّ أن أحث هيئة المحلفين على عدم إدانتك**» . وكان هذا هو المعنى الذي قصده هوليوك تماماً ، إلا أنه كان من الصعوبة عليه الاعتراف به في هذا الوقت تحديداً ؛ فقد إشتد كرهه للمسيحية ، وذاع صيته في لندن بوصفه بطلاً . وعلى الرغم من ذلك ، فقد كان مجرد الاعتراف الطوعي بهذا الكره سيعقبه بالتأكيد إنحدار مفاجئ لاحتمالية حصوله على البراءة في القضية ، ومع ذلك ، ففي الوقت الذي سجن فيه ساوثويل لمدة عام ، حكم على هوليوك بالسجن لمدة ستة أشهر فقط(٢) .

إمتازت الفترة التي أعتقل خلالها هوليوك بالانتاج الغزير ، إذ قُدّر له أن يكتب خلالها أكثر من ألفي رسالة . وقام بصياغة الاسس الفكرية للالحاد عبر مؤلفه

---

(1) The Reasoner, 27 December 1848.

(2) Holyoake, George Jacob, The Trial of George Jacob Holyoake on an Indictment for Blasphemy , Before Mr. Justice Erskine, and a Common Jury, at Gloucester, August The 15th, 1842, *Hume Tracts*, 1842.

المعنون : «دحض بالي من خلال أعماله»[1] ، الذي غدا من الاعمال البارزة للفكر الحر . كما كتب : «طريقة سهلة ومختصرة مع القساوسة» التي كانت بحد ذاتها دراسة عن المسيحية من خلال تسليط الضوء على نتائجها[2] ، ليغدو كرهه مؤكداً وعميقاً للمسيحية في تشرين الاول من عام ١٨٤٢ حينما أُخبر بأن إبنته البكر مادلين Madeline قد توفيت نتيجة سوء التغذية ، الحدث الذي بقي يشعره طوال سنين حياته بالمرارة[3] .

تركت الاحداث التي جرت عام ١٨٤٢ أثراً عميقاً ليس في نفس هوليوك على نحو خاص ولكن في الرأي العام على نحو عام أيضاً[4] . فقد أدت الملاحقة القضائية لعام ١٨٤٢ إلى خلق إثارة في قلب المحاكم على نحو لم يشهد لها مثيل منذ عشرينيات القرن التاسع عشر . وتمثل الهدف الاول لدى أولئك الذين وصفوا بالكفار الراديكاليين في تلك المرحلة على المحافظة على ديمومة نشر دورية The Oracle of Reason ، وبالتالي الاظهار أمام السلطات بأن السجن والاضطهاد لا يمكن أن يكبحا ساوثويل وأنصاره . وإنعكس ذلك جلياً حينما أُستبدل رئيس التحرير وحل محله القس السابق توماس باترسون Thomas Paterson[5] ، الذي تحلى بالصخب ذاته الذي إمتاز به ساوثويل ولكنه لم يكن يملك بقية قدراته الذاتية الأخرى ؛ لذلك فقد أخذت نوعية دورية The Oracle of Reason وتوزيعها تنحدر سريعاً ، لتواجه مشاكل عدة بالتوزيع ، إذ كانت النسخ غير المرخصة لا يمكن نقلها على نحوٍ سلس عبر البريد لذلك توجب إرسالها على هيئة رزم إلى الوكلاء الاقليميين الذين بدورهم مرروها إلى بائعي الصحف المحليين ، ومع ذلك لم يتبنَ هذه الدورية أياً من الوكلاء المعتبرين ؛

(1) Holyoake, George Jacob, Paley Refuted in His own Words, *Cowen Tracts*, Newcastle University, 1847.

(2) Holyoake, George Jacob, A Short and Easy Method with The Saints, *Cowen Tracts*, Newcastle University, 1843.

(٣) عوض ، المصدر السابق ، ص ٢٥٠ .

(4) The Cheltenham Mercury, 23 May 1891.

(5) Southwell, Op. Cit., pp.79-86.

الامر الذي عنّي تعذر الحصول عليها في غالب الأوقات[١] .

وتمثل الهدف الثاني للراديكاليين بدعم قادتهم المعتقلين ، لذلك تم الاتجاه نحو تأسيس الاتحاد المناهض للاضطهاد The Anti-Persecution Union ، مع تفعيل عقد الاجتماعات العامة الكبيرة في كل من قاعة العلوم في برمنغهام وفي مؤسسة John Street Institution في لندن[٢] . وكان الهدف من إنشاء هذا الاتحاد هو الاضطلاع بمهام دفاعية وليس عدائية : «**إنهم لا يستقطبون المفكرين الاحرار لوحدهم فحسب ، وإنما أيضاً أولئك الذين ينتمون إلى أي طائفة أو حزب الذين يدعمون الرأي الشخصي والنقاش الحر للجميع ، سواءً كانوا مسيحيين أو يهود أو ترك [المسلمين] أو مؤمنين بالرب أو ملحدين**»[٣] . أما الهدف الثالث ، فقد تمثل بالحفاظ على دفاع قوي على مبدأ حرية التعبير من خلال الاعمال الاستفزازية الفردية ؛ إذ قام باترسون بصفته رئيس تحرير دورية The Oracle of Reason ، خلال مدة مكوث كل من ساوثويل وهوليوك في السجن على غرار كارليل ، بوضع الملصقات على نوافذ متجره للكتب وكتب عليها : «وجود المسيح ، إسم الشهرة إبن الرب المفند» ، وترافق وضع بعضها مع مجيء أعياد الميلاد في عام ١٨٤٢ . عندها بدأت الحشود تتجمع خارج المتجر ، الامر الذي أدى إلى تدخل الشرطة من أجل إعتقاله ، ليدان على إثرها ، بسبب ما أعتبر أنه عرض للادبيات البذيئة في مكان عام ، بالسجن لمدة شهر واحد[٤] .

وسعى ساوثويل بعد إطلاق سراحه في عام ١٨٤٣ إلى إجبار أعضاء الاتحاد المناهض للاضطهاد في إعادة النظر بأهدافهم . فقد رفض أن يترأس تحرير دورية The Oracle of Reason ، لانه لم يكن راغباً في أن يكون مسؤولاً عن الديون التي تراكمت على الدورية في عهد إدارة باترسون ، إلا أن السبب الرئيس الذي وقف وراء ذلك هو تغييره رأيه إزاء النبرة الخطابية التي تبنتها الدورية التي حافظ عليها باترسون . ولهذا قام بإنشاء دورية منافسة أخرى دعيت The Investigator ، التي

---

(1) The Oracle of Reason, 2 July 1842.

(2) The Oracle of Reason, 25 June, 2 July, 27 August 1842.

(3) The Oracle of Reason, 2 July 1842.

(4) The Oracle of Reason, 24 September, 17 December 1842, 4 February 1843.

كانت مختلفة نوعاً ما من حيث النبرة الخطابية والاسلوب وكذلك الطراز(١) .

وفي هذا الوقت أطلق سراح هوليوك من السجن في شباط ١٨٤٣ ؛ ليأخذ على عاتقه إستبدال دورية The Oracle of Reason في كانون الاول ١٨٤٣ بدورية جديدة أطلق عليها إسم The Movement . وكان التغيير في النبرة الخطابية لهذه الدورية واضحاً تماماً ، إذ إنصب هدفها على الاسلوب البنثامي الاخلاقي الذي أعلى من شأن الاخلاق على حساب الدين ، ومال للطرح الايجابي بدل السلبي . ولم يكن من ضمن كُتاب هذه الدورية مؤسسيها الاوينيون وراديكاليو الطبقة العاملة فحسب ، وإنما ضمت كذلك المفكرين الاحرار من الطبقة الوسطى . على أية حال لاقى هذا النهج الجديد ترحيباً واسعاً وذلك لان الراديكاليين أخذوا يتطلعون إلى دورية The Movement من أجل خلق تنظيم جديد ، وهو ما تم تحقيقه بالفعل ؛ إذ بدأت التقارير بالظهور من الفروع الاقليمية خلال عامي ١٨٤٣-١٨٤٤ حتى قيل أن دورية The Movement سوف يتم تداولها في جميع البلدات الشمالية في إنكلترا(٢) .

إن إزدهار الفكر الحر في العاصمة ، فضلاً عن الامل بتحسن الاوضاع في الاماكن الاخرى ، دفعت هوليوك إلى التفكير بضرورة إعداد نموذج أعلى للتنظيم ، إذ شعر بالحاجة إلى التركيز وفتح الافاق أمام كل جمعيات الفكر الحر . لذلك سعى إلى تطوير مفهومه المسمى Atheon ، على إعتبار إن اللفظة اليونانية Pantheon هو المكان الذي يضم جميع الالهة أو معبد جميع الالهة ، وقصد من Atheon المكان الذي لا يوجد فيه أياً من الالهة ، وإنه سيغدو بمثابة المكتب المركزي تحت رئاسته ، وسوف يتم إستخدامه من منتسبي الاتحاد المناهض للاضطهاد ودورية The Movement والجمعية الالحادية في لندن ، فضلاً عن أي منظمة أخرى تتبنى المبادئ ذاتها ؛ ولهذا إحتوى هذا المكتب على مكتبة وقاعة للقراءة وإستقطب جميع الاحزاب التقدمية في لندن ،

---

(1) The Oracle of Reason, 11 March 1843; The Investigator, 1843.

(٢) صدرت في ١ نيسان ١٨٤٣ ، وتوقفت في ٧ تشرين الاول ١٨٤٣ ، وتبنت الفكر الحر الالحادي والنقد المستقل للاوينية . أنظر :

Royle, Victorian, p.87; Royle, Edward, Religion, Radicalism and Freethought in Victorian & Edwardian Britain: Collection of Periodicals 1834-1916, University of York, 1981, p.14.

سواء كانت سياسية أم إجتماعية إنكليزية كانت أم أجنبية[1] . ومع ذلك ، بقى هوليوك في الواقع يدين للاوينية ، إذ إن هذه الحقيقة مهمة لانها ستسهم فيما بعد في ضمان أن العلمانية لن تكون مجرد إمتداد للتقليد البنيي- الكارليلي ، بل ستغدو كذلك متضمنة للعناصر الايجابية للاشتراكية الاوينية[2] .

وفي خضم هذا النشاط المحموم ، إتجه هوليوك إلى التفكير بإصدار دورية جديدة دعيت The Reasoner ، تعهدت كما نشرت في عددها الاول بأنها ستكون : «**دورية شيوعية الطرح في ميدان الاقتصاد الاشتراكي ونفعية من ناحية الاخلاق وجمهورية في السياسة ومناهضة للاهوت في الدين**» . وذكر هوليوك بشأنها : «**إن دورية The Reasoner هي دورية تعنى بمحاربة كافة الاخطاء الفكرية المحفوفة بالشر العملي . . . وإنها ستستمر لحين تنفيذ الاصلاح المطلوب**» . ومع ذلك كانت هذه الدورية في حقيقة الامر قائمة على أساس موارد غير ثابتة وبالتالي فقد عانت من تردي نسبة المبيعات في بعض الاحيان حتى وصلت إلى أقل من الف نسخة إسبوعياً في عام ١٨٤٩[3] .

لم تكن نشاطات الزعماء كهوليوك وروبرت كوبر Robert Cooper وساوثويل وغيرهم من المفكرين الاحرار والمحاضرين الاشتراكيين على نسق واحد . لذلك حاول هوليوك معالجة هذا القصور ، وكان في موقع مهم لاداء ذلك ، إذ كانت The Reasoner إحدى وسائل النشر والتواصل ، ومنذ عودته من لندن عام ١٨٤٦ قام بفرض نفسه بوصفه واحداً من أكثر المحاضرين ثباتاً في المواضيع المناهضة للاهوت في قاعات لندن . لذلك فقد أخذ على عاتقه إعلان «جمعية نشر النزعة الطبيعية» التي كرست نفسها من أجل الاقتصاد السياسي والشيوعية فضلاً عن الاجابة عن الاسئلة المتعلقة بعلم اللاهوت والكتاب المقدس ومناهضة الدين[4] . ولكن عنوانها وخلال أشهر قليلة قد تم تغييره إلى «جمعية النفعيين اللاهوتيين» وكان أعضائها وفقاً لمؤسسها : يشككون بالعقائد إلا أنهم يؤمنون بالانسانية ويتبعون قوانين بنثام التي

---

(1) The Movement, 1 January, 2 April 1845.

(2) Royle, Victorian, p.90.

(3) The Reasoner, 13 August, 8 July, 28 October 1846, 2 June, 22 September 1847.

(4) The Reasoner, 30 September, 7 October 1846.

تضعّف الدين أمام إعلاء الاخلاق ، حيث أعلن هوليوك : «**إن المنفعة هي المكان الطبيعي للاخلاق . وإن السياسة ترتكز على هذا الاساس ولم يتبق سوى الدين لوضعه ضمن هذه القاعدة . وختمنا العمل المتعلق بالاصلاح الفكري حينما قمنا بكتابة عبارة Cui Bono[1] على المذبح**»[2] .

وعلى الرغم من ذلك ، كانت نشاطات هذه الجمعية محدودة ، حيث وضعت نشاطاتها في ملحق خاص في دورية The Reasoner أطلق عليه «السجل النفعي» . وبدا إن القيمة الحقيقية لهذه الجمعية قد تمثل في توفيرها منبراً لمختلف زعماء الفكر الحر في لندن فضلاً عن أولئك القادمين من المقاطعات[3] . وأخذ هوليوك يتطلع في هذه المرحلة إلى تأسيس تنظيم وطني ، وأصبحت أولوية إعادة بناء الاوينية تكمن في إلقاء المحاضرات في جميع الاقاليم وتجديد الهيئات المحلية ، في الوقت الذي أخذت فيه الاشتراكية في مانشستر تأخذ بالضعف بعد عام ١٨٤٦ . أما ساوثويل فإنه راح يؤكد من خلال دوريته The Lancashire Beacon التي أطلقها في عام ١٨٤٩ بأن الاصلاح الراديكالي للحكومة لا يمكن إنجازه إلا من خلال التغيير الراديكالي-الجذري للافراد ؛ ووفقاً لوجهة نظره عبر إزالة المؤثرات الدينية . ومن أجل تحقيق هذه الغاية قام بنشر سلسلة من المقالات تتعلق بفلاسفة الفكر الحر ونتاجاتهم . كما إنصب هدفه على جعل دورية The Lancashire Beacon دورية شعبية عبر التخلص مما إعتقده إنها مواضيع ثقيلة شكلت عبئاً ثقيلاً ناءت بها دورية The Reasoner ، لذلك ضمّن في دوريته قصة متسلسلة عنوانها : «عراف الشبح» ، فضلاً عن قصة

---

(١) تعبير لاتيني يعني لمن الفائدة؟ وحرفياً لمصلحة من؟ ويستخدم في الاشارة إلى دافع خفي أو إلى جهة مسؤولة عن شيء قد يبدو غير واضح للعيان منذ الوهلة الاولى ، وفي السياسة ونظريات المؤامرة . أنظر :

Desmond, Cheryl Taylor, Shaping The Culture of Schooling: The Rise of Outcome-Based Education, New York, State University of New York Press, 1996, p.11; Steers & Others, Richard M. Steers, Management Across Cultures: Challenges and Strategies, First Published, Cambridge, Cambridge University Press, 2010, p.362.

(2) The Reasoner, 2 December 1846, 17 February 1847.

(3) The Utilitarian Record, 10 November 1847.

ذات جاذبية كبيرة من تأليفه دعيت «إعترافات مفكر حر» ، التي غدت من أكثر المواضيع قراءةً ضمن دوريات الفكر الحر في ذلك الوقت . وتجاوز العدد الاول من دورية The Lancashire Beacon مبيعاته الالف نسخة ، وبحلول تشرين الاول ١٨٤٩ نفدت الاعداد الستة الاولى . وعلى الرغم من ذلك تعرضت لانتكاسة حينما شحت الاموال ، لتغلق على إثرها مع مطلع عام ١٨٥٠ بعد أن رفض متعهد طبعها الاستمرار بالعمل(١) .

في هذه الاثناء كان هوليوك مشغولاً في لندن بسبب إلتزاماته التعليمية وإرتباطه بالنشاط الصحفي ، في الوقت الذي كانت فيه دوريته The Reasoner ما زالت تعاني من ضائقة مالية ، إلا أنها تمكنت من الاستمرار عن طريق التبرعات السخية من بعض مناصري الطبقة الوسطى ، على الرغم من عدم إستساغته الاستجداء في سبيل دورية عدها مسؤولة عن جل حركة الفكر الحر(٢) . كما أنه لم يعد واثقاً من الهدف الذي يجب أن تخدمه هذه الدورية ، حينما إعتقد منذ عام ١٨٤٦ إن الهدف الذي يجب أن تصبو إليه هو في إستمرارها بنشر إصدارات عن الاوينية فضلاً عن محافظتها على خط محدد للتعبير العام عن الفكر الحر . ومع ذلك إنحسر تأييد الاوينية ، ولم يقدر لجمعية النفعيين اللاهوتيين النمو لتحل محلها ، ناهيك عن تزامن الازمة الجارتية لعام ١٨٤٨ مع الثورات الاوربية في العام ذاته ، قد جعلت من القضايا السياسية والاجتماعية أهم بكثير من الجدالات اللاهوتية والفلسفية آنذاك(٣) .

وفي غضون ذلك ، إشترى المحامي والراديكالي وليم هنري أشرست William Henry Ashurst (١٧٩٢-١٨٥٥) في تشرين الثاني ١٨٤٨ الدورية الاشتراكية التي يملكها الكسندر كامبل المعنونة : The Spirit of The Age ، وتم إختيار هوليوك محرراً لها ، الذي سرعان ما قام بتوظيفها في تطوير آرائه السياسية والاجتماعية ، ولكن في مطلع آذار عام ١٨٤٩ أوقف نشرها ، وشرّع بإعادة تنظيم The Reasoner . وفي ٢١ آذار عام ١٨٤٩ تم استئناف إطلاق الاخيرة مع عنوان ثانوي هو : «المجلة العلمانية

(1) The Lancashire Beacon, Nos. 1, 2, 13 3, 10 August, 27 October 1849; The Reasoner, 23 January 1850.

(2) The Reasoner, December 1849.

(3) Royle, Victorian, p.97.

والانتقائية A Secular and Eclectic Journal» . عندها ومنذ الاسبوع اللاحق تم إدراج دورية The Spirit of The Age ضمن صفحاتها . ولهذا سجل هوليوك في يومياته بتاريخ ٢١ آذار قائلاً : «**لقد أصدرت العدد العلماني الاول لدورية The Reasoner**»[١] . وكان لدى هوليوك أسباباً منطقية لتبريره في جعل دورية The Reasoner في هذا الوقت تميل في مقالاتها إلى السياسة أكثر من اللاهوت ، عازياً ذلك إلى متغيرات المشهد العام . بيدَ أن دورية The Reasoner بحلتها الجديدة قد باءت بالاخفاق ، إذ لم يكن هوليوك يتمتع بشعبية لدى الجارتيين نتيجة لتكريسه النهج المعتدل في دورية The Spirit of The Age ، مما جعله معزولاً ، في الوقت الذي مال فيه العديد من الراديكاليين إلى دوريات أخرى نظراً لتناولها الشؤون السياسية في المقام الاول[٢] .

وخلال الاعوام ١٨٤٦-١٨٥٠ أشارت التقارير إلى وجود بين ٦-١٣ جمعية في العاصمة التي كانت إلى حد ما جمعيات للفكر الحر من حيث الشكل وليس المضمون ، وأفادت التقارير ذاتها بأن الاقاليم الاخرى قد شهدت إنخفاضاً في عدد هذه الجمعيات على نحو عام . فقد شهدت تلك المرحلة تدهوراً مستمراً على الرغم من وجود بعض بوادر التحسن حتى عام ١٨٥٢[٣] . وعزيّ هذا التدهور إلى خيبة أمل العديد من تلك الجمعيات بالاشتراكية بعد عام ١٨٤٥ ولذلك إنقسمت على نفسها نتيجة لاغلاق بعض القاعات[٤] . وخلال المدة المحصورة بين ١٨٤٧-١٨٤٨ شهدت الحركة الجارتية إنتعاشاً الأمر الذي دفع بكثير من أبناء الطبقة العاملة لاتخاذها بديلاً عن الاشتراكية[٥] . ويمكننا القول أن السبب الرئيس الذي وقف وراء إضمحلال الجمعيات في تلك السنوات لغاية عام ١٨٥٠ كان سبباً مادياً بحتاً . فقد

---

(1) McCabe, Joseph, Life and Letters of George Jacob Holyoake, London, Watts & CO., 1908, Vol.1, p.202.

(2) The Lancashire Beacon, No.6, 8 September 1849; The Reasoner, 26 September 1849; The Spirit of The Age, 24 February, 3 March 1849.

(3) The Reasoner, 8 July 1846, 15 May 1850.

(4) The Utilitarian Record, 1 December 1847.

(5) The New Moral World, 5 October, 23 November 1844, 3 June, 1 July 1845.

قام الاشتراكيون بإستنزاف نفقات لا تتناسب مع مصادر دخلهم في مطلع أربعينيات القرن التاسع عشر ؛ فمن دون أن يكون هناك جماهير منتظمة الحضور يتمكن على إثرها محاضرو النخب الثقافية من تحريضهم ، لم يكن بالمحصلة هناك جمعاً للمال اللازم دفعه للرهن العقاري المترتب على إشغال قاعات العلوم Halls of Science لالقاء المحاضرات[١] .

لقد كانت هذه المرحلة حاسمة في نهاية العقد حينما أخفق هوليوك في جهوده للحيلولة دون إضمحلال الاوينية ، ولم يتمكن الالحاد من تحقيق الشعبية المرجوة وأخذت جمعية النفعيين اللاهوتيين بالإحتضار . ولكنه وعلى الرغم من ذلك لم يخسر كل شيء ، إذ وقف هوليوك على أعتاب مرحلة جديدة حينما ترك ورائه الايمان بالرب والتقليد الفكري العقلاني لتنوير أوربا في القرن الثامن عشر والراديكالية المتطرفة لبين وكارليل والمخططات المثالية الكبرى لاوين وخيبة الامل المتبقية للحركة الجارتية . ولهذا تم إعادة التفكير بالمواقع القديمة وإعادة صياغة المواقف أيضاً ؛ إذ بعد عقود من الخبرة في الفكر الحر الراديكالي ، أصبح هوليوك مؤهلاً للقيام ببداية جديدة ، وعمل ببراعة على جمع بقايا العناصر الالحادية للتقليد البيني- الكارليلي ودمجها مع العناصر العقلانية للتقليد الاويني ، وفي العام ١٨٥١ أطلق مفهوماً وحركة جديدة دعاها بالعلمانية[٢] .

ثالثاً: جورج جاكوب هوليوك ودوره في إنشاء الإطار النظري لمفهوم العلمانية Secularism الاول وانعكاسه على نمو الجمعيات العلمانية

مهد الجو الفكري السائد الذي شهدته بريطانيا في منتصف القرن التاسع عشر وما قبله ، الطريق لهوليوك لاستلهام دوره المتعلق بصياغة مفهوم العلمانية . وإن الطروحات الفكرية التي غذت محاولته تلك ، كان لها أوجه متعددة أخذت على عاتقها تعزيز الروح النقدية والنزعة الشكية ضد الرؤى الدينية التقليدية المرتكزة على النص الديني المقدس وإحتكار مرجعية تفسيره وتدخلها في جميع مناحي الحياة

(1) The Herald of Progress, 14 February 1846; The Reasoner, 29 July, 20 August 1846, 5 July 1848; The Utilitarian Record, 17 February 1847.

(2) Royle, Victorian, p.101.

المعقدة ، فضلاً عن محاولة تلك الطروحات الفكرية العلمانية إشاعة الرؤى المدنية في تفسير الحياة .

لقد أعاق إصرار النخبة المسيحية الانجيلية على تفسير الكتاب المقدس حرفياً أي بادرة أمل في إعادة قراءة أو نقد الفكر الديني ، لينسحب الامر كذلك على مبادئ العناية الالهية والصلاة ، وبالنتيجة لعبت دوراً مهماً في فقدان هوليوك لايمانه ، فحينما حل وباء الكوليرا عام ١٨٤٩ سارع الاخير لكتابة واحدة من أهم كراساته وأنجحها المعنونة : «منطق الموت» التي توصل فيها إلى الاستنتاج التالي : «**يشهد الإنسان على أولئك القريبين منه والاعزاء عليه يفنون أمام عينيه على الرغم من تضرعاته . . . وليس ثمة عناية إلهية تخفف عليه طريقه في الحياة**»[١] .

وفي السياق ذاته ، إنتقد روبرت كوبر النظرة التقليدية ومحاولات رجال الدين تبرير إختلال الاوضاع العامة وتشعب الحياة وعزوها إلى جانب قدري ، معتبراً أن محاولة إرجاع كل ذلك إلى الكتب المقدسة هو مسعى معرقل للتقدم إذ نوه قائلاً : «**إن تحدثنا عن الاصلاح الاجتماعي ، فإنهم يتعجبون قائلين بأن الفقر أمر رسمه الرب ، والرب هو من صنع الفقر والغنى ولذلك يجب على الناس أن يكونوا مقتنعين بالوضع . . . وإن تحدثنا عن الاصلاح السياسي فإنهم سيذكروك بأن واجبنا هو الانقياد إلى الكلمة الموحى بها من السماء . . . وإن تحدثنا عن التقدم التعليمي فإنهم يتعجبون من إن كل التعليم غير المتضمن للدين يعني ببساطة تعليم من دونهم وسيغدو لعنة بدلاً من بركة . وإن تحدثنا عن الاصلاح الاخلاقي بصيغته المعتدلة . . . فهي محاولة لبعث الانسان خارج اليد الالهية**»[٢] . وهكذا أصبح لا مناص من وصاية رجال الدين على مجمل الحياة العامة وتفرعاتها المتشعبة ، الامر الذي رفضه دعاة العلمانية لانه غدا في نظرهم أداة لتخلف الشعب ومصادرة للارادة الحرة في الفكر والاصلاح النابذة للتوجهات الدينية الفئوية ونظرتها الاحادية .

---

(1) Holyoake, George Jacob, The Logic of Death; or, Why Should The Atheist Fear to Die?, *Cowen Tracts*, London, 1850, p.8.

(2) Cooper, Robert, The Immortality of The Soul: Religiously & Philosophically Considered: A Series of Lectures, *Cowen Tracts*, Newcastle University, 1853, pp.99-100.

وأصبح ديدن بعض الزعماء العلمانيين أمثال روبرت كوبر ، إعادة قراءة النص المقدس وتفسيره وتوضيح أبعاد الرؤى الخاطئة فيه ؛ ففي الوقت الذي تم فيه إدانة جزء من تعاليم المسيح ، تم إدانة ورفض ما أعتبر إنه أسوأ أجزاء العهد القديم أيضاً كعبارة «أحبوا أعدائكم» التي أشار إليها روبرت كوبر «**بكونها مستحيلة أخلاقياً**» وأن «**لا تفكروا بحياتكم**» على أنها عبارة ضارة بالفعل[١] . وأعتبر الزعيم العلماني الراديكالي والملحد تشارلز برادلو Charles Bradlaugh (١٨٣٣-١٨٩١) كلمة «**طوبى**» غير أخلاقية ، وذكر بأن : «**يسوع يُعلّم بأن الفقراء والجياع والبؤساء سوف تتم مباركتهم؟ الامر ليس كذلك ، البركة تأتي فقط عندما يتم إيقاف الفقر والجوع والبؤس ، وإن القناعة تحت الفقر والجوع والبؤس خيانة عظمى ليس لك لوحدك وإنما لاتباعك أيضاً . هذه الامور الثلاثة كالامراض الكريهة تنتشر بسرعة حينما تكون البشرية راكدة ومقتنعة بالخطأ**»[٢] .

لقد إرتكزت جميع تلك الحجج على قاعدة النقد الداخلي للكتاب المقدس وهذا النقد كان كافياً بحد ذاته لادانته . ومن بين ذلك التنوع المعرفي ، تشكلت القناعات والتبريرات الموجبة لظهور ما عدّ إنهم كفار ومناهضي المسيحية في العصر الفكتوري . وتنوعت تلك المسوغات بين أخلاقية وفكرية وسياسية ، وكان من ضمن تمظهرات هذا النقد هو بروز الدراسات المتعلقة بالدين المقارن ، بحيث أخذت تشيع في الدوريات الراديكالية العلمانية فضلاً عن ذيوعها في المحاضرات والكراسات الراديكالية[٣] .

وعزز من رواج ذلك النقد صدور : «الكتاب المنهجي للكافر» لروبرت كوبر ، الذي أظهر فيه ، على نحوٍ مضاد لادعاءات المسيحيين الاقل تنوراً ، بأن الكتاب المقدس لم

---

(1) Cooper, The Immortality, p.137.

(2) Bradlaugh, Charles, What did Jesus Teach?, *Bristol Selected Pamphlets*, University of Bristol Library, 1861, pp.1-3.

(3) The Reasoner, 6 October 1847.

يكن كتاباً شاملاً ، وإن الترجمة السبعونية Septuagint[(١)] للعهد القديم ، التي إعتمدت عليها الكنيسة فيما بعد قد تم تأليفها من عدد منوع من المخطوطات العبرية غير الموثوقة ، وإن الآباء المبكرين لم يتوانوا عن القيام بتغييرات وإضافات خاصة بهم إلى النصوص الاصلية . زيادة على ذلك فإن تدوينات العهد الجديد لا يمكن الاعتماد عليها لانها كتبت بعد فترة طويلة من وقوع حوادثها ، والان توجد ترجمة إنكليزية رديئة لها تم حمايتها من خلال تشريع مرسوم برلماني[(٢)] . وبهذه الطريقة فإن روبرت كوبر قام بوضع مجموعة من الانساق الجدالية ضد الكتاب المقدس ؛ وعُد كتابه هذا فريداً من نوعه آنذاك . فقد كانت مسألة رفض الكتاب المقدس لا تعدو في الغالب عن كونها مناهضة للمسيحية ولكن ليس بالضرورة مناهضة للرب ، وإن الفرق بين مسيحي وربوبي غالباً ما كان فرقاً أخلاقياً ، في حين أن الفرق بين المؤمن والملحد هو فرق معرفي . إن جميع الزعماء الأساسيين الاربعة : ساوثويل وروبرت كوبر وهوليوك وبرادلو قد أطلقوا على أنفسهم ملحدين في بعض الاحيان ، ولكن ليس جميع العلمانيين في خمسينيات القرن التاسع عشر كانوا ملحدين[(٣)] .

لقد وجدت الطروحات العلمانية موطناً لها في ظل شيوع التصورات الدينية التقليدية ، لانها سرعان ما إقترحت قواعد للسلوك مرتبطة بصورة مقتصرة بالمتطلبات الآنية ، وعرضت فلسفة حيادية في قضايا الاعتقاد عبر إهتمامها بمتطلبات العصر الحالي على نحوٍ متفرد ، في الوقت الذي أخفقت الاخلاقيات المسيحية وفق وجهة

---

(١) ترجمة التوراة السبعونية أو السبعينية : ترجمة يونانية تمت في القرن الثالث ق . م للعهد القديم قام بها ٧٢ عالماً يهودياً في ٧٢ يوماً . أنظر :

Bickerman, Elias J., The Septuagint As a Translation, *Proceedings of The American Academy For Jewish Research*, American Academy For Jewish Research, Vol.28 (1959), pp.1-39; Staples, W. E., The Hebrew of The Septuagint, *The American Journal of Semitic Languages and Literatures,* The University of Chicago Press, Vol.44, No.1 (Oct., 1927), pp.6-30.

(2) Cooper, Robert, The Infidel's Text- Book: Being The Substance of Thirteen Lectures on The Bible, London, Johnson, Savile- St., 1846, p.108.

(3) Royle, Victorian, p.114.

نظر هوليوك : «**لان المسيحي وبإستمرار يتخذ الكتاب المقدس بكونه المصدر الوحيد للاخلاق وبهذا فإن البقية الذين لا يؤمنون بالكتاب المقدس بوصفه كتاباً إلهياً لا أخلاق لهم**»(١) . وعلى العكس من ذلك ، فإنه رأى بأن جميع الناس لهم أخلاق مشتركة ترتكز على الحس الاخلاقي ، أي وفقاً للنظام الذي طرحه ودعاه بالعقلانية ، ومن خلال هذا النظام طرح تلك الافكار العملية والعلمانية والاخلاقيات العقلية ، وعليه فإن جميع العقائد يمكن التخلي عنها ، وبالنتيجة فالطاقات البشرية سيتم توجيهها نحو رخاء وتحسين الحياة الحالية . ورغب هوليوك في التخلي عن المصطلحات القديمة ، وبالذات مصطلح ملحد : «**لان عامة الناس يفهمون بأن ذلك يعني شخص بدون رب وكذلك بدون أخلاق أو من رغب بإن يكون بدون كليهما**» . كما رغب أيضاً بالتخلي عن مصطلح الكافر لأن : «**المسيحيين يفهمون من ذلك المصطلح هو الشخص غير المخلص أو الخائن للحقيقة**»(٢) . وبدلاً من هذه الاوصاف التقسيمية ، أمِلَ هوليوك بأن يؤسس شراكة عامة تستقطب المتدينين الذين يشتركون بالاخلاق ذاتها . ولذلك غدا هدف العلمانية الان رباعي التوجه : الهجوم على الخلل المعيق الذي تمثله التصورات الدينية الغيبية من خلال تفنيدها ، وتجاهل جميع التفسيرات الاخرى المشابهة للتفسيرات الغيبية ذات الصبغة المطلقة من خلال التقليل من أهميتها ، وتقديم فلسفة بديلة للحياة من خلال الطرح المدني ، وتشجيع التحسينات العلمانية ذات الطابع الاصلاحي التي لا تقيدها القاب أو نعوت لاهوتية(٣) .

وعلى الرغم من أن هوليوك ولمدة طويلة كان ميالاً نحو الاعتدال ، إلا أنه قد شهد تحولاً فكرياً في مطلع خمسينيات القرن التاسع عشر من الاشكال التقليدية إلى الجديدة في الفكر الحر ، تمثل في إعتماده للمرة الاولى مصطلح العلمانية Secularism ، ليس فقط ليدشن الاستخدام الاول لهذا المصطلح في القاموس

---

(1) Grant, Brewin, Christianity and Secularism: Report of a Public Discussion Between The Rev. Brewin Grant, B. A., and George Jacob Holyoake, *Bristol Selected Pamphlets*, University of Bristol Library, 1853, p.132.

(2) Grant, Christianity and Secularism, p.4.

(3) Royle, Victorian, p.152.

الانكليزي في وصف أفكار معينة ، وإنما ليطوره أيضاً . وكان أشرست قد شجع هوليوك على ذلك ، فمن خلاله يمكن تعقب إستخدام مصطلح Secular لوصف تلك الافكار التي كانت تتطور في ذهن هوليوك ، ومثلما إعتمدت دورية The Reasoner عنواناً ثانوياً هو : «المجلة العلمانية والانتقائية» منذ آذار عام ١٨٤٩ ، عرض أشرست في حزيران ١٨٥١ مقترحاً على هوليوك حثه فيه على تبني لقب العلماني Secularist ، وأجاب الاخير بأنه قد سبق وأن راعى هذه الخطوة في محاضرة سابقة بشأن مؤلف أتكينسون ومارتينو المعنون : «رسائل عن قوانين طبيعة الانسان والتطور» الصادر عام ١٨٥١[1] ، ليتم بعد ذلك إدخال الكلمة بالتدريج . كما أستخدم هذا المصطلح الوليد على هيئة حرف «S» فقط في آب ١٨٥١ إلا أنه ظل جديداً بصورة كافية حتى كانون الثاني ١٨٥٢ حينما فسر هوليوك مصطلح Secular عبر كلمات العالم الفرينولوجي (عالم بفراسة الدماغ) جورج كومب George Combe (١٧٨٨-١٨٥٨) على إنه يعني : «**المتعلق بهذا العالم Pertains to This World**» ، وأنه : «**القضايا التي يمكن إختبارها في هذه الحياة**»[2] .

ومنحت أفكار الفيلسوف الفرنسي أوغست كومت Auguste Comte[3] قاعدة

---

(1) Atkinson & Martineau, Henry George & Harriet, Letters on The Laws of Man's Nature and Development, Boston, Josiah P. Mendum, 1851.

(2) The Reasoner, 25 June, 13 August 1851, 14 January 1852; Holyoake, George Jacob, Sixty Years of an Agitator's Life, Sixth Impression, London, Adelphi Terrace, 1909, Vol.1, p.255.

كما ذكر جي . بي . آدمز J. P. Adams سكرتير الجمعية العلمانية في لندن رواية أخرى فيما بعد مفادها إن جورج هنري لويس George Henry Lewes (١٨١٧-١٨٧٨) صاحب دورية The Robespierre قد أغدق على هوليوك لقب العلماني Secularist حينما ذهب الاخير لمقابلته والنقاش معه عام ١٨٤٩ . أنظر :

The National Reformer, 27 August 1865.

(٣) أوغست كومت (١٧٩٨-١٨٥٧) : فيلسوف فرنسي ، عرف من خلال تأسيسه لعلم الاجتماع الحديث السوسيولوجيا Sociology والفلسفة الوضعية Positivism (القائلة بأن أي نظام يقتصر في قاعدة معلوماته على التجربة ويستبعد التكهنات المسبقة أو الغيبية هو فلسفة وضعية) . رأى =

مهمة له في هذا الصدد ، حينما إقتبس جملته : «**ما من شيء يتم تدميره حتى يتم إبداله بشيء آخر**» ، فمن المحتمل أن منحت هذه الجملة تبريراً مفضلاً لهوليوك لصياغة العلمانية[١] . وعلى الرغم من ذلك فإن الكثير من الموروث الفكري لهوليوك كان مستقلاً عن التأثير المباشر لكومت ، وهذا ليس بالشيء المفاجيء لان كومت شخصياً لم يكن بمفكر مستقل كلياً ، فأفكاره تعود إلى بيكون وهوبز ولوك وآخرون[٢] . وهذا هو التقليد ذاته الذي إعتمد عليه هوليوك ، إذ راجت أفكار هؤلاء وغدا لها تأثيرها الهام على الافكار التي تم الاعراب عنها في دورية The Reasoner ؛ بل إن الاقتباس من بنثام قد ظهر على الصفحات الامامية وتحت عناوين دوريتي The Movement وThe Reasoner قبل فترة طويلة من الاقتباس من كومت[٣] .

= إن الفكر البشري مر بثلاث مراحل هي : المرحلة اللاهوتية والميتافيزيقية والوضعية ، ولهذا إعتبر أن العلم الذي يتفق مع المرحلة الوضعية ويساعد الانسان ويستوعب جميع العلوم التي سبقته هو علم الاجتماع . ولهذا دعا إلى إقامة دولة وضعية تقوم على صفوة من علماء الاجتماع لادارة المجتمع وتوجيهه . من أهم أعماله كتاب «الفلسفة الوضعية» الذي ظهر لاول مرة في ستة أجزاء (١٨٣٠-١٨٤٢) . دعا في أواخر حياته إلى «دين الانسانية» للمجتمعات الوضعية لكي تحقق وظيفة الترابط التي كانت تحققها العادة التقليدية ويحل بالتالي محل المسيحية ، ففي رأيه إن العلم والدين ليسا متناقضين وإنما متكاملين ، ولكن ينبغي تشكيل دين جديد يشمل البشرية كلها وليس فقط مقصوراً على المسيحيين ، وبالتالي ينبغي على هذا الدين أن يكون خالياً من الطائفية والتعصب . وقامت هاربيت مارتينو Harriet Martineau (١٨٠٢-١٨٧٦) الكاتبة والمترجمة الانكليزية لمختلف أعمال كومت ، بترجمة عمله الفلسفة الوضعية إلى اللغة الانكليزية في عام ١٨٥٣ . أنظر :

Gould, F. J., Auguste Comte, London, Watts & Co., 1920; Martineau, Harriet, The Positive Philosophy of Auguste Comte, London, John Edward Taylor, 1853, 2 Vols; Encyclopedia Britannica, CD., 2010.

(1) The Reasoner, 31 December 1854.

(2) Charlton, Doald Geofrey, Secular Religions in France 1815-1870, Oxford, Oxford University Press, 1963, pp.43-44.

(3) Royle, Victorian, p.155.

وقبل نشر «الفلسفة الوضعية» لكومت ، من خلال الترجمة المكثفة التي قامت بها هارييت مارتينو في عام ١٨٥٣ ، فإن تلك الافكار قد سبق وأن راجت في أوساط المثقفين ، إذ إن مقالة جورج هنري لويس صاحب دورية The Robespierre بشأن كومت في مؤلفه المعنون : «تاريخ سيرة الفلسفة» قد نشرت لاول مرة عام ١٨٤٦ وكان لها تأثيرٌ على مارتينو وأتكينسون في مؤلفهما : «رسائل عن قوانين طبيعة الانسان والتطور» عام ١٨٥١ ، بل إن مؤلف كومت «فلسفة العلوم» قد ترجمه لويس وظهر في دورية The Leader خلال نيسان- آب ١٨٥٢ ، على الرغم من عدم نشره كتاباً حتى عام ١٨٥٣ ، ولذلك فمن المحتمل أن يكون هوليوك قد أطلع على أفكار كومت من خلال لويس ودورية The Leader ، ومن خلال رسائل مارتينو وأتكينسون ، وبالمحصلة سرعت تلك الامور من تبنيه مصطلح «العلماني» . وفضلاً عن ذلك فإن مارتينو سبق وأن ناقشت مع هوليوك في مطلع تشرين الاول ١٨٥١ ترجمة عمل كومت ، وأن هوليوك وجد في الاخير تبريراً للخطوة الجديدة التي إتخذها[١] .

وعلى أية حال ، يعود الفضل لهوليوك لا في نحت مصطلحات العلماني والعلمانية مفاهيماً حديثة فحسب ، وإنما في توظيفها وتوصيفها وتطويرها في القاموس الانكليزي تحديداً ، فكما سبقت الاشارة ، كان هو أول من إستخدم مصطلح العلماني Secular تسميةً لدورية ، حينما دوّن في يومياته بتاريخ ٢١ آذار ١٨٤٩ قائلاً : «**لقد أصدرت العدد العلماني الاول لدورية The Reasoner**»[٢] . كما ذكر بأنه إستخدم مصطلح العلماني Secularist بوصفه طريقة واضحة لتفكير الفرد لاول مرة في ٣ كانون الاول ١٨٥١ قائلاً : «**يجب علينا إستخدام كلمة Secularist بوصفها أفضل دلالة تحافظ على الواجب الانساني المقترن بهذه الحياة**»[٣] . أما مصطلح العلمانية Secularism فقد قال بشأنه بأنه قد ظهر في

(1) Webb, R. K., Harriet Martineau a Radical Victorian, London, 1960, pp.299-309.

(2) McCabe, Life, Vol.1, p.202; Fowler, Jeaneane, Humanism: Beliefs and Practices, Biddles Ltd, Guildford and King's Lynn, 1999, p.26.

(3) McCabe, Life, Vol.1, p.208.

الصحافة بعد إسبوع من ذلك التاريخ[1] .

وأخذ هوليوك يوضح المعنى الذي أراده لمصطلح العلمانية والغاية منه حينما أشار : **«في The Reasoner التي حررتها ، نُظم مفهوم جديد من الفكر الحر مانحاً إسم «العلمانية» ، البعض إعتبر ذلك إسماً جديداً لشيء قديم ، بينما هو إسم جديد لمفهوم جديد . وأظهر الكثيرين بأن الاخلاق التي تستند على اللاهوت لم تحظ بالقبول عالمياً . نحن نؤكد بأن الاخلاق التي تستند**

---

(1) Chadwick, Owen, The Secularization of The European Mind in The Nineteenth Century, Cambridge, Cambridge University Press, 2002, pp.91, 271 note 4; Holyoake, George Jacob, The Origin and Nature of Secularism, London, Watts & Co., 1896, pp.51-52; The Reasoner, 25 June, 13 August 1851, 14 January 1852; Grugel, Lee E, George Jacob Holyoake: A Study in The Evolution of a Victorian Radical, Philadelphia, Porcupine Press, 1976, p.62; McCabe, Joseph, A Biographical Dictionary of Modern Rationalists, London, Watts & CO., 1920, pp.357-358.

يخلط العديد من الباحثين في توثيق التاريخ الحقيقي لمصطلح العلمانية الانكليزي بكونه قد ظهر في عام ١٨٤٦ ، ومرد هذا الخلط أسباب عديدة منها ؛ الاقتباس غير الدقيق من المصادر القديمة والموسوعية التي أشارت لهذا التاريخ ، ومنها ما أوردته الجمعية العلمانية الوطنية التي تأسست منذ عام ١٨٦٦ في موقعها الرسمي على الانترنت من أن هوليوك أول من نحت هذا المصطلح في عام ١٨٤٦ على الرغم من إن الدخول على سيرة هوليوك في داخل الموقع نفسه تؤكد عكس ذلك حينما تذكر إنه صاغه في عام ١٨٥١ . ويمكن تعليل هذا الخلط بأن البعض قد إعتبر إطلاق هوليوك لدورية The Reasoner في عام ١٨٤٦ وما تولته من مهمة تطوير العلمانية بعد تأسيسها هو بالتالي تاريخاً لنشأة المصطلح . أنظر :

The Catholic Encyclopedia, New York, The Encyclopedia Press, Inc., 1913, Vol.XIII, p.676; http://www.secularism.org.uk;http://www.worldlingo.com/ma/enwiki/en/Secularism; Cline, Austin, Origins of Secularism as a Non-Religious, Humanistic, Atheistic Philosophy,in:http://atheism.about.com/od/secularismseparation/a/HolyoakeSecular.htm; Chambers's Encyclop?dia, Philadelphia, Edinburgh, W. & R. Chambers, 1871, Vol.VIII, pp.596-598; Donnald (ed.), A. H., The Encyclopedia Americana, New York, Chicago, Americana Corporation, 1948, Vol.24, p.521.

على الحقائق المادية والاجتماعية كانت محط قوة بين جميع الناس . نحن من الاوائل الذين يعتقدون بأن الشأن العلماني هو أمر مقدس . لقد كان مفهوماً جديداً حيث أعطي إسماً جديداً»[١] . ليغدو التطبيق الجلي للنظام الذي يهدف إلى تركيز الاهتمام على الشؤون الدنيوية[٢] .

ولهذا غدت العلمانية مفهوماً[٣] وحقلاً يعنى بالواقع والمعرفة المفيدة والايجابية ،

---

(1) Holyoake, Sixty Years, Vol.1, pp.254-255.

(2) McCabe, Life, Vol.1, p.208.

(٣) يجب التفريق هنا بين مفهوم العلمانية وبين مظاهر العلمانية التي يميل بعض المؤرخين على إعتبارها مولداً لمفهوم العلمانية . في الحقيقة هناك فرق مهم يجب أن يؤخذ في الحسبان . إذ يعتقد جمهرة من المؤرخين إن العلمانية بوصفها ظاهرة تعود إلى تاريخ أقدم من مفهومها الحديث الذي نحته هوليوك ، ولها مؤشراتها التاريخية القديمة ، على إعتبار إنها إذا كانت تعني الفصل بين الدين والسياسة فالإشارة الاقدم هي نص الكتاب المقدس على لسان المسيح : «إعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله» . أما من الناحية اللغوية فيميل البعض الاخر إلى إعتبار الجذر التاريخي اللغوي لمفهوم العلمانية قد تم تناوله في صلح ويستفاليا في عام ١٦٤٨ الذي جاء في أعقاب حرب الثلاثين عام (١٦١٨-١٦٤٨) وأنهى صراعاً دينياً مريراً آنذاك ، حيث تم تناول هذا الجذر بصيغته اللاتينية تحت كلمة Saeculum في النص اللاتيني الاصلي لصلح ويستفاليا ومن ثم تمت ترجمته إلى الانكليزية إلى Secular وSeculariser التي عنيت جميعها تحديداً العلمنة Secularization أي علمنة ممتلكات الكنيسة وحسب (أي نقلها إلى سلطات غير دينية) . وبالتالي لا يدل هذا الجذر سوى على جانب أحادي تمثل في تحويل ملكية على نحو قسري ولم يفضِ إلى إرساء مفهوم فكري له أبعاد . أنظر :
Straumann, Benjamin, The Peace of Westphalia as a Secular Constitution, *Journal Compilation*, Oxford, Blackwell Publishing Ltd., Volume 15, No. 2, 2008; Krasner, Stephen D., Compromising Westphalia, *International Security*, The Mit Press, Vol.20, No.3 (Winter, 1995-1996), pp.115-151; Gardiner, Samuel Rawson, The Thirty Years' War 1618-1648, New York, Charles Scribner's Sons, 1895, pp.10-19, 42;
العظمة ، عزيز ، العلمانية من منظور مختلف ، ط٢ ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٨ ، ص ص ١٨-١٩ ؛ المسيري & العظمة ، عبد الوهاب & عزيز ، العلمانية تحت المجهر ، ط١ ، دمشق ، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر ، ٢٠٠٠ ، ص ص ١١-١٢ ؛ قرم ، جورج ، تعدد الاديان وأنظمة الحكم : دراسة سوسيولوجية وقانونية مقارنة ، بيروت ، دار النهار للنشر ، ١٩٧٩ ، ص ١٧٢ .

والجانب العملي لمذهب الشك Scepticism الذي أعلنت عنه دورية The Reasoner في كانون الثاني ١٨٥٣ ، والتطوير لما دعاه هوليوك للنزعات الطبيعية والعقلانية أو الكونية ، وإن تعاليم العلمانية وفرضياتها الاساسية هي نفسها : الاحتكام للسلوك والاخلاص ، ودراسة النظام بدلاً من دراسة أصل الطبيعة ، والثقة بالعلم بوصفه راعياً للانسان ، والاعتقاد بالاخلاقيات المتجذرة في الطبيعة البشرية والمنفعة والذكاء(١) .

وأخذ هوليوك يوضح على نحو وافٍ في كراسته المعنونة : «العلمانية الفلسفة العملية للناس» الصادرة عام ١٨٥٤ مصطلح العلمانية ، محدداً له ما دعاه مشروعاً من أربعة حقوق هي :

١- الحق في التفكير الذاتي ، الذي يعترف به معظم المسيحيين الان على الاقل من الناحية النظرية .
٢- الحق في الاختلاف ، الذي بدونه لا يغدو الحق في التفكير ناجعاً .
٣- الحق في التأكيد على إختلاف الرأي ، الذي بدونه سوف يغدو الحق في الاختلاف غير ذي فائدة عملية .
٤- الحق في مناقشة جميع الآراء الحيوية ، الذي بدونه سوف لن يكون ثمة مساواة ثقافية ، ولن يكون هناك دفاع إزاء أخطاء الدولة أو وعاظ المنابر .

ولهذا ، طبقاً لهذا المشروع ، فالعلمانية وفق وجهة نظره : «**تطالب وتبرر حق الاختلاف ، وبحق التأكيد على إختلاف الوعي في المنابر المتاحة سواء في الصحافة أو مؤسسات المجتمع المدني أو في البرلمان أو محاكم القانون ، حيث المطالب التي تدعو إلى [حق] التأكيد لاولئك الذين يخالفون المسيحية من المفترض أن تغدو شرعية على غرار القَسَمْ لاولئك الذين يقبلون به**»(٢) .

وإزاء هذه المطالب راح هوليوك يرسم الخطوط العريضة لمبادئ العلمانية قائلاً : «**العلمانية هي تطوير الفكر الحر ، متضمنة الجانب الايجابي فضلاً عن**

(1) The Reasoner, 19 January 1853; Holyoake, George Jacob, Secularism The Practical Philosophy of The People, *Cowen Tracts*, Newcastle University, 1854, pp.5-6.

وللتعرف على أبرز كراريس الزعيم العلماني جورج جاكوب هوليوك ، أنظر ملحق رقم -٣- .

(٢) دعا هوليوك إلى ضرورة إستبدال القَسَمْ Oath بالتأكيد Affirmation في بادرة تعد الاولى من نوعها لزعيم علماني في التنبه إلى حق مخالفي المسيحية في إستبدال قَسَمْ لا يلائم توجههم الفكري في الوظائف التي تتطلب أداء قسم معين . أنظر : Holyoake, Secularism The Practical, pp.4-5.

الجانب السلبي . فالعلمانيون ينظرون للفكر الحر بإعتباره إعتراض له وجهين ، الاعتراض بالضد من الخلل التخميني ، والوقوف لصالح الحقيقة الاخلاقية المحددة . ولم يتم إختيار مصطلح العلمانية بإعتباره إخفاءً أو تمويهاً أو إعتذاراً عن البحث الحر ، بل ليعبر عن عنصر إيجابي وأخلاقي محدد ، في الوقت الذي لا تعبر فيه مصطلحات الكافر والشكاك والملحد عما هو مطلوب . إذ حينما يستخدم مصطلح الكافر للتعبير عن الخلاف العادل مع المسيحية ، أو حينما يعبر الشكاك عن شكه الصادق بمبادئه ، أو حينما يكون الملحد ليس سوى تعبير خالص عن العجز الفكري لتفسير أصل الكون . . . عندها لن يعترض العلمانيون على تطبيق مثل مصطلحات كهذه بالتتابع على أنفسهم . لكن حينما تعني هذه المصطلحات عادةً الذنب والمخالفة ، فإنهم يفضلون مصطلح العلمانية بوصفه تعبيراً عن الآراء المتمسكين بها بإعتبارها مؤكدة وفاضلة ومدركة»[1] .

أما الشخص العلماني الذي عرّفه هوليوك هو : «**الشخص الذي يولي إهتماماً أساسياً بالافكار المتعلقة بالقضايا التي يمكن إختبارها بالتجربة في هذه الحياة**» . ولهذا فإن العلمانية ، وفقاً لوجهة نظره ، تتطلع لكل المجتمع الانساني ولجميع أولئك الذين يقفون خارج نطاق المسيحية . ويلزم العلمانية بقاعدة أخلاقية مفادها : «**الاحتكام للسلوك هو أكثر موثوقية من الاحتكام للايمان بالمسيح**» . أما المجال الذي تصوره للعلماني العمل فيه هو : «**المجال الخلافي : نقد الكتب المقدسة والاديان القائمة فقط في تلك النواحي التي يبدو إنها تتعارض مع الحقائق الاخلاقية المؤكدة ، أو حينما تعيق التقدم العقلاني**»[2] .

---

(1) Hamburger, Philip, Separation of Church and State, Fourth Printing, The President and Fellows of Harvard College, 2004, p.294; Holyoake, Secularism The Practical, p.5.

(2) Holyoake, Secularism The Practical, pp.5-6.

نسجل هنا إختلافنا مع المفكر الراحل عبد الوهاب المسيري في إعتباره إن هوليوك لم يحدد ملامح النموذج العلماني ورؤيته للانسان وللمنظومة المعرفية . أنظر : المسيري & العظمة ، المصدر السابق ، ص ص ١٢-١٣ ؛ المسيري ، عبد الوهاب ، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ، ط١ ، القاهرة ، دار الشروق ، ٢٠٠٢ ، م١ ، ص ص ٥٤-٥٥ .

وحدد هوليوك الوسائل والمبادئ التي ترتكز عليها العلمانية حينما ذكر بأنها نظام مختص بمهمة في هذه الحياة ، أُسس على إعتبارات إنسانية صرفة ، ويصبو في المقام الاول إلى أولئك الذين وجدوا اللاهوت غامضاً أو غير ملائم أو عديم الثقة أو غير قابل للتصديق ؛ ومبادئه الاساسية ثلاثة هي :

١- تحسين هذه الحياة من خلال الطرق المادية .

٢- العلم هو التدبير المتاح للانسان .

٣- الخير في عمل الخير ، سواء كان الاخر خيّراً أم لا ، فالخير في هذه الحياة الحالية هو خير ، وأنه من الخير السعي لهذا الخير[١] .

ولهذا تسعى العلمانية ، وفقاً لمنظوره ، إلى ترقية النواحي الجسدية والاخلاقية والطبيعة الثقافية للانسان إلى أعلى نقطة ممكنة ، من خلال الغرس الوافي للاخلاق الطبيعية بصرف النظر عن الالحاد أو الاعتقاد بالرب أو الكتاب المقدس[٢] .

لقد كان هوليوك غير مقتنع بالالحاد الذي راج سابقاً ، وأمل بأن العلمانية سوف تقوم بخلق فلسفة تدمج أفضل ما في قضايا المعلوم والمجهول . فقد ركز الملحدون على التمييز بين المعلوم والمجهول وناقشوا بأن فلسفة المجهول لم يكن لها معنى ، وهنا تكمن القضية الجوهرية لسوء الفهم وعدم التقدير الكافي للمعرفة الممكنة ، ولكن العلمانية لم تعد تتضمن نفي لجميع النظم الفلسفية والدينية التي تم بنائها على أساس المجهول ، فقد كان هوليوك مستعداً الان للقول بأن الدين هو حقل مثير للاهتمام إذا ما نبذ الجانب التخميني ، وإشترط بأن لا يتدخل بالجانب العلماني ويلحق الضرر به ، ولهذا في هذه الحالة ، كان لدى هوليوك الاستعداد لان يتجاهله ، إذ حيثما تكون المسيحية أو أي دين آخر مفيداً في العالم فإنه أبدى رغبته بالتعاون مع المتمسكين به[٣] . وفي مقالة مبكرة بشأن العلمانية كتب : «**إننا لا نقول بأن كل إنسان يجب**

---

(1) Holyoake, George Jacob, English Secularism: A Confession of Belife, Chicago, The Open Court Publishing Company, 1896, p.35;

المسيري & العظمة ، المصدر السابق ، ص ١٢ ؛ وأنظر ملحق رقم -٤- .

(2) Holyoake, George Jacob, Principles of Secularism Briefly Explained, *Cowen Tracts*, Newcastle University, 1859, p.17.

(3) Holyoake, Secularism The Practical, p.4.

أن يعطي إنتباهاً مقتصراً على هذا العالم ، لان ذلك سوف يكون بمثابة إرتكاب الخطيئة القديمة وفق العقيدة الحتمية ، وإقصاء إحتمالية أن يكون هناك إنسان آخر يسير تحت ضوء مختلف عن الضوء الوحيد الذي نستطيع السير فيه ، ولكن بما أن معرفتنا محددة ضمن هذه الحياة ، فإن الشهادة والتخمين والاحتمالية جميعها قد وضعت من أجل الحياة الآخرة ، ولهذا فإننا نعتقد بإن لدينا ما يبرر قيامنا بإعطاء الاولوية لمقتضيات هذه الحالة ، وفي إجراء الربط بين أخلاقية الانسان مع آخر في المقام الاول»[١] .

وعلى إثر ذلك تصاعدت البوادر الاولى لمحاولات خلق تنظيم خاص بالعلمانيين بعد سلسلة من النقاشات الحرة التي أقيمت في قاعة العلوم في The City Road . وإندرجت مواضيع هذه النقاشات ضمن المواضيع الاجتماعية والترفيهية والتوجيهية ، كما كانت من ناحية أخرى أشبه بتمارين لممارسة حق النقاش الحر . ففي الاحتفالية الاولى التي أقيمت في ٢٩ كانون الاول عام ١٨٥١ وجّه هوليوك خطاباً بشأن «تنظيم المفكرين الاحرار» حث فيه ذوي الفكر المستقل المعادين للديانة المسيحية على الاتحاد وتعزيز تلك المواضيع التي وصفها مسبقاً بالعلمانية . وهكذا غدت جمعية النفعيين اللاهوتيين التي دعاها الان بإسم الجمعية العلمانية المركزية The Central Secular Society إتحاداً مركزياً للجمعيات المحلية . وكانت هذه الجمعيات بمثابة خلايا صغيرة ناشطة ، تلتقي إسبوعياً في منزل مخصص لنشاطاتها من أجل تنظيم أعمالها وتدريب أعضائها على الاسلوب الدعائي . في الوقت الذي كانت فيه الجمعية العلمانية الام تعطي بعض التوجيهات العامة[٢] .

لقد إتسم البرنامج الذي أصدرته الجمعية العلمانية ، بقلم هوليوك ، بالتشديد على دور الانسان ، والقول بأن المجال العلماني هو مجال الانسان بوصفه مرتكزاً له ، حيث طرحت أهدافها القائمة على :

١- الشرح بأن العلم هو الراعي الوحيد للانسان ، وهذه الحقيقة المقدرة ستجعل الإنسان قادراً على أن يصبح سيد مصيره وبالتالي ستحميه من اللجوء إلى الامور التي تبعده عن واجبه وتجعله يواجه الصعوبات وبالنتيجة تعرضه للخطر .

---

(1) The Reasoner, 19 January 1853.

(2) The Reasoner, 14 January 1852.

٢- تثبيت المسألة القائلة بأن الاخلاق مستقلة عن المسيحية ، وبمعنى آخر ، إظهار بأنه أينما توجد غاية أخلاقية مقترحة فإن طريق العلماني متجه نحوها .
٣- تشجيع الناس على الوثوق بالعقل في كافة المواقف والتيقن بأن ليس ثمة شيء لا يستطيع العقل تشكيله ، وتدقيق جميع الاشياء التي تضم الامل وإحترام جميع الاشياء المحتملة ، ولكن الاعتماد ليس على أي شيء وبخاصة الحذر من الذي لا يأتي ضمن نطاق العلم والتجربة .
٤- تعليم الناس بأن العدالة الشاملة والنقاش المفتوح للرأي هو الضمان الاعلى للحقيقة العامة . وفقط النظرية التي تعرضت إلى مخاض عسير هي الوحيدة التي يمكن الركون والوثوق بها .
٥- المطالبة لكل إنسان بنيل حرية الفكر التامة والفعل المنسجم مع إمتلاك مثل هذه الحرية مع كل شخص آخر .
٦- نظراً لعدم التأكد ما إذا كانت ظروف اللامساواة بين البشر سيتم تعويضها في الحياة الاخرى ، فإنه من الذكاء العمل على تصحيح ذلك الوضع في هذا العالم ، وبالتالي فإنه بدلاً من الانغماس في عبادة تأملية لكائنات تم إفتراض إنها متفوقة ، فإن إنسان كريم يكرس نفسه للخدمة الصبورة وتخفيف القدر القاسي لاولئك الجهلاء ، من الممكن إنه سينورهم وأن يرفع من مكانتهم المتدنية[١] .

ولكن في الحقيقة لم يتم فعل الكثير من أجل تحقيق المركزية في العمل ، ففي الوقت الذي أخذ فيه هوليوك على عاتقه في لندن تأسيس جمعيته المركزية تلك ومركزة العمل الدعائي ، إنتقلت روح المبادرة الحقيقية إلى المقاطعات الاخرى . ففي ربيع عام ١٨٥٢ إنطلق روبرت كوبر من لندن في جولة ميدانية ألقى فيها المحاضرات في أقاليم متعددة ، حيث زار نورثهامبتون Northampton ونوتنغهام وبرادفورد ، وأعلن عن وجود مدارس الاحد العلمانية ، وهو ما عدّه دليل آخر على توفر عناصر قيام التنظيم . وفي مانشستر ألقى محاضرات إتسمت بالبلاغة ، وتجمع جمهوره من كافة

(1) Holyoake, George Jacob, The Organization of Freethinkers, *Cowen Tracts*, Newcastle University, 1852, pp.3-4.

البلدات المحيطة . وكانت العلمانية تعني لروبرت كوبر الاشتراكية الاوينية ، وإقامة التنظيم يعني إنعاش الاخيرة[١] .

وجاءت الاستجابة الاولى بشأن التنظيم من لانكشاير ، نتيجة للجولة التي قام بها روبرت كوبر هناك ، وتم عقد سلسلة من المؤتمرات الاقليمية في مانشستر ، ليؤسس على إثرها ممثلي سبعة عشر منطقة في لانكشاير لجنة المقاطعة في مانشستر ، عندها دعا العلمانيون إلى عقد أول مؤتمر وطني وهو ما تم في قاعة مانشستر العلمانية Manchester Secular Hall في ٣ تشرين الاول ١٨٥٢[٢] . وعلى الرغم من إن هذا المؤتمر لم يفضِ إلى خلق أي تنظيم إقليمي أو محلي ، إلا أن الجهود التي بذلت عام ١٨٥٢ كانت قد شجعت على خلق الجمعيات العلمانية المحلية ، وهو ما أشّر بداية المرحلة الاولى للتوسع العلماني[٣] .

وعلى الرغم من ذلك ، جسّد مؤتمر مانشستر علو شخصية هوليوك نتيجة لحضوره فيه[٤] . فقد تولد لديه شك شديد فيما يتعلق بنجاح أي تنظيم ، وإعتقد بأن مقترحات روبرت كوبر غير ناضجة ، وكانت خطته تقضي بتأسيس إتحاد مرن من الجمعيات المحلية تسيطر عليه هيئة مركزية قوية[٥] . وسرعان ما قام هوليوك بوضع الملامح الرئيسة لتنظيم العلمانية الذي دعاه بالرابطة ، فارضاً تعاليمه العلمانية ورسم الاشتراك من أجل دعم عمله ، كما قام بترشيح نفسه وأصدقائه لتولي الامور التنظيمية . وبعد هذه البداية الواعدة ، لم يحدث شيء يذكر لبعض الوقت ، ولكن بعد ذلك جاءت الخطوة المؤثرة التالية من خلال تأسيس جمعية لندن العلمانية London Secular Society إثر إجتماع عقد في قاعة العلوم في The City Road برئاسة جيمس واتسون في ١ آيار ١٨٥٣ ، وسرعان ما إتخذت جمعية لندن العلمانية قرارها بإرسال الدعاة من أجل نشر ما عدته العقيدة العلمانية ، ومع ذلك ، فلم يقدر

---

(1) The Reasoner, 7, 28 April, 26 May 1852.

(2) The Reasoner, 4, 19 May, 14, 28 July, 8, 29 September, 20, 27 October, 10 November 1852; Grant, Christianity and Secularism, p.422.

(3) Royle, Victorian, p.176.

(4) The Reasoner, 20, 27 October, 10 November 1852.

(5) The Reasoner, 20 October, 22 September 1852.

لها تأسيس أي تنظيمات معمرة خارج لندن[١] .

وفي هذه الاثناء إستمرت مقاطعة لانكشاير بالتقدم ولكن ببطئ بعض الشيء ، وتمت الدعوة إلى عقد مؤتمر في ستوكبورت في ٢ تموز ١٨٥٤ تزامناً مع زيارة هوليوك . وكان روبرت كوبر يدعو إلى مؤتمر عام منذ شهر نيسان ، وإنصبت الجهود اللاحقة على إنشاء جمعية علمانية وطنية ، لكن حينما تمت الترتيبات لعقد إجتماع يضم الجمعيات العلمانية في مقاطعتي لانكشاير ويوركشاير في برادفورد مع حلول أعياد رأس السنة الميلادية ، لم يحضره سوى ممثلي جمعيات يوركشاير[٢] ؛ مما دفع هوليوك إلى الاعلان في آواخر عام ١٨٥٤ عن تأسيس مجلس الادارة الذي ضم لجنة تابعة لجمعية لندن العلمانية وهيئة مؤتمر مانشستر لعام ١٨٥٢ ، تحت زعامته . لقد ضمت لجنة جمعية لندن العلمانية عام ١٨٥٤ السواد الاعظم من زعماء العلمانية في لندن ، إذ كان جيمس واتسون رئيساً لها وسرعان ما حل محله هوليوك في عام ١٨٥٥[٣] . وعلى الرغم من الجهود التي بذلت من أجل إقامة تنظيم يحقق التواصل مع الجمعيات الاقليمية العديدة إلا أنها لم تتحقق ، ويعود السبب في ذلك إلى عدم إكتراث هوليوك ومعارضته لاساليب عمل تلك الجمعيات[٤] ، فضلاً عن رغبته في تزعم جميع نشاطات الجمعيات العلمانية ومحاولة إدارتها وفقاً لرؤيته[٥] .

لقد غدا مفهوم العلمانية الذي نحته هوليوك لاول مرة في الادبيات الفكرية له صداه وإنعكاسه في المحاولات المبكرة لتكريس الجهد العلماني والحركة العلمانية الوليدة من خلال تنظيم وتأسيس ، لاول مرة ، جمعيات إتخذت أسماء العلمانية عنواناً لها لتعكس بذلك توجهها الفكري . وبالتزامن مع رواج تلك المحاولات غدت المحاولات المبكرة لعلمنة Secularization المجتمع الفكتوري تلقى صداها في الصحافة العلمانية وتؤثر بالتالي على الجو الفكري فيه .

(1) The Reasoner, 18 May, 1, 8 June, 7 September, 5 October 1853.

(2) The London Investigator, April, December 1854; The Reasoner, 23 July, 6 August, 24 December 1854, 14 January 1855.

(3) The Reasoner, 31 December, 4 June 1854, 15 April, 27 May 1855; The London Investigator, June 1855.

(4) The Reasoner, 17 June, 23 December 1855, 28 June 1857.

(5) Royle, Victorian, p.178.

رابعاً: المالثوسية الجديدة Neo-Malthusianism وأثرها في علمنة المجتمع الفكتوري ونتائجها

في الوقت الذي شهدت فيه المعتقدات الدينية تحديات جمة زعزعت الموقع المؤثر الذي تشغله في المجتمع الفكتوري، أخذت الافكار المتعلقة بتحديد النسل Birth-Control والتنظيم الاسري[1] تلقى صداها في الرأي العام الفكتوري. وبرز تأثير شيوع تلك الافكار على أبناء الطبقة الوسطى بالذات، نظراً لما لوحظ على الاخيرة من الانصراف عن المؤثرات الدينية بسبب إنسياقها إلى الحركة العلمانية بدون وعي أملاً بالاهتمام بمتع العصر من جهة، والجهل بالمستقبل من جهة أخرى[2]. وعليه، ينبغي التأكيد هنا إن هذا التوجه غير الواعي نحو العلمانية لم يحدث التغيير المرجو في نظام المعتقدات الاسرية لعوائل الطبقة العاملة بالمستوى الذي يمكن ملاحظته ومقارنته في نطاق التغيير لدى عوائل الطبقة الوسطى التي تغيرت إعتباراتها المتعلقة بمعيار السلطة الوالديّة Parenthood[3] وإرتباطها في نمط حياتها ومخالفة إرث الاجداد الديني[4]، فلم يقتصر ذلك التغير على مجرد عدم الذهاب إلى الكنيسة بل تخطاه في القيام بإعادة تفسير التعاليم المسيحية وفقاً لآرائها الخاصة[5].

إن الجدل بشأن قضية السكان الذي إستولى على إهتمام الفكر الاقتصادي طوال العشرين سنة الاولى تقريباً من القرن التاسع عشر، كان إلى حد ما بمثابة ردة فعل ضد أفكار الثورة الفرنسية. فحينما قام توماس روبرت مالثوس Thomas Robert

---

(1) Campbell, F., Birth Control and The Christian Churches, *Population Studies*, 1960, Vol. 14, pp.131-147.

(2) Banks, J. A., Victorian Values: Secularism and The Size of Families, First Published, London, Routledge & Kegan Paul Ltd, 1981, p.10.

(٣) السلطة الوالديّة : مصطلح يعني سلطة الاب والام على الابناء، وترتدي غالباً شكل الوصاية حتى البلوغ، ومن إهتمامات هذه السلطة تحديد النسل بحدود الامكانات الاقتصادية المتاحة إجتماعياً.
أنظر : خليل، خليل احمد، معجم المصطلحات الاجتماعية : عربي- فرنسي- انكليزي، ط١، بيروت، دار الفكر اللبناني، ١٩٩٥، ص٣٩٧.

(4) Hawthorn, Geoffrey, The Sociology of Fertility, London, 1970, p.127.

(5) Banks, Victorian Values, p.10.

Malthus[1] بنشر الطبعة الاولى من مقالته الشهيرة «عن أصل السكان» عام ١٧٩٨ ، هدف من ورائها تفنيد المفاهيم التي تقول بأن الانساق الاجتماعية المنقوصة تعد السبب الرئيس وراء بؤس البشر وإن التحول في العلاقات الاجتماعية ، الواجب توفيره ولو بالقوة ، يعد من الامور الاساسية للإنسانية إذا ما أرادت الوصول إلى الكمال . إن هذه المفاهيم كانت في عُرف مالثوس خاطئة ، إذ إعتقد أن معاناة الناس تكمن فيهم ، فعلى الرغم من بذل الجهود من أجل تغيير بنى الانساق الاجتماعية إلا أنها ستظل قاصرة ، وفقاً لرؤيته ، ما دام هناك نمو هائل في أعداد السكان ، وهي النتيجة الحتمية ، الأمر الذي سيؤدي إلى إعادة خلق البؤس والشقاء[٢] .

ولهذا وجد أنصار المدرسة المالثوسية ، في ضوء الازدياد السكاني ، أن لا مناص من إتخاذ وسائل تساعد على تحديد النسل عبر التخلي عن إنجاب الاطفال والقيام بعملية الاجهاض والامتناع المنتظم عن ممارسة التواصل الجنسي . لقد سبق وأن تعرض مالثوس إلى إعتراضات شديدة تجاه فكرته القائلة بتحديد النسل ، ودخل على إثرها في مناظرات عكس بعضها الحس الديني وبالذات هيمنة التعاليم الانكليكانية وموقفها المعارض من تلك المسألة ، وكان الاعتراض المطروح هو الزعم القائل بأن : «**الامر الحقيقي للرب هو في زيادة ومضاعفة وملء الارض**»[٣] ، الذي أجاب

(١) توماس روبرت مالثوس (١٧٦٦-١٨٣٤) : عالم إقتصادي وسكاني إنكليزي أشتهر بنظريته عن النمو السكاني التي تقول بأن عدد السكان يتزايد بنسبة تفوق إزدياد الموارد الغذائية ، وأن إزدياد السكان يتم بمتوالية هندسية ، أما الموارد الغذائية فتتزايد بمتوالية عددية ، وأن اختلال التوازن بين الاثنين يتم تسويته عبر الحروب والاوبئة والحد من الزواج من أجل التحكم بالنسل . وطرح أفكاره تلك في مقالته الشهيرة التي صدرت لاول مرة في عام ١٧٩٨ تحت عنوان : «مقالة عن أصل السكان وتأثيره على تطور المجتمع في المستقبل» . أنظر :

Habakkuk, H. J., Thomas Robert Malthus, F.R.S. (1766-1834), *Notes and Records of The Royal Society of London*, The Royal Society, Vol.14, No.1 (Jun., 1959), pp.99-108; Petersen, William, Malthus and The Intellectuals, *Population and Development Review*, Population Council, Vol.5, No.3 (Sep., 1979), pp.469-478.

(2) Banks, Victorian Values, p.12.

(3) Malthus, Thomas R., An Essay on The Principle of Population: As it Affect The Future Improvement of Society, 4th edn, London, 1817, Vol.2, p.430.

عنه مالثوس بالقول : «**إني أعتقد بأن إشارة الرب بأن الارض من الواجب ملؤها ، هي بالتأكيد من خلال صحة السكان وإستقامتهم ، لا من خلال إلحاق الضرر والبؤس بهم**»(١) .

لقد إرتكز المفهوم المالثوسي المتعلق بإحتمالية الوصول إلى تحقيق الكمال للفرد على مفهوم القيد أو الضبط الاخلاقي Moral Restraint الذي إستمد جذوره من التعاليم المسيحية المتمثلة بالتعفف في العلاقات في مرحلة ما قبل الزواج أو من الممارسة خارج إطار العلاقة الزوجية(٢) . ولهذا رأى مالثوس إن تطبيق التحكم بالنسل يمر عبر الارتباط بإمرأة واحدة فقط ، ولذلك عّد مجامعة أكثر من إمرأة وخيانة الزوجة من خلال مضاجعة إمرأة أخرى أساساً للرذيلة(٣) . وعلى الرغم من ذلك ، فقد إعتقد مالثوس أن الزواج بدون توفر الوسائل الكفيلة لإعالة الاطفال هو تجاوز على إرادة الخالق ، على إعتبار أنه سيغدو عبئاً على المجتمع وإنتهاكاً للواجبات وإرضاءً للرغبات . ولهذا إعتقد بأن على الازواج أن يمارسوا أيضاً القيد الاخلاقي في سبيل تحديد حجم أسرهم(٤) .

وعلى الرغم من ذلك ، واجه أنصار تحديد النسل أو ما باتوا يعرفون بالمالثوسيين الجدد(٥)أصحاب دعوة منع الحمل Contraception ، في عشرينيات القرن التاسع عشر وثلاثينياته ، الكراهية والتضييق . فقد نظر الرأي العام إزاء هذه الوسائل على أنها

الراديكالي البريطاني فرانسيس بليس Francis Place (١٧٧١-١٨٥٤) ، إذ لم يذكر إسمه في يوم من الايام ، لغاية وفاته ، في المطبوعات من دون الاساءة إليه أو إدانة آرائه المتعلقة بتحديد النسل ، وبالذات حينما طرح فكرة إستخدام الاسفنجة المهبلية

(1) Malthus, Op. Cit., Vol.2, p.433.

(2) Glass (ed.), David V., Introduction to Malthus, London, 1953, p.153.

(3) Banks, Victorian Values, p.18.

(4) Malthus, Op. Cit., 1803, Vol.2, pp.505-506, 1817, Vol.3, pp.105, 179.

(٥) من أجل متابعة مفصلة بشأن المالثوسية الجديدة ، أنظر : زكي ، رمزي ، المشكلة السكانية : وخرافة المالتوسية الجديدة ، الكويت ، سلسلة كتب عالم المعرفة رقم ٨٤ ، ١٩٨٤ .

أو السدادة بدلاً من الامتناع الكامل عن الممارسة الجنسية[١] . كما لاقى كارليل التضييق ذاته حينما نشر مؤلفه المعنون : «كتاب كل إمرأة» ، أو كراسته المنشورة عام ١٨٢٦ تحت عنوان : «ماهو الحب؟» التي أُحرقت علناً لانها تناولت وسائل منع الحمل[٢] . وعلى الرغم من ذلك حقق الاشتراكي روبرت ديل أوين Robert Dale Owen (١٨٠١-١٨٧٧) حينما نشر في عام ١٨٣٠ كُتيّبه المعنون : «علم وظائف الاعضاء الاخلاقي» حضوراً لافتاً في مناقشات الزعماء العلمانيين والرأي العام ، الذي إقترح فيه سحب الرجل لقضيبه تدريجياً في أثناء الجماع من أجل القذف خارج المهبل ، حيث عدها وسيلة لمنع الحمل . كما لاقى المؤلف المجهول تحت الاسم المستعار Anti- Marcus المعنون : «ملاحظات عن القضية السكانية» الصادر عام ١٨٤١ الامر ذاته[٣] .

في الواقع لم تنتعش دعوات تحديد النسل ومنع الحمل مثلما إنتعشت في المنشورات التي تولتها الحركة العلمانية ومروجي الفكر الحر ، بحيث غدت جزءً من الفلسفة العامة للحياة التي لم يكن الدين جزءً مؤثراً فيها ، وبالتالي سهلت من إحتمالية ذيوع ما بات يعرف بالوسط العلمي الاجتماعي بالترشيق الهادئ Quiet Percolation في تطبيق المنهجية الخاصة لتقليص حجم العوائل[٤] . وعلى الرغم من

---

(1) Wallas, Graham, The Life of Francis Place 1771-1854, London, 1918, p.169; Robinson, Warren C., Population Policy in Early Victorian England, *European Journal of Population*, kluwer Academic Publishers- Printed in The Netherlands, Vol. 18, No.2 (2002), p.164.

(2) Himes, Norman E., McCulloch's Relation to The Neo- Malthusianism, *Journal of Political Economy*, Chicago, 1929, Vol.37, pp.74-83.

(3) Himes, Norman E., Birth Control in Historical and Clinical Perspective, *Annals of The American Academy of Political and Social Science*, Sage Publications Inc., Vol.160, (Mar., 1932), p.52; Langer, William L., The Origins of The Birth Control Movement in England in The Early Nineteenth Century, *Journal of Interdisciplinary History*, The MIT Press, Vol.5, No.4, The History of the Family, II (Spring, 1975), p.679.

(4) Himes, Norman E., The Medical History of Cotraception, New York, Gamut Press, 1963, p.230.

عدم وجود أي نص في التعاليم الانكليكانية المهيمنة آنذاك يمنع تقليص حجم العوائل ، فإن مجرد تأييد العلمانيين للوسائل الصناعية لمنع الحمل ومن ضمنها الواقي الجنسي الذكري Condom[١] كان قد عني وضع كل من يدعم مثل وسائلا كهذه بموضع الشبهات وإتهامه بتبني الرؤية العلمانية في ميدان تحديد النسل والسير نحو أن يكون علمانياً[٢] . وعلى الرغم من ذلك ، فقد شاعت في الكراسات ، مع مطلع العصر الفكتوري ، الاشارة إلى إستخدام الواقي الذكري والغسل المهبلي بوصفهما وسائلاً لمنع الحمل[٣] .

وفي الوقت الذي أولت فيه الصحافة الراديكالية العلمانية طروحات المالثوسيين الجدد الاهتمام ، كان لنشر الطبيب والناشط العلماني في الجمعية العلمانية جورج آر . درسديل George R. Drysdale (١٨٢٤-١٩٠٤) كتابه المعنون : «عناصر العلوم الاجتماعية : أو الجسدية والجنسية والدين الطبيعي» عام ١٨٥٥[٤] دوره المهم في

(١) في الحقيقة إن إستخدام الواقيات الجنسية لكلا الجنسين كان شائعاً في الحضارات القديمة أيضاً لاسباب تعلقت بالحفاظ على الشرف ومنع الاعتداء الجنسي ، وشمل ذلك ما عرف بحزام العفة Chastity Belt . أما فيما يتعلق بتطور صناعة الواقي الذكري في إنكلترا فتعود أول إشارة للاستخدام حوالي عام ١٧٠٠ بهدف الحماية من الاصابة بمرض الزهري الجنسي ، وفي وقت لاحق شهد تطوراً صناعياً تمثل في صناعته من مادة المطاط المُكبرت Vulcanized Rubber (أي المعالج بمادة الكبريت) خلال السنوات ١٨٣٩-١٨٤٤ بدلاً من مادة أمعاء الخراف التي كانت شائعة سابقاً . أنظر :

Walle, Étienne Van De, Birth Prevention Before The Era of Modern Contraception, *Population & Societies*, No.418, December 2005, pp.2-3; Miller & Others, History of Condoms, Alphascript Publishing, 2010; Classen, Albrecht, The Medieval Chastity Belt: A Making Process, Palgrave Macmillan, 2007; Lieberman, Janet J., A Short History of Contraception, *The American Biology Teacher*, University of California Press, Vol. 35, No. 6 (Sep., 1973), pp.315-318, 337.

(2) Banks, Victorian Values, p.20.

(3) Himes, The Medical, p.214.

(٤) بحلول عام ١٨٩٢ بلغت عدد الطبعات ٢٩ طبعة ، وبيع منه ٧٧ ألف نسخة ، كما تم ترجمته إلى العديد من اللغات الاوربية . أنظر :

Langer, Op. Cit., p.658.

الترويج للافكار المتعلقة بتحديد النسل والصحة الجسدية . وعلى الرغم من الحضور اللافت الذي حققه هذا الكتاب إلا أن مؤلفه إرتأى نشره تحت إسم خفي هو «متخرج من الطب» خوفاً من إلحاق الاذى به وبأقاربه ، نظراً لما تثيره تلك المواضيع آنذاك من ردات فعل معاكسة تتسم بالتطرف تجاه من يروج لها[١] .

لقد شخّص درسديل ، في كتابه هذا ، ثلاث مشكلات إجتماعية أساسية هي الفقر والدعارة والعنوسة . وتطلع إلى تحقيق دين يكون بديلاً عن المسيحية ، ويمنح أتباعه تقديراً للجسد الانساني ، وبالتالي يستبدل ، ما عّده ، إضطهاد المسيحية للروح ، حيث كتب : «**لم يعد ما إذا كان الانسان يملك ، أو لا ، إيماناً عميقاً وراسخاً بالمعتقد الديني ، بل إعتقاده بالدين الخارق للطبيعة أم بالطبيعة . . . دعونا لا نعمد إلى خداع أنفسنا ، فلا قدرة لنا على أن نعبد سيدين في الوقت ذاته ، فالايمان بالرب يعني عدم الايمان بالطبيعة**»[٢] . وتأسيساً على وجهة النظر هذه ، رأى بأن التأكيد المسيحي على الروح يمثل عائقاً أمام التقدم ، وذلك لانه يمنع المؤمن من أن يربط نفسه ، على نحوٍ إيجابي ، مع المساعي الرامية إلى تحقيق الصحة الجسدية والعقلية[٣] .

وطور درسديل من فرضيته تلك في كل طبعة جديدة تصدر من كتابه ، ولهذا فقد تناول موضوع العلوم الاجتماعية في محاولةً منه لاظهار حقيقة المالثوسية وفرضيتها للسكان ، وبناءً عليها إقترح الاتصال الجنسي الوقائي Preventive Sexual Intercourse بوصفه العلاج الوحيد ، وذكر بشأن ذلك : «**هناك حاجة ملحة للمنع وللضبط الايجابي للسكان ، فهناك الفقر والموت المبكر من جهة ، وهناك الاحجام عن الجنس أو إساءة الممارسة فضلاً عن الدعارة . الخيار المتاح أمامنا**

---

(1) Banks, Victorian Values, p.24; McLaren, Angus, Contraception and The Working Classes: The Social Ideology of The English Birth Control Movement in Its Early Years, *Comparative Studies in Society and History*, Cambridge University Press, Vol.18, No.2 (Apr., 1976), p.250.

(2) Drysdale, George, The Elements of Social Sience: or Physical, Sexual, and Natural Religion, 3rd edn, London, 1860, p.446.

(3) Drysdale, Op. Cit., pp.1-3.

في الوقت الراهن هو ذاته الذي كان متاحاً أمام أسلافنا ، وهو الخيار بين القيد الاخلاقي والرذيلة والبؤس»[١] . ومن أجل تحقيق كسب يساعد في تفهم وتجاوز تلك المعضلات الحياتية شدد درسديل على ضرورة اللجوء إلى الاتصال الجنسي الوقائي الذي قصد به القيام بالعملية الجنسية بعد إستخدام الوسائل الوقائية التي تحول دون حدوث الحمل ، لانه وفق وجهة نظره ، سيحقق غايتين في وقت واحد هما : ممارسة الحب ، والاخرى عدم التسبب في الوقوع في شرك التكاثر المبالغ فيه وبالتالي ما إفترضه من عوز بالغذاء بالمحصلة[٢] .

لقد مثّل درسديل في الواقع إنموذجاً بارزاً لوجهة نظر الحركة العلمانية من قضية تحديد النسل ، تلك الوجهة التي وقفت بشدة بالضد من الاخطاء المحددة والتخمينية لما عُد إنه دين خارق للطبيعة إزاء القضية السكانية ، وفي الوقت نفسه أكدت وجهة النظر تلك على ضرورة تأييد الحقائق الاخلاقية المختبرة ضمن نطاق الحياة من خلال التجارب الشخصية[٣] . في المقابل عدّ الرأي العام المسيحي مجرد التحدث في الأوساط المسيحية بأمور تتعلق بإرضاء الشهوات من القضايا المعيبة ، وأن مجرد تفنيد العقائد هو توجيه إهانة بالغة للاخلاق المسيحية القائمة[٤] .

وعلى الرغم من ذلك ، فقد ذاع موقف الحركة العلمانية من مسألة تحديد النسل من خلال منع الحمل وتحجيم الاسر ، على نطاق ضيق على نحو سري ؛ إذ إنتمى قراء تلك المواضيع في الدوريات العلمانية للطبقة العليا والشرائح العليا من الطبقة الوسطى ، ولا سيما حينما تناولت دورية The National Reformer بمقالاتها إبتداءً من عام ١٨٦٠ مواضيع تحديد النسل ، على الرغم من إنقسام محرريها أمثال برادلو

---

(1) Banks, Victorian Values, p.26.

(2) Drysdale, Op. Cit., p.351.

(3) Banks, Victorian Values, p.27.

(4) Rickards, George K., Population and Capital: Being a Course of Lectures Delivered Before The University of Oxford in 1853-1854, London, *Longman, Brown, Green, and Longmans*, 1854, p.195.

وجـــوزف باركر جراء التنافس بشأن مواضيع عدة بضمنها المالثوسية الجديدة[١] .
ومع ذلك ، فـقـد أنشـأ برادلو مع درسـديل في عـام ١٨٦١ العـصـبـة المالـثـوسـيـة Malthusian League التي مـثلت إتجـاهاً جـديداً لدمج الفكر الحـر بقـضـايا تحـديد النسل[٢] ؛ حيث عقب برادلو في عام ١٨٦٢ على ذلك قائلاً : «**لقد تحققنا من أن لدينا معارضة ضارية وحادة تواجهنا نتيجة لتبنينا لآراء مالثوس أكثر من تلك التي تعرضنا لها جراء آرائنا الاكثر حدة تجاه اللاهوت**»[٣] .

ومع أن أعداد أنصار الحركة العلمانية لم يكن بالكبير ، إلا أن تأثير هؤلاء قد ألقى ، كما يبدو ، بظلاله على أصدقائهم وأقاربهم الذين إحتكوا بهم حتى وإن لم ينضموا إلى الحركة العلمانية ، وبالمحصلة لقيت تلك الافكار طريقها إلى الحرفيين .
ومن خلال التحليل المتأني الذي أجراه المؤرخ رويل لابراز الشواهد على أن قلة من أنصار الحركة العلمانية هم من مارسوا عملية التحجيم الاسري على نحو مستمر وناجح ، ولا سيما أولئك أرباب الاسر من أصحاب المهن وشبه المهن المستقلة[٤] .
وهناك مثال إستثنائي أشار ، على نحو مباشر ، بين إعتناق الطروحات العلمانية وتطبيق مبدأ التحجيم الاسري . ففي الوقت الذي كان فيه حائكو النسيج في مناطق

---

(1) The National Reformer, 31 August 1861, 8 August 1863; The Barker's Review, 9 November 1861, 1 February, 31 May 1862; Robertson, John, M., Charles Bradlaugh: A Record of His Life and Work By His Daughter Hypatia Bradlaugh Bonner, London, T. Fisher Unwin, 1894, Vol.I, pp.120-126.

(2) The National Reformer, August 22, 1863; McGee, John Edwin, A History of The British Secular Movement, E. Haldeman- Julius Publication, 1948, p.22.

(3) Tribe, David, President Charles Bradlaugh, M. P., London, 1971, p.83.

(٤) في الواقع كان تحليل المؤرخ رويل أكثر واقعية من زعم الباحثة سوزان بد القائل بأن مناطق تعدين الفحم والصناعات الثقيلة في إنكلترا هي من شهدت إنتعاشاً للعلمانية . أنظر :
Royle, Victorian, pp.233-244; Budd, Susan, The Loss of Faith: Reasons for Unbelief Among Members of The Secular Movement in England 1850-1950, *Past & Present*, Oxford University Press on behalf of The Past and Present Society, No. 36 (Apr., 1967), p.107.

الشمال الغربي هم الاكثر تقبلاً للعلمانية[١] ، كانت زوجات حائكي القطن أدنى مستوى من الانجاب بالمقارنة مع زوجات حائكي النسيج ، ويعود السبب في بعض جوانبه إلى أن أرباب الاسر ، من معتنقي فكرة تحجيم الاسر ، من حائكي القطن كانوا من أقل الشرائح الاجتماعية حضوراً في الكنائس منذ منتصف القرن التاسع عشر[٢] .

كان جزء كبير من المالثوسية الجديدة قد لاقى رواجاً عند العلمانيين ، فقد رأى الاخيرون في دعوة منع الحمل مجالاً فكرياً جديداً لحل القضايا الاجتماعية الخلافية المتعلقة بالقضية السكانية من جهة ، وتحقيق غاية إشاعة الافكار الجديدة الجاذبة في دورياتهم لما لها من إسهام في تعجيل الحرية الفكرية وخلق الفضاء الحر للعلمانية في النقاش من جهة أخرى . فقد أدى تطور العلوم الاجتماعية إلى تنبه النخبة الثقافية الواعية إلى متطلبات التحولات الاجتماعية التي كان من جملتها مسألة تحديد النسل والخوض في تفاصيله الحياتية الدقيقة ، تلك الامور التي كان يجهلها المتزمتون الدينيون الذين إفترضوا إن أي عملية زواج هدفها الانجاب وأن أي محاولة لمنع ذلك هو وقوف بالضد من إرادة الخالق ، في الوقت الذي طرح فيه المالثوسيون الجدد ومروجوهم العلمانيون أن هذا الامر يتعلق برغبة الافراد المتزوجين على نحو إختياري وليس إلزامي ؛ مما عني بالتالي سحب الوصاية الفكرية الدينية على عملية البناء الاجتماعي القيمي ذي البعد الديني للاسرة الانكليزية في المجتمع الفكتوري ومنحها إطاراً مدنياً جديداً .

خامساً: الإستجابة الإصلاحية الاولى للرؤى العلمانية: دخول اليهود البرلمان البريطاني عام ١٨٥٨ وتقليص العوائق الدينية Religious Disabilities

لم يكن من قبيل المصادفة ولا المستغرب ، في ظل إنتشار الرؤى العلمانية عبر دوريات وأدبيات الفكر الحر العلماني في العصر الفكتوري ، أن تحظى تلك الرؤى والطروحات العلمانية بإستجابة سياسية قدر لها أن تكون واحدة من أهم منجزات

---

(1) Royle, Victorian, p.239.

(2) Banks, Victorian Values, p.29.

الاصلاح السياسي في ميدان التحول المدني في العصر الفكتوري ، فضلاً عن إسهامها في وضع المحددات المدنية والاعتبارات الاجتماعية بموضع الاختبار الفعلي في قلب البرلمان البريطاني الذي هو من أبرز معالم التطور السياسي في المملكة المتحدة . وبصرف النظر عن تباين وجهات النظر وإختلاف المصالح السياسية آنذاك بشأن تناول مسألة الحرية المدنية وضرورة إزالة العوائق بكافة أوجهها ومن ضمنها العوائق الدينية من أجل إرساء مفهوم المواطنة السليمة الذي يصب في صالح مفهوم المساواة وخلق قاعدة سياسية ترتكز على مفهوم علماني- مدني صرف ، إلا أن التمييز الذي حظيت به بعض الطوائف الدينية[١] ، ومنها الطائفة اليهودية ومن ثم نيل حقها في شغل مقاعد برلمانية[٢] ، كان قد مثّل نقطة جوهرية في تقييم التساؤل

(١) كالمنشقين البروتستانت عن الكنيسة الانكليزية Nonconformists ، أو ما عرفوا بالمنشقين Dissenters : جاءت تسميتهم من Non Conform أي من لا يتوافق مع تعاليم وممارسات الكنيسة الانكليزية القائمة . تاريخياً كانت سلاسل قوانين الانسجام Acts of Uniformity التي صدرت منذ عام ١٥٥٩ وما بعدها قد شملت طيفاً واسعاً من المذاهب المنشقة ، فعلى سبيل المثال دعا مرسوم عام ١٦٦٢ إلى إعتبار أياً من الرعايا الانكليز من لا تكون ديانته المسيحية أو كنيسته ليست الكنيسة الانكليكانية هو منشق . ولهذا عُد في السابق أيضاً البيوريتاني والمشيخي كلاهما منشقين . نال المنشقين بحلول عام ١٨٥٤ بعضاً من رفع العوائق التي تحول دون تمثيلهم سياسياً ، فضلاً عن بعض القيود على عباداتهم قد أزيلت أيضاً . أنظر :

Kenyon, Op. Cit., p.259; Dicey, A. V., Lectures on The Relation Between Law & Public Opinion in England During The Nineteenth Century, London, Macmillan and Co., Limited, 1914, p.344.

(٢) لم يتخط العدد التقديري لليهود في بريطانيا في بداية القرن التاسع عشر عن ثمانية الآف نسمة ، إذ بلغ في لندن وحدها ستة الآف نسمة ، وبلغ تقريباً في منتصف القرن التاسع عشر خمسة وعشرون الفاً ، وكانت الزيادة بطيئة نسبياً حتى نهاية العصر الفكتوري في عام ١٩٠١ ، حيث قدر العدد الكلي تقريباً بربع مليون نسمة في كافة أرجاء الامبراطورية البريطانية . أنظر :

http://www.jewishencyclopedia.com/view.jsp?artid=375&letter=E#974;http://www.jcpa.org/dje/articles3/british.htm; Adler (ed.), Cyrus, The American Jewish Year Book: September 14, 1901, To October 1, 1902, Philadelphia, The Jewish Publication Society of America, 1901, p.159.

الذي مفاده : هل أُنجزت إصلاحات ذات بعد مدني- علماني في الميدان السياسي خلال العصر الفكتوري؟

لقد مثلت مسألة التحرير اليهودي Jewish Emancipation ، من وجهة نظر المؤرخين الانكليز ، مجرد مرحلة متأخرة في العملية البطيئة للابتعاد عن التمييز المدني Civil Discrimination ضد الاقليات الدينية ، وهي عملية شملت تدمير المفهوم التقليدي للحلف بين الكنيسة والدولة القائم بين الكنيسة الانكليكانية والسلطة الملكية . أما فيما يتعلق باليهود فإن التحرير كان بمثابة منح فرصة حق التساوي والاعتراف الاجتماعي والسياسي من أبناء بلادهم غير اليهود ، وبالتالي فقد نظر اليهود إلى إنجاز التحرير ، مثلما نظر المنشقون البروتستانت عن الكنيسة الانكليزية قبلهم ، بأنه قد ألغى ما وصفوه بأنه وصمة العار التي لحقت بهم جراء القوانين غير المتكافئة التي خضع لها المجتمع بأسره وفقاً لوجهة نظرهم(١) .

شغل اليهود مكانة قانونية قلقة في بريطانيا ، فعلى الرغم من أن قانون التجنيس اليهودي Jewish Naturalization الذي طرح عام ١٧٥٣ الخاص بالمولودين اليهود خارج إنكلترا قد عالج إحتمالية إعتبارهم مواطنين في إنكلترا ، إلا أنه سرعان ما تم إلغاؤه مباشرة عام ١٧٥٤ بعد معارضة كبيرة إتسمت بالحدة في مجلسي العموم واللوردات(٢) . في الواقع ألقت تبعات التقييدات التي مارستها الحكومات المتعاقبة في إنكلترا ، تجاه قضايا الحريات ومن ضمنها الحريات الصحفية ، التي ناضل العلمانيون من أجل التخلص منها ، بظلالها على مجمل الاحكام الخاصة ، وبالذات حينما طرحت تلك التقييدات في موضع التنفيذ التي تم اللجوء لها لتنظيم الصحافة

---

(1) Henriques, Ursula, Religious Toleration in England 1787-1833, London, 1961, pp.179-180; Henriques, H. S. Q., The Jews and The English Law, Oxford, 1908; Roth, C., History of The Jews in England, London, 1941, Chap.XI, pp.239-263; Lipman, V. D., The Age of Emancipation, in: Lipman, V. D. (ed.), Three Centuries of Anglo- Jewish History, Cambridge, 1961, pp.69-106.

(2) Henriques, U. R. Q., The Jewish Emancipation Controversy in Nineteenth-Century Britain, *Past & Present*, Oxford University Press on behalf of The Past and Present Society, No.40 (Jul., 1968), p.126.

تحت مسمى قوانين الضمان Security Laws في سبيل منع حق النشر ضد ما اعتقد إنها تصريحات مسيئة أو تحريضية ضد المسيحية ، لتنسحب تلك التقييدات على وضع العديد من اللوائح والقوانين التي تحول بالمحصلة النهائية دون تحقيق المساواة بين مواطني إنكلترا[١] .

كان من أبرز تلك التقييدات جلاءً هي ما عرفت بقوانين أو مراسيم الاختبار Test Actsفي عام ١٦٧٣ التي هدفت إلى وضع إختبار خاص أمام المتقدم من أجل إشغال منصب عام سواء مدني أو عسكري يقضي بتناول الخبز المقدس طبقاً للطقس المسيحي[٢] ، فضلاً عن مرسوم عام ١٦٧٨ ، الذي لم يسمح بعضوية الكاثوليك في مجلسي العموم واللوردات[٣] . وبناءً عليه ، لم يقدر للطوائف الدينية ، التي لا تدين بمذهب الكنيسة الانكليكانية ، أن تلعب دوراً مؤثراً في الحياة السياسية ، لينسحب الامر ليس فقط على الطوائف الدينية المسيحية التي عدت منشقة أمام محددات هذه المراسيم ، وإنما شمل بالتطبيق ، وإن لم يشمله مضموناً ، منع الطائفة اليهودية من الحصول على الامتيازات ذاتها التي تمتع بها أقرانهم الانكليكانيين .

وبقي اليهود لغاية عام ١٨٢٨ مستبعدين من الحصول على أي منصب مرتبط بالتاج ، على الرغم من إلغاء قوانين الاختبار في ذلك العام ، ومن عضوية البرلمان ، ومن أغلب الوظائف التي توجب إشغالها إختبارات دينية . وهكذا شغل اليهود مكانة وضيعة ضمن إطار العوائق التي فرضتها الكنيسة الرسمية على الذين يقعون خارج

---

(1) McGee, Op. Cit., p.5.

(٢) عوض ، المصدر السابق ، ص ٢١١ ؛ قرم ، المصدر السابق ، ص ١٦٤ .

(٣) على الرغم من صدور هذا المرسوم في عهد الملك تشارلز الثاني Charles II (1685-1660/1685-1630) المعروف بتعاطفه مع الكاثوليك ؛ إلا أنه قد جاء نتيجة لدور البرلمان في كبح ذلك التعاطف ولا سيما بعدما أشيع عن علاقات سرية بين الملك وفرنسا آنذاك . أنظر :

Encyclopedia Britannica, CD., 2010; Brockett, Allan, Nonconformity in Exeter 1650-1875, Manchester, Manchester University Press, 1962, p.39; Tapsell, Grant, The Personal Rule of Charles II 1681-85, First Published, Suffolk, The Boydell Press, 2007, pp.31-35.

نطاق رعايتها[١] . وعلى الرغم من السماح للكاثوليك بالدخول بوصفهم أعضاءً في البرلمان البريطاني طبقاً لصدور مرسوم تحرير الكاثوليك لعام ١٨٢٩ ، فقد بقي اليهود الاقلية الدينية الوحيدة التي وقع على عاتقها عائق التمثيل السياسي . ومن أجل ترسيخ سياسة الاقصاء تجاه الاقليات الدينية عمد مجلس اللوردات إلى إبدال صيغة الاختبار عن طريق تناول الخبز المقدس بتصريح أشار بأن المرشح سيمنع من إستخدام سلطته في سبيل إلحاق الضرر أو إضعاف الكنيسة البروتستانتية وفقاً لما تم تثبيته قانونياً ، أو أن يقلقٍ عمل الكنيسة أو الاساقفة ورجال الدين في إمتلاكهم لامتيازاتهم وفقاً لعبارة : «**بناءً على الايمان الحقيقي للمسيحية**» . وعلى الرغم من أن صياغة هذه العبارة قد جاءت من أجل إقصاء المنشقين على الكنيسة الانكليزية ، إلا أن الكويكرز Quakers[٢] إستطاعوا نيل حق التأكيد Right of Affirmation للدخول في البرلمان في عام ١٨٣٣ بدلاً من القسم المعتاد الذي فرض عليهم جراء التقييدات السابقة[٣] .

لقد جعلت تلك العبارة اليهود ، مثلما قال مناصريهم ، ينظر إليهم بوصفهم قضية ثانوية ، وفي الوقت الذي تم فيه الإستغناء عن قوانين الاختبار المقدس لصالح

---

(1) Henriques, Religious, pp.179-80.

(٢) الكويكرز : (أو جمعية الاصدقاء Society of Friends) مذهب المنشقين عن كنيسة إنكلترا ، قام بتأسيسه المبشر الانكليزي جورج فوكس (١٦٤٢-١٦٩١) . أشتق إسمهم من الرجفان «الاهتزاز» الروحاني في أثناء إجتماعاتهم . تخلى الكويكرز عن حق العقيدة ، والدفع للقساوسة البروتستانت ، والخدمات الرسمية ، وأدى قسمهم الخاص إلى أن يكونوا أهدافاً للاضطهاد الديني . تم التساهل معهم تحت سلطة حكومة كروموبل (١٦ كانون الاول ١٦٥٣-٢٥ مايس ١٦٥٩) ولكنهم عانوا من قانون كلارندون المفروض من خلال سلسلة من الاجراءات البرلمانية لتثبيت الكنيسة الانكليكانية (١٦٦١-١٦٦٥) . أسس وليم بن عام ١٦٨١ بنسلفانيا بوصفها ملتجأ للكويكرز . وغدوا مندمجين على نحو كبير بالافعال الحياتية بعد مرسوم التسامح لعام ١٦٨٩ . قادوا حملة مناهضة للاسترقاق في القرن الثامن عشر . أنظر :

Kenyon, Op. Cit., pp.293-294.

(3) Davis, Joseph, A Digest of Legislative Enactments: Relating to The Society of Friends Commonly Called Quakers in England, London, Edward Marsh, 84, Houndsditch, 1849.

مراسيم الضمان أو التعويض Indemnity Acts[١] ، إلا أن هذه المراسيم لم تغطِ التصريح الجديد . وفضلاً عن ذلك وعلى الرغم من كون تلك المراسيم تنطبق فقط على المرشحين للمناصب المرتبطة بالتاج ؛ فقد كانت جميع الاحتمالات بتعميم مضمونها وارداً للغاية . وهذا ما تم حينما تميزت ردة فعل مجلس اللوردات بالسرعة والعناد على الاحتجاجات اليهودية الرامية إلى تساوي نيل المناصب ؛ بل شعر الزعماء اليهود ، على نحوٍ خاص ، بالخوف من توظيف تلك الشروط المعتمدة على التعليم والشهادة الدراسية في سبيل إبعادهم عن الوظائف . وهذا ما عكسته رسالة إيزاك ليون غولدشمد Lyon Goldsmid Issac (١٧٧٨-١٨٥٩) في ٥ مايس ١٨٢٨ إلى الحكومة البريطانية التي أوضح فيها خوفه من إمكانية فرض تلك الشروط من نقابة المحامين في لينكولن إنْ على إبنه الذي كان يدرس القانون الانكليزي[٢] . ولهذا فأن دوافع خاصة وسياسية قد تصدرت الصراع من أجل تحرير اليهود[٣] .

وسرعان ما قدم الزعماء اليهود ، بعد أن أخفقوا في الحصول على إعلان يحول دون منعهم من إشغال المناصب ، لائحة تجيز السماح لهم بالتمثيل في البرلمان[٤] . وعلى أية حال فإنهم قد حصلوا على دعم قليل من غالبية أنصارهم ، إذ كانوا حتى غير مؤهلين للتصويت في الانتخابات البرلمانية وفقاً لمرسوم إصلاح عام ١٨٣٢ الذي

---

(١) مراسيم شرعت منذ مطلع القرن الثامن عشر من أجل التخفيف من التقييدات التي وضعت على المنشقين على الكنيسة الانكليزية جراء مرسومي الاختبار للعامين ١٦٦١و ١٦٧٣ ، وكان أولها هو مرسوم ١٧٢٦ ، إن فرض فيها قسَم خاص حال دون وصول ما عُد إنهم أفراداً محرضين دينياً وسياسياً إلى الوظائف . أنظر :

Short, K. R. M., The English Indemnity Acts 1726-1867, *Chuch History*, Cambridge University Press on Behalf of The American Society of Church History, Vol.42, No.3 (Sep., 1973), pp.366-376.

(2) Letter Book of I. L. Goldsmid, Vol.II, p.47, Quoted in: Henriques, Religious, p.184, Note 3.

(3) Henriques, The Jewish, p.127; Adler, The Jews During The Victorian Era: A Sermon, London, Alfred J. Isaacs & Sons, 1897.

(4) Henriques, Religious, p.185.

أعطى حق التصويت لمن يشغل أو يؤجر منزلاً لا تقل أجرته السنوية عن عشرة جنيهات ، فضلاً عن معاناة اليهود أصلاً من فجوة واسعة بين طبقة يهودية فاحشة الثراء وطامحة في حياة سياسية فعالة وجمهور واسع من الفقراء والتجار الصغار ، ووفقاً لمعطيات تلك المرحلة فقد أبدى اليهود من الطبقة العاملة عدم إكتراثهم بالسياسة(١) . في المقابل ، عانى اليهود المتدينين المتعلمين من توجسات عميقة لتأثيرات الاندماج في الحياة السياسية والاجتماعية الانكليزية على حساب الحياة والتقاليد اليهودية(٢) . وإنعكست ذروة التذمر إزاء عدم نيل اليهود للعضوية البرلمانية في الصحيفة اليهودية The Jewish Chronicle طوال تلك المرحلة(٣) ؛ بل أثارت المطالبة بمواطنة متساوية بصرف النظر عن المعتقد الديني إهتماماً حماسياً في قلوب المنشقين والليبراليين من ذوي النزعة العلمانية(٤) .

لقد إرتكزت العوائق أو الاعتراضات التي طرحها خصوم المساواة السياسية لليهود على إعتراضين أساسيين ، الاول : الاعتراض على أساس المعتقد الديني ، والثاني : على أساس القومية والصفة الاخلاقية . فقد تم النظر لليهود بكونهم غير ملائمين للجلوس في البرلمان لان أسلافهم قد صلبوا المسيح وبكونهم مستمرين في رفض المسيح كمخلص لهم(٥) . وبما أن اليهود قد رفضوا المسيح فإن ذلك قد عني بالنتيجة إنهم لا بد وأن نظروا إلى المسيحية على أنها ديانة وثنية فضلاً عما ترتب من إستمرارية الإعتقاد بأنهم يغذون الكراهية المقيتة ضد السيد المسيح(٦) . أما فيما

---

(1) Mayhew, Henry, London Labour and The London Poor, London, 1861-1862, Vol.II, pp.115-132.

(2) Finestein, Israel, Anglo-Jewish Opinion During the Struggle for Emancipation, Trans. of The Jewish Hist. Soc. of England, XX (1959-1961), pp.113-143.

(3) The Jewish Chronicle, 8 July 1853.

(4) Henriques, The Jewish, p.129.

(5) Birks, T. R., A Letter to Lord John Russell M. P. on The Admission of Jews to Parliament, London, 1848, p.19.

(6) Veritas, The Jew Question Considered: A Letter Addressed to Sir Robert H. Inglis, Bart. M.P., London, 1851, p.16.

يتعلق بقطاع واسع من المسيحيين الانجيليين فقد مثل إقصاء اليهود جزء من المخطط الالهي للاشياء الذي تم التنبؤ به قبل حدوثه وبموجب ذلك فإن اليهود عوقبوا وغدوا مشتتين بين الامم الاخرى ، ولهذا فإن الاقتراح الهادف إلى قبولهم في البرلمان : «**هو تسفيه السياق الكامل للعناية الالهية المقدسة منذ سقوط أورشليم**»[1] . وإذا كان اليهود قد عانوا أكثر من أي طائفة أخرى فإن ذلك بسبب خطاياهم التي كانت عميقة للغاية «**حينما قاموا بتلطيخ أنفسهم وأولادهم بدم مخلصهم المسيح**»[2] . وإن الامة التي تقبل مثل هؤلاء الناس في مجالسهم الاستشارية من الممكن أن تتوقع أن يحل عليها سخط الرب[3] .

ونظر الاهالي المحافظين تجاه مجرد دخول اليهود في البرلمان بأنه : «**سوف يجعل الامة غير مسيحية**» و«**البرلمان غير مسيحي**»[4] ؛ بل أن النظرة حيال بعض الوظائف التي شغلها اليهود كرئاسة الشرطة وعضوية المجالس البلدية لم تتعد عن كونها تأدية واجب ، وأن سخط الرب لن يحل على الامة ما دام اليهود لا يشاركون بصناعة القوانين . وعلى الرغم من ذلك فقد تعرض للاهتزاز المفهوم التوري التقليدي بخصوص الاتحاد بين الكنيسة والدولة القائل بأن الدولة تعبير علماني للامة الروحية وأن الكنيسة الانكليكانية هي بمثابة الامة في أثناء الصلاة ، حينما حصل المنشقون البروتستانت والكاثوليك على حقوق المواطنة بأكملها . ولكن في ثلاثينيات القرن التاسع عشر وأربعينياته فإن ذلك المفهوم قد تم تحديثه وبعثه مجدداً من التربوي والمؤرخ الدكتور توماس آرنولد Thomas Arnold (١٧٩٥-١٨٤٢) ، الذي دمج بين النزعة الجدية السائدة خلال منتصف العصر الفكتوري وأخلاقياته مع ما أطلق عليها رغبة التفهم . ولهذا فقد سعى إلى توسيع كنيسة إنكلترا وإضفاء التعديل عليها بحيث تشمل جميع الكنائس المنشقة ، إذ تم التعامل مع الكاثوليك بلطف بإعتبارهم حلفاء سيغدون على غرار البروتستانت شيئاً فشيئاً مندمجين بالمجتمع . إلا أن هذا التفهم

---

(1) Birks, Op. Cit., p.37.

(2) Barrister, An Answer to The Speech of The Right Honourable Sir R. Peel, M.P. Upon The Second Reading of The Jewish Disabilities Bill, London, 1848, p.21.

(3) Forty Reasons for Resisting the Removal of The Jewish Disabilities, London, 1853, p.15.

(4) Egan, Charles, The Status of The Jews of England, London, 1848, pp.80-81.

سرعان ما تعرقل ولم يشمل طائفة الموحدين Unitarians[١] والكفار واليهود . فقد نظر آرنولد بأن جوهر المسيحية يرتكز على التعاليم الاخلاقية ومثال المسيح ، وبالنتيجة فإن غير المؤمنين بذلك لا يمكن أن يكونوا أُناساً ذوي أخلاق[٢] .

أما الاعتراض على أساس القومية ، فقد إعتقد بعض الانكليز بأن لليهود «قومية منفردة» ، وأن دينهم قد جعلهم معزولين ومنعهم من مصاهرة المسيحيين على مر التاريخ . وأن أحكامهم سوف تمنع أي يهودي من تنفيذ واجباته البرلمانية في أيام السبت[٣] . وتبع ذلك ذيوع الإعتقاد بعدم مقدرة اليهود في التصرف بصفتهم مواطنين وطنيين صادقين في حالتي الحرب والسلام[٤] . أما من الناحية الاخلاقية فقد إرتبطت إرتباطاً وثيقاً بالتعامل مع اليهود بوصفهم ذوي «**منزلة أخلاقية وضيعة**» وبأنهم أجانب وكفار ، وإن الاجنبية والوضاعة كثيراً ما كانا مصطلحين مترادفين لوصفهم ، ولهذا لم يعد اليهود إنكليزاً مهذبين[٥] .

لقد رأى أعضاء حزب الاحرار والتيار الليبرالي العلماني ، ولمدة طويلة ، بأن الكنيسة والدولة كانتا بل ويجب أن تكونا مؤسستين منفصلتين ؛ وإن الاعتقاد الديني والعضوية الكنسية هي مسائل خاصة وطوعية في الحياة ؛ حيث الدولة العلمانية لا تعر أهمية لهذه المسائل ولا تمنحها تلك الاولوية ، ولهذا فإن ما يؤمن به اليهود أو الذي

---

(١) الموحدون : أفراد طائفة مسيحية ترفض الثالوث المقدس Trinityوتقول بالتوحيد ، ويعتقدون بالمسيح بوصفه رسولاً للرب ولكن بدون صفة إلهية . أنظر :

Kenyon, Op. Cit., p.347.

(2) Henriques, Religious, pp.194-195.

(3) Veritas, Op. Cit., p.10; Pinsker, Polly, English Opinion and Jewish Emancipation (1830-1860), *Jewish Social Studies*, Indiana University Press, Vol.14, No.1 (Jan., 1952), pp.51-94.

(4) Mirror of Parliament, 4th Session, 2 (5 April 1830), p.1240; Goldsmid, F. H., Two Letters in Answer to The Objections Urged Against Mr. Grant's Bill for The Relief of The Jews, London, 1830, p.5.

(5) Henriques, The Jewish, p.134.

لا يؤمنون به بخصوص المسيح مسألة غير مرتبطة كلياً بمطالبتهم في الحصول على مواطنة متساوية(١) . وفي الواقع كانت قد قُدمت أربع لوائح لتحرير اليهود خلال المدة ١٨٣٠-١٨٣٦ الامر الذي جعلهم أكثر قرباً للبرلمان ، وعلى الرغم من أن اللائحتين الاخيرتين قد تمت المصادقة عليهما فعلياً في مجلس العموم ، إلا أنهما قد رفضتا في مجلس اللوردات حيث الاساقفة وحزب المحافظين يتحكمون هناك . ومع ذلك سمح لليهود في عام ١٨٣٠ الدخول بحرية لتمثيل مدينة لندن بعد أن أدوا قسماً خاصاً . وفي عام ١٨٣٥ تم منح إمتياز خاص رسمي حينما تم إنتخاب ديفيد سلومون David Salomons(١٧٩٧-١٨٧٣) رئيساً لشرطة لندن ، بموجب مرسوم خاص لاشغال ذلك المنصب من دون تضمين عبارة «**بناءً على الايمان الحقيقي للمسيحية**» . أما أبرز خطوة إتخذها اليهود في هذا الوقت تمثلت بتقديم لائحة إنصاف الاشخاص المنتخبين من الديانة اليـهـودية للمناصب البلدية Bill For The Relief of Persons of The Jewish Religion Elected to Municipal Offices في عــام ١٨٤٥ ، إذ رتَّب رئيس وزراء بريطانيا المحافظ روبرت بيل تمرير تلك اللائحة في مجلس اللوردات(٢) .

إن الجو الفكري المتحرر الذي ساد منتصف القرن التاسع عشر وتنامي الوعي المدني على حساب الموروث الديني ، فضلاً عن بروز التوجهات الليبرالية السياسية ، كل ذلك سرّع من فرص تحقيق حرية الاقليات وفق الطروحات العلمانية ؛ وتجلى أبرز إنجاز ساعد في منح أرضية مُثلى لذلك في إصدار : «مرسوم إنصاف الآراء الدينية» لعام ١٨٤٦ الذي أقر حزمة كبيرة من القوانين التي أعترف بموجبها بعبادة المنشقين عن الكنيسة الانكليزية ، وحماية معابدهم ومدارسهم وممتلكاتهم ، مثلما شملت الطائفة اليهودية(٣) . ولهذا خاض اليهود منافسات حادة من أجل الدخول في البرلمان البريطاني بحلول عام ١٨٤٧(٤) .

---

(1) Henriques, The Jewish, p.135.

(2) Debates in The House of Commons and in The House of Lords on The Bill for Removing The Civil Disabilities of The Jews, *Bristol Selected Pamphlets*, University of Bristol, 1834; Henriques, The Jewish, p.130; Hyamson, Albert M., A History of The Jews in England, London, Chatto & Windus, 1908, p.350; Egan, Op. Cit., p.47.

(3) Picciotto, James, Sketches of Anglo- Jewish History, London, 1875, p.396.

(4) The Jewish Chronicle, 6 Aug. 1847.

ومع ذلك ، لم يستطع المصرفي والسياسي اليهودي ليونيل دي روتشيلد Lionel De Rothschild (١٨٠٨-١٨٧٩) ، على الرغم من فوزه عن الدائرة الانتخابية في لندن عضواً في مجلس العموم عام ١٨٤٧ ، إحتلال مقعده بسبب بقاء العبارة المسيحية السابقة في قسم العضوية في مجلس العموم ، وانتظر لعامين آخرين في سبيل تمرير لائحة العوائق اليهودية ، وعلى الرغم من تمرير اللائحة في مجلس العموم للقراءة الثالثة إلا أنها أُجهضت في مجلس اللوردات ، ليستقيل عقب ذلك ، بيد أنه أُعيد إنتخابه عن الدائرة الانتخابية ذاتها . وحينما دخل مجلس العموم في عام ١٨٥٠ ليحتل مقعده هناك ، رفض أداء القسم على العهد الجديد وطلب أدائه على العهد القديم ، وحينما سمح له وتوجه لاداء القسم ، حذف العبارة المسيحية من القسم فطُلب منه على إثرها المغادرة . في هذه الاثناء فاز سولومون عن منطقة غرينوج في الانتخابات الفرعية لعام ١٨٥١ وقام بالتصويت في مجلس العموم على لائحة العوائق اليهودية إلا أنه غُرم مبلغ ٥٠٠ جنيه إسترليني نتيجة لهذا التصويت . وتدريجياً غدا مجلس العموم منهكاً من تلك اللوائح وتم إقناع الحكومة بتقديم لائحة تسمح لمجلس العموم أن يفرض شروطه الخاصة . وفي النهاية حينما إتخذت الحكومة هذا الاجراء كان البرلمان البريطاني متحفزاً على نحو جاد بالتوافق مع الاشخاص المؤمنين بمسألة التحرير لتقبل في أن ترى هذه الائحة طريقها ، وهو ما تم في عام ١٨٥٨ ، حينما أصبح روتشيلد أول يهودي عضواً في مجلس العموم بعد ١١ عاماً من إنتخابه فيه[(١)] .

لم يكن العلمانيون بعيدين عن أحداث هذه التطورات المتعلقة باليهود ، فعلى الرغم من أن اليهودية لا تمثل أمراً مهماً لدى التيار العلماني بقدر ما كان موضوع علمنة المجتمع الفكتوري وترويج الطروحات المدنية من خلال القضية اليهودية هي الهدف . ففي حزيران عام ١٨٥٨ إجتمع ٢٠٠٠ من العلمانيين الذين ينتمون إلى ١٥ جمعية مختلفة حول بحيرة هولنغورث Hollingworth في مانشستر ، للاستماع إلى خطابات الزعماء العلمانيين ، وناقشوا موضوع إقامة تنظيم يعنى بالتحريض من أجل

---

(1) Wilding & Laundy, Norman & Philip, An Encyclopedia of Parliament, London, Cassell and Company Ltd, 1961, p.341; Henriques, The Jewish, p.130; Clark, Michael, Jewish Identity in British Politics: The Case of The First Jewish MPs 1858-87, *Jewish Social Studies*, Indiana University Press, Vol.13, No.2 (Winter, 2007), pp.93-94.

دعم اللائحة اليهودية التي قدمت إلى البرلمان تواً ، فضلاً عن موضوع منع الاستجمام في أيام الاحد والقوارب في البحيرة ، إذ كان هذا الاجتماع من أبرز التجمعات العلمانية في ذلك الوقت[1] . ولهذا كان تحرير اليهود حركة لها مدلولها ومغزاها ، فقد جاءت نتيجة حتمية لتطور فكرة المساواة وتقهقر روح العصبية[2] . وإذا كان ثمة إصلاحات تنسب إلى العصر الفكتوري بوصفها تطورات كمية ونوعية في توسيع القبول المشروط لاعداد الناخبين ، فإنه يمكن القول إن الاصلاح المتعلق بدخول اليهود للبرلمان كان إصلاحاً نوعياً بإمتياز ، إذ أعطى لانصار مفهوم العلمانية ميداناً عملياً في تمكين المبادئ المدنية . ففي الوقت الذي نشطت فيه الافكار الليبرالية في ميدانها السياسي عبر حزب الاحرار ، إنعكست الاستجابة للرؤى العلمانية عبر هذا التحول الاصلاحي ، لتبرز الليبرالية والعلمانية بكونهما صنوان يكمل أحدهما الآخر ، وهو ما عكسه الفيلسوف جون ستيوارت مل John Stuart Mill (١٨٠٦-١٨٧٣) عام ١٨٥٩ في مقالته عن الحرية .

سادساً: الرؤى الفكرية للمجتمع العلماني الفكتوري عند جون ستيوارت مل من خلال مقالته «عن الحرية On Liberty» عام ١٨٥٩

لقد كان العلمانيون سياسيين مثلما كانوا راديكاليين عقلانيين ، وكان تحريضهم منظماً على غرار حركة سياسية . وإنصب هدفهم على إختراق الكنيسة ، وكانت حملتهم تهدف إلى خلق مجتمع علماني تعددي مفتوح ليحل مكان القاعدة المغلقة للدستور الارستقراطي والايديولوجية المسيحية . وأن التعاطف مع هذه الاهداف جاء من بعض راديكاليي الطبقة الوسطى والمثقفين ، وكان من أكثرهم بروزاً الفيلسوف

---

(1) Chadwick, The Secularization, p.91; Royle, Victorian, p.188.

(٢) شنيرب ، روبير ، تاريخ الحضارات العام : القرن التاسع عشر ، ط٢ ، تر : يوسف أسعد داغر & فريد م . داغر ، بيروت- باريس ، منشورات عويدات ، ١٩٨٧ ، م ٦ ، ص ٢٧٧ .

ولهذا عرف أيضاً بإسم مرسوم إنصاف اليهود Jews Relief Act لعام ١٨٥٨ ليوحي بأن الظلامة التي حاقت باليهود مسبقاً قد رفعت الان بدخولهم البرلمان . أنظر :

Adams & Stephens (ed.), George Burton & H. Morse, Select Documents of English Constitutional History, New York, The Macmillan Company, 1920, pp.531-532.

جون ستيوارت مل ، الذي مثّلت مقالته «عن الحرية» لعام ١٨٥٩ أقصى مطلب لنوع ذلك المجتمع الذي يطمح به العلمانيون(١) . فقد أصدر مل مقالته هذه في العام ذاته الذي نشر فيه العالم الطبيعي تشارلز روبرت داروين Charles Robert Darwin (١٨٠٩-١٨٨٢) مؤلفه الشهير المعنون : «أصل الانواع» الذي تسبب في إحداث ضجة لدى المجتمع الفكتوري الديني المحافظ وصدمه نتيجة لفكرة الكتاب القائلة بإشتراك تحدر الانسان والحيوان من أصل واحد(٢) .

إتضح موقف مل من الفكر الراديكالي والحرية الفكرية وعلاقتها بعلمنة المجتمع من خلال مناقشته لآلية القواعد القانونية وتعاملها مع الفكر الحر ، وبرز موقفه لا في الدفاع عن هذه الحرية الفكرية في سبيل الميل لاتجاه أو تيار فكري أو سياسي معين ، بل في قدرة إستثمار الحرية ضمن القواعد القانونية المتاحة ، وأرجحية تلك القواعد ومدى فاعليتها في تنظيم الدولة . فضلاً عن توضيح ضعف القواعد القانونية التي تتعامل مع واقع ومتغيرات التحول الاجتماعي الذي شهده العصر الفكتوري في منتصف القرن التاسع عشر ، حيث أشار في مقالته على ملاحظات بالغة الاهمية تعلقت بخرق مفهوم حرية الفكر والمناقشة ذات العلاقة المباشرة ببروز الشخصيات العلمانية التي لم تؤثر في مجال النقد الديني فحسب بل والاجتماعي والفكري على حد سواء .

لقد إبتدأ مل برهنة أفكاره تلك بوصم مؤسسة الدولة التشريعية بأن لها القدرة على ما يعرف بإيقاع ما أطلق عليه «الاضطهاد القانوني» حينما قال : **«إننا اليوم لا نقوم بإعدام من يقدم أفكاراً جديدة . . . لكن ينبغي علينا أن لا نتوهم بأننا قد تحررنا حتى من وصمة الاضطهاد القانوني . . . ولا نعدم الامثلة في أيامنا**

---

(1) Royle, Victorian, p.4.

(2) Chadwick, The Secularization, p.28; Heads, Michael, Darwin's Changing Views on Evolution: From Centres of Origin and Teleology to Vicariance and Incomplete Lineage Sorting, *Journal of Biogeography*, Blackwell Publishing, Vol.36, No.6 (Jun., 2009), pp.1018-1026; Costa, James T., The Darwinian Revelation: Tracing The Origin and Evolution of an Idea, BioScience, University of California Press on Behalf of The American Institute of Biological Sciences, Vol.59, No.10 (November 2009), pp.886-894.

هذه على إجبار الناس على ذلك ، حتى صرنا لا نستبعد إنبعاث الاضطهاد من جديد بكامل سطوته ، فقد حدث عام ١٨٥٧ . . . أن حكمت المحكمة على رجل تعيس[١] بالسجن واحد وعشرين شهراً لانه تفوه بكلمات فيها إهانة للديانة المسيحية ، وكتبها على بوابة المنزل ، وفي غضون شهر واحد من هذه الحادثة رفضت المحكمة الجنائية الانكليزية أولد بيلي في مناسبتين منفصلتين[٢] أن يدخل شخصان ضمن هيئة المحلفين . . . وسبب ذلك إنهما أعلنا ، بأمانة ، إنهما لا يؤمنان بأية معتقدات دينية»[٣] . ولم يكن هدف مل من ذكر هذين المثالين مناصرة الفكر النقدي للدين والتوجه العلماني ، وإنما إبراز قدرة إستغلال القانون وفق رغبات وأهواء الجهات التنفيذية المتمثلة بالقضاة وسواهم ، ونبه

---

(١) المقصود توماس بولي Thomas Pooly الذي حاكمته محكمة بودمين في ٣١ تموز ١٨٥٧ ، وفي كانون الاول التالي إعتذرت له السلطة الملكية . وكان بولي ، الذي عمل حفاراً ، قد كتب على باب أحد القساوسة العبارة التالية : «نتانة وحش الكتاب المقدس يسوع- التجديف- تي . بولي» ، وكذلك لانه قال أن الرماد الناجم عن حرق الانجيل له القدرة على شفاء آفات البطاطا ، وأن المسيح : «رائد لكل اللصوصية والدعارة» . وقد أثارت هذه القضية نقطتان الاولى : إخفاق العدالة كون بولي مخبولاً ، والثانية : مثلت هذه القضية تطبيقاً ناجحاً لقوانين التجديف . أنظر :

Mill, John Stuart, Utilitarianism, Liberty, Representative Government, Introduction By: A. D. Lindsay, London J. M. Dent & Sons Ltd, 1954, p.90; The Reasoner, 19, 26 August, 30 September 1857.

(٢) هما جورج جاكوب هوليوك في جلسة ١٧ آب ١٨٥٧ ، والناشط العلماني إدوارد ترولوف Edward Truelove (١٨٠٩-١٨٩٩) في جلسة تموز ١٨٥٧ . أنظر : مل ، جون ستيوارت ، أسس اللبرالية السياسية ، ترجمة وتقديم وتعليق : إمام عبد الفتاح إمام وميشيل متياس ، القاهرة ، مكتبة مدبولي ، ١٩٩٦ ، ص ص ١٥٢-١٥٣ ؛

Mill, Utilitarianism, p.90.

(٣) ميل ، جون ستيوارت ، عن الحرية ، ط١ ، تر : هيثم كامل الزبيدي ، مراجعة وتدقيق : فادي حدادين ، الاهلية للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٧ ، ص ٣٨ ؛

Troyer (ed.), John, The Classical Utilitarians: Bentham and Mill, Indianapolis, Hackett Publishing Company, Inc., 2003, pp.172-173.

بالتفاتة ذكية إلى بروز ما يعرف بالاضطهاد القانوني الذي تمارسه الدولة لا بسبب إستغلال القاعدة القانونية لممارسة الاضطهاد على العلمانيين والملحدين ، وإنما في عقم تفسيرها أيضاً ، مؤكداً على عدم مواكبة الانظمة القانونية مع متغيرات الواقع الاجتماعي والفكري المتنامي آنذاك .

وهذا ما أكده حينما ساق مثالاً آخر لا يقل أهمية عما أشار ، حيث ذكر بأن شخصاً أجنبياً[1] ، رفضت دعواه للسبب نفسه التي كان قد رفعها على أحد اللصوص . وقد صدر هذا الرفض بناءً على القاعدة القانونية التي تقول : «**لا يجوز ، في المحاكم ، سماع شهادة من لا يؤمن بالرب ، ويكفي الايمان بأي رب ، وبالحياة الاخرى**» . وهذه القاعدة ، وفق وجهة نظر مل تعد : «**أمثال هؤلاء الاشخاص خارجين على القانون ، مستبعدين من حماية المحاكم ، وبذلك يمكن أن يكونوا عرضة لا للسرقة فحسب ، بل للاهانة من جانب أي إنسان دون أن يعاقبه القانون ، إذا لم يكن هناك شهود سواهم . . . بل من الجائز الاعتداء على أي إنسان سواهم أو سرقته ما دام إثبات الحالة يعتمد شهادتهم فحسب**»[2] . لقد نبه مل إلى نتائج إستخدام هذه القاعدة القانونية التي تستند عليها الجهات التنفيذية من خلال معاقبة الذين لا يؤمنون بما تدين به المسيحية أو ما قد يعبر على الخروج عليها ، وإعتبار هؤلاء ليس فقط خارجين عن القانون بل مواطنين من درجة ثانية إن لم يكن ستؤول بهم هذه الاعتبارات إلى تجريدهم من الحق الانساني في الحياة نتيجة لممارسة إضطهاد فكري بإطار قانوني عليهم .

وتتجلى عقلانية مل بوصفه مفكراً تجريبياً في أقصى مدياتها في تناول هذه

---

(١) هو البارون دي غليشن Baron De Gleichen الذي حاكمته محكمة شرطة مارلبورو في ٤ آب ١٨٥٧ . أنظر :

Gray & Smith (eds.), John & G. W., J. S. Mill On Liberty in Focus, First published, London, Routledge, 2002, p.48; Mill, Utilitarianism, p.90.

(٢) ميل ، المصدر السابق ، ص ص ٣٨-٣٩ ؛

Haworth, Alan, Free Speech, London, Routledge: Taylor & Francis e-Library, 2002, p.127.

القاعدة القانونية وتفنيدها حينما ذكر : «**القول بأن الشخص الذي لا يؤمن بالحياة الاخرى لا قيمة لقسمه . وتلك قضية تكشف عن جهل فاضح بالتاريخ عندما يقولون بها ، إذ من الثابت تاريخياً أن نسبة كبيرة من الكفار في جميع العصور كانوا مشهورين بالصدق والشرف والاستقامة ، ولا يستطيع قبول هذه القضية إنسان لديه أدنى إلمام بأن كثيراً من الاشخاص أصحاب الشهرة العريضة في العالم ، بسبب سمو فضائلهم وإنجازاتهم كانوا يعرفون باللامؤمنين ، إن لم يكن بين العامة ، فعلى الاقل بين الاصدقاء والخاصة**»[1] . وفوق ذلك رأى مل بأن تلك القاعدة تهدم نفسها وتقوض الاساس الذي تقوم عليه عندما تدعي : «**أن الملحدين لا بد أن يكونوا كذبة ، ومع ذلك فهي تقبل شهادة الملحد الذي لديه إستعداد للكذب . . . بينما ترفض شهادة الملحد الذي لديه الشجاعة فيعلن على الملأ إنه يرفض الاعتراف بعقيدة كريهة ، عن أن يثبت الزور والكذب . إن قاعدة كهذه مليئة بالسخف واللا معقول . . . لا يمكن أن تبقى إلا كعلامة على الحقد وأثر من آثار الاضطهاد . . . إن القاعدة والنظرية التي تتضمنها تهين المؤمنين بالدرجة نفسها التي تهين بها الكفار ، إذ لو كان من لا يؤمن بالحياة الاخرى يكذب بالضرورة ، فإنه سيتبع ذلك أن من يؤمن بهذه الحياة هم الوحيدين المحصنين من الكذب**»[2] . لقد عكس مل من خلال إسلوبه النقدي هذا في تفنيد مرتكزات القاعدة القانونية تلك ؛ عن مدى تأثير ورواج الفكر العقلاني في منتصف القرن التاسع عشر في بريطانيا وإستجابته للمد العلماني وقدرته في توظيف ذلك النقد في تنبيه النخب الثقافية والقانونية والسياسية على حد سواء .

(1) Autobiography of J. S. Mill & On Liberty: Characteristics, Inaugural Address at Edinburgh & Sir Walter Scott: The Five Foot Classics, Cosimo, Inc., Vol.XXV, p.233; Mill, Utilitarianism, p.91.

(٢) مل ، أسس ، ص ١٥٤ ؛

Spencer & Others, Herbert, John Stuart Mill: His Life and Works, Boston, James R. Osgood and Company, 1873; Collini (ed.), Stefan, J. S. Mill, On Liberty and Other Writings, Cambridge, Cambridge University Press, 2003, pp.32-33.

وسيراً على ذلك ، أراد مل ضمان قيام الحرية العقلية بوصفها خطوة مهمة أمام حرية التعبير ، فتحرر العقل من موروثات التصور المسبق لدى المجتمع ولا سيما التعصب الديني واللا تسامح حيال الطوائف الاخرى هو شرط مهم لشيوع وتبني حرية الرأي وفق الالتزام بالقواعد والانظمة القانونية ، أما ما عداه فهو السقوط في متاهات الاضطهاد القانوني والديني[١] . وشدد على نتائج إستمرار القضاء بمعاقبة المخالفين فكرياً حينما ألمح إلى قسوة هذه العقوبات وشروعها في المبالغة في أدائها عن طريق إبتكار وسائل أخرى لايقاع الاذى بحيث تغدو العقوبة ذات أثر مزدوج حينما أشار إلى دور القضاء في محاربة الفكر العقلاني- العلماني ومطاردته لوسائل رزق المفكرين العلمانيين من خلال إغلاق الكثير من صحفهم فضلاً عن تغريمهم وسجنهم . وشبه مل ذلك بإيقاع أرهاب الدولة[٢] . ونبه إلى نتائج هذا العمل ذاكراً : «**تعصبنا الاجتماعي وحده لا يستطيع أن يقتل أحداً ولا أن يستأصل الآراء ولكنه يحمل الناس على إخفائها . . . غير أن الثمن الذي يدفع ذلك النوع من السلام العقلي هو التضحية بشجاعة العقل البشري الادبية تماماً**»[٣] .

وإستمر مل في التنبيه للأثار الاجتماعية الخطيرة المترتبة على كبت الحرية الفكرية أمام الفئات الاجتماعية ، العلمانية والدينية بصرف النظر عن راديكاليتهما ، لان ذلك حسب وجهة نظره كفيل بحرمان الدولة من ظهور عقول نيرة ، أو على الاقل عقول مستقلة في تركيب بنائها المعرفي والقيمي والاجتماعي حينما أشار : «**إن أولئك الذين يظنون إن صمت الهراطقة ، وإمتناعهم عن الكلام ، أمر جيد . . . مخطئون من حيث أن أول نتيجة لهذا الصمت هو أنه لن تكون هناك ، على الاطلاق ، أية مناقشة متعمقة ومنصفة لأراء الهراطقة . . . على أنه ليست عقول الهراطقة هي التي سوف تتدهور بسبب التحريم المفروض . . . وإنما الضرر الاكبر سوف يقع على رؤوس غير الهراطقة الذين يتقلص نموهم العقلي ويرتعد تطورهم الذهني ، بسبب خوفهم من**

---

(١) مل ، أسس ، ص ص ١٥٤-١٥٥ .

(2) Mill, Utilitarianism, p.92.

(٣) مل ، أسس ، ص ص ١٥٦-١٥٧ .

الهرطقة»[١] . وأكد مل أن الهدف من خلق هذه الحرية الفكرية هو ليس الدعوة لنخبة فكرية ضيقة تحتكر لها صفة النقد والتحول الفكري ، وإنما إعطاء فضاء أكبر أمام مراكز عقلية جديدة تظهر من رحم الطبقة الوسطى[٢] .

وعبر مل عن نظرته النقدية لدور الدين في أثناء تناوله دور المؤسسة الدينية وعلى رأسها الكنيسة الكاثوليكية بصفة عامة ، في إطار مقارنته لدور الكنيسة الانكليزية ودور رجال الدين فيها حينما أشار بأن الكنيسة الكاثوليكية تبيح فقط للقساوسة حق الاطلاع على حجج الخصوم للرد عليهم أما عامة الناس فقد حرم عليهم ذلك إلا ما ندر قائلاً : «**ذلك يعطي النخبة الخاصة ثقافة ذهنية أكثر ، لكنه لا يعطيهم حرية ذهنية أكبر مما هو مسموح به لعامة الناس ، ولقد نجحت بهذه الوسيلة في الوصول إلى نوع السمو الذهني أو التفوق العقلي . . . الثقافة بلا حرية لا يمكن أبداً أن تخلق ذهناً ليبرالياً حراً واسع الافق**»[٣] . وبذلك فقد أشار إلى معضلة أزلية تعاني منها معظم النخب الدينية والقيمين على الكنائس ، المتمثلة في أحقيتهم في تفسير الرؤى والنشاط الفكري الديني لدرجة الاحتكار ، وبالنتيجة ووفقاً لوجهة نظره ، فإن ذلك من شأنه أن يخلق مفهوماً طبقياً لقدرات ومؤهلات شرائح محددة من المجتمع مما يؤطر عملية التقييم الديني بالعزلة والتمييز والقدرة التي ستكون محصورة فقط بنخبة تدين بولائها لمؤسستها الكنسية . وبذلك فإن هذا الوضع يقف على النقيض من تنامي الروح

---

(1) Mill, Utilitarianism, pp.93-94; Baum, Bruce, J. S. Mill on Freedom and Power, *Polity*, Palgrave Macmillan Journals, Vol.31, No.2 (Winter, 1998), pp.187-216; Santoro, Emilio, Autonomy, Freedom and Rights: A Critique of Liberal Subjectivity, Dordrecht, Kluwer Academic Publisher, 2003, p.30.

(٢) ميل ، المصدر السابق ، ص ص ٤٢-٤٣ .

(٣) مل ، أسس ، ص ١٦٤ ؛

Douglas, Charles, John Stuart Mill: A Study of His Philosophy, Edinburgh & London, William Blackwood and Sons, 1895; Bouton, Clark W., John Stuart Mill: On Liberty and History, *The Western Political Quarterly*, University of Utah on behalf of The Western Political Science Association, Vol.18, No.3 (Sep., 1965), pp.569-578.

الليبرالية ذات الرؤى المتعددة في تفسير الوضع الاجتماعي ومن ضمنه الدين بوصفه أحد مناحي الحياة . في الواقع كان موقف مل قد دل على تنامي وإنتشار روح النقد لدى علماء الاجتماع وسواهم من المفكرين العلمانيين أمثاله .

وبلغ مل درجة عالية من النقد حينما تناول المؤمنين بالديانة المسيحية ليشترط بذلك ما أوجبه مقياساً عملياً لتطبيقات الايمان على أرض الواقع وبين متطلبات هذا الايمان إذا ما إستوجب توجيه النقد بهدف التقويم في المجتمع المسيحي البريطاني ، إذ قال : «**المسيحيون عندما يقولون إنهم يؤمنون بهذه التعاليم [أي التعاليم المسيحية] ، فإنهم ليسوا منافقين أو مرائين في ذلك لانهم يؤمنون بها حقاً . . . لكن متى إعترض معترض وذكّرهم بأن العقائد التي يؤمنون بها تتطلب عدداً لا نهاية له من الاعمال . . . فإن هذا المعترض لن يظفر بشيء سوى أن يصنف بين الاشخاص الكريهين الذين يظنون في أنفسهم إنهم أفضل من غيرهم من البشر**»[١] .

وتناول مل محتوى الكتاب المقدس ولا سيما العهد الجديد وحلل مكنونات النص الديني المقدس وتصوراته لدى عموم المسيحيين في بريطانيا ، وأبرز ما تناوله هو موضوع الاخلاق المسيحية ونقدها قائلاً : «**ما هي الاخلاق المسيحية ، فلو كان المقصود بها أخلاق العهد الجديد ، فسوف أعجب من إنسان يستمد معلوماته منه . . . ثم يفترض إنها أكمل نظرية في الاخلاق . فالانجيل يحيل القارئ بإستمرار إلى نظام سابق للاخلاق ، ثم يحصر وصاياه في تصحيح بعض جزئيات هذا النظام الاخلاقي . . . وإننا نجد الانجيل يعبر عن نفسه في عبارات . . . يستحيل في كثير من الاحيان أن تؤخذ بحرفيتها ، لانها تحتوي على بلاغة الشعر وفصاحته ، أكثر من دقة التشريع والقانون**»[٢] .

لقد إستندت منهجية النقد عند مل في تناوله موضوعات الكتاب المقدس

---

(1) Mill, Utilitarianism, p.101; Tinkler, John F., J. S. Mill as a Nineteenth-Century Humanist, *Rhetorica: A Journal of The History of Rhetoric*, University of California Press, Vol.10, No.2 (Spring, 1992), pp.165 -191; Matz (ed.), Louis J., Three Essays on Religion: John Stuart Mill, Sydney, Broadviewpress, 2009, p.230.

(٢) ميل ، المصدر السابق ، ص ص ٥٨-٥٩ .

وفهمه لدى المسيحيين لا في إطار تفكيك النص الديني وتجريده من مرتكزاته ، وإنما في إعطاء بعد جديد وضروري في إعادة قراءة النص المقدس وفق متغيرات ومتطلبات التحولات الفكرية والاجتماعية الجديدة التي كان يدعو لها في إطار الحرية الفكرية وربط التوجه الديني القيمي مع التوجه الانساني الاشمل . إذ إعتبر الاخلاق المسيحية ردة فعل وإحتجاج ضد الوثنية ، ووصمها بالبراءة أكثر من النبل والاندفاع نحو تمجيد الزهد الذي وصفه بأنه أحد الالتزامات المفروضة ، كما نوه إلى إنفصال مشاعر الواجب عند كل فرد مسيحي متدين عن مصالح زملائه المواطنين . وبلغ نقده شديداً حيال هذا الفصل حينما قال : «**إنه [الدين المسيحي] في حقيقته يمثل مذهباً للطاعة العمياء ، لانه يدعو إلى الاذعان لكل سلطة قائمة ، صحيح إنه لا يوصيهم بتنفيذ أوامر السلطة إن كانت تأمر بما ينهى عنه الدين ، لكنه يأمرهم بالإذعان والاستسلام ، وينهاهم عن المقاومة والتمرد مهما نالهم من أذى . وعلى حين إننا نجد في الاخلاق الفاضلة عند الامم الوثنية ، الواجب نحو الدولة وقد إرتفع إلى منزلة عالية قد تنتهك حرية الفرد**»[1] .

ويسوق لنا مل في إطار نقده هذا مقارنة تنم على إطلاعه على الدين الاسلامي ، وموقفه من موضوع الصالح العام وتقدمه على منزلة السلطة بوصفه ضرورة أخلاقية عليا حينما ذكر : «**إننا نجد أن الاخلاق المسيحية الخالصة تكاد لا تدرك أو تعترف بهذا الجانب العظيم من الواجب [أي الواجب نحو الدولة] ، ولهذا فإننا نقرأ في القرآن ، لا في العهد الجديد ، تلك الحكمة البليغة التي تقول : «إن الحاكم الذي يعين رجلاً في منصب ما ، في حين هناك من بين رعاياه ، من هو أكفأ منه ، فإنه يقترف خطيئة ضد الرب وضد**

(1) Parker, Joseph, John Stuart Mill on Liberty: A Critique, London, F. Pitman, 20, Paternoster Row, E.C, 1865, p.26; Mill, Utilitarianism, p.109; Ten, C. L., Mill and Liberty, *Journal of the History of Ideas*, University of Pennsylvania Press, Vol.30, No.1 (Jan. - Mar., 1969), pp.47-68.

الدولة»[١] . بل أرجع فكرة الالتزام بالصالح العام والكثير من الاخلاقيات الواجب إتباعها إلى أمم قديمة ، قائلاً : «**الاعتراف بفكرة الالتزام نحو الصالح العام في الاخلاق الحديثة ، مأخوذة من مصادر يونانية ورومانية وليس من مصدر مسيحي . وقل مثل ذلك في أخلاقيات حياتنا الخاصة وما تحتوي عليه من شهامة ونبل وكرامة شخصية ، حتى الاحساس بالشرف ، فهي كلها مستمدة من التربية الانسانية لا التربية الدينية ، وما كان يمكن لها أن تنمو لتصل إلى مستوى المعيار الاخلاقي لو كانت لا تعترف إلا بقيمة واحدة هي الطاعة»**[٢] . في الواقع لقد مثّل مل واحداً من أبرز المفكرين البريطانيين الذي وظفوا رؤاهم الفكرية في سبيل علمنة المجتمع الفكتوري ، وإرتكزت رؤاه على مؤثرات وأهداف المدرستين العقلانية في نقد البنى الدينية ، والليبرالية والنفعية في تقييم الاداء السياسي والقانوني والاخلاقي ؛ وكانت مقالته «عن الحرية» خير تجسيد نظري تناولت محددات البناء المفترض للدولة والمجتمع العلماني . لقد رأى مل كسائر مؤيدي الفلسفة النفعية إن المنابع الاخلاقية للمجتمع المدني هي أكثر شمولية وأسبق من أخطاء المنابع الاخلاقية الدينية الاحادية الجانب .

سابعاً: مقومات الانتشار العلماني- منهجية النشاط والصحافة العلمانية

في الوقت الذي كانت فيه العلمانية في الشمال وتحت قيادة برادلو تتولى زمام المبادرة في وضع الأسس الحيوية من أجل إنشاء تنظيم إقليمي ومن ثم وطني ، كانت

---

(١) ليست هذه آية قرانية كما ذكر مل ، وإنما هي مبدأ من المبادئ الاسلامية في إدارة شؤون الدولة . أنظر هامش رقم (١) للمترجمين في : مل ، أسس ، ص ١٧٨ ؛

Warnock (ed.), Mary, Utilitarianism and on Liberty: Including Mill's 'Essay on Bentham' and Selections From The Writings of Jeremy Bentham and John Austin, Second Edition, Oxford, Blackwell Publishing Ltd, 2003, p.126.

(٢) مل ، أسس ، ص ١٧٨ ؛

Sell, Alan P. F., Mill on God: The Pervasiveness and Elusiveness of Mill's Religious Thought, Hampshire, Ashgate Publishing Limited, 2004, p.30.

العلمانية في لندن تنمو وفقاً لخطوطها الخاصة[1] . فقد كانت لندن تتمتع بتقاليد راديكالية تعود إلى أمد طويل ، كما تمتعت بنسبة سكانية عالية ، فضلاً عن توافر المحاضرين والقاعات والجماهير خلال مدة زمنية قصيرة ، وتواجد أبرز الزعامات العلمانية في لندن . لقد كانت الجماعات الراديكالية كثيرة في لندن إلى القدر الذي لا يمكن معه أن نميز بين العلمانيين والتنظيمات العلمانية وبين التنظيمات الاخرى التي كانت تتعامل معها ، التي غالباً ما كانت تشاطرها الابنية والاراضي والعضوية وحتى القيادة ، فضلاً عن ذلك فإن المقاهي ونوادي المحاضرات كانت تتواجد بأعداد أكبر مما هي عليه في الاقاليم الاخرى ، إذ كان من السهل للغاية إنشاؤها . ومن الجدير بالذكر أن الاجواء فيها قد إستمرت على ما هي عليه طوال العصر الفكتوري[2] .

وعلى الرغم من بروز جمعيات مهمة ذات أثر مباشر في النشاط العلماني على غرار جمعية لندن العلمانية ، بيد أنها سرعان ما إنحدرت إلى مستوى تنظيم محلي ، على إثر خلافات داخلية بين هوليوك وبرادلو ، حينما أصبح الاخير رئيساً لها في عام ١٨٥٨ ، ولكن السبب الرئيس وراء هذا التدهور يكمن في خسارتها لممتلكاتها في عام ١٨٥٧ ، بعد أن قام الجارتي والمفكر الحر توماس كوبر Thomas Cooper (١٨٠٥-١٨٩٢) ، الذي عاد مؤخراً إلى المسيحية ، بالاستيلاء مؤقتاً على قاعة العلوم . ومع إنتعاش العلمانية في عام ١٨٦٠ تولت جمعية The General Secular Benevolent Society ، وهي إحدى الجمعيات التي إنبثقت عن جمعية لندن العلمانية ، النشاط العلماني وعملت بطرق مختلفة كحلقة وصل ، وقامت بتنظيم الرحلات في أيام الاحد[3] . ومع ذلك ، كانَ إنتشار عدد لا بأس به من الجمعيات العلمانية ، فضلاً عن بروز قاعات الاجتماعات والمحاضرات سمة بارزة في تطور النشاط العلماني في بريطانيا خلال العصر الفكتوري . ولهذا عدت لندن مركزاً

---

(1) Royle, Victorian, pp.304-305.

(2) The Oracle of Reason, 6 May 1843.

(3) The Reasoner, 20 April, 18 May, 1, 8 June 1853, 25 June 1854, 18 December 1859; The London Investigator, October 1856; The National Reformer, 2 June 1860; The Reasoner Gazette, 29 April, 20 May, 18 November, 16 December 1860; The National Reformer, 24 August, 7 September 1861.

للنماذج المتباينة والمعقدة لمختلف أوجه الفكر الحر . ومن السهل رؤية هذا النشاط تحت الرداء العلماني ، فكما في حالة الحركة الجارتية ، كانت العناصر القيادية التي أنجبتها لندن أكثر حنكةً ومراساً من نظرائها في الاقاليم ، وهذه الحقيقة بحد ذاتها قد شكلت عدداً من الصعاب للقادة وذلك لوقوع القلب النابض للحركة الممثل بالزعماء الثانويين في خارج العاصمة في مدن مثل مانشستر وشفيلد وبرمنغهام[1] .

إرتكز نجاح التنظيم العلماني وإعتمد إلى حد بعيد على نوعية المحاضرين وجاهزيتهم ؛ وهذه الحقيقة قد تم إستنباطها من الاوينية ، وكذلك فإن الزيارات المنتظمة التي قام بها المحاضرون كانت لا غنى عنها في تحقيق أي تقدم حقيقي[2] . فعلى سبيل المثال ؛ أدت النقاشات التي أثارها هوليوك إلى جعل المفهوم العلماني أكثر رواجاً إن لم يكن مفهوماً على نحو كبير ، حيث إرتفعت نسبة مبيعات دورية The Reasoner خلال الاشهر الستة الأولى في عام ١٨٥٣ من ٣٠٠٠ نسخة إلى ٤٥٠٠ نسخة للعدد الواحد ؛ وهو أعلى معدل مبيعات حققته دورية خلال ذلك التاريخ . كما أن تعرض العلمانية للانتقاد والادانة من جانب الصحافة الدينية ساعد في ذيوع مفرداتها الفكرية في التداول اليومي[3] .

وكان لإحاطة الدوريات العلمانية بطيف واسع من الطروحات والأفكار الراديكالية قد ساعد على رواجها على نحو كبير . ففي عام ١٨٥٢ وضع هوليوك قائمة ضمت موضوعات ذات طبيعة سياسية وإجتماعية وتثقيفية ولاهوتية[4] . ولم يكن مثل هذا التنوع في الاختيارات أمراً غير مألوف ، ففي عام ١٨٦٠ أعلن جوزف باركر عن ٥٢ موضوع إنساني ، وعن محاضرة واحدة على الاقل عن كل موضوع ، وتمحورت جل تلك الموضوعات بالشأن الديني[5] . وبوجود هذه الجاذبية لدى الزعماء العلمانيين الأساسيين ، لم يتمكن الزعماء العلمانيين المحليين من المحافظة على القدر ذاته من الحضور على الساحة ، غير أن أعداد التنظيمات التي إنحسرت على نحوٍ تدريجي

(1) Royle, Victorian, p.195.

(2) The Reasoner, 24 April, 30 October 1850.

(3) The Reasoner, 9 April 1854.

(4) The Reasoner, 98 April 1852.

(5) The Reasoner, 19 February 1860; The National Reformer, 29 December 1860.

سرعان ما أرتفعت مرة أخرى مع إنشاء الاتحادات الاقليمية آواخر عام ١٨٥٦ ، ولكنها عادت لتتقلص نتيجة للركود الذي أعقب الازمة المالية في آواخر عام ١٨٥٧ ، مع أن الكساد لم يكن السبب الوحيد الذي يمكن أن يعزى إليه الضعف الذي أصاب العلمانية في آواخر خمسينيات القرن التاسع عشر . فعلى الرغم من إستمرار المحاضرين ، إلا أن عنفوان محاضراتهم أخذ بالتدني نتيجة لاسباب أخرى إضطرت العلمانيين إلى تضييق نطاق جولاتهم مقارنةً بالعامين ١٨٥٣-١٨٥٤ ، منها ما تعلق بهجرة ساوثويل إلى الولايات المتحدة في عام ١٨٥٥ ، وتكرار تدهور الحالة الصحية لروبرت كوبر مما أجبره على العودة إلى مدينة مانشستر في عام ١٨٥٨[١] . ولهذا بقي هوليوك متربعاً على عرش إلقاء المحاضرات على الرغم من عدم تناولها لموضوعات علمانية على نحو دائم[٢] .

وكانت المطبوعات على قدر كبير من الاهمية توازي أهمية الكلمة الملقاة في المحاضرات من حيث ترويج الافكار وتشجيع الجمعيات ، إذ سرعان ما يتم تداول الكراسة أو الدورية بين أيدي القراء لمدة ربما إمتدت لاسابيع وحتى لاشهر بعد صدورها الاول ، الأمر الذي سهّل من عملية نقل أفكارها وتوجهاتها[٣] . في الواقع تنامى الانتعاش في الفكر الحر مع مقدم عام ١٨٥٠ ، فقد كتب هوليوك في دورية The Reasoner ، بتاريخ ٦ شباط ١٨٥٠ ، مقالاً مطولاً بعنوان : «منطق الموت» حاول فيه إسقاط بعض الافكار اللاهوتية على مرض الكوليرا ، وحظي هذا العدد بمبيعات عالية[٤] . وإحتوت الطبعات اللاحقة على صور للجحيم ، بل سرعان ما لاقت سياسة مناهضة الكاثوليكية مع رسم الصور إستجابة حارة[٥] .

إمتازت خمسينيات القرن التاسع عشر بكونها مرحلة حرجة لكل الدوريات . فالثبات المالي الذي تمتعت به كل من دوريتي The Reasoner وThe London

---

(1) The Reasoner, 14 January, 17 June 1855; The London Investigator, July, October 1857; The Reasoner Gazette, 22 January 1860; The National Reformer, 19 July 1868.

(2) The Reasoner, 14 November 1858.

(3) The Reasoner, 13 April 1853; Holyoake, *George Jacob*, The History of the Fleet House: A Report of Sixteen Years, Cowen Tracts, Newcastle University, 1856, pp.5-8.

(4) The Reasoner, 17 April 1850.

(5) The Reasoner, 24 July 1850.

Investigator سرعان ما تعرض للخطر في أفضل الظروف . ولكن في عام ١٨٥٤ إرتفعت تكاليف الورق إلى ثلاث أو أربع شلنات للرزمة الواحدة (المكونة من ٥٠٠ ورقة) ، ولم ينتهِ هذا الوضع حتى إبطال رسوم الورق في عام ١٨٦١ حينها تم إزالة هذا العبء . في الوقت نفسه كان إلغاء رسم الطابع في عام ١٨٥٥ قد عنّي بأن الدوريات ، والتي كانت سائدة لحد هذه اللحظة بوصفها صحافة رخيصة ، غدت ولاول مرة عرضة لمنافسة حادة من جانب الصحف الرخيصة الشعبية . ولهذا فإن الدوريات كيفت نفسها مع هذا الوضع من أجل إدامة رواجها ، وهذا ما حاول هوليوك فعله في The Reasoner[١] .

أسلوب The Reasoner هو ذاته الذي إعتمدته دورية The New Moral World ودوريات الجيل المبكر . ففي عام ١٨٥٦ ، وصفت The Reasoner نفسها بإن محتوياتها هي : مقالات إسبوعية تكتب من المحرر فضلاً عن كُتاب بارزين ورسائل جدالية لرجال دين ومقالات تعنى بتقدم الفلسفة الوضعية وتقارير عن مناقشات ذات صلة بالعلمانية واللاهوت وعرض للكتب الريادية المعنية بالفكر الحر[٢] . فحينما سعى المرء لشراء دوريته العلمانية ،لم يكن ذلك في سبيل قراءة أخبارها بقدر علمانيتها . وإستمرت The Reasoner في إبقاء هامشها الناجح على الادب الديني . فقد إستمال هذا الادب أولئك العمال ذوي الميول الفلسفية ، الذين كانوا قلة ، ورجال الدين الليبراليون الذين تمنوا أن يبقوا على أتصال بأخر تطورات ما عُد آنذاك بالكفر الشعبي[٣] . وإستمر هوليوك بهذا النشاط إلى أن أخذت صحته تتدهور بالكامل في عام ١٨٥٩ . وكان الجهد الاخير في عام ١٨٦٠ تمثل في إزاحة العبء المالي من على كتفه حينما أطلق شركة The Reasoner Company ، ولكن قبل أن يأخذ هذا الامر مجراه كان هوليوك قد إستسلم للصراع مع مرضه بسبب الاكزما الحادة وتضخم الغدد ، الامر الذي إستدعى إيقاف The Reasoner في ٣٠ حزيران ١٨٦٠[٤] .

---

(1) The Reasoner, 25 February 1855.

(2) The Reasoner, 13 January, 2 March 1856.

(3) The Reasoner, 25 June 1851.

(4) The Reasoner, 21 August 1859, 23, 30 December 1860, 17 February 1861.

ولم تكن The Investigator بأفضل حال من The Reasoner في هذا الصدد . فقد أعاد إصدارها روبرت كوبر تحت عنوان جديد هو The London Investigator في نيسان ١٨٥٤ ، وكانت طرازاً قديماً من الدوريات الشهرية ، إذ كانت على غرار The Reasoner من حيث أوراقها الستة عشر من نوع الاوكتافو مقابل بنسين . وعلى الرغم من أن خط التحرير فيها تعارض مع علمانية هوليوك المعتدلة حيث تبنت العلمانية الملحدة والهجوم على الكنيسة ، ومعظم المساهمين فيها ، كانوا بين الفينة والاخرى ، في نزاع مع هوليوك ، إلا أنها لم تستطع منافسة الدورية الاقدم ، إذ لم تترك أي أثر على تداول The Reasoner . وكانت The London Investigator ، بوصفها دورية شهرية ، غير خاضعة لرسم الطابع ، ولكنها بقيت خالية من الاخبار حتى بعد إلغاء رسم الطابع ، وحينما قدمت مقترحات إفترضت على الدورية أن تغدو أسبوعية مقابل بنس ، فإن كوبر ، الذي مرض أيضاً ، لم يكن ميالاً للتخلي عن دوريته . وتقاعد في عام ١٨٥٧ ، ليتولى إدوارد ترولوف ، عملية النشر ، ودبليو . أتش . جونسون W. H. Johnson(١٨٣٤-؟) ، التحرير ، الذي حاول أن يغير من الدورية إلا أنه لاقى نجاحاً ضئيلاً . وأسقطت كلمة لندن من عنوان الدورية ، وفي تشرين الاول ١٨٥٧ إنخفض السعر والحجم إلى النصف ، مثلما عُدّل العنوان . ونال آخر مجلدين منها ترخيصاً في آذار ١٨٥٨ ، وأصبحت أعدادها تصدر كل نصف شهر ، ولكن حينما تولى برادلو الدورية في نهاية ذلك العام ، أشر ذلك ظهور المشاكل على غرار ماحصل لدورية The Reasoner . وسرعان ما تعرضت لاعاقة بسبب نقص الاموال ، لتعود مرة ثانية نشرةً شهرية في حزيران ١٨٥٩ ولتنتهي تماماً في آب[١] .

أما الدورية العلمانية الثالثة ، فهي The National Reformer ، المختلفة تماماً . فقد شقت طريقها بوصفها دورية واقعية وإنبثقت من الحركة الشعبية في الشمال بمبادرة من علمانيي شفيلد عام ١٨٦٠ . وأختير كل من برادلو وباركر ليغدوان أول محررين لها ، حيث أبليا بلاءً حسناً في هذه المهمة . فقد كان باركر ، الجارتي المشهور من ويست ردنك ، ذو سمعة معتبرة في الشمال بوصفه راديكالي سياسي وديني . وأدى تداول دورية The London Investigator إلى انغماس برادلو بعمق في سبيل ترويج

(1) The London Investigator, February, March 1856, April, October 1857, 1 November 1858, 15 January, 15 February, 1 April, 1 July 1859; The Reasoner, 11 September 1859.

العلمانية في الشمال . ومنذ البداية إرتكزت الدورية على أساس تجاري وهي National Reformer Company[١] . ولم يرَ هوليوك ، في بادئ الامر ، الدورية الجديدة بوصفها مهددة لموقعه ، وعمل بصفة وكيل لها في لندن . وبدت إنطلاقة الدورية الجديدة وكأنها لا تشهد إختلافاً ، في السراء والضراء ، لتضعف تدريجياً The Reasoner ، إلا أن هوليوك أساء فهم تلك الاشارات[٢] ؛ إذ تأسست دورية The National Reformer في زمن توسع العلمانية ورضا الاخيرة عن رواج الدوريتين كما كان في عام ١٨٥٤ ، ولم تستفد The Reasoner كثيراً في عام ١٨٦٠ من هذا الانتعاش الثاني ، الذي شهدته The National Reformer ، من إنتشار إقليمي تحت توجيه برادلو[٣] .

لقد تجسد الهدف الرئيس للنهج الراديكالي ، والطريقة التي سار وفقها بعض العلمانيين لبلوغ مرحلة النجاح ، في الإسلوب المتبع الذي راق لفلاسفة الطبقة الوسطى ومفكريها ؛ وهو ما انعكس بوضوح في الاماكن المتعددة التي إستخدمتها المجموعات العلمانية النشطة في لقاءاتها وتجمعاتها خلال خمسينيات القرن التاسع عشر . فمثلاً في أولدهام إبتدأ العلمانيون نشاطهم في حانة عامة Public House ، ثم بعد ذلك إنتقلوا إلى غرفة في Mutual Instruction Society ، لينتقلوا إلى فندق ، ومن ثم في متجر للكتب العلمانية ، وأخيراً في عام ١٨٦١ إستخدموا غرفة تعود إلى جمعية أولدهام التعاونية ، أما علمانيو مانشستر فقد إنتهجوا تقريباً النهج ذاته بإنتقالهم من إحدى الحانات العامة الى أحد المتاجر التعاونية[٤] .

في الواقع إمتازت العلمانية حتى على صعيد الجذب الميداني بالتنوع ، فالمناسبات الخاصة إقتضت تعامل من نوع خاص ، فمثلاً كان ميلاد بين وأوين يستقبلان بحفلات كبيرة ، ولم تقص الاحتفالات التي أقامها المسيحيون حتى

---

(1) Royle, Victorian, p.310.

(2) The Reasoner, 4 March 1860, 6 January 1861; The Reasoner Gazette, 18 March, 1, 8, April 1860.

(3) Royle, Victorian, p.220.

(4) The Reasoner, 15 January 1854, 1 April 1855; The National Reformer, 7 July, 18 August 1860, 7 September 1861.

الملحدين ، بل إمتازت مدارس يوم الاحد العلمانية The Secular Sunday Schools بحضورها الخاص في الاعياد المسيحية ، فخلال يوم الجمعة العظيمة عام ١٨٦٥ ، شارك العلمانيون في مسيرة تقليدية في هذه المناسبة وهم ينشدون ترانيم علمانية من كتاب الترانيم الاشتراكية القديم Social Hymn Book . أما في هدرسفيلد فقد قام العلمانيون بإحياء ذكرى إحدى مدارس يوم الاحد وقاموا بمنح الجوائز بهذه المناسبة في كل عام ، حيث تم إنشاد مجموعة جديدة من الترانيم العلمانية بلغت ما يقارب ٢٠٠ ترنيمة . كما جرى تفعيل دور الكنائس الصغيرة لتلعب دورها في النشاط العلماني ، مثلما لعبت الموسيقى دوراً مهماً في أي إجتماع علماني(١) .

إعتمد رواج العلمانية ، في أحيان كثيرة ، على إقامة تجمعات المخيمات ؛ إذ منحت هذه المخيمات فرصة سانحة للمحاضرين للحصول على جمهور أكبر بكثير من الجمهور الذي تمكنوا من إستقطابه في قاعاتهم غير الملائمة ، الأمر الذي أسهم في إضفاء جاذبية أكبر لنشاطات العلمانيين(٢) . وعلى أية حال أوضح لنا التوزيع الجغرافي لجمهور العلمانية على نحو جلي أصناف الاشخاص الذين شكلوا أعضاء العلمانية وجمهورها ؛ فلم يكن هناك عدد كبير من العمال الزراعيين ، في الوقت الذي وجدنا فيه أعداداً كبيرة من الحرفيين . وبرز في لندن مجموعات تجارية محددة ، فضلاً عن بعض صناع الاحذية في ويست أند ، والساعاتيين ، وكان صناع الاحذية في كل أرجاء البلد قد مثلوا ربع الحرفيين المتميزين الذين وردت أسماؤهم في الدوريات . أما الحائكون فقد إنتظموا في مجموعات مؤثرة . وقد أوحى ذلك أن العلمانية كانت حركة إحتجاجية لتجارة تحتضر ، إلا أن القوة التي تحلى بها علمانيو لانكشاير ويوركشاير والضعف النسبي للعلمانية المنظمة في بلدات مدلاند ، قد بيّن أن الاتحاد بين العلمانية وبعض المجموعات الحرفية هو ليس بالامر اليسير(٣) . ومع

---

(1) The Lancashire Beacon, No. 12, 19 October 1849; The National Reformer, 8 August 1863; McGee, Op. Cit., pp.21-22.

(2) The National Reformer, 24 May 1862.

(3) The Reasoner, 6 August 1851; Chadwick, Owen, The Victorian Church: 1829-1859, London, Oxford University Press, Part 1, p.334.

ذلك يمكن القول أن الزعامة العلمانية قد إنتمت إلى المجموعة الوسطى من أصحاب الحرف الماهرة والتجار وأصحاب المحلات الذين شغلوا المكانه الاكثر إنخفاضاً في سلم الاحترام ، الذين في ظروف مختلفة كان من الممكن أن يطلق عليهم لقب اللا متسرولين Sansculottes[١] ، بل أن هوليوك قد إنتمى إلى هذه المجموعة[٢] .

ركز العلمانيون عبر منهجهم الترويجي على أمور حساسة تتعلق بالمعتقدات الدينية وتمس المواطن المسيحي في حياته اليومية ؛ ومن بين تلك الامور ركزوا على قضية العمل في يوم الاحد ، الذي يعد عطلة في عرف المسيحيين الديني ، وإمكانية العمل خلاله والإفادة منه . ولهذا إنبرى العلمانيون بلفت الانتباه إلى قسوة قوانين منع المتاجرة في يوم الاحد ، وشددوا خلال الاعوام ١٨٥٨-١٨٥٩ على أن منع المتاجرة يمس قطاع واسع من المنتفعين المحدودي الدخل أو المعاقين ويؤثر بالتالي على حياتهم[٣] . وفي الوقت الذي أخذت فيه شعبية هوليوك بالانكماش بالتزامن مع محاولته الدؤوبة لإستعادة دوره الحيوي في النشاط العلماني ، كانت زعامة برادلو للحركة العلمانية عام ١٨٦١ تتجه نحو التأجيل خمس سنوات أخرى نتيجة لدخوله في صراعات شخصية ، حينما أنشأ الجمعية العلمانية الوطنية في عام ١٨٦٦ .

---

(1) Aberle, D. F., A Note on Relative Deprivation Theory, in: Thrupp, S. L. (ed.), Millennial Dreams in Action: Essays in Comparative Study, The Hague, 1962, p.237-244.

واللا متسرول Sansculotte : تسمية أطلقت في فرنسا على أنصار الثورة الفرنسية الاكثر تشدداً خلال الفترة ١٧٩٢-١٧٩٥ ، وكانوا منتمين إلى الطبقة الفقيرة أو زعماء لعامة الناس أو للطبقة الثالثة . وتعد التسمية كناية لرفض الاساليب الارستقراطية ، حيث كان الارستقراطيين يلبسون السروال لغاية الركبة آنذاك . أنظر :

Encyclopedia Britannica, CD., 2010; Furet & Ozouf, Francois, A Critical Dictionary of The French Revolution, Translated By: Arthur Goldhammer, Harvard University Press, 1989, pp.393-399.

(2) Isichei, E., From Sect to Denomination Among English Quakers, in: Wilson (ed.), Bryan R., Patterns of Sectarianism: Organisation and Ideology in Social and Religious Movements, London, Heinemann, 1967, pp.161-181.

(3) The Reasoner, 21 July 1858, 28 August, 25 September, 2 October 1859.

كـمـا أن رئاسـة التـحـرير المشـتـركـة بين برادلو وباركـر لـدورية The National Reformer لم تستمر طويلاً[1] . فقد كان باركر يكن العداء سلفاً لبرادلو على خلفية بعض الخلافات الشخصية ، إذ إختلف معه بشأن جميع القضايا التي تمت مناقشتها في الدورية ، فما كان منه إلا أن ترك العمل في هذه الدورية في آواخر آب ١٨٦١ ، وبعد ذلك بإسبوع بدأ بإصدار دوريته الاسبوعية التي أطلق عليها The Barker's Review ، التي كانت عبارة عن دورية للمصلحين المحافظين ، إذ إعتقد أن الكنائس والمدرسين المحترفين ضرورة إنسانية طبيعية[2] .

وعلى إثر ذلك تزعم برادلو دورية The National Reformer مع إشتراك هوليوك فيها ، إلا أن الخلافات سرعان ما دبت بينهما حيال آلية كتابة المقال الافتتاحي وتقليصه أمام هوليوك الذي تولى عملية كتابته ، وبلغ الخلاف أوجه وغدا مفترق الطرق جلياً بينهما[3] . لقد كان برادلو متفوقاً على هوليوك فيما يتعلق بالمهارات الفكرية والتنظيمية إلى حد بعيد ، وبعد أن إفترقا في عام ١٨٦٢ لم تشهد العلاقة بينهما أي وفاق دائم ، ومنذ ذلك الحين إنقسمت العلمانية إلى شطرين ؛ ونتيجة لنشر هذه الخلافات والانشقاقات بين الطرفين في الدوريات بين الفينة والاخرى ، تصاعدت المرارة بين صفوف أتباع كلا الزعيمين . لقد كان برادلو دائماً هو القائد للشطر الاكبر والاكثر شعبيةً ، والداعي إلى الالحاد المناضل ، في الوقت الذي ما زال فيه هوليوك متمسكاً بمنهجه المعتدل ، وكان بين الحين والاخر قد نجح في إستقطاب عددٍ من أتباع برادلو في الاوقات التي تعرض فيها برادلو إلى إنتكاسة جماهيرية ، إلا أن هوليوك على الرغم من ذلك لم يتمكن عموماً من زعزعة هيمنة برادلو على الحركة[4] . فقد أخذ برادلو في هذه المرحلة تتصاعد نبرته الحادة ضد المسيحية ، فنشر مقالاً هجومياً في The National Reformer نال فيه من شخصية المسيح من خلال

---

(1) The National Reformer, 31 August 1861.

(2) The Barker's Review, 7 September 1861, 5 July 1862; The National Reformer, 6 June 1863.

(3) Leeds Secular Society, The Converted Lecturer, or, Mr. Gordon's Repudiation of Secular Principles Examined, Leeds, New Agents' Newspaper and Pub., Ltd., 1862.

(4) Royle, Victorian, p.279.

مقارنته مع إله الهندوس كريشنا Krishna[١] ، سارداً ما إعتقده نقاط الشبه بين الاثنين[٢] ، ومحاولاً هدم الاساس الذي يرتكز عليه المسيحيون عبر تذكيرهم بأن المسيحية منحولة من أديان أخرى لا تقل في منزلتها عن ديانتهم .

وعلى أية حال ، جابهت الحركة العلمانية أزمة في هذا الوقت ، فتم التخلي عن جميع أشكال الوحدة ، وكان على المؤسسين أن يبدأوا من الصفر[٣] . وقاموا على إثر ذلك بتقسيم الفروع والمناطق بينهم ودخل المنافسون المحليون على الخط[٤] ، وإستطاع جون واتس John Watts (١٨٣٤-١٨٦٦) تبوأ منصب رئيس تحرير دورية The National Reformer منذ عام ١٨٦٣ . وهكذا قدر لبرادلو الظفر بالحركة العلمانية على نحوٍ تدريجي ، عندها كانت الاحداث تفيد بأن مذهب هوليوك قد تلاشى ، وأن مذهب برادلو لم يولد بعد ، ولكنه يزرع جذوره من خلال الاعمدة التي ينشرها في دورية The National Reformer وكذلك عبر مواهبه الخطابية التي لا تضاهى . وتمكن من تحقيق النصر ضد غرمائه نتيجة لما تمتع به من قدرات فعالة نالها في الاقاليم . أما هوليوك فقد أصدر دوريته The Secular World التي أطلقها في مايس ١٨٦٢ ، وعلى الرغم من الدعم المادي السخي له من يوركشاير إلا أنه لم يتمكن من الظهور سوى بمظهر ثاني أفضل أثنين[٥] . وعلى الرغم من تجدد الامال في عام ١٨٦٤ بالانتعاش العلماني وضرورة توحيد الجهود عبر تنظيم وطني علماني ، على إثر نمو بعض الجمعيات العلمانية المحلية وتغلغل تأثيرها في المجتمع ولا سيما في المناطق الشمالية

---

(١) بطل ملحمة المهابهارتا Mahabharata في الدين الهندوسي . أنظر :

Collins Concise Encyclopedia, p.316.

(2) McGee, Op. Cit., p.30; The National Reformer, February 8, 1862.

(3) The National Reformer, 15, 29 March 1862, 15 August 1863; The Secular World, 1 October 1863.

(4) The National Reformer, 31 August 1861, 8 August 1863; The Barker's Review, 9 November 1861, 1 February, 31 May 1862.

(5) The National Reformer, 31 January 1863, 16 January 1864; The Secular World, 17 May 1862.

الشـرقيـة وكـذلك في غـرب إسكتلندا[1] ، إلا أن هذه المؤشـرات لم تفضِ إلى ذلك حتى في العـام التالي ، ما أشر مرحلة جديدة من مراحل العلمانية البريطانية تحت زعامة برادلو ورؤاه الفكرية والتنظيمية وبالذات حينما أنشأ الجمعية العلمانية الوطنية في عام ١٨٦٦ .

---

(1) The National Reformer, 30 April 1865; The Secular World, 2 July, 5 November 1864; The Reasoner, 1 October 1865.

الفصل الثالث

العلمانية البريطانية منذ تأسيس الجمعية العلمانية الوطنية عام ١٨٦٦ ولغاية النزاع العلماني من أجل التمثيل السياسي عام ١٨٨٠- مرحلة الانتعاش العلماني

أولاً: تأسيس الجمعية العلمانية الوطنية National Secular Society عام ١٨٦٦ ونتائجها

على الرغم من الجهود الحثيثة التي بذلها برادلو من أجل ترويج العلمانية عبر جولاته الإقليمية لإلقاء المحاضرات ودور دوريته العلمانية The National Reformer ، التي غدت منذ عام ١٨٦٢ النشرة الاساسية في النشاط العلماني الراديكالي مع مطلع ستينيات القرن التاسع عشر ، إلا أن التحول الذي شهدته هذه الدورية الفعالة ، بعد أن أصبح جون واتس رئيس تحريرها في عام ١٨٦٣ ، كان قد أدى إلى تحفيز برادلو لاتخاذ خطوة جديدة في سبيل توجيه العلمانية وفقاً لرؤاه الخاصة[1] .

لقد قام جون واتس بقصر نشاط دوريةThe National Reformer على الشأن الراديكالي فقط ، مما أدى إلى تردي مستوى توزيعها إلى النصف وبنحو ٢٥٠٠ نسخة خلال شباط ١٨٦٦[2] . وفي الوقت الذي رغب فيه برادلو على إبقاءها دورية راديكالية ذات نكهة سياسية قوية ، إعتقد جون واتس بأن العلمانية تجد مكانتها أكثر في المواضيع اللاهوتية والفلسفية ، ولهذا أكد على بعض الاهتمام بالجانب السياسي . وحينما توفي الاخير في تشرين الاول من عام ١٨٦٦ ، إنتقلت زعامة دورية The National Reformer إلى برادلو . وتزامن ذلك مع بروز وجهة نظر علمانيو بلدة آشتون Ashton في مانشستر القائلة بأن إضافة صفحتين أو ثلاثة تتناول الجوانب السياسية من شأنه ، على نحو مؤكد ، أن يسهم في تقدم نسبة توزيع الدورية ، إلا أن بعض القراء بطبيعة الحال ، لم يتقبلوا وجهة النظر هذه ، وغدا التساؤل محل نزاع بشأن ما إذا كان ينبغي على العلمانية أن تعنى على نحوٍ مباشر بالسياسة على مدار

---

(1) Tribe, President Charles Bradlaugh, pp.67-86; The National Reformer, 31 January 1863; Royle, Edward, Radicals, Secularists and The Republicans: Popular Freethought in Britain 1866-1915, First Published, Oxford, The Alden Press, 1980, pp.4-5.

(2) The National Reformer, 27 February, 5 March 1864, 25 February 1866.

السنوات التالية . لقد كانت سياسة برادلو ناجمة عن ردة فعله تجاه التذمر الحاصل لجعل دورية The National Reformer مجرد دورية سياسية ، حيث هدف إلى جعلها دورية ذات رسالة ريادية في المسائل السياسية والاجتماعية واللاهوتية ، ولم يكن في نيته أن يتناول مسألة واحدة ويقصي بقية المسائل الاخرى[١] .

إن المحاولات المبكرة لتوحيد الجمعيات العلمانية المحلية قد نحت منحى الاتحادات الاقليمية أو الوطنية . وكانت المبادرة من الاقاليم ، أما القيادة المركزية فقد كانت مجرد حبر على ورق . وعلى الرغم من ذلك بدأ برادلو بمناقشة تأسيس الجمعية العلمانية الوطنية في حزيران ١٨٦٦ ، وفي آب إقترح تنظيماً وطنياً ؛ وبحلول أيلول وضع مع تشارلز واتس Charles Watts[٢] برنامجاً مكوناً من أهداف ومجموعة مبادئ . وكان الهدف من هذا البرنامج وجميع البرامج والنشاطات اللاحقة قد تم تلخيصها في المبدأ الرابع المقترح القائل : «**إن تقدم البشرية وسعادتها لا يمكن أن يُرقيان بفعالية من دون توفر حرية مدنية ودينية ؛ ولذلك فإنه واجب على كل فرد . . . أن يهاجم وبفعالية جميع الحواجز التي تعترض حرية الفكر والتحدث على نحو متساو في المواضيع السياسية واللاهوتية**»[٣] . فقد إستهدف هذا المبدأ السعي لازالة قوانين التجديف والتطبيقات المتعلقة بأداء القسم والعوائق الإكليروسية[٤] . وبعد ذلك أعلن برادلو نفسه رئيساً لهذه الجمعية على نحو مؤقت ، وأُعلن عن تشارلز واتس سكرتيراً مؤقتاً ، ووعدَ بعقد مؤتمر وطني حالما يتم تسجيل ألف عضو ، والسعي لمنح العضوية بناءً على أسس فردية ، أما رسوم الاشتراك فقد تقرر أن تكون شلناً واحداً . وخلال أسابيع قليلة إنضم ما يزيد عن مائة عضو ، ولكن مع مطلع شهر تشرين الاول ١٨٦٦ اقترح على المجموعات المحلية أن تكون قادرة

---

(1) The National Reformer, 29 April, 22 July, 12 August 1866.

(٢) تشارلز واتس (١٨٣٦-١٩٠٦) : محاضر وكاتب علماني بارز ، إنضم في عام ١٨٦٤ مع أخوه جون واتس في العمل النشري وأصبح مساعد محرر دورية The National Reformer لغاية عام ١٨٧٧ ، إختلف مع برادلو بشأن موضوع تحديد النسل في عام ١٨٧٧ . أنظر :

McCabe, A Biographical, pp.874-875.

(3) The National Reformer, 10 June, 15 July, 5, 12, 19, 26 August, 2, 9 September 1866.

(٤) أنظر ملحق رقم -٥- .

على تسجيل أعداد كبيرة لتعويض النقص الحاصل فيها(١) . فقد كان هذا هو النظام المستخدم سابقاً وحقق بعض النجاح ، ولكن في العام اللاحق قام برادلو بتطوير حلول وسطية نموذجية ، من خلال إبقاء آلية العضوية ، وفي الوقت نفسه السماح للجمعيات المحلية بتسجيل أعضائها مقابل ثلث رسوم الاشتراك المعتادة(٢) . إن هذا الاجراء لم يمنح العلمانيين المحليين الدافع لتحويل جمعياتهم إلى فروع تابعة للجمعية العلمانية الوطنية فحسب ، بل شجع بعض رواد ودعاة الاصلاح آنذاك ، على تحويل ولاءاتهم الراديكالية وكذلك طاقاتهم نحو تنظيم برادلو الجديد(٣) .

وعلى الرغم من هذه الولادة الجديدة كان التطور بطيئاً بعض الشيء ، وإستمر هذا البطء إلى أن قام تشارلز واتس بجولة إقليمية لإلقاء المحاضرات في خريف ١٨٦٧ ، حيث بدأ من نورثهامبتون ، في الوقت الذي واصل فيه أعضاء آخرون من الجمعية العلمانية الوطنية جولة شملت الساحل الشرقي عبر إسكتلندا ، ثم نيوكاسل ويوركشاير ولانكشاير وويست مدلاند وصولاً إلى لندن(٤) . وسرعان ما تجسدت نتائج هذه الجولات ، إذ تم جمع إشتراك ٤٠٠ شخص . كما تم تأسيس فروع جديدة في كل من نيوكاسل وديوزبري Dewsbury . وبحلول تشرين الثاني ، حينما عقد المؤتمر الاول في برادفورد ، بلغ عدد أعضاء الجمعية العلمانية الوطنية أكثر من ٥٠٠ عضو ، فضلاً عن أعضاء آخرين إنضموا للمؤتمر حينما وضعت خطة تقضي بتخفيض العضوية الفرعية موضع التنفيذ . لقد أقر مؤتمر برادفورد الانتخاب الذاتي لمنصب الرئاسة والسكرتارية ، كما تم تعيين واتس محاضراً مقابل أجر شهري(٥) .

ومع ذلك ، يمكن القول بأن الجمعية العلمانية الوطنية لم تتقبل على الفور توجه برادلـــو ، أو إن مجـرد حقيقــة التنظيم قد عني نجاحاً ضمنياً ، بل إعترفت دورية The National Reformer بوجود العديد من العلمانيين الملتزمين خارج تركيبة الجمعية العلمانية الوطنية ، وأن فقط ٥ ٪ من أولئك ربما قدر لهم إلقاء المحاضرات في

---

(1) The National Reformer, 23 September, 28 October 1866.

(2) The National Reformer, 14 April 1867.

(3) Royle, Radicals, p.6.

(4) The National Reformer, 21 April, 22 September, 10 November 1867.

(5) The National Reformer, 13 October, 1 December 1867.

لندن والاقاليم . فقد كانت الجمعية العلمانية الوطنية تعد ، حتى من جانب أعضائها ، مجرد منظمة إختارت برادلو ليتولى رئاستها[١] . أما المحاضرون الآخرون من أمثال جورج جاكوب هوليوك وهاريت لو Harriet Law (١٨٣٢-١٨٩٧) من لندن ، فقد كانوا يقفون ، على نحو كبير ، على الخط الجانبي . ولهذا تكمن قوة الجمعية العلمانية الوطنية وضعفها في إرتباطها الوثيق بشخصية برادلو ، وأن اولئك الذين لم يتمكنوا من العمل معه أو الذين لم يعتادوا على أسلوبه الشديد في الزعامة وجدوا أنفسهم عاجلاً أم آجلاً خارج نطاق العمل التنظيمي للحركة العلمانية تحت زعامة برادلو[٢] .

وفي هذا الوقت ، سعى برادلو للترويج عن العلمانية عبر سلسلة من المحاضرات ألقاها في عام ١٨٦٨ ، فخلال ١-٢ آب كان قد سافر لمسافة ألف ميل لإلقاء أربعة محاضرات في أدنبره وغلاسكو ، وفي ٢٢-٢٣ آب إنتقل لمسافة ٦٠٠ ميل من أجل إلقاء ثلاث محاضرات في مدينة Newcastle upon Tyne ، وفي ٦ أيلول ألقى ثلاثة خطب رئيسة في قاعة Free Trade Hall في مانشستر بشأن قضايا متعددة تناولت : «المسألة الايرلندية» و«تقدم الهرطقة» و«الازمة السياسية ومستقبل إنكلترا» . وبلغ المجموع الكلي لجمهور الحاضرين ٣٠٠٠ شخص[٣] .

وأخذت الخطى تتسارع خلال السنوات القليلة اللاحقة ، إذ إرتفعت نسب توزيع دورية The National Reformer من ما يقارب ٣٠٠٠ نسخة في عام ١٨٦٧ إلى ضعف هذا الرقم في عام ١٨٧٢ ، فقد رسخ برادلو لنفسه مكانة بوصفه واحداً من أبرز الراديكاليين في البلد ، وأصبحت الجمعية العلمانية الوطنية واحدة من الجمعيات الشعبية القيادية . ومن أجل تمويل ذلك تم تخفيض رسوم الاشتراك في عام ١٨٧٠ من شلن واحد إلى ثلاث بنسات ، ونتيجةً لهذا التخفيض أعلن تشارلز واتس تسجيل قرابة ألف عضو جديد بحلول نهاية هذا العام . وخلال عام ١٨٧٠ ألقى واتس وبرادلو عشرات المحاضرات ؛ وعلق الاخير قائلاً : «**جماهير غفيرة ، وتصفيق**

---

(1) The National Reformer, 24 November 1867, 26 April 1868.

(2) Royle, Radicals, pp.6-7.

(3) The National Reformer, 3 May, 9, 30 August, 6 September 1868.

حار ، وقلة من المناوئين ، وأعضاء جدد يضافون إلى صفوفنا»[١] .

وإنتعشت العلمانية على الصعيدين الوطني والمحلي ، وأُلهب الحماس في لندن نتيجة للمحاضرات المقامة في الهواء الطلق منذ عام ١٨٦٩ ، في حين كانت قاعة العلوم التابعة لبرادلو والواقعة في Old Street قد أفتتحت في العام السابق . وخلال الاعوام ١٨٦٧-١٨٧١ تم إفتتاح إتحادات علمانية إقليمية Regional Secular Unions في المناطق الجنوبية الغربية وThe Black Country (وهي التجمعات الحضرية في ويست مدلاند) ولانكشاير ويوركشاير ، وفي الشمال الشرقي وإسكتلندا . وتم تسجيل ٦٨ جمعية علمانية محلية في عام ١٨٧٠ ، وقد مثل ذلك ذروة النشاط للجمعية العلمانية الوطنية ، إذ بحلول عام ١٨٧٤ تراجع عدد الجمعيات إلى قرابة النصف[٢] . ويعود أحد اسباب ذلك إلى تحول طاقات العلمانيين نحو الحركة الجمهورية ، التي لعب كل من برادلو وتشارلز واتس دوراً قيادياً فيها . وإنخفض التأييد لترشح برادلو للمرة الثانية بوصفه رئيساً للجمعية العلمانية الوطنية في مؤتمر عام ١٨٧١ ، وهو المنصب الذي آل إلى المفكر الحر المسن آرثر تريفليان Arthur Trevelyan (١٨٠٢-١٨٧٨) ، وكذلك أخفق تشارلز واتس في الاستمرار بوصفه سكرتيراً لصالح دي . كي . فريزر D. K. Fraser أحد المساهمين المنتظمين في دورية The National Reformer تحت الاسم المستعار Freelance[٣] .

وواجهت الجمعية العلمانية الوطنية محنة في هذه المرحلة ؛ إذ وصلت ، من دون زعامتي برادلو وتشارلز واتس ، إلى شفير الانهيار ، حيث شهدت حضوراً باهتاً خلال العامين ١٨٧٢-١٨٧٣ . فقد كان تريفليان مسناً وبعيداً عن هذه المهمة ولم يكن سوى رئيس صوري ، ولهذا لم يرشح لمرة ثانية لتولي هذا المنصب . أما فريزر فلم يكن حاضراً حتى في مؤتمر عام ١٨٧١ ، بل لم يتم عقد أي مؤتمر سنوي خلال عامي ١٨٧٢ و١٨٧٣ ، فضلاً عن إمتناع أعضاء مجلس الجمعية العلمانية الوطنية وموظفيه

---

(1) The National Reformer, 4 August 1867, 5 September 1869, 29 May, 6 November 1870, 8 January, 12 November 1871, 7 January 1872.

(٢) أنظر ملحق رقم (١) في :

Royle, Radicals, pp.333-334.

(3) The National Reformer, 1 October 1871.

عن الحضور على نحو منتظم بعد أيلول عام ١٨٧٢ . وخلال شتاء عامي ١٨٧٢ و١٨٧٣ أصيب فريزر بوعكة صحية شديدة ، ولهذا أخذ كل من برادلو وتشارلز واتس على عاتقهما إرساء دعائم الفكر الحر العلماني من خلال المحاضرات وكتابة الاعمدة في دورية The National Reformer خارج نطاق تنظيم الجمعية العلمانية الوطنية . وبحلول صيف عام ١٨٧٣ راحت الجمعيات المحلية تندب حظها لشحة التنظيمات الاقليمية والوطنية(١) .

وفي خضم هذه التداعيات لم ييأس برادلو من السعي لإستقطاب العلمانيين والجهد العلماني عبر الاهتمام بالجمعية العلمانية الوطنية ، إذ دعا من خلال دورية The National Reformer أعضاء لندن إلى حضور محاضرته المقررة في قاعة العلوم في ٣١ مايس ١٨٧٤ . وبعد ذلك وبدعم من هؤلاء الاعضاء ، ترأس على نحو مؤقت الجمعية العلمانية الوطنية . وعلى إثر ذلك أصدر قائمة من الاهداف والمبادئ(٢) ، كما نظم عملية إنتماء الاعضاء للجمعية العلمانية الوطنية ، وعلى غرار ما حدث سابقاً تم تعيين تشارلز واتس بوصفه سكرتيراً ومحاضراً . وتم الاخذ بتدابير برادلو هذه في الاقاليم في إجتماعات عقدت في نيوكاسل في قاعة Free Trade Hall ومانشستر وكاسل هل Castle Hill وهدرسفيلد . وعندئذ أخذت الفروع بإعادة تشكيل نفسها ، ولاقت جولات إلقاء المحاضرات التي قام بها كل من برادلو وتشارلز واتس وجورج وليم فوت George William Foote (١٨٥٠-١٨١٥) حشداً من الانصار مرة أخرى(٣) .

وعلى الرغم من ذلك ، عكست دورية The Secular Chronicle مخاوفها من هذا النجاح وإنتقدت برادلو قائلة : «**العلمانية الان لا تتحلى بتنظيم مثلما كانت عليه قبل عشرين عاماً ؛ كلا إنها الان ليست على القدر ذاته من التنظيم الذي تمتعت به آنذاك . وإذا كانت بعض القاعات قد تم تشييدها ، ففي**

---

(1) The National Reformer, 20 December 1868; The Secular Chronicle, 13, 20 June 1875; The National Reformer, 19 January, 16 February 1873; The Secular Chronicle, 1 September 1873.

(٢) أنظر ملحق رقم -٦- .

(3) The National Reformer, 3 May, 7, 14, 21, 28 June, 6 September 1874.

المقابل فقدنا أخريات من بين أيدينا . وفي الوقت الذي تم فيه إطلاق العديد من الجمعيات الجديدة في المقابل إضمحلت أخريات . وسواء تعلق الامر بعدد العلمانيين وتنظيمهم فكليهما عرضة للخداع ، فقد كانوا يذهبون لحضور الاجتماعات الكبيرة التي تعقد في البلاد للاستماع إلى حديث السيد برادلو ، وإن التوهم بإنتعاش العلمانية هو أمر متناسب مع زيادة سطوته ، متناسين أن السيد برادلو يعد خطيباً مفوهاً على نحو جليل ، وأن غالبية مستمعيه لا ينجذبون في حقيقة الامر إلى ما يقوله بقدر ما ينجذبون إلى طريقة كلامه»[١] . ولهذا دعت هذه الدورية إلى عقد مؤتمر وطني والتطلع إلى بداية جديدة[٢] .

ورداً على ذلك ، دعت الادارة التنفيذية للجمعية العلمانية الوطنية إلى عقد مؤتمر في مانشستر في عام ١٨٧٥ . وعلى الرغم من دعوة جميع المجموعات العلمانية لإرسال المندوبين ، إلا أن التصويت كان مقتصراً على فروع الجمعية العلمانية الوطنية . وأدى هذا القصر لحق التصويت إلى إستياء أعضاء برمنغهام والعاملين في دورية The Secular Chronicle على نحو جلي ، كما عبرت أيضاً الجمعية الانتقائية في غلاسكو Glasgow Eclectic Society عن معارضتها التي كانت قد إنضمت إلى الجمعية العلمانية الوطنية على مضض . ولكن على الرغم من ذلك ، فإن برادلو مضى قدماً ، وأشر مؤتمر مانشستر البداية الجديدة للجمعية العلمانية الوطنية ، حيث تم على إثر ذلك عقد مؤتمر لاحق في عام ١٨٧٦ في ليدز حضره ١١٩٢ عضواً[٣] .

وفي الاعوام ١٨٧٠-١٨٧٦ حدثت تغيرات عديدة في الزعامة الاقل منزلة للحركة العلمانية ، إذ أزاح الموت كل من أوستن هوليوك Austin Holyoake[٤] طبّاع

---

(1) The Secular Chronicle, 1 September 1874.

(2) The Secular Chronicle, 3 January 1875.

(3) The National Reformer, 24 January, 18 April, 2, 23 May 1875; The Secular Chronicle, 4, 11, 18, April, 2, 23, May 1875; The Secularist, 17 June 1876.

(٤) أوستن هوليوك (١٨٢٧-١٨٧٤) : الاخ الاصغر لجورج جاكوب هوليوك ، أصبح أوينياً ومن ثم مفكراً حراً ، بدأ بالعمل طباعاً في عام ١٨٤٧ ، وأدار قسم الطباعة في مقر دورية The Reasoner في شارع الصحافة في لندن ١٨٥٣-١٨٦٢ ، وساعد في نشر دورية The Reasoner خلال =

برادلو في نيســـــان ١٨٧٤ ، وجـــورج هولاند ريدالز George Holland Reddalls (١٨٤٦-١٨٧٥) محرر دورية The Secular Chronicle في تشرين الاول ١٨٧٥ . أما الدكتور جورج سكستون George Sexton (١٨٢٥-١٨٩٨) أحد المحاضرين البارزين الذي عُد ميلامبس Melampus (العراف وفقاً للميثولوجيا اليونانية) دورية The National Reformer ، فقد تحول إلى الشؤون الروحانية ، في حين هجر فريزر العلمانية ونحى منحىً دينياً . ومن جهة ثانية ، كان فوت قد مثل واحداً من أكثر الشباب الواعدين في النشاط العلماني ، مثلما مثلت الثيوصوفية[1] والناشطة الحقوقية لحقوق المرأة آني بزنت Annie Besant (١٨٤٧-١٩٣٣) مكسباً لكل من برادلو والعلمانية على حدٍ سواء . وبعد إنضمام جوزيف سيمز Joseph Symes (١٨٤١-١٩٠٦) إلى ركب الفكّر الحر العلماني في عام ١٨٧٦ ، حازت الجمعية العلمانية الوطنية على فريق كبير من المحاضرين الذين من خلالهم حشّدت جهودها في كل أنحاء البلاد[2] .

= الاعوام ١٨٥٩-١٨٦٢ ، ومن خلال شركة Austin & Co. خلال الاعوام ١٨٦٤-١٨٧٤ ، وأصبح مساعد محرر دورية The National Reformer ١٨٦٤-١٨٧٤ ، ونشط في المطالبة بالاصلاحات ، وغدا عضواً في النادي الجمهوري في لندن The London Republican Club . أنظر :

The National Reformer, 19 April, 10 May 1874.

(١) نسبةً إلى الفلسفة الثيوصوفية Theosophy : وتعني الحكمة الالهية ، وهي فلسفة روحية تعتمد التأمل الفلسفي الروحي لمعرفة الاله ، أشتقت من اليونانية Theosophia . وتعد الكاتبة والروائية الروسية الاصل هيلينا بتروفنا بلافاتسكي Helena Petrovna Blavatsky (١٨٣١-١٨٩١) ، مؤسسة الفلسفة الثيوصوفية ، حيث أسست الجمعية الثيوصوفية Theosophical Society في عام ١٨٧٥ في مدينة نيويورك الامريكية . أنظر :

Besant, Annie, Theosophy, London & New York, Dodge Publishing Co., 1912; Besant, Annie, An Autobiography, Second Edition, London, T. Fisher Unwin, 1893; Tingley, Katherine, Helena Petrovna Blavatsky: Foundress of The Original Theosophical Society in The New York 1875, California, The Woman's International Theosophical League, 1921.

(2) Royle, Radicals, p.11.

لقد إستلزم القيام بتدابير جديدة بمجالي الطباعة والنشر على إثر وفاة أوستن هوليوك جراء إصابته بمرض السل وهو بعمر ٤٧ عاماً . فقد قام أوستن بخدمة الحركة العلمانية منذ دخوله في شراكة مع شقيقه جورج جاكوب هوليوك في عام ١٨٥١ . وبعد مماته تم شراء أعماله لصالح تشارلز واتس . وفي كانون الاول ١٨٧٤ توفي ناشر آخر من الناشرين العلمانيين البارزين وهو جيمس واتسون ، وكان آل هوليوك قد تولوا معظم أعماله التجارية منذ إعتزاله عام ١٨٥٤ ، كما أن قوالب الطباعة وموجودات مخزنه قد إنتقلتا إلى تشارلز واتس الذي أصبح مالكاً للارث الطباعي العلماني . وأُرغم الاخير ، نتيجة لذلك ، على التخلي عن منصبه في سكرتارية الجمعية العلمانية الوطنية في عام ١٨٧٦ ، إلا أنه كان بمثابة الشخص الثاني في الحركة العلمانية ، إذ واجهته عقبة أخرى تمثلت بمنافسة بزنت له ولا سيما حينما تمكنت الاخيرة وبنجاح من إبعاد فوت الطموح ، إذ شرع الاخير بالمساهمة في دورية The National Reformer في عام ١٨٧٠ وكرس نفسه على نحو فاعل في قاعة العلوم فضلاً عن النزعة الجمهورية . فقد كان متحدثاً لبقاً وتحلى بالنشاط والحماس وأصبح من الواضح أن له مستقبلاً واعداً بوصفه علمانياً . وكان مثاله الاعلى في الزعامة في تلك الفترة قد أُستقي من فكر هوليوك ومنهجيته ومن قوة برادلو وإنفعاليته[1] .

في بادئ الامر مال فوت إلى دعم برادلو ، ولكن في عام ١٨٧٥ بدت عليه ملامح التململ ، إذ أخذ يتجرأ على إنتقاد برادلو في دورية The Secular Chronicle مما أدى إلى تلقيه توبيخاً صارماً على الفور من برادلو ودورية The National Reformer . فقد أدرك فوت أمراً سبق أن أدركه العديد من الراديكاليين وزعماء الفكر العلماني وهو : أن ثمن الزعامة الهادفة والناجحة لبرادلو هي الطاعة الشديدة ، حيث قال فوت متسائلاً : «**لماذا يقارن شخصٌ ديمقراطيٌ مثل السيد برادلو بين الحزب الذي هو عضواً فيه وبين حشد الماكنة المدربة ، بدون إرادة أو تصميم ما عدا إطاعة كلمة القيادة؟ أنا لست جندياً بل مواطناً**»[2] . إن ما أزعج فوت في حقيقة الامر لم يكن مجرد معاملته بوصفه تابعاً ، بل إفراط برادلو في تفضيل زميلته

(1) Foote, George William, Secularism Restated: With a Revie of The Several Expositions of Charles Bradlaugh and George Jacob Holyoake, London, W. J. Ramsey, 1874, pp.4-5.

(2) The Secular Chronicle, 15, 22 August, 1875.

الشابة الجديدة بزنت[١] . لقد إحتج فوت على إبعاده هذا ، ولهذا أخذ بالتطلع نحو جورج جاكوب هوليوك الذي كان لا يزال يحظى بإحترام لكونه مؤسس العلمانية ، وتطلع للعودة على غرار أصحاب مغارة عدلام Cave of Adullam[٢] لمناكفة رؤى برادلو . ومع بداية عام ١٨٧٦ أطلقا دوريتهما المعنونة : The Secularist ، ولكنهما سرعان ما إفترقا بعد شهرين ، ففي الوقت الذي إستمر فيه فوت بإصدار دورية The Secularist قام جورج جاكوب هوليوك بإصدار دوريته المعنونة : The Secular Review[٣] .

وفي مؤتمر الجمعية العلمانية الوطنية في ليدز في عام ١٨٧٦ شن فوت هجمة عنيفة على منصب الرئاسة وعلى شاغله ، ولكن ومن بين جميع الشخصيات العلمانية البارزة لم تسانده سوى هارييت لو في مطالبته الرامية إلى توسيع الهيكلية القيادية للجمعية العلمانية الوطنية . ففي كل مرة إلتمس فيها من هوليوك العون كان الاخير يخذله ، وبهذا تلقى فوت هزيمة ساحقة وغدا منصب برادلو أكثر أماناً من قبل[٤] . وفي الاجتماع الذي ضم الادارة التنفيذية للجمعية العلمانية الوطنية في ٢٤ حزيران قام هوليوك بتأييد إبعاد فوت ، فرد الاخير بعصبية من خلال دوريته The

---

(1) The Secular Chronicle, 8 August 1875.

(٢) مغارة عدلام : عدلام كلمة عبرية تعني الملجأ ، أشار لها العهد القديم في بلدة عدلام كمكان لجأ له النبي داوود ، وتقع في موقع يقال له تل شيخ مذكور على مسافة ١٥ كم للشمال الشرقي من بيت جبرين في فلسطين ، أو يقال إنها مغارة وادي قريطون على بعد نحو ثلاثة عشر ميلاً جنوب غربي بيت لحم ، ويستخدم مصطلح «مغارة عدلام» في الكناية السياسية عند الاشارة لمجموعة صغيرة بعيدة عن السلطة لكنها تخطط للعودة . أنظر :

The International Standard Bible Encyclopedia, Michigan, Wm. B. Eerdmans Publishing Co., 1979, Vol.1, p.58; Winter, James, The Cave of Adullam and Parliamentary Reform, *The English Historical Review*, Oxford University Press, Vol.81, No.318 (Jan., 1966), p.38.

(3) Royle, Religion, p.7; Taylor, G. H., A Chronology of British Secularism, National Secular Society, 1957, p.6.

(4) The National Reformer, 11 June 1876.

Secularist قائلاً : «إن الاقصاء مهزلة كبيرة ، لكن ذلك ليس بخطئه ، فالرجل يعنيها بحق . مثل هذا التقدير الرائع لكرامته ومحدداته الضرورية للحرية الديمقراطية ما هو إلا دليلاً كافياً على ملائمة السيد برادلو لشغل منصب الرئيس في الجمهورية القادمة [في إشارة لترويجه للنزعة الجمهورية آنذاك] ، التي كرس بحكمة الكثير من أجل التعجيل بها . إن أولئك الذين يجتمعون تحت لوائه سوف يتحدون على نحوٍ حقيقي ، إذ لن يسمح للمخالف البقاء على قيد الحياة»[1] .

لقد مثل تأسيس الجمعية العلمانية الوطنية مرحلة جديدة في العمل التنظيمي المنصب من أجل توحيد الجهد العلماني الذي وقف ورائه إرادة زعماء الحركة العلمانية ورغبتهم آنذاك المتمثلة بشخص تشارلز برادلو . وعلى الرغم من الزخم الكبير الذي أعطاه الاخير لهذه الخطوة ، إلا أن ذلك أفضى إلى صياغة التنافس بين رؤى الزعماء العلمانيين الآخرين وأدى بالمحصلة إلى تكريس زعامة برادلو داخل الجمعية العلمانية الوطنية من جهة ، وإلى تبني زعماء آخرين فكرة إطلاق دوريات علمانية منافسة رداً عليه من جهة أخرى إنتهجت خطها الخاص في نشر الرؤى والافكار العلمانية ؛ وكان لتزامن ذلك مع تغذية وإنعاش مواضيع فكرية سبق وأن أحدثت ضجة كإعادة ترويج مواضيع تحديد النسل ؛ أن أسهم في تعزيز الروح المدنية والحرية الفردية ومحاولة إصلاح القانون المرتبط بهما وفق الطروحات العلمانية .

ثانياً: العلمانيون وإعادة ترويج مواضيع تحديد النسل- قضية كراس نولتون The Knowlton Pamphlet وإنعكاسها على الحرية الفردية وإصلاح القانون

كانت من بين الادوات التي إستخدمها العلمانيون بذكاء من أجل رفد الرؤى العلمانية المدنية الجديدة في بناء المجتمع عبر دورياتهم وكراريسهم إعادة ترويج مواضيع تحديد النسل وربطها بموضوع تحرير المرأة Women Emancipation والتذكير بموقع المرأة الوظيفي داخل الاسرة والمجتمع البريطاني ؛ ولهذا ركزت مواضيع تحديد النسل في هذه المرحلة على مسألة تحرير المرأة من الخوف ومن عبودية عبء إنجاب

(1) The Secularist, 29 July 1876.

الاطفال ، وأن ذلك الامر لا يتحقق إلا من خلال ضمان عدم ملء المنازل بالاطفال الجوعى في الاحياء الفقيرة ، وتعزيز الدعوة النسويّة Feminism (أي المساواة بين الجنسين) للتخفيف من حدة وصاية الرجل على المرأة .

لقد كان من بين موجودات متجر جيمس واتسون التي آلت إلى تشارلز واتس ، بحكم إتفاق مسبق ، في عام ١٨٧٥ القوالب الطباعية لكراس الطبيب والملحد الامريكي تشارلز نولتون Charles Knowlton (١٨٠٠-١٨٥٠) ، المعنون : «ثمار الفلسفة : أو الرفيق الخاص للمتزوجين الشباب» ، الذي دعا فيه إلى إتخاذ وسائل محددة لمنع الحمل[١] . وكان هذا الكراس قد نشر في بادئ الامر في ولاية نيويورك عام ١٨٣٢ ، وتعرض خلال الاعوام الثلاثة الاولى إلى ثلاث ملاحقات قضائية ، حتى أن نولتون شخصياً كان قد حكم عليه بالسجن لثلاثة أشهر مع الاشغال الشاقة . وكان جيمس واتسون أول من أصدر الطبعة البريطانية لهذا الكراس في عام ١٨٣٤ ، وبيع منه ألف نسخة في العام الواحد دون أن يتعرض إلى ملاحقة قضائية . وروج ناشرو الفكر العلماني وباعة الكتب هذا العمل بسعر ٦ بنسات للنسخة الواحدة . وبحلول عام ١٨٧٦ كانت الاوساط الطبية قد تجاوزت المعلومات الواردة فيه ، بل لم يعره أحد أي إهتمام ولم يكلف تشارلز واتس نفسه عناء قراءته[٢] .

ومما ساعد بالتعجيل في إحداث ضجة في بريستول قيام بائع الكتب هنري كوك Henry Cook ، بإرسال كاتالوج لسلعه مغلف بغطاء بسيط إلى زبون له في موقع عمله ، فقام رب عمل الزبون بفتح المغلف وسلم محتوياته للشرطة ، وعلى إثرها ذهبت الاخيرة إلى كوك وأخذت منه كراس نولتون من بين مجموعة الاعمال لاغراض

---

(١) ألقى نولتون باللائمة في كراسه ، قدر تعلق الامر بمعظم ويلات المجتمع ، على كبر حجم الكثير من الأسر ، ولهذا شجع على إجراء الغسل (أي قيام المرأة بغسل مهبلها) بعد الإتصال الجنسي لتفادي الحمل ؛ وذكر بأنه مقابل فكرة الاحجام عن الجماع أو إستخدام الواقي الذكري الشائع آنذاك ، ستضع فكرة الغسل المهبلي سلطة الحمل بأيدي المرأة . أنظر :

Knowlton, Charles, The Fruits of Philosophy: or The Private Companion of Young Married People, A M S Press, 1982.

(2) Fryer, Peter, The Birth Controllers, London, Secker & Warburg, 1965, pp.99-105.

الفحص ، وعلى الفور تم تصنيف الكراس وفقاً لمرسوم المنشورات الفاضحة Obscene Publications Act لعام ١٨٥٧[١] ، ووفقاً للمادتين ٢٠ و٢١ من الفصل التشريعي رقم ٨٣ ؛ ليعتقل على إثرها كوك في ٢٩ كانون الاول ١٨٧٦ . وحينما علم تشارلز واتس للمرة الاولى بشأن الملاحقة القضائية ضد كوك كان برادلو خارج لندن ، وبعد إستشارة بزنت نصح تشارلز واتس كوك بأن يدافع عن الكراس بوصفه عملاً طبياً ، لكن الامر الذي كان يجهله هو أن كوك ، على الرغم من الحصول على نسخه من تشارلز واتس بسعر الجملة البالغ ٤ بنسات وعلى أمل أن يبيعها بسعر ٦ بنسات للنسخة الواحدة ، قام بإزالة ختم الناشر وأضاف بعض الايضاحات التي عُدّت فاضحة[٢] ، وباع النسخة الواحدة بسعر شلن[٣] و٨ بنسات . وهكذا وجد كوك مذنباً ونال أقصى عقوبة تمثلت بسجنه لمدة عامين مع الاشغال الشاقة . وعندئذ توقف تشارلز واتس على الفور عن بيع هذا المؤلف ، ولكن في ٨ كانون الثاني ١٨٧٧ أُتهم بنشره عملاً فاضحاً[٤] .

في بادئ الامر كان تشارلز واتس عازماً على الدخول في نزاع من أجل القضية ، لذلك قام مع زوجته كيت Kate بإستشارة برادلو وبزنت ؛ وكانت الاخيرة تواقة لنجدة الحركة العلمانية ، على الرغم من معرفتها بإنقسام الآراء بشأن موضوع تحديد النسل ، أما برادلو فقد منح وعداً بالعناية بموقف واتس . ولكن بعد قراءة كراس نولتون على نحوٍ دقيق ، قررت عائلة واتس النأي بنفسها عن الدفاع عنه ، عندئذ إستشاط كل من

---

(1) Roberts, M. J. D., Morals, Arts, and The Law: The Passing of The Obscene Publications Act 1857, *Victorian Studies*, Indiana University Press, Vol.28, No.4 (Summer, 1985), pp.609-629.

(٢) نشر في كراسته الانفة الذكر ، فضلاً عن أفكار نولتون ، صوراً توضيحية لوسائل وأدوات منع الحمل ، ولهذا عدت فاضحة وسلوكاً منافياً للعادات والآداب الاخلاقية العامة آنذاك . أنظر :

Knowlton, Op. Cit.; The National Reformer, 14 January 1877.

(٣) بلغت قيمة الشلن في هذه المرحلة ١٢ بنساً لغاية عام ١٩٧١ حينما بلغ ٥ بنسات . أنظر :

Crumpton (ed.), Philip, Movements in European History, Cambridge, Cambridge University Press, 2002, p.333.

(4) The National Reformer, 14 January 1877.

برادلو وبزنت غضباً ، ولهذا قررا ترك جميع ترتيبات ومتعلقات عمل واتس ، فضلاً عن قيام برادلو بطرده من منصب مساعد تحرير دورية The National Reformer . وفي ٨ شباط في محكمة أولد بيلي برر واتس إدانته القانونية ووافق على إتلاف القوالب الطباعية وموجودات مخزنه ، ليتم على إثرها إطلاق سراحه بكفالة مقدارها ٥٠٠ جنيه استرليني فضلاً عن إلزامه بدفع التكاليف[١] .

ورداً على ذلك إرتأى كل من برادلو وبزنت إنشاء شركة نشر الفكر الحر الخاصة بهما ، وسط إتهامات متبادلة أدت إلى إنشقاق برادلو عن واتس . وسرعان ما نشرت تفاصيل هذا الانشقاق في دوريتي The National Reformer وThe Secular Review فضلاً عن كراسات منوعة ، وبدا أن كلا الطرفين قد تصرف بناءً على عقيدة راسخة ، إذ شعر برادلو بأن واتس خذل قضية الفكر الحر ، في حين شعر واتس بأن الكراس لم يكن يستحق أن يسجن بسببه ، أما بزنت ، التي سعت لجمع الاموال اللازمة للدفاع ، فقد شعرت بالاحباط نتيجة لإستسلام واتس المشروط[٢] ، فقد أصيب أعضاء الجمعية العلمانية الوطنية بالصدمة والحيرة نتيجة لتضارب ولاءاتهم ، إذ كان كل من واتس وبرادلو زميلان مقربان على مدار أكثر من عشرة أعوام ، وأسهم كليهما في تشكيل الجمعية العلمانية الوطنية وإنعاشها ، وكان واتس شخصية تحظى بالقبول وأعداؤه قليلون داخل الحركة العلمانية ، أما برادلو فقد كان في موضع مختلف ، فطالما كان يصبو إلى المناصب وهو ما عكسته محاضراته ، وتلقى بين صفوف أولئك الذين كانوا يعرفونه جيداً إستياءً ملموساً جراء هيمنته على الحركة . وعلى النحو ذاته ، كانت بزنت محاضرة جديدة متحمسة بين صفوف المحاضرين ، لكنها لم تكن عند العديد من

---

(1) Nethercot, Arthur Hobart, The First Five Lives of Annie Besant, London, University of Chicago Press, 1961, pp.119-123; Tribe, President Charles Bradlaugh, pp.173-180; The National Reformer, 18 February 1877; The Secular Review, 13 October 1877.

(2) The Secularist, 27 January 1877; The National Reformer, 11 February 1877; The Secular Review, February 1877; Foote, George William, Mr. Bradlaugh's Trial and The Freethought Party, C. Watts, 1877; Watts, Kate Eunice, Mr. Watts's Reply to Mr. Bradlaugh's Misrepresentations, 1877.

الاعضاء القدامى سوى شخصية حديثة العهد متسمة بالحماس المفرط[١] .

تمخض عن الخلاف بين برادلو وواتس إلى إحداث مجادلات شرسة في أوساط الصحافة العلمانية والجمعيات العلمانية المحلية ، إذ أكد أنصار برادلو على رغبتهم في الدفاع عن حرية النشر بأي ثمن ، أما أنصار واتس فقد دافعوا عن حقه بالاختلاف مع برادلو وإستهجان طرده من طرف الاخير ؛ وتأكد ذلك حينما إستقبلت جمعية نوتنغهام Nottingham Society واتس بحفاوة كبيرة ، فضلاً عن حصوله على دعم الجمعية الانتقائية في غلاسكو ، أما جمعية دندي Dundee Society فقد ذهبت إلى أبعد من ذلك حينما قامت بإلغاء محاضرات برادلو ، إلا أن الاخير تلقى دعماً من بلدة ستوربريدج Stourbridge وبريستول[٢] . وعلى الجانب الاخر ، إعتقد سكرتير الجمعية العلمانية في لندن جي . بي . آدمز بأنه : «**إذا ما إنحدر [واتس]في الدفاع عن هذا الكتاب ، فإنه من الافضل له أن يراعي مصلحة المجموعة [الجمعية] وأن يحترم كرامتها ، وأخيراً عليه أن يعمل على تبرئة أدبياتنا التي لا ينبغي لها أبداً أن تمتزج معها**»[٣] . وعلى أية حال ، حظيت دورية هوليوك The Secular Review بالقبول لدى واتس ، في حين كانت دورية فوت The Secularist أقل تعاطفاً معه ، وبقيت دورية برادلو على عدم تعاطفها معه ، ولم تكن هارييت لو التي كانت في هذه المرحلة تدير دورية The Secular Chronicle من أصدقاء واتس ، إلا أنها إعتقدت بأنه من المفترض أن يسمح له بأن يفعل ما يعتقد أنه حسن دون أن يؤدي إلى فقدان بعض أصدقائه نتيجة لذلك[٤] . أما أوين بالمفورث Owen Balmforth (١٨٥٥-١٩٢٢) ، زعيم علمانيي هدرسفيلد ، فإن ما قام به برادلو يمكن أن يقارن مع مالك طاحونة حينما يقوم بطرد محاسبه نتيجة لان الاخير قام بالتصويت خلافاً لتوجيهاته ، وتساءل مستهجناً في دورية The Secularist : «**إلى**

(1) Tribe, President Charles Bradlaugh, p.177.

(2) The National Reformer, 28 January, 4, 11, 18 February 1877.

(3) The Secular Chronicle, 21, 28 January 1877.

(4) The Secular Review, 21 January, 4 February 1877; The Secularist, 27 January 1877; The Secular Chronicle, 28 January 1877.

متى ستسمح مجموعة الفكر الحر للسيد برادلو في مسك رايته ، وهو يقترف أفعالاً كهذه؟»[1] .

وعلى خلفية ذلك إنسحب بعض العلمانيين الذين عَدوا أنفسهم واعين وذوي منزلة معتبرة ، في حين قام هوليوك بتسليم دوريته The Secular Review إلى تشارلز واتس في شباط ١٨٧٧ ، كما قام فوت بضم دوريته The Secularist إليها في حزيران . وبعد ذلك نشأ تكتل منافس لبرادلو حول دورية The Secular Review الجديدة ، ونما هذا التكتل شيئاً فشيئاً ولم يضطر إلى إبداء أية مهادنة مع برادلو بتاتاً . وبمرور الوقت وعند إنعقاد مؤتمر نوتنغهام في عام ١٨٧٧ لاحت في الاجواء شكوك حول بقاء ولاء جماهير الجمعية العلمانية الوطنية لبرادلو . ولم تكن هذه المشاعر نتيجة لاستحواذه على زعامة الجمعية فحسب ، إذ شهدت القضية برمتها تحولاً مهماً في شهر حزيران لا سيما بعد إلقاء القبض على برادلو وبزنت نتيجة لقيامهما بإعادة طبع كراس «ثمار الفلسفة» ، عندئذ نُسيت جميع الاعتراضات بشأن هذا الكراس ، وغدا الان حق النشر وحشد المفكرين الاحرار العلمانيين في المقدمة ، لتتلاشى قضية إساءة برادلو لواتس أمام الخطر المحدق بالحركة العلمانية[2] .

وعلى الرغم من ذلك ، عزم كل من برادلو وبزنت على إختبار القضية خارج إطار إعادة طبع كراس «ثمار الفلسفة» ؛ إذ تم تعديل نص الكراس على نحو قليل هذه المرة وعرض بهوامش طبية كتبها الطبيب جورج درسديل ، ومع ذلك عُدّ عملاً محظوراً إلى حد بعيد . فقد تم عرض نسخ جديدة للبيع في أبنية شركة نشر الفكر الحر في يوم السبت ٢٤ آذار ١٨٧٧ ، فضلاً عن بيع ما يقارب من ٥٠٠ نسخة خلال عشرين دقيقة ، أما عند حلول الساعة السادسة مساءً فقد وصل عدد النسخ المباعة إلى ٨٠٠ نسخة ، ولغاية حلول يوم الاثنين لم تصل مذكرة إعتقال بحق برادلو وبزنت ، ولم يتم إستدعاء أي منهما قبل ٥ نيسان للمثول أمام محكمة غلدهول Guildhall ، وفي ١٧ نيسان حضرا إلى محكمة أولد بيلي لمحاكمتهما . وتزامناً مع هذه الأحداث تم جمع الاموال اللازمة لاغراض الدفاع التي بلغت ٣٩٠ جنيه إسترليني ، وحقق العدد الصادر من دورية The National Reformer ، الذي نقل وقائع جلسة الاستماع التي

---

(1) The Secularist, 3, 10 February 1877.

(2) Royle, Radicals, p.15.

جرت في محكمة غلدهول ، نسبة مبيعات بلغت ٢٥٠٠ نسخة ، عندئذ تمت تعبئة الرأي العام بإتجاهين مختلفين ؛ الاول مناصر والاخر معارض . ومع ذلك نجح برادلو في نقل القضية أمام أنظار هيئة محلفين خاصة في محكمة Queen's Bench .

لقد تم عرض قضية برادلو وبزنت في محكمة Queen's Bench أمام رئيس المحكمة السير الكسندر كوكبيرن Sir Alexander Cockburn (١٨٠٢-١٨٨٠) في ١٨ حزيران ١٨٧٧ ، في حين قاد القضية النائب العام السير هاردنغ جيفرد Sir Hardinge Giffard (١٨٢٣-١٩٢١)[١] ، الذي وصف الكراس قائلاً : «**إني أقول بأن ذلك الكتاب [الكراس] هو وسخ وقذر ، والتجربة منه تقول إنه لا يوجد إنسان يسمح بأن يضعه على منضدته ، ولا زوج إنكليزي متعلم محترم سوف يسمح حتى لزوجته أن تقتنيه . . . إن موضوعه هو في إعطاء الشخص القدرة على الجماع الجنسي أو في الإمتناع عنه من أجل الحيطة من النتيجة الطبيعية لذلك الجماع . أن ذلك هو الغرض الوحيد له وجميع الارشادات في بقية الاجزاء الاخرى منه تقود إلى ذلك الافتراض**»[٢] . وعلى الرغم من ذلك ، قام كل من برادلو وبزنت بإعداد وإلقاء مذكرة الدفاع الخاصة بهما ، التي لم تكن كافية لحسم القضية لصالحهما ، حيث جادلا قائلين : «**نحن نعتقد إنه من الاكثر أخلاقية لان يمنع الحمل بالاطفال من أن ، بعد أن يولدوا ، نقتلهم في سبيل السعي من أجل الطعام والهواء والملبس**»[٣] . وذكرت بزنت بأن الغسل

(1) Manvell, R., The Trail of Annie Besant and Charles Bradlaugh, London, Elek: Pemberton, 1976, pp.61-156; The National Reformer, 24, 30 June, 1, 8, 15 July 1877.

(2) Logue, Barbara J., Last Rights: Death Control and The Elderly in America, New York, Macmillan, Inc., 1993, p.74; Chandrasekhar (ed.), Sripati, Reproductive Physiology and Birth Control: The Writings of Charles Knowlton & Annie Besant, New Jersey, Transaction Publishers, 2002, p.39; Mackay, Charles R., The Life of Charles Bradlaugh, M. P., London, D. J. Gunn & Co., 1888, p.264.

(3) Besant, Annie, Autobiographical Sketches, Maryland, Arc Manor, 2008, p.121.

المهبلي هو عمل شرعي بدلاً من العفة غير العملية والاجهاض غير الاخلاقي(١) .

إستمرت المحاكمة لمدة أربعة أيام ، وكانت الاجواء مطمئنة لدى المدعى عليهما ، حينما بدا رئيس المحكمة ميالاً لصالحهما ؛ في حين إنقسمت هيئة المحلفين ، إذ إعتقد ستة من أعضائها بعدم عدالة الحكم بإدانتهم وإتفقوا إنه في حالة عدم التوصل إلى قرار ينبغي عليهم الاجتماع لاعادة النظر في معطيات القضية(٢) ، ولهذا أصدروا بيانهم القائل : «**لم نتوصل إلى حالة إجماع في الآراء على أن الكتاب [الكراس] محل النزاع يعتبر من الكتب المفسدة للمجتمع وللآداب العامة ، إلا أننا في الوقت ذاته نبرئ كلا من المدعى عليهما من أي وازع أو دوافع فاسدة وراء نشره**» . أما رئيس المحكمة فقد أصر بأنه لا يمكن لهيئة المحلفينَّ أن تتبع هذين الخيارين في التوصيف ، ولا سيما بعد أن وردت نصوص قانونية مشابهة في قضية مقاربة لها في وقت سابق عرفت تحت إسم قضية هكلن Hicklin Case لعام ١٨٦٨(٣) ، التي من خلالها حددت الفاحشة بأنها كل ما من شأنه يكون مصدراً

---

(1) http://victoriancalendar.blogspot.com/2011/06/june-21-1877-dirty-filthy-book.html

لم تكن دعوة بزنت هذه خارج نطاق إنتشار دعاية تقنيات وأساليب تحديد النسل ؛ فقد كانت لانكشاير على سبيل المثال من المناطق التي راج فيها إسلوب سحب القضيب لدى الزوج ، قبل القذف ، لتقنين الانجاب ، ولهذا عُد مجتمع لانكشاير واحداً من أبرز الامثلة على ضعف الخصوبة Fertility (أي القدرة على الانجاب) لدى المتزوجين منذ منتصف القرن التاسع عشر فصاعداً . أنظر :

Szreter & Nye & Poppel, Simon & Robert A. & Frans Van, Fertility and Cotraception During The Demographic Transition: Qualitative and Quantitative Approaches, *The Journal of Interdisciplinary History*, The MIT Press, Vol.34, No.2, (Autumn, 2003), pp.145-146; Szreter, Simon, Fertility, Class and Gender in Britain 1860-1940, Cambridge, Cambridge University Press, 2000, pp.317, 375.

(2) The National Reformer, 12 August 1877.

(٣) ويعرف أيضاً بإختبار هكلن Hicklin Test : وهو مفهوم قانوني أشتق من قضية هكلن لعام ١٨٦٨ ، وغدا جزءاً من القانون العام الانكليزي ، وأقر بأن السلطة التشريعية تجرم أي شخص وفقاً للنص : «إفساد وحرف أولئك الذين عقولهم مفتوحة للتأثيرات اللاأخلاقية الذين من الممكن أن يقع في أيديهم منشور مثل هذا» . وكان أبرز إستخدام لهذا النص قد تم عبر مرسوم المنشورات الفاضحة =

للغواية والفساد بصرف النظر عن الدوافع . لذلك فقد إرتأى كوكبيرن إصدار الحكم على المدعى عليهما وإعتبارهما مذنبين ، وأن لا يسمح لهيئة المحلفين بإعادة النظر في القضية . وحينما حضر المدعى عليهما في ٢٨ حزيران توقعا أن يتم الحكم عليهما بالغرامة فقط ، لذلك إستعد برادلو لمثل هذا الحكم من خلال سحب مبلغ ٢٥٠ جنيه إسترليني من حسابه المصرفي . وربما كان كوكبيرن قد قرر إطلاق سراحهما بكفالة ، ولكن حدثت واقعة في قاعة العلوم قبل حضورهما بددت ذلك التوقع ، ففي يوم الاحد ٢٤ حزيران قام برادلو كالمعتاد بإلقاء محاضرة في هذه القاعة ، ولسوء الحظ تم في هذا الاجتماع عرض نسخ من كراس «ثمار الفلسفة» للبيع ، كما قامت بزنت ، على نحو غير حكيم ، بإبلاغ الحاضرين أن أحد أعضاء هيئة المحلفين غير مقتنع بقرار إدانتهما ، كما أوحت للحاضرين أن رئيس المحكمة ميال إلى إصدار حكم قضائي يقضي بتبرئتهما ؛ ونتيجة لذلك إتخذ كوكبيرن موقفاً حازماً جراء إبلاغ الحاضرين بالحكم المتوقع ، وحكم عليهما بالسجن لمدة ستة اشهر فضلاً عن غرامة مالية مقدارها ٢٠٠ جنيه إسترليني ودفع تعهدات خاصة مقدارها ٥٠٠ جنيه استرليني ، ناهيك عن دفع ٢٠٠ جنيه إسترليني أخرى لضمان حسن سلوكهما لعامين لاحقين ،

= لعام ١٨٥٧ . وأشتق هذا المفهوم من إسم قاضي لندن بنيامين هكلن Benjamin Hicklin في القضية المقامة ضد هنري سكوت Henry Scott الذي ألف كُتيباً مناهضاً للكاثوليكية ، وعلى الرغم من إدانة القضاة له ، إلا أن القرار تعرض للنقض في الجلسات الفصلية عبر الاستئناف حينما ذكر بأن القصد برئ من وراء عمله هذا ، ومع ذلك تم التحفظ على القضية لصالح محكمة Queen's Bench التي أكدت بأن النية وراء ذلك المنشور لم تكن أخلاقية بل فاضحة وأعادت تنصيب القضاة . وكانت المحصلة السماح لهكلن أن يمرر حكمه الخاص خارج السياق والقاضي بإعتبار أي إشارة فاضحة صغيرة في أي عمل ستجعل العمل بأجمعه فاضحاً وبالتالي محظوراً . أنظر :

Mackey, Thomas C., Pornography on Trial: A Handbook With Cases, Laws, and Documents, California, ABC- CLIO, Inc., 2002, p.134; Soble (ed.), Alan, Sex From Plato to Paglia: A Philosophical Encyclopedia, First Published, Greenwood Publishing Group, Inc., 2006, p.812.

فما كان من برادلو إلا أن قدم إلتماساً على الفور ، ولكن الحكم القضائي الصادر ضده كان قد أخذ الصفة القطعية[١] .

وفي هذا الوقت إستطاع برادلو إستغلال الاجراءات القانونية البريطانية ، فتمكن أخيراً في ١٢ شباط ١٨٧٨ من ضمان الحصول على قرار من المحكمة أفاد بإسقاط الحكم الصادر ضده ، وذلك لكون صياغة الدعوة الاصلية لم تكن وافية . ولكن ، على الرغم من إنتهاء قضية برادلو ، إلا أن المحكمة لم تصدر حكماً قضائياً بخصوص كراس «ثمار الفلسفة» الذي تحول إلى محور لدعاوى قضائية جديدة[٢] ، على إثر قضية ترولوف ونشره لمؤلفات تحديد النسل ؛ الذي سرعان ما وجدته المحكمة مذنباً وتم الحكم عليه بالسجن لمدة أربعة أشهر وبغرامة مالية مقدارها ٥٠ جنيه استرليني . أما في التهمة الثانية الموجهة إليه التي تضمنت كراس «ثمار الفلسفة» ، فقد ورد إسم برادلو على أنه ناشر الكراس ، وكان الخلاف هذه المرة بشأن مصادرته ، ولهذا خاض برادلو حرباً قانونية في قاعات المحاكم حتى تمكن أخيراً في تشرين الثاني ١٨٧٨ من إستحصال أمر قضائي بإعادة المواد الطباعية المخزونة ، ورفع دعوى قضائية ضد أحد مفتشي الشرطة لمصادرة هذه المواد على نحو غير قانوني . ونظراً لعدم إقامة دعوى جديدة ضد هذا الكراس فإن برادلو إعتقد بأنه قد إكتسب حق نشره[٣] .

لقد كانت تبعات قضية كراس نولتون ، فضلاً عن ترويج التأييد لتحديد النسل ، على رواج الفكر العلماني عديدة ومتنوعة ومعاكسة لمخاوف أولئك الذين يكنون العداء لبرادلو[٤] . فقد هدف الاخير إلى ترويج بعض المفاهيم التي من شأنها أن تضع حداً

(1) The Queen V. Charles Bradlaugh and Annie Besant, London, Freethought Publishing Company, 1877, pp.313-316; The National Reformer, 1, 8 July 1877; Banks & Banks, J. A. & Olive, The Bradlaugh- Besant Trial and The English Newspapers, *Population Studies*, Population Investigation Committee, Vol.8, No.1 (Jul., 1954), pp.22-34.

(2) The National Reformer, 2 September, 11, 25 November, 30 December 1877, 3-10, 24 February, 3 March 1878.

(3) The National Reformer, 10, 17, 24 February, 3 March, 18, 25 May, 2, 16, 23, 30 June, 21, 22 July, 17, 24 November, 15 December 1878.

(4) The National Reformer, 12, 26, 25 May, 2, 9, 23, 30 June, 11 August, 6 October, 10 November 1878, 26 January, 2 February, 30 March, 6, 13, 20, 26 April, 1879.

للمجاعة التي ستصيب الطبقات الدنيا من المجتمع ما لم تتخذ إجراءات تحديد النسل[١] . في الوقت الذي ذكّر فيه جورج درسديل بأن القدر الاكبر من المعارضة نحو المعرفة المتعلقة بمنع الحمل بدرت من رجال إعتقدوا بأن الخوف من الحمل هو الشيء الوحيد الذي يمنع زوجاتهم من تبني توجهات جنسية منفلتة يحملونها هم أنفسهم[٢] . في الحقيقة أن أهمية محاكمة برادلو- بزنت هي في قدرتها على ترويج موضوع تحديد النسل ووضعها بموضع الجدل . لكن يمكن القول بأن الرأي العام رأى بأن النتيجة المتأتية من هذه المحاكمة تكمن في محاولة تعميم تشريع يضمن حرية الوصول إلى المعرفة المتعلقة بمنع الحمل ، فضلاً عن تأثيرها اللافت على مستويات الخصوبة (معدل الولادات)[٣] . وتمثلت أبرز نتيجة عكست رواج فكرة منع الحمل وتحديد النسل هو في تضاعف مبيعات كراس «ثمار الفلسفة» بحيث بلغت مئات الالاف بعد المحاكمة مباشرة ؛ الأمر الذي دفع ببزنت إلى تأليف كراستها المتعلقة بتحديد النسل ، إذ أوضحت في سيرتها الشخصية دواعي ذلك قائلة : «**لقد كتبت كراس عنوانه قانون السكان The Law of Population مانحة الحجج التي أقنعتني بأنها حقيقية ، فالمحنة الرهيبة والتفسخ اللتين ألَمّتا بالعوائل جراء تكدس أو قلة ضرورات الحياة ، حيث السعي من أجل زواج مبكر كفيل بتدمير الدعارة ، وتقييد الاسرة قد يجنبها الفقر ، وأخيراً منح المعلومة يعيد صياغة الزواج المبكر بدون تلك الشرور المحتملة . هذا الكراس وضع في التداول بوصفه تمثيلاً لنظرتنا تجاه الموضوع . . . لقد إستمرينا في بيع «ثمار الفلسفة» لنولتون لبعض الوقت حين تلقينا إشعاراً بعدم وجود محاولة لملاحقة قضائية أخرى ، وحينذاك قمنا بتقنين نشره حالاً وإستبدلناه بكراستي قانون السكان**»[٤] .

---

(1) Himes, The Medical pp.236-237.

(2) Drysdale, Op. Cit., p.349.

(3) Himes, The Medical, p.243; Stopes, Marie Carmichael, The Early Days of Birth Control, London, 1924, pp.1-2, 18-19, 22.

(4) Besant, An Autobiography, pp.212-213; Besant, Annie, The Law of Population: Its Consequences, London, Freethought Publishing Company, 1877; Banks & Banks, The Bradlaugh- Besant Trial; The National Reformer, 22 September 1878; Himes, The Medical, pp.231, 234-244, 250.

وفي أعقاب محاكمة نولتون إقترحت بزنت أن يقوم أنصار تحديد النسل من أعضاء جمعية لندن الجدلية London Dialectical Society(١) ، بإحياء العصبة المالثوسية ، التي بدت وكأنها لاقت الاهمال خلال أواخر ستينيات القرن التاسع عشر ، ليتم على إثرها عقد بعض الاجتماعات التمهيدية في ٦ و١٧ تموز ١٨٧٧ في قاعة العلوم ، التي تمخض عنها إرساء المعالم الاساسية للعصبة المالثوسية ، إذ تمثلت أهداف العصبة في : «**التحريض على إلغاء العقوبات المفروضة على النقاشات العامة المتعلقة بالقضية السكانية ، والعمل على نشر جميع الوسائل العملية بين الناس ، كمعرفة قانون السكان ونتائجه وأثره على سلوك الانسان**»(٢) . وهكذا عين الدكتور تشارلز درسديل Charles Drysdale (١٨٢٩-١٩٠٧) (أخو الدكتور جورج درسديل) رئيساً للعصبة المالثوسية ، وكان هو وزوجته أليس درسديل Alice Drysdale (١٨٤٤-١٩٢٩) قد توليا إطلاق دورية The Malthusian منذ شباط ١٨٧٩ التي أخذت على عاتقها ترويج المالثوسية الجديدة(٣) .

في بادئ الامر كانت العصبة عبارة عن منظمة علمانية إلى حد بعيد ، وكان من بين مؤسسيها العديد من الشخصيات البارزة مثل برادلو وبزنت وتوماس كولنز Thomas Collins (١٨٣٩-١٩٠٧) ودبليو . أتش . رينولدز W. H. Reynolds وإدوارد ترولوف ، وهم أيضاً الاعضاء البارزون في الجمعية العلمانية الوطنية(٤) . فقد وقف

---

(1) D'Arcy, F., The Malthusian League and The Resistance to Birth Control Propaganda in Late Victorian Britain, *Population Studies*, Population Investigation Committee, Vol.31, No.3 (Nov., 1977), p.429; Dolan (ed.), Brian, Malthus, Medicine, & Morality: 'Malthusianism' After 1798, First Published, Amsterdam- Atlanta, Rodopi B. V., 2000, pp.145-146.

(2) The National Reformer, 15, 22 July, 5 August 1877; The Malthusian, 15 August 1909, 15 March 1914, 15 June, 15 September 1919.

(3) Jütte, Robert, Cotraception: A History, Cambridge, Polity Press, 2008, pp.108-109; D'Arcy, Op. Cit., p.431.

(4) The Malthusian, 15 August 1909.

وراء إنجاز القدر الاكبر من الجانب العملي من النشاط الدعائي العلمانيين سواء أولئك الذين عملوا من خلال العصبة أو من خلال الذين عملوا بوصفهم أفراداً تطلعوا بدعمهم للعصبة أم للجمعية العلمانية الوطنية ، فمثلاً قام رينولدز ، الذي خلف بزنت في منصب السكرتارية ، بكتابة ونشر بعض النشرات المتعلقة بتحديد النسل على حسابه الخاص وقام بتوزيعها من خلال التنظيمات العلمانية النشرية[١] . فعلى الرغم من قلة عدد أعضاء العصبة وشحة مواردها المالية ، إلا أنها تمكنت من شن حملة ترويجية كبيرة لنشر أفكارها ، وأسهمت على نحو فاعل في مناقشة القضايا الاجتماعية في بريطانيا خلال العصر الفكتوري ، ولجأت إلى إستخدام ثلاث وسائل في بث وتعزيز المالثوسية الجديدة وهي : إلقاء المحاضرات ، وإصدار الكراريس ، ونشر المقالات من خلال الدوريات ، كدوريتي The National Reformer وThe Malthusian[٢] .

وكانت اللجنة الفرعية الدعائية Propagandist Sub- Committee إحدى أذرع العصبة التي إضطلعت بمهمة إنتاج وتوزيع الكراريس في الاشهر الاولى من إنطلاقة العصبة ، إذ كان كراس تشارلز درسديل المعنون : «أصل السكان» الكراس الاول الذي نشر من خلالها في آب ١٨٧٧[٣] . وعلى الرغم من ذلك ، واجهت دعاية تحديد النسل والمالثوسية الجديدة معارضة بالغة لم تقتصر على التيار الديني التقليدي ، بل شملت أيضاً بعضاً من الأوساط العلمية الممثلة بالاطباء ، الذين رأوا إن حلول المالثوسية الجديدة للتخلص من الفقر عبر تحديد النسل فيها شيء من المبالغة[٤] . فقد إعتقد تشارلز درسديل أن أولئك الاطباء شأنهم شأن غيرهم من المعارضين هم نتاج المجتمع المسيحي ولهذا فهم متأثرون بالآراء والاخلاقيات المسيحية التقليدية ؛ وكانت جمعية قمع الرذيلة خير من مثل هذا الاتجاه وعكست عداوة بالغة تجاه

---

(1) The Malthusian, 15 March 1914; Fryer, Op. Cit., pp.256-257.

(2) D'Arcy, Op. Cit., p.430.

(3) The National Reformer, 2 September 1877; Ledbetter, Rosanna, A History of The Malthusian League 1877-1927, Ohio State University, 1976, p.67.

(4) D'Arcy, Op. Cit., p.435.

دعاوى تحديد النسل التي دعتها بالملعونة والفاسدة خلال سبعينيات القرن التاسع عشر[(١)] .

وعلى الرغم من ذلك ، لاقى العلمانيون من مروجي المالثوسية الجديدة منافسة مهمة حينما طرح الفيلسوف وعالم الاجتماع الانكليزي هربرت سبنسرHerbert Spencer (١٨٢٠-١٩٠٣) نظريته الخاصة التي عرفت بـ« التشخّص[(٢)] التقدمي Progressive Individuation»[(٣)] التي غدت شعاراً حينما طرح مفهوم البقاء للأصلح أو للأنسب Survival of The Fittest[(٤)] ، بحيث لاقى كلاهما رواجاً خلال سبعينيات القرن التاسع عشر ؛ ولهذا إنقسم العلمانيون في هذه المرحلة بين إتجاهين ؛ أحدهما مؤيد للمالثوسية الجديدة وآخر معارض لها ومؤيد لفكرة التطور التي طرحها سبنسر[(٥)] . وخلال هذا الوقت نشر جورج درسديل في أواخر عام ١٨٧٨ كراساً تحت عنوان : «علاجات الدولة للفقر» إقترح فيه حلولاً لمشكلة الفقر عبر إقرار تشريع خاص

---

(1) Banks & Banks, Joseph Ambrose & Olive, Feminism and Family Planning in Victorian England, Liverpool, University Press, 1964, p.98; D'Arcy, Op. Cit., pp.435-436.

(٢) Individuation : التشخّص أو الوجود الفردي : تعني العملية التي بها يطور الفرد شخصيته الخاصة ، أو إكتساب دور متميز لعضو في الجماعة . أنظر : الصالح ، مصلح ، الشامل : قاموس مصطلحات العلوم الاجتماعية : إنجليزي- عربي ، ط١ ، الرياض ، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٩٩ ، ص٢٧١ .

(3) Adams & Sydie, Bert N. & R. A., Sociological Theory, London, Sage Publications Ltd., 2001, pp.64-66; Hawkins, Mike, Social Darwinism in European and American Thought 1860-1945: Nature as Model and Nature as Threat, Cambridge, Cambridge University Press, 2003, p.190.

(4) Weinstein, D., Equal Freedom and Utility: Herbert Spencer's Liberal Utilitarianism, Cambridge, Cambridge University Press, 2003, p.190; Carneiro, Robert L., Structure, Function, and Equilibrium in The Evolutionism of Herbert Spencer, *Journal of Anthropological Research*, University of New Mexico, Vol.29, No.2 (Summer, 1973), p.79.

(5) D'Arcy, Op. Cit., pp.438-439.

يمنع إزدياد السكان ، إذ ذكر فيه : «**على الرغم من المعارضة القوية للآراء والمشاعر السائدة ، فإن الجهود الرامية للقضاء على الفقر من خلال تشريع مباشر ، الذي سيغدو الطريق الوحيد والمحتمل الاخذ به ، عبر قانون ينص على تقليص حجم العوائل وحظر أي شخص سواء الغني أم الفقير من إنجاب أكثر من طفل ، ستغدو من القضايا السياسية البالغة الاهمية في جميع البلدان الاوربية**»(١) . فقد دعم جورج درسديل من خلال كراسته هذه توجه الدولة للسيطرة على أعداد السكان ، لان ذلك وفقاً لرؤيته ، يمثل أساساً للتعبير عن المصالح المشتركة(٢) . وسرعان ما أثرت هذه الفكرة على أخيه تشارلز درسديل ، ولهذا إقترح في تموز ١٨٧٨ في أثناء نقاشه لمشكلة الفقر : «**فرض غرامات بسيطة على جميع الاشخاص الذين يثقلون كاهل سوق العمالة من خلال إنشاء عوائل كبيرة العدد**»(٣) .

إنعكست هذه الدعوات العلمانية وتزامنت مع رواج وسائل منع الحمل كالواقيات الذكرية وسدادات عنق الرحم Cervical Caps بأسعار زهيدة ، ما أدى إلى توظيف هذه الدعوات على نحوٍ أمثل ، ولاقت بالنتيجة إستجابة بارزة تمثلت بتدني أحجام العوائل في أواخر العصرِ الفكتوري . وكان إنتشار هذه الظاهرة المتمثلة بتغير رؤية العائلة البريطانية تجاه رغبتها بتحديد نسلها قد تزامن مع خروج النساء على هيمنة العنصر الذكوري المتمثل بآبائهن وأزواجهن ، وأن بعض مؤشرات ذلك التحول يمكن ملاحظتها تحديداً من خلال تدني نسب ولادات الطبقة الوسطى البريطانية(٤) .

لقد هدف العلمانيون من إعادة ترويج مواضيع تحديد النسل إلى تحقيق غايتين مهمتين أصبحتا مثار جدل لغاية نهاية العصر الفكتوري وهما : السعي لإقرار تشريع خاص يحمي ويساعد على تسهيل وصول المعلومات المتعلقة بتحديد النسل للجمهور بإعتبارها ذات صفة علمية مجردة خالية من صفة البذاءة ، والتذكير بعقم مضمون مرسوم المنشورات الفاضحة لعام ١٨٥٧ وإفراغه من محتواه القانوني . وتمثلت الغاية

---

(1) The National Reformer, 15 December 1878.

(2) D'Arcy, Op. Cit., p.441.

(3) The Malthusian, July, 1879.

(4) Banks, Victorian Values, pp.6-7.

الاخرى بمحاولة تذكير الحكومة بدورها الفاعل في منع تردي الاوضاع المعيشية للفقراء من خلال تشريع يسهم بتقليل حجم العوائل عبر وسائل تحديد النسل . ومن خلال تلكما الغايتين تم التأكيد على مكانة المرأة في المجتمع ومحاولة إبراز دورها داخل العائلة عبر التحكم برغبتها بالانجاب ، وبالنتيجة التعجيل بإضعاف قوة العنصر الذكوري وسطوته الذي عني بالمحصلة تفعيل حق المساواة بين الجنسين . وهكذا إنصبت محاولات العلمانيين لإصلاح القانون إلى تعزيز معنى الحرية الفردية ؛ تلك الحرية التي فهمها العلمانيون متجسدة في حرية نقل المعلومة وحرية ممارسة الحق في تحديد النسل .

ثالثاً: النزاع من أجل علمنة التعليم- مرسوم التربية The Education Act لعام ١٨٧٠ نقطة تحول لانعكاسات لاحقة

كان التعليم أحد أوجه النزاع الذي خاضه العلمانيون من أجل تفعيل الرؤى المدنية الحديثة في مؤسسات الدولة ؛ تلك الرؤى التي وجد فيها العلمانيون ضرورة مهمة لترقية التعليم وتطويره وبما يتناسب والمرحلة التي تعيشها بريطانيا آنذاك من جهة ، ونهجاً جديداً في تمكين الإنعتاق من الاطر التقليدية ذات البعد الديني التي تحكم السلك التعليمي من جهة أخرى . ولهذا بات أمام العلمانيين دور مهم في تعزيز النزعة العلمانية في المدارس الخاصة بهم فضلاً عن محاولتهم إقناع الحكومة بإجراء إصلاحات جذرية في المجال التعليمي بما يسهم في تقليل أو إعاقة حدة التأثير الديني .

في الواقع كانت الفوارق الطائفية بين مكونات المجتمع البريطاني فضلاً عن المعوقات التي وضعها التيار الديني أياً كان إنتماؤه الطائفي تجاه أي بادرة تمنع أو تحجّم الرؤية الدينية في التعليم ، تمثلان عقبتان أساسيتان أمام معضلة السيطرة على التعليم والنزاع بين الطرفين الديني والعلماني[١] ، إذ كان أنصار المدارس الطوعية Voluntary

---

(1) Platten, Stephen G., The Conflict Over The Control of Elementary Education 1870-1902 and Its Effect Upon The Life And Influence of The Church, *British Journal of Educational Studies*, Society For Educational Studies, Vol.23, No.3 (Oct., 1975), p.276.

Schools[١] من التيار الديني ، من أكثر المعارضين لتدخل العلمانيين والدولة في مجال التعليم الابتدائي بالذات[٢] . وفي ظل هذا التقسيم الحاد ، ومع وجود الاعتبارات والتوجهات القيمية لكل طرف في تناول أحقية منهجة التعليم أو إبقائه على حاله وبما يتلاءم وطائفته ومذهبه ، غدا من الواضح إن العلمانيين قد شعروا بأهمية الجانب التعليمي في تنمية التوجهات العلمانية وتكريس دورهم في المؤسسة التعليمية .

تعود جذور حركة التعليم العلماني إلى آواخر أربعينيات القرن التاسع عشر ، حينما مارس الاشتراكيون دورهم على نطاق ضيق من خلال معاهد الميكانيك Mechanics' Institutes الخاصة بهم ، على الرغم من تصاعد حدة الاعتراضات لنهجها الفكري من طرف التيار الديني . وكان أبرز مثال على ذلك هو معهد برمنغهام الميكانيكي Birmingham Mechanics' Institution ؛ إذ كانت المواد التي تدرس في مثل تلك المعاهد متعددة كالقواعد والمنطق والبلاغة واللغة اللاتينية فضلاً عن التعاليم الاشتراكية[٣] ، حيث تولى الاشتراكيون إدارة مدارسهم الخاصة التي وجدوا

---

(١) أو ما تعرف بالمدارس التي تتلقى المعونة الطوعية Voluntary Aided School : وهي مدارس ممولة تكون عادةً موقوفة أو تحت وصاية منظمة دينية التي تملك بدورها أبنية المدرسة وتسهم بتكاليف البناء فضلاً عن نفوذها القوي في إدارتها . وتتمتع مثل مدارس كذه بإستقلال ذاتي كبير . كما كانت هناك أيضاً المدارس الخيرية Charity Schools التي توفر التعليم الاساسي للفقراء من خلال ما أطلق عليها بالمدارس الممنوحة أو الموقوفة Endowed Schools (وغالباً ما تكون مدارس ثانوية) . ومع مطلع القرن التاسع عشر ، تواجدت المدارس البريطانية غير الطائفية ، والمدارس الوطنية لكنيسة إنكلترا . ومنذ عام ١٨٣٣ بدأت الدولة بتقديم المنح لدعم المدارس الابتدائية ، كما أنشأت المدارس الابتدائية للكاثوليك الرومان التي تلقت منحتها الاولى في عام ١٨٤٧ . أنظر : عفيفي باشا ، حافظ ، الانجليز في بلادهم ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٣٥ ، ص ص٢٨٧-٢٨٩ ؛

Barnard, H. C., A History of English Education From 1760, Second Edition, London, University of London Press Ltd., 1961, pp.2-213.

(2) Platten, Op. Cit., p.276.

(3) The New Moral World, 18 July 1840; The Reasoner, 29 July, 3 June 1846; The Utilitarian Record, 13 October 1847.

فيها أداة لنشر المعرفة المفيدة وفقاً لوجهة نظرهم[١] . وعلى غرار هذه المعاهد كانت مدارس الاحد الاشتراكية واجهة أخرى لامداد الاطفال بالتعاليم الاشتراكية[٢] .

ولم تفقد حركة التعليم العلماني في لندن زخمها حينما ضعفت الاشتراكية ؛ إذ تم دمج المدارس الاشتراكية مع المدارس العلمانية الجديدة في العاصمة ، وتأسست عصبة التربية العلمانية The Secular Education League في عام ١٨٤٧ ، التي وقع على عاتقها إفتتاح عدد من المدارس العلمانية في لندن خلال السنوات اللاحقة[٣] . فقد أشرت حركة التعليم العلماني وجود إهتمام متزايد بالشأن العلماني الصرف بين الناس من جميع الطبقات والاتجاهات الفكرية[٤] . ولهذا شهد العام ذاته إنشاء رابطة مدارس لانكشاير الخاصة Lancashire Public Schools Association[٥] في مسعى إستهدف تجنب التنافس الطائفي المرير الذي عرقل التطورات التعليمية في جميع أنحاء البلاد ، إذ سرعان ما إقترحت العصبة خطة لتعليم وطني غير طائفي ، ليتم على إثرها عقد المؤتمر التعليمي في مانشستر في ٣٠ تشرين الاول ١٨٥٠ حضرته وفود من رابطة مدارس لانكشاير الخاصة ورابطة عمال لندن للتربية العلمانية الوطنية

---

(1) The Oracle of Reason, 5 May 1842; The Movement, 2, 30 October, 27 November, 18 December 1844; The Reasoner, 1 July 1846.

(2) The Investigator, 1 January 1859.

(3) The Utilitarian Record, 19 May 1847; The Reasoner, 3, 17 October 1849.

(4) Royle, Victorian, p.145.

(٥) Public School : مدارس خاصة في بريطانيا للطلبة الذين تتراوح أعمارهم بين ١٣-١٨ ، حيث يتولى الآباء تكاليف تعليمهم ، وغالباً ما يعيش الطلبة في أقسام داخلية قرب المدرسة أو ضمنها . وتم تبني مصطلح Public في مرسوم المدارس الخاصة Public Schools Act لعام ١٨٦٨ ليشير إلى تلك المدارس التي يتم تمويلها من الاموال الخاصة . أنظر :

http://www.ldoceonline.com/dictionary/public-school, Longman Dictionary of Contemporary English; Rickards, George Kettilby, The Statutes of The United Kingdom of Great Britain and Ireland, London, George E. Eyre and William Spottiswoode, 1869, p.190; Hughes, Thomas, The Public School of England, *The North American Review*, University of Northern Iowa, Vol.128, No.169 (Apr., 1879), pp.352-371.

London Working Men's Association For National Secular Education ، وممثلين من مدن برمنغهام وليدز ولانكستر وشفيلد وهدرسفيلد وأماكن اخرى ، التي إتحدت جميعها تحت مسمى رابطة المدارس الخاصة الوطنية National Public Schools Association[١] .

ولم يقتصر الامر على ذلك ، إذ بدأت حملة في داخل البرلمان من أجل تمرير مشاريع علمنة التعليم ، وسرعان ما تم تقديم لائحة التربية العلمانية في عام ١٨٥١ إقترحها جون ستيورات مل ، وهو المقترح الذي تبناه جورج جاكوب هوليوك في المؤتمر التعليمي في مانشستر ، إلا أن هذه اللائحة تعرضت إلى هزيمة ساحقة ، مثلما تعرضت لائحة أخرى مماثلة في العام ذاته في إسكتلندا إلى هزيمة بفارق ١٣ صوت فقط . وعلى أية حال ، بقيت مانشستر مرتعاً لهذه الدعوة ، وسرعان ما قدمت رابطة المدارس الخاصة الوطنية لائحة التربية العلمانية التي نصت على إقصاء التعليم الديني من المدارس ، الامر الذي أثار موجة من الاحتجاجات لدى رجال الدين الانجيليين الذين إعتقدوا بأن وجود التعليم العلماني سيؤدي إلى تعزيز الالحاد ، وأصروا بأن طرح نظام شامل للتعليم الديني هو مستحيل من الناحية المذهبية ، وأن نظام حر سوف يثير مسألة الرسوم المستوفاة من التعليم لاغراض الكنيسة[٢] .

وعلى الرغم من ذلك ، لم يقتنع العلمانيون بنظام المدارس الذي تسيطر عليه الكنيسة ، ولهذا تاقوا إلى إصلاح التعليم ، وجاء عدم إقتناعهم هذا لسببين : الاول : لان التعليم في ظل الكنيسة أخفق في قدرته على شمول جميع المواطنين ، والثاني : لكونه سعى لغرس العقائد الدينية في الاذهان . ولهذا سعى العلمانيون إلى تعزيز مفهوم

---

(1) Simon, Studies in The History of Education, pp.340-341; The Reasoner, 30 October 1850; The Northern Star, 2 November 1850.

(2) Richson, C., The Scheme of Secular Education Proposed by The National Public Schools Association Compared with The Manchester and Salford Borough's Education Bill, London, Longman, Brown, Green, and Longmans, 1851; Report of The Conversazione of Friends and Supporters of The Manchester and Salford Bill, 28 August 1851; The Secular System, The Manchester Bill and The Government Scheme Contrasted, London, 1852; A Few Plain Words on The Two Education Bills now Before the Country, London, 1852.

التعليم الشامل الذي حمل بين طياته ، على نحو حصري ، الاهتمام بالواجبات والقضايا المتعلقة بهذه الحياة . وإنصب جزء من مسعاهم هذا خلال هذه المرحلة على دفع الدولة لتبني نظاماً للمدارس يتضمن على تعليم علماني صارم يشمل جميع السكان . وفي إطار ذلك ، ساند العلمانيون رابطة مانشستر Manchester Association التي عرفت بـ : «أصدقاء التعليم العلماني» وضمت أفراداً لم يرتبطوا بأي جمعية علمانية من الناحية التنظيمية من أجل النأي بهذه الرابطة وعدم إتاحة الفرصة لخصوم التعليم العلماني من أنصار التوجهات الدينية لنعتها بالكافرة . ومن أجل تفعيل دورهم على نحو أمثل ، إفتتحوا مدارس علمانية خاصة ، بعضها صباحي والآخر مسائي ، وتزامن ذلك مع إفتتاح مدارس يوم الاحد التي ضمت عادةً صفوفاً صباحية ومسائية . وعلى الرغم من تنوع المناهج فيها فإن الفصول الدراسية كانت تعطى في مدرسة واحدة أو أكثر ، وغطت مواضيع المرحلة الابتدائية مواد التاريخ والعلوم والمنطق والفنون كالموسيقى ، وكل مدرسة إرتبطت إدارتها بجمعية علمانية محلية في المراكز الصناعية الكبيرة كلندن ومانشستر وليفربول وغلاسكو وليدز[١] .

وفي خضم هذه الانقسامات ، أخذت الخطى تتسارع لتفعيل تحول نوعي في المجال التعليمي ، إذ شهدت المرحلة اللاحقة نشاطاً بارزاً من طرف عصبة التربية في برمنغهام التي تأسست في عام ١٨٦٧ التي تطورت وأصبحت تعرف بعصبة التربية الوطنية National Education League في عام ١٨٦٩[٢] التي أخذت على عاتقها تبني حملة مهمة بقيادة وليم إدوارد فورستر William Edward Forster (١٨١٨-١٨٨٦) من أجل طرح مسودة لائحة التربية الابتدائية The Elementary Education Bill على البرلمان في ١٧ شباط ١٨٧٠[٣] . في الواقع عكست هذه

---

(1) McGee, Op. Cit., pp.22-23, 59.

(2) Report of The First General Meeting of Members of The National Education League, Held at Birmingham on Tuesday and Wednesday, Oct. 12 & 13, 1869, *Bristol Selected Pamphlets*, University of Bristol Library, 1869.

(3) Maclure (ed.), J. Stuart, Educational Documents: England and Wales 1816 to The Present Day, New York, Routledge Reissues, 2006, Vol.II, pp.98-105; Young & Handcock, G. M. & W. D., English Historical Documents 1833-1874, London, Eyre & Spottiswoode (Publishers) Ltd., 1970, Vol.XII, pp.911-915.

اللائحة مخاوف عصبة التربية الوطنية التي تمركزت في برمنغهام ، معقل المنشقين عن الكنيسة الانكليزية ، ونمو ميلها في الوقت ذاته إلى تأييد التدخل الحكومي في المؤسسة التعليمية ، ومساعدة المدارس غير الطائفية Non- Denominational Schools[1] . في المقابل مثل إتحاد التربية الوطنية National Education Union المتمركز في مانشستر ، حيث مؤيدو المدارس الطوعية هناك ، وجهة النظر المخالفة ، إذ مارس هذا الاتحاد ضغطاً كبيراً من أجل دعم المدارس الطائفية[2] .

وفي الوقت نفسه مالت جماعات الضغط إلى أحد الاطراف ، وبصورة عامة يمكن القول بأن حزب الاحرار وجورج جاكوب هوليوك وبعض العلمانيين قد إنضموا إلى وجهة نظر عصبة التربية الوطنية ، في حين أخذت الجمعية الوطنية الانكليكانية Anglican National Society بالتراجع في مواقفها المؤيدة لدعم المدارس الطائفية نتيجة لتراجع المفاهيم الكنسية . ولهذا أصبحت اللائحة التي طرحها فورستر أشبه ما تكون بالسير على حبل مشدود بين طرفين أحدهما داعم للطرح الطائفي وآخر مخالف له[3] . فقد هدفت هذه اللائحة إلى ملء الثغرات المتبقية في النظام الطوعي الموجود ، حينما يتم منح الجمعيات الطوعية الداعمة للمدارس الطوعية مهلة ستة أشهر ، بعد أن كانت عاماً كاملاً ، لتوفير تعليم ملائم في جميع المناطق . وبعد ذلك يتم تشكيل المجالس المدرسية في المناطق التي لا تحتوي على دعم كافي ؛ إذ أقرت هذه المجالس هيئة منتخبة تتولى حق التصويت لدافعي الضرائب الذين تجمع أصواتهم لصالح مرشح واحد[4] . وقدر لهذه المجالس أن تضطلع بمهمة إقامة مدارس علمانية

(1) Armytage, W. H. G., Four Hundred Years of English Education, Second Edition, Cambridge, Cambridge University Press, 1970, p.143.

(2) Platten, Op. Cit., pp.277-278.

(3) Platten, Op. Cit., pp.278-279.

(4) Holdsworth, W. A., Elementary Education Act 1870: Popularly Explained, London, George Routledge and Sons, 1870; McCann, W. P., Trade Unionists, Artisans and The 1870 Education Act, *British Journal of Educational Studies*, Blackwell Publishing on behalf of The Society For Educational Studies, Vol.18, No.2 (Jun., 1970), pp.134-150; Curtis & Boultwood, S. J. & M. E. A., An Introductory History of English Education Since 1800, Second Edition, London, University Tutorial Press LTD, 1962, pp.73-77.

مستقلة عن أي جهة دينية[١] .

لقـــد إضطر رئيس الوزراء وليـم إيوارت غـــلادســـتـــون William Ewart Gladstone[٢] ، على الرغم من توجـهـاته الدينيـة المحـافظة ، إلى فسح المجال أمـام الحكومة لان تلعب دوراً علمانياً محضاً في المؤسسة التعليمية . وعلى الرغم من حدوث ردود فعل متباينة وحادة تجاه هذه اللائحة ، بعضها مؤيد والآخر مناهض ، إلا أنها مررت في ٩ آب ١٨٧٠ تحت مسمى «مرسوم التربية» لعام ١٨٧٠[٣] . وتضمن

(1) Platten, Op. Cit., p.279; Monroe (ed.), Paul, Ancyclopedia of Education, New York, The Macmillan Company, 1913, Vol.5, p.316.

(٢) وليم إيوارت غلادستون (١٨٠٩-١٨٩٨) : رجل دولة بريطاني ، دخل مجلس العموم عام ١٨٣٣ ، وأصبح وكيل وزارة الحرب والمستعمرات ١٨٣٤-١٨٣٥ ، ووكيلاً لوزارة التجارة ١٨٤١ ثم وزيراً لها ١٨٤٣ ، ثم وزيراً للحـــرب والمســتـعـمـــرات ١٨٤٥-١٨٤٦ ، ووزيراً للخـــزانة ١٨٥٢-١٨٥٥ ، ١٨٥٩-١٨٦٦ . إعـتنق مـبـدأ حـرية التـجـارة ، وتولى رئاسـة الوزارة أربع مـرات ١٨٦٨-١٨٧٤ ، ١٨٨٠-١٨٨٥ ، ومن شباط إلى تموز ١٨٨٦ ، ثم ١٨٩٢-١٨٩٤ . أصدر عدة قوانين إصلاحية مهمة ، منها مرسوم إلغاء الصفة الرسمية عن الكنيسة الانكليكانية في إيرلندا لعام ١٨٦٩ كي يحرر الكاثوليك من ضرورة دفع العشور للانفاق على الكنيسة الانكليكانية ، وقانون الاراضي الايرلندية ، لكي يحمي الفلاحين الايرلنديين . حرص على منح إيرلندا الحكم الذاتي في البرلمان لكنه أخفق مـرتين . وفي عـهـده أُحتلت مـصـر في عـام ١٨٨٢ ، وأُجـبـرت الاخـيـرة على إخـلاء السـودان ١٨٨٤-١٨٨٥ . له مؤلفات سياسية ودينية . أنظر :

Butler, Perry, Gladstone, Church, State, And Tractarianism: A Study of His Religious Ideas and Attitudes 1809-1859, Oxford, Oxford University Press, 1982; Encyclopedia Britannica, CD., 2010; Kenyon, Op.Cit., p.152.

(3) Armytage, W. H. G., The 1870 Education Act, *British Journal of Educational Studies*, Taylor & Francis, Ltd. on behalf of the Society for Educational Studies, Vol.18, No.2 (Jun., 1970), pp.121-133; Glen, W. Cunningham, The Elementary Education Act 1870, London, Shaw and Sons, Fetter Lane, 1870; Adams & Stephens (ed.), Op. Cit., pp.538-540;

البدري ، سهيلة شندي عوان راضي ، وليم غلادستون والقضية الايرلندية ١٨٦٨-١٨٩٤ ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، كلية الاداب- جامعة بغداد ، ٢٠٠٥ ، ص ص ٤٠-٤١ .

هذا المرسوم إقرار عبارة عضو البرلمان الانكليكاني عن حزب الاحرار وليم كاوبر- تمبل William Cowper- Temple (١٨١١-١٨٨٨) ، القائلة : «**عدم إستخدام أي تعليم ديني شفهي أو أي صيغة دينية خاصة بأي طائفة معينة**»[١] ، إذ حظرت هذه العبارة التعليم الديني في بداية ونهاية اليوم الدراسي مما مكن الآباء من منع أبنائهم من تلقي هذا التعليم ، فضلاً عن تعميمها على جميع المدارس الطوعية[٢] . وفي الواقع خول المرسوم المسؤولين في المدارس حجب التعليم الديني عن أي طفل إذا ما قام والده أو ولي أمره بطلب ذلك[٣] . وهكذا أدى تدخل الدولة في رسم السياسة التعليمية عبر هذا المرسوم إلى نشر تعليم ديني معتدل غير متطرف والرؤى العلمانية على حد سواء . إذ طلب فورستر من غلادستون التحكم بعبارة قانون الايمان المسيحي Apostles' Creed[٤] المتداولة في التعليم ، نتيجة لقلق المنشقين عن الكنيسة الانكليزية من تضمينها في المرسوم ، ولهذا صرح غلادستون بأن تلك العبارة ليست من الامور الاساسية التي يمكن تعليمها[٥] .

أسفرت هذه الوقفة المناهضة للتعليم الطائفي عن دفع العديد من الراديكاليين إلى إعتناق الرؤى العلمانية ؛ فقد كان وجود المدارس الطوعية لدى البعض واحداً من أبرز العقبات أمام التوسع بميدان التعليم خارج نطاق الوصاية الدينية[٦] . وعلى الرغم من ذلك تباينت وجهات نظر الزعماء العلمانيين حيال تقييم مرسوم التربية ؛ فقد

---

(1) Adams & Stephens (ed.), Op. Cit., p.539; Barnard, Op. Cit., p.118.

(2) Platten, Op. Cit., p.279.

(3) McGee, Op. Cit., p.75.

شمل هذا المرسوم أعمار الاطفال بين خمس إلى ثلاث عشرة سنة . أنظر :

Elementary Education Act, 1870, *Bristol Selected Pamphlets*, University of Bristol Library, 1870, P.33.

(٤) قانون منسوب إلى الرسل الاثني عشر ومطلعه : «أؤمن بالله الاب الكلي القدرة» . أنظر : البعلبكي ، المصدر السابق ، ص ٥٥ ؛

Gilbert, George H., The Apostles' Creed Revised by The Teaching of Jesus, *The Biblical World*, The University of Chicago Press, Vol.12, No.3 (Sep., 1898), pp.153-161.

(5) Platten, Op. Cit., pp.281-283.

(6) Platten, Op. Cit., p.283.

أدانه برادلو واصفاً إياه بالمهزلة التي ستؤدي إلى بقاء ما أسماه بالتعليم الفلاحي في المكان ذاته الذي كان فيه من قبل ، في حين كان أوستن هوليوك ميالاً له ، إلا أنه في الوقت ذاته تخوف من أن يتسبب في وضع الابناء والآباء على حد سواء تحت الضغط ، ولا سيما في المناطق الريفية . أما جورج جاكوب هوليوك فقد كان أكثر إيجابية ، وأشار إلى قدرة المعلمين العلمانيين على التدريس في المدارس الجديدة شأنهم شأن أقرانهم ، ودعا العلمانيين إلى تشييد مدارسهم الخاصة والمطالبة بالمنح الحكومية(١) . وفي الواقع أدرك العلمانيون المحليون بأن إنتخابات المجالس المدرسية ستوفر لهم أفضل الفرص لتبوؤ مناصب ذات نفوذ في المجتمع(٢) ؛ إذ مع تشكيل أعداد كبيرة من المجالس المدرسية بدأ العلمانيون بالحصول على بعض المراكز فيها ، وأثمرت مواقفهم التي إتخذوها كونهم من الراديكاليين المحليين على إكتساب القدرة على نحوٍ سريع في إحداث تأثير وفارق كبيرين(٣) . وتزامن هذا التأثير مع إنجاز آخر على درجة عالية من الاهمية تمثل بتمرير مرسوم الاختبارات الجامعية Universities Tests Act في عام ١٨٧١ ، الذي أقر إلغاء الإختبارات الدينية وسمح بالنتيجة للكاثوليك الرومان والمنشقين عن الكنيسة الانكليزية واليهود بإشغال الوظائف في جامعات كمبردج وأوكسفورد ودرم Durham ، عدا ما تعلق بدرجة الاستاذية في اللاهوت ، وكان ذلك المرسوم قد أسهم في سحب الإمتياز الحصري الذي تمتع به الإنكليكانيون في جامعتي كمبردج وأوكسفورد بالذات(٤) .

---

(1) The National Reformer, 13 March, 28 August, 18 September 1870.

(2) The National Reformer, 20, 27 November, 4, 11 December 1870.

(3) The National Reformer, 23 April 1871, 28 January 1872, 7 January 1877; The Secularist, 20 January 1877; The National Reformer, 21 January 1877; The Secular Chronicle, 17 March 1878; The Secular Review, 29 November 1879.

(4) Lee, Stephen J., Gladstone and Disraeli, First Published, New York, Taylor & Francis e-Library, 2005, p.47; Encyclopedia Britannica, CD., 2010; Barnard, Op. Cit., p.198; Roach, J. P. C., Victorian Universities and The National Intelligentsia, *Victorian Studies*, Indiana University Press, Vol.3, No.2 (Dec., 1959), p.141; Dicey, Op. Cit., p.351; Royle, Edward, Modern Britain: A Social History 1750-1997, Second Edition, London, J. W. Arrowsmith Ltd, 1997, p.377.

وعند نهاية العقد كان العلمانيون قد تركوا بصمة واضحة على المجالس المدرسية على إمتداد البلاد ، ولكن وعلى الرغم من إنتخابهم إلا أنهم إفتقروا للسلطة لاحداث تغييرات مهمة في بعض الاحيان . ففي أفضل الاحوال لم يكن هنالك في المجلس الواحد ما يزيد عن عضوين فقط أو حتى ثلاثة من العلمانيين ، وهذا لم يكن كافياً بالتأكيد للتأثير في سياسة المجلس إلا إذا تمكنوا من الحصول على دعم حزب ذو نزعة غير دينية[١] . ولهذا شددت الجمعية العلمانية الوطنية في إعلانها لعام ١٨٧٤ على ضرورة إنشاء نظام تعليمي علماني حقيقي[٢] . وكان المجلس المدرسي في لندن[٣] من أكثر المجالس التي أثارت إهتمام الزعماء العلمانيين ولذلك حظي بإهتمام بالغ في الدوريات العلمانية[٤] .

أدت تلك التحولات في ميدان التعليم إلى إتساع الهوة الفاصلة بين طرفي النزاع الديني- العلماني ، فمنذ عام ١٨٧٠ أصبح أولئك الذين حبذوا التعليم غير الطائفي ملتزمون بتأييدهم للتعليم العلماني ، إذ تعزز لديهم الاعتقاد بأن مسؤولية تدريس التعليم المسيحي الانجيلي هي من إختصاص الكنائس وليس من إختصاص المدارس الوطنية ، فقد رأوا كيف أن نظام التعليم الطائفي يقوم بتوفير معاملة تفضيلية بين الاطفال ويؤثر بعضهم على بعض لا سيما تجاه تفضيل أولئك الذين آبائهم يدفعون أجوراً أعلى . وعلى النقيض من ذلك رأى أنصار التعليم الطائفي بعين الخوف تجاه تنامي المجتمع العلماني[٥] ورؤاه المدنية- العلمانية لإصلاح المؤسسة التعليمية الذي عني لهم تهديد مواقعهم الوظيفية التي شغلوها في التأثير داخل المجتمع . كما يمكن

---

(1) The National Reformer, 19, 26 December 1875.

(٢) انظر النقطة الاولى في ملحق رقم -٦- .

(٣) أُنشأ المجلس المدرسي في لندن The School Board For London في تشرين الثاني ١٨٧٠ ، الذي يعد أول هيئة تعليمية منتخبة تغطي جميع العاصمة لندن ، بُعيد إقرار مرسوم التربية لعام ١٨٧٠ ، وينتخب أعضاؤه كل ثلاث سنوات . أنظر :

Spalding, Thomas Alfred, The Work of The London School Board, Second Edition, London, P. S. King & Son, 1900, pp.27-32.

(4) The National Reformer, 5 November, 3 December 1882.

(5) Platten, Op. Cit., pp.290-291.

عزو الرغبة بتمرير هذا المرسوم جزئياً إلى تفاعل عوامل سياسية أنتجها الوضع الذي عاشته بريطانيا بعد إنجاز مرسوم الاصلاح الشهير لعام ١٨٦٧ ، إذ غدت الحاجة ملحة لتعليم المواطنين الجدد الذين أضيفوا ومنحوا حق الانتخاب على إثر هذا المرسوم[١] ، وتعززت هذه الرغبة لدى السياسي الليبرالي روبرت لو Robert Lowe (١٨١١-١٨٩٢) الذي صرح قائلاً : «**علينا أن نثقف سادتنا**» ، بحيث أصبحت مقولة : «**سادتنا المستقبليون**» شعاراً في ذلك الوقت للتنبيه على ضرورة تطوير التعليم بعد مرسوم عام ١٨٦٧[٢] .

تمثلت التأثيرات البعيدة المدى في إزدياد أعداد المدارس ، إذ بوشر بفتح ما بين ٣٠٠٠-٤٠٠٠ مدرسة خلال العقد الاول الذي أعقب إقرار مرسوم التربية . أما الأثر المباشر لهذا المرسوم فقد تمثل في إنشاء هيكلية مزدوجة ، ففي الوقت الذي أنشئت فيه المجالس المدرسية اللا طائفية المدعومة بالمنحة الحكومية ، لم يقدر للمدارس الطائفية أن تتلقى المساعدة الضريبية مما جعلها تعتمد على منح وإشتراكات الحكومة أو الهبات المتأتية من ممتلكاتها ، الامر الذي سبب لها ضرراً بالغاً . ولهذا حفّزت كل تلك التحولات الانكليكانيين والكاثوليك على السواء للإسراع بإنشاء مدارسهم الخاصة بوتائر متسارعة ، إلا أن المعركة بدت أمامهم خاسرة على المدى البعيد[١] ،

---

(١) أضاف هذا المرسوم مليون مصوت آخر . لقراءة مفصلة عن هذا الاصلاح ، أنظر :

Cox, Homersham, A History of The Reform Bills of 1866 and 1867, London, Longmans, Green, and Co., 1868, pp.89-302; Baron, G., Society, Schools and Progress in England, First Edition, London, Pergamon Press Ltd., 1965, p.51;

الهاشمي ، عدي محسن غافل ، الإصلاح البرلماني في بريطانيا في العصر الفكتوري ١٨٣٧-١٩٠١ ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، كلية التربية- الجامعة المستنصرية ، ٢٠٠٦ ، ص ص ١٢٢-١٦٢ ؛ الموسوي ، ربيع حيدر طاهر ، تطور البرلمان البريطاني ١٩١١-١٩٤٩ ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، كلية الاداب- جامعة بغداد ، ٢٠٠٧ ، ص ص ٤١-٤٤ .

(2) Marcham, A. J., Educating Our Masters: Political Parties and Elementary Education 1867 to 1870, *British Journal of Educational Studies*, Taylor & Francis, Ltd. on Behalf of The Society for Educational Studies, Vol.21, No.2 (Jun., 1973), p.180.

حينما شرعت المجالس المدرسية بإنشاء المدارس الخاصة بها أيضاً(٢) ، ناهيك عن تحول رغبة الآباء وفقدانهم الثقة بالمدارس الطوعية ومنهجها التدريسي مما أدى بالنتيجة إلى منع أبنائهم من تلقي التعليم الديني ؛ فقد عرف ذلك التحول في الوسط العلمي الاجتماعي بِردّة رب الاسرة The Apostasy of The Paterfamilias(٣) على المعتقدات الدينية السائدة خلال العصر الفكتوري(٤) .

كانت جهود العلمانيين قد تضافرت مع موجة الإصلاحات التي أقرتها الحكومة البريطانية في المؤسسة التعليمية ؛ تلك المؤسسة التي وجد بها العلمانيون تجربة مهمة تستحق التنقيح من عيوبها الممثلة بالتعليم الطائفي- الفئوي . وعلى الرغم من دعم تجربة الدعم الحكومي لمدارس المجالس المدرسية الناشئة بعد إقرار مرسوم التربية لعام ١٨٧٠ في الدوريات العلمانية ، إلا أن تلاقي مصلحة حزب الاحرار آنذاك مع إقرار مثل إصلاحات كهذه قد مثل نقطة توافق بين التوجهات الليبرالية والرؤى العلمانية في تأكيد سيطرة الحكومة على التعليم الابتدائي ، وكان مرسوم التربية بحق نقطة تحول لإنعكاسات لاحقة في علمنة التعليم عززت من جدوى النزاع الذي خاضه العلمانيون من أجل رفع المحددات الدينية في إشغال المناصب ، وليس أدل على ذلك

---

(1) Curtis & Boultwood, Op. Cit., pp.76-77; Armytage, Op. Cit., pp.153-154; Mcleod, Hugh, Secularisation in Western Europe 1848-1914, First Published, New York, St. Martin's Press, LLC., 2000, p.71; Richards, N. J., Religious Controversy and The School Boards 1870-1902, *British Journal of Educational Studies*, Taylor & Francis, Ltd. on Behalf of The Society for Educational Studies, Vol.18, No.2 (Jun., 1970), pp.180-196.

(2) Armytage, Op. Cit., p.147.

(٣) Apostasy : الردّة : ترك الفرد لديانته أو مبادئه أو حزبه أو الخروج على النظام الاكليركي أو الانظمة الدينية . أنظر : الصالح ، المصدر السابق ، ص٤٥ ؛ بدوي ، أحمد زكي ، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية : إنجليزي- فرنسي- عربي ، بيروت ، مكتبة لبنان ، ١٩٨٢ ، ص٢٣ ؛
Bromley (ed.), David G., The Politics of Religious Apostasy: The Role of Apostasy in The Transformation of Religious Movements, First Published, Greenwood Publishing Group, Inc., 1998.

(4) Banks, Victorian Values, pp.75-96.

من إقرار مرسوم الاختبارات الجامعية الذي أقر إلغاء الاختبارات الدينية بعد عام مباشرة من إقرار الاول ؛ وأزاح بالنتيجة من أمام النخبة الاكاديمية ومنتسبي التعليم العالي المعوقات الدينية- الفئوية في أعرق الاكاديميات البريطانية .

رابعاً: تنافس التوجهات العلمانية وانتعاشها - الانشقاق عن زعامة برادلو ونتائجه

مثّل عقد السبعينيات من القرن التاسع عشر مرحلة نضوج الرؤى العلمانية وإنتعاشها ، وعلى الرغم من ذلك ، أفضى هذا الانتعاش إلى تنافس شديد بين الزعماء العلمانيين ، فعند إقتراب موعد عقد مؤتمر الجمعية العلمانية الوطنية المقرر عقده عام ١٨٧٧ ، أدرك العلمانيون إن القضية الأساسية المتعلقة بالسلطة الإستبدادية لرئيس الجمعية ستكون من الامور التي ينبغي عليهم مواجهتها مرة أخرى ، إذ إن معاملة برادلو لتشارلز واتس قد أدت إلى إثارة العديد من المخاوف بين صفوف زعماء الدرجة الثانية للحركة . فقد أدرك كل من تشارلز واتس وفوت إنهما إذا ما أرادا تحقيق أي إنجاز لمصلحة مستقبل الجمعية العلمانية الوطنية ، فإن عليهما أن يقلصا من سلطات برادلو الرئاسية . إن الامتياز الوحيد الذي ضمنه مؤتمر عام ١٨٧٦ تمثل بلجنة ترأسها هوليوك لإعادة النظر بأحكام الجمعية العلمانية الوطنية وتقديم توصية إلى مؤتمر المفكرين الاحرار المؤمل عقده في الوقت ذاته مع المؤتمر السنوي اللاحق للجمعية العلمانية الوطنية[1] . وحينذاك تم وضع قائمة بالمباحثات بناءً على مصالح جديدة . وعندها قدم جورج ميلر George Miller ، من الجمعية الإنتقائية في غلاسكو ، مقترحاً نص على إلغاء منصب رئاسة الجمعية ، وحظي هذا المقترح بنقاش مستفيض . وأشار ميلر ، لكونه عضواً مؤسساً في جمعية المهندسين المندمجة Amalgamated Society Engineers ، إلى وجود رئيس تنفيذي مسؤول أمام لجنة خاصة ، ولهذا لم يحبذ وجود رئيس يستمد صلاحياته مباشرة من مؤتمر سنوي . وقد نال هذا المقترح إستحسان ودعم تشارلز كاتل Charles Cattel (١٨٣٠-١٩١٠) العلماني وزعيم حركة الفكر الحر في برمنغهام والمؤيد للنزعة الجمهورية منذ خمسينيات القرن التاسع عشر ، وبدا أن الاعضاء قد إنقسموا إلى قسمين متساويين

---

(1) The National Reformer, 11 June 1876; The Secular Review, 26 November 1876.

تقريباً ، إذ إن عدد الاصوات المؤيدة لهذا المقترح بلغت ١١٠ صوت ، في حين بلغت الاصوات الرافضة له ١١٧ صوت . وزعمت دورية The National Reformer أن أعضاء جمعية نوتنغهام المحلية لم يحضر منهم إلى المؤتمر الذي عقدته الجمعية العلمانية الوطنية سوى عدد قليل جسدوا معارضي منصب الرئاسة(١) .

لقد كان برادلو على وشك الهزيمة في الجلسة المفتوحة للمؤتمر ، ولكن تمكن فيها وبنجاح من أن يصد المحاولات الرامية لمنع إعادة إنتخابه مرة أخرى رئيساً للجمعية العلمانية الوطنية . وكان الإنجاز الوحيد الذي تمكن غرماؤه من تحقيقه قد حصل عندما تم خلال الجلسة المفتوحة تعيين لجنة من بعض العلمانيين البارزين للنظر في قضية إنشاء منظمة جديدة لحركة الفكر الحر ، وهو الامر الذي أظهر أن تشارلز واتس لم يكن الشخص الوحيد الذي شعر بالامل في إمكانية إنشاء منظمة علمانية حرة ترتبط بالجمعية العلمانية الوطنية . لقد كانت هذه الجمعية تتضمن تشارلز واتس ولو وفوت وجوسيا جيمسن Josiah Gimson (١٨١٨-١٨٨٣) الزعيم المخضرم الذي تمتع بقدر كبير من الاحترام . وحظيت هذه اللجنة بدعم جورج جاكوب هوليوك الذي كان قد وافق على أن يتم إعادة ترشيحه لمنصب نائب رئيس الجمعية العلمانية الوطنية . وفي آب ١٨٧٧ قاموا بتأسيس جمعية مناوئة لبرادلو أطلقوا عليها إسم الاتحاد العلماني البريطاني The British Secular Union وهي الجمعية التي إتخذت من دورية The Secular Review دورية رسمية لها(٢) .

إن المرارة الواقعة بين تكتلي دورية The Secular Review ودورية The National Reformer لم تختف كلياً ، على الرغم من تأرجح ولاء بعض الاعضاء وإنتقالهم من إحدى التكتلات إلى الاخرى . وفي الحقيقة فإن هذا الانقسام لم يلحق بالحركة العلمانية بصورة عامة سوى أضرار طفيفة ، كما إنه لم يضر ببرادلو مطلقاً ، إذ بقي

---

(1) The National Reformer, 27 May 1877; The Secular Review, 27 May 1877; The Secularist, 26 May 1877; The Secular Chronicle, 27 May 1877.

(2) The Secularist, 2 June 1877; The Secular Review, 11 August 1877; The Secular Chronicle, 26 August 1877; Royle, Edward, Secularists and Rationalists 1800- 1940, in: Gilley & Sheils (eds.), Sheridan & W. J., A History of Religion in Britain: Practice and Belief From Pre- Roman Times to The Present, Blackwell, 1994, p.414.

غالبية الاعضاء متمسكين بولائهم له ، فقد كان لوقع شجاعة الاخير في خوض النزاعات دفاعاً عن حرية النشر تأثير ساحر على نحو لا يقاوم . وكانت المرحلة المبكرة للتوسع العلماني قد تزامنت مع التيار المتنامي للنزعة الليبرالية الشعبية ، وبما أن النمو العلماني بعد عام ١٨٧٧ يمكن أن يعزى إلى نتائج محاكمة نولتون فأن هذا التزامن إستمر في كونه توافقياً . فقد كانت العلمانية تعتمد على المناخ السائد في الرأي العام ، كما أن الطبيعة التنظيمية للعلمانية في ظل زعامة برادلو قد ربطت على نحو وثيق بمصير السياسة الراديكالية العامة آنذاك(١) .

مثل إزدياد فروع الجمعيات الجديدة نقطة مهمة في تصاعد وتائر النشاط العلماني ، فعلى الرغم من عدم إدراج أسماء أولئك الاعضاء الذين لم يقوموا بتجديد عضويتهم ، إلا أن ذلك لم يمنع من نبرة التفاؤل في التوسع خلال تلك السنوات . وبناءً على ما نقله جيمس تومسن James Thomson (١٨٣٤-١٨٨٢) الشاعر والناشط في دورية The National Reformer ، فإن إشارة عرضية وردت في المؤتمر الذي أقامه برادلو عام ١٨٧٦ قد أفادت بوجود ١١٩٢ عضواً (بإستثناء ٣٨ عضواً من أعضاء الجمعية الانتقائية في غلاسكو الذين لم يصل تسجيلهم في ذلك الوقت) . وفي تشرين الاول ١٨٧٧ صرح برادلو قائلاً : «**الاعداد التي تلقيتها قد بلغت أعداداً لم نشهد مثلها من قبل ، كما أن نسبة مبيعات أدبيات الفكر الحر قد إتسعت إلى حدود ليس لها نظير خلال السنوات الثلاثين الماضية**» . وبعد إستعراض عام ١٨٧٨ ، لاحظ العلماني جورج ستاندرنك George Standring (١٨٥٥-١٨٢٤) أن الجمعية العلمانية الوطنية قد شهدت إرتفاعاً ملحوظاً في أعداد أعضائها وفروعها وأن نسبة كبيرة من الاشخاص الذين تم تسجيل إنضمامهم إلى هذه الجمعية كانوا من النساء . في الواقع يمكن عزو هذه الحقيقة إلى محاكمة نولتون وإلى التأثير الذي تمتعت به شعبية بزنت آنذاك . ففي عام ١٨٨٠ ذكرت بزنت للحاضرين في مؤتمر الفكر الحر أن الجمعية العلمانية الوطنية قد سجلت في سجلاتها وجود ٦٠٠٠ عضو ، بالمقارنة مع ٣٠٠ عضو فقط في عام ١٨٧٥ . أما الاتحاد العلماني البريطاني الذي عمل على نطاق أضيق ، فقد سجل وجود ١٨٥ عضواً في نهاية عام

---

(1) Royle, Radicals, pp.18-19.

١٨٧٧ ، وقيل أن عدد أعضائه قد بلغ قرابة ٦٠٠ عضو في عام ١٨٧٩[(١)] .

إن التنظيم الاساسي للجمعية العلمانية الوطنية في أواخر سبعينيات القرن التاسع عشر بقي على حاله الذي كان عليه قبل عشر سنوات . وفي مؤتمر عام ١٨٧٦ إحتل جورج ستاندرنك موقع تشارلز واتس الوظيفي بوصفه سكرتيراً . وفي عام ١٨٧٧ ، خلفه مساعده روبرت فوردر Robert Forder (١٨٤٤-١٩٠١) ، الذي كان مقدراً له أن يشغل هذا المنصب لغاية عام ١٨٩١ . بعد ذلك تمت إعادة رسوم الاشتراك البالغة شلن وأربع بنسات في العام الواحد لأعضاء الجمعية العلمانية الوطنية إلى سابق عهدها . وكانت فروع الجمعية العلمانية الوطنية وأعضائها أيضاً قد تم تصنيفهم إلى ناشط Active وغير فعال Passive ، والصنف الاخير ضم أولئك الذين لم يكن لديهم الرغبة بالإقتران العلني بالفكر الحر . لقد كان بعض الاعضاء قد رغبوا بدفع رسوم الاشتراك من خلال الفروع فقط ، وبالنتيجة حرمان برادلو من الاصوات التي تمنح له عن طريق نائب ينوب عن دافعي الرسوم خلال المؤتمر السنوي ، ولكن وبعد تأسيس الجمعية العلمانية الوطنية فإن مثل هذه المقترحات قد تم إهمالها ، وهو الامر الذي أدى إلى ترك برادلو ينعم بالامان التام بموقعه في الجمعية العلمانية الوطنية[(٢)] .

إن هذا الانقسام الدائر بين الجمعية العلمانية الوطنية والاتحاد العلماني البريطاني أدى إلى إيجاد حافز إضافي للفروع المختلفة للظهور ، وأن الجزء الاعظم من موجة العداء التي ظهرت ضد برادلو قد نجمت عن الجمعيات المستقلة التي كانت ما تزال تنظر إلى العلمانية بوصفها إتحاداً مفككاً كما كان عليه الوضع خلال خمسينيات القرن التاسع عشر . أما برادلو فقد طمح إلى جعل الجمعية العلمانية الوطنية من أكثر المؤسسات إنضباطاً . فقد كانت هذه الجمعية في حقيقة الامر تقترن بشخصية برادلو ، وكان الاخير مصمماً على جعل جميع الفوائد التي ستجنى لصالح

---

(1) The Secularist, 17, 24 June 1876; The National Reformer, 28 October 1877; The Secular Chronicle, 1 January 1879; The National Reformer, 5 September 1880; The Secular Review, 8 December 1877, 12 July 1879.

(2) The National Reformer, 30 May, 13, 20 June 1875, 5 May 1877.

الفكر الحر العلماني مستمدة من شخصيته وجهوده وتقتصر على أولئك الموالين له فحسب . ولهذا كان بإمكان المحاضر الرسمي للجمعية العلمانية الوطنية أن يقوم بإلقاء المحاضرات في الفروع المحلية فقط ، ولا يجوز تعيينه من الجماعات غير الموالية للجمعية العلمانية الوطنية . وقبل عام ١٨٧٥ لم يكن هنالك سوى محاضر رسمي واحد هو تشارلز واتس ولكن ، وبعد عام ١٨٧٧ ، تم إختيار عدد من المحاضرين ، وتم الشروع بتعيين واحدٍ من أكثر الرجال شعبية في إنكلترا ، وهو توماس سليتر Thomas Slater (١٨٢٠-١٩٠٠) المحاضر النشط في كل من لانكشاير ويوركشاير ومدلاند وتاينيسايد Tyneside . بعد ذلك أصبحت قضية مقاطعة الجمعيات غير الموالية من أكثر الامور أهمية خلال السنوات اللاحقة(١) .

أدت سلسلة الملاحقات القضائية التي رافقت قضية كراس «ثمار الفلسفة» إلى بقاء برادلو وبزنت في لندن لمدة أطول مما رغبا خلال العامين ١٨٧٧ و١٨٧٨ ، على الرغم من أن أعداد المحاضرين الاخرين قد عكست بجلاء أن حالة الانتعاش التي شهدتها الحركة العلمانية لم تنته بعد . وعلى الرغم من أن جهود برادلو التي بذلها لصالح النزعة الجمهورية في مطلع سبعينيات القرن التاسع عشر قد أثرت نسبياً على الإهتمام بالرؤى العلمانية ، إلا أن النشاطات التي قام بها خلال عام ١٨٧٧ وما بعدها قد إرتبطت بالعلمانية على نحوٍ وثيق ، وأدت بالمحصلة إلى تقوية مكانة الاخيرة وتعزيزها . وبمعزل عن سليتر ، كانت المحاضرات الدورية تلقى على أعضاء الجمعية العلمانية الوطنية من خلال جوزيف سيمز وجيمس هولمز James Holmes (الناشط في مدلاند) ، أو توماس كولنز (الناشط في الجنوب الغربي من البلاد) . وكانت الادارة المركزية تحت رعاية روبرت فوردر وابنتي برادلو أليس Alice وهيبشيا Hypatia اللتين أصبحتا ناشطتين في الحركة العلمانية . بعد ذلك أدى إنضمام إدوارد أيفلنغ(٢) Edward Aveling في عام ١٨٧٩ إلى الحركة العلمانية إلى رفدها بطابع قوي أسهم

---

(1) McCabe, A Biographical, p.741; Royle, Radicals, p.20.

(٢) إدوارد أيفلنغ (١٨٤٩-١٨٩٨) : عالم بايولوجي إنكليزي ، ناصر نظرية التطور الداروينية والالحاد ، وقاد حملة وطنية لصالح الملحدين في السماح لهم بإحتلال المقاعد التي إنتخبوا لها في مجلس العموم البريطاني ، وأسهم في الكتابة في دورية The National Reformer بعدد كبير من المقالات التي تعلقت بالدين والعلم خلال ثمانينيات القرن التاسع عشر . أنظر : =

في تعزيز نشاطها[1] . في الواقع عززت الخطى التي إتبعها برادلو في تثبيت مكانته داخل الجمعية العلمانية الوطنية ، على الرغم من الإنشقاق عليه والابتعاد عن رؤاه حينما أُنشيء الاتحاد العلماني البريطاني ، إلى تحفيز النشاط والتوجهات العلمانية في بريطانيا ؛ فلم يكن هذا الانشقاق سوى خطوة أخرى في طريق تنوع الأطر التنظيمية والفكرية لم يقدر له إلغاء الطرف الآخر أو الحلول محله . وقُدر لجميع تلك التوجهات أن تأخذ موقعها وتستمر في نشاطها وفق ركائز أسهمت في ديمومتها ومكانتها .

خامساً: ركائز الإنتعاش العلماني- نمو الجمعيات العلمانية وانتشارها

كانت إحدى الركائز التي إعتمد عليها العلمانيون في ترويج التوجهات العلمانية وتقويتها هي قاعة العلوم التي قُدّر لها أن تجمع بين التنظيمين المحلي والوطني للعلمانية . فقد كانت في أوج عظمتها تمثل منبراً للاوينيين . وفي عام ١٨٤٣ تم تخصيصها لخدمة الفكر الحر العلماني والراديكالية ، لكن بعد ذلك وتحديداً خلال خمسينيات القرن التاسع عشر أصبحت مقراً للجمعية العلمانية في لندن والمركز الرئيس لحركة الفكر الحر في الجزء الشرقي من العاصمة . وأسس في عام ١٨٦٥ كل من برادلو وجي . بي . آدمز وتشارلز واتس ولو شركة جديدة دعيت بشركة قاعة العلوم Hall of Science Company لغرض جمع مبلغ كبير من المال من أجل تغطية كلفة بناء قاعة جديدة للمحاضرات في مكان ما بالقرب من القاعة القديمة . وفي ١٨ آذار ١٨٦٦ ألقى برادلو محاضراته الاخيرة في القاعة القديمة ، عندها إنتقل نشاط المحاضرات العلمانية على نحو مؤقت إلى Day's Auction Rooms التي أصبح إسمها قاعة النقاش الجديد . ولكن مع نهاية عام ١٨٦٦ لم تتمكن شركة قاعة العلوم من

Flynn (ed.), Tom, The New Encyclopedia of Unbelief, New York, Prometheus Books, 2007, p.100; Smith, Warren Allen, Who's Who in Hell: A Handbook and International Directory For Humanists, Freethinkers, Naturalists, Rationalists, and Non- Theists, Barricade Books, 2000, p.62.

(1) National Secular Society Almanack, 1878, pp.15-16, 1880, pp.17-18.

جمع سوى مبلغ قدره ١٠٠ جنيه إسترليني فقط ، لذلك تفككت هذه الشركة في العام اللاحق[١] .

بعد ذلك لاح في الأفق مخطط آخر بديل في عام ١٨٦٨ تم من خلاله توفير قاعة أخرى[٢] ، إذ تمكن برادلو من إفتتاح قاعة جديدة في ٤ تشرين الاول ١٨٦٨ ، وكانت تتسع في ذلك الوقت لـ ٧٠٠ شخص ، أما في عام ١٨٦٩ فقد تم التخطيط لتوسعتها لتستوعب ضعف هذا العدد . وبعد ذلك تم تغطية ، على نحوٍ تدريجي ، المباني المحلية التي تشبه الاسطبل في مؤخرتها بسقف من القصدير على نحوٍ مؤقت لتتحول من ثم إلى بنايات ، ووفقاً إلى دورية The Weekly Dispatch لعام ١٨٧٩ : «**من الممكن أن تكون كنيسة إنجيلية صغيرة أو حتى مسرحاً إقليمياً من دون الحاجة إلى إجراء أي تعديل على واجهتها**» . وبحلول عام ١٨٧٠ تم بناء قاعة إستوعبت ١٢٠٠ شخص وأخرى صغيرة إستوعبت ٢٢٠ شخص ، وغرف لاستبدال الثياب ، ومدرسة وصفوف وأيضاً مقهى وقاعة ترفيهية . وبلغت الكلفة ١٤٠٠ جنيه إسترليني وكان نصف هذا المبلغ مدفوع مقدماً . وفي عام ١٨٧١ كان عدد الذين حضروا للإستماع إلى المحاضرة المسائية التي ألقاها برادلو حوالي ٣٥٠ شخصاً ؛ مما أدى إلى إكتظاظ القاعة الكبيرة ، الأمر الذي إستلزم إضافة أروقة أخرى لاستيعاب الأعداد الإضافية وبسعة ٤٠٠ شخص . وفي صيف عام ١٨٨٠ تم تجديد واجهة البنايات وكذلك الأسطح وإضافة منبر جديد[٣] .

وكانت لندن تتمتع بجمعياتها المحلية شأنها شأن أي مركز سكاني حضري ؛ إذ قُدّر لبعض من هذه الجمعيات ولا سيما تلك التي في باترسي Battersea من الصمود لمدة طويلة ، وتمكن بعضها الآخر على غرار تلك التي في Ball's Pond Road من توفير أبنية خاصة بها . ولكن في الوقت ذاته كانت ثمة جمعيات على غرار

---

(1) The National Reformer, 3 September 1865, 25 March, 23 December 1866, 29 September 1867.

(2) The National Reformer, 6, 27 September 1868, 10 January, 11 July 1869.

(3) The National Reformer, 4 October 1868, 1 August, 26 September 1869, 9, 30 January, 13 February, 6 March 1870, 5, 26 November 1871, 2 May 1880; The Weekly Dispatch, 8 June 1879.

W. J. Antill's Religious Discussion Society لم تكن سوى جمعية متواضعة ، إذ كانت إجتماعاتها تتم في قبو ويجلس الجمهور على الواح خشبيه منتشرة بين النعوش بينما كان المتحدث واقفاً على الحمالة التي تستخدم لرفع الجثث ، وحينما أراد العقلاني وليم ستيوارت روس William Stewart Ross(١٨٤٤-١٩٠٦)[١] أن يسيء إلى سمعة العلمانيين فإنه لم يجد سوى تسمية واحدة يطلقها على نشاط هذه الجمعية وهي : «**صُناع الالواح الخشبية والنعوش**»[٢] .

لم يخلُ أي عام من أعوام ستينيات القرن التاسع عشر وسبعينياته من وجود ما يقارب الدزينة من جمعيات الفكر الحر العلماني البارزة في لندن التي سرعان ما إنتشرت بعد ذلك نحو الشمال الشرقي إنطلاقاً من چلسي Chelsea مروراً ببادنغتون Paddingtion ويوستن Euston وصولاً إلى هوكستون Hoxton . أما في الجنوب فقد كانت المجموعات العلمانية تلتقي في باترسي وساوثورك Southwark وغرينوج وكذلك في وولوج Woolwich ، هذا فضلاً عن وجود الجمعيات الاخرى في كنغستون Kingston وبرنتفورد Brentford[٣] . فقد إمتدت مرحلة النمو العلماني وتوسعه إلى أعماق الضواحي التي كانت هي الأخرى قد شهدت نمواً سريعاً للغاية في ذلك الوقت . وكان بالإمكان العثور على المجموعات العلمانية في تلك المرحلة في كنزنغتن Kensington وكلبيرن Kilburn وهولووي وهاكني وصولاً إلى أولدفورد Old Ford ومايل إند Mile End . فضلاً عن موجة أخرى إمتدت نحو الشمال إنطلقت من جمعيات ويستهام وستراتفورد عبر لايتنستون Leytonstone ووالثمستاو Walthamstow وصولاً إلى أدمنتون Edmonton وٍوود غرين Wood Green وساوثغيت Southgate . أما في الجنوب فقد آلت المراكز القديمة في ساوثورك ولامبث على نحو تدريجي إلى والورث Walworth وكمبرول Camberwell وبكم Peckham ، في حين ظهرت مجموعات

---

(1) McCabe, A Biographical, pp.683-684; Cooke, Bill, The Gathering of Infidels: A Hundred Years of The Rationalist Press Association, Prometheus Books, 2003, p.11.

(2) The Secular Review, 10 April 1886; Davies, Charles Maurise, Heterodox London: Phases of Free Thought in The Metropolis, London, Tinsley Brothers, 1874, Vol.I, pp.121-136; The National Reformer, 27 April 1879.

(3) Royle, Radicals, pp.46-47.

جديدة في ويمبلدن Wimbldon وستريثم Streatham وفورستهل Forest Hill . وفي الوقت الذي بدأت فيه الجمعيات اللندنية بالتلاشي أخذت الحركة العلمانية تفقد مواطئ قدمها في المدينة ، وتحولت إلى حركة تقتصر على الضواحي فقط . إن هذا التطور عكس على نحوٍ جزئي التغيير الذي حاق بالحركة العلمانية ذاتها ، ولكنه في الوقت ذاته كان جزءً من تغيير أوسع وأشمل وهو التغيير الذي ألمَ بالراديكالية اللندنية نتيجة لتحول المناطق الداخلية إلى مناطق محبطة إجتماعياً لذلك بدأ العمال المهرة بالنزوح نحو الضواحي ذات الاجواء الصحية(١) .

وقبل إتخاذ برادلو من قاعة العلوم مقراً له ، كانت مؤسسة John Street Institution تمثل مركز الفكر الحر في لندن ، فقد إفتتح الاوينيين هذه القاعة لأول مرة في عام ١٨٤٠ ثم إنتقلوا بعد ذلك إلى قاعة كلفلاند في عام ١٨٦١ . وتبعتها العديد من المحاولات خلال ستينيات القرن التاسع عشر إضطلع بها كل من هوليوك وهارييت لو وغيرهم من المحاضرين والخطباء الذين لم يتقبلوا زعامة برادلو بهدف جعل هذه القاعة منافسة لقاعة العلوم ، وأسهموا في تقويتها لتعزيز حركة الفكر الحر العلماني(٢) . أما في الاماكن الاخرى من غرب لندن فلم تكن هنالك إلا جمعيات قليلة إتسمت بالضعف النسبي ، وكان أكثرها بروزاً تلك التي في بادنغتون(٣) . في حين كان شمال وشرق لندن أكثر تجانساً ولا سيما فنزبري نتيجة لأعرافها الراديكالية

---

(1) Thompson, Paul Richard, Socialists, Liberals and Labour, London, Routledge & K. Paul, 1967, P.242.

(2) The National Reformer, 15, 22 October, 12 November 1864, 18 June, 15 October, 3 December 1865, 1 July 1866, 21 June 1868, 18 April, 23 May 1869, 30 January, 5 November 1876; The Secular Chronicle, 27 August 1876; The Secular Review, 3 September 1876, 7 July 1877; Booth, Charles, Life and Labour of The People in London, 3rd Series: Religious Influences, London, Macmillan and Co., Limited, 1902, Vol.II. pp.206-208.

(3) The National Reformer, 2 September 1866, 30 October 1870, 15 January, 30 April, 6 August 1871, 15 December 1872, 19 January, 19 May, 2, 9 June 1873, 8, 22 November 1874, 7 November 1875, 29 October 1876.

التي إحتضنها أصحاب المتاجر الصغيرة والحرفيين . وكانت إحدى أوائل المجموعات العلمانية في هذه المنطقة خلال ستينيات القرن التاسع عشر تلك التي تأسست في قاعة فنزبري في عام ١٨٦٢ ثم إنتقلت إلى قاعة غوزويل Goswell Street Hall في عـام ١٨٦٣ ومن ثم إنتـقلت إلى Metropolitian Coffee House في عـام ١٨٦٥ وعندئذ تم تغيير إسمها إلى الجمعية العلمانية المستقلة . كما برزت في عام ١٨٦٥ الجمعية العلمانية الإنتقائية في لندن London Eclectic Secular Society التي إندمجت مع الجمعية العلمانية المستقلة في عام ١٨٦٧ لتشكلان سوية جمعية واحدة أُطلق عليها جمعية الفكر الحر العلماني لشرق لندن The East London Secular Freethought Society في قاعة العلوم . ومع ذلك إستمر أعضاء الجمعية العلمانية المستقلة بالعمل في خدمة إسم جمعيتهم على نحو منفصل حتى بدأ أخيراً إن كلتا المجموعتين قد إنصهرتا في قاعة العلوم في عام ١٨٦٩[١] .

لقد كانت الجمعية العلمانية في فنزبري The Finsbury Secular Society قادرة على مقاومة قوة الجذب التي تمتعت بها القاعة الام بسبب إمتلاكها للأبنية الخاصة الدائمية في نادي الجمعية الوطنية في لندن The London Patriotic Society's Club في كليركنول غرين Clerkenwell Green . فقد إنبثقت الجمعية الوطنية هذه من فرع هولبورن Holborn ، ثم ما لبثت أن تمكنت من الحصول على مباني ناديها في شهر تموز من العام اللاحق . وفي هذا المكان أيضاً إنطلقت الجمعية العلمانية في فنزبري في عام ١٨٨٠ تحت رعاية فرع الجمعية العلمانية الوطنية ، وإستمر وجودها بوصفها فرعاً للجمعية العلمانية الوطنية[٢] . إن الرابط الذي ربط بين المجتمع والأندية الراديكالية الاولى في لندن هو مثال مهم للطريقة التي أصبحت فيها العلمانية عقيدة عملية إمتازت بها حياة نوادي الطبقة العاملة في لندن[٣] .

وإنبثقت مجموعات علمانية أخرى خلال سبعينيات القرن التاسع عشر ، وكان

---

(1) The National Reformer, 13 December 1862, 4 July 1863, 15 January, 10 September, 1, 29 October 1865, 8 September, 20 October 1867.

(2) The National Reformer, 25 August 1872, 2 May 1880; The Radical, December 1887; The Secular Work, February 1897.

(3) The Freethinker, 9 February 1890, 11 January 1891.

العديد منها ثمرة الجهود التي بذلتها الجمعية الدعائية للعلمانيين المتحدين The United Secularists Propagandist Society التي أنشأها وليم جيمس رامزي William James Ramsey (١٨٤٤-١٩١٦) في عام ١٨٦٩ من أجل تطوير العمل خارج القاعات المغلقة في منطقة شرق لندن . إذ تم إنشاء أحد الفروع في ستراتفورد في عام ١٨٧٠ ، وكان أعضاء هذا الفرع يلتقون في إحدى الحانات العامة The Two Brewers ، في حين إتخذت الهيئة الام من قاعة Preseverence Hall في Goldsmith's Row موقعاً داخلياً مغلقاً لإلقاء المحاضرات خلال شتاء ١٨٧١ . وفي ذلك المكان مر القس سي . أم . ديفيز C. M. Davies في عام ١٨٧٤ ، ووصف إحدى الاجتماعات في كتابه المعنون : «لندن الهرطقية» ووجد بأنهم قد ناقشوا أمر دمج الرابطة العلمانية في هاكني Hackney Secular Association ، أو على الاقل التعاون مع الجمعية الدعائية . فقد تمتعت العلمانية بكل مقومات الدقة في الاداء ، كالنشاط المحلي الشرس والمحموم ، والاستقلالية العنيدة والإهتمام بالقضايا الدستورية ، فضلاً عن تمتعها بخبرة حقيقية بالإجراءات نتيجة لإنبثاق العديد من الجمعيات الصغيرة وإنحلالها فضلاً عن إندماج وإنفصال أُخريات في مد وجزر مستمر . وفي عام ١٨٧٥ ، لم يكن ديفيز مندهشاً البتة حينما قرأ في دورية The National Reformer أن الرابطة العلمانية في هاكني قد : «**سقطت في حالة من التشوش**» ولكنه أبدى رأياً مغايراً بعد عام من ذلك التاريخ قائلاً إنها : «تبلي البلاء الحسن»[١] .

وفي عام ١٨٧٥ تم إنشاء فرع جديد للجمعية العلمانية الوطنية في مايل إند تحت إسم الجمعية العلمانية لشرق لندن East London Secular Society ، كما عاد فرع ستراتفورد أحد فروع الجمعية الدعائية إلى الظهور مرة أخرى في عام ١٨٧٧ على نحو جديد هذه المرة بصفته فرع من فروع الجمعية العلمانية الوطنية[٢] . كما تمركز نشاط

(1) The National Reformer, 1 May, 12 June 1870, 10 December 1871, 13 October 1872, 12, 26 October 1873, 10 Janruary, 13 June 1875, 8 October 1876; Davies, Op. Cit., Vol.I, pp.351-363.

(2) The National Reformer, 31 Janrary, 14 March 1875; The National Secular Society Almanack, 1878, p.33.

الجمعية العلمانية خلال سبعينيات القرن التاسع عشر في منطقتي يوستن و St.Pancras وتمكنت من الحصول على قاعة كليرمونت Claremont في عام ١٨٧٦ لتُستخدم في إلقاء محاضرات أمسيات يوم الاحد . وكان أعضاء الجمعية العلمانية لشمال لندن The North London Secular Society يجتمعون هناك ، وقدر عددهم بمائة شخص ، إذ كانت هذه المنطقة قادرة على دعم نشاطات الجمعية العلمانية في شمال لندن خلال هذه المرحلة والتي تلتها أيضاً[١] .

ووقعت أقدم مراكز حركة الفكر الحر العلماني في جنوب جسر بلاكفريرس ذلك المقر الذي إجتمع فيه الراديكاليون منذ أيام ريتشارد كارليل ، في الوقت الذي إعتادت فيه مجموعات علمانية أخرى الإجتماع خلال ستينيات القرن التاسع عشر في القاعة العلمانية لجنوب لندن The South London Secular Hall . وفي منتصف سبعينيات القرن التاسع عشر بدا إن التركيز قد تحول بإتجاه والورث موطن هارييت لو وزوجها إدوارد مؤسس رابطة والورث للمفكرين الاحرارWalworth Association of Freethinkers . فقد إستقطبت هذه الرابطة العلمانيين القاطنين في والورث وأولئك الذي سكنوا في ضواحي كمبرول التي شهدت توسعاً سريعاً ، وكانت هذه الرابطة بحق واحدة من أقوى فروع الجمعية العلمانية الوطنية في لندن وأنجحها[٢] .

ومن أجل توحيد الجهد العلماني دعا برادلو في عام ١٨٧٠ إلى عقد مؤتمر في قاعة العلوم بهدف تنظيم الجماعات العلمانية العديدة التي إنبثقت في لندن ، وإقترح إقامة حملات دعائية للترويج عن أفكار الحركة العلمانية في الاماكن المفتوحة وتشكيل الجمعية الكراسية Tract Society ، فضلاً عن تشكيل فروع أخرى للجمعية العلمانية الوطنية ، وعرض أن يقوم بإلقاء المحاضرات والخطب في أي مكان من لندن يحوي على قاعة كبيرة . وكانت حصيلة هذا الجهد إنشاء الجمعية الدعائية العلمانية لدبليو . جي . رامزي W. J. Ramsey's Secular Propagandist Society[٣] ، حيث

---

(1) The National Reformer, 10 September 1876, 7 Janurary 1877; The Freethinker, 7 December 1884.

(2) The National Reformer, 6 January 1867, 30 April 1876, 19 April 1885; The Secular Chronicle, 30 April, 14 May, 24 September 1876; The Freethinker, 12 October 1884.

(3) The National Reformer, 27 Mrach 1870.

زاولت نشاطها في عام ١٨٧٥ ، في الوقت الذي ترأست فيه بزنت إجتماعاً في قاعة العلوم بغية تشكيل تنظيم دعائي يصبو إلى وضع خطة شهرية لإلقاء المحاضرات سواء تلك التي تلقى في القاعات المغلقة أو تلك التي تقام في الهواء الطلق لقاء مبلغ قدره ٥ شلنات . في الواقع لم يحرز هذا التنظيم أي تقدم يذكر حتى عام ١٨٧٦ ، إذ وبعد أن أصبح تحت زعامة برادلو تم إجراء محاولة مدروسة هدفت إلى دعم الفروع الاكثر فقراً ومساعدتها في شرق لندن فضلاً عن إبداء المساعي لمدها بالمحاضرين(١) .

وبعد هذه المحاولة بمدة وجيزة حققت الجمعية العلمانية الوطنية نمواً سريعاً وهو الامر الذي أدى إلى إخضاع النشاطات العلمانية لسيطرتها على نحو مباشر . وحازت الجمعية العلمانية الوطنية خلال صيف عام ١٨٧٧ على ١١ محاضراً في لندن أخذوا على عاتقهم مسؤولية محاضرات يوم الاحد في قاعة العلوم ، ومعهد الفكر الحر في والورث Walworth Freethought Institute ، والقاعة العلمانية في جنوب لندن ، وقاعة كليرمونت . أما محاضرات يوم الاثنين فكانت في قاعة فينكس تمبرانس Phoenix Temperance Hall . في حين أقيمت محاضرات يوم الاحد في الاماكن المفتوحة في ستراتفورد على طريق مايل أند وفي شارع جبل طارق Gibraltar Walk وبثنال غرين Bethnal Green فضلاً عن محاضرات أمسية أيام الاحد في بلاكهيث Blackheath(٢) .

وعلى الرغم من ذلك ، واجه العلمانيون مشكلة في منطقة الجنوب الشرقي ووسط جنوب إنكلترا بسبب إفتقار تلك المناطق للجمعيات العلمانية ، وربما تمكن برادلو من خلال زيارة قام بها من إستقطاب أعداداً لا بأس بها من الجماهير ، ولكن وبطبيعة الحال فإن إجراء أي بعثة موسعة من دون تنظيم فاعل للدعم المحلي هو أمر فاق قدرات العلمانيين . وربما لم تبالغ دورية The Secular Review حين تذمرت عام ١٨٧٧ قائلة : «**في الحقيقة لم يتم تحقيق أي شيء يذكر خارج بريستول وبلايموث**»(٣) . ففي العادة لعبت الممتلكات التي تمتعت بها الجمعيات وفروعها دوراً

(1) The Secular Chronicle, 28 November 1875; The National Reformer, September 1876.

(2) The National Reformer, 22 July 1877.

(3) The Secular Review, 9 June 1877; The Freethinker, 30 October 1881, 27 October, 3 November 1889, 14 May 1893; The National Reformer, 1 May 1892.

فاعلاً مهماً . وتمركزت أحد ابرز المراكز الداخلية القليلة الواقعة في الجنوب موجودة في منطقة باث Bath ذات التاريخ الراديكالي الطويل ، إذ كان المفكرون الاحرار قادرين على إستخدام الاندية الشعبية وبعض المؤسسات المتاحة خلال سبعينيات القرن التاسع عشر وتوظيفها لصالحهم[١] .

إن إحدى التحديات الثابتة التي واجهت العلمانيين في العمل التنظيمي وقعت عبر قناة بريستول وبالذات في مناطق ووديان جنوب ويلز التي إتسمت بالنزعة الدينية . فقد ظهرت أولى الجمعيات العلمانية في ويلز وإنبثقت تحديداً في بلدة أبرغيفني Abergavenny في عام ١٨٦٤ . وفي عام ١٨٦٩ أُنشيء الاتحاد العلماني لغرب انكلترا وجنوب ويلز West of England and South Wales Secular Union ، الذي من خلاله تم تكوين جمعية في كاردف Cardiff ، وإنتعش هذا الاتحاد في الاخيرة في عام ١٨٧٢ ، بهدف تغطية مونماوث وغلامورغان Glamorgan وغلوستر وولتشير Wiltshire وسمرست Somerset ، فضلاً عن إلقاء المحاضرات في القرى سواء تواجدت الجماعات العلمانية أم لا . وعلى الرغم من نشاط تشارلز واتس من خلال إلقاء المحاضرات ، إلا أن العلمانيين لم يتمكنوا من إستئجار قاعة لهم ، ولم تكن الجماهير في أبردير Aberdare وكاردف كبيرة[٢] . لقد عزا تشارلز واتس هذا الامر إلى وجود ضغط القساوسة ، فمما هو مؤكد أن العلمانيين قد واجهوا صراعاً عسيراً في المنطقة التي كانت فيها آراء الطبقة العاملة والكنيسة الصغيرة وحتى اللغة الويلزية تقف جميعها في صف واحد ضد ما كانوا يعتبرونه تطفلاً غريباً من جانب العقلانية الانكليزية[٣] .

إن الإخفاق الذي منيت به العلمانية في ويلز كان جزءاً من إخفاق واسع آخر في الريف ؛ فعدم وجود صناعة دل على عدم وجود فكر حر . وكانت العلمانية تعاني

---

(1) The National Reformer, 31 May 1874; The Freethinker, 7 October 1894.

(2) The National Reformer, 16 April 1864, 22 August 1869, 4 February 1872; The Secular Chronicle, 1 October 1872.

(3) Williams, C. R., The Welsh Religious Revival: 1904-1905, *The British Journal of Sociology*, Blackwell Publishing on behalf of The London School of Economics and Political Science, Vol.3, No.3 (Sep., 1952), pp.249, 252.

من الضعف في شرق إنكلترا ولنكولنشاير Lincolnshire وويلز . أما غرمسبي فقد كانت المنطقة الوحيدة التي إمتلكت جمعية للفكر الحر ، وضمت نوروج أحد فروع الجمعية العلمانية الوطنية خلال ستينيات القرن التاسع عشر وسبعينياته ، أما أبسويچ Ipswich فقد ضمت جمعية خلال ستينيات القرن التاسع عشر وسبعينياته . وكما هو الحال عليه في معظم الاحيان ، فإن السبب الرئيس الذي يكمن وراء ديمومة جمعية غرمسبي هو في إمتلاكها لقاعتها الخاصة ، التي شيدتها شركة القاعة العلمانية في عام ١٨٧٥[١] .

تجلى الرباط بين التنظيم العلماني والبلدات من خلال التجربة في إيست مدلاند ، فقد إنبثقت العديد من الجمعيات البارزة في دربي ولستر Leicester ونوتنغهام ونورثهامبتون ، فضلاً عن ظهور بعض الجمعيات بين الفينة والاخرى والفروع المختلفة للجمعية العلمانية الوطنية في البلدات الصغيرة مثل جسترفيلد Cheserfield وأيلكستن Ilkeston ومانسفيلد Mansfield وكترنغ Kettering ولوتن Luton . وحتى في البلدات الكبيرة ، لم يقدر للعلمانيين العثور على بنايات خاصة بسهولة . ففي دربي تم إعادة تشكيل الجمعية في عام ١٨٧٤ إلا أن العلمانيين كانوا مضطرين إلى الاجتماع في منازل بعضهم البعض على إثر ضغط الرأي العام الديني الذي شدد على عدم السماح بترك المجال أمامهم . وفي العام اللاحق لم تجد هارييت لو خياراً آخر سوى اللجوء إلى جستر غرين Chester Green لإلقاء محاضراتها . وفي العادة تكون مثل هذه الزيارات سبباً في ظهور بعض الجمعيات ، كما حدث في كترنغ حينما إستقطب برادلو في عام ١٨٦٨ جمهور قدره ٥٠٠ شخص في إحدى محاضراته التي ألقاها في كورن إكسجينج Corn Exchange ، إذ ظهرت نتيجة لهذه الزيارة إحدى الجمعيات ، ولكن مثل هذه المحاولات عادةً ما تكون قصيرة الأجل ولا تعمر لمدة طويلة . وفي عام ١٨٧٣ تحولت الجمعية العلمانية في كترنغ Kettering Secular Society إلى نادي جمهوري ولم تشهد البلدة بعد ذلك إنشاء أي فرع آخر للجمعية العلمانية الوطنية[٢] .

(1) The National Reformer, 24 March, 1 September 1867, 12, 19 January 1868, 10 January 1869, 3 November 1872, 12 19 October 1873.

(2) The National Reformer, 22, 29 March 1868, 2 March 1873, 15 November 1874; The Secular Chronicle, 18 July 1875.

وكانت بلدة نورثهامبتون مرتعاً خصباً لزعماء الراديكالية والعلمانية في أربعينيات القرن التاسع وخمسينياته[1] ، فقد تأسست الجمعية العلمانية في نورثهامبتون Northampton Secular Society في عام ١٨٦٤ ، وفي عام ١٨٦٧ أصبحت هذه الجمعية واحدة من أولى فروع الجمعية العلمانية الوطنية ، على الرغم من كونها ليست كبيرة ، وخلال سبعينيات القرن التاسع عشر تصدعت هذه الجمعية نتيجة لتكريس زعمائها لطاقاتهم على نحو أساس للراديكالية عوضاً عن العلمانية[2] . وشهدت نوتنغهام نجاحاً أكبر ، إذ ضمت في عام ١٨٧٥ فرعاً تابعاً للجمعية العلمانية الوطنية والجمعية العلمانية الدعائية Secular Propagandist Society التي نشطت في تقديم المحاضرات في الهواء الطلق ، وبدت في حالة تنافس مع الفرع . وكان هذا الفرع ، مع ذلك ، قوي نسبياً ، إذ إستطاع بيع ٤٠ نسخة إسبوعياً من دورية The National Reformer ودورية The Secular Chronicle ، إلا أن الإنقسام بسبب المعاملة التي تلقاها تشارلز واتس من برادلو عام ١٨٧٧ ، التي أدت إلى ردود أفعال قوية في الجمعية ، دفعت الجمعية العلمانية الدعائية للإنضمام إلى الجمعية العلمانية الوطنية في نهاية المطاف والإندماج بها[3] .

وفي هذه الاثناء كانت العلمانية في لستر قد شهدت فرعاً للجمعية العلمانية الوطنية . وأدام إلقاء المحاضرات كل من هوليوك وواتس وفوت وهارييت لو وجوزيف سيمز ، في الوقت الذي لم يسمح به لبرادلو وبزنت وتوماس سليتر بذلك لكونهم محتكرين من الجمعية العلمانية الوطنية . ونتيجة لحظر الجمعية العلمانية الوطنية على سليتر بعدم إلقاء محاضراته في الجمعية ، رد التكتل بزعامة جيمسن بعدم السماح لأعضاء الجمعية العلمانية الوطنية بإستخدام أبنية الاتحاد العلماني البريطاني

(1) Northampton Daily Reoport, 23 August 1883; Northampton Mercury, 1 June, 20 July 1850.

(2) The National Reformer, 13 February 1864, 17 February 1867, 10 January 1869, 21 October 1877; Northampton Mercury, 7 November 1874, 17 February 1922.

(3) The National Reformer, 11, 25 July 1868, 24 March 1878, 27 November 1887; The Secular Chronicle, 5 September 1875, 6 May 1877; The Secular Review, 9 June 1877, 9, 16, March 1878; Snell, Harry, Men, Movement and Myself, London, 1936, p.32.

لإلقاء المحاضرات في عام ١٨٧٨[١] . فقد كان جيمسن عضواً قيادياً في الاتحاد العلماني البريطاني وإشترك مع دورية The Secular Review في إنتقادها لزعامة برادلو الاستبدادية . إذ تأتت قوة برادلو من خلال حجم الدعم الذي إستطاع الحصول عليه في أي صراع خاصه ضد الجمعيات المحلية ؛ أما في لستر فلم تكن هناك حاجة إلى مثل هذا الامر ، إذ كان العلمانيون هناك قادرين على خط إسلوبهم الخاص ، وكانوا في الواقع قد شكلوا عنصراً قيادياً بديلاً في مدلاند . وفي عام ١٨٧٥ قررت الجمعيات العلمانية في لستر ودربي ونوتنغهام سويةً عدم الإنضمام إلى الجمعية العلمانية الوطنية وذلك لانها وجدت في إلحاد برادلو المتشدد أمراً بالغ السلبية[٢] . وعلى إثر ذلك قام أعضاء الجمعية العلمانية الوطنية في لستر في عام ١٨٧٧ بالتحول إلى فرع الفكر الحر المنظم في لستر التابع لرابطة الجمعية العلمانية الوطنية[٣] .

وكان الاتحاد العلماني في لانكشاير The Lancashire Secular Union أكثر نجاحاً من غيره ، على الرغم من إفتقاره للرعاية الفاعلة ، إلا أنه ومع ذلك إمتاز بقدرته على إجتذاب مجموعة من الزعماء المحليين من مختلف البلدات والقرى المتاخمة لمنطقة مانشستر . وتعزز الاتحاد في عام ١٨٧٤ ، حينما برزت ٨ جمعيات على الساحة ، الذي أُطلق عليه الان إسم الاتحاد العلماني لمانشستر ومقاطعتها Manchester and District Secular Union الذي سرعان ما تلقى دعماً من الجمعيات في فيلزورث Failsworth وستايلبردج Stalybridge وأولدهام وبولتن ومانشستر . وخلال العام الاول من نشاطه ، تم إلقاء ١٦٢ محاضرة كما تم عقد ٤ إجتماعات في الاماكن المفتوحة ، إستقطب كل منها ما يقارب ٥٠٠٠ شخص . وإشتركت لو من خلال إلقاء ١٠ محاضرات مميزة في عام ١٨٧٦ ، وخلال السنوات القليلة اللاحقة بدا إن خطة إلقاء المحاضرات ونشاطات الاتحاد قد لاقت النجاح المرجو[٤] .

---

(1) The National Reformer, 21 January, 21 October, 4, 11 November 1877.

(1) The Secular Chronicle, 18 July 1875.

(3) The Secular Chronicle, 20, 27 April, 1881, 4 February 1884.

(4) The National Reformer, 7 March, 11 April 1869, 20 February, 27 March 1870, 5 January 1873, 30 August 1874, 26 May 1878.

وبعد انتعاش الجمعية العلمانية الوطنية في عام ١٨٧٥ إنضمت لها جمعية مانشستر مرة أخرى ، إلا أن العلاقة لطالما كانت غير مستقرة . وعلى الرغم من عدم الإستقلالية التامة كما في لستر ، فقد كان أعضاء جمعية مانشستر على غرار أعضاء جمعيتي نوتنغهام وبرمنغهام من حيث تباين رأييهما حيال تنظيم برادلو ، إذ أبدوا الامتعاض من المعاملة التي أبداها الاخير تجاه تشارلز واتس وتجاه الاستئثار بالجمعية العلمانية الوطنية . وفي شهر آب ١٨٧٨ صوت غالبية أعضاء الجمعية بالإستقلالية ، أما الاقلية فقد توجهت نحو قاعة Temperance Hall وسرعان ما أصبحوا ٤٥ عضواً . عندئذ بدأ برادلو وبزنت بإظهار نفوذهما من خلال إلقاء المحاضرات في الفرع الجديد حصراً[١] . وفي يوركشاير تواجدت في عام ١٨٧٣ دائرة المحاضرة الخاصة لويست ردنك يوركشاير Yorkshire West Riding Special Lecturing Circuit التي إرتكزت على هدرسفيلد وبرادفورد وشفيلد . وبحلول عام ١٨٧٦ كان هنالك ما يقارب ٩ جمعيات ، بمعية ٤٠ محاضراً ألقوا ما يقارب ٧٩ محاضرة خلال موسم المحاضرات بين الاعوام ١٨٧٦-١٨٧٧[٢] .

لقد كانت برادفورد ، حيث تمركزت العصبة العلمانية البريطانية هناك ، فضلاً عن براملي Bramley وبرنسلي Barnsley وهاليفاكس Halifax وهكمندويك Heckmondwike وهدرسفيلد وهل وليدز وشفيلد ، واحدة من أقوى الجمعيات في يوركشاير بفرعها التابع للجمعية العلمانية الوطنية منذ عام ١٨٧٧ ، فضلاً عن تقليد تنظيم الفكر الحر العائد إلى خمسينيات القرن التاسع عشر . إذ حاز علمانيو برادفورد على قاعتهم الاولى في مطلع عام ١٨٦٤ ؛ وفي عام ١٨٧٨ أصبح لديهم فرعاً تابعاً للاتحاد العلماني البريطاني وآخر للجمعية العلمانية الوطنية ، وكما كان يحدث بين

---

(1) The National Reformer, 6 June 1875, 1, 8 September, 1 December 1878, 27 November 1881, 10 April, 7 November 1887.

(2) The Secular World, 1 September 1863; The National Reformer, 15 September 1867, 6 February 1870, 5 October, 14 December 1873, 6 September 1874, 13 October 1875, 12 March, 10 September 1876, 9 September 1877, 20 April, 16, 23 November 1884, 2, 9 March 1890.

الحين والآخر إندمج هذين الفرعين في عام ١٨٨٠[١] .

أما ليدز ، فقد كان تاريخها متشابهاً نوعاً ما ، إذ شهدت تقيلداً للتنظيم العلماني فضلاً عن وجود فرع تابع للجمعية العلمانية الوطنية منذ عام ١٨٦٧ ، وتمكن العلمانيون هناك من الحصول على قاعة في نورث غيت Northgate في عام ١٨٧٥ ، فضلاً عن محاولتهم كسب ود الجماهير في عام ١٨٧٨ حينما شرعوا في إدارة مطعم للحساء من أجل الفقراء ، إلا أن هذه الثقة سرعان ما تبددت نتيجة لتخصيص قاعتهم للرقص ، فسرعان ما وجدت الشرطة أن الجعة كانت تباع بطريقة غير قانونية ، فضلاً عن وجود رجل يرقص وهو شبه عاري بمرافقة رجال آخرين إرتدوا ثياباً نسائية . فقد أدت هذه الطقوس المعربدة في ليدز التي وقعت مباشرةً بعد قضية كراس نولتون ومحاكمات ما عُد إنها أمور فاضحة إلى إحراج كبير للعلمانيين الذين كانوا «بريئين من سلوكيات كهذه» . وفي عام ١٨٧٩ إنفصل هذا الفرع عن الجمعية العلمانية الوطنية ، إلا أنه سرعان ما عاد وإنضم إليها في عام ١٨٨٠[٢] .

وعلى خلاف لانكشاير ويوركشاير ، لم تكن مناطق الشمال الشرقي مركزاً مهماً للنشاط العلماني خلال خمسينيات القرن التاسع عشر وستينياته ، ولكن ومنذ عام ١٨٦٩ بدأت الجمعيات تتسارع في الظهور في كل من بدلنغتنBedlington ونيوكاسل وسندرلاند Sunderland وساوث شيلدز South Shields وجارو Jarrow ووندي نوك Windy Nook وسغهل Seghill وسبني مور Spennymoor ، الامر الذي جعل منها أقوى المناطق في البلاد من حيث هذا النشاط . فنجاح العلمانية في المنطقة الشمالية الشرقية قد بدا مفاجئاً أمام البقعة التي ساد فيها المذهب الميثودي بقوة ، ناهيك عن وجود تركز لمذهب المنشقين عن الكنيسة الانكليزية في وديان جنوب ويلز ، فالتناقض هو ما كان سائداً ، إذ على الرغم من ذلك كان هنالك إقتصاد

(1) The National Reformer, 19 December 1863, 13 February 1864, 8, 29 August 1880, 13 April, 3 August 1884; The Secular Review, 31 July, 14 August 1880, 15 March 1891.

(2) The National Reformer, 11 April 1863, 4 August, 24 November 1867, 6 June 1869, 21 July, 4 August 1872, 17 August 1873, 29 August 1875, 13 Feburary 1876, 17 Feburary 1878; The Secular Review, 11 August 1877, 9 March 1878, 12 April 1879, 27 March 1880.

قوي فضلاً عن التماثلات الدينية بين المنطقتين . وأثبتت المنطقة الشمالية الشرقية إن العلاقة بين الحركة العلمانية وأنصارها لم تكن علاقة ذات منحى عقائدي صرف ، بل أقرب ما تكون إلى علاقة سياسية معقدة إرتكزت على منحى برادلو في المجالين الليبرالي والجمهوري[١] .

كانت العلاقة الوثيقة بين برادلو وعمال المناجم في المنطقة الشمالية الشرقية ذات صفة سياسية . ولم يكن برادلو إشتراكياً ، لكنهم هم أيضاً لم يكونوا جميعاً مخلصين في سياستهم سواء الليبرالية أو الراديكالية أو العمالية ، تلك السياسة التي جعلت من برادلو الخطيب السياسي المثالي لدى أبناء نورثمبرلند ودرم . وبقدر ما شغل الدين مكانة معتبرة ، إستطاع الفكر الحر أن يتعايش بيسر مع الإيديولوجية المناهضة للاكليركية وغير المتوافقة مع المذهب الميثودي المحلي . فحينما ألقى فوت محاضرة في إيسنغتن لين Easington Lane في عام ١٨٧٥ تحت عنوان : «كنيستنا الرسمية» أشار حينها إلى أن الكهنة المحليين : «**ليسوا في أفضل حالاتهم الان ، وأن فكرة نزع الصفة الرسمية عن الكنيسة ستلقى ترحيباً حاراً**»[٢] .

سادساً: التحليل البنيوي لطبيعة النشاط العلماني وأساليبه

أثار علماء الاجتماع من أمثال الدكتور كولن بي . كامبل Campbell Colin B. والدكتورة سوزان بد Susan Budd ، تساؤلات بشأن الستراتيجيات والأساليب التكتيكية التي إتبعها العلمانيون في تفعيل نشاطهم الفكري . وإندرجت تلك التساؤلات على غرار : هل أن العلمانية مرادفة للالحاد؟ وهل أن الالحاد هو النتيجة الحتمية للفكر الحر؟ وهل توجب على العلمانيين تبني موقف عدائي أم مجامل في

---

(1) Royle, Radicals, p.64.

(٢) إعتقد فوت نتيجة لإنتشار الجمعيات العلمانية في شمال شرق إنكلترا أن دعوة نزع الصفة الرسمية عن الكنيسة الانكليزية ستلقى ترحيباً كما حصل حينما منحت حكومة غلادستون ذلك في إيرلندا في عام ١٨٦٩ ، وبعد أن لمس تراجعاً لأثر رجال الدين هناك . أنظر :

The Secular Chronicle, 31 October 1875; The National Reformer, 25 July 1880, 28 February 1892; The Secular Chronicle, 30 September 1877; The Freethinker, 25 December 1904.

إسلوبهم الدعائي؟ أما المجموعة الثانية من الاسئلة فقد تمحورت بشأن السلطة ، مثل : هل من الضروري وجود رئيس لزعامة الجمعية العلمانية الوطنية؟[١] .

إن التساؤلات المطروحة بشأن ستراتيجيات العلمانية قد تمركزت في بادئ الامر حول شخصيات الزعماء الكبار أمثال جورج جاكوب هوليوك وتشارلز برادلو وصراعهما الذي إستمر طوال حياتهما . فقد كان هوليوك يكن إستياءً واضحاً مع أنصاره تجاه الأسلوب العدائي الذي إنتهجه برادلو لإقصائه عن زعامة الحركة العلمانية[٢] . وعلى الرغم من ذلك ، نجد أن موضوع الستراتيجية ، في خضم ذلك النزاع ، قد شغل حيزاً كبيراً ؛ إذ طمح هوليوك للتمييز بين العلمانية التي تتضمن مواقف بناءة تجاه قضايا العالم ، والالحاد الذي مثل مسألة فلسفية ، والفكر الحر الذي مثل حالة ذهنية تدعو للإنفتاح على الافكار . وفضلاً عن ذلك ، إستوجب على المفكر الحر التحلي بالتسامح لكي يتمكن من مناقشة إلحاده (إذا ما كان ذلك نتيجة لفكره الحر) بهدوء فلسفي في سبيل أن يتمكن من المشاركة في الإصلاحات العلمانية من دون أن يلفت ذلك الإنتباه لإستنتاجاته الفلسفية المتعلقة بوجود الرب من عدمه . أما برادلو فقد كان مؤمناً أنه في أثناء تطبيق العلمانية سيغدو من المتعذر فصل تلك الإشكاليات التي طرحها هوليوك ، كما كان مؤمناً بأن المسيحية تمثل عائقاً يقف في طريق الإصلاح العلماني ، لذلك رأى أن من واجب المفكرين الاحرار الوصول إلى إستنباطات فلسفية تؤدي بالمحصلة إلى تحطيم المسيحية من خلال طرحها بالقوة اللازمة . ولطالما كانت دورية The National Reformer المساندة الداعمة والأداة لمثل رؤية شمولية كهذه[٣] .

وفي عام ١٨٧٠ تجسدت هذه الاختلافات على نحوٍ كامل وظهرت للعيان حينما قام برادلو وهوليوك بمناقشة وجهات نظرهما المختلفة علىً مدار ليلتين في قاعة العلوم وكانت القضايا المطروحة قد تضمنت : «**المبادئ العلمانية لا تتضمن الالحاد**» ،

---

(1) Campbell, Colin B., Toward a Sociology of Irreligion, London, Macmillan, 1971; Budd, Susan, Varieties of Unbelief: Atheists and Agnostics in English Society 1850-1960, London, Heinemann Educational Books, 1977.

(2) The Freethinker, 29 September 1901.

(3) Royle, Radicals, p.110.

و«**النقد العلماني لا يتضمن مذهب الشك**»[١] . وكما هو الحال في أغلب المناقشات الاخرى ، لم يتمكن أي من الطرفين من إقناع الطرف الآخر ، وعلى الرغم من ذلك فإن النقاش اللاحق في دورية The National Reformer أوضح أن الانقسام والفرقة يجب أن لا تصبح في الجانب العملي مساوية لما هي عليه في الجانب النظري . لقد أشار جي . بي . آدمز ، الذي طالما كان مناصراً لبرادلو وناقداً لهوليوك ، إلى أن اسلوب الاخير قد أثبت إخفاقه ، أما أسلوب برادلو فقد كان أجدى نفعاً ، ولكنه مع ذلك أعرب عن أمله في أن يتعلم كلاهما أن يعملا سوية . أما تشارلز واتس فلم يعترف بوجود أي إختلاف بين الرجلين من حيث المبدأ . أما أوستن هوليوك فقد أشار بأن أخاه قد قام بتغيير موقعه على نحوٍ غير واقعي . فقد كان أغلب المفكرين الاحرار يعلمون عملياً أن مسألة معارضة الدين يجب الخوض فيها في ظل وجود بدائل علمانية حاضرة تحت اليد . وتمكن أحد المساهمين في دورية The Agnostic Journal[٢] من صياغة تقييم مناسب لطبيعة الصراع البنّاء بين هذين الزعيمين حين قال : «**لم يقُدر لعمل هوليوك بالظهور لولا غرور برادلو ، ولولا حب الغير والإيثار لهوليوك لذهب هجوم برادلو على المعتقدات أدراج الرياح . ولهذا فإن الشخصية التي إمتاز بها أحدهم ما هي إلا متممة لشخصية الآخر**»[٣] .

أما الخلافات بشأن السلطة فقد كانت ذات منحى غير إيجابي ، وأبرز مثال على ذلك كمن في المحاولات التي قام بها فوت سعياً لإلغاء منصب رئاسة الجمعية العلمانية الوطنية وهي المحاولات التي شنها ضد برادلو في عام ١٨٧٦ . أما قضية كراس نولتون فقد كانت مثالاً لافتاً على سوء إستخدام برادلو للسلطة ، إذ إنعكس

---

(1) Secularism, Scepticism, and Atheism: Verbatim Report of The Proceedings of A Two Nights' Public Debate between Messrs. G. J. Holyoake and C. Bradlaugh London, Austin & Co., 1870.

(٢) وتعني اللاأدري : سيتم تناول النزعة اللاأدرية في الفصل الرابع وضمن المبحث المعنون : تنامي النزعة اللاأدرية وعلاقة العلمانيين بها . أنظر الصفحات ٣٠٤-٣١٣ من الكتاب .

(3) The National Reformer, 20, 27 March, 24 April 1870; The Agnostic Journal, 3 February 1906.

هذا الجانب من شخصية برادلو من خلال هذه القضية وأدى بالمحصلة إلى إثارة إهتمام متزايد بين صفوف العلمانيين على النحو الذي أدى إلى حدوث نتائج سلبية مستديمة . ومن غير المستغرب أن تمكن هوليوك في المراحل الاولى ومن ثم برادلو في المراحل اللاحقة من الحفاظ على ولاء البعض- في أقل تقدير- من أبناء جيلهم . بل أصبحت الولاءات الشخصية غالباً أكثر أهمية من الولاءات الأخرى ، كما في نوتنغهام عام ١٨٧٧ حيث حصل تشارلز واتس على الدعم والتأييد بسبب العلاقات التي تمتعت بها زوجته مع الفرع هناك . كما بدا إن ثمة نوع من الترابط بين الدعم الذي حظي به هوليوك وبقايا الاوينية ، الامر ذاته إنطبق على لستر وهدرسفيلد وفيلزورث وغلاسكو ؛ إذ إستذكر فوت كيف تم تأسيس جمعيتي مانشستر وغلاسكو من بعض الاشتراكيين القدامى من الاوينيين : «**يمكن القول بأنهم كانوا في نهاية المطاف موالين لهوليوك ومعارضين لبرادلو**»[1] . ولخص الكسندر كامبل آراء العديد من أتباع أوين القدامى في عام ١٨٦٨ قائلاً : «**أعتقد إنها مضيعة كبيرة للوقت أن يقوم أحدهم بمناقشة الكتاب العتيق Old Book [الكتاب المقدس] . وعندما أقوم بمقارنة منبر الفكر الحر في ماضيه وحاضره ، فأنا أجد عندها إن هنالك تقدم فعلي ملحوظ قد تحقق في الماضي حينما كان روبرت أوين يقترح الافكار الاشتراكية القديمة**»[2] .

لقد مالت المجموعات العلمانية إلى النزعة الهجومية في إسلوب عملها ؛ إذ إحتوت الجمعية العلمانية الوطنية على بعض المجموعات الميالة لتلك النزعة في القرى الصغيرة ، مثل بدلنغتن في نورثمبرلاند وكذلك في البلدات الكبيرة مثل مانشستر أو حتى في ليدز ، أما الاتحاد العلماني البريطاني فقد إمتلك فروعاً على غرار الاماكن ذاتها التي تواجدت فيها فروع الجمعية العلمانية الوطنية ، وإستقطب هوليوك الجماهير من غلاسكو وفيلزورث على حد سواء . وعلى الرغم من ذلك فقد بدا واضحاً إنه في القرى والمدن حيث إستطاع المفكرون الاحرار ، تحت أي سبب ، أن يستحوذوا على القبول من الناس بكونهم جزءً شرعياً من المجتمع ، فإنهم كانوا أقل ميلاً للنزعة القتالية . وكان الفكر الحر ذو الصورة العدائية قد بدا كإستجابة حينما غدا بقاء نشاط

(1) The Freethinker, 7 February 1909.

(2) The National Reformer, 18 October 1868.

العلمانيين على المحك . فقد مثلت بعض الخصائص المميزة لهوليوك وبرادلو أوجه أو سمات لحركة الفكر الحر في بريطانيا ، وتجسدت في نوعين من الراديكالية ؛ الاول : تبني ما أطلق عليه البديل المكافىء كموقف حيال الدين ، وهو النوع الذي حاول التكيف مع العالم ، أما النوع الآخر ، فهو الذي تبنى وجهة النظر الاقصائية إنعكاساً للعداء الذي أبدته المسيحية . ووفقاً للغة الدينية فأن الاول يقارب ما يدعى بالجماعة المذهبية Denomination التي تحاول طرح أفكارها الراديكالية كوسائل بديلة داخل بنية المجتمع المسيحي بهدف إصلاحه ، أما الثاني فيقارب الطائفة العقائدية Sect التي تحاول الإنعتاق والنأي عن التصورات المسيحية من خلال محوها والحلول محلها[١] .

إن ذلك التقسيم مهم لتوضيح النموذج الاجتماعي للحركة العلمانية وللتمييز بين تيارين فيها . وأفضل نموذجين يمكن الاستدلال من خلالهما تمثلا في جمعية لستر المؤيدة لهوليوك وقاعة العلوم العائدة لبرادلو . وعلى الرغم من ذلك ، كان الصراع دائراً بين الزعماء أنفسهم في أغلب الاحيان . فقد تزعم كل من برادلو وفوت وروس أشخاصاً ذوي طباع مختلفة منهم المعتدل ومنهم المتطرف . وحددت الدكتورة بد مقدار التباينات بين مختلف ردود الأفعال تجاه الاعتقادات الدينية ، وإستنتجت : الجواب يكمن إلى حد ما في شخصيات الأفراد من جهة ، أو في نوع التأويل والولاء الذي تبناه كل فرد في المكان والزمان الذي عاش فيه ومدى تقبله للأفكار من جهة أخرى[٢] . ويمكن توضيح هذا الإنقسام من خلال إستخدام مصطلحي : الكنيسة الصغيرة Chapel والبعثة التبشيرية Mission ؛ فالأخيرة تعني إمتيازاً وظيفياً ينجم عن كيفية نظرة الأفراد لأنفسهم ولعقائدهم في علاقتهم مع العالم الخارجي وحاجاتهم الشخصية ، أما الكنيسة الصغيرة ، أو ما تعرف بالجمعية المحلية ، يكون التشديد فيها على العلمانية والنشاطات الطائفية ؛ في الوقت الذي يكون من مهام البعثة التشديد على إستدراج وكسب المسيحيين غير المنغمسين في الدين . وأشار فوت إلى ذلك حينما كتب في إحدى مقالاته المبكرة المعنونة : «سياسة العلمانية» قائلاً : «**إن**

(1) Royle, Radicals, p.120.

(2) Budd, Varieties of Unbelief, p.103.

عملنا الهدام أو السلبي يعني في حقيقة الامر الهداية»[١] .

لقد كان جميع الزعماء العلمانيين مدركين تماماً لحقيقة إنه فضلاً عن النشاط التبشيري ، فإن الكنائس الصغيرة قد أُنشئت لتشكل الايمان العلماني بعد تحطيم الإيمان الديني التقليدي . وأن التوازن بين هذين الأمرين قد إعتمد على الوضع المحلي والتفضيل الفردي للأعضاء العلمانيين . فعلى سبيل المثال نشأ الناشط العلماني في لستر مالكولم كون Malcolm Quin (١٨٥٤-١٩٤٥) نشأة دينية سلسة ، ولم يعرف من قبل جمود المعتقد الديني لذلك فهو لم يشعر بالحاجة إلى ممارسة الالحاد على نحو حاد[٢] . ومن المرجح إن علمانيي الجيل الثاني أمثال أوين بالمفورث من هدرسفيلد قد شعروا الشعور ذاته ، ومثل هؤلاء نحوا منحى ما عرف بالعلمانيين الإيجابيين . ولهذا كان هناك صنفان من العلمانيين : الاول ، شدد على الالحاد بإعتباره وعي ذاتي متشكل ، والثاني ، أولئك الذين عَدوا أنفسهم علمانيين غير مؤمنين ووجدوا انه لا جدوى من التأكيد على الالحاد ، وكان جورج جاكوب هوليوك أحد أولئك الذين كافحوا في سبيل الصنف الثاني ، لذلك وجدوا أنفسهم في نزاع مع الصنف الاول[٣] .

إمتاز نشاط الكنائس الصغيرة التي إستخدمها العلمانيون بذكاء من أجل خلق بديل مكافئ للكنيسة التقليدية التي يرتادها المسيحيون في العصر الفكتوري بالتنوع . وعلى الرغم من أن حجم هذا النشاط كان أدنى من حجم النشاط المتعلق بالمحاضرات الجماهيرية التي نالت شهرة شعبية واسعة ، إلا أن الرجال والنساء الذين إرتادوا كنائس العلمانيين الصغيرة قد مثّل لهم هذا الإنتماء أهمية كبيرة داخل إطار منظومة النشاط العلماني . وكما هو الحال عليه في الكنائس المسيحية ، فإن نشاط الكنيسة الصغيرة قد إمتاز بمظهرين هما : السمو Elevation والتسلية Entertainment ، وإن الحاجة لكلتا الوسيلتين كان من أجل خلق مكافئ أو معادل ديني ، سرعان ما أصبح

(1) The Secular Review, 6 September 1879.

(2) Quin, Malcolm, Memoirs of A Positivist, London, G. Allen & Unwin, 1924, pp.28-29.

(3) MacIntyre & Ricoeur, Alasdair C. & Paul, The Religious Significance of Atheism London, Columbia University Press, 1969, p.15.

ميزة في الفكر الحر العلماني البريطاني[1] . وكما كانت الاوينية من قبل ، نجد أن العلمانيين سعوا إلى تجميع كافة مستلزمات الشعائر الدينية ؛ من خلال تحويل قاعاتهم ومحاضريهم ، على نحوٍ فعلي ، إلى ما يشبه الكنائس والمبشرين الدينيين ، فقد صاحب ذلك الجو بعض الموسيقى والغناء . وقد إستعانت بعض الجمعيات الاولى بكتاب الترانيم الاشتراكية القديم ، الذي كان بالأساس من أصول أوينية . ولم يكتفِ العلمانيون بذلك ، بل راحوا يكرسون جهدهم لتفعيل دور المراسيم الخاصة بهم وإعطائها بُعداً خاصاً من خلال إبتداع صيغ لتسمية الاطفال المولودين من أبويين علمانيين ، أو صيغ جديدة لدفن العلمانيين في مواجهة أساليب المسيحيين المتبعة في هذا الشأن . فلم تكن هذه الوسائل بهدف الاشباع العاطفي وحسب ، وإنما للإيحاء بوجود عواطف إجتماعية تسهم في إثراء الجاذبية التي تتحلى بها العلمانية ، إذ نشر أوستن هوليوك في دورية The National Reformer صيغة لمراسيم الدفن في عام ١٨٦٨ ، فضلاً عن صيغة لتسمية الاطفال الحديثي الولادة من تأليف تشارلز واتس في العام ذاته . فقد إرتبط التكريس العلماني للطفل حديث الولادة بالحضور في يوم الاحد بمعية محاضر علماني يقوم بتسميته وجعله منتمياً للعلمانية بحضور والديه اللذين أبديا تعهدهما في الرغبة بتكريس نسلهم من أجل قضية الاستقصاء الحر والتقدم غير الطائفي . وتم إعادة نشر كلا النموذجين في عام ١٨٧٥ مع مجموعة من الترانيمِ التي وضعها كل من واتس وبزنت في كتيب وصف بأنه : «**يتضمن عدداً معتبراً من الترانيم ، ولكن بصرف النظر عن القليل منها الممتلئ بالجمالية الحرة لنفحة وحدة الوجود ، فإن هذه الاناشيد النفعية ذات سمة عاميّة للغاية كما إنها تقترب في بعض المواطن من المحاكاة الساخرة**»[2] .

ولم تكن الحاجة إلى الموسيقى محدودة في أي مفصل من مفاصل الحركة العلمانية ، وفي هذا الصدد نجد أن أولئك ذوي الاسلوب الهجومي والمهادنين ودعاة

---

(1) The Secular Review, 24 March 1877.

(2) The National Reformer, 12 Jan, 15 November, 20 December 1868, 19 December 1875; The Secularist, 8 April 1876; D'Alviella, Count Goblet, The Contemporary Evolution of Religious Thought in England, America and India, Trans. J. Moden, London, Williams & Norgate, 1885, pp.151-152.

التغيير الجذري ، جميعاً قد تشاطروا المظاهر الفئوية ذاتها في ميدان الفكر العلماني . وأن الجمعية العلمانية المثالية ، كما وصفها برادلو في الملاحظة الافتتاحية التي وردت في دورية The National Reformer في عام ١٨٧٠ ، كان من المفترض أن توفر صفاً دراسياً للمناظرات ، وصفاً آخر للغناء لتمرين الشباب من الرجال والنساء لتشكيل جوقة غنائية قبل وبعد المحاضرات ، فضلاً عن مدرسة للاطفال وكذلك إقامة التجمعات الاجتماعية وحفلات الشاي على الاقل لمرة واحدة في الشهر في حالات الطقس السيء ، فضلاً عن إقامة النزهات على الاقل مرة واحدة في الشهر في حالات الطقس الجيد . وفي تلك الاثناء كان أوستن هوليوك قد قام مسبقاً ببحث المفكرين الاحرار على إمتلاك القاعات في الاماكن المحترمة وفي الشوارع الجيدة ، فقد كانت بناية دورية The National Reformer في الحقيقة أشبه ما تكون ببناية كنيسة صغيرة[(١)] .

في الواقع لم يتوانَ العلمانيون عن إستخدام وتفعيل دور الموسيقى لكسب الانصار ؛ فمن خلال دورية The Secular Chronicle أطلق في عام ١٨٧٥ ما عرف بفكرة الكنيسة العلمانية Secular Church لتحل محل الكنيسة المسيحية في أدائها الروحي . كما تم إقتراح كتابة نص أوبرا علمانية بعنوان المسيح! ، ليتم على إثرها تأسيس الجوقة العلمانية في ستايلبردج ؛ حيث غدت الاوركسترا معلماً مميزاً للعلمانية في لانكشاير في أواخر سبعينيات القرن التاسع عشر . وكان تشارلز واتس قد أكد على الاكثار من الغناء في الاجتماعات من أجل جذب النساء والاطفال ، الذين كانوا في الاساس الدعامة الاساسية في الكنائس الصغيرة . وفي الحقيقة لم تكن النساء وحدهن اللاتي كن يتملصن من الطبيعة الجافة لبعض تجمعات العلمانيين : إذ حينما قامت أليس برادلو بعزف الموسيقى على آلة البيانو قبل إلقاء المحاضرة الصباحية في قاعة العلوم في عام ١٨٦٩ ، لقي هذا العزف إستحسان الجماهير الحاضرة الذي رأت فيه فرصة للإسترخاء والتخلص من الملل والحقائق العسيرة الفهم التي إنطوت عليها بعض المحاضرات . كما أفادت التقارير إن برادفورد

---

(1) The National Reformer, 1 March 1868, 11 September 1870, 10 March, 7 April 1878; The Secular Review, 27 April 1878.

شهدت في عام ١٨٦٨ تقديم الموسيقى في المحاضرات[١] .

وحسبما أفادت الدكتورة بد فقد كان بالامكان التمييز بين التجمعات ذات الطبيعة الدينية والتجمعات التي تلقى خلالها المحاضرات ، من خلال سلوك وتطلعات الجماهير[٢] ؛ إذ أن العضو الحاضر في صفوف الجماهير للإستماع إلى إحدى المحاضرات ، يكون بإمكانه المغادرة في منتصفها ، أو أن يتكلم مع أحد الجالسين إلى جواره أو أن يصفق أو حتى أن يدخن السجائر . أما العضو الحاضر في التجمعات الدينية فيكون مقيداً ومن غير اللائق القيام بمثل هذه الامور- لذلك فإن الكره الذي إمتاز به العديد من الرجال العاملين على تقبل مثل هذه القيود العرفية يعد واحداً من الاسباب التي أدت إلى الاخفاق الذريع الذي منيت به الكنائس المسيحية في إستقطاب الكثير من أبناء الطبقة العاملة . ولكن وعلى الرغم من ذلك نجد أن العديد من العلمانيين كانوا عازمين على تحويل محاضرات يوم الاحد الصباحية وبعض المسائية منها إلى مايشبه الطقوس الدينية[٣] . فقد ركز العلمانيون على جعل يوم الاحد ذو طابع خاص بعيد عن التصورات الدينية المسيحية ودعموا فكرة : «الاستعمال الحر والعقلاني ليوم الاحد» ، وأسسوا لذلك ما عرف بعصبة يوم الاحد الوطنية ، التي كرست جهدها من أجل ضمان حق الإستجمام للأفراد في يوم الاحد عبر فتح قاعات الفنون والمتاحف والمكتبات ، وجاءت فكرتهم تلك تحت مبرر إنساني تمثل في إعطاء حق العامل الكادح خلال الاسبوع بأجمعه التمتع بيوم الاحد من خلال رؤية المرافق الترفيهية مفتوحة في ذلك اليوم ، وأصر العلمانيون على مطلبهم

---

(1) The Secular Chronicle, 17 January 1875; The National Reformer, 4 July 1875, 19 March 1876; The Secular Review, 25 March 1882; The National Reformer, 13 September 1868, 28 February 1869; The Freethinker, 6 November 1887, 5 July 1891.

ودعم برادلو أيضاً إستخدام الموسيقى من أجل جذب النساء والاطفال . أنظر :

The National Reformer, 23 October 1870; The Freethinker, 9 August 1885.

(2) Budd, Susan, The Humanist Societies, in: Wilson (ed.), Patterns of Sectarianism, pp.377-405.

(3) Gimson, S. A., Random Recollections of The Leicester Secular Society, 1932, Part I, p.17.

هذا من خلال إلتماسات كثيرة قدمت للبرلمان خلال سبعينيات القرن التاسع عشر نبهوا فيها إلى عقم مرسوم حظر الترفيه ليوم الاحد الصادر منذ عام ١٧٨١[١] .

إن إضفاء الطابع الديني في العمل العلماني في لستر، على سبيل المثال، قد ظهر خلال سبعينيات القرن التاسع عشر عن طريق ما عرف بجماعة الوضعيين Group of Positivists . فقد كانت هذه الجماعة ناشطة في مدرسة يوم الاحد العائدة لجمعية لستر العلمانية، وفي شهر آذار ١٨٧٨ بدأ أحد أعضائها، وهو مالكولم كون، بمزاولة وتقديم قراءات قصيرة للفكر العلماني قبل بدء محاضرات أيام الاحد المسائية. ليتم على إثرها في العام اللاحق بالإستهلال لتقديم الاغاني التي رافقها العزف على آلتي البيانو والهرمونيوم[٢] . فقد كانت الحفلات الموسيقية والأمسيات من أكثر صور النشاطات الترفيهية شيوعاً . وفي إحدى الحفلات الموسيقية التي إقيمت في عام ١٨٦٩ بدعم من صندوق بناء قاعة العلوم، وبحضور برادلو، تم إنشاد الاغاني العاطفية والهزلية، وقامت أليس برادلو بالعزف على آلة البيانو في الوقت الذي كانت فيه هيبشيا تقوم بالغناء. وعلى الرغم من أن وجود هؤلاء العلمانيين في الاماكن العامة بدا ثقيل الظل في بعض الاحيان، إلا أنهم كانوا على دراية كافية في كيفية إمتاع أنفسهم وغيرهم في ظل مجتمعاتهم. وفي عام ١٨٧٨ قامت أليس برادلو بإنشاء إتحاد الجوقة العلمانية في لندن London Secular Choral Union، الذي تولى إحياء طقوس أمسيات يوم الاحد في الكنيسة الصغيرة في ساوث بليس South Place التابعة للإتحاد العلماني البريطاني، وقُدر لإتحاد الجوقة العلمانية تنظيم النشاطات الترفيهية الفصلية طوال عدة أعوام[٣] . وكان من أبرز ملامح ذلك النشاط القيام بتأليف مقطوعات شعرية وترانيم علمانية خاصة كوسائل جذب ركز بعضها

---

(1) McGee, Op. Cit., p.20; Holyoake, Sixty Years, Vol.2, p.44.

(٢) Harmonium : آلة موسيقية تدعى بالقدمية أو الارغن القصبي Reed Organ، تشبه البيانو ولكن تعمل بضغط الهواء. أنظر:

Gimson, Op. Cit., Part I, p.19; Gould, Frederick James, The History of Leicester Secular Society, Leicester Secular Society, 1900, pp.20-21; Encyclopedia Britannica, CD., 2010.

(3) The National Reformer, 7 March 1869, 4 August 1878, 27 July 1879; The Secular Review, September, 5, 12 October 1878.

على إطراء الحرية أو الحقيقة أو المصلحين ، وأخرى خُصصت للدفاع عن المستضعفين والامتثال لقوانين الطبيعة ، فيما تناولت أخرى تمجيد العلم والعمل ؛ وجاء في أحدها :

أيها الناس في كافة أنحاء الارض
إتحدوا في رباط إجتماعي واحد
وإنقذوا أنفسكم ؛ إذا ما أردتم أن تكونوا سعداء
حرروا أنفسكم من العبودية جميعها
وإبتعدوا عن كل خبيث
وإنقذوا أنفسكم

ومن أجل تكريس هذا الجهد قام أوستن هوليوك وتشارلز واتس بتأليف كتاب عن الترانيم العلمانية صدر في عام ١٨٧١ تحت عنوان : «دليل العلمانيين للاغاني والمراسيم Secularists' Manual of Songs and Ceremonies» ، فيما قامت بزنت بتأليف : «كتاب الاغنية والترنيمة العلمانية The Secular Song and Hymn Book» في عام ١٨٧٥ ، الذي أُلف على نسق ألحان الترانيم المسيحية المعتمدة آنذاك[١] .

ترافق مع هذا النشاط العلماني التأكيد على جذب الانصار في المناسبات المسيحية على نطاق واسع ؛ إذ قام برادلو في عام ١٨٦٧ بحضور ما دعي بحفلة شاي الجمعة العظيمة في هدرسفيلد ، فضلاً عن إنشاء مدارس الاحد العلمانية في كل من هدرسفيلد وفيلزورث بالتزامن مع مناسبة عيد إسبوع العنصرة[٢] . وكانت جمعية فيلزورث تقوم في كل عام بإقامة حفلة شاي أمسية العام الجديد ؛ أما جمعية لستر

---

(1) Courtney, Janet E., Freethinkers of the Nineteenth Century, London, Chapman & Hall, Ltd., 1920, p.121; McGee, Op. Cit., pp.47-48.

(٢) Whitsun : عيد مسيحي له جذور في العهد القديم ، والعنصرة لفظة عبرانية بمعنى إجتماع أو محفل ، ويقصد فيه باليهودية الشكر على محصول الجني وفي الوقت نفسه نزول الشريعة الموسوية والوصايا العشرة ، ويحتفل به اليهود بعد عيد الفصح بخمسين يوم ومدته ٧ أسابيع ، ولهذا أطلق عليه في الكتاب المقدس عيد الاسابيع وعيد الحصاد وعيد البواكير ؛ وفي المسيحية تطور المفهوم وبقى يوم الاحد السابع بعد القيامة ، وهو ذكرى حلول عنصر الروح القدس على الحواريين الاثني عشر بعد قيامة المسيح بخمسين يوماً . أنظر : =

فكانت تقدم وجبة عشاء مجانية للفقراء في يوم عيد ميلاد السيد المسيح(١) . وكانت النزهات والسفرات من المعالم المنتظمة والشعبية في البرامج السنوية لمعظم الجمعيات العلمانية . وفي بعض الاحيان كان من الممكن دمج المتعة والعمل ، كما حصل في عام ١٨٧٥ عندما ذهب أعضاء الاتحاد العلماني لمقاطعة مانشستر إلى المُربّى المائي في مانشستر لعقد المؤتمر الفصلي هناك(٢) . فقد كانت العلمانية لمثل هؤلاء الاشخاص أكثر من مجرد قائمة جافة للمحاضرات الاسبوعية ، أو مجرد جمعية تنشر أفكارها الغامضة بوسائل بيروقراطية ، بل كانت العلمانية لهم أسلوباً للحياة لبى إحتياجاتهم الروحية والاجتماعية من دون الإلتجاء إلى وسطاء أو معتقدات خارقة للطبيعة(٣) .

ومارس العلمانيون ترويجهم الفكري عبر الجمعيات العلمانية من خلال إتباع ثلاث وسائل الاولى : المحاضرات ، سواء تلك التي تلقى على المستوى الاقليمي أو الوطني ، التي تتم عادةً بالتنسيق مع الجمعيات المحلية ؛ والثانية : عبر الدوريات الاسبوعية أو الشهرية التي تولى زمام إصدارها الزعماء العلمانيون ، والثالثة : عبر إصدار الكراريس والكتيبات بين الحين والآخر وغيرها من نشاطات النشر المختلفة الأخرى . فقد كانت المحاضرة التي يلقيها الزعيم العلماني من شأنها بكل تأكيد أن تتسبب بجمع الأعضاء في بعض المناسبات ، ولكن مثل هذه التجمعات التي تحدث في فترات زمنية متباعدة لم تكن تعود بالنفع الدائم مثلما كانت تفعل التجمعات المنتظمة في بعض الفروع النشطة(٤) .

Warren, Nathan Boughton, The Holidays: Christmas, Easter, and Whitsuntide, New York, H. O. Houghton and Company, 1868, pp.122-131; Dijk, Danielle Van, Christ Consciousness: A Path of Inner Development, Translated By: Monique De Hoop, Temple Lodge Publishing, 2010, pp.99-100.

(1) The National Reformer, 5 May, 23 June 1867, 9 February 1890; The Freethinker, 24 August 1902; The National Reformer, 12 January 1868; Leicester Secular Society, Minute Book II, 22 December 1884; The Jerusalem Star, February 1896; Gimson, Op. Cit., Part I, p.39; The Secular Chronicle, 7 February 1875.

(2) The Secular Chronicle, 13 June 1875; The Freethinker, 30 June 1889, 6, 27 August 1882.

(3) Royle, Radicals, p.142.

(4) The Secular Chronicle, 1 November 1872.

وعمل العلمانيون كذلك على محاكاة الأساليب الترويجية التي تتبعها الكنائس ، إذ كانت الإجتماعات التي تعقد في الاماكن المفتوحة لمدة طويلة ذات شعبية واسعة بين صفوف العلمانيين في الشمال بالذات . ويمكن القول إن الاجتماع الذي عقد في كاسل هل في هدرسفيلد في شهر تموز ١٨٧٤ يعد واحداً من أضخم الاجتماعات المقامة في الاماكن المفتوحة ؛ فقد تجمعت أعداد كبيرة من الجماهير تراوحت بين ١٥٠٠٠ و٢٥٠٠٠ شخص (من بينهم بضعة مئات إنجذبوا بفعل الفضول) ؛ جاءوا من كل حدب وصوب حتى من بعض الاماكن البعيدة مثل نيوكاسل ونونتغهام وليفربول من أجل المصادقة على قرار برادلو بإعادة إحياء الجمعية العلمانية الوطنية بعد شبه الانهيار الذي لحق بها في مطلع سبعينيات القرن التاسع عشر[١] .

وكانت أكثر الاشكال إثارة في العمل الدعائي قد تمثلت في إجراء الجدالات التي كانت في الغالب تمتد لعدة ليالي بين زعماء الفكر الحر العلماني والذائدين عن المسيحية آنذاك . وفي بعض الاحيان كان الاشخاص ذاتهم يحضرون في أكثر من مناسبة ، مما أعطى الإنطباع بأن هذه الجدالات كانت تقام في الواقع من أجل جني المال . وأجريت العديد من هذه الجدالات التي ركزت على مزايا كل من المسيحية والفكر الحر ، ومثلت مصدراً للإثارة والترفيه ، على الرغم من أن كلا الطرفين قد إدعى الإنتصار على غريمه[٢] . وكان من أبرز رجال الدين المسيحيين الذين نصبوا أنفسهم مدافعين عن المسيحية هو بريون غرانت Brewin Grant (١٨٢١-١٨٩٢)[٣] ، الذي كان في شبابه طالب لاهوت إنضم للجماعات المناهضة للاوينية ، وبوصفه كاهن

---

(1) The National Reformer, 12 July 1874; The Freethinker, 28 October 1900; Royle, Edward, Owenism and The Secularist Tradition: The Huddersfield Secular Society and Sunday School, in: Chase & Dyck (ed.), Malcolm & Ian, Living and Learning: Essays in Honour of J. F. C. Harrison, Scolar Press, 1996, p.206.

(2) The National Reformer, 17 September 1876, Royle, The Infidel Tradition, pp.215-218.

(3) Giustino, David De, Conquest of Mind: Phrenology and Victorian Social Thought, First Published, London, Croom Helm Ltd, 1975, p.32.

أبرشية[١] قام بتنظيم حملة ضد العلمانيين خلال خمسينيات القرن التاسع عشر . وفي بادئ الامر خاض جدالاً بشأن العلمانية مع برادلو في عام ١٨٥٨ في شفيلد[٢] ، ولكنه خلال ستينيات القرن التاسع عشر ترك الأبرشية وإنضم إلى الانكليكانية ، وإستهل العمل بمناهضة العلمانية في شفيلد في عام ١٨٦٧ ، وخاض في عام ١٨٧٠ جدالاً مع تشارلز واتس ، بعد ذلك إلتقى ببرادلو مرتين إنقطعت فيهما تلك المناظرة قبل نهايتها . وإتفق الاثنان على الإلتقاء في ست أمسيات خلال شهري مايس وحزيران ١٨٧٤ من أجل مناقشة موضوع : «المزايا النسبية للعلمانية والمسيحية» . وفي العام اللاحق إلتقى الاثنان مرة أخرى في الكنيسة الصغيرة في ساوث بليس بشأن موضوع : «هل إن الالحاد أم المسيحية هي العقيدة الدنيوية الحقيقية من خلال السعي لتحسين البشرية وسعادتها في هذه الحياة ، ومن خلال الجهود الانسانية والوسائل المادية؟»[٣] .

وكانت ثمة علاقة وطيدة بين الاساليب الدعائية الشفهية والمكتوبة التي إعتمدها العلمانيون . ولكن في الوقت الذي كانت فيه الأساليب الخطابية تُحدث الأثر على نحو مباشر ، نجد إن الأساليب الكتابية جوهرية لديمومة المرتكزات التي إستندت عليهاً العلمانية . فضلاً عن ذلك فإن إلقاء المحاضرة مثّل فرصة مناسبة لبيع

(١) الكنيسة الأبرشية Congregational Church : كنيسة منشقة عن الكنيسة الانكليزية الرسمية وذات إستقلال ذاتي ، ويطلق على الأبرشيين لفظة المستقلين . أسسها روبرت براون Robert Browne حوالي عام ١٥٨٠ ، وتعتمد الكنيسة الأبرشية على التعاليم الكالفنية ، وتم تأسيس الاتحاد الأبرشي في بريطانيا في عام ١٨٣٢ ، ليتم على إثرها تأكيد عضوية الكنيسة الأبرشية . أنظر :

Encyclopedia Britannica, CD., 2010; Kenyon, Op. Cit., p.89; Swatos (ed.), William H., Encyclopedia of Religion and Society, London, Sage Publications, Inc., 1998, p.117-118.

(2) A Full Report of The Discussion Between The Rev. Brewin Grant B. A., And "Iconoclast" In The Mechanics' Hall, Sheffield on The 7th, 8th, 14th, & 15th June 1858, London, Jackson & Walford, St. Paul's Churchyard, 1858.

(3) The National Reformer, 5 January 1868, 27 February 1870, 31 May, 28 June 1874, 4 July, 15 August 1875.

أو توزيع أدبيات الفكر العلماني ؛ لذلك يمكن القول بأن كلا الاسلوبين الدعائيين قد كمل بعضه الآخر[1] ؛ حتى أن بعض المفكرين الاحرار فضل إستخدام الكراريس ومنحها الاولوية على المحاضرة ، إذ بخلاف المحاضرة ، يمكن للكراسة أن تطالع بهدوء وتقرأ أكثر من مرة وبتمعن ، على الرغم من رميها جانباً بعد الإنتهاء منها[2] ونتيجة لذلك تم الشروع بنشر العديد من محاضرات برادلو في دورية The National Reformer بصيغة كراريس أيضاً في هذه المرحلة . وتبنت بزنت المنهاج ذاته ، إذ غالباً ما تم نشر الجدالات أيضاً ، على نحو إسبوعي سواءً في الدوريات أو الكراريس . لتبرز أعداد كثيرة من الإصدارات الرسمية ؛ إذ قام كل من برادلو وبزنت بإصدار «الكتاب المنهجي للمفكر الحر» ، بناءً على توصية من مؤتمر عام ١٨٧٥ ، فضلاً عن سلسلة من الكراريس التي تولت نشرها الجمعية العلمانية الوطنية في العام السابق . وكانت تلك سمة دارجة ؛ فقد تولى جميع الزعماء العلمانيين إصدار كراس تلو الاخر في محاولة منهم لإقناع جمهورهم وتأكيد خطأ معارضيهم[3] .

ومثّلت الدوريات واحدة من أهم أدبيات الفكر الحر العلماني إلى حد كبير ، وذلك لأنها قدمت خدمة جليلة للحركة العلمانية من خلال نشر المحاضرات والكراريس ونقلها للأخبار والتواصل بين الزعماء العلمانيين فضلاً عن نشر بعض أنواع الاعلانات . وحينما قررت بزنت الإنتماء للفكر الحر ، كانت إحدى نسخ دورية The National Reformer هي السبب في تمكنها من التواصل مع الجمعية العلمانية الوطنية ، وحينما قام القس سي . أم . ديڤيز ببدء جولاته بالضد لما إعتبره هرطقة في لندن ، فإن أول ما قام به هو شراء نسخ من دوريات الفكر الحر بوصفها دليلاً له . وإعتقد القيمين على دورية The Saturday Review في عام ١٨٦٦ بعدم قدرة صحف الحرفيين المتعددة على شد إنتباه القارئ سوى بين الحرفيين أنفسهم . وفي عام ١٨٧٥ تمكنت الجمعية العلمانية في نوتنغهام Nottingham Secular Society بمفردها من

---

(1) The Freethinker, 13 October 1889; The Secular Review, 6 October 1877; The National Reformer, 6 August 1871.

(2) The Secular Chronicle, 21 October 1877.

(3) Saville (ed.), John, A Selection of The Political Pamphlets of Charles Bradlaugh, New York, A. M. Kelley, 1970; The Freethinker, 29 January 1899, 6 July 1901.

تحقيق نسبة مبيعات بلغت ٢٣٨٦ نسخة من دورية The National Reformer (أي ما يقارب خمسين دورية إسبوعياً) . فضلاً عن ٢٣٠١ نسخة من دورية The Secular Chronicle و١٤٦٦ كراسة منوعة ونشر ٢٠٤ نسخة إحتوت على ما دار في الجدالات التناظرية . وحققت دورية The National Reformer في عام ١٨٧٦ نسبة مبيعات بلغت ٥٠٠ نسخة في ليدز فقط إسبوعياً ، في حين لاقى الإصدار الاول من دورية The Secular Review نسبة مبيعات بلغت أكثر من ٤٠٠ نسخة ، وكان ثلاثة أرباع هذا العدد قد تم بيعه بعد إلقاء برادلو لمحاضراته في منطقتي هكمندويك وشبلي Shipley[(١)] .

ومن أجل تفعيل النشاط العلماني ، قام برادلو بإعادة ترتيب دورية The National Reformer وعزز من نسب مبيعاتها ، محولاً إياها إلى نشرة إسبوعية من الطراز الراقي من ورق الفولسكاب Foolscap الكبير قياس ١٦×١٣ إنشاً مقابل بنسين فقط . ومن أجل أن تستمر الدورية فقد كان لزاماً على برادلو أن يتمكن من بيع ٤٠٠٠ نسخة إسبوعياً ، فضلاً عن ٥٠٠ نسخة بهدف تحقيق ربح معتبر ، وهذا ما تم في عام ١٨٧٢ ، إذ تضاعفت نسبة المبيعات في عام ١٨٦٧ وبلغت ٣٠٠٠ نسخة[(٢)] . وكان المساهمون الأساسيون في أواخر ستينيات القرن التاسع عشر هم الدكتور جورج سكستون وجي . بي . آدمز وهنري أتكنسون Henry Atkinson (١٨١٢-١٨٨٤) وتشارلز كاتل وجيمس ثومسن[(٣)] . وفي هذه المرحلة برزت بزنت على الساحة ، إذ أصبحت مساعد محرر بدلاً من تشارلز واتس في عام ١٨٧٧ ، وفي العام ذاته بدأت بنات برادلو أليس وهيبشيا كذلك بكتابة المقالات ، كما إنضم جَي . أتش . ليفي J. H. Levy ، الذي درس الإقتصاد السياسي ، إلى الكادر بوصفه مساهماً منتظماً في مواضيع السياسة والاقتصاد والاخلاق وعلم النفس والفلسفة والدين . وأخيراً وبعد

---

(1) Besant, An Autobiography, p.134; Davies, Heterodox London, Vol.II, p.149; The Saturday Review, 27 October 1866; The National Reformer, 9 January 1876; The Secular Review, 10 September 1876.

(2) The National Reformer, 4 August 1867, 7 January 1872, 3, 10 September, 1 October 1893; The Freethinker, 15 October 1893, 10 December 1905.

(3) The National Reformer, 22 March, 12, 26 April, 17 May 1874.

إنضمـام إدوارد أيفلنغ في عـام ١٨٧٩ ، أصبح لـدى دورية The National Reformer فريقاً متكاملاً من كُتاب المقالات ذوي قدرات إستثنائية وكفاءة عالية جعلت منها إحدى الاصدارات البارزة(١) .

وكـانت دورية The Secular Chronicle من أكـثـر الدوريات المحلية التي أنشـأها العلمانيون نجاحاً خلال عهد برادلو ، فقد أُصدرت في برمنغهام في شهر آب ١٨٧٢ وعنيت بنشر الإستقصاء الحر للقضايا الاجتماعية والسياسية واللاهوتية ، وتولى إصدارها جورج ريدالز ، الطباع الشاب من برمنغهام ، على نحوٍ شهري مكونة من ٨ صفحات بسعر نصف بنس ، لكنه بعد ذلك ضاعف عدد صفحاتها إلى ١٦ صفحة مقابل بنس واحد . وكان المساهمون في بادئ الامر عبارة عن مجموعة من ناشطي مـدلاند ، من بينهم تشـارلز كـاتل واتش . في . مـاير H. V. Mayer الذي أنشـأ عمـود عنوانه : «طرائف المفكرين الاحرار» . وعلى إثر خسارة المجلد الاول منها لمبلغ ٥٠ جنيه إسترليني ، تم تقليصٍ عدد صفحات المجلد الثاني إلى ١٢ صفحة ، وبدأت تصدر على نحوٍ إسبوعي إبتداءً من شهر تشرين الاول ١٨٧٤ ، عندها حظيت بنسبة مبيعات مرتفعةٍ في عموم البلاد ، وأصبحت لسان حال معارضي برادلو ، بيدَ إنها وعلى الرغم من ذلك لم تضاهِ بقيـة الدوريات . وفي تشـرين الاول ١٨٧٥ توفي ريدالز نتـيجـة لاصابته بمرض التيفوئيد وهو بعمر ٢٨ عاماً ، عندها قام والده ببيعها لهارييت لو ، التي قامت بتوسيع برنامج الدورية لتغطي نطاق واسع من المواضيع كالالحاد والنزعة الجمهورية وحقوق المرأة والتعاونية الاوينية(٢) . ومن المعالم المهمة التي ميزت هذه الدورية تكريسهـا لصـفـحـات عنيت بقـضـايا المرأة ومـسـاندة القـضـايا السـيـاسـيـة والاجتماعية والمحلية التي أثرت على نحوٍ خاص على حياة المرأة(٣) . وفي نهاية عام ١٨٧٨ شعرت لو بأنها لم تعد قادرة على دعمٍ هذه الدورية ، لذلك قامت بتسليمها إلى إحـدى الشـركـات ذات رأس المال المشـترك ، إلا أن هذه الشـركـة لـم تـتـمكن في الحقيقة من تحقيق أي نجاح يذكر مما أدى بهذه الدورية الجريئة إلى الإنحدار بسبب تراجع مستوى التوزيع . في الواقع عكست دورية The Secular Chronicle تحت زعامة

---

(1) Royle, Radicals, p.158.

(2) The Secular Chronicle, 7 July, 4 August 1878; Royle, Religion, p.6.

(3) The Secular Chronicle, 2 January 1878.

ريدالز ، التوجهات المتعاطفة مع آراء هوليوك العلمانية ، أما تحت قيادة لو فقد كانت محايدة إلى حد كبير ، مما جعلها محط إهتمام معارضي توجهات برادلو[1] .

في الحقيقة كُرس النشاط العلماني في مرحلة تأسيس الجمعية العلمانية الوطنية وما تمخض عنه من إنشقاق الرؤى العلمانية وتعددها فيما بعد ، إلى وجود منهجين ومدرستين للعلمانية البريطانية الاولى ، دعمت ما عرف بالمنهج الهجومي الالحادي الذي تزعمه برادلو ، والاخرى ، تبنت المنهج المعتدل بزعامة جورج جاكوب هوليوك ، وعلى الرغم من إختلاف هاتين المدرستين إلا أنهما أسهمتا في إنعاش العلمانية وديمومتها على أفضل وجه . ومع ذلك يمكن القول أن المرحلة اللاحقة قد شهدت إرتفاع شأن المدرسة الاولى على حساب الثانية على نحو ملحوظ ولا سيما حينما عزم برادلو الدخول في المعترك السياسي ليمهد بذلك ما عُرف بالنزاع العلماني من أجل التمثيل السياسي منذ عام ١٨٨٠ .

(1) Royle, Radicals, pp.162-163.

الفصل الرابع

إتجاهات العلمانية البريطانية منذ النزاع العلماني
من أجل التمثيل السياسي عام ١٨٨٠ ولغاية نهاية العصر الفكتوري
عام ١٩٠١ - مرحلة الذروة والتنوع

أولاً: الإستجابة الإصلاحية الثانية للرؤى العلمانية: النزاع العلماني من أجل التمثيل السياسي ١٨٨٠-١٨٨٨ وأثره في تعميم حق التأكيد بدل القسم في البرلمان البريطاني

قُدر للتوجهات والرؤى والاصلاحات العلمانية التي ميزت المرحلة السابقة من العلمانية البريطانية أن تلقى لها صدى سياسي آخر في هذا المرحلة ؛ فعلى إثر الإستجابة الإصلاحية الاولى المتمثلة بدخول اليهود في البرلمان البريطاني في عام ١٨٥٨ ، لاقت الطروحات العلمانية إستجابة ثانية أخذت مكانتها المهمة ضمن سياق تطور الإصلاحات البرلمانية التي تميز بها العصر الفكتوري ؛ وكان بحق النزاع السياسي الذي خاضه وأثاره برادلو في أروقة البرلمان البريطاني منذ عام ١٨٨٠ من أجل نيل مقعد برلماني خير مثال على تجسيد ذروة النزعة العلمانية البريطانية في أجلى صورها السياسية .

جعلت سمعة برادلو السابقة ، المتعلقة بترويجه لقضايا تحديد النسل والنزعة الجمهورية والالحاد ، منه شخصية ممقوتة من غالبية الفكتوريين المتأثرين بالنزعة المحافظة ، وألقت بظلالها على توجهه السياسي المتعلق بمحاولاته ولوج العمل السياسي[(١)] . وقد تأتت سمعته تلك من تصريحاته وكتاباته على مدى ثلاثين عاماً سبقت محاولاته لدخول المعترك السياسي بوصفه نائباً في البرلمان البريطاني ، في الوقت الذي لم يرَ برادلو أية غضاضة في نعت نشاطه بالالحادي ، ما دام ذلك النعت لايعني بالضرورة إنكاراً مطلقاً لوجود رب ، إذ كتب في عام ١٨٥٩ ، بشأن ذلك قائلاً : «**لا أنكر إن هناك رب لأن إنكار أمر غير معروف هو بالضبط بقدر لا معقولية التأكيد عليه . وبصفتي مُلحداً فإنني أنكر رب الكتاب المقدس**

(1) Arnstein, Walter L., The Bradlaugh Case: A Reappraisal, *Journal of The History of Ideas*, University of Pennsylvania Press, Vol.18, No.2 (Apr., 1957), p.254.

والقرآن وڤيدا[١] ، ولكنني لا أستطيع أن أنكر الشيء الذي ليس لدي معرفة به»[٢] .

تعود البدايات الاولى لمحاولات برادلو ترويج الطروحات العلمانية عبر المؤسسات السياسية إلى خوضه أولى معاركه الإنتخابية لنيل مقعده عن بلدة نورثهامبتون في عام ١٨٦٨ ، إذ كان من بين النقاط التي تناولها في برنامجه السياسي آنذاك التشديد على التعليم الوطني الإلزامي ، والفصل التام بين الكنيسة والدولة ، إلا أن الظروف السياسية آنذاك لم تكن مواتية له ، فلم يتحمس حزب الاحرار لفوزه ، بل كتب غلادستون نفسه رسالة في هذه المرحلة حث فيها على إلحاق الهزيمة ببرادلو لعدم إستساغته لطروحاته الفكرية ، في حين كان جون ستيورات مل من أبرز الداعمين له في سعيه الإنتخابي المبكر[٣] . وعلى الرغم من ذلك ، لم ييأس برادلو وسعى بعد عام إلى بذل جهده في تزعم الحملة الرامية للسماح للذين دعيوا آنذاك بغير المؤمنين Non- Believers بالديانتين اليهودية والمسيحية بإستبدال القسم بالتأكيد من أجل الإدلاء بالشهادة أمام محاكم إنكلترا وويلز ، وهو ما تم بالفعل عبر المرسومين اللذين شرعا على إثر هذه الحملة تحت عنوان : مرسومي تعديل الشهادة Evidence Amendment Acts لعامي ١٨٦٩ و١٨٧٠ اللذين ساعدا على رواج مفهوم التأكيد العلماني Secular Affirmation[٤] .

وعلى الرغم من ذلك ، لم يقدر لبرادلو الخوض في المجال السياسي إلا حينما ظهرت بوادر الوفاق بين التيارين الليبرالي والراديكالي في نورثهامبتون في عام

---

(١) ڤيدا Vedas : إسم لمجموعة نصوص دينية هندية كتبت بالسنسكريتية (١٨-١٧ ق . م .) ، وتعني الڤيدا العلم أو المعرفة ، والنصوص الفيدية ذات أهمية كبرى ، لانها الشاهد الوحيد على الديانات الهندوكية أو البرهمانية القديمة . أنظر : خليل ، خليل أحمد ، معجم المصطلحات الدينية : عربي- فرنسي- إنكليزي ، ط١ ، بيروت ، دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر ، ١٩٩٥ ، ص ١١٩ .

(2) Gilmour, James Pinkerton, Champion of Liberty: Charles Bradlaugh, London, Watts & The Pioneer Pr., 1933, pp.141-153.

(3) Mill, john Stuart, Autobiography, New York, Columbia University Press, 1924, pp.219-220.

(4) Arnstein, The Bradlaugh Case: A Reappraisal, p.255; McGee, Op. Cit., pp.63-64.

١٨٨٠ ، عندها وجد فرصته المواتية ، ليتم على إثرها تبنيه بوصفه مرشحاً عن الحركة الليبرالية بعد أن وجد الليبراليون المحليون أنفسهم هناك بلا أي مرشح يمثلهم قبل أسابيع قليلة من خوض الإنتخابات العامة في نورثهامبتون التي تمخض عنها فوز إثنين من الليبراليين الراديكاليين لا يؤمنان بالرب هما برادلو والسياسي والكاتب هنري لابوشير Henry Labouchere (١٨٣١-١٩١٢)[١] . وعلى إثر ذلك خطط برادلو لنيل مقعده البرلماني عبر إستغلال النصوص القانونية ذات الابعاد العلمانية ؛ فقد إعتقد بأن مرسومي تعديل الشهادة لعامي ١٨٦٩ و١٨٧٠ يؤهلانه في ظل وجود مرسوم القسم البرلماني Parliamentary Oath Act لعام ١٨٦٦[٢] ، لتقديم التأكيد بدل القسم من أجل تَبَوُّء كرسيه في مجلس العموم ، لذلك أَخبر الكاتب المعني بتضمين هذا الأداء في مجلس العموم بهذا التصرف قبل إقترابه من المنصة في ٣ مايس

---

(1) Arnstein,Walter L., The Bradlaugh Case: A Study in Late Victorian Opinion and Politics, Oxford, Clarendon Press, 1965, pp.26-29; Thorold, Algar Labouchere, The Life of Henry Labouchere, New York & London, G. P. Putnam's Sons, 1913, pp.130-131; The National Reformer, 28 March, 11 April 1880.

(٢) أقر مرسوم القسم البرلماني لعام ١٨٦٦ على ضرورة أداء أعضاء مجلسي العموم واللوردات قسم الولاء Oath of Allegiance من أجل تَبَوُّء مقاعدهم في البرلمان البريطاني ؛ وجاء فيه : «أنا (فلان) أقسم بالرب العظيم أن أكون مخلصاً وأدين بالولاء الصادق لصاحبة الجلالة الملكة فكتوريا ولورثتها ولمن سيخلفها ، بموجب القانون ، وليكن الرب في عوني» . وعلى الرغم من ذلك ، سمح هذا المرسوم أيضاً لاي شخص من أبناء طائفة الكويكرز أو أي شخص آخر بتأدية ما عرف بالتأكيد المُغلّظ Solemn Affirmation أو الإدلاء بتصريح معين بدلاً من أداء القسم ، وبهذا حلت كلمات «أعلن بوقار وبإخلاص وبصدق» و«أؤكد» بدلاً من كلمة «أقسم» ، مثلما تم السماح بحذف عبارة : «وليكن الرب في عوني» . إلا أن ذلك السماح الذي جاء في هذا المرسوم فُهم على أنه لم يشمل من صنفوا بأنهم ملحدين أو لاأدريين ما دام لم يذكروا فيه بالنص ، مما ولّد إشكالية قانونية وقضائية إستغلها برادلو من أجل تبرير دعوته بتعميم حق التأكيد بدل القسم في البرلمان لغرض نيل مقعده البرلماني على الرغم من كونه ملحداً . أنظر :

Walker & Wood, Aileen & Edward, The Parliamentary Oath, Parliament and Constitution Centre, House of Commons Library, Research Paper 00/17, 2000, pp.9, 21.

١٨٨٠ لأداء القسم ، وطالب رئيس مجلس العموم السير هنري براند Sir Henry Brand (١٨١٤-١٨٩٢) ، السماح له بأداء التأكيد بدل القسم من أجل عدم إثارة مشاعر الاعضاء ذوي النزعة الدينية في البرلمان الذين لديهم معرفة مسبقة بآرائه ، وأخبره بتمنيه تثبيت حق التأكيد في البرلمان مثلما مثبت في المحاكم(١) ، ولهذا حينما وصل إلى منصة رئيس مجلس العموم قام بإبدال كلمة «أقسم» بكلمات : «أعلن وأؤكد بوقار وإخلاص وبحق» ، وحذف كلمات «وليكن الرب في عوني»(٢) .

ومع ذلك ، ففي الوقت الذي تفاجأ به رئيس مجلس العموم من تصرف برادلو غير المعتاد ، لم يكن متأكداً ما إذا كان الاخير يحق له قانونياً أداء التأكيد بدل القسم ، لذلك ترك القضية أمام مجلس العموم للبت بها . وفي الواقع بقيت المسألة في التداول لمدة ثلاثة أسابيع تقريباً ، ولم تعد مجرد مسألة دستورية متعلقة بقيام برادلو بأداء القسم أم التأكيد ، بل أصبحت هل يحق لملحد صريح أن يدخل البرلمان أصلاً؟(٣) . وحينذاك رجع المجلس إلى الأحكام السابقة التي صدرت في بعض القضايا المشابهة ، فوجد إنه في عامي ١٨٣٣ و١٨٥٠ رفعت قضايا مشابهة تتعلق بحقوق الكويكرز واليهود على التوالي ، وأن القاضي اللورد فردريك كافندش Lord Frederick Cavendish (١٨٣٦-١٨٨٢)(٤) قد حكم بإنشاء لجنة خاصة للنظر في القضية ، وبالفعل تم تعيين لجنة برلمانية في ١١ مايس(٥) ، التي رأت بأن مرسومي تعديل الشهادة لعامي ١٨٦٩ و١٨٧٠ ، اللذان ذكرهما برادلو ينطبقان فقط على

---

(1) Arnstein, The Bradlaugh Case: A Reappraisal, p.255; Arnstein, Walter L., Gladstone and The Bradlaugh Case, *Victorian Studies*, Indiana University Press, Vol.5, Vo.4 (Jun., 1962), pp.304-305.

(2) Hansard's Parliamentary Debates, 1880, Vol.CCLIII, p.480.

(3) Arnstein, The Bradlaugh Case: A Reappraisal, p.255.

(٤) نال لقب لورد بحكم المنصب في وزارة غلادستون الاولى (١٨٦٨-١٨٧٤) ، وبصفة لورد في وزارة الخزانة في عام ١٨٧٣ . أنظر :

Olson & Shadle (eds.), James S. & Robert, Historical Dictionary of The British Empire, First Published, Greenwood Publishing Group, Inc., 1996, Vol.A-J, p.269.

(5) The National Reformer, 9, 16 May 1880.

المحاكم القانونية وليس على مجلس العموم، ولذلك لا يحق له أداء التأكيد . في الواقع ألقت الانتماءات الحزبية في هذه اللجنة بظلالها على النتيجة، تاركة رئيس كتلة المحافظين سبنسر والبول Spencer Walpole (١٨٠٦-١٨٩٨) أمام خيار وحيد هو أن يصوت ضد برادلو[1]، على الرغم من أن نتيجة التصويت لم تتعد فارق صوت واحد داخل اللجنة، حيث صّوت ١٠ أعضاء بالضد مقابل ٩ أعضاء مع رغبة برادلو[2]. وفي ٢٠ مايس وهو اليوم الذي أعقب نشر اللجنة لتقريرها، أصدر برادلو رسالة مفتوحة صرح فيها بأنه من النفاق أن يدلي بقسم طالما يعتقد بأنه من الاجدر عملياً وقانونياً أن يُستبدل بالتأكيد، ونوه قائلاً بأنه إذا ما أدلى بالقَسم: «**سيغدو من السوء الشديد لأولئك الذين يجبروني على ترديد كلمات [وليكن الرب في عوني] هي لطالما أشرت ولعدة مرات بكونها مجرد أصوات لا معنى لها واضح أو محدد لدي**»[3].

وعلى الرغم من ذلك، لم تحدث رسالته تلك سوى تأثيراً ثانوياً، ولهذا عزم في اليوم التالي على أداء القسم المعتاد بإعتباره غير ذات أهمية لديه، وحينما كان في طريقه للتوجه إلى منصة الأداء لأداء قسم الولاء، عارضه بشدة السياسي والدبلوماسي السير هنري درامموند وولف Sir Henry Drummond Wolff (١٨٣٠-١٩٠٨) عن كتلة المحافظين المستقلين، الذي إعتقد بأنه ليس هنالك قَسَم من شأنه أن يُلزم ضمير برادلو . وعلى إثر ذلك تم تشكيل لجنة جديدة، التي أكد برادلو أمامها قائلاً: «**أي شكل أقوم به وأي قَسَم أتخذه يجب أن أنظر إليه**

---

(1) The National Reformer, 23, 30, 31 May, 6, 13, 27 June, 4 July 1880.

(٢) تضاربت المصادر بشأن عدد المصوتين داخل اللجنة؛ إذ أشار أحدها بأنهم ١٩ عضواً مع إمتناع عضو ليبرالي واحد، وأشار آخر إلى أن عملية التصويت كانت بنسبة ثمانية أعضاء بالضد مقابل سبع أعضاء مع رغبة برادلو . أنظر:

Arnstein, The Bradlaugh Case: A Reappraisal, p.256; Arnstein, Gladstone and The Bradlaugh Case, p.305.

(3) Report From The Second Select Committee on The Parliament Oath, Parliamentary Papers, 1880, Vol.XII, p.37; Arnstein, Gladstone and The Bradlaugh Case, p.305.

على إنه مُلزم لضميري»[١] . أما اللجنة فقد أعلنت من جانبها عدم وجود سابقة أظهرت بأن عضواً برلمانياً قد جاء إلى منصة الإدلاء بالقَسم ولم يسمح له بذلك ، مثلما أشارت إلى عدم وجود سابقة تتعلق بوجود عضو قد تم التلميح له صراحةً أو ضمناً بعدم أداء القَسم ، أو أن يكون القَسم مُلزماً لضميره . لقد خلقت هذه الإشكالية القانونية المطروحة حيثيات جديدة لم تأخذ في الحسبان من قبل ؛ كتناول مسألة التيقن الضميري للعضو المؤدي للقَسم . ولهذا وعلى الرغم من قرار مجلس العموم ، وبناءاً على التصويت ونتيجته في داخل اللجنة البالغ ١١ صوت بالضد من إمكانية أداء برادلو للقسم مقابل ١٠ أصوات معه ، القاضي بمنع برادلو من أداء القسم ، إلا أنه في الوقت ذاته سمح له بأداء التأكيد وتحمل المسؤولية القانونية المترتبة على ذلك التي أقرها مرسوم القسم البرلماني لعام ١٨٦٦ والقاضية بأن أي شخص يجلس ويصوت في البرلمان بدون أن يدلي بقسم ملائم من الممكن ان يقدم للمحاكمة وأن يُغرم بمبلغ قدره ٥٠٠ جنيه إسترليني[٢] .

في الواقع وعلى إثر الأزمة البرلمانية التي أُشيعت في هذا الوقت تحت إسم قضية برادلو Bradlaugh Case ، أُصيب مجلس العموم بالإرتباك أكثر ولا سيما بعد أن تم رفض المسودة التي قدمها زميل برادلو لابوشير التي طالب فيها بالسماح له بأداء التأكيد في ٢٢ حزيران . وأصبح الجدل أكثر إنفعالية في أروقة البرلمان حينما إعترف غلادستون بضرورة : «**النظر لها من منظور عقلي صرف**»[٣] . ومع ذلك ، شهد اليوم التالي إخفاق مسودة لابوشير في التصويت ؛ إذ لاقت ٢٧٥ صوت معارض مقابل ٢٣٠ صوت معها[٤] ، ليقوم على إثرها برادلو في اليوم التالي بدخول مجلس العموم ، وبعد بضعة مناقشات تم السماح له بالحديث أمام منصة رئيس مجلس

---

(1) Report From The Second Select Committee on The Parliament Oath, Parliamentary Papers, 1880, Vol.XII, p.15.

(٢) تكونت اللجنة المشكلة من ٢١ عضواً . أنظر :

Arnstein, The Bradlaugh Case: A Reappraisal, p.257; The National Reformer, 23, 30, 31 May, 6, 13, 27 June, 4 July 1880.

(3) Hansard's Parliamentary Debates, 1880, Vol.CCLIII, p.567.

(4) Arnstein, The Bradlaugh Case: A Reappraisal, p.257.

العموم ، لذلك قام بإلقاء الخطاب الاول ، من بين خطاباته الأربعة الاولى المتعلقة بهذا الموضوع ، بطريقة عكست قدراته الخطابية ووعيه القانوني وإحترامه للبرلمان بكل هدوء ، حيث قال : «**أناشدكم كرجل واحد ضد ٦٠٠ رجل [إشارة لرقم تقريبي لعدد أعضاء البرلمان] لتمنحوني العدالة**»[١] . وأشار الصحفي وكاتب المذكرات هنري وليم لوسي قائلاً : «**لقد تحدث على مدار عشرين دقيقة بدون أي ملاحظة تحت اليد ، وكانت نبرته غالباً ما ترتفع لترتقي إلى حدود البلاغة الجياشة**» . ومع ذلك ، تمت مقاطعة خطابه بالتصفيق ، وفي أثناء إكماله والإنسحاب من الخطبة واجهته هتافات عالية ، وحين حل الهدوء ، قرر مجلس العموم حينذاك العودة إلى تنفيذ قراره السابق القاضي بعدم السماح لبرادلو بأداء القسم أو التأكيد ؛ ولهذا أستدعي لتلاوة القرار ، وفي أثناء ذلك تجاهل برادلو أمر رئيس مجلس العموم بالإنسحاب وأصر على أداء التأكيد ، لذلك صّرح زعيم المحافظين السير ستافورد نورثكوت Sir Stafford Northcote (١٨١٨-١٨٨٧) بضرورة إعتقال برادلو ، وزجه في سجن كلوك تاور Clock Tower ، وهو ما تم بالفعل[٢] .

وفي هذه المرحلة أصبحت قضية برادلو «قضية رأي عام Cause Célèbre» ، كما أصبح إسمه متداولاً في «أغلب» المنازل ، وأخذت البرقيات المساندة له بالتدفق على مجلس العموم ، كما تم عقد مؤتمر حاشد في نورثهامبتون لمعارضة هذا الإعتقال ؛ فقد أُشيع بأنه تم توقيف (شهيد) القضية في غرفة في كلوك تاور طوال ليلة ٢٣ حزيران ،

---

(1) Hansard's Parliamentary Debates, 1880, Vol.CCLIII, p.638.

(2) Lucy, Henry W., A Diary of Two Parliaments: The Gladstone Parliament 1880-1885, Second Edition, London, Cassell & Company, Limited, 1886, pp.37-38; The National Reformer, 27 June, 4 July, 4-11 July 1880; Arnstein, Gladstone and The Bradlaugh Case, p.312.

سجن كلوك تاور : غرفة تقع في الطابق الاول من بناية برج الجرس في قصر ويستمنستر مخصصة لإيداع منتهكي الإمتياز البرلماني من أعضاء البرلمان ، وكان برادلو آخر شخص يرسل هناك في عام ١٨٨٠ . أنظر :

Wilding & Laundy, Op. Cit., p.114.

وبعد أسبوع تم تنفيذ المقترح الذي قدمه غلادستون الذي أفاد بالسماح لبرادلو لأداء التأكيد (على مسؤوليته القانونية) ، وذلك بعد إجراء التصويت عليه ، حيث كانت نتيجة التصويت ٣٠٣ صوت لصالح المقترح مقابل ٢٤٩ بالضد منه . وحينما قام برادلو في ٢ تموز بأداء تأكيده وشغل مقعده في مجلس العموم ، ولم يمضِ على جلوسه سوى ساعة واحدة ، حتى تم إصدار أمر قضائي نص على إتهامه بالجلوس في مجلس العموم على نحوٍ غير قانوني ، وشدد على ضرورة تغريمه مبلغ مقداره ٥٠٠ جنيه إسترليني ، وبعد ثلاثة أيام تم إصدار أمر قضائي مشابه . فقد كان مناهضو برادلو يهدفون إلى إستنزافه مادياً ، إذ إذا ما أصيب بالإفلاس لن يُقدّر له التنافس على مقعد دائرته الشاغر بعد إبعاده . ومع ذلك ، لم تُدرج تلك الأوامر القضائية على جدول أعمال مجلس العموم حتى مطلع عام ١٨٨١ ، وفي هذه الاثناء كان برادلو يواصل مشاركته الفاعلة في نشاطات مجلس العموم ، إذ ألقى قرابة ٢٠ خطاباً ، كما إشترك في التصويت في ٩١ قضية مختلفة قبل إنتهاء دورة المجلس[١] ، حيث أشار غلادستون لاحقاً : «**تم الإعتراف على نحو عام بأن سلوك برادلو بوصفه عضو نشيط هو سلوك رجل له قدرة عظيمة ونزاهة وشرف**»[٢] .

لقد كان برادلو عضواً برلمانياً بكل ما في الكلمة من معنى خلال هذه المرحلة ؛ فقد سمح له بالإستخدام الكامل لمكتبة مجلس العموم ، فضلاً عن مزاولته مهمة رعاية التعيينات الحكومية في دائرته الانتخابية[٣] ، ولذلك إعتقد جورج ستاندرنك إن النزاع قد إنتهى إلى هذا الحد ، إلا أن محكمة العدل العليا ، قسم محكمة Queen's Bench حكمت في ١١ آذار ١٨٨١ بأن أداء برادلو للتأكيد غير قانوني ، وبعد ثلاثة أسابيع خسر برادلو الإستئناف الذي قدمه ضد الحكم القانوني الصادر ضده ، في الوقت الذي أعلن فيه مجلس العموم إن كرسي برادلو في المجلس الذي

---

(1) The National Reformer, 4-11 July, 26 September, 3 October 1880.

(2) Hansard's Parliamentary Debates, 1881, Vol.CCLX, p.1216; Arnstein, Gladstone and The Bradlaugh Case, p.307; A Narrative of The Case of Mr. Bradlaugh, *LSE Selected Pamphlets*, LSE Library, 1881, pp.1-8.

(3) Royle, Radicals, p.26.

ترشح منه نائباً عن نورثهامبتون قد أصبح شاغراً[1] . ومع ذلك ، لم يأل برادلو جهداً وخاض الإنتخابات التي جرت من أجل ملء مقعد شاغر ، معتقداً إنه ، ولكونه عضواً جديداً ، سوف يكون بمنأى عن جميع الموانع السابقة . فقد كانت المنافسة على المقعد المخصص لنورثهامبتون حامية للغاية ، وكانت النتيجة الإجمالية ٣٤٣٧ صوتاً لصالحه مقابل ٣٣٠٥ صوت لمنافسه من حزب المحافظين . ولهذا حاول في ٢٦ نيسان ١٨٨١ أداء القَسم ، ظاناً إن الإنتخاب الجديد قد جعل القرارات السابقة غير ذات أثر قانوني ، الأمر الذي أثار إعتراض زعيم المحافظين في مجلس العموم السير ستافورد نورثكوت . في المقابل أعرب غلادستون شخصياً عن قناعته بالسماح لبرادلو بأداء القسم ، ولكن من دون جدوى ؛ إذ قرر مجلس العموم إبعاده عن تأدية القسم بواقع ٢٠٨ صوت بالضد منه مقابل ١٧٥ لصالحه ، إلا أن هذا القرار لم يثنِ برادلو من التقدم والوقوف أمام منصة رئيس مجلس العموم في تحدٍ صريح ، مما إضطر ضابط أمن المجلس لثنيه عن هذا التصرف ، وتكررت هذه المسرحية الصامتة مرتين قبل أن تؤجل جلسة مجلس العموم[2] .

وفي هذا الوقت أعلن غلادستون عن عزم الحكومة على التدخل ، وعندئذ قام برادلو على نحو شخصي بمنح الأخير وعداً بالإمتناع عن القيام بمزيد من الأفعال التي تعد إستفزازيةً بنظر مخالفيه من أجل دعم الحكومة في تقديم لائحتها المتعلقة بالتأكيد بالسرعة المعقولة . ومع ذلك ، كتب إلى رئيس مجلس العموم في ١٤ تموز ١٨٨١ بأنه قد خطط للمطالبة بمقعده مجدداً ، ولهذا سعى لتحشيد حملة واسعة من أجل إلغاء القَسم ، وسرعان ما ألقى خطاباً في تجمع ضم ١٥ ألف من أنصاره في ساحة الطرف الاغر في ليلة ٢ آب ، وحاول في صباح اليوم التالي دخول مجلس العموم ، في الوقت الذي لم تتمكن فيه الحكومة من توفير الوقت اللازم خلال جدولها التشريعي لتنفيذ الوعد الذي منحه غلادستون لبرادلو ، لذلك قام الأخير في ٣ آب ١٨٨١ بالحضور في مجلس العموم على رأس حشد غفير من أنصاره للمطالبة بمقعده ، وما جرى في تلك اللحظة كان واحداً من أكثر المشاهد دراماتيكية ، إذ طرده

---

(1) The Republican, January 1881; The National Reformer, 20 March, 10 April 1881.

(2) The National Reformer, 17 April, 1-8 May 1881; Arnstein, The Bradlaugh Case: A Reappraisal, p.258.

رجال الشرطة من مجلس العموم[١] ، فقد تطلب الامر عشرة من رجال الشرطة لإبعاده من أبواب المجلس مروراً بالرواق ومن ثم لقذفه بالقوة إلى الفناء الخارجي ، وسط هتافات أكثر من مائة عضو مناهض له تدعو بقذفه خارجاً[٢] ، وإستذكر تيموثي مايكل هيلي Timothy Michael Healy (١٨٥٥-١٩٣١) ، العضو البرلماني الايرلندي ، ذلك المشهد قائلاً : «**لقد بدت عليه علائم العملقة وشجاعة الاسد ، وإعتقد إنه شعر بألم مروع . . . وأشعر بأن الشرطة سوف لن تتعامل مع أي إيرلندي بهذه الطريقة غير المهذبة التي تعاملت بها مع هذا الرجل الانكليزي الوحيد الذي لا صديق له**»[٣] .

ومع جسامة الموقف المحرج الذي وقع فيه إلا إنه مارس نفوذه على المحتشدين من أنصاره وحثهم على التفرق على نحو سلمي ؛ وإستذكرت بزنت تلك اللحظة بزهو شديد قائلة : «**لم يكن أبداً أعظم مما كان عليه في تلك اللحظة . . . وفي داخله حميّة الزهو الجياشة . . . ولم يكن أبداً من قبل يتحلى بهذه العظمة حينما كبح جماح غيضه**»[٤] . وفي الواقع فقد أُصيبت ذراع برادلو في أثناء مواجهته مع الشرطة وبقت تؤلمه بصورة متقطعة فيما تبقى من حياته[٥] . ولم ينثنِ عزمه في مواصلة نزاعه البرلماني ، فمع بداية إنعقاد جلسة البرلمان في شباط ١٨٨٢ ، طالب مرة أخرى بحقه بأداء القسم وقال : «**لا أشعر بالخوف فإذا لم أكن ملائماً لأبناء دائرتي الإنتخابية فإنهم سيطردوني ؛ ولكنكم لا تستطيعون ذلك**»[٦] . وفي الوقت الذي تم فيه إقرار مقترح نورثكوت القاضي بطرد برادلو من مجلس العموم بواقع ٢٨٦ صوت مقابل ٢٢٨ ، قام بتجربة حيلة جديدة تمثلت بالإندفاع داخل مجلس العموم وقبل أن يتمكن أي شخص من إيقافه أذهل الاعضاء وصعقهم

---

(1) The National Reformer, 10, 24 July, 14 August 1881; Lucy, Op. Cit., pp.194-195.

(٢) أنظر ملحق رقم -٧- .

(3) Healy, Timothy Michael, Letters and Leaders of My Day Memories, New York, Frederick A. Stokes Company, 1929, Vol.I, p.167.

(4) Besant, An Autobiography, p.268.

(5) Robertson, Charles Bradlaugh, Vol.II, p.105, 284-288.

(6) Hansard's Parliamentary Debates, 1882, Vol.CCLXVI, pp.70-75.

حينما قام بتقبيل نسخة من العهد الجديد ، وهو العُرف المتبع آنذاك من أجل أداء القَسم ، وردد بصوت عالي كلمات القَسم . وعلى الفور ، تم توجيه أمر الإنسحاب ليتم على إثرها بطرده من المجلس[١] . وربما وقف وراء طرده هذه المرة عدم مراعاته لأصول أداء القَسم المتعارف عليه عبر إخذ الاذن المسبق من رئيس مجلس العموم بما عُدّ إستخفافاً بحق البرلمان وأهانة له .

وعلى الرغم من أحداث الإقصاء التي لاقاها برادلو إلا أن أبناء دائرته الإنتخابية أعادوا إنتخابه مرة أخرى خلال هذه المرحلة ، وقام الكاتب والسياسي الليبرالي جورج كامبل George Cambell (١٨٢٣-١٩٠٠) بتقديم لائحة التأكيدات في مجلس اللوردات ، إلا أنها تعرضت للهزيمة في القراءة الثانية[٢] . وفي ٢٠ شباط ١٨٨٣ قدمت حكومة غلادستون أخيراً لائحتها الخاصة بالتأكيد التي دعيت من معارضيها بـ «لائحة إنصاف برادلو Bradlaugh Relief Bill» ، ونالت في القراءة الاولى أغلبية بلغت ١٣١ صوت ؛ الامر الذي حدا بالسير ستافورد نورثكوت إلى حث أتباعه للخروج من قاعة الإجتماع إحتجاجاً على هذه النتيجة ، ولكن في ٣ مايس ١٨٨٣ ، على الرغم من قيام غلادستون بإلقاء خطاب مؤثر إنصب على محاولة التخفيف من حدة النزاع[٣] ، تم إلغاء هذه اللائحة بعد أن حازت على ٢٨٩ صوتاً مقابل ٢٩٢ في القراءة الثانية . وعلى إثر ذلك ، لاقى برادلو الطرد مرة أخرى حينما توجه لأداء القَسم في شهر تموز[٤] .

لقد واجه برادلو معارضة حادة حاولت لعدة مرات تثبيط عزيمته ومنعه من إشغال مقعده البرلماني ، وإستخدم خصومه حججاً كثيرة لتعليل مواقفهم تلك ؛ حيث إندرج بعضها تحت ذرائع قانونية- دستورية وبحجة عدم أحقية برادلو لشغل مقعده إذا ما أراد تأدية التأكيد[٥] . في المقابل ، رأى أنصاره الليبراليون في نورثهامبتون ، إن عدم نيله لمقعده في البرلمان يمثل إنتهاكاً صارخاً لمنطقتهم وحقوقها الانتخابية ؛ إذ أشار

---

(1) Arnstein, The Bradlaugh Case: A Reappraisal, p.259.

(2) The National Reformer, 26 February, 5-12 March, 16 July 1882.

(3) Hansard's Parliamentary Debates, 1883, Vol.CCLXXVIII, pp.964-965.

(4) The National Reformer, 25 February, 13 May, 15 July 1883.

(5) Hansard's Parliamentary Debates, 1880, Vol.CCLIII, p.581.

لابوشير قائلاً : «**كانوا تحت تأثير إنطباع بأنهم قد منحوه وظائف سياسية أكثر من كونها لاهوتية لتنفيذها**»[١] . وفي الواقع لم تكن أغلب الحجج الدستورية التي سيقت بالضد من برادلو سوى غطاءٍ واهٍ غطى الأسباب الحقيقة التي وقفت وراء معارضة دخوله للبرلمان البريطاني المتمثلة بإعتباره ملحداً صريحاً ؛ إذ كانت ثمة إعتبارات ومعتقدات حكمت سلوك وتوجهات معارضي برادلو : «**كالشرف . . . والحس الأخلاقي للبرلمان وهي مسائل يجب أخذها بنظر الإعتبار**» ، بل إن مجرد دخول برادلو للبرلمان سوف يجعل الشكل الوقور فيه : «**يحتقر ويذكي الإزدراء العام**»[٢] . وصرح اللورد راندولف تشرشل Randolph Churchill (١٨٤٩-١٨٩٥) ، بعد أن سحق بقدمه مجموعة كراريس ألفّها برادلو : «**سيغدو من المستحيل تماماً للولاء أو الدين أن يشغلا عقول أعضاء البرلمان أو عقول الشعب الانكليزي**»[٣] . فقد ساد الاعتقاد لدى معارضي برادلو إن السماح له بدخول البرلمان يعد : «**إهانة وطنية بحق الرب الذي جعلنا عظماء . . . وستصدم وتروّع وتسيء كل شعور قريب وعزيز على قلوب الشعب**»[٤] .

وتمحور النقد ليطال شخصية برادلو بالذات ؛ إذ تم وصفه بعبارات : «كافر ومجدف وكربيروس[٥] الالحاد والخيانة والقذارة»[٦] . وجاء في إحدى الرسائل

---

(1) Hansard's Parliamentary Debates, 1880, Vol.CCLII, p.207.

(2) Hansard's Parliamentary Debates, 1880, Vol.Vol.CCLIII, p.478, 1880, Vol.CCLII, p.335.

(3) Hansard's Parliamentary Debates, 1880, Vol.CCLII, p.337.

(4) Hansard's Parliamentary Debates, 1883, Vol.CCLXXVIII, pp.973, 1750-1751.

(٥) كربيروس Cerberus : في الأساطير اليونانية والرومانية كلب متوحش ذو ثلاث رؤوس يحرس كما تزعم الأساطير باب العالم السفلي (باب الجحيم) أو مثوى الأموات ، ويتألف شعر عنقه أو ذنبه من الأفاعي . أنظر :

Bloomfield, Maurice, Cerberus The Dog of Hades, *The Monist*, Hegeler Institute, Vol.14, No.4 (July, 1904), pp.523-540; Roman & Roman, Luke & Monica, Encyclopedia of Greek and Roman Mythology, New York, Infobase Publishing, 2010, p.115.

(6) Hansard's Parliamentary Debates, 1880, Vol.CCLII, pp.365,373, 1880, Vol.CCLIII, p.468.

العديدة التي قرأت في مجلس العموم : «**قداسة البابا لا يجيز ذلك [أي دخول الملحد في البرلمان]**» ، «**وأن الكاثوليك يتمسكون بأن ليس هنالك إلا سلطة معصومة واحدة على وجه الارض في قضية الايمان والاخلاق [أي مرجعية الكنيسة فقط في تفسير الحياة] . . . وأن السيد غلادستون لا يمثل تلك السلطة**»(١) . فقد كان هناك شبه إجماع بين صفوف الأعضاء الكاثوليك لمناهضة برادلو ؛ إذ كان الكاردينال ورئيس أساقفة ويستمنستر هنري إدوارد مانتغ Henry Edward Manning (١٨٠٨-١٨٩٢) من أبرز أولئك الذين أخذوا على عاتقهم تزعم الحملة المناهضة لبرادلو ، وسخّر قلمه في كتابة ثلاث مقالات مهاجماً الاخير في دورية The Nineteenth Century(٢) ؛ مما إستدعى برادو للرد عليه من خلال تأليف كراس شديد اللهجة عنوانه : «القسم المنتهك للكاردينال» ، الذي ذكر فيه : «**وفقاً لما تقول إن الخوف من العقاب الابدي مرتبط بقسم منتهك ، ومع ذلك فإنك شخصياً قد إنتهكت قسماً أدليت به لدعم الكنيسة الانكليكانية حينما غدوت كاثوليكياً؟**» . ولم يكتفِ برادلو بهذا بل قام بتكليف أحد المترجمين لترجمه كراسه إلى اللغة الايطالية ووزعه في روما ، وأشار فيه إلى إستغلال الكاردينال لمكانته ولإسم روما لأغراضه الشخصية(٣) .

في الواقع بلغت ذروة التوجه الديني المناهض لبرادلو حينما قامت مجموعة من ممثلي الكنائس الانكليزية في ربيع ١٨٨٣ بتزعم الحملة المناهضة للائحة التأكيد ، ولهذا سعت لتقديم إلتماس مكون من مئات الألوف من التواقيع ؛ إذ وجد بعض الانكليكانيين والمنشقين عن الكنيسة الانكليزية وأساقفة الكنيسة الكاثوليكية من مصلحتهم الإنضمام إلى هذه الحملة(٤) . وفي شباط عام ١٨٨٤ إختلف مجرى الأحداث بعض الشيء ، إذ أنتخب برادلو للمرة الرابعة للبرلمان عن نورثهامبتون

---

(1) Hansard's Parliamentary Debates, 1880, Vol.CCLIII, p.1297.

(2) The Nineteenth Century, 1882, Vol.XI, pp.488-493.

(3) Robertson, Charles Bradlaugh, Vol.II, pp.309-311.

(4) Hansard's Parliamentary Debates, 1883, Vol.CCLXXVIII, pp.938-939.

وبأغلبية كبيرة ، بعد ذلك قام بتقديم طلب بصفة[١] Chiltern Hundreds ، ولهذا تم إخلاء مقعده وسحب جميع الدعاوى ضده . وخلال الإنتخابات اللاحقة التي أجريت لملء المقعد الشاغر بلغ الفارق بين الاصوات التي حصل عليها برادلو وتلك التي حصل عليها خصمه المحافظ ٣٦٨ صوتاً لصالح برادلو . وبدأ عدد أتباع برادلو الراديكاليين بالتزايد ، وعلى الرغم من ذلك فقد تكررت الحكاية ذاتها في أروقة البرلمان ، إذ تم تطبيق مقترح نورثكوت القاضي بطرده بسهولة ويسر[٢] ، فضلاً عن قيام النائب العام السير هنري جيمس Sir Henry James (١٨٢٨-١٩١١) بمقاضاة برادلو في ١١ شباط لأدائه القَسم بطريقة غير شرعية في هذا اليوم ؛ إذ تكرر مشهد ذهابه إلى منصة أداء القسم وترديده للقسم فضلاً عن تقبيله للإنجيل كما حدث سابقاً ، ولهذا رأت هيئة المحلفين الخاصة التي شكلت في حزيران بأنه : «**غير قادر على أداء القَسم بالمعنى الذي قصده المُشرع**»[٣] لكونه ملحداً ومنتهكاً للوائح مجلس العموم وللقَسم من الناحية الفنية ، الأمر الذي دفع برادلو للتصدي لذلك عبر تقديم

---

(١) تعبير يدل بموجب القانون البرلماني البريطاني على العضو البرلماني في مجلس العموم الذي لا يستطيع التخلي عن مقعده على نحوٍ مباشر ، لكنه إذا رغب في ذلك فعليه أن يُقدم طلباً ليوكل شخص أو شخصين ينوبان عنه . وكان هذا تقليد متبع في مجلس العموم منذ عام ١٧٥٠ حينما ينوي عضو فيه على التقاعد أو الإستقالة قبل أن يُحل المجلس المذكور ، وجاءت هذه الممارسة من أجل تفعيل تعيينات متناوبة أو لتمكين عضوين على التقاعد على نحوٍ آني إذا إقتضت الحاجة . كما يشير إلى منصب وكالة إسمي في الخاصة الملكية يمنح بتعيين مختوم وموقع من وزير الخزانة لمن رغب في الإستقالة من عضوية مجلس العموم ، وذلك لان القانون لا يبيح للعضو التخلي عن كرسيه بمحض إرادته إلا إذا تقبل وظيفة براتب ، فإذا عين في هذا المنصب جازت له الإستقالة وخلا كرسيه ، ولهذا جرت العادة على طلب إسناد إحدى مناطق Chiltern Hundreds الثلاث وهي : Bonenham وDesborough وStoke وضيعة نورثستد Manor of Northsted ، ليتسنى التخلي عن كرسي العضوية . أنظر : الفاروقي ، حارث سليمان ، المعجم القانوني : إنكليزي- عربي ، ط٢ ، بيروت ، مكتبة لبنان ، ١٩٧٠ ، ص ١٢٣ ؛

Kenyon, Op. Cit., p.74; Wilding & Laundy, Op. Cit., pp.94-95.

(2) The National Reformer, 17, 19, 24 February, 2 March, 16 November 1884.

(3) Arnstein, Gladstone and The Bradlaugh Case, pp.325-326.

إستئناف جديد غير ذي جدوى . وفي ٢٤ حزيران ١٨٨٥ سقطت حكومة غلادستون ولم تكن قضية برادلو قد إقتربت حتى من إيجاد حل لها ، إلا أن فوز الأخير في الإنتخابات العامة التي جرت في تشرين الثاني ١٨٨٥ منحته فرصة مواتية أخرى[١] .

وسرعان ما إتضحت تلك الفرصة حينما إجتمع البرلمان في ١٣ كانون الثاني ١٨٨٦ ، إذ قام رئيس مجلس العموم الجديد السير آرثر ولسلي بيل Sir Arthur Wellesley Peel (١٨٢٩-١٩١٢) بحل العقدة وسمح لبرادلو بأداء القسم قبل أن تأخذ الإعتراضات عليه موقعها ، وألقى رئيس مجلس العموم خطاباً بشأن ذلك ذكر فيه : «**ليس لدي حق ، أصيلاً أو مفوضاً ، في أن أتدخل بين عضو يحمل الشرف وبين أدائه للقَسم**»[٢] . وفي الإنتخابات العامة التي أجريت في عام ١٨٨٦[٣] خاضت نورثهامبتون الإنتخابات بتقديم مرشحين من المحافظين ، وفي الوقت

---

(١) وقف وراء إجراء إنتخابات عامة خلال مدة قصيرة لم تتجاوز بضعة أشهر ، على إثر سقوط حكومة غلادستون ، مقتل الجنرال البريطاني تشارلز غوردن Charles Gordon (١٨٣٣-١٨٨٥) في السودان عام ١٨٨٥ ، وضغوط الملكة فكتوريا التي حمّلت حكومة غلادستون مسؤولية ذلك بتقاعسها عن دعمه بالعدة والعدد . أنظر :

Jackson, Patrick, The Last of The Whigs: A Political Biography of Lord Hartingtion, Later Eighth Duke of Devonshire (1833-1908), London, Associated University Presses, 1994, pp.157-179; The National Reformer, 16 March, 6 April, 17-21 June 1884, 1-7 February, 21 June, 6 December 1885, 1, 6 July, 14, 21, 28 December 1889.

(2) Hansard's Parliamentary Debates, 1886, Vol.CCCII, pp.21-24; Mr. Bradlaugh and The House of Commons in 1886: The Oath of Allegiance, Bristol Selected Pamphlets, University of Bristol Library, 1886, pp.1-4.

(٣) جرت هذه الإنتخابات في تموز ١٨٨٦ ، بعد أن رفض مجلس العموم تمرير مشروع لائحة الحكم الذاتي الاولى لايرلندا التي إقترحها غلادستون في وزارته الثالثة في عام ١٨٨٦ الذي أطاح بوزارته تلك . لمزيد من التفاصيل أنظر :

Gladstone, W. E.,The Irish Question, London, William Clows and Sons, Limited, 1886, pp.3-58.

الذي تدنت فيه أصوات لابوشير بعض الشيء إرتفعت الاصوات لصالح برادلو على نحو ملحوظ ، وأصبح الفارق بينه وبين أقرب المحافظين ٥٠٣ صوت . فقد أصبح من الواضح للجميع في هذه المرحلة إن برادلو قد جاء من أجل البقاء ، وتم تأكيد هذه الحقيقة حينما وافقت حكومة المحافظين على وقف سير الدعوى القضائية[١] والاجراءات التي أُتخذت بالضد من برادلو في شباط ١٨٨٤[٢] . وبهذا نجح الأخير في تحقيق نصر مهم أدى إلى عزل التأثيرات الدينية عن الأداء البرلماني ؛ فقبوله عضواً برلمانياً بدون شائبة قانونية عبر إدائه للقَسم ، وإن كان لا يعترف به من الناحية الواقعية ، قد عكس إن هذا الأداء كان لمجرد شكليات فنية إقتضت الضرورة وطبيعة النزاع الذي خاضه لأدائه ، وإنصب مغزى هذا الأداء في تذكير النخبة السياسية الممثلة برلمانياً أن لا علاقة بين التقليد الديني لأداء القسم (الذي سبق وأن سمح لبعض الطوائف الدينية إستبداله بالتأكيد وبالنتيجة الخروج عليه عملياً) وبين التحقق من ولاء الشخص إذا ما قام بالتأكيد وإن كان ملحداً ما دام ذلك الالحاد شأناً شخصياً لا يعيقه نص قانوني برلماني صراحةً ، وما دام سيغدو التأكيد ملزماً للعضو البرلماني مهنياً وأخلاقياً . في الواقع كانت معركة برادلو في البرلمان وقبوله عضواً كامل الصلاحية خطوة أولى لتعزيز مكانة مفهوم التأكيد على قدم المساواة مع القسم في البرلمان البريطاني .

وعلى الرغم من ذلك ، لم تختفِ المعارضة كلياً تجاه برادلو وسعيه المتواصل لطرح

---

(١) Stet Processus : تعبير في القانون الانكليزي القديم يقصد به أمر تصدره محكمة مختصة تدعو فيه إلى وقف الدعوى المرفوعة والاجراءات التي لحقت بها أمام القضاء . وهي ممارسة أو أمر قضائي بناءً على سبب وجيه مطروح يبقي الدعوة القضاية على حالها ، حينما يغدو المتهم في حالة عسيرة ، أو إرغام المدعى عليه وقف الدعوى على إثر إستلام المحكمة إفادة خطية بذلك تبين عجز القضاء بالبت في القضية . أنظر : الفاروقي ، المصدر السابق ، ص ٦٦٢ ؛

Archbold, John Frederick, The Practice of Country Attornies and Their Agents in The Courts of Law at Westminster, London, Shaw and Sons, 1838, p.609; Bouvier, John, A Law Dictionary Adapted to The Constitution And Laws of The United States of America, Sixth Edition, Philadelphia, Childs & Peterson, 1856, Vol.II, p.548.

(2) The National Reformer, 24 January, 11 July 3 October 1886.

حق التأكيد كبديل عملي للقسم في البرلمان ؛ إذ لاقى المنع مرة أخرى حينما حاول ذلك في عام ١٨٨٧ حتى إستطاع في النهاية من إقناع البرلمان على تمرير مرسوم القسم Oath Act لعام ١٨٨٨ الذي حدد الاحكام بالنص القائل بأن أداء قسم الولاء للملك (أو الملكة) قد يكون تأكيداً مُغلّظاً Solemnly Affirmed بدلاً من القسم للرب ، وذلك في ٩ آب ١٨٨٨ ، إذ نال هذا المرسوم على ٢٥٠ صوت مقابل ١٥٠[١] ؛ ونتيجة لذلك سمح لأي شخص ممن لديه إعتراضات وجدانية- ضميرية Conscientious Objections على أداء القسم بأن يؤدي التأكيد[٢] . وفي الحقيقة كان المناخ الإيديولوجي السائد خلال الاعوام ١٨٨٦-١٨٨٨ مختلفاً نوعاً ما عما شهده حق التأكيد من تعنت حينما قدم لاول مرة في عام ١٨٨٠ . ففي الوقت الذي بقى فيه برادلو على معتقداته الراديكالية ، إلا إنه لم يكن يمثل أوج التطرف الفكري لدى الرأي العام في هذا الوقت بسبب بروز تيارات علمانية أخرى شدت الإنتباه كالتيار الاشتراكي ، فضلاً عن إبداء بعض زملائه لبعض التقبل لوجوده في البرلمان بعد عام ١٨٨٦ ؛ إذ ربما لعب إحساسه بالحشمة أزاء الرأي العام وإحترامه الواضح للقانون فضلاً عن هجومه القوي ضد الإشتراكية دوراً في إعادة صياغة النظرة تجاهه[٣] . وربما نظر البعض بعين المساواة حيال الملحدين حالهم حال الكاثوليك أو الكويكرز في نيل حق التأكيد وصياغة دورهم في خدمة البلد . لقد نجحت قضية برادلو في تحقيق غايته المتمثلة بتعميم حق التأكيد بدل القَسم ، ولهذا عدت قضيته مؤشراً على تساوي النظرة تجاه القضايا الدينية والسياسية على حد سواء وإنموذجاً مهماً لعلمنة التشريع البرلماني ورمزاً لما أطلق عليه بعصر التحول Age of Transition في بريطانيا خلال ثمانينيات القرن التاسع عشر[٤] . ويمكن القول ، إن إقرار مرسوم القَسم الذي

---

(1) Hansard's Parliamentary Debates, 1888, Vol.CCCXXIII, pp.1231-1236; McGee, Op. Cit., p.67; Pionke, Albert D., "I Do Swear": Oath- Taking Among The Elite Public in Victorian England, *Victorian Studies*, Indiana University Press, Vol.49, No.4 (Summer, 2007), pp.624-627.

(2) Walker & Wood, Op. Cit., p.21.

(3) Thorold, Op. Cit., p.161; Arnstein, The Bradlaugh Case: A Reappraisal, p.269.

(4) The Bradlaugh Case: A Reappraisal, p.269.

إنصب هدفه في تعميم التأكيد هو بحق أصلاحٌ علمانيٌ نوعيٌ ثانٍ خلال العصر الفكتوري ؛ إستطاع كبح المؤثرات الدينية في العضوية البرلمانية ووضع الأسس الكفيلة لترسيخ مفهوم المواطنة القائمة على الإعتبارات المدنية في الحقل السياسي .

ثانياً: النزاع العلماني لمناهضة قوانين التجديف ومرسوم المنشورات الفاضحة وانعكاسه على الحرية الفكرية

تزامناً مع النزاع الذي خاضه برادلو في البرلمان البريطاني وما تمخض عنه من نتائج مهمة أسهمت على نحو فاعل في تكريس التوجهات العلمانية ؛ وجد العلمانيون أنفسهم في خضم نزاعٍ آخر لا يقل أهمية عن المطالبة بحق التأكيد في البرلمان ؛ فقد كان دورهم في الوقوف بوجه قوانين التجديف ومرسوم المنشورات الفاضحة ومحاولة كبحها من أجل خلق فضاء متحرر أمام الصحافة العلمانية خير مثال على تعزيز مكانتهم ودورهم في ترويج الطروحات العلمانية .

في الواقع ولدت القوانين المضادة للتجديف Blasphemy من رحم القوانين المضادة للهرطقة Heresy(١) التي تلت تدمير المحاكم الإكليركية في حكومة الكومنويلث خلال آواسط القرن السابع عشر ؛ إذ عدت محاكم القانون العام Common- Law(٢) إنه من المسؤولية التأكد ما إذا كان إيمان عامة الشعب لا يلفه

---

(١) الهرطقة أو البدعة : من الكلمة اليونانية Hairesis التي تعني الإختيار أو التفضيل ، ثم تطورت وغدت الرأي المنفصل أو البدعة . ويقصد بها إنتهاك وحدة الكنيسة ولهذا شملت ، وفقاً لرؤية الكنيسة الكاثوليكية ، من عُدوا إنهم فاقدي الايمان والجدفين المناقضين لمبادئ الايمان الكاثوليكية . ومن الجدير بالذكر ، في السياق ذاته ، إن الكنائس الاخرى كالبروتستانتية كانت قد عدت هي الأخرى الكنيسة الرومانية الكاثوليكية كنيسة مهرطقة . أنظر : ويتلر ، ج ، الهرطقة في المسيحية : تاريخ البدع الدينية المسيحية ، تر : جمال سالم ، بيروت ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، ٢٠٠٧ ، ص ص ١٧-٢٣ ؛

Hunter & Other (ed.), Ian, Heresy in Transition: Transforming Ideas of Heresy in Medieval and Early Modern Europe, London, Ashgate Publishing Limited, 2005.

(٢) القانون العام : قانون إنكلترا من أحكام ونظريات فقهية نشأت ونمت وإستمدت سلطانها من العرف المتوطد في البلاد منذ زمن لا تعيه الذاكرة ، ثم أضيفت إليها كافة الاوامر والمراسيم الصادرة =

الغموض ، وإن السابقة التي إرتكز عليها القانون العام تعود للقرار أو الحكم الذي تبناه القاضي السير ماثيو هيل Sir Matthew Hale (١٦٠٩-١٦٧٦)[١] ، في عام ١٦٧٦ ، الذي جاء فيه : «**إن الكلمات التجديفية الخبيثة هي ليست إهانة بحق الرب والدين ، بل إنها جريمة ضد قوانين الدولة والحكومة ، ولهذا فهي عرضة للعقاب في المحاكم ، وهي القول بأن الدين زائف لانه بمثابة الحل من جميع تلك الإلتزامات المحفوظة في المجتمعات المدنية ، فالمسيحية جزء لا يتجزأ من قوانين إنكلترا ، لذلك فإن التكلم بخزي تجاه الديانة المسيحية هو بمثابة تخريب بحق القانون**»[٢] . ووفقاً لحكم الأخير فإن ما عُد تجديفاً هو في حقيقته إمتداد لوصف التحريض ، وبالمحصلة فهو أمر يستحق العقوبة في المحاكم المدنية . وكثيراً ما كانت مصطلحات التجديف والتحريض والمسائل الفاضحة مترابطة على نحو فعلي ، بل كان من المتعذر فصل التجديف عن المسائل الفاضحة في الدعاوى القضائية على وجه الخصوص ، إذ بقي هذين المصطلحين حاضرين في كلتا العقليتين القانونية والشعبية خلال القرن التاسع عشر[٣] .

وفي الحقيقة لم تستخدم التشريعات البرلمانية التي تدافع عن الديانة المسيحية إلا ما ندر خلال القرن التاسع عشر ، أما مرسوم التجديف Blasphemy Act لعام

= عن المحاكم الانكليزية تثبيتاً للعرف المذكور وبناءً عليه . وهي تنتظم جميع المبادئ والقواعد اللازمة لإدارة الاشخاص والمحافظة على أرواحهم وأموالهم وحقوقهم . بعبارة أخرى : القانون الانكليزي القديم غير المدوَّن Unwritten أو غير المقنن ، المستمد من العرف المتوطد في البلاد . أنظر : الفاروقي ، المصدر السابق ، ص١٤٢ .

(1) Visconsi, Elliot, The Invention of Criminal Blasphemy: Rex v. Taylor (1676), *Representations*, University of California Press, Vol.103, No.1 (Summer 2008), pp.30-52.

(2) Kenny, Courtney, The Evolution of The Law of Blasphemy, *The Cambridge Law Journal*, Cambridge University Press on Behalf of Editorial Committee of The Cambridge Law Journal, Vol.1, No.2 (1922), pp.129-130; Visconsi, Op. C.it.

(3) Macdonell, John, Blasphemy and The Common Law, *The Fortnightly Review*, No. XXXIII (January- June 1883), pp.776-789; Nokes, Gerald Dacre, A History of The Crime of Blasphemy, London, Sweet & Maxwell, 1928, pp.66-78.

١٦٩٨ الذي كبح ما عرف بالتجديف وإنتهاك المقدسات[1] فلم يطبق فعلياً ، وإندرجت أهميته فيما بعد في تحديد معنى التجديف بوصفه إهانة بحق القانون العام . فضلاً عن الركون للسوابق التي أقرتها الأحكام المحلية الخاصة بالتجديف التي وظُفت لإسكات لمن عدوا بأنهم متحدثين أو كُتاب مجدفين ؛ وبالذات حينما شملت في عام ١٨٨٦ فرض غرامة مقدارها ٢٠ جنيه إسترليني على كل من يلقي خطاباً في الطريق العام يؤدي إلى إحداث زحام وتجمع فيه[2] . ولم يمنع ذلك خلال القرن التاسع عشر من بروز بعض الميول للتمييز بين طريقة تناول القانون وجوهره المنظم لما عُد إنه تجديفاً ، على الرغم من أن هذا التمييز لم يحدث أبداً على نحوٍ صريح ؛ فقد تمثل الإعتراف شبه الرسمي الوحيد للتمييز بين طريقة التجديف وجوهره وفقاً لما تبناه القاضي توماس ستاركي Thomas Starkie (١٧٨٢-١٨٤٩) في عام ١٨٣٠[3] ، في قانون القذف والتشهير ، الذي حث فيه على : «**عقوبات التجديف يجب أن تشمل ، على نحو محدد ، الحالات التي ينوي فيها المنتهك إما إلى توجيه إهانة للمواضيع المقدّسة بلغة إزدرائية أو إلى تضليل قرائه عبر تحريف**

(١) عّد هذا المرسوم الشخص المجدف هو من يقوم ببث التعاليم التي تؤكد على نكران صحة الدين والعقيدة المسيحية بما فيها عقيدة الثالوث المقدس من خلال الجهر أو الكتابة أو الطباعة أو التعليم أو التحدث ، أو الإدعاء بوجود رب آخر ، ولهذا إقتضت الاحكام إدانته ومنعه من شغل أي وظيفة دينية أو مدنية أو عسكرية وسجنه لمدة ثلاث سنوات وحرمانه من جميع الحقوق المدنية . وقد شملت هذه الأحكام جميع الكتب والمؤلفات والكراريس التي تعارض الثالوث المقدس . أنظر :
Wilson, Joshua, An Historical Inquiry Concerning The Principles, Opinion and Usages, of The English Presbyterians, London, William Ball, 1836, p.244; Burn, William Laurence, The Age of Equipoise: A Study of The Mid- Victorian Generation, London, Routledge, 1994, p.303.

(2) Smith & Hogan, John Cyril & Brian, Criminal Law, London, Butterworths, 2002, pp.609-626.

(3) Starkie, Thomas, A Treatise on The Law of Slander and Libel, and Incidentally of Malicious Prosecutions, Second Edition, London, Law Booksellers and Publishers, 1830, Vol.I.

متعمد»[١] . وكان القاضي الوحيد الذي تبنى رؤية ستاركي هو السير جون تايلر كوليردج Sir John Taylor Coleridge (١٧٩٠-١٨٧٦) في قضية بولي في عام ١٨٥٧ ، وبدفع من إبنه القاضي البارون جون ديوك كوليردجJohn Duke Coleridge(١٨٢٠-١٨٩٤)[٢] .

لقد كان لإطلاق فوت لدوريته العلمانية The Freethinker في مايس ١٨٨١ دوراً في إذكاء النزاع ضد قوانين التجديف التي طالما كانت عقبة كأداء أمام حرية التعبير والصحافة العلمانية . فقد تمتع فوت بالسخرية والمواهب الكتابية الأخرى التي إمتلكها برادلو ؛ وإذا كان الأخير قد إستخدم مطرقته النقدية الملقبة : «محطم الرموز والعقائد الدينية Iconoclast» ، وهو الإسم المستعار الذي إختاره في بعض الأحيان في كتابة المقالات ، فإن فوت قد لوح ببراعة بقلمه الناقد أيضاً في الصحافة العلمانية ، وإنقسم قراء دوريته The Freethinker بين ضاحك إزاء مقالاتها الساخرة وآخر غير مكترث بها[٣] .

وعلى الرغم من أن فوت كان مكسباً كبيراً للحركة العلمانية ، إلا أن إستهزاؤه المستمر بالديانة المسيحية في مطبوعاته أعطى الفرصة لأعداء برادلو ، خلال نزاعه البرلماني ، للتشكيك بأخلاقية الأخير وبالتالي المطالبة بإدانته عبر نزع الصفة القانونية عنه داخل البرلمان ، ولهذا إعتقدوا إن تأجيج فكرة إفلاسه والتأكيد عليها عبر التغريم داخل البرلمان ومن ثم ربطه بقضية التجديف من الامور الكفيلة لمنعه من دخول مجلس العموم[٤] . ولم تشهد الساحة القضائية أي دعاوى ضد التجديف طوال المدة الممتدة بين قضية بولي في عام ١٨٥٧ وقضية دورية The Freethinker في عامي ١٨٨٢-١٨٨٣ ، على الرغم من توسط تلك الفترة لبعض الدعاوى القضائية كقيام

---

(1) Kenny, Op.Cit., p.136.

(2) Jephson, Henry, The Platform: Its Rise and Progress, New York, Macmillan & Co., 1892, Vol.II, p.290; Stephen, James Fitzjames, A History of Criminal Law of England, London, 1883, Vol.II, p.470.

(3) Royle, Radicals, p.32.

(4) The National Reformer, 16, 23-30 July1882.

العلمانيين في عام ١٨٧٦ بتزعم الحملة لإلغاء قوانين التجديف[١] . وبحلول كانون الثاني ١٨٨٢ طمحت العديد من الاطراف إلى مقاضاة دورية The Freethinker ؛ إذ سعى المبشر الإنجيلي هنري فارلي Henry Varley (١٨٣٥-١٩١٢) إلى ربط إسم برادلو بالعدد الصادر من دورية The Freethinker في كانون الثاني من العام ذاته ، في الوقت الذي طرح بعض أعضاء البرلمان العديد من التساؤلات بشأن ذلك[٢] . ونتيجة لذلك ، سعى العضو المحافظ السير هنري تايلر Henry Tyler Sir (١٨٢٧-١٩٠٨) لتبني هذا الأمر ، وتم على إثرها في ٢٨ مايس عام ١٨٨٢ ملاحقة دورية The Freethinker قضائياً بسبب نشرها لمقال عنوانه : «ما الذي علي فعله لاغدو ملعوناً» بقلم وليم هيفورد William Heaford ، فضلاً عن نشرها رسوماً كاريكاتيرية عن الرب بعنوان : «النور الالهي» . ووجّه الإتهام لفوت بإعتباره رئيس تحرير الدورية فضلاً عن وليم جيمس رامزي لكونه المدير وبرادلو ، وذلك لإعتقاد تايلر بأن برادلو هو مالك الدورية الفعلي . وعلى الفور تحرك برادلو ونقل الدعوى القضائية إلى محكمة Queen's Bench أملاً في نيل محاكمة عادلة ، وبنى دفاعه على أساس إنتفاء صلته بدورية The Freethinker عدا مساعدته في نشر الأعداد الاولى منها في عام ١٨٨١ ؛ وفي الوقت الذي كانت تدور فيه هذه المناورات القانونية ، تم إجراء ملاحقة قضائية أخرى ضد فوت ورامزي والطباع هنري كمب Henry Kemp بسبب صدور العدد الخاص من دورية The Freethinker المتعلق بأعياد رأس السنة الميلادية في عام ١٨٨٢[٣] .

وفي ٩ مايس قام السير ريتشارد كروس Sir Richard Cross (١٨٢٣-١٩١٤) بإرسال العدد الصادر في ٣٠ نيسان لدورية The Freethinker إلى وزارة الداخلية ، إلا أن وزير الداخلية السير وليم هاركورت Sir William Harcourt (١٨٢٧-١٩٠٤) نأى بنفسه عن ذلك ، مستفهماً من النائب العام السير هنري جيمس ما إذا كان بمقدوره التخلي عن أعداد الدورية ببساطة ؛ فقد كان الأخير معارضاً لملاحقة دورية The Freethinker قضائياً ، لإعتقاده بأن المضار التي تنجم عن الترويج الذي تثيره

---

(1) The Secular Chronicle, 23 July 1876.

(2) The Progress, July 1884, December 1885; The Freethinker, 19 February 1882.

(3) The Freethinker, 16 July 1882; The National Reformer, 30 July, 6 August 1882; The Republican, August 1882.

ملاحقتها قضائياً ستكون أسوأ بكثير مما لو تركت في حالها . في الوقت الذي أثيرت فيه الشكوك بشأن العدد الصادر في رأس السنة الميلادية من دورية The Freethinker وإمكانية إعتبار الصفحة السابعة فيها المتضمنة رسماً للنبي موسى (من الناحية الخلفية) من المواد المشمولة ضمن مرسوم المنشورات الفاضحة لعام ١٨٥٧ ، الذي سرعان ما إعتبرته السلطات القضائية من المواد التجديفية وليست الفاضحة[١] .

لقد عرضت هذه القضية في محكمة أولد بيلي في ١ آذار ١٨٨٣ أمام القاضي الكاثوليكي السير فورد نورث Sir Ford North (١٨٣٠-١٩١٣)[٢] ، وعلى الرغم من إنقسام أعضاء هيئة المحلفين بشأنها ، إلا أنه تم رفض الكفالة وإعادة المحاكمة بعد أربعة أيام . وفي هذه المرة إقتنعت هيئة المحلفين بتوجيه ما عّدته تهمة الجريمة الجنائية بحقهم ؛ لذلك أصدرت قرارها القاضي بسجن فوت لمدة عام وعلى رامزي بالسجن لمدة ستة أشهر ، أما كمب فقد كانت عقوبته ثلاثة أشهر . وعلى الرغم من هذه الإدانة ، تجمع أنصار الحركة العلمانية خلف ما إعتبروه ضحايا الحركة ؛ إذ تولى إدوارد أيفلنغ ، خلال سجن فوت ، رئاسة تحرير دوريته The Freethinker ، ودوريته الشهرية الأخرى المعنونة The Progress ، بمساعدة بزنت والناشطة الاشتراكية أليانور ماركس Aleanor Marx (١٨٥٥-١٨٩٨) على التوالي[٣] . في الوقت الذي رفض فيه هاركورت حتى تغيير حال المساجين أو الحكم الصادر بحقهم ، بل وأخبر مجلس العموم بأن تجديف فوت يكتنفه سوء الادب والبذاءة ، ولهذا حتم على المساجين المعاناة من قسوة نظام السجون الإصلاحي الجديد المتضمن لما عرف بالسرير الخشبي[٤] .

---

(1) Royle, Radicals, pp.272-273.

(2) Levy, Leonard W., Blasphemy: Verbal, Offense Against The Sacred from Moses to Salman Rushdie, New York, Alfred A. Knopf, Inc., 1995, pp.481-482.

(3) The Freethinker,11 March- 15 April 1883; The National Reformer, 11 March 1883.

(٤) إثر إقرار مرسوم السجون لعام ١٨٧٧ الذي دخل حيز التنفيذ في ١ نيسان ١٨٧٨ ، فُرض على السجين في الشهر الاول النوم على سرير مصنوع من الخشب بهدف الردع . أنظر :

Fox, Lionel W., The English Prison and Borstal Systems, First Published, London, Routledge & Kegan Paul Limited, 1952, pp.46-50; Foote, G. W., Prisoner For Blasphemy, London, Progressive Publishing Company, 1886, pp.161, 322-323.

وأدى هجوم الصحافة على القاضي نورث إلى إعادة محاكمة المتهمين فوت ورامزي في ١٠ نيسان ١٨٨٣ أمام رئيس محكمة Queen's Bench القاضي جون ديوك كوليردج[(١)] ؛ وعلى الرغم من أن الأخير قد سبق وأن لعب دوراً في محاكمة توماس بولي بتهمة التجديف في عام ١٨٥٧[(٢)] بوصفه مستشاراً قانونياً ، فقد كان من المتوقع أن يقدم محاكمة منصفة للعلمانيين الان ؛ إذ سمح لبرادلو بالحصول على محاكمة مستقلة ، وفي ١٣ نيسان أدلت هيئة المحلفين بقرارها القاضي بعدم تورط برادلو بأي شكل من الاشكال مع دورية The Freethinker ، ليتم على إثرها محاكمة فوت ورامزي في ٢٤ و٢٥ نيسان ، حيث تمكنا فيها من تحقيق نقطتين مهمتين ؛ الاولى : تمييز القاضي جون ديوك كوليردج بين التجديف والأمر الفاضح وهما أمران غالباً ما أثارا إرباكاً في عقول المحلفين والقضاة على حد سواء ، والثانية : إرساء الأخير لخطوة أُعتبرت منطلقاً تاريخياً للقانون في القضايا المشابهة عبر تمييزه بين طريقة تناول جريمة التجديف وجوهرها ؛ مؤكداً بأن الميل منذ القاضي ستاركي قد إتجه نحو الإعتدال ، إذ قال : «**إذا ما تم مراعاة آداب الجدال ، فمن الممكن حتى مهاجمة جوهر الدين من دون أن يتعرض الكاتب لإدانة التجديف**»[(٣)] . وعندئذ إنقسمت هيئة المحلفين فيما بينها إلى مؤيد ومعارض لهذا التمييز ، مما مهد بالمحصلة لوقف الدعوى القضائية Nolle Prosequi[(٤)] ومن ثم التخلي عن أية محاولة

---

(١) عوض ، المصدر السابق ، ص ٢٦٣ .

(2) Toohey, Timothy J., Blasphemy in Nineteenth- Century England: The Pooley Case and Its Background, *Victorian Studies*, Indiana University Press, Vol.30, No.3 (Spring, 1987), pp.315-333.

(3) Nokes, Op. Cit., p.98; Kenny, Op.Cit., p.138; Marsh, Joss, Word Crime: Blasphemy, Culture, and Literature in Nineteenth- Century England, Chicago, The University of Chicago Press, 1998, pp.133-166.

(٤) عبارة لاتينية قانونية تعني عدم وجود نية في مواصلة الملاحقة القضائية ، وتستخدم غالباً لدى السلطات القضائية لوصف إيقاف الإجراءات القانونية بالملاحقة من طرف المحاكمة أو حتى قبل إقرار الحكم . وهي عبارة يؤشر بها المدعي أو ممثل النيابة في ملف الدعوى تفيد بالتخلي عنها كلياً =

لتأكيد الإدانة[1] . وبعد الإفراج عنهم أُستقبلوا من مؤيديهم إستقبال الأبطال[2] .

ونتيجة لوقوع هذه المحاكمة خلال المدة التي توسطت النزاع البرلماني الذي خاضه برادلو ، فقد ألقت محاكمة فوت والحكم الذي صدر بحقه بظلالها على تقوية ذلك الشعور المتنامي بأهمية دور الفكر العلماني الذي طالما إستقطب الجماعات العلمانية وحظي بتعاطف الأوساط الليبرالية ، فضلاً عن أثرها في جعل دورية The Freethinker تحل في المركز الثالث بين بقية الدوريات العلمانية الأسبوعية الرائدة . فقد مكّن هذا النجاح فوت من أن يحافظ على نوع من التوازن داخل الحركة العلمانية من جانب ، وبالنتيجة تمكنه من المحافظة على التقاليد القديمة لحركة الفكر الحر وللأسلوب الجدلي للتقليد اللا ديني مع المدرسة اللاهوتية ومناهضة المسيحية من جانب آخر . فقد حافظ فوت على هذه الهوية المميزة لحركة الفكر الحر ، لكونه واحداً من الذين إرتدوا تاج التضحية في سبيلها ، وضَمِنَ على إثرها وراثة الأسلوب النقدي للتقليد الكارليلي وصيّرهُ رمزاً لزعامة الجمعية العلمانية الوطنية حينما تقاعد برادلو في عام ١٨٩٠[3] .

لقد أثرت المحاكمات التي خاضتها دورية The Freethinker على قطاعات محددة من الرأي العام ، في الوقت الذي باءت فيه جميع المحاولات التي قام بها هنري تايلر لتوريط برادلو بهذه الدورية بالإخفاق الذريع ، وإنعكس هذا التأثير جلياً في تحول موجة الجماهير المؤيدة من مجرد التعاطف مع نشر الرسوم الكاريكاتيرية إلى دعم فوت في القضية المتعلقة بالصحافة الحرة . فقد مثّل عام المحاكمات ١٨٨٣ لدى

= أو جزئياً ، أي عدم ملاحقتها في مجموعها أو في إحدى جزئياتها . أنظر : الفاروقي ، المصدر السابق ، ص ٤٧٩ ؛

Tomlins, Thomas Edlyne, The Law Dictionary, London, Longman, 1835, Vol.II, pp.175-176.

(1) The National Reformer, 15, 22, 29 April, 6 May 1883; The Freethinker, 15 April- 6 May 1883.

(2) The Freethinker, 20 July, 2 March 1884; The National Reformer, 2 March 1884.

(3) Royle, Radicals, p.34.

الجمعية العلمانية الوطنية ذروة النجاح ، إذ جذبت أعداداً كبيرةً من الاعضاء الجدد ، من بينهم الراديكاليون من كافة المشارب فضلاً عن أولئك ذوي خلفيات منتسبة للطبقة العاملة والوسطى والمثقفين الليبراليين ، الذين تجمعوا جميعهم لنصرة فوت(١) . ونتيجة لهذا النشاط العلماني ، إنهال وابل من الإلتماسات على وزارة الداخلية من جميع أنحاء البلاد من كلا الطرفين المعارض والمؤيد للحرية الفكرية ، فقد رفض رجال الدين أمثال اللاهوتي جون ليولن ديفيز John Llewellyn Davies (١٨٢٦-١٩١٦) ورجل الدين الإيرلندي ستوبفورد أي . بروك Stopford A. Brooke (١٨٣٢-١٩١٦) وبعض الكهان المنشقين كرئيسي الإتحاد الأبرشي والإتحاد البابوي ، الإتجاهات العلمانية التي تبنتها دورية The Freethinker . في المقابل أيدَ طروحات هذه الدورية محرري بعض الدوريات الأخرى أمثال ريتشارد هولت هتن Richard Holt Hutton (١٨٢٦-١٨٩٧) رئيس تحرير دورية The Spectator ، والصحفي فرانك هاريسون هل Frank Harrison Hill (١٨٣٠-١٩١٠) رئيس تحرير دورية The Daily News ، وكذلك بعض الكُتاب والنخب الثقافية أمثال هربرت سبنسر والمؤلف والناقد البريطاني السير ليسلي ستيفن Sir Leslie Stephen (١٨٣٢-١٩٠٤) وغيرهم آخرون(٢) .

وعلى الوقع ذاته أدى هذا الإجتهاد القانوني الجديد الذي طرحه القاضي جون ديوك كوليردج إلى إحداث إرباك شديد وأُستقبل بمشاعر متضاربة ؛ فمن جهة إعتقد بعض المسيحيون بأنه مجرد تفسير ليبرالي صريح وجدير بالإعتبار ، في حين إعتبره المفكرون الاحرار مجرد رأي إنساني وليبرالي مسيحي في آن واحد من جهة أخرى . أما فوت فقد كان ممتناً للغاية لذلك ، وإعتبر إعادة تفسير كوليردج للقانون بمثابة نصر كبير ، في الوقت الذي لم يعتقد فيه الاخير بأن رأيه هذا هو رأي جديد ، وأبدى دهشته لمقدار الضجة التي أثارها(٣) . أما المفكر الحر السير جيمس فتزجيمس ستيفن

---

(1) The Freethinker, 18 March 1883, 9 August 1885.

(2) Royle, Radicals, p.273.

(3) The National Reformer, 1 April 1877; Bonner, Hypatia Bradlaugh, Penalties Upon Opinion, Or, Some Records of The Laws of Heresy and Blasphemy, 3rd ed., London, Watts & Co., 1934, p.105.

Sir James Fitzjames Stephen (١٨٢٩-١٨٩٤) ، فلم يرقه الأمر برمته ، وإعتقد ، على غرار جورج جاكوب هوليوك ، بأن الطريقة المثلى للتخلص من القوانين السيئة تكمن في وضعها موضع التطبيق ، وإن أفضل الطرق لتقنين السيء منها تتمثل في تقليل فرص إمكانية تدميرها[1] . وعلى إثر ذلك ، أنشأ وليم شيرمان William Sharman ، الكاهن من طائفة الموحدين ، في عام ١٨٨٣ رابطة إلغاء قوانين التجديف Association for The Repeal of The Blasphemy Laws ، كما تم عقد إجتماعات إحتجاجية وتنظيم إلتماسات في الوقت الذي إنضم فيه بعض الراديكاليين إلى الحملة الرامية لإلغاء قوانين التجديف[2] . ففي عام ١٨٨٦ قُدمت لإئحة إلغاء قوانين التجديف أمام مجلس العموم من الخبير القانوني والأكاديمي البريطاني البروفيسور كورتني كني Courtney Kenny (١٨٤٧-١٩٣٠) من جامعة كمبردج[3] ، وعلى الرغم من هزيمتها ، فقد تم طرحها مرة أخرى في عام ١٨٨٧ ، وقد تضمنت دمج الحكم الذي تبناه القاضي جون كوليردج مع فكرة توسيع حماية جميع المعتقدات السائدة ، إلا أنها جوبهت بالمعارضة أيضاً بسبب إحتوائها للكثير من التعديلات التي كانت بمثابة إلغاء أو إستبدال شامل لقوانين التجديف ، فضلاً عن عدم قبولها من جانب العديد من العلمانيين حتى بعد إجراء التعديلات عليها وتقديمها مرة أخرى في عام ١٨٨٨ ، إذ افتقرت للدعم اللازم على المستويين الشعبي والبرلماني . وعلى الرغم من ذلك ، طرح برادلو في عام ١٨٨٨ لائحة مناهضة لقوانين التجديف تضمنت ٧١ إلتماساً موقعاً من ٦٦٣٠ شخصاً ، إلا أنها هُزمت بواقع ٤٦١ صوت مقابل ١٤١ ،

---

(1) The Fortnightly Review, Vol.XXXV, No.CCVII, March 1884, p.315; Stephen, James Fitzjames, A Digest of Criminal Law (Crimes and Punishments), 3rd ed., London, Macmillan, 1883, p.108.

(2) Hunter, William Alexander, The Blasphemy Laws: Should They Be Abolished?, *LSE Selected Pamphlets*, 1884, pp.3-23.

(3) The National Reformer, 27 May, 22 July, 5 August 1883, 25 May 1884, 4, 11, 18 April 1886; The Freethinker, 18 March, 22 July 1883.

وتوالـت محـاولتـان أخريان خـلال عـامي ١٨٩٠ و١٨٩٤ إلا أنهـما لقيتـا المصيـر نفسه[١] .

وخلال الاعوام المتبقية من القرن التاسع عشر تزايدت وتيرة إستخدام القوانين المناهضـة للتجـديف ، بل بقت وزارة الداخليـة ترقب دورية The Freethinker بعين الحذر على مدار هذه الاعوام . وعلى الرغم من إعتقاد فوت بأن حكم كوليردج من الممكن أن يوفر له الغطاء القانوني ، إلا أن الواقع كان عكس ذلك تماماً ، فالذي أثنى وزارة الداخلية عن ملاحقته قضائياً معرفتها بأن إثارة أي دعوى قضائية يعني بالمحصلة ترويجاً لصالح دورية The Freethinker وبالنتيجة إعطاء فوت ما كان يطمح به[٢] . ولهذا كان من أكثر الأشخاص عرضة لهذه الملاحقات هم المفكرون الاحرار المحليون وبخاصة باعة الكتب الذين يسهل التعامل معهم بكل هدوء من خلال القوانين المحلية أو حتى من خلال تهديدهم برفع الدعاوى ضدهم ؛ وهو ماحدث بالفعل ، فمثلاً في إسكتلندا في عام ١٨٨٥ تم الحكم على أحد باعة الكتب الاوينيين المدعو روبرت فيرغسون Robert Ferguson بالسجن لمدة أربعة عشر يوماً وفقاً لمرسوم شرطة غـلاسكو لعـام ١٨٦٦ بسـبب مـا أُعتـبـر نشـرٌ لصور فـاضحـة داخل دورية The Freethinker . وعلى الرغم من أن هذه القضيـة قد أُحيلت إلى محكمة الإستئناف وأسقطت هناك ، إلا أن هذا الحدث كان بحد ذاته كافياً لإحداث ضرر بالغ على نسب توزيع دورية The Freethinker[٣] . ولم تكتفِ وزارة الداخلية بذلك بل سعت إلى مقاضاة دورية The Jerusalem Star مع دورية The Freethinker بهدف إعاقة النشر فيهما ؛ فقد تمحور التساؤل المطروح في تلك المرحلة بشأن ما إذا كانت دورية The Jerusalem Star من الصحف الفاضحة أم لا . وهكذا بات العديد من المفكرين

---

(1) The National Reformer, 14, 12 April 1889, 29 June 1890; The Freethinker, 10 March 1889, 13 May 1894; Tribe, David H., 100 Years of Freethought, London, Elek, 1967, pp.231-232.

(2) The Freethinker, 27 September 1885; Royle, Radicals, p.275.

(3) The Freethinker, 25 October, 1, 22 November 1885, 31 January, 14 February 1886, 11, 25 September 1887, 5 February, 11 March 1888; The National Reformer, 29 November 1885, 14 February 1886.

الاحرار العلمانيين تحت طائلة السقوط في العديد من المعضلات نتيجة لنشاطهم النشري الذي أصبح ببساطة فاضحاً على غرار ما واجهته منشورات تحديد النسل ، فالفكر الحر والتجديف أصبحا ممتزجان على نحوٍ معقد في هذه المرحلة[١] .

لقد أشارت الباحثة ماري ستوبس Marie Stopes إلى أن الآثار الناجمة عن هذا النشاط النشري الفاضح وتداعيات محاكمة برادلو- بزنت تمثلت في تأكيد تلك الفوضى في ذهن العامة والخلط بين ما هو تجديفي وفاضح[٢] . وكانت الضحية الاولى هو الدكتور هنري آرثر ألبت Henry Arthur Allbutt أحد علماني ليدز ، حينما نشر كتيبه ذائع الصيت المعنون : «دليل الزوجات « Wife's Handbook » في عام ١٨٨٥ . وعلى الرغم من ذلك ، لم يتعرض ألبت إلى ملاحقة قضائية بتهمة نشر منشورات فاضحة ، إلا أن رابطة اليقظة في ليدز Leeds Vigilance Association وشت به إلى الإتحادات المهنية مما أدى إلى شطبه من سجلات المجلس الطبي العام . ولم يكن ذنبه في الواقع سوى ترويجه لطروحاته الفكرية المتعلقة بتحديد النسل[٣] ، بل طالت الملاحقة القضائية أولئك الذين تولوا بيعه في عام ١٨٨٦[٤] . وباتت تهم التجديف ونشر المسائل الفاضحة مترادفان ، ففي عام ١٨٩١ راجت قضية أتش . أس . يانغ H. S. Young الذي غُرم بمبلغ ٣٠ جنيه إسترليني بسبب نشره لكراس عنوانه : «بعض الاسباب الموجبة للدفاع عن تقييد العوائل المتعقل والواقي الذكري»[٥] . ومن الجدير بالذكر لم تطل الملاحقات القضائية أدبيات تحديد النسل بتهمة نشر منشورات فاضحة خلال هذه الاعوام فحسب ، وإنما طالت أيضاً كل ما عُد

---

(1) Royle, Radicals, p.275.

(2) Stopes, Op. Cit., pp.18-19, 22.

(3) Fryer, Op. Cit., pp.169-172; Micklewright, F. H. Amphlett, The Rise and Decline of English Neo- Malthusianism, *Population Studies*, Population Investigation Committee, Vol.15, No.1 (Jul., 1961), pp.46-48; The Freethinker, 10 April 1887; The National Reformer, 4 December 1887.

(4) The Malthusim, 15 August 1909; Fryer, Op. Cit., p.174.

(5) The National Reformer, 18 October, 1, 8, 29 November 1891; The Freethinker, 29 November 1891; P. Fryer, Op. Cit., p.172.

إنه أدب وفكر فاضح بعرف القضاء ، وتجلى ذلك في عام ١٨٨٨ حينما تمت الملاحقة القضائية بحق الناشر الإنكليزي هنري ريتشارد فزتلي Henry Richard Vizetelly (١٨٢٠-١٨٩٤) بسبب نشره ترجمة إنكليزية لرواية الارض[١] للكاتب والروائي الفرنسي إميل زولا Emile Zola (١٨٤٠-١٩٠٢) وغُرم على إثرها بمائة جنيه إسترليني ، وحينما أعاد نشر أعمال زولا في عام ١٨٨٩ غرم بـ٢٠٠ جنيه إسترليني وسجن لمدة ثلاثة اشهر ؛ ونتيجة لهذا القمع الفكري تساءل فوت ساخراً لماذا لم يتم إضافة الانجيل إلى القائمة[٢] .

لقد كانت تهمتي التجديف ونشر المسائل الفاضحة كثيراً ما تتناوبان بالضد من نشاطات عصبة التشريع Legitimation League ، ودوريتها الرسمية The Adult, The Journal of Sex[٣] ، ومطبعة جامعة واتفورد Watford University Press ، العائدة للدكتور رولاند دي ڤلييه Rowland De Villiers التي أخذت على عاتقها نشر الاعمال الجادة وذات الطبيعة التقدمية ؛ إذ سرعان ما بدأت المشكلات تظهر للعيان حينما أبدت الشرطة إهتمامها بالشكاوى التي وردت ضد مطبعة جامعة واتفورد نتيجة لنشرها في عام ١٨٩٧ الجزء الاول المعنون : «الشذوذ الجنسي «Sexual Inversion من سلسلة «دراسات في علم نفس الجنس» لمؤلفها الطبيب البريطاني هافلوك إليس Havelock Ellis (١٨٥٩-١٩٣٩)[٤] . وعلى الرغم من ذلك ، شنت

---

(١) نشرت بالفرنسية لأول مرة في عام ١٨٨٧ ، عُدت في ذلك الوقت واحدة من أكثر روايات زولا إمتلاءً بالمشاهد الإباحية ، كما تناول زولا فيها شخصية حملت إسم يسوع قامت في بعض مشاهد الرواية بأفعال عُدت مشينة وساخرة بعرف المسيحيين آنذاك . أنظر :

Zola, Emile, The Earth, London, Penguin Books Limited, 2006.

ومما تجدر الإشارة إليه صدور الترجمة العربية لرواية الارض في جزئين . أنظر : زولا ، أميل ، تر : قتيبة معروفي & نديم مرعشلي ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، ١٩٦٨ .

(2) The Freethinker, 9 June 1889; The National Reformer, 23 June, 14 July 1889.

(3) Brake & Demoor (ed.), Laurel & Marysa, Dictionary of Nineteenth Century Journalism in Great Britain and Ireland, First Published, London, Academia Press, 2009, p.4.

(4) Calder-Marshall, Arthur, Lewd, Blasphemous and Obscene, London, Hutchinson, 1972, pp.208-210.

الشرطة في البدء هجومها على جورج بدبره George Bedborough رئيس تحرير دورية The Adult[(١)] ، لغرض التمهيد للتضييق على الصحافة الحرة ومنع ترويج القضايا الجنسية . وأدى إعتقال الأخير في حزيران ١٨٩٨ إلى تحشيد قوى الراديكاليين من كافة المشارب جنباً إلى جنب مع العلمانيين والنخب المثقفة التقدمية ؛ وإستجابة لذلك قام العلماني البريطاني هنري سيمور Henry Seymour (١٨٦١-١٩٣٨) ، الذي خلف بدبره في رئاسة التحرير ، بتأسيس لجنة الدفاع عن الصحافة الحرة Free Press Defence Committee . وضمت هذه اللجنة بين أعضائها كل من الكاتب والروائي غرانت ألن Grant Allen (١٨٤٨-١٨٩٩) والناقد والروائي جورج برناردشو George Bernard Shaw (١٨٥٦-١٩٥٠) والشاعر والفيلسوف الإشتراكي إدورد كاربنتر Edward Carpenter (١٨٤٤-١٩٢٩) وفوت وجورج جاكوب هوليوك[(٢)] .

وعلى الرغم من أن سير التحقيق لم يكن ملائماً لبدبره ؛ إلا أن محاكمة الأخير أفرزت قيماً وأخلاقيات جديدةً عكست حال النخبة والنزعة الليبرالية عموماً في أواخر العصر الفكتوري ؛ وهو ما إنعكس جلياً في مداهمة الشرطة لممتلكات بدبره وشمول لائحة الإتهام فضلاً عن كتاب «الشذوذ الجنسي» ، دورية The Adult . وليتم على إثرها محاكمة بدبره في تشرين الاول وإدانته وإلزامه بغرامة بلغت ١٠٠ جنيه استرليني[(٣)] ؛ وعندئذ قُدر للسلطات القضائية القيام بقمع أعمال هافلوك إليس وغيرها من منشورات مطبعة جامعة واتفورد سواءً كانت فاضحة أم لا[(٤)] . وهكذا إنقضى القرن التاسع عشر بإندحار أولئك المدافعين عن حرية النشر والتعبير ، وعكست هذه الهزيمة بحد ذاتها الدور الرئيس الذي لعبه العلمانيون في الحملات التي شُنت في هذا القرن . وقد تحدث فوت نيابة عن العديد منهم حينما كتب قائلاً

---

(1) The Freethinker, 19 June 1898; The Agnostic Journal, 11 June 1898; Calder-Marshall, Op. Cit., pp.220-223; The Bedborough Case, *LSE Selected Pamphlets*, LSE Library, 1898, pp.2-7.

(2) Royle, Radicals, pp.276-277; Free Press Defence Committee, The Bedborough Case-Balance Sheet, *LSE Selected Pamphlets*, LSE Library, 1899, pp.1-9.

(3) Calder-Marshall, Op. Cit., pp. 218-219.

(4) The Freethinker, 7 January, 10 February 1900; Calder-Marshall, Op. Cit., pp.221-227.

إن المفكرين الاحرار قد إصيبوا بخيبة الامل في هذا الوقت ، حتى إن بدبره إعترف قائلاً : «**إني جبان ، وأنا الان أكن إحتراماً لاتباع برادلو وفوت الذين تمكنوا من تحقيق الإنتصار في الوقت الذي تقهقرت فيه**» . وكانت الحقيقة قد تمثلت في عدم إستعداد الرأي العام البريطاني لتقبل الرأي المغاير من دون تقديم ضحايا للفكر والرأي الحر[1] . لقد إستطاع العلمانيون ، على الرغم من إعاقة الكثير من مساعيهم الرامية لكبح قوانين التجديف ومرسوم المنشورات الفاضحة العريقة في بريطانيا ، من إنتزاع التخفيف من وطأة هذه القوانين ؛ وليس أدل على ذلك من ركون العقلية القانونية ممثلةً بحكم القاضي جون كوليردج على قصر تهمة التجديف على نقد الدين بطريقة غير مهذبة أو بذيئة ؛ وبالمحصلة التمهيد لتقبل العقليتين القانونية والشعبية ، ولو بطريقة بدت متواضعة ، لما عُرف بالنقد العلمي المجرد للأصول الدينية .

ثالثاً: تنامي النزعة اللا أدرية وعلاقة العلمانيين بها

في خضم النزاع الفكري الذي خاضه العلمانيون في سبعينيات القرن التاسع عشر وثمانينياته بالضد من التيار الديني ومحاولات علمنة المجتمع الفكتوري ، راجت طروحات فكرية مدنية أخرى أسهمت في إثراء التقليد العلماني البريطاني ؛ وكان لطرح النزعة اللاأدرية Agnosticism من عالم الاحياء البريطاني توماس هنري هكسلي Thomas Henry Huxley (١٨٢٥-١٨٩٥) الدور الفاعل في تبني وتقمص العلمانيين لهذه النزعة حينما وجدوا في الأبعاد الفكرية التي تكتنفها الأداة التي تساعد على ترويج الطروحات العلمانية بمعزل عن تهم الالحاد والكفر والتجديف التي طالما أرّقت الكثير منهم وجعلتهم في موضع الدفاع لنبذ تلك التهم .

على الرغم من إدعاء توماس هكسلي بأنه قد نحت مصطلح اللاأدري Agnostic في عام ١٨٦٩ ، إلا أن إستخدامه المقيد للمفاهيم اللاأدرية خلال سبعينيات القرن التاسع عشر وثمانينياته ، ومن ثم تردده في نعت نفسه بأنه شخص لا أدري على نحوٍ واضح حتى عام ١٨٨٣ ، فضلاً عن تدخله الحاسم لتوضيح مصطلح اللاأدرية في

---

(1) The Freethinker, 6 November, 11 December 1898.

عام ١٨٨٩[١] ، جعلت العلمانيين يتنبهون لضرورة تبني هذه المفاهيم الجديدة وبالذات خلال ثمانينيات القرن التاسع عشر . ولهذا يمكن تقسيم المراحل التي مرت فيها النزعة اللاأدرية ، قبل الخوض في تعريفاتها الفكرية ، إلى ثلاث مراحل ؛ الاولى : ١٨٦٩-١٨٧٧ ، إذ إنحسر تداول المصطلح من توماس هكسلي في الإجتماعات الخاصة للجمعية الميتافيزيقية Metaphysical Society التي إنتمى لها الاخير التي تأسست في عام ١٨٦٩[٢] ، والمرحلة الثانية : ١٨٧٨-١٨٨٣ ، منذ أن نشر هكسلي مؤلفه الخاص بالفيلسوف ديفيد هيوم في عام ١٨٧٨ ، وأشار فيه إلى مصطلح اللاأدرية على نحو عرضي في أول إستخدام له في مادة مطبوعة[٣] ، ولغاية تنبه بعض الصحف الدوريةً لإستخدام المصطلح[٤] ، وقيام العلماني تشارلز ألبرت واتس Charles Albert Watts (١٨٥٨-١٩٤٦) بإستخدامه في عام ١٨٨٣ عبر إطلاق دوريته الجديدة المعنونة Agnostic Annual . أما المرحلة الثالثة : فتغطي ١٨٨٣-١٨٨٩ ، منذ تبني الاخير للمصطلح ولغاية تدخل هكسلي بنفسه في عام

---

(1) Lightman, Bernard, Huxley and Scientifc Agnosticism: The Strange History of a Failed Rhetorical Strategy, *The British Journal For The History of Science*, Cambridge University Press on Behalf of The British Society For The History of Science, Vol.35, No.3 (Sep., 2002), p.271.

(2) Lightman, Huxley and Scientifc Agnosticism, p.273; Murray (ed.), James A. H., A New English Dictionary on Historical Principles, Oxford, The Clarendon Press, 1888, Vol.I, p.186; Clausen, Christopher, Religion, and Science: Some Unexamined Implications, *Rocky Mountain Review of language and Literature*, Rocky Mountain Modern language Association, Vol.30, No.2 (Spring, 1976), p.74.

(3) Huxley, Hume, New York, Happer & Brothers, Publishers, 1879, p.58.

وأطلق هكسلي على هيوم لقب «أمير اللاأدريين» بسبب تغليب الأخير عنصر التجربة في المعرفة . أنظر : متس ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٢٦ .

(٤) للرجوع بشأن الدوريات التي تناولت مصطلحات اللاأدري واللاأدرية منذ مطلع ثمانينيات القرن التاسع عشر ، أنظر :

Lightman, Huxley and Scientifc Agnosticism, pp.279-280.

١٨٨٩ ليوضح الملابسات التي إكتنفت تناول مصطلحات لاأدري ولاأدرية في المراحل السابقة فضلاً عن قيامه بوضع الأسس الفلسفية للنزعة اللاأدرية[١] .

برر هكسلي إشتقاق مصطلح اللاأدري لمجابهة إدعاءات الكنيسة في المعرفة ؛ إذ يعود الأصل اللغوي لكلمة لاأدري Agnostic إلى اليونانية (المكونة من جزئين á التي تعني بدون ، و Gnõsis التي تعني معرفة أو دراية) التي سبق أن إستخدمها في خطاب ألقاه في الجمعية الميتافيزيقية في عام ١٨٧٦ ، ليصف فلسفته الرافضة لجميع إدعاءات المعرفة الروحية أو الباطنية ؛ فقد كان زعماء المسيحية الأوائل قد إستخدموا اللفظة اليونانية Gnosis (المعرفة أو الدراية) لوصف المعرفة الروحية تحديداً[٢] ، ولهذا إستخدم هكسلي مصطلح اللاأدرية على نحو واسع وأكثر تجريداً ، فلم يعرفها بوصفها عقيدة وإنما منهجاً للشك يرتكز على التحري[٣] حينما قال : «**هي ليست عقيدة لكنها منهج وجوهر التطبيق الصارم لمبدأ واحد . . . وهو المبدأ العظيم لديكارت . . . وإيجابياً يتجلى هذا المبدأ في القضايا الفكرية ، ولا يزعم الإستنتاجات لأنها من المؤكد لم يثبت صحتها أو غير قابلة للإثبات**» . ولهذا كان تعريف هكسلي للاأدرية بمثابة إعادة تعريف مذهب الشك وإضفاء نوع من المقبولية عليه عبر إقرانه بالأمانة والتواضع[٤] .

ووقف وراء إختيار هكسلي لمصطلح لاأدري رغبته في الإبتعاد عن الطروحات

---

(1) Lightman, Huxley and Scientifc Agnosticism, p.274.

(2) Parrinder, Geoffrey, The Routledge Dictionary of Religious & Spiritual Quotations, London, Routledge, 2005, pp.27-29; Huxley, Thomas H., Science and Christian Tradition: Essays, New York, D. Appleton And Company, 1894, p.239.

(3) Huxley, Henrietta A., Aphorisms And Reflections, Kessinger Publishing, 2004, pp.41-42.

(4) Clausen, Op. Cit., pp.75-76; Huxley, Science and Christian Tradition, pp.245-246; Harris, William T., Thoughts on The Basis of Agnosticism, *The Journal of Speculative Philosophy*, Penn State University Press, Vol.15, No.2 (April, 1881), pp.116-117; Ingersoll, Robert G., Professor Huxley and Agnosticism, *The North American Review*, University of Northern Iowa, Vol.148, No.389 (Apr., 1889), pp.403-416.

المادية[١] والالحادية وجميع تلك الاوصاف اللا إيمانية التي إرتبطت بشكل أو بآخر بالطبقة العاملة البريطانية ، ومحاولته للنأي بنفسه وتمييز موقفه عن موقف هربرت سبنسر الذي لاحت في ثنايا كتاباته ظل رب غامض ، طبقاً لوصف هكسلي ، وبالذات عبر كتابه «المبادئ الاولى» الصادر في عام ١٨٦٢[٢] . وكان الصحفي ريتشارد هولت هتن ، رئيس تحرير دورية The Spectator ، من أوائل الصحفيين الذين روجوا بأن هكسلي هو شخص لاأدري منذ عام ١٨٦٩ وخلال سبعينيات القرن التاسع عشر عبر دورية The Spectator[٣] . وحاولت بعض الصحف البريطانية الإشارة إلى أن اللاأدرية ، كما في صحيفة London Quarterly Review ، تمثل : «**الشكل الحديث والشعبي للفلسفة المادية**»[٤] ، نتيجة لتزامن ترويج صديق هكسلي الفيزيائي والفيلسوف الطبيعي جون تندال لافكاره المادية[٥] ، بل ألحت دورية The Month and Catholic Review بالقول بأن : «**اللاأدريين بالبرلمان والصحافة**» ، في إشارة إلى برادلو ونشاطه النشري ومحاولاته دخول البرلمان آنذاك[٦] .

ولم تتوقف الهجمة المنظمة التي تولتها الصحف الدينية لمناهضة النزعة اللاأدرية ؛ ففي سلسلة من ثلاث مقالات تولت نشرها دورية The Month and Catholic Review ، هاجمت فيها الأخيرة اللاأدرية في عام ١٨٨٢ بل وعُدت سبنسر وهكسلي مثلان نموذجيان لما نعتته باللاأدرية الالحادية Atheistical

---

(1) Huxley, Thomas H., Method and Results: Essays, London, Macmillan and Co., Limited, 1898, p.155-164.

(2) Lightman, Bernard V., The Origins of Agnosticism: Victorian Unbelief and The Limits of Knowledge, Baltimore, Johns Hopkins University Press, 1987, pp.11, 136-137.

(3) Clausen, Op. Cit., pp.74-75; Lightman, The Origins of Agnosticism, pp.11-12.

(4) London Quarterly Review, 1880, Vol.54, pp.2, 3, 13; Llano, Antonio, Agnosticism and Disguised Materialism, *The Philosophical Review*, Duke University Press on Behalf of Philosophical Review, Vol.6, No.2 (Mar., 1897), pp.170-175.

(٥) متس ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ص ١٢٩-١٣٠ .

(6) The Month and Catholic Review, 1880, Vol.40, p.141.

Agnosticism[١] . وبُعيد ذلك أثار العلماني تشارلز ألبرت واتس إشكالية جديدة حينما تناول عبر دوريته Agnostic Annual في عام ١٨٨٣ مصطلح اللاأدرية ، بعد أن أعلن عن حلقة نقاشية مخصصة بشأن اللاأدرية بمناسبة إطلاق العدد الاول من دوريته الجديدة وبمساهمة عدد من الذين عُدوا إنهم غير مؤمنين ؛ حيث كتب إلى هكسلي راجياً طرح وجهات نظره بهذا الصدد ، وأجابه الأخير في ٣ أيلول ١٨٨٣ : **«منذ ما يقرب من عشرين عام خلت ، قمت بإختراع كلمة «لاأدري» لوصف أولئك الذين على شاكلتي الذين يعترفون بأنهم على جهالة ، على نحو يائس ، بقضايا متنوعة ، في حين الميتافيزيقيين واللاهوتيين الحديثين منهم أو من أصحاب العقائد البُدعية لهم معرفة متناهية بها»** . وأكد في عام ١٨٨٤ تعريفه للاأدرية قائلاً : **«إنها جوهر العلم سواءً كان قديماً أم حديثاً . وهي ببساطة تعني أن الإنسان لا ينبغي أن يقول بأنه يعلم أو يعتقد حينما لا يمتلك خلفية علمية تمكنه من إقرار لما يعلم أو يعتقد»**[٢] .

وعلى أية حال ، جاءت خطوة ترويج مصطلح اللاأدرية عبر دورية The Spectator لتنبه الاوساط الثقافية إلى ضرورة تبنيه كأحد أوجه النزعات المدنية الجديدة ولتخرج هكسلي من عزلته في تبيان رأيه في الموضوع . وغدت اللاأدرية بعد عام ١٨٨٣ موضوعاً ساخناً في الجدالات وملمحاً بارزاً في الساحة الفكرية . وإزداد الإهتمام بها بعد نشر عملين مهمين هما : «حياة ورسائل داروين»[٣] و«خدمة الانسان : مقالة نحو دين المستقبل» للمؤرخ البريطاني جيمس كوتر موريسون James Cotter Morison (١٨٣٢-١٨٨٨) الذي طرح فيه فكرة العجز الأخلاقي للدين السماوي[٤] . وفي المقابل أثارت طروحات هربرت سبنسر في هذا الوقت موجة عداء من طرف أنصار

---

(1) The Month and Catholic Review, 1882, Vol.45, pp.153-168, 315-328, 457-470.

(2) Huxley, Leonard, Life and Letters of Thomas Henry Huxley, London, Macmillan and Co., Limited, 1913, Vol.III, p.98.

(3) Darwin (ed.), Francis, The Life and Letters of Charles Darwin, New York, D. Appleton and Company, 1887, 2Vols.

(4) Morison, James Cotter, The Service of Man: An Essay Towards The Religion of The Future, Second Edition, London, Kegan Paul, Trench & Co., 1887.

التيار الديني ؛ فقد ذكر الكاثوليكي ولفرد وارد Wilfrid Ward في مقاله المعنون : «فن الشفاء في الفلسفة» المنشور في دورية The Dublin Review في عام ١٨٨٥ : **«إن اللا أدرية هي شعار اللا إيمان الحديث ، وتنطوي على فكرة بأن معرفة الرب وجميع الحقائق الروحية لا يمكن الحصول عليها من الإنسان»**[١] . ومع ذلك لم تتوقف دورية The Spectator عن بذل جهدها في الترويج عن اللا أدرية ونشرت مقالاً عن المؤرخ جيمس كوتر موريسون ذكرت فيها إنه : **«واحداً من أكثر أفراد المجموعة تعلماً ولمعاناً . . . ومن أولئك الذين من الصحيح أن يطلق عليهم لقب اللا أدريون المتحمسون»**[٢] .

ولم يتوانَ العلمانيون عن الإدلاء بدلوهم وإبداء آرائهم بشأن تنامي النزعة اللا أدرية وتقارب منطلقاتها الفكرية مع الأبعاد والطروحات العلمانية ؛ فقد تبنى جورج جاكوب هوليوك مصطلحات لاأدري ولاأدرية حينما شعر بأنهما أكثر ملائمة لوضعه المخالف للاهوت[٣] ، في حين إعتقد فوت إنها قريبة من الالحاد[٤] . وتعزز هذا الاعتقاد لدى برادلو حينما عرّف هكسلي اللاأدرية قائلاً : **«إن المعرفة اللاهوتية تدفعنا للإعتقاد بأن العالم هو منزل المشعوذ ، أما المعرفة المناهضة للاهوت فهي تتحدث كما لو أن الأمر فطيرة قذرة صنعهما طفلان ضريران هما القانون والقوة . إن اللاأدرية ببساطة تقول إننا لا نعرف أي شيء عما وراء الظواهر»**[٥] . ولهذا إعتقد برادلو إن هذا التعريف ينطبق كذلك على الالحاد ، وعقب قائلاً : **«إن الملحد لا يقول أن لا وجود للرب ، لكنه يقول أنا لا أعرف ما هو قصدك بكلمة الرب ؛ فأنا لا أملك أدنى فكرة عنه ، إن كلمة رب لدي مجرد صوت لا يحمل وضوحاً أو تأكيداً مميزاً . وأنا لا أنكر الرب ، لأنني لا**

---

(1) The Dublin Review, 1885, Vol.96, 35, 37, 45-46.

(2) The Spectator, 1888, Vol.61, p.299.

(3) Berman, David, A History of Atheism in Britain: From Hobbes to Russell, London, Routledge, 1990, pp.213, 222.

(4) The Freethinker, 5 October 1884.

(5) Huxley, Life and Letters, Vol.III, p.98.

أستطيع إنكار ما لا أستطيع فهمه»[١] .

وفي المقابل ، راجت أفكار اللاأدرية المرتكزة على المنحى التوفيقي مع الإيمان الديني عند مجموعات محددة من المفكرين ؛ إذ سرعان ما أبدت هذه المجموعات ولاءها للاأدرية هربرت سبنسر[٢] التي نحت هذا المنحى ، وكان أبرز من مثّل هذه المجموعات الفلكي البريطاني ريتشارد بروكتر Richard Proctor (١٨٣٧-١٨٨٨) ، أحد أبرز الذين سحروا بكتاباتهم القُراء في العصر الفكتوري خلال سبعينيات القرن التاسع عشر بشأن قضايا الحياة خارج كوكب الارض ، إذ إختار من لاأدرية سبنسر النقطة المحورية التي دارت عليها دوريته المعنونة Knowledge في عام ١٨٨٥ . ورفض بروكتر الفكرة التي تشير إلى وجود صراع بين العلم أو الدين ، وكتب سلسلة من المقالات إعتمدت على طروحات سبنسر في التوفيق بين العلم والدين ولا سيما في كتابه «المبادئ الاولى»[٣] . وكان تشارلز ألبرت واتس من بين العلمانيين الذين إستمالتهم

---

(1) Bradlaugh, Charles, A Plea For Atheism, London, A. Bonner, 1895, p.2; Cliteur, Paul, The Secular Outlook: In Defense of Moral and Political Secularism, First Published, Oxford, Wiley- Blackwell, 2010, p.34.

(٢) إن لاأدرية سبنسر ليست مطلقة ، إذ أكد على وجود عالم من وراء التجربة لا يظهر نتيجة لنظرة جانبية إلى الدين ، وحدد العلاقة بين الدين من جهة وبين العلم أو الفلسفة (وهما في أساسهما شيء واحد عند سبنسر) من جهة أخرى . وكان رأيه إن فكرة عدم قابلية المطلق لأن يُعرف لها قيمة إيجابية ، لأنها تبين الطريقة التي يمكن بها وضع حد للخلاف القديم العهد بين قوى العلم أو الفلسفة والدين ؛ فذلك الذي يعترف به العلم أو الفلسفة ويحترمه بوصفه لا معروفاً (Unknowable) ، هو نفسه الذي يتجه نحوه الوعي الديني ، فهو في الحالتين موضوع واحد يُنظر إليه من وجهات نظر مختلفة . فمجال الفلسفة هو مجال ما يمكن أن يعرف ، ومجال الدين هو اللا معروف ، ولا محل للخلاف بينهما طالما إن كلاً منهما يلتزم حدوده الخاصة . ولهذا كانت لاأدرية سبنسر غير إلحادية . أنظر : متس ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ص ١١٨-١٢٠ ؛ كرم ، يوسف ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، ط٥ ، القاهرة ، دار المعارف ، بلا . ت . ، ص ٣٥٨ ؛

Fitzgerald, Timothy, Herbert Spencer's Agnosticism, *Religious Studies*, Cambridge University Press, Vol.23, No.4 (Dec., 1987), pp.477-491.

(3) Lightman, Huxley and Scientifc Agnosticism, p.284.

هذه التوجهات ومقت في الوقت نفسه التوجهات العدائية التي تبناها التقليد العلماني الإلحادي لبرادلو، ولهذا عد زعيماً لمجموعة منشقة عن التقليد الأخير، ووضعت بصمتها الخاصة في طروحاتها الفكرية اللاإيمانية في تيار الفكر الحر العلماني. لقد تأثر تشارلز ألبرت واتس بالعلماء الطبيعيين من أبناء الطبقة المتوسطة أمثال هكسلي وسبنسر وتندال، وطبق ستراتيجيته الخاصة وفقاً لأساليبهم. وأملَ بجذب غير المؤمنين البارزين في الطبقة المتوسطة والإبتعاد قدر الامكان عن جذور الطبقة العاملة للراديكالية العلمانية؛ وكانت اللاأدرية هي مفتاح التكتيك الجديد الذي تبناه[١].

وعلى الرغم من ذلك، فقد حاول تشارلز واتس، والد تشارلز ألبرت واتس، التوفيق في دمج عناصر الإلحاد واللاأدرية والعلمانية معاً، حينما ذكر: «**أنا أصرح بأني ملحد- وذلك لاني لا أؤمن بوجود أي رب؛ وأنا لاأدرياً لكوني لا أعلم شيئاً عن القوى الخارقة للطبيعة المزعومة، أو الحياة المستقبلية. وفضلاً عن ذلك فإني علماني لكوني أؤمن بالعمل بدنياً وأخلاقياً وفكرياً لما هو معلوم على أكمل وجه، وأترك التخمين في المجهول لأولئك الأفراد واسعي الخيال الذين يفضلون الإنغماس في التأملات بدلاً من واقعيات الحياة**»[٢].

في المقابل، إستهل تشارلز ألبرت واتس إطلاق دورية The Agnostic الشهرية في عام ١٨٨٥، وكان حليفه في هذه المرحلة وليم ستيورات روس الذي دفع بالعلمانية نحو تبني اللاأدرية، وقام في كانون الثاني ١٨٨٥ بمنح دورية The Secualr Review عنواناً فرعياً دعي بـ A Journal of Agnosticism، وبعد أربع سنوات قام بتغيير إسمها لتصبح The Agnostic Journal and Secular Review، وتم تبني رؤية سبنسر تجاه ما يعرف بالإله اللا معروف أو المجهول Unknowable Deity، بل وصل الأمر إلى محاولة تشارلز ألبرت واتس، حينما أخذته بشدة الإمكانيات الدينية التي تنطوي عليها اللاأدرية، إنشاء معبد لاأدري في جنوب غرب لندن[٣].

---

(1) Lightman, Bernard, Ideology, Evolution and Late- Victorian Agnostic Popularizers, in: Moore (ed.), James R., History, Humanity and Evolution: Essays For John C. Greene, Cambridge, Cambridge University Press, 1989, pp.285-309.

(2) The Freethinker, 14 August 1898.

(3) Lightman, Ideology, Evolution, pp.285-309.

وكانت المقالات الثلاث التي كتبها هكسلي في دورية The Nineteenth Century في عام ١٨٨٩ ، بهدف توضيح معنى النزعة اللاأدرية ، قد مثلت جزئياً محاولة صريحة لإعادة السيطرة على نحته للمصطلح ، ولا سيما حينما إعتقد إن اللاأدرية قد شابها الكثير من الأفكار الجديدة وهي بذلك جديرة بتنقيتها منها . وعلى الرغم من أن مقالاته الثلاث كانت بالأساس رداً على الخصوم سواء كانوا دينيين أم لا ، إلا أنه شدد على إنكار إعتبار اللاأدرية تعبر عن عقيدة أو فلسفة دينية[١] . ولهذا هاجم مجموعة تشارلز ألبرت واتس المنتمية لسبنسر وحاول إثارة الشكوك بشأن الاخير . وحينما حاول أحد أعضاء مجموعة سبنسر العلماني فردريك جيمس غولد Frederick James Gould (١٨٥٥-١٩٣٨) إستبيان رأي هكسلي عما يعتقد بأن هناك فجوة بينه وبين مجموعته ، كان جواب الأخير حاسماً في نبذ التصورات التي روجها سبنسر ولا سيما تلك المتعلقة باللا معروف أو المجهول ووصفها بأنها شبح فلسفة منقرضة تم تبنيها للتمويه ، وإتهم سبنسر بأنه منصاع لعبادة صنمية وتجريداً منفياً ، وشدد على أن هدف اللاأدري الحقيقي هو توجيه ضربة لهذا الإتجاه الفكري حيثما وجد[٢] .

وأوضح هكسلي موقفه من الدين موضحاً علاقته بالعلم ؛ إذ قال : «**إن خصومة العلم ليست مع الدين بل مع بقاء الوثنية والفلسفة الرديئة التي غالباً ما إنسحق الدين تحت وطأتهما**»[٣] . ولهذا فالدين لديه يكون مقبولاً برمته حينما يكتنفه الإلهام الاخلاقي ولا يزعم معرفته بالكون[٤] . ولم يقسم الواقع إلى عالم الظواهر الذي يركن له العلم ، وعالم الميتافيزيقيا (الماورائيات الغيبية) المنتمي للفلسفة والدين ، بل إرتأى تقسيماً يعتمد الأشياء التي نمتلك معرفة بها ، وتلك التي لا

---

(1) Schurman, J. G., Agnosticism, *The Philosophical Review*, Duke University Press on Behalf of Philosophical Review, Vol.4, No.3 (May, 1895), pp.241-263.

(2) Clodd, Edward, Thomas Henry Huxley, New York, Dodd, Mead and Company, 1902, pp.220-221, 247; The Nineteenth Century, No.CXLIV, February 1889, pp.169-194.

(3) Huxley, Thomas H., Science and Hebrew Tradition: Essays, London, Macmillan and Co., Limited, 1901, pp.162-163.

(4) Clausen, Op. Cit., p.77.

نعرف عنها أي شيء التي على الأرجح لا يمكن معرفة شيء عنها على الاطلاق[1] .
لقد ساعدت اللاأدرية في خلق ميدان ومنطلق فكري جديد للطروحات المدنية- العلمانية ، وإلتقت في كثير من طروحاتها الفكرية مع التقليد والمدرسة العلمانية ؛ فالعقلانية التي إتسمت بها في نقد الكتاب المقدس والتيار الديني وتغليبها التجربة في حقل المعرفة العلمية ، كلها أدوات راقت للعلمانيين الإقتباس منها وصيرورة وضعهم الفكري بما يتلاءم مع البعد المفاهيمي لمصطلحي اللاأدري واللاأدرية . وليس أدل على ذلك الإندماج الفكري من ترادف نعت الشخص العلماني- اللاأدري على المستوى الشعبي خلال آواخر القرن التاسع عشر ، وهو ما عكسته أيضاً رغبة بعض الزعماء العلمانيين في ترويج كلا المصطلحين وتبنيهما على قدم المساواة عبر دورياتهم خلال هذه المرحلة .

رابعاً: العلمانيون وترويج محددات علمنة التعليم

حاول العلمانيون مع مطلع ثمانينيات القرن التاسع عشر ، في إطار إرساء معالم ومرتكزات النزعة العلمانية ، التأكيد على دعم الجانب التعليمي لما له من أهمية خاصة في تقوية البنى الثقافية والعلمية وتدعيمها لأعضاء الجمعيات العلمانية ومنتسبيها . وسعى العديد منهم إلى تطوير المهارات والقابليات الفكرية من أجل التوفيق بين الجانبين النظري والتطبيقي في ترويج الطروحات العلمانية . فقد كانت التحولات التي شهدتها بريطانيا في ميدان التعليم ، مع مطلع سبعينيات القرن التاسع عشر ، قد أشرت المرحلة الاولى لإنكفاء السيطرة الدينية على المؤسسة التعليمية إزاء تنامي التوجهات المدنية ذات البعد العلماني ؛ ولهذا تطلع جزء مهم من الزعامات العلمانية إلى وضع محددات تعليمية ومنهجية خاصة وفق رؤية علمانية .

وكانت من أولى المحاولات التي روج لها العلمانيون تلك التي إقترحتها بزنت في عام ١٨٨٣ على مؤتمر الجمعية العلمانية الوطنية القاضية بوضع الأخيرة مؤهلات تربوية معرفية صارمة تقوم الجمعية على أساسها بتثبيت المحاضرين ، ومثّل هذا المقترح إشارة على أن الجمعية كانت خلال ثمانينيات القرن التاسع عشر تتحرك بإتجاه البنية الفئوية على نحوٍ رسمي . إن هذه الحواجز المعرفية التي تم فرضها كانت في الواقع

(1) Huxley, Science and Christian Tradition, pp.311-312.

جديرة بالإعتبار : إذ تم إعتماد شهادة الدبلوم وفقاً لمنهاج دراسي أقر ثلاثة محاور ، ولم يستثنَ منه سوى المتخرجين الجامعيين . تناول المحور الاول ضرورة الخبرة في الأداب العامة ، المتضمنة الإطلاع على كل من الكتب التالية : «التاريخ المختصر للشعب الانكليزي» للمؤرخ الانكليزي جون ريتشارد غرين John Richard Green (١٨٣٧-١٨٨٣) البالغ أربعة مجلدات[١] ، و«تاريخ الحضارة في إنكلترا» للمؤرخ الانكليزي هنري توماس بكل Henry Thomas Buckle (١٨٢١-١٨٦٢) البالغ ثلاث مجلدات[٢] ، و«أساسيات قواعد الانكليزية وإنشائها» لمؤلفه جيمس همبلن سمث James Hamblin Smith (١٨٢٧-١٩٠١)[٣] ، وأُستثني من ذلك من إجتاز الإمتحان الأساسي في جامعتي أوكسفورد وكمبردج . أما المحور الثاني فقد تعلق بمجال العلوم ، وتطلب دراسة أعمال داروين أو كتاب «تلميذ داروين» للعلماني إدوارد أيفلنغ[٤] و«القوة والمادة» للفيلسوف الالماني لودفيك بوخنر Ludwig Büchner (١٨٢٤-١٨٩٩)[٥] ، وكذلك «تاريخ الصراع بين الدين والعلم» للعالم والفيلسوف الامريكي جون وليم درابر John William Draper (١٨١١-١٨٨٢)[٦] ، أو أن يتم إختيار بديل عن ذلك كإجتياز المرحلة المتقدمة في كلية ساوث كنزنغتن South Kensington في لندن في مجال العلوم . أما المحور الثالث فقد تعلق بمجال اللاهوت وتطلب دراسة كتاب «نظرة في شواهد المسيحية» للقس الانكليكاني والفيلسوف

---

(1) Green, J. R., A Short History of The English People, London, Macmillan and Co., Limited, 1903, 4 Vols.

(2) Buckle, Henry Thomas, History of Civilization in England, London, Longmans, Green, and Co., 1871, 3 Vols.

(3) Smith, James Hamblin, The Rudiments of English Grammar and Composition, Oxford University, 1876.

(4) Aveling, Edward, The Student's Darwin, London, Freethought Publishing Co., 1881.

(5) Büchner, Ludwig, Force and Matter: or Principles of The Natural Order of The Universe, Fourth Edition, London, Asher and Co., 1884.

(6) Draper, John William, History of The Conflict Between Religion and Science, Sixth Edition, New York, D. Appleton and Company, 1875.

النفعي بالي[1] ، و«الكتاب المنهجي للمفكر الحر» لبرادلو وبزنت ، و«محاضرات ومقالات» لعالم الرياضيات والفيلسوف الانكليزي وليم كنغدن كليفورد William Kingdon Clifford (١٨٤٥-١٨٧٩)[2] .

وتألفت اللجنة الإمتحانية من إدوارد أيفلنغ وتشارلز برادلو وهيبشيا برادلو وبزنت وأستاذ الرياضيات في جامعة أوكسفورد هنري وليم لويد تانر Henry William Lloyd Tanner (١٨٥١-١٩١٥)[3] . وفي الواقع لم يتضح عدد المحاضرين الذين تم قبولهم وفقاً لهذه الضوابط ، ولا سيما في المرحلة اللاحقة ، إذ لم يكن لدى الجمعية العلمانية الوطنية في عام ١٨٩١ سوى محاضر دائم هو ستانلي جونز Stanley Jones من ليفربول ، ثم أصبح العدد في العام اللاحق خمسة محاضرين مختصين فقط ؛ وهم روبرت فوردر والمفكر الحر آرثر بي . موس Arthur B. Moss (١٨٥٥-١٩٣٧) والعلماني والناشط السياسي هاري سنل Harry Snell (١٨٦٥-١٩٤٤) والكاتب العلماني وليم هيفورد William Heaford والعلماني سام ستاندرنك Sam Standring (١٨٥٣-١٨٩٥)[4] . ومنذ منتصف تسعينيات القرن التاسع عشر إقتصرت الجمعية العلمانية الوطنية على خدمات المحاضرين الاتية أسماؤهم : العلماني الملحد تشابمن كوهين Chapman Cohen (١٨٦٨-١٩٥٤) وهيفورد وموس وتشارلز واتس وفوت ، إذ أصبح هؤلاء الدعامة الأساسية والقوة الدافعة لمحاضرات الجمعية العلمانية الوطنية لغاية نشوب الحرب العالمية الاولى[5] .

لقد هدف العلمانيون من خلال طرح البرنامج العلماني التعليمي إلى تحقيق ثلاث نقاط وهي : تعليم علماني ومجاني وإلزامي ، فقد نظروا حيال لائحة ساندون التعليمية لعام ١٨٧٦ بأن التعليم الإلزامي والمجاني المتضمن فيها يعني ببساطة نشر

---

(1) Paley, William, A View of The Evidences of Christianity, London, Vernor, Hood, sharpe, 1811, 2 Vols.

(2) Clifford, William Kingdon, Lectures and Essays, London, Macmillan and Co., 1879, 2 Vols.

(3) The National Reformer, 23 September 1883; The Freethinker, 16 March 1913.

(4) The Secular Work, December 1896.

(5) Royle, Radicals, p.152.

التعليم الكنسي على نحو إجباري في المناطق الريفية والمزيد من الاموال للمدارس الكنسية . ولهذا وفقاً لرأي جي . أم . ويلر J. M. Wheeler فإن المنهاج الوحيد الذي من الممكن أن يكون صحيحاً يتمثل في إقامة تعليم علماني ومجاني يتم تمويله من خلال تجريد الكنيسة من صفتها الرسمية[١] . وفي الوقت الذي إتفقت فيه جميع الآراء على قضية التعليم المجاني ، كانت ثمة قضايا أخرى مثار خلاف ؛ فمثلاً في عام ١٨٨٤ تحاور كل من الناشط العلماني دبليو . بي . بول W. P. Ball (١٨٤٤-١٩١٧) وبزنت بشأن ما إذا كانت الوجبات الغذائية المدرسية ينبغي أن تقدم للطلاب على نحو مجاني أم لا؟ وكان رأي برادلو يتمثل في ضرورة إطعام أبناء الفقراء ، أما أبناء أولئك الذين لا ينتمون إلى شريحة الفقراء فينبغي على آبائهم أن يقوموا بإطعامهم[٢] . وكان فوت يتفق معه في ذلك ، إلا أنه إختلف معه بشأن قضية أخرى تمثلت فيما إذا كان التعليم في المدارس الخاصة ينبغي أن يكون علمانياً أم غير علماني ، حيث إعتقد برادلو بأن التعليم بصورة عامة ينبغي أن يكون علمانياً ، حتى يتيسر للأطفال بناء عقولهم على نحو مستقل . بالمقابل إعتقد فوت بأن ذلك الرأي لا يمت للواقع بصلة ، ورغب في أن يتمكن الآباء من أن يلقنوا أبنائهم ما يشاؤون من الآراء بحرية ومن دون قيود سواءً كانت آراء دينية أم لا[٣] . وقد حظي هذا الرأي بقبول ويلر[٤] ، أما آرثر موس ، الذي كان مفتشاً في المجلس المدرسي في لندن ، فقد أثار نقطة خلاف أخرى تمثلت في إستخدام الإنجيل في المجالس المدرسية ، وتوصل إلى رأيه هذا بعد أن أدرك بأن بعض العلمانيين لم يسحبوا أبنائهم من الدروس الإنجيلية بسبب الخوف من تلقي الأطفال للعقوبة ، إذ يؤدي عدم حضورهم إلى حرمانهم من الدرجات التي تعطى بناءً على مستوى الحضور اليومي لهذه الدروس . فضلاً عن أن تخلفهم عنها سيعرضهم إلى النبذ من الاطفال الآخرين ، ناهيك عن

---

(1) The Secularist, 1 July 1876; The Freethinker, 1 November 1885; The Freethinker, 24 October 1886.

(2) The National Reformer, 9 November, 21 December 1884, 21 October 1888.

(3) The Freethinker, 25 September, 2 October 1887; The National Reformer, 23, 30 November, 14 December 1884.

(4) The Freethinker, 30 September 1889.

الاعتقاد بأنهم سيحرمون من إحدى المعارف التي تعد جوهرية للعلمانية ، إذ أن من أهم المبادئ التي دفعت الآباء إلى إرسال أبنائهم إلى الدروس الانجيلية تمثل في إعتقادهم بأن كلما زاد إطلاع الإنسان على الانجيل وزادت معرفته بمضمونه كلما قل إيمانهم بقدسيته ، ولا سيما في الحالات التي كان المدرسون يتناقضون فيما بينهم في تفسيره . وقد أشار موس إنه إذا ما قام أبناء العلمانيين بقراءة الانجيل في المجالس المدرسية بحيث يكونون تصوراً خاطئاً عنه ، عندئذ سُيقّدر لآبائهم تصحيح ذلك ، أو في أسوأ الأحوال سيقوموا بطرح الجانب الآخر من القضية ، وبهذه الطريقة سيجد الطفل نفسه مفكراً في مرحلة مبكرة من مراحل حياته ، وهي ميزة تستحق تهيئة الظروف المناسبة لإيجادها وتنميتها(١) .

لقد شدد التيار العلماني على ضرورة علمنة التعليم العام ، وفي عام ١٨٨٥ تم إنتخاب أحد أعضاء فرع ويستمنستر في إنتخابات المجلس المدرسي في لندن ، ولكن عموماً خسرت المجموعة المكونة من الليبراليين والمنشقين عن الكنيسة الانكليزية لصالح مجموعة التوجه الكنسي بفارق صوت واحد ، وأصبح القس جوزف ديغل Joseph Diggle رئيساً للمجلس(٢) . وخلال السنوات الثلاثة اللاحقة لعب العلمانيون دوراً غامضاً في التحالف مع الإشتراكيين وغيرهم من الراديكاليين ضد أنصار ديغل ، وإتحدوا جميعهم لمعارضة التعليم الديني ، إذ إعترى فوت الغضب حينما إطلع على أسئلة الإمتحانات المرتكزة على المعرفة الدينية- التي تناولت على سبيل المثال ذكر أمثلة من العهد القديم تبين المعاناة الطويلة التي مر بها الرب (للمرحلة الرابعة) ، وما هي تعاليم الصلاة التي أوصى بها الرب (للمرحلة الخامسة)؟(٣) .

وعلى الرغم من ذلك بقي الخلاف قائماً بين العلمانيين حيال مسألة الوجبات الغذائية ، حيث أبدى الاتحاد الراديكالي للعاصمة Metropolitan Radical Federation الذي تأسس في عام ١٨٨٦ تأييده لها بناءً على المقترح الذي قدمته

---

(1) The Freethinker, 6 November 1887.

(2) Rubinstein & Besant, D. & Annie, The London School Board Election of 1888, East London Papers, XIII, Summer 1970, pp.23-24.

(3) The Freethinker,6 February 1887.

بزنت في عـــام ١٨٨٨ ، في حين رفض إتحــاد لـنـدن العلمــــاني London Secular Federation الذي أنشأه فوت في عام ١٨٨٨ ذلك فضلاً عن رفض المقترح الداعي إلى إخضاع المدارس للسلطة الشعبية[١] . ولذلك كان العلمانيون في عام ١٨٨٨ مترددين بشأن دعم المرشحين الراديكاليين المتفق عليهم . وفي تلك المرحلة لم يكن العلمانيون يمتلكون سياسة معينة ، ولكن وعلى الرغم من ذلك ، قام إتحاد لندن العلماني بدعم هيوبرت بلاند في فنزبري وجي . أتش . إليس في ويست لامبث ، أما دورية The National Reformer فقد دعمت بزنت فضلاً عن مساندة الجمعية العلمانية لشرق لندن لها[٢] .

وعموماً وعلى الرغم من أن إنتخابات المجالس المدرسية في عام ١٨٨٨ أفضت إلى زيادة نسبة أنصار التوجهات الدينية ، بيدَ إن كل من بزنت وستيورات هيدلام من هاكني إستطاعا تحقيق تقدم معتبر في المجلس المدرسي في لندن ، حيث قامت بزنت بعد ذلك بنقل تفاصيل نشاطها الاسبوعي في المجلس المذكور عبر دورية The National Reformer[٣] . وعلى إثره إلتمست ماري ريد Mary Reed مديرة إحدى المدارس في منطقة بوبلار Poplar في شرق لندن الحصول على معونة مالية فضلاً عن بعض الشباب ، وأوضحت على نحوٍ مفصل عبر دورية The National Reformer حجم المأساة التي تعصف بإيست إند ، وتساءلت عن جدوى أسعار الوجبات الغذائية الضرورية ، التي تبلغ كلفة الواحدة منها ثلاثة أرباع البنس[٤] ، حيث أشّر هذا الطرح بروز طرفي النزاع العلماني- الديني ، إذ عارض أنصار التعليم الكنسي هذه الرؤى الإقتصادية في التعليم ، في حين حظي على دعم غالبية العلمانيين . ولهذا قامت بزنت بتقديم مشروع إلى المجلس المدرسي في لندن هدف إلى تقليص أو تخفيف الرسوم المدرسية ، وهو المشروع الذي من شأنه أن يدفع بالنظام التعليمي هناك

---

(1) Rubinstein & Besant, Op. Cit., pp.3-8; The Freethinker, 14 October 1888.

(2) The Freethinker, 9 September, 18, 25 November 1888; The National Reformer, 28 October, 4, 11 November 1888; The Freethinker, 2 December 1888; Rubinstein & Besant, Op. Cit., 21-23.

(3) The National Reformer, 16 December 1888.

(4) The National Reformer, 28 April, 1 December 1889.

نحو مجانية التعليم على نحو عملي ، ولهذا ، على الفور ، عارض بشدة أنصار التوجه الديني طرح مبدأ مجانية التعليم[1] ، لأن ذلك من شأنه أن يحرم ويعيق مورداً مالياً مهماً يدعم ديمومة المؤسسات الكنسية المرتبطة بتلقي تلك الرسوم وبالنتيجة يضعف من مكانتها بوصفها راعية للتعليم .

في الواقع واجه بعض العلمانيين تحديات مهمة في هذه المرحلة ، فعلى الرغم من أن روبرت فوردر كان لا يزال معتنقاً لبرنامج التعليم العلماني وإقترح تزويد المدارس المسائية ببعض الدروس العملية ، إلا أنه أخفق في الإنتخابات[2] . أما تشارلز واتس فقد خاض الإنتخابات في فنزبري بوصفه علمانياً في عام ١٨٩٤ ، لكنه مني بالإخفاق أيضاً[3] . ولهذا فقد وجد العلمانيون أنفسهم مجبرين على المراقبة من بعيد للمعركة التي دارت رحاها مطلع تسعينات القرن التاسع عشر من أجل منع غالبية مناصري التوجهات الدينية في التعليم في المجلس المدرسي من زيادة عدد الدروس المعنية بالنصوص الإنجيلية في المدارس . ولتجنب الخلاف قرر غالبية أعضاء المجلس المدرسي وضع تسوية تنص على وضع نوع من التعليم يتسم بالغموض فيما يتعلق بالقيم الاخلاقية والدينية المستقاة من الانجيل ، إلا أن هذه التسوية جوبهت بالرفض من كلا الطرفين العلماني والديني . وعلى إثر إصرار بعض المدارس على تدريس تعاليم الإنجيل ، طُرحت هذه الإشكالية على المجلس المدرسي ، مما أدى إلى صدور تنظيمات جديدة أكثر صرامة في شهر آذار ١٨٩٤ ، وإنعكس بالمحصلة على إنتخابات المجلس التي أقيمت في ذلك العام ، ودفع بالكنيسة إلى تخصيص مبالغ طائلة وجمع ما يزيد عن ٢٠٠٠ جنيه إسترليني لتمويل الإنتخابات ، إلا أن القضية حسمت من خلال المدرسين أنفسهم ، حينما قام ٣١٣٠ مدرساً بتوقيع مذكرة إحتجاج ، مثلما رفض ١٥٠٠ مدرس ، تجمهروا في إحدى التجمعات الغفيرة ، تدريس المواد الدينية[4] .

(1) The National Reformer, 21 April, 15 December 1889.

(2) The National Reformer, 15 November, 6 December 1891.

(3) The Freethinker, 14 October, 2 December 1894.

(4) Maclure, Stuart, Our Hundred Years of London Education: 1870-1970, London, Allen Lane, 1970, pp.42, 26; Rubinstein, D., School Attendance in London, 1870-1914, Hull, 1969, pp.29-30.

وفي عـام ١٨٩٦ برز خطر آخـر تمثل في تقـديم لائحـة للبـرلمان تهـدف إلى بذل الدعم وتوسيعه للمدارس الطوعية ، وإلغاء عبارة كاوبر- تمبل التي أقرها مرسوم التربية لعام ١٨٧٠ ، وكذلك من أجل نقل مسؤولية المجالس المدرسية في المناطق الريفية إلى مجالس المقاطعات ، وقد أدى ذلك إلى توحيـد صفوف الراديكاليين والعلمـانيين والإشتراكـيين بغرض الإحتجاج على هذه اللائحة ودعم التعليم العلماني(١) . بل وأدت إحدى القضايا الجديدة التي ظهرت خلال أواخر تسعينيات القرن التاسع عشر إلى إنقسـام بين معـارضي التعليـم الديني كـالإنقسـام الذي حـدث بين العلمـانيين والحركـات الأخلاقيـة ، ففي إحدى المؤتمرات التي أقيمت في قاعة هالبورن في ١٩ و٢٨ تموز ١٨٩٨ تم إقـتـراح إنشـاء عـصـبـة التـعليم الاخـلاقي Moral Instruction League . وحضـر هذا المؤتمر ممثلون عن الجـمـعية العلمـانيـة الوطنية وإتحاد الفكر الحر Freethought Federation الذي تأسس في آب ١٨٩٦ وكذلك العديد من الجمعيات والتنظيمات الليبرالية والراديكالية والاخلاقية والاشتراكية . وترأس هذا المؤتمر فردريك هاريسون Frederic Harrison ، وطرح غولد(٢) رأياً مفاده بأن التعليم الحقيقي لا بد أن يكون تعليماً أخلاقياً ومستوحى من القصة الانسانية- المتضمنة للأنجيل فضلاً عن جميع مظاهر النبوغ التي تميز الجنس البشري(٣) ، إلا أن تشارلز واتس لم يرقه الأمر وطالب بإنسحاب الجمعية العلمانية الوطنية ، وحينما تم إقناعه بالعدول عن طلبه ، وإختيـار ٤ من أعضائها ليكونوا أعضـاءً في اللجنة ، إنسحبت الجـمـعية العلمانية الوطنية ، فقد وجد العلمانيون أن أية صيغة تعليمية يتخللها الأنجيل هي صيغة غير مستساغة ولا تحظى بالقبول(٤) .

---

(1) Simon, B., Studies in The History of Education: Education and The Labour Movement 1870-1920, London, 1965, p.160.

(2) The Reformer, 15 August 1897.

(3) Gould, F. J., The Life- Story of A Humanist, London, Watts, 1923, pp.63-71; The National Reformer, 15 February, 1, 15 March 1891; The Freethinker, 10 May, 1, 8 November 1891.

(4) The Freethinker, 17 October 1897, 23 January, 6 February, 31 July, 14 August 1898, 9 July 1899.

خامساً: تنافس رؤى الزعماء العلمانيين وأثره في تعزيز إتجاهات علمانية جديدة

مثّلت قضية برادلو نقطة تحول في التاريخ الدستوري لبريطانيا ، فضلاً عن أهميتها لكلتا الحركتين الراديكالية والعلمانية ؛ إذ أصبح إسمه مرادفاً للحركة الراديكالية خلال الاعوام ١٨٨٠-١٨٨٥ . ولم يكن العلمانيون يواجهون أي خطر يذكر نتيجة لتطويرهم مذهباً معادياً للديانة المسيحية ، أو حتى خطر الإنحراف عن المجرى الرئيس للحركة الراديكالية في المرحلة التي أقصي خلالها برادلو من البرلمان[١] . فالوقت والطاقة التي إستنزفها الصراع البرلماني أدى إلى إقتصار محاضرات برادلو وجولاته الإقليمية على رحلات متفرقة خلال العطل . إن البيئة الصحية للحركة التي إحتضنتها جميع هذه النشاطات قد إنعكست على أدبياتها ؛ إذ أصبح بإمكان المفكرين العلمانيين خلال مطلع ثمانينيات القرن التاسع عشر دعم وإنشاء دوريات عديدة فاقت المرحلة السابقة ؛ فقد تصاعدت خلال العامين ١٨٨١-١٨٨٢ نسبة مبيعات نشريات الجمعية العلمانية الوطنية إلى الضعف ، كما تلقت شركة نشر الفكر الحر قدراً كبيراً من النجاح في هذه المرحلة[٢] .

كان من الصعب رسم الخط الفاصل ، في بعض الاحيان ، بين العلمانيين والراديكاليين ؛ ففي إحدى حفلات الشاي الراديكالية التي أُقيمت في هاليفاكس في عام ١٨٨٦ من أجل الاحتفال بالإنتصار الذي حققه برادلو قام الراديكاليون والعلمانيون بغناء المحاكاة الساخرة للنشيد الوطني National Anthem المأخوذة من دليل العلمانيين للأغاني والمراسيم ، فقد كان برادلو قادراً على الإنتفاع من الخزين المتوارث للأفكار المعادية للإكليركية الموروثة من التقليد البيني[٣] . وعلى الطرف المضاد أبدى أعضاء الإتحاد العلماني البريطاني عدم رضاهم وقناعتهم عن حقيقة أن يقوم ملحدٌ ما بخوض صراعات مطولة من أجل كسب حق يؤهله للقسم بإسم الرب

---

(1) The National Reformer, 24 October, 21 November 1880, 9 January, 12 June 1881, 4 June 1882, 7, 14 January, 20 May 1883, 8 June 1884, 31 May 1885.

(2) The National Reformer, 29 May, 5 June 1881, 4 June, 24 September 1882; The Secular Review, 3 July 1880.

(3) The National Reformer, 14 November 1886; Royle, The Infidel Tradition, pp.117-119.

وتقبيل الكتاب المقدس ؛ إذ أن النجاح الجماهيري الذي حققه برادلو وإرتباط الحركة العلمانية بإسمه كانت أكثر من كافية لإثارة غيرة زعماء الظل ، ولا سيما أولئك الذين طالما إرتابوا فيما إذا كانت خطط برادلو الجماهيرية قد وضعت أساساً من أجل تعزيز السمعة الفكرية للعلمانية[١] . فقد تمركز العداء تجاه برادلو أساساً عبر دورية The Secular Review ، إذ قام روس بتوظيف نفسه لمعارضته مع بزنت ، ولم يقم الإتحاد العلماني البريطاني أو أي من الزعماء القدامى كجورج جاكوب هوليوك وتشارلز واتس بشن حرب علنية مفتوحة على برادلو بالكيفية ذاتها التي إنتهجها روس . إن الموقف الذي إتخذه كل من جورج جاكوب هوليوك وتشارلز واتس جاء بناءً على الإعتقاد بأن برادلو كان من الواجب عليه طرح مسألة التأكيد على نحو هادئ وبدون إحداث هالة لنفسه . وزيادةً على ذلك ، فقد إعتقدا إنه إذا ما حُرِمَ من التّأكيد فيجب عليه أن لا يسعى لأداء قسم اليمين ، وإنما يجب أن يتخذ موقفاً أخلاقياً ومبدئياً . لقد كان جورج جاكوب هوليوك مصدر إزعاج دائم لبرادلو وذلك لأنه كان يكثر من توجيه النصائح إليه من خلال الصحافة . ولم يتمكن فوت من التصالح مع بزنت أبداً ، ونتيجة لنزاع برادلو البرلماني قام بترك الإتحاد العلماني البريطاني في ربيع عام ١٨٨١ ، ثم عاد ليعمل محاضراً في الجمعية العلمانية الوطنية[٢] .

في بادئ الامر حظي الإتحاد العلماني البريطاني بحصته من التوسع الذي أثارته قضية برادلو ؛ وكانت ثمة زيادة في الإستفسار عن المبادئ العلمانية ، فضلاً عن زيادة الطلب على الأدبيات العلمانية في متجر تشارلز واتس خلال الأسابيع الأولى من النزاع ، أي في عام ١٨٨٠ ، وعلى الرغم من هذا التطور الذي شهده هذا الإتحاد إلا أن ثمة دلائل عديدة أشارت إلى كونه ، وفي أعظم أوقاته ، لم يمتلك أكثر من عشرين فرعاً ، ومئات معدودة من الأعضاء في عام ١٨٨٤ ، وحينما هاجر تشارلز واتس إلى كندا في عام ١٨٨٦ ، إضمحل الاتحاد[٣] . إن الحقيقة التي كانت بادية للعيان إنه لم يكن ثمة متسع كاف لتنظيمين وطنيين يعملان سوية ، كما إن الجمعيات المحلية

---

(1) Royle, Radicals, p.31.

(2) The Secular Review, 15, 22 May, 19, 26 June, 3, 10 July 1880, 13 March 1881.

(3) The Secular Review, 3 July, 7 August 1880, 6 August 1881, 4 March, 12, 19 August 1882; The National Reformer, 25 July 1880, 11 August 1883.

كالتي في دندي ، التي تمكنت من أن تحافظ على إستقلالها ، كانت مجبرة على مكابدة صراع التنافس مع فروع الجمعية العلمانية الوطنية ، لذلك لم تكن ترغب بوجود فرع للإتحاد العلماني البريطاني في المدينة[1] . فضلاً عن أن دورية The Secular Review كانت هي الأخرى محوراً للعداء ، لا سيما وأن روس كان قد إنضم إلى واتس وشاطره رئاسة تحرير الدورية في عام ١٨٨٢ ومن ثم أصبح رئيساً للتحرير بعد مرور عامين فقط[2] .

وفي الوقت الذي كانت فيه الجمعية العلمانية الوطنية تصارع خلال ثمانينيات القرن التاسع عشر وتسعينياته من أجل ديمومتها ، فإن بعض الدعم المتبقي الذي كانت تحظى به تحول نحو الحركة الأخلاقية The Ethical Movement التي كانت بحق مصدراً لإستقطاب الجيل الشاب من العلمانيين أمثال غولد وسنل[3] . إن جذور الحركة الاخلاقية ، كانت في الواقع ، نصفها أميركي الأصل والآخر بريطاني ، إذ أن العقلاني الأمريكي الالماني الأصل فلكس أدلر Felix Adler (١٨٥١-١٩٣٣) كان قد أسس جمعية الثقافة الاخلاقية Ethical Culture Society في نيويورك في عام ١٨٧٦ ، وتم بعد ذلك نقل أفكاره وجلبها إلى بريطانيا عن طريق زعيم الحركة الأخلاقية في بريطانيا ستانتون كوت Stanton Coit (١٨٥٧-١٩٤٤) في عام ١٨٨٨ ، حينما حل خلفاً لصاحبه الأمريكي مونكيور دي . كونوي Moncure D. Conway (١٨٣٢-١٩٠٧) بوصفه كاهناً في كنيسة ساوث بليس الصغيرة South Place Chapel . وتحت قيادة كونوي خلال المدة ١٨٦٥-١٨٨٥ كانت كنيسة ساوث بليس الصغيرة ، مركزاً للاهوت التقدمي والسياسة التي لا تختلف كثيراً عن الأسلوب العلماني الذي قدمه جورج جاكوب هوليوك . وفي عام ١٨٨٨ وضع كوت شرطاً لقدومه نص على أن تقوم الجماهير من أتباع الكنيسة بالتوجه نحو الجمعية الأخلاقية لساوث بليس South Place Ethical Society . وعلى الرغم من إنهم قاموا بذلك إلا أن أعضاء جمعية ساوث بليس كانوا بطيئين في إستجابتهم لكوت الذي تركهم في عام ١٨٩١ وذهب للبحث عن الجمعيات الأخلاقية في أماكن أخرى من

---

(1) The Secular Review, 15 October 1881.

(2) McCabe, A Biographical, pp.683-684; Royle, Religion, pp.17-18.

(3) Gould, The Life- Story of A Humanist; Snell, Op. Cit.

لندن وأقاليم بريطانيا الاخرى[1] .

لقد كانت بعض هذه الجمعيات مثل جمعية لندن الأخلاقية London Ethical Society التي تأسست في مطلع عام ١٨٨٦ على يد الفيلسوف البريطاني جون هنري ميورهيد John Henry Muirhead (١٨٥٥-١٩٤٠) في قاعة توينبي Toynbee Hall ، وكذلك جمعية كمبردج الأخلاقية Cambridge Ethical Society التي أسسها الفيلسوف النفعي والإقتصادي هنري سجويك Henry Sidgwick (١٨٣٨-١٩٠٠) ، خارج متناول أيدي العلمانيين إجتماعياً . ومع ذلك كانت هناك جمعيات أخرى في شرق لندن بالذات على غرار التنظيم العلماني إلى حد كبير ، وإستقطبت أناساً من الطراز ذاته . فقد بدأت الجمعية الاخلاقية لشرق لندن The East London Ethical Society إجتماعاتها في أحد المنازل الشخصية عام ١٨٨٩ ، ومن ثم إنتقلت بعد ذلك لعقد إجتماعاتها في صالون الرقص في مايل إند . ولكن وبعد أن قام صاحب الارض بإخلائهم قاموا بجمع مبلغ مقداره ٢٠٠ جنيه إسترليني وبنوا قاعة خاصة بهم أُفتتحت في عام ١٨٩٤ . لقد كان غولد زعيم هذه القاعة حتى إنتقل لإدارة جمعية لستر العلمانية Leicester Secular Society . وفي هذه الأثناء قام كوت بإنشاء العديد من الجمعيات في غرب وجنوب لندن في عام ١٨٩٢ ، وكذلك في شمال لندن في عام ١٨٩٥ ، وطمح إلى توحيد جميع هذا العمل الأخلاقي في حركة واحدة . ولهذا تم الجمع بين هذه الجمعيات وربطها في إتحاد واحد أُطلق عليه الإتحاد الأخلاقي Ethical Union في عام ١٨٩٥ ، وشيئاً فشيئاً أصبحت الكنائس العمالية Labour Churches والجمعيات الوضعية Positivist Societies تدوران ضمن فلك هذا الإتحاد[2] .

وفي إحدى محاضراته التي وجهها وألقاها خلال هذه المرحلة في جمعية

---

(1) Royle, Radicals, p.42.

(2) Warren, Sindney, American Freethought: 1860-1914, New York, Columbia University Press, 1943, pp.96-109; Ratcliffe, Samuel Kerkham, The Story of South Place, London, 1955, p.55; The National Reformer, 1 January, 9 September 1888; The Freethinker, 1 January 1888; Gould, The Life- Story of A Humanist, pp.76-77; Spiller, Gustav, The Ethical Movement in Graet Britain, London, Farleigh Press, 1934, pp.114-115.

St. Pancras Ethical Society قال تشارلز واتس : «إن روح الحركة العلمانية والحركة الأخلاقية هي جوهر لشيء واحد» . وأدى هذا القول إلى قيام كوت بالعمل على تحفيز العلمانيين على إعادة تشكيل جمعياتهم والإنضمام إلى الإتحاد الأخلاقي . وعلى الرغم من أن هذه الخطوة قد وصفها فوت وآخرين بأنها محاولة للإستيلاء على الحركة العلمانية ، وعلى الرغم من إنكار كوت لهذا الأمر إلا أن فوت قد يكون على الارجح محقاً في ذلك ؛ فقد كانت العلاقات بين الحركتين غامضة بعض الشيء . وقام جي . داوسون بيكر G. Dawson Baker في دورية The Freethinker لعام ١٨٩٨ بتشبيه هذه العلاقة بالإختلافات القائمة بين الكنائس والكنائس الصغيرة ، وذكر كوت في عام ١٩٠١ الفرق بين ما عّده مدرستين عقليتين هما : محطمو الكتاب المقدس الفرديين Individualistic Bible- Smashers ، والمجموعات الأخلاقية المتماسكة Cohesive Ethical Groupings . ومن الواضح إن الجمعية العلمانية الوطنية بزعامة فوت قد إنتمت إلى النوع الاول ولكن حتى الحركة الاخلاقية ، التي أُعتبرت لبعض الوقت خلال تسعينيات القرن التاسع عشر حائزة على مقومات النجاح ذاتها التي إمتلكها ما أُشيع بأنه دين العصر القادم ، لم تصمد كثيراً مع بزوغ القرن العشرين[١] .

وعلى الرغم من ذلك ، لم تقتصر الساحة العلمانية على رواج الرؤى المتعددة التي ساعدت على تعزيز التقليد العلماني المتبع بفعل ظهور حركات مدنية مشابهة ؛ وإنما أشر أيضاً تراجعاً لبعض أعداد الأعضاء والفروع في العامين ١٨٨٤ و١٨٨٥ ، وقد نسب برادلو في تقريره السنوي هذا التدهور إلى : «الركود الاقتصادي الحاد الذي عصف بمختلف ميادين القطاع الصناعي في عموم البلاد» . وكان برادلو محقاً تماماً فقد كانت الجمعية العلمانية الوطنية شأنها شأن جميع الجمعيات الطوعية الأخرى عرضة للركود[٢] . لذلك يمكن القول إن بوادر تداعي نسب منتسبي الجمعيات العلمانية قد أصبحت واضحة للعيان إبتداءً من منتصف ثمانينيات القرن التاسع عشر ، إذ إنتقد

(1) The Ethics, 3 May 1902; The Freethinker, 11 December 1898; The Ethics, 30 November 1901; Spiller, Op. Cit., p.115.

(2) The National Reformer, 31 May 1885, 20 June 1886, 5 June 1887, 27 May 1888, 16 June 1889.

البعض فوت نتيجة للإعتقاد بأنه السبب وراء ذلك التباين ولا سيما في أثناء زعامته التي تلت العصر الذهبي أبان زعامة برادلو . فقد تم غض الطرف عن جميع التقارير غير الجيدة التي وردت في آواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر ، كما عُدت جميع الآراء التي وصفت برادلو بأنه راديكالياً ناشطاً وأصيلاً بعد دخوله البرلمان سخيفة وغير معقولة . وبالفعل فقد كان برادلو في هذه المرحلة (مرحلة ما بعد قبوله في البرلمان) أكثر مثابرة وعملاً من قبل في سعيه لتطوير كلاً من الراديكالية والفكر العلماني ، إلا أن واجباته ومسؤولياته البرلمانية كانت قد شغلت قدراً كبيراً من وقته[١] .

ونتيجة للتراجع في أعداد أعضاء الجمعية العلمانية الوطنية في آواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر[٢] إقترح فوت ، على المؤتمر الذي أقيم عام ١٨٨٨ ، تأليف لجنة تعمل على إيجاد مواطن الضعف وإكتشاف الأخطاء . وأقر خلال خطابه إن النمو السابق الذي شهدته العلمانية غير مسبوق ، وإنه نتاج للصراع البرلماني الذي خاضه برادلو فضلاً عن الدعوة القضائية التي أُقيمت ضده بتهمة التجديف . أما الان وقد إنتهت تلك الدعوة بات على الجمعية العلمانية الوطنية السعي لإبتداع أفكار جديدة . أما برادلو نفسه فقد عاد في تقريره السنوي الذي صدر بعد عام من هذا المؤتمر إلى هذه الفكرة ، إذ إنه أخذ ينسب التدهور الذي طرأ على العلمانية إلى إلهاء الطاقات المحلية وتحولها من العمل في المجالات الدعائية إلى الأندية وغيرها من النشاطات الترفيهية فضلاً عن إختلاف الأزمنة وتغير الأهواء . وهذه المرة كان برادلو محقاً تماماً حين برر التدهور السابق بالركود الإقتصادي ، بإستثناء إنه كان من الممكن أن يكون أكثر دقة لو اشار إلى السبب الكامن في تشتيت الطاقات العلمانية عائد إلى بروز وجه علماني آخر ممثل بالتوجهات الإشتراكية الجديدة[٣] .

---

(1) The National Reformer, 13 March 1887, 6 January 1889.

(٢) كان هذا التراجع أمراً محتملاً نتيجة لعدة أسباب أهمها : الركود الإقتصادي في منتصف القرن التاسع عشر الذي عصف بتأثيراته على الكثير من الميادين الحياتية ومن ضمنها الفكرية ، فضلاً عن إنشغال برادلو في هذه المرحلة بنزاعه البرلماني ، وتشتت الطاقات العلمانية في مختلف الميادين المدنية المشابهة الممثلة بالتوجهات الإشتراكية الجديدة على سبيل المثال ، وكما سيرد ذكره لاحقاً .

(3) The National Reformer, 27 May 1888, 16 June 1889; The Freethinker, 27 May 1888, 16 June 1889.

كانت الاشتراكية عنصراً جديداً أخذ مكانته المهمة في الراديكالية البريطانية خلال ثمانينيات القرن التاسع عشر[١] ، إذ رزح العلمانيون خلال هذا العقد تحت ضغط نقاد إشتراكيين أكثر ثورية منهم[٢] . ولم يكن الخط الفاصل بين الإشتراكيين والراديكاليين واضحاً على الدوام[٣] ؛ ومع ذلك يمكن القول ، إن قضيتي الصراع البرلماني الذي خاضه برادلو من أجل دخول البرلمان في مطلع ثمانينيات القرن التاسع عشر والمحاكمة التي حاقت بفوت بتهمة التجديف ، قد ساعدتا على إستقطاب

---

(١) كان الإتحاد الديمقراطي الإشتراكي Social Democratic Federation أو مايعرف إختصاراً .S. D. F : أول تنظيم بريطاني يعبر عن حزب سياسي إشتراكي ، أسسه في عام ١٨٨١ السياسي والكاتب الإنكليزي هنري مايرز هايندمان Henry Mayers Hyndman (١٨٤٢-١٩٢١) ، والفنان والكاتب وليم موريس William Morris (١٨٣٤-١٨٩٦) ، كما ضم العديد من الشخصيات الأخرى . وحظى هذا الاتحاد بتأييد كبير في لندن ، وإعتنق عقائد ماركسية وأصر على ضرورة شن حرب طبقية ، فلم يوافق مطلقاً على قيام مصالحة أو تعاون بين الإشتراكيين والعناصر التقدمية الأخرى غير الإشتراكية من أجل تحقيق نوع من الإصلاح الاجتماعي ، ولم يحظَ بتأييد كبير من الطبقات العاملة لأن العامل الإنكليزي العادي متحفظ بطبعه ومعارض للثورية ولم يفهم الكثير من تعاليم الإتحاد التي رأى في البعض منها مخالفةً للدين فرفضها . وفي نهاية عام ١٨٨٤ حدث إنقسام في الإتحاد حينما كون موريس وآخرون «الجماعة الاشتراكية» لمعارضة الأساليب الأوتوقراطية التي إتبعها هايندمان وإصراره على التقدم بمرشحين إلى البرلمان ، ما أدى إلى إضعاف الإتحاد مالياً وفكرياً ، إلا أنه سرعان ما نشط هذا الإتحاد مرة أخرى وحاز على شهرة واسعة النطاق في أثناء شغب عام ١٨٨٦ ومظاهرات الطرف الاغر عام ١٨٨٧ ، لكنه تراجع وأخذ يتلاشى بعد بروز حزب العمال المستقل في عام ١٨٩٣ ، وقد قضى الإتحاد على نفسه بسبب تقيده بالتعريفات الضيقة التي وضعها ، وإنغماسه في مجادلات متعجرفة مع الجمعيات الإشتراكية الأخرى فإنتهى أمره إلى العزلة . أنظر : بواريير ، فيليب ، نشأة حزب العمال البريطاني ، تر : محمد نبيل موسى علام ، مراجعة : إبراهيم جمعة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، مجموعة إخترنا لك- ع ١٤٦ ، ص ص ١٥-١٩ ؛ دروز وآخرون ، المصدر السابق ، ٢٠٠١ ، ج٢ ، ق٢ ، ص ص ٦٦-٧٨ .

(2) Okey, Thomas, A Basketful of Memories: An Autobiographical Sketch, London, J. M. Dent, 1930, pp.61-62.

(3) The Republican, June 1880.

الراديكاليين والإشتراكيين على حد سواء ، إلا أن عام ١٨٨٤ أشر تصدع ذلك الإستقطاب وأصبح التنافر أكثر عمقاً بين الطرفين ، إذ طالب الإشتراكيون بإجراء إصلاحات إجتماعية وإقتصادية ، في حين تحدث الراديكاليون في هذا الوقت عن الحقوق السياسية والقانونية . ومن الجدير بالذكر إن الجدال بشأن الراديكالية والإشتراكية لم يحدث بين الجمعيات العلمانية والإشتراكية ، بل بين صفوف الحركة العلمانية ذاتها ، وقبل إنبثاق العديد من الجمعيات الإشتراكية ، ولهذا يمكن القول بأن الجهد التنظيمي العلماني قد أسهم في نشر المنطلقات الفكرية المدنية للحركة الإشتراكية على الرغم من تباين وجهات نظر الزعماء العلمانيين[١] . فقد تولت دورية The National Reformer ترويج بعض الطروحات الإشتراكية مثل الإجراءات الكفيلة بدفع المعاش لكبار السن ومرتبات المرضى والعاجزين ، وتحقيق الرعاية الطبية ، والتوظيف الحكومي للعاطلين عن العمل ، في الوقت الذي كانت فيه دورية The Secular Review مفتوحة على مصراعيها لنشر المقالات المتعلقة بالدفاع عن الإشتراكية العلمية[٢] .

---

(1) The Secular Work, July 1896.

(٢) مصطلح الإشتراكية العلمية Scientific Socialism إستخدمه والفيلسوف الإشتراكي فردريك إنجلز Friedrich Engels (١٨٢٠-١٨٩٥) لوصف النظرية الإشتراكية- السياسية لكارل ماركس Karl Marx (١٨١٨-١٨٨٣) ، وكان الزعم الذي رافق إقران الإشتراكية بالعلمية قد جاء لغرض تمييزها عن الإشتراكية الخيالية وعلى إعتبار إن القواعد والمعايير كالتجربة والملاحظة هي من أهم مرتكزاتها ، ولهذا فإن الإشتراكية العلمية تعد من إحدى المناهج التي تسعى إلى فهم الظواهر الإجتماعية والإقتصادية وتعليلها عبر تحليل الإتجاهات التاريخية التي تتحكم بتلك الظواهر بهدف الوصول إلى النتائج والتطورات المحتملة . إستخدم إنجلز مصطلح الإشتراكية العلمية في عام ١٨٨٠ . أنظر :

Engels, Frederick, Socialism: Utopian and Scientific, Translated By: Edward Eveling, Chicago, Charles H. Kerr & Company, 1907, p.27; Hawkesworth & Kogan (eds.), Mary & Maurice, Encyclopedia of Government and Politics, London, Routledge, 2001, Vol.I, p.155; Osgood, Herbert L., Scientific Socialism, *Political Science Quarterly*, The Academy of Political Science, Vol.1, No.4 (Dec. 1886), pp.560-594; The Secular

ولم يقتصر ذلك الترويج في الدوريات العلمانية على الطروحات المدنية الإشتراكية ، بل أدى كذلك إلى إطلاق شرارة جدالات حامية على صفحاتها ، فضلاً عن مناظرات جدالية بين زعماء الإشتراكية والعلمانية مثلما حدث بين هايندمان وبرادلو في قاعة St. James's Hall في ١٧ نيسان ١٨٨٤ ، في الوقت الذي وجّهت فيه بزنت سهام النقد إلى هايندمان واصفةً إياه من خلال دورية The National Reformer بأنه لا يمتلك أدنى معرفة بتاريخ حركات الطبقات العاملة البريطانية[١] . ومع ذلك ، يمكن القول بأن غالبية العلمانيين تقريباً كانوا ذوي نزعة فردية راديكالية متأثرة بطروحات جون ستيوارت مل وسبنسر وبرادلو[٢] . وفي الواقع إن تناغم العمل الإشتراكي- العلماني يمكن تلمّسه في فرعي الجمعية العلمانية الوطنية في نوتنغهام ولستر ، إذ كانا بحق ملاذاً للمحاضرين الإشتراكيين على غرار وليم موريس ، على الرغم من إن سنل لم يتحول لإعتناق الأفكار الإشتراكية عن طريق المحاضرين الإشتراكيين ، بل جاء على إثر تحول واحد من أعظم أنصار برادلو لإعتناق طروحاتها ألا وهي بزنت[٣] .

وعلى إثر رحيل أيفلنغ عن الجمعية العلمانية الوطنية قامت بزنت بتجنيد جون روبرتسون John Robertson ليحل محله في دورية The National Reformer ، ونتيجة لتأثيره بدأ عداؤها للحركة الإشتراكية بالتحول نحو الإعتدال ، إذ لم يتفق روبرتسون مع هايندمان فكرياً ، فلم يؤمن بإحتكار الدولة أو بالثورة ، إلا إنه إعتقد بأن الإشتراكية شأنٌ مثاليٌ يمكن نيلها عن طريق الإصلاحات التدريجية ، وإقتنعت بزنت

Review, 21 December 1878, 25 January 1879; The National Reformer, 31 October 1880, 20 March 1881, 25-26 November, 31 December 1882, 7 January, 4 February- 25 March 1883.

(1) The National Reformer, 27 April 1884; Royle, The Infidel Tradition, pp.174-178; The Republican, May 1884.

(2) The National Reformer, 15 June 1884; Gimson, Op. Cit., Part I, pp.20- 23.

(3) Kent, William, John Burns: Labour's Lost Leader: A Biograghy, London, Williams & Norgate, 1950, p.17; The National Reformer, 16 November 1884; Torr, Dona, Tom Mann and His Times, London, Lawrence & Wishart, 1956, p.86; Snell, Op. Cit., pp.55-57.

بهذا الطرح وحضرت في ٢١ كانون الثاني ١٨٨٥ إجتماعاً عقدته جمعية لندن الجدلية ، وفي هذا الاجتماع قام جورج برناردشو بالدفاع عن الإشتراكية ، وأبدى دهشته حينما شاهد بزنت تقوم بإعتناق آرائه ومبادئه وتطالبه بإنضمامها إلى الجمعية الفابية(١) . بعد ذلك بدأت بتطوير عقيدتها الجديدة من خلال سلسلة من المقالات تحت عنوان «تطور المجتمع» ، وهي السلسلة التي تم نشرها في دوريتها الجديدة المعنونة Our Corner خلال تموز- تشرين الاول ١٨٨٥ . وعلى إثر نشر دورية The Freethinker إستطلاع عن هذه السلسلة أشار فوت إلى أن بزنت قد أصبحت إشتراكية بكل مافي الكلمة من معنى . لذلك فإن خطوط الإنقسام قد تبينت من خلال تباينات الزعماء العلمانيين : إذ وقف فوت بالضد من روبرتسون وبزنت ، أما برادلو فقد وقف على مضض مع الطرف المعارض لبزنت(٢) . ويمكن القول إن الأحقاد والعداوات الشخصية قد أسهمت بدورها في إذكاء وتوسيع هوة الصراع الحاصل بين

---

(١) الجمعية الفابية Fabian Society : جمعية إشتراكية بريطانية أُسست في لندن خلال ١٨٨٣-١٨٨٤ ، إنصب هدفها الأساس على تأسيس دولة إشتراكية ديمقراطية في بريطانيا بالطرق السلمية لا الثورية . كان من أبرز أعضائها ومؤسسيها الأوائل سدني ويب Sidney Webb (١٨٥٩-١٩٤٧) وبياتريس ويب Beatrice Webb (١٨٥٨-١٩٤٣) والروائي الشهير برناردشو . أُشتق إسمها من إسم القائد الروماني فابيوس ماكسيموس Fabius Maximus الذي عُرف بتجنبه المعركة المباشرة مفضلاً عليها هجمات صغيرة وسريعة لإنهاك الخصم في المعركة ، ولهذا كان هذا الإشتقاق كناية عن رفض التغيير الثوري والقسري وتحبيذ الطرق التدريجية الإصلاحية . أنظر :

Stigler, George J., Bernard Shaw, Sidney Webb, and The Theory of Fabian Socialism, *Proceedings of The American Philosophical Society*, American Philosophical Society, Vol.103, No.3 (Jun. 15, 1959), pp.469-475; Encyclopedia Britannica, CD., 2010.

وإنضمت بزنت إلى الجمعية الفابية في عام ١٨٨٥ ، وكان أول خطاباتها فيها في تموز ١٨٨٥ . أنظر :

The Progress, June 1884; Nethercot, First Five, p.231; Nethercot, Arthur H., G.B.S. and Annie Besant, *Bullentin (Shaw Society of America)*, Penn State University, Vol.1, No. 9 (September, 1955), p.4.

(2) The Freethinker, 4 October 1885; The National Reformer, 12 February- 20 September 1885, 14 March 1886.

بزنت وفوت . ففي دورية The Progress إستعرض روبرتسون جداله مع فوت- إذ ذكر الأخير بأن الهجمة الإشتراكية على النظام الرأسمالي تحركها أصابع خفية في حزب المحافظين(١) ، فقد كان أمر إرتداد بزنت عن طروحاتها السابقة بما يتعلق بالعلمانية الصريحة أكثر من أن يتحمله فوت لذلك قام بشن هجمة شاملة عليها(٢) .

برزت قدرة بزنت ، بوصفها إشتراكية ، في مواهبها ومهاراتها في الكتابة وإلقاء المحاضرات . وبدلاً من أن تنضم إلى الإتحاد الديمقراطي الإشتراكي قامت بتوظيف طاقاتها لصالح الجمعية الفابية ، وسعت إلى أقصى مدى لضم العلمانيين والليبراليين إلى صفها . وفي شباط من عام ١٨٨٦ سعت إلى توسيع نشاط الجمعية الفابية وإنشاء فروع إقليمية من أجل تفعيل النشاط الدعائي ، وقامت بعد مدة بإفتتاح فروع للجمعية في كل من أدنبره ودبتفورد . وفي كانون الثاني ١٨٨٧ قامت بحذف قسم التسلية والأحاجي من دورية Our Corner وإستبدلته منذ شهر آذار بقسم جديد أُطلق عليه إسم «الجمعية الفابية وملاحظات إشتراكية» ، بعد ذلك أصبحت واحداً من أعضاء الهيئة التنفيذية للجمعية الفابية البالغة ٧ أعضاء ، ثم قامت بتنظيم مؤتمر في ساوث بليس في ٩-١١ حزيران بهدف توحيد الجهود المبذولة من جانب الراديكاليين والإشتراكيين والمصلحين الإجتماعيين ، إلا أن فوت أشار إلى أن الإتحاد الراديكالي للعاصمة قد تم إقامته أساساً من أجل هذا الغرض(٣) .

وعلى الرغم من علاقة الصداقة التي ربطت برادلو ببزنت ، إلا أن شراكتهما أصابها التصدع في عام ١٨٨٧ ؛ إذ رفض برادلو الموافقة على الطلب الذي قدمته للإستقالة من منصب مساعد محرر دورية The National Reformer ، لكنه وافق عليه حينما عاودت تقديمه في شهر تشرين الاول ١٨٨٧ . وبعد ذلك خاض الإثنان في الربيع والصيف مناظرة مكتوبة عبر الاعمدة التي نشرتها دورية Our Corner ، وفيها وصف برادلو الإشتراكية بالشيوعية كما أشار إلى أن بزنت تبالغ في التقليل من خطورة دوافع الرأسماليين ومواقفهم . في المقابل أشارت بزنت إلى أن برادلو لا يعرف

---

(1) The Progress, June 1884.

(2) The Progress, June 1886.

(3) Our Corner, March, April, June, July 1886; The National Reformer, 6 June 1886; The Freethinker, 23 May 1886.

أعداءه ، وإن أساليبه في الهجوم تتناسب مع الفوضويين والإشتراكيين المثاليين ولا تتناسب مع الإشتراكيين العلميين ، فيما بيّن برادلو بأنه لا يستطيع أن يفهم كيف يستطيع المرء أن يحافظ على ممتلكاته الشخصية في ظل النظام الإشتراكي(١) .

لقد إستطاع الإشتراكيون ، في أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر ، التغلغل إلى العديد من الجمعيات العلمانية ؛ ففي لستر كان المحاضرون من مشارب عدة ، فمثلاً هنالك ووردسورث دنستورب Wordsworth Donisthorpe وفردريك ميلر Frederick Millar من عصبة الدفاع عن الليبرالية والمُلكية Liberty and Property Defence League ، إذ ذكر سدني غيمسن قائلاً : «**بين صفوفنا وجماهيرنا إلتهبت المناقشات الدائرة بشأن الفردية والإشتراكية على نحو محموم . . . لكن يجب أن أعترف بأن هناك العديد من حالات التحول بإتجاه الإشتراكية على نحو سريع**» . ففي الوقت الذي أعلنت فيه الجمعية العلمانية لساوث إسكس South Essex Secular Society في ويستهام ، خلال الإنتخابات العامة لعام ١٨٩٢ ، ميلها لصالح جوزف لستر Joseph Leicester الذي دعم التعليم العلماني ، صوّت غالبية الأعضاء لصالح الإشتراكي الإسكتلندي جيمس كير هاردي James Keir Hardie (١٨٥٦-١٩١٥) زعيم حزب العمال المستقل(٢) . في حين إتجه جورج ستاندرنك ،

---

(1) The National Reformer, 23 October 1887; Our Corner, March, April, June 1887.

(٢) حزب العمال المستقل Independent Labour Party ، أو ما يعرف إختصاراً .I. L. P : حزب سياسي إشتراكي ، تأسس في بريطانيا عام ١٨٩٣ تحت زعامة جيمس كير هاردي ، وعلى إثر ترشح ممثلي الطبقة العاملة من السياسيين للإنتخابات البرلمانية بإعتبارهم «العمال الاحرار» فجاء هذا التأسيس بغية ضمان عودة هؤلاء المرشحين للإنضمام إلى هذا الحزب ومنعاً لإرتباطهم بحزب الأحرار . طالب بالكثير من الإصلاحات الإجتماعية والإقتصادية ذات الطابع الإشتراكي كجعل الحد الأقصى للعمل ثمان ساعات في اليوم ، وتحديد الحد الأدنى للأجور بست بنسات في الساعة ، ومنح الهيئات المحلية سلطات متعددة تمكنها من الحصول على الارض ورأس المال ، وترتيب معاشات من الدولة لمن يتجاوزون سن الخمسين ، وجعل التعليم مجاناً حتى المرحلة الجامعية ، ورفع سن العمل للأطفال ، وإشراف المجالس البلدية على تجارة الخمور ، وإلغاء الضرائب غير المباشرة ، وفرض ضرائب على الدخول التي لا تكتسب من العمل إلى حد إستنفاذها كلها . وكان أبرز مطلب أصر عليه الحزب في منهاجه وإعتبره أساسياً هو توفير العمل للعاطلين . ولم يكن لهذا الحزب أية علاقة =

الذي كان في الأساس معارضاً للإشتراكيين ، نحو الجمعية الفابية ، وحث في عام ١٨٩٢ العلمانيين على التعاون معهم ، وعلى غرار ذلك ، قام روبرتسون من خلال دورية The National Reformer بتكريس المنطلقات الفكرية للإشتراكية المعتدلة على الرغم من عدم إستساغته إستخدام إنجلز لكلمة البرجوازية في إطار النقد النزيه وضمن النصوص الإنكليزية(١) .

في المقابل إعتقد فوت بعدم وجود أي علاقة بين الطرفين وأن مكمن قوة الجمعية العلمانية الوطنية ما زال ناجماً عن الأعضاء غير الإشتراكيين ، وإن هؤلاء الأعضاء سيغادرون الجمعية العلمانية الوطنية بمجرد تحولها نحو الإشتراكية . وأَمِلَ بأنه من خلال التركيز على تدمير الخرافة المسيحية القائلة بأنها : «**المرحلة التمهيدية التي لا غنى عنها لجميع صور الإصلاح المطلوب المتسم بالحكمة**» ، سيصبح بالإمكان الحفاظ على شمل الحركة ووحدتها . وعلى أية حال ، ففي الوقت الذي إعتقد فيه الإشتراكيون الأقحاح بأن الأساس الإيديولوجي للمجتمع هو الرأسمالية وليست المسيحية ، فإن مجرد عدم إعتراض فوت على هذا التصور كان بمثابة الإعلان بأن الجمعية العلمانية الوطنية هي جمعية معارضة للإشتراكية . وأدى موقفه هذا إلى جعل الإشتراكيين من أعضاء الجمعية العلمانية الوطنية يغادرونها الواحد تلو الآخر . أما سنل فقد تخلى عن الجمعية وغادرها في عام ١٨٩٥ ، «**ليس بسبب حدوث أي من التغيرات الجوهرية في الأراء ، بل بسبب تحول الزعامة فيها نحو تفرُّد شخصي**» . وعلى الرغم من أن إتحاد الفكر الحر لم يكن من الهيئات الإشتراكية ، إلا أن العديد من الإشتراكيين إنجذبوا إليه ، ومن بينهم جورج ستاندرنك ، إذ دعت دورية The Jerusalem Star العلمانيين إلى

= مع حركة نقابات العمال حتى عام ١٩٠٠ حينما ساعد في تأسيس لجنة التمثيل العمالية Labour Representation Committee التي أفضت إلى تأسيس حزب العمال البريطاني في عام ١٩٠٦ .
أنظر : بالمر ، المصدر السابق ، ج١ ، ص ٣٨٤ ؛ بواريير ، المصدر السابق ، ص ص ٢٥-٣٤ ؛ دروز وآخرون ، المصدر السابق ، ٢٠٠١ ، ج٢ ، ق٢ ، ص ص ١٠٠-١١٩ ؛

Kenyon, Op.Cit., p.185; Royle, Radical, PP.76-79.

(1) Gimson, Op. Cit., Part I, p.25; The National Reformer, 3 July, 4 December 1892; The Freethinker, 17 January 1892.

عدم إبداء العداوة تجاه الإشتراكيين ، أما دورية The Secular Work فقد طالبت العلمانيين بالإنغماس في القضايا السياسية[1] . ومع ذلك يمكن القول إن عدد العلمانيين المعارضين للتوجه الإشتراكي في آواخر القرن التاسع عشر كان كبيراً[2] ، إذ لم يُقدّر حتى لإتحاد الفكر الحر إعلان إنتمائه للإشتراكية[3] ، ولهذا كان مردود إحتكاك العلمانيين بالإشتراكية قد أفادهم بالمحصلة[4] . ومثلما إستطاعت النزعة العلمانية توحيد صفوف ذوي التوجهين الفردي والإشتراكي بالضد من الدين ، كذلك تمكنت الإشتراكية من توحيد صفوف العلمانيين والمسيحيين بالضد من الرأسمالية[5] . ولم يكن فوت ولا أولئك الذين على شاكلته قادرين على إستيعاب كيف يمكن للمرء أن يكون مصلحاً ومسيحياً في الوقت ذاته . بل لم يُقدّر للجمعية العلمانية الوطنية التحول والإندماج بحزب العمال المستقل كلياً لأن ذلك سيغدو بعين الكثير من العلمانيين تخلياً صريحاً عن برنامج الفكر الحر العلماني التقليدي الذي ترعرت عليه[6] .

لقد حاولت المراكز الصناعية في كل من لانكشاير ويوركشاير وتاينيسايد ومدلاند تدارك الوضع وإندفعت لإنشاء إتحاداتها الخاصة بها وتعيين محاضريها ، وكانت هذه الإتحادات تحاكي إتحاد لندن العلماني . وبادر برادلو ، خلال المحاضرات التي ألقاها ، إلى تحفيز الأعضاء على تأسيس فروع جديدة أو على إحياء الفروع القديمة ، في الوقت الذي إنتقدت فيه الفروع المختلفة الطريقة الإستبدادية التي إتسم

---

(1) The Freethinker, 3 February 1895; Snell, Op. Cit., p.156; The Jerusalem Star, October 1895; The Secular Work, June, July 1896.

(2) The Secular Work, November, December 1896.

(3) The Secular Work, September 1896.

(4) The Freethinker, 30 November 1902.

(5) McLeod, Hugh, Varieties of Anticlericalism in Late Victorian and Edwardian England, in: Aston & Cragoe (ed.), Nigel & Matthew, Anticlericalism in Britain c.1500-1914, Gloucestershire, Sutton Publishing Limited, 2001, p.202.

(6) The Truth Seeker, November 1896; The Freethinker, 14 October 1900; The Radical, February 1897.

بها خلال إدارته للجمعية العلمانية الوطنية وتفرده في إلقاء المحاضرات العلمانية . ولكن عند المقارنة بين برادلو وفوت نجد إن ثمة إختلافاً في الأسلوب القيادي بينهما ؛ إذ أن برادلو كان رجلا مقاتلاً ، حتى إنه نَسبَ النجاحات السابقة التي حققتها الجمعية العلمانية الوطنية إلى الحملات العظيمة التي قامت بها ، وكان مؤمناً إنه من الممكن إعادة الأيام الخوالي إلى الوجود والإرتقاء مرة أخرى بالواقع العلماني فقط لو إمتلك الأعضاء إستعداداً ورغبة في إلقاء أنفسهم في حملات جديدة ضد قوانين الإلحاد والتجديف ، أما فوت فقد كان بيروقراطياً آمن على نحو كامل بإعادة التنظيم[1] . فاللجنة التنظيمية التي ترأسها فوت قد إستولت على العديد من النشاطات الخاصة بالهيئة التنفيذية ، مما أدى إلى وضعه في موضع إدارة الجمعية العلمانية الوطنية قبل سنة كاملة من إستقالة برادلو[2] . وإرتفع عدد الأعضاء من ٤٩٢ عضواً في عام ١٨٨٩ إلى ٧٠٩ عضواً في عام ١٨٩٠ ثم ٧٩٤ عضواً في عام ١٨٩١ ، ثم ١٠٧٤ في عام ١٨٩٢ ، وهو أعلى تعداد منذ عام ١٨٨٥ ، وقفز عدد الفروع من ٥ في عام ١٨٨٩ إلى ١٤ في عام ١٨٩٢ . وربما عُزيَ هذا التحسن إلى اللجنة التنظيمية وإلى حد ما إلى تخفيض رسوم الإشتراك في عام ١٨٩٠ من ٤ شلن وشلن واحد وأربع بنسات إلى ١ شلن و ٦ بنسات . ولكن على الرغم من ذلك فإن هذا الإنتعاش لم يستمر سوى لمدة قصيرة ، إذ بحلول عام ١٨٩٣ عادت جميع المؤشرات إلى الإنحدار مرة أخرى[3] .

إرتكزت قوة برادلو ونفوذه على نقطتين أساسيتين هما : الشعبية والنجاح ، فنتيجة لتمتعه بهاتين الخصلتين باءت جميع محاولات فوت بتحديه خلال سبعينيات القرن التاسع عشر بالإخفاق ، ولكن وبعد أن أصبح الأخير في موقع الزعامة خلال تسعينيات القرن التاسع عشر فقد إختلفت الأمور إلى حد بعيد ، إذ إعترف في عام ١٨٩١ قائلاً : «**إن التاريخ بأسره يبين لنا إن الزعامة هي أمر لا غنى عنه ، فإن ألغينا السلطة المسؤولة ، فكل ما سنحصل عليه هو سلطة غير**

---

(1) The Freethinker, 16 July 1899, 12 October 1890.

(2) Royle, Radicals, p.38.

(3) The National Reformer, 16 June 1889; The Freethinker,1 June 1890, 24 May 1891, 12 June 1892.

مسؤولة . **وخلال أيام شبابي كنت أعتقد عكس ذلك تماماً»**[1] . إن المشكلتين الأساسيتين اللتين واجهتا فوت خلال مدة زعامته خلفاً لبرادلو تمثلتا بنفوذ الاخير وسمعته الواسعة ، فقد عَزم فوت منذ البداية على أن تصبح الجمعية العلمانية الوطنية ملكاً له ، لكن هذه الجمعية كانت قد إقترنت بإسم زعيمها لمدة طويلة . وكتب في دورية The Secular Almanack في عام ١٨٩٤ مشيراً إلى وفاة برادلو وتراجع العلمانية تحت زعامته قائلاً : «**إن نشاط أي حزب لا يعتمد ولا يتوقف على مثل هذه الأحداث الشخصية ، صحيح إن الحركة العظيمة لا يمكن أن تستمر من دون حدوث تغيرات جذرية»**[2] . وعلى الرغم من هذه التوكيدات ، لم يكن للجمعية العلمانية الوطنية هذه القدرة ، أما العصر الذهبي في زمن برادلو فقد كان مبنياً على إنجازاته الشخصية ، لذلك فقد كُتبَ على الجمعية أن تقاسي الأمرّين بعد وفاته ، فقد كانت المشكلات المادية محور جميع المشكلات التي عانت منها الجمعية حتى أصبحت هاجساً يطارد فوت ، إذ أن ضعف الجمعية قد عني إختفاء موارد الدخل الذي بدونه لا يمكن إنعاش التنظيم ، لذلك شيئاً فشيئاً إتضح أن تعامل فوت مع أعضاء الجمعية ما هو إلا سعي مرير من أجل المال[3] .

وتم طرح هذه المشكلة في جدال بشأن مستقبل قاعة برادلو الشهيرة قاعة العلوم التي إنتهت مدة إيجارها المدفوعة ؛ ففي عام ١٨٩١ قام فوت بدفع مبلغ ٢٥٠ جنيه إسترليني لروبرت أوين سمث Robert Owen Smith لقاء إستخدام الملكية لموسم واحد ، إلا أن هيبشيا برادلو كانت قد إقترحت في تلك المرحلة أن تقوم الحركة بالتبرع لشراء القاعة وأن يطلق عليها إسم قاعة برادلو التذكارية . وكان الزعيم العلماني جون ماكينون روبرتسون John Mackinnon Robertson (١٨٥٦-١٩٣٣) رئيس تحرير دورية The National Reformer قد دعمها في هذا المقترح . لقد رغب فوت في أن تتوصل الجمعية العلمانية الوطنية إلى ترتيب أبعد وأكثر ديمومة فيما يتعلق بإستخدام قاعة العلوم ، إلا أنه أخفق في جمع الاموال اللازمة لهذا الغرض ، وفي عام ١٨٩٥ فُقدت

---

(1) The Freethinker, 10 May 1891.

(2) The Secular Almanack, 1894, p.17.

(3) Royle, Radicals, p.39.

هذه القاعة على نحو دائم[١] . إن العزاء الوحيد الذي كان مصدراً للمواساة لدى فوت هو حصوله على دعم تشارلز واتس الذي عاد إلى وطنه من كندا بعد وفاة برادلو في عام ١٨٩١ . وخلال تسعينيات القرن التاسع عشر إجتهد واتس في العمل ، ولكن فيما بعد إشتبه فوت بأنه راح يقدم الدعم لمؤسسة إبنه المنشأة حديثاً وهي رابطة الصحافة العقلانية Rationalist Press Association التي عارضت مصالح الجمعية العلمانية الوطنية ، لذلك وللمرة الثانية في حياته وجد واتس نفسه منبوذاً من رئيس الجمعية التي سبق وأن قدم لها الكثير[٢] .

أما على صعيد نشاط الدوريات ، فقد تمركز العداء في لندن في دوريتين صغيرتين من الدوريات العلمانية هما : The Jerusalem Star الدورية اللا دينية الشهرية المكونة من أربع صفحات ورئيس تحريرها رامزي خلال حزيران ١٨٩٥- ايلول ١٨٩٦ ، أما الأخرى فهي دورية أكثر جدية وبعدد الصفحات نفسها تدعى The Secular Work تأسست لغرض إنتقاد الجمعية العلمانية الوطنية وزعيمها في مايس ١٨٩٦[٣] . وإنتقدت دورية The Jerusalem Star ، فوت ذاكرة : «**كان تشارلز برادلو معروفاً في عموم أنحاء بريطانيا العظمى قبل أن يخوض صراعه البرلماني بمدة طويلة وكانت الجماهير تتجمع حوله أينما حل . . . وإن أولئك الذين إستمعوا إليه في محاضراته المناهضة للاهوت . . . سرعان ما أصبحوا علمانيين . وإنه من المعروف تماماً لدى الجميع إن مئات الأعضاء كانوا قد إنتموا إلى الجمعية العلمانية بهذه الطريقة**»[٤] . ولطالما صمدت مدرسة هوليوك العلمانية أمام مدرسة برادلو وفوت وذلك لكون العمل العلماني البنّاء كان الهدف الرئيس للعلمانيين . وفي حقيقة الأمر كان لفوت أراؤه الشخصية فيما يتعلق بالقضايا الإشتراكية ، إلا أنه كان مدركاً تماماً إن نصف أنصاره الإشتراكيين سوف لن يتقبلوا بقية رؤاه النقدية . إن لسان

---

(1) The National Reformer, 13 September 1891, 13 March, 5 June 1892; The Freethinker, 5 July, 13, 20 September 1891, 7, 14, February, 13 March, 15, 29 May, 16 October 1892, 10 May 1896.

(2) Royle, Radicals, p.39.

(3) The Secular Work, January 1897.

(4) The Jerusalem Star, December 1895.

حال رئيس تحرير دورية The Secular Work لم يكن إشتراكياً على نحوٍ كامل ، إلا أن هذه الدورية قد عملت على تقديم وإيصال كلا الصوتين الإشتراكي وغير الإشتراكي وتذمراتهما بشأن الجمعية العلمانية الوطنية في عهد زعامة فوت . وحينما أُنشأ إتحاد الفكر الحر في عام ١٨٩٦ ، كان زعيمه جورج ستاندرنك عضواً من أعضاء الجمعية العلمانية الوطنية إلا أنه إستقال منها في عام ١٨٩٤ بعد ١٦ عاماً من العمل إحتجاجاً على حالة الشلل التي أصابت الجمعية منذ وفاة برادلو . وأنشأ هذا الإتحاد تحت مسمى نادي ومؤسسة برادلو Bradlaugh Club and Institute ، وعقد إجتماعاته في القاعة العلمانية في The Ball's Pond Road التي كانت مقراً سابقاً لاحد فروع الجمعية العلمانية الوطنية ، وكان مجلسه المتألف من جمع مهم من الأعضاء البارزين في الجمعية من بينهم ستاندرنك ورينولدز وجيمس أندرسون James Anderson المدير السابق لنادي قاعة العلوم Hall of Science Club الذي تم طرده من الجمعية العلمانية الوطنية لإتهامه فوت بسوء التصرف المالي[١] .

وعلى الرغم من وجود هذا الدعم المؤثر ، إلا أنه لم يحقق تقدماً ملحوظاً ، كما إن دورية The Reason التي أطلقها ستاندرنك في شهر آذار ١٨٩٨ لم تصمد سوى لأعداد قليلة وتمكنت من إصدار تقارير عن ثلاث جمعيات وهي : عن فرع فنزبري السابق التابع للجمعية العلمانية الوطنية وجمعية ريجنت بارك للفكر الحر The Regent's Park Freethought Society وجمعية ويستمنستر العلمانية Westminster Secular Society ، وجمعية نوتنغهام للفكر الحر Nottingham Freethought Society[٢] . وبحلول عام ١٨٩٩ كان ما يزال بإمكان فوت أن يواسي نفسه من خلال الإعتقاد بأن نجاح برادلو وسنوات الإزدهار تحت زعامته لم تكن سوى وهم وسراب ، وإن جوهر الفكر العلماني ما زال قائماً ، وعلى الأرجح كان فوت محقاً في ذلك ولكن في عام ١٨٩٩ كان عدد أعضاء الجمعية قد تدنى إلى ما دون الألف عضو[٣] . فقد تعرضت الجمعية العلمانية الوطنية إلى تغيير كامل في طبيعتها خلال المرحلة الممتدة بين وفاة برادلو عام ١٨٩١ ولغاية نهاية العصر الفكتوري في عام ١٩٠١ ، إذ إنها تحولت

---

(1) The Radical, February 1897.

(2) The Reason, 3 April 1898.

(3) The Secular Almanack, 1900, p.9.

من كونها تنظيم وطني تحت جناحه فروعاً منتشرة في جميع أنحاء البلاد ووجوداً فاعلاً في لندن متمحوراً حول شخصية برادلو ونشاطاته ، إلى مجموعة ضغط صغيرة لا تمتلك حتى موقعاً لعقد المحاضرات المغلقة في لندن ولا تمتلك سوى عدد ضئيل من الفروع في الأقاليم الأخرى . وحتى هذه الفروع فإن تلك التي بقيت على نشاطها مالت للتذمر من تدخل الجمعية في شؤونها ، بل أن العديد منها قد توقف عن إرسال حصته من الإشتراكات التي أصبحت شلناً واحداً بعد عام ١٨٩٧[١] .

سادساً: ركائز النشاط الفكري العلماني وملامحه خلال مرحلة الذروة

خلال ثمانينيات القرن التاسع عشر ومطلع تسعينياته إرتفع عدد الجمعيات من ١٦ إلى ٢٩ جمعية ، ولم يتدهور هذا العدد إلا في نهاية القرن التاسع عشر ، إذ إنحدر ليصل إلى ما دون العدد الذي كان عليه في سبعينيات القرن التاسع عشر[٢] . وفي عام ١٨٨٨ أشار فوت إلى أن ويستهام تعد من إحدى ضواحي الطبقات العاملة الجديدة التي قطنتها عوائل نزحت من فنزبري وإستهوتها مقادير الإيجار المنخفضة وسهولة السفر الذي كان متاحاً نتيجة لتوفر القطارات الخاصة بالطبقة العاملة . وأن الأمر ذاته إنطبق على Forest Gate حيث تم تأسيس جمعية علمانية هناك في عام ١٨٩٢ من فرع ويستهام[٣] .

وفي عام ١٨٨٢ تم تأسيس فرع لشمال غرب لندن تابع للجمعية العلمانية الوطنية ، وإستمر هذا الفرع لغاية عام ١٩٠١ وغدا مدة من الزمن مركزاً للجمعية العلمانية الوطنية بعد إغلاق قاعة العلوم في عام ١٨٩٥[٤] . وثمة مجموعة ناشطة أخرى إجتمعت في متنزه فنزبري وإيسلنغتن Islington ومناطق Ball's Pond Road في شمال لندن . ومع ذلك أثبت نادي ومؤسسة برادلو إن برادلو أكثر علمانية من

---

(1) The Freethinker, 13 June 1897, 25 May 1902.

(2) Royle, Radicals, pp.333-334.

(3) The Radical Leader, 6 October 1888; The National Reformer, 19 October 1890, 8 May 1892.

(4) The National Reformer, 10 September 1876, 7 Janurary 1877; The Freethinker, 7 December 1884.

العلمانيين من حيث المظهر الخارجي ، إذ إنحل الفرع الموجود هناك في عام ١٨٩٢ على الرغم من إستمرار وجود جمعية مستقلة لغاية عام ١٨٩٩ دعمت إتحاد الفكر الحر[١] . وإن إمتداد العلمانية ، فضلاً عن الشمال ، إلى الضواحي الجديدة في توتنهام هو إنجاز نُسِبَ إلى حد بعيد إلى سام ستاندرنك الذي أطلق الإتحاد العلماني لشمال مدلسكس The North Middlesex Secular Federation في عام ١٨٩٠ ، من أجل توحيد الجمعيات التي قام بتشكيلها في هورنسي Hornsey وأدمنتون وتوتنهام وأولد ساوثغيت Old Southgate . وكان الفرع الذي أقامه في أدمنتون من أكثر الفروع نجاحاً ، إذ إنه إستمر خلال المدة ١٨٨٩-١٩٠١[٢] .

كانت باترسي من الضواحي الجديدة ، فقبل عشرين عاماً إستذكر فوت في دورية The Radical Leader عام ١٨٨٨ عنها قائلاً : «**مقاطعة شبه ريفية ظهرت لتوها من بستان خضار لتزويد السوق ومن بين حقول الطابوق**» . وكتب تشارلز بوث Charles Booth في العام اللاحق بشأن أرض شافتسبري Shaftesbury Estate في باترسي قائلاً : «**هنا يتواجد الجزء الواعي للإشتراكية على نحو كبير . . . وهي ربما تعبر عن نمط حياة الحرفي المثقف في لندن**» ، وهي بذلكً تمثل أرضاً خصبة لتوالد العلمانية ، وأن فرع باترسي هو بمثابة القابلة للإشتراكية في تلك المنطقة[٣] . ومع الضعف الذي حل بالجمعية العلمانية الوطنية بعد منتصف ثمانينيات القرن التاسع عشر ، ظهرت الحاجة مرة أخرى إلى جهد من نوع خاص في الجانب التنظيمي في بعض فروع لندن . وسعياً وراء تحقيق هذا الهدف شكل فوت إتحاد لندن العلماني في عام ١٨٨٨ من أجل تقوية الفروع العلمانية ونشر الفكر العلماني في أرجاء لندن . وإنتسب لهذا الإتحاد ١٦ فرعاً ، وأصبح جورج ستاندرنك سكرتيراً له . ولم يتمحور الهدف في تنسيق المحاضرات فحسب ، بل العمل على

(1) The National Reformer, 9 November 1890; The Freethinker, 31 May, 27 October, 3 November 1895; The Jerusalem Star, November 1895.

(2) The Radical, April 1889; The Freethinker, 21 July 1889; The National Reformer, 26 October 23, 30 November 1890.

(3) The Radical Leader, 18 August 1888; Booth, Op. Cit., Vol.I, p.294; The Secular Work, July 1896.

إبداء التعاون مع المجموعات الراديكالية الأخرى لوضع الضوابط الخاصة بالمرشحين لإنتخابات المجلس المدرسي . وخلال مدة وجيزة أبدت الفروع إمتعاضها من محاولات فوت تحجيم دورها[١] . وتدريجياً بدأ مستوى العمل في الأماكن المغلقة بالتراجع ، لذلك نجد إنه وبإستثناء المحاضرات التي تم إجراؤها بعد إغلاق قاعة العلوم في قاعة ملتن وقاعة St. James's Hall وقاعة أثنيوم Athenaeum Hall فإن معظم النشاط كان قد جرى في الأماكن المفتوحة في متنزهات لندن وفي الحانات ، وإستمرت هذه النشاطات على الرغم من أن مجلس مقاطعة لندن لم يكن يسمح دائماً بحرية الكلام والتعبير ، ولم تتمكن من الإستمرار في برنامجها التقليدي في إعطاء المحاضرات في الأماكن المغلقة بمفردها سوى فروع قليلة ولا سيما تلك التي تقع في كمبرول وباترسي وويستهام[٢] .

أدى المانع الذي وقف حائلاً أمام توسع الفكر العلماني خلال منتصف ثمانينيات القرن التاسع عشر إلى الإهتمام بدعم التنظيمات الإقليمية في لانكشاير ، وقد جاءت الخطوة هذه المرة من ليفربول وبدعم من جمعية مانشستر . وفي كانون الثاني ١٨٨٧ أفضى إجتماع بعض الممثلين عن الجمعيات إلى تشكيل إتحاد الفكر الحر للانكشاير ومقاطعتها Lancashire and District Freethought Federation لصالح الفروع المحلية التابعة للجمعية العلمانية الوطنية . وكما هو الحال مع الجهود السابقة جميعاً فإن هذا النجاح إستمر لبعض الوقت ، وجاءت الخطوة الأخرى من ليفربول في عام ١٨٩٠ حينما دعت إلى إعادة تأسيس الإتحاد ، ولهذا وجهت دعوة إلى سام ستاندرنك ليغدو منظماً دائماً ، وليستقر على إثرها في روتشديل حيث تمكن هناك من إحداث تأثير فاعل على نحوٍ مميز لغاية وفاته المبكرة في عام ١٨٩٥[٣] . أما في يوركشاير فعلى الرغم من وجود دائرة المحاضرة الخاصة لويست ردنك يوركشاير منذ عام ١٨٧٣ ، إلا أنها سرعان ما إختفت وإنبثقت من جديد تحت مسمى رابطة

---

(1) The Freethinker, 27 November 1887, 22 January, 17 June 1888, 27 October 1889, 17 January 1891; The National Reformer, 5 February, 17 June 1888.

(2) Royle, Radicals, p.51.

(3) The National Reformer, 5 December 1886, 23 January, 2 October 1887, 2 February, 13 July 1890; The Freethinker, 2 February, 13 July 1890, 29 May 1892.

الدعاية العلمانية في شمال إنكلترا The North of England Secular Propaganda Association في عام ١٨٨٣ بعضوية بلغت ٥٠٠ شخص . وفي عام ١٨٩٠ إنبثق الإتحاد العلماني في يوركشاير Yorkshire Secular Federation الذي تحول إلى الإتحاد العلماني ليوركشاير ولانكشاير Yorkshire and Lancashire Secular Federation في عام ١٨٩٢ عندما حضر سام ستاندرنك إلى روتشديل بوصفه محاضراً[١] . لقد ساعد هذا النوع من العمل الإقليمي العديد من الجمعيات في يوركشاير في صراعها للبقاء مع مقدم القرن الجديد . وفي عام ١٨٩٥ قام كوهين بجولة لإلقاء المحاضرات وأنعش خمسة فروع ، وفي عام ١٩٠١ أصبح بيرسي وورد سكرتيراً للإتحاد العلماني لشمال إنكلترا North of England Secular Federation الجديد الذي سرعان ما غدا تحت إسم العصبة العلمانية البريطانية التي إنصب هدفها على نشر العلمانية في المناطق التي لم تعد الجمعية العلمانية الوطنية نشطة فيها ، وكان ذلك بمثابة إستجابة إقليمية حينما أصبحت الأخيرة مجرد تنظيماً خاصاً بلندن أكثر من اللازم[٢] .

لقد شهد منحى التطور العلماني في منطقة الشمال الشرقي خلال ثمانينيات القرن التاسع عشر ، توسعاً كبيراً في النصف الاول من العقد ثم سرعان ما شهد إنكماشاً فيما بعد ، إلا أن مرحلة الإنتعاش في نهاية العقد في هذه المنطقة كانت أكثر إنتشاراً وأطول بقاءً عما هو عليه في الأماكن الأخرى . ففي عام ١٨٨٧ وبعد زيارة قام بها فوت ، تم إنشاء فرع جديد في ساندرلاند ، وتمكن فرع نيوكاسل من الحصول على قاعة جديدة في Newgate Street في العام اللاحق ، وفي شهر آذار ١٨٨٩ حدثت محاولة جديدة للتنظيم الإقليمي حينما أنشأ فوت الإتحاد العلماني للمنطقة الشمالية الشرقية North East Secular Federation وفقاً لنموذج إتحاد لندن العلماني . إن وضع الفكر العلماني في المنطقة الشمالية الشرقية كان على نحو تقليدي كما في أجزاء عديدة من البلاد : «**إذ إن بعض فروع الجمعية العلمانية**

---

(1) The National Reformer, 5 October, 14 December 1873, 6 September 1874, 13 October 1875, 12 March, 10 September 1876, 9 September 1877, 20 April, 16, 23 November 1884, 2, 9 March 1890.

(2) The Freethinker, 29 May 1892, 8 December 1895, 31 July 1904; The National Reformer, 12 June, 4, 11, December 1892.

الوطنية قد تواجدت إسمياً بفعل حالة العزلة والعضوية الصغيرة وشحة التمويل . لذلك أصبح من المتعذر أن تقوم بأي عمل فاعل . . . ومع ذلك كانت هذه المنطقة الكثيفة السكان تعج بالمفكرين الأحرار» . فقد كان هذا الإتحاد الجديد قد إشتمل على عضوية كل من نيوكاسل وساوث شيلدز وبدلنغتن وجارو ، وقُدر له نيل خدمات عدد من المحاضرين من لندن من ضمنهم فوت وماري سودن Mary Sowden وآرثر موس الذي قضى عطلته السنوية بإلقاء المحاضرات في المنطقة . وحينما قام تشارلز واتس بجولة واسعة في المنطقة بعد عامين ، كانت الحركة العلمانية لم تزل مزدهرة على الرغم من الركود التجاري(١) .

ألقت الخلافات بين الزعماء العلمانيين ، بصورة عامة ، بظلالها على النشاط العلماني وديمومته ، إذ إن العديد منها كان نتاجاً لصراعات شخصية من أجل بعض المصالح والمنافع الآنية . وكان الأنصار المنحدرون من المناطق الريفية مالوا أكثر من غيرهم إلى إعتماد النجاح المعيار والمقياس الأوحد لتحديد نوعية القيادة وفاعليتها ، وهذا عني بالنتيجة بأنهم مالوا للشخص الذي تمكن من إستقطاب جماهير تملئ قاعات المحاضرات ، وهذا بالطبع أعطى لبرادلو الأفضلية على غيره . فقد إتفق أغلب العلمانيين مع جورج جاكوب هوليوك الذي ذكر في عام ١٨٩٧ ما يمثل السياسة التي طالما إتبعها حين قال : «**إن التنظيم وفي مرحلة معينة يصبح قيداً يكبل الفردية ، وأنا مع تنظيم بهيئة إتحاد بلا زعيم**» . إلا إن إخفاق هذه السياسة خلال خمسينيات القرن التاسع عشر قد أجبر هؤلاء على تقبل البديل الذي قدمه برادلو المتمثل بالجمعية العلمانية الوطنية المتوافقة تماماً مع زعامته عليها ، كما إن النجاح الذي تحقق خلال المدة ١٨٧٧-١٨٨٥ كان على ما يبدو مبرراً جيداً لهذه السياسة(٢) .

ولم يكن موقف هوليوك ملائماً ، فهو نادراً ما كان يبدي معارضته لمنحى الزعامة المتبع في الجمعية العلمانية الوطنية ، ولو كان قد تصرف على نحو ملائم لكانت المحاولات التي أُجريت في جميع العقود قد أدت إلى إيجاد بديل فعلي للجمعية

---

(1) The Freethinker, 27 February 1887, 17 March, 7 April, 20 October 1889, 11 May 1890, 19 February 1893.

(2) The Radical, 15 August 1897.

العلمانية الوطنية تحت كنف مبادئ أكثر تحرراً . وكان سلوك تشارلز واتس هو الآخر ، يتسم بعدم الملائمة ، إذ إنه دعم برادلو في عام ١٨٧٠ لكنه في وقت لاحق تحرك نحو منصب هوليوك ، في حين إن فوت قد تحرك في الإتجاه المعاكس . أما روس الذي كان من الممكن أن يتعاون مع واتس وليس مع برادلو أو فوت فقد كان يشاطرهما موقفهما في ضرورة الصراع ضد الكنيسة طوال حياته[١] . ومع ذلك يمكن القول إن من أكثر الأساليب الهجومية وضوحاً يمكن تلمُسها في كتابات فوت وهيفورد وسايمز وأيفلنغ مع إنطلاقة دورية The Freethinker[٢] ، وهو الأمر الذي كان من الصعب حتى على دورية The National Reformer أن تتعامل معه . وفي عام ١٨٨٨ أشار جاي . أتش . ليفي للتدهور الحاصل في العلمانية في دورية The Reformer وحبذ العودة إلى مفهوم هوليوك : «**فالفكر الحر هو أمر مفيد فقط في حالة قيامه بإزالة العوائق الضارة . أما العلمانية فهي أفضل من ذلك بكثير ، إنها دين في أفضل ما في المصطلح من معنى**»[٣] . وبطبيعة الحال فقد رفض كل من برادلو وروبرتسون هذا الأمر[٤] .

لقد إستقطبت الحركة العلمانية في القرن التاسع عشر أعداداً غفيرة من أبناء الطبقة العاملة ، وكان هؤلاء ، على الرغم من إنتمائهم لهذه الطبقة ، قد مثلوا فئة جديرة بالإحترام فيها[٥] ، إذ أشارت دورية The Freethinker في عام ١٨٨٨ : «**إن الفكر الحر يستقطب نخبة الطبقة العاملة**» . أما دورية The National Reformer فقد إدعت في عام ١٨٩٢ إن قُراءها هم من : «**نخبة أبناء الطبقة العاملة**» . ولكن قرابة نهاية القرن بدا واضحاً إن أصحاب متاجر الكتب من الموظفين الفقراء بدأوا يتبوأون مراكز مهمة في الحركة ولا سيما في لندن ، ولكن وكما أشار تشارلز بوث فإن إمتزاجاً قد حصل بين الطبقتين العاملة والوسطى بطريقة ودية منفتحة . وإدّعت دورية The Justice في عام ١٨٩٠ إن : «**مصدر قوة برادلو لطالما تمثل في أصحاب المتاجر الصغيرة من العلمانيين**» . وعلى الرغم من أن برادلو قد نفى صحة هذا

(1) The Agnostic Journal, 1 December 1906.

(2) The Freethinker, 21 May 1882, 24 February 1884.

(3) Our Corner, January 1883; The National Reformer, 17 June 1888.

(4) The Secularist, 2 December 1876.

(5) The Weekly Dispatch, 8 June 1879; The Methodist Times, 20 September 1888.

القول إلا أن أحد التقارير الصادرة عن الشرطة في عام ١٨٩٤ قد أوضح بأن : الطبقة التي ينتمي إليها أولئك الذين يقومون بشراء دورية The Freethinker الذين يحضرون تلك الإجتماعات سواء تلك التي تعقد في الاماكن المفتوحة أو في القاعات المغلقة ، هم إلى حدٍ ما ينتمون إلى درجة أعلى من درجة الميكانيكيين البسطاء ، وبدت عليهم إمارات الإحترام . ويمكن القول إنهم بصورة عامة ذوي عقول نيرة ومن المولعين بالدراسة والقراءة ، ومعظمهم من الكُتاب . ووصف ستانتن كوت Stanton Coit في دورية The Ethics الجمعية العلمانية الوطنية قائلاً : «**إنها تنظيم للفكر الحر خاص بالمرتبة الدنيا من الطبقة الوسطى**»(١) .

وبصورة عامة كان حضور النساء إلى المحاضرات من الأمور اللافتة للنظر في النشاط العلماني . ففي حين كانت الجمعيات ، التي هي في الواقع كنائس صغيرة إجتماعية فضلاً عن الحملات الدعائية ، قد تمتعت بقدر أكبر من النجاح مع السيدات وهن في الغالب زوجات أو بنات الأعضاء الرجال ، في الوقت الذي بقي فيه العنصر الذكوري هو المهيمن . لقد تمكنت الجمعية العلمانية في لستر من كسب ٤٠ إمرأة لحضور اللقاءات الخاصة التي قادتها الجمعية ، إلا أن متوسط أعداد النساء اللائي إنضممن إلى الجمعية وتم تدوين أسمائهن في سجل الأعضاء الخاص للمدة بين ١٨٨٥-١٩٠٠ ، لم يتجاوز ما نسبته ٢٠٪ وقاربت أعداد النساء العضوات في الجمعية العلمانية في هدرسفيلد خلال المدة ١٨٧٧-١٨٨٠(٢) . وفي الوقت الذي كان فيه بعض الرجال يعتنقون العلمانية ، كانت زوجاتهم قد بقين على معتقداتهن الدينية بل وحافظن على ذهابهن للكنيسة ، ولم تحدث حالات معاكسة إلا ما ندر(٣) . وكان هنالك ، مع ذلك ، نساء بارزات في الحركة العلمانية أمثال بزنت وهاربيت لو وكيت زوجة تشارلز واتس وماري سودن وثورنتن سمث Thornton Smith وإيدث فانس Edith Vance السكرتيرة العامة للجمعية العلمانية الوطنية خلال المدة

---

(1) The Freethinker, 5 February 1888; The National Reformer, 23 February 1890, 31 January 1892; Booth, Op. Cit., Vol.I, p.99; The Secular Work, May 1896.

(2) The National Reformer, 28 July 1867, 23 October 1887.

(3) The Freethinker, 8 September 1895.

١٨٩٢-١٩٢٧[١] . ولكن حتى مع التقديرات المرتفعة التي إنعكست في كل من لستر وهدرسفيلد ، إلا إنه بقي إنجازاً ضئيلاً للحركة العلمانية التي إدعت نظرياً المساواة بين الجنسين عبر التذكير بأن الكنائس لها وجه سلبي متمثل بعدم مساواة الرجال بالنساء ، وبالتأكيد تم إلقاء اللائمة على عاتق الإنجيل في مسألة حجب أعين النساء عن ما عُد مصالحهن الشخصية الفضلى في المساواة[٢] .

وحينما إستعرضت دورية The Rock الإنجيلية المقالة التي كتبها دبليو . روسيتر W. Rossiter بشأن موضوع الإلحاد الحِرَفي Artisan Atheism ، فإنها في الوقت الذي أثارت فيه إحتمالية إنتماء أغلب الملحدين للطبقة العاملة ، إلا أن ذلك لم يعن بالضرورة إن أغلب الطبقة العاملة ملحدة ، ولهذا تمت مهاجمة العلمانيين عبر الإشارة بأن العضوية العلمانية يكتنفها عدم الأخلاقية : «**إن القصة القديمة ، الموغلة في القدم التي تستطيع أن تجمع الرجال والنساء من مختلف الأعمار مع بعضهم البعض ، وأن تبقيهم هناك في يقظة ونشوة ، لم يعمد العلمانيون إلى إنكارها ، فهؤلاء الصاخبون الذين ينتقلون من مكان لآخر صانعين عروضاً ضخمة من موارد متواضعة**»[٣] . لقد كان العلمانيون قد لاحظوا وأدركوا ذلك بأنفسهم ، لكنهم وجدوا العزاء لهم في إنعدام العدالة التي منحت الكنائس الافضلية في المجال الدعائي ، لذلك فقد عملوا على مضاعفة الجهود من أجل تحطيم الإنجيل الذي يعد السبب الأساسي وراء ما عُد إنه السذاجة الجماهيرية[٤] .

وكان البرنامج المقترح ليوم الأحد في هذه المرحلة قد تمثل في إقامة مدرسة صباحية وتقديم فقرة موسيقية ما بعد الظهيرة ، وكذلك إلقاء المحاضرات في الأمسيات ، بعد ذلك تم إصدار كتاب الترنيم العلماني في عام ١٨٨٢ ، وهو الكتاب الذي إنتقدته دورية The National Reformer بسبب دعوته لإعتبار العلمانية ديناً جديداً[٥] . وفضلاً عن هذه الطقوس ومدرسة يوم الاحد التي أُهمل الإهتمام بها

---

(1) The National Reformer, 13 August 1890.

(2) The Secular Chronicle, 20 October 1878.

(3) The Rock, 29 July 1887.

(4) The Freethinker, 4 January 1891.

(5) Leicester Secular Society, Minute Book II, 30 March, 17, 24 April 1881, 1 October 1883, 15 September 1885; The National Reformer, 24 September 1882.

على ما يبدو فيما بعد ، وتوجب على العلمانيين إعادة إحيائها في عام ١٨٩٤ ، كان لدى الجمعية معالم أخرى مشهورة لمرتادي الكنيسة الصغيرة ، إذ تضمنت سجلات الجمعية لما عرف بفرقة الامل Band of Hope التي إرتبطت بمدرسة يوم الأحد خلال ثمانينيات القرن التاسع عشر ، بل إن التقرير السنوي للعامين ١٨٩٩ و١٩٠٠ لم يشر إلى الجوقة الموسيقية ومدرسة يوم الأحد فحسب ، بل أشار كذلك إلى التجمعات النسائية وحلقات الخياطة . أما العلمانيون الذين كانوا أقل قرباً للتعاليم التقليدية فقد قاموا بإنشاء نادي للسباحة فضلاً عن قاعة رياضية في عام ١٨٩٤[١] . وعلى الرغم من أن الجانب الإيجابي في هذه النشاطات ترفيهياً ، بيدَ إنها ساعدت كذلك على تعزيز جوانب مهمة ، إذ كانت الدراما التي تمثل الصراع الدائر بين الخير والشر ، التي تم التعبير عنها عبر التراجيديا اليونانية وشكسبير والمسرح المعاصر لبرناردشو قد قدمت جميعها خلال أيام الأحد[٢] . وفضلاً عن وجود صفوف دراسية لتعليم الخياطة للنساء العلمانيات في هدرسفيلد ومدرسة يوم الاحد التي شهدت إزدهاراً ملحوظاً[٣] ، كان ثمة موروث طويل للدراما في الحركة العلمانية . لقد كان كل من تشارلز واتس وزوجته كيت متحمسين لتلك المرحلة ، على الرغم من أن المعايير العامة لم تكن على الأرجح على قدر كبير من الجودة ، إلا أن الأداء التمثيلي كان من دون شك كافياً لإدخال البهجة على قلوب العلمانيين وأصدقائهم[٤] . وخلال العصر الذهبي للعلمانية ، في مرحلة الذروة ، كانت بنية الفروع التابعة للجمعية العلمانية الوطنية من المسائل الحيوية في ديمومة أعمالها التبشيرية المنتظمة ، وأدرك آرثر موس في عام ١٨٩٠ ما تحلت به أساليب مجموعات الخطباء من جودة وإتقان ، ولكن مع ذلك إعتمد النجاح إلى حد كبير على أولئك الذين تبوأوا مناصب رسمية في الفروع المختلفة في لندن والأقاليم الأخرى ، بل إعتمد في المقام الأول على مبادراتهم ولباقتهم وحكمتهم في أداء الأعمال وتنفيذها في أقاليمهم[٥] .

(1) Leicester Secular Society, Minute Book III, 31 January 1894.

(2) Gimson, Op. Cit., Part II, p.1; The Freethinker, 14, 28 June, 12, 19 July 1885, 26 June 1887.

(3) The National Reformer, 1 December 1878.

(4) Our Corner, September 1886.

(5) The Freethinker, 4 January 1891.

تمثل الهدف الجوهري وراء إنشاء جميع الإتحادات الإقليمية بالعمل على توفير الأعداد الكافية من المحاضرين ولا سيما في مراكز النشاط الصغيرة ، وعزا فوت التدهور الذي لحق بالعلمانية في عام ١٨٨٧ إلى الحاجة لمحاضرين متمرسين ، مما جعله يقوم بوضع خطته المعروفة في عام ١٨٩٠ التي إنصبت على توفير مثل هذا النوع من المحاضرين ؛ إذ أشار في هذه الخطة إلى أن العديد من الفروع هي أكثر فقراً من أن تقوم بوضع برنامجها الخاص لإلقاء المحاضرات ، ولهذا إقترح على الإدارة التنفيذية المركزية أن تقوم بهذا الأمر نيابة عنهم مقابل شرط واحد يتمثل في إعادة نصف الموارد المالية التي تحققها هذه المحاضرات إلى الإدارة المركزية . وبطبيعة الحال فإن هذا المخطط إستقطب تلك الجمعيات التي لم تكن واثقة تماماً من إمكانية تحقيق الأرباح المادية ، وبذلك فقد أصبحت هذه الخطوة مصدر إستنزاف دائم للموارد المالية[1] . ولجأ فوت قرابة إنتهاء القرن إلى إقامة إجتماعات حاشدة لخطباء بارزين في مواقع مختلفة في لندن خلال فصل الصيف لعام ١٩٠٠ ، وأخرى مماثلة في قاعة بلدة برمنغهام في شهر تشرين الاول من عام ١٩٠٠[2] .

لم يكتفِ فوت بذلك ، فسرعان ما أقام شركة تختلف تماماً عن الجمعية العلمانية الوطنية ، أطلق عليها الجمعية العلمانية المحدودة Secular Society Ltd ، وأَملَ بأن يُقّدر لها الحصول على التركات والأموال الموصى بها ومنح الإعانات للجمعية العلمانية الوطنية ، في الوقت الذي شكك فيه جورج جاكوب هوليوك بقدرتها ، إلا أن فوت كان مقتنعاً تماماً بنجاح فكرته هذه ، وبالفعل بدأ بتنفيذها في عام ١٨٩٨ ، وبعد عام من ذلك قام تشارلز ألبرت واتس بتقليد هذه الفكرة عبر إنشاء رابطة الصحافة العقلانية[3] . وإنصب هدف الجمعية العلمانية المحدودة على تعزيز حرية النشر ، وعلمنة الدولة من خلال إلغاء الإختبارات الدينية ، والسعي لعدم جعل الدولة ذات صفة مسيحية ، وعلمنة التعليم ، وحرية التوريث بوصية ، والإعتراف بالزواج على إنه عقد مدني على نحوٍ كامل ، وإلغاء تشريع يوم السبت (الخاص بالإمتناع عن العمل بهذا اليوم) ، والتخويل بإستئجار وبناء المباني ، وتعيين المحاضرين

---

(1) The Freethinker, 29 May 1887, 11 January 1891, 28 February 1897.

(2) The National Reformer, 12 July 1874; The Freethinker, 28 October 1900.

(3) The Freethinker, 19, 26 June 1898, 19 March 1905.

والكُتاب والمُنظمين ، ونشر الكتب والكراريس والدوريات ، والسماح بتقديم الدعم سواءً كان مادياً أم من نوع آخر ، للجمعيات أو الأشخاص أو الأفراد المنتظمين الذين يعززون على نحو خاص أياً من المواضيع المذكورة أعلاه[1] . وكان هذا بالفعل ، مثلما وصفه فوت بأنه يمثل «**كل ما هو ضروري للعلمانية**» ، ومع ذلك أخذ بعض أعضاء الجمعية العلمانية الوطنية تساوره المخاوف من إن الجمعية العلمانية المحدودة هي مجرد حيلة من فوت للحل محل جمعيتهم بهدف الحصول على سيطرة مالية مستقلة للحركة[2] .

وفي المقابل ، تمكنت الدوريات العلمانية من تحقيق أثر مقبول فاق مكانتها ؛ وتمثل ذلك في نجاح محرريها في تطوير علاقة من نوع خاص مع القراء . وكما أخبر فوت قراءه في إستطلاع أجرته دورية The Freethinker : «**إن العلاقة التي تربط بين محرر دورية The Freethinker وقرائها تمثل الرابط الذي يربط بين أبناء الطبقة العاملة الذين تجمعهم قضية مشتركة . فنحن لا نكتب من أجل أن نُسعد المشترين ولكننا نكتب لكي نكون مصدر إلهام للدعاة**»[3] . ولدى الكثيرين كانت دوريتا The National Reformer وThe Freethinker تمثلان الحركة العلمانية وحاملتا لوائها ؛ فقد أخذت دورية The National Reformer خلال ثمانينيات القرن التاسع عشر تتناول المواضيع ذات الطبيعة السياسية والفلسفية . وفي عام ١٨٨٤ أدى إستبدال روبرتسون بأيفلنغ إلى تعزيز القدرة الفكرية لكادر الدورية ، إلا أن التداعي بدأ في عام ١٨٨٧ ، حينما تخلت بزنت عن منصب مساعد محرر الدورية . وحينما توفي برادلو في العام اللاحق عندها توقفت بزنت عن المساهمة في الدورية ، وأشر ذلك إنصراف القراء عن هذه الدورية ما عدا عدد ضئيل ظل يتابعها ، لذلك فقد كان قرار روبرتسون المتمثل بإستبدالها بنشرة في عام ١٨٩٣ يعتبر نتيجة منطقية لخسران الدورية أخبار الجمعية العلمانية الوطنية لصالح دورية فوت المعنونة The Freethinker في عام ١٨٩٠[4] .

---

(1) The Freethinker, 19 June 1898.

(2) The Freethinker,10 July 1898.

(3) The Freethinker, 3 January 1915.

(4) Royle, Radicals, p.158.

لقـد أصـدر فـوت دورية The Freethinker وهو يعلم إن دورية The National Reformer لا تزال من الدوريات الغـزيرة النتاج ، إلا إنه تمكن تدريجيـاً من جـعلها دورية رصينة ، ومع ذلك لم تفقد حسها الفكاهي والمضحك ؛ إذ كتب أحد المراسلين في عام ١٨٨١ قائلاً : «**إن صحيفتك لها أثر المنشط الجيد للنظام الأدبي للفكر الحـر الذي يعـاني من التـراخي وفـقـر الدم**»[١] . وتمثلت سيـاسـة دورية The Freethinker ، التي لم يحـد عنهـا فـوت أبداً ، بالعـدوانيـة وحـمل لواء مناهضـة المسيحية ، إذ لاقت هذه السياسة الشعبية تدريجياً . وفي كل أسبوع تولت الدورية نشر عمودين فيها تحت عنوان : «قطرات حامضية Acid Drops» ، و«الخوخ السكري Sugar Plums[٢]» ، إحتوى الأول على مقاطع لمواضيع تتعلق بمناهضة المسيحية ، فيما شـمل الثـاني على متـابعـة الأخـبـار المؤيدة للفكر العلمـاني . وأوضح فـوت بأن هذه العناوين ربما لا تكون رنانة ، لكنها في الوقت ذاته ليست عناوين مؤذية[٣] . على أية حال ، نُشر العدد الأول من هذه الدورية في شهر مايس من عام ١٨٨١ ، وكان فوت هو المحرر ، أما ويلر فقد كان مساعد رئيس التحرير . وتألفت الدورية من ثمان صفحات من ورق الفولسكاب الكبير قياس ١٦×١٣ إنشاً وصدرت على نحو شهري . وإستمر الحال لغاية شهر أيلول حيث أصبحت بعدها تصدر على نحو إسبوعي . كما أُصدرت أعداداً خاصة في أعيـاد رأس السنة للمدة ١٨٨١-١٨٨٤ . أمّا عدد الصفحات فقد إرتفع إلى ١٢ صفحة في شهر نيسان ١٨٨٩ ، وبعد ذلك إلى ١٦ صفحة في شهر تشرين الاول ١٨٩١ . وفي عـام ١٨٩٣ إرتفع سـعـر الدورية إلى ٢ بنس (بعد أن كـان

---

(1) The Freethinker, 30 October 1881.

(٢) الراجـح إن إستخـدام هـذه العنـاوين كـان بهـدف جـذب أنظار القراء سيما وإن دورية The Freethinker دأبت على إتباع الأسلوب الساخر كإحدى الوسائل الكتابية المعتمدة فيها فضلاً عن الهجوم والتهكم في ثنايا مقالاتها . أنظر :

Nash, David S., Unfettered Investigation: The Secularist Press and The Creation of Audience in Victorian England, *Victorian Periodicals Review*, The Johns Hopkins University Press on Behalf of The Research Society for Victorian Periodicals, Vol.28, No.2 (Summer, 1995), pp.128-129.

(3) The Freethinker, May 1881.

بنساً واحداً) . ولم يكن المظهر العام مختلفاً عن دورية The National Reformer ، على الرغم من أن النبرة الخطابية للأولى كانت أكثر تحرراً بكثير . وفضلاً عن هذين العمودين ، كان هنالك حقل خاص دعي بالطُرف التدنيسية ، مثلما دأبت الدورية على نشر رسوماً كاريكاتيرية على نحوٍ إسبوعي[١] .

ومن غير المستبعد أن قام فوت بإقتباس أفكاره هذه من دورية The Republican لجورج ستاندرنك التي إحتوت إصداراتها رسوماً كاريكاتيرية عن المواضيع السياسية والإجتماعية منذ شهر حزيران ١٨٨١ ، ولكن في الواقع يمكن إعتبار الإعلان الذي نشرته صحيفة The Times الداعي إلى كبح تأثير الكتاب المقدس الحدث الذي ألهم فوت بتضمين دوريته رسوماً كاريكاتيرية هزلية على نحوٍ إسبوعي . وكان ذلك مذهلاً على صعيد قراءة الدورية وإنتشارها ، إذ إرتفعت نسبة مبيعات دورية The Freethinker في عام ١٨٨٢ إلى ١٠٠٠٠ نسخة إسبوعياً ، بحيث وقف بعض العلمانيين من أمثال مالكوم كون منذهلاً ، أما المسيحيين فقد «إرتعدوا من الخوف»[٢] . ويمكن القول إن هذه الرسوم الكاريكاتيرية هي السبب الرئيس وراء ملاحقة فوت قضائياً بتهمة التجديف في عام ١٨٨٢ . وخلال المدة التي قضاها فوت في السجن تخلى أيفلنغ عن هذه الرسوم ، ولكن في عام ١٨٨٤ إستأنفت الدورية تضمينها من جديد وإستمرت حتى عام ١٨٨٩ وتميزت بالفكاهة : وكانت عبارة عن مشاهد هزلية فظة تجسد بعض التفسيرات الإنجيلية الحرفية بهدف عرض ما عُد إنها سخافة متأصلة فيها[٣] . وتضمن بعضها في بعض المناسبات تعليقات لاذعة ، كما ورد في العدد الصادر في أعياد رأس السنة لعام ١٨٨٢ الذي تضمن رسوماً كاريكاتيرية تحت عنوان : «عيد ميلاد مجيد في الداخل والخارج» ، مجسّداً فيه مأدبة أقامها رجال الدين في الداخل وفي الخارج إحدى العوائل تتضور جوعاً تحت الثلج . وبعد موجة من الإنتقادات قرر فوت في عام ١٨٨٨ القيام بإجراء غير مسبوق تمثل في ترك أمر الإستمرار في إصدار هذه الرسوم الكاريكاتيرية عبر إستفتاء القراء : وحينما لم يشترك

---

(1) Royle, Radicals, p.159.

(2) The Republican, May, June, July 1881; The Freethinker, 4 September 1881, 7 January 1883; Quin, Op. Cit., pp. 68-69.

(3) The Freethinker, 26 October 1884.

في هذا الإستفتاء سوى ١٠٪ من القراء ، إستنتج فوت قائلاً : «**إن معظم [قرائنا] ما زالوا لغزاً**» ؛ وآثر بعدم الإستمرار بنشر هذه الرسوم حتى شهر آذار ١٨٨٩ ، بعد أن توصل إلى إن إلغاءها أو إبقاءها لا يشكل فارقاً في نسبة توزيع الدورية[١] .

إن إرتفاع عدد صفحات دورية The Freethinker منذ عام ١٨٨٩ قد عكس الأهمية المتنامية لفوت في أوساط الجمعية العلمانية الوطنية ، وإبتداءً من عام ١٨٩٠ ، وهو العام الذي أصبح فيه زعيماً للجمعية العلمانية الوطنية ، إستولت دوريته على زمام الأمور من دورية The National Reformer وغدت لسان حال الحركة العلمانية . وعندها بدأت تكتسب بعض خواص دورية The National Reformer ولا سيما نشرها لدليل قاعات المحاضرات العلمانية . وبعد أن أصبح عدد صفحاتها ١٦ صفحة في عام ١٨٩١ أخذت نسبة مبيعاتها بالإرتفاع ، بعد أن كانت قد بدأت بالتدهور ثم بالركود خلال أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر ، في حين إدعى فوت بإن نسبة مبيعات الدورية قد إرتفعت بنسبة ٥٠٪ ، في المقابل قدّر فيه تقرير الشرطة في عام ١٨٩٤ نسبة مبيعات الدورية بقرابة ٥٠٠٠-٦٠٠٠ نسخة إسبوعياً . ومع ذلك لم تغطِ نسبة مبيعاتها النفقات[٢] .

لقد كانت دورية The Freethinker تمثل إحدى الجوانب والأوجه المهمة من شخصية فوت ، أما الجانب الآخر من جوانب شخصيته ، وهو الجانب الأكثر جدية ، فطالما كان تواقاً للتعبير عنه ، حتى إنه حاول بين فترة وأخرى أن يُصدر دورية يطور من خلالها آرائه ووجهات نظره البناءة . إذ أصدر خلال شهر كانون الثاني ١٨٧٩ دورية شهرية لم تعمر طويلاً دعيت دورية The Liberal بسعر ٦ بنسات ، وفي شهر كانون الثاني ١٨٨٣ أسماها The Progress وهي الدورية التي كان أيفلنغ محرراً لها بمساعدة ألينور ماركس ، خلال المدة التي قضاها فوت في السجن . وقام أيفلنغ بتحويلها إلى

---

(1) The Freethinker, 14 October 1888, 17-31 March 1889.

(٢) الراجح إن زيادة صفحات دورية The Freethinker إلى ١٢ صفحة في عام ١٨٨٩ ، على الرغم من الركود الذي حل بها في أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر ، كان بهدف محاولة إغراء القراء لشرائها من خلال زيادة عدد صفحاتها . أنظر :

The Freethinker, 4 January, 25 October 1891, 21 February, 17 July, 18, 25 September 1892, 25 March 1900, 6, 27 December 1903, 17 June 1906, 25 October 1908.

دورية إشتراكية ، لكنها سرعان ما أصبحت راديكالية مرة أخرى تحت لواء فوت لينتهي بها المطاف في عام ١٨٨٧ ؛ فقد إنصب طموح الاخير في الأساس نحو الجماهير الراديكالية وهي الجماهير الأوسع ، لكنه في عام ١٨٨٦ أقر بأنه لم يتمكن سوى من الوصول إلى الجمهور العلماني[1] . وفي عام ١٨٨٨ حاول مرة أخرى من خلال دورية The Radical Leader التي لم يُقّدر لها الإستمرار سوى لأقل من عام واحد ، إذ من الواضح إن فوت قد وجد موطن قوته في دورية The Freethinker ، وعلى الرغم من كونه مناهضاً للإشتراكية وصحفياً محترفاً ، فقد كانت قدرته على الإستقطاب محدودة ، فلم تخلُ كتاباته من المصلحة الشخصية[2] .

وكانت دورية The Agnostic Journal على غرار بقية الدوريات العلمانية ، إذ بلغت ذروة مبيعاتها في عام ١٨٨٣[3] ، وكانت من حيث البنية تطابق دوريتي The National Reformer وThe Freethinker ، متألفة من ١٦ صفحة من ورق الفولسكاب بحجم ١٦×١٣ إنشاً بسعر بنسين ، وتصدر على نحوٍ إسبوعي ، أما محتواها فقد كان مزيجاً من رصانة دورية The National Reformer وخفة ظل دورية The Freethinker . أما السمة المميزة التي تحلت بها فقد تمثل بعمود حمل عنوان : «على نحو عشوائي At Random» الذي وصفه أحد المراسلين بأنه : «**خليط غريب من سعة الإطلاع المتقن ، والفكاهة الحادة ، والسخرية اللاذعة ، والفصاحة اللامعة ، والشعر الفخم ، والمواساة الباكية ، ومتعة المرح**»[4] . ومن خلال هذا العمود وكذلك عمود الزنبور The Wasp المعنون : «رفسات ولدغات Flings and Stings» ، تم توجيه توبيخ لأنصار برادلو لما عُد بأنهم إقترفوا آثاماً عديدة . فقد تمحور الأساس التنافسي لدورية The Freethinker على المواضيع التي عكست هيمنة الكتاب المقدس ، وتوظيف المعارضة لهذه الهيمنة الفكرية ؛ إذ إستجاب القراء لهذه

(1) The Freethinker, 18 July 1886.

(2) Royle, Radicals, p.161.

(3) The Secular Review, 22 April 1882, 14 July 1883; The Agnostic Journal, 23 February 1907.

(4) The Secular Review, 17 April 1886.

المواضيع طالما طرحت بطريقة مشوقة[1] ، فقد مثّل الكتاب المقدس محوراً لافتاً ، وكانت العلمانية المتطرفة الصورة المنعكسة بالضد من البروتستانتية المتطرفة التي نتجت من رحم الكتاب المقدس Homines Unius Libri (إنسان الكتاب الواحد طبقاً للمقولة اللاتينية)[2] . ولهذا عُدّ الكتاب المقدس الأداة الضرورية لديمومة النقد العلماني .

لقد برر بروز حقل النقد الفوقي Higher Criticism (المعني بدراسة نص الكتاب المقدس وعلاقته بالخوارق) مكانة ووجود الفكر العلماني ؛ فقد إعتقد العلمانيون إنه في النهاية لا بد وإن البروتستانتية ستخسر إنجيلها وتخنع للفكر الحر[3] . وأدرك كوهين بأن الخرافة التي تكون في مظهرها الخارجي معقولة إلى حد ما ، هي أكثر خطورة[4] . وعلى الرغم من ذلك بقيت الدعامة الأساسية في الأسلوب الدعائي للفكر العلماني متمثلة في نقد الكتاب المقدس ؛ ذلك النقد الذي كان شائعاً في مطلع القرن التاسع عشر ؛ مع فارق بسيط بين كتاب «تحليل الكتب المقدسة» لروبرت كوبر (الذي نشر لأول مرة خلال ثلاثينيات القرن التاسع عشر) ، وكتاب «دليل الكتاب المقدس» لكل من فوت ودبليو . بي . بول الصادر في عام ١٨٨٨ ، الذي صمم في الأساس ليكون مرجعاً سهلاً للطرق الواجب إتباعها من العلمانيين في مهاجمة الكتاب المقدس وفي أثناء خوض غمار النقاش مع المسيحيين . فقد كانت هنالك العديد من العبارات المقتبسة من العناوين التالية : تناقضات الكتاب المقدس ، سخافات الإنجيل ، والاعمال الوحشية ، والنبوءات غير المتحققة ، والوعود الكاذبة ، ولا أخلاقيات الكتاب المقدس ، والبذاءة والفحشاء ، إذ منحت كل تلك العناوين العلمانيين ردوداً مناسبة أمام المسيحيين . لقد كان فوت أكثر فطنة من أن يعتقد بأن

---

(1) The National Reformer, 5 October 1890.

(2) The National Reformer, 3 March 1867.

(3) The Freethinker, 26 July 1885, 26 February 1899, , 4 January 1903, 30 April 1911; The National Reformer, 5, 19, 26 July 1885; Manning & Ingersoll, Cardinal, Robert G., Rome or Reason, New York, C. P. Farrell, Publisher, 1898.

(4) The Freethinker, 5 January 1902; Kent, William, The Testamnet of a Victorian Youth: An Autobiography, London, Heath Cranton, 1938, p.177.

المسألة لا تعدو أن تكون مجرد نقد للكتاب المقدس، في حين إن برادلو ضمّن كتاباته عدداً أقل من هذه الإنتقادات مقارنة بمحاضراته[١] . وأدى دفاع النخبة المسيحية من خلال الركون نحو حرفية الكتاب المقدس وإخراج النصوص خارج سياقها، إلى الرد بالوسيلة ذاتها[٢] . فقد منح غلادستون العلمانيين واللاأدريين مساحة مهمة للخوض في جدالات النقد الديني، كالإنتقادات اللاذعة التي أثارها هكسلي بالضد من الكتاب المقدس[٣] ، وجدال الأخير مع اللاأدري الأمريكي روبرت جي إنجرسول Robert G. Ingersoll (١٨٣٣-١٨٩٩) الذي حمل عنوان: «الصخرة المنيعة للكتاب المقدس»، فلم يؤمن غلادستون بالحقيقة الحرفية لسفر التكوين، وآمن فقط في كونه مصدراً للإلهام[٤] .

تمثلت أهم التحديثات التي طرأت على ميدان الجدل في حقل اللاهوت في منتصف القرن التاسع عشر في الطريقة التي وجّه بها الجدل الدائر بين موضوعي العلم مقابل الدين. ففي حين ركزت النقاشات السابقة على الملابسات التي أثارها النقاش بشأن الإكتشافات الجيولوجية في سبيل التوصل إلى فهم جديد لسفر التكوين، نجد إن النقاشات اللاحقة قد ركزت على الملابسات التي أثارتها نظرية التطور في حقلي التاريخ الطبيعي والروحي للإنسان. وهذا لا يعني بالضرورة إن الصراع بين الدين والعلم كان أمراً حتمياً، كما إعتقد بعض العلمانيين؛ ففي عام ١٨٨٥ كتب هكسلي قائلاً: «**إن خصومة العلم ليست مع الدين بل مع بقاء الوثنية والفلسفة الرديئة التي غالباً ما إنسحق الدين تحت وطأتهما**»[٥] . ودلت تلك الإشارة على محاولة إخضاع المعرفة الدينية- الفلسفية للمفهوم العلماني، فضلاً عن تعيين صارم

(1) The Secular Review, 9 August 1879.

(2) Chadwick, Victorian Church, part II, pp.60-61, 87, 408.

(3) Gilley & Loades, Sheridan & Ann, Thomas Henry Huxley: The War Between Science and Religion, *The Journal of Religion*, The University of Chicago Press, Vol.61, No.3 (Jul., 1981), pp.307-308.

(4) The Freethinker, 8 November 1885.

(5) Huxley, Thomas H., The Interpreters of Genesis and The Interpreters of Nature, Ninetheenth Century, Vol. XVIII, Nos. CV, CVI, 1885, pp.685-706, 849-860.

لحدود الحقول الشرعية للمصالح ، أما اللاهوت فقد ترك ليتدبر أمر تلك القضايا التي كان العلم حيالها مجرد ذو موقف لاأدري . ومع ذلك ، كما جرت العادة ، فإن الادعاءات اللاهوتية تمثلت في إستمرار الدفاع بفجاجة عن سفر التكوين وبكونه متوافق مع العلوم الحديثة ، لذلك فقد كان هنالك العديد من هم على شاكلة المحاربين من أجل الدفاع عن أو الهجوم على الدين[١] . وعلى إثر موجة القلق الأولى التي رافقت صدور كتاب أصل الأنواع لداروين ، إنقسم العالم اللاهوتي بشأن إمكانية تقبل نظرية التطور . إلا أن الأمر الذي بدا واضحاً هو كلما قل مقدار فهم الناس لداروين ، كلما زاد مقدار إعتقادهم بمعرفتهم[٢] . وقد إنطبق ذلك إلى حد ما على العديد من أولئك الذين حضروا محاضرات الفكر الحر التي كانت تلقى في أيام الاحد[٣] .

وفي المقابل كان تفاعل العلمانيين مع بعض التيارات الفكرية أمراً حتمياً ، فقد كان تطبيق الدارويينية Darwinism على الفكر العلماني على نحوٍ غير مباشر ، إذ يمكن تلّمس معظم ما عبر عن الدارويينية ببساطة في كتابات الفيلسوف الطبيعي الإنكليزي إيرازمس داروين Erasmus Darwin (١٧٣١-١٨٠٢)[٤] أو هربرت سبنسر ، فقد دخلت المادية الدارويينية Darwinian Materialism في الفكر العلماني عن طريق المانيا ، ومن خلال كتابات لودفيك بوخنر والفيلسوف والبايولوجي الالماني إرنست هيكل Ernst Haekel (١٨٣٤-١٩١٩) على الرغم من إن أشهر أعمال بوخنر «القوة والمادة» عام ١٨٥٥ و«الطبيعة والروح» عام ١٨٥٧ ، قد سبقا نشر آراء داروين[٥] .

---

(1) Royle, Radicals, p.170.

(2) Bowen, Desmond, The Idea of The Victorian Church: A Study of The Church of England 1833-1889, Montreal, McGill University Press, 1968, p.156; Kent, John, From Darwin to Blatchford: The Role of Darwinism in Christian Apologetic 1875-1910, London, Dr. Williams's Trust, 1966.

(3) The Freethinker, 8 November 1885.

(٤) إيرازمس داروين هو جد تشارلز داروين صاحب كتاب أصل الأنواع الذي سبق ذكره . أنظر :
Collins Concise Encyclopedia, p.158.

(5) Passmore, John, Darwin's Impact on British Metaphysicas, *Victorian Studies*, Indiana University Press, Vol.3, No.1 Darwin Anniversary Issue (Sep., 1959), pp.41-54.

وقام العلمانيون بإستغلال الداروينية في مهاجمة مفهوم العقل بوصفه جزءاً متفرداً وغير خاضع للطبيعة الجسدية للإنسان ؛ إذ على الفور ترجمت بزنت مقالة بوخنر المعنونة : «العقل لدى الحيوانات» الصادرة عام ١٨٨٠ إلى اللغة الانكليزية ، كما أصدرت أليس برادلو محاضرة بعنوان : «العقل بإعتباره وظيفة بدنية» . وفي عام ١٨٨٩ طرح دبليو . بي . بول تساؤلاً في دورية The Freethinker مفاده : «هل يمكن للحالة غير الواعية أن تنتج تأثيرات واعية» ، وضمن أطار هذا التساؤل دعى كلاً من داروين ولامارك إلى توضيح الأسباب التي دعت المسيحيين إلى عدم البحث خارج الطبيعة عن مصدر العقل البشري ناجم بسبب : «**إن التطور التدريجي للعقل كما هو واضح من خلال الصراع من أجل الوجود وبقاء الأصلح عبر الاجيال**»[١] . فقد أدى توظيف نظرية داروين لما يعرف بالإنتقاء الطبيعي إلى إضفاء تعقيدات أكبر على الخلاف الدائر بشأن طبيعة العقل البشري ، ولدى الجمهور المستعد لتقبل تلك النظريات بدت وكأنها من المسلمات ، فلم تظهر سوى إعتراضات قليلة تمحور إهتمامها على أن لا يقوم العلمانيون بتحويل الداروينية إلى خرافة مقبولة بلا وعي[٢] . فقد مرت النزعة المادية بتغييرات مشابهة خلال القرن التاسع عشر[٣] ، وكانت النظرية المادية غير ناضجة وبعض مفاهيمها كمفهوم التطور جزءاً متناغماً مع إرث الفكر الحر لمدة طويلة ، إلا أن برادلو كان واحداً من أوائل المحاضرين الشعبيين الذين قاموا بتنقية هذا المفهوم من الفلسفة الحتمية لعصر التنوير ووجهه نحو مبدأ الوحدانية Monism[٤] لسبينوزا[٥] .

وعكست الدوريات العلمانية وعياً بالكتابات الحديثة والأفكار التي تناولت الشؤون الدينية ، فقد إهتم ويلر على نحوٍ خاص بالإنثروبولوجيا ، حتى إنه قام بذكر

---

(1) The Freethinker, 29 September 1889.

(2) The Agnostic Annual, 1898, pp.6-9; The Freethinker, 19 September 1915.

(3) The Agnostic Journal, 13 December 1902.

(٤) مبدأ ينص على إقرار وجود مبدأ غائي واحد كالعقل أو المادة ، كالقول بأن الحقيقة كلٌ عضوي واحد . أنظر :

Büchli & Petrus (eds.), Andreas & Klaus, Monism, Frankfurt, Ontos Verlag, 2003.

(5) Royle, Victorian, pp.118-119; Royle, The Infidel Tradition, pp.143-146.

كتاب «الغصن الذهبي Golden Bough»[1] للإنثروبولوجي الإسكتلندي جيمس جورج فريزر James George Frazer (١٨٥٤-١٩٤١) في إحدى مقالاته المنشورة عام ١٨٩٢ ، وفيما بعد قام فوت بوصف هذا الكتاب قائلاً : «**إنه واحد من الكتب القليلة للغاية التي يمكن وصفها بالعظيمة ، التي يمكن أن يصادفها الطلاب المجدون**»[٢] . ولم يقتصر إهتمام العلمانيين بذلك بل راحوا يفتشون عن مواطن عدم المساواة في الإنجيل ، وإعتقدوا إنه طالما حافظ المسيحيون على إيمانهم به ، فإن المرأة ستبقى مستعبدة ؛ ولهذا أقر العلمانيون المساواة بين المرأة والرجل ، وإن لا بد للنزعة الهجومية التي إمتازت بها العلمانية أن تحطم الحواجز المسيحية وأن تمنح المرأة حرية أفضل وأكبر من السابق[٣] . وقامت دورية The Freethinker ما في وسعها لتَسخر من التحيز الجنسي الذي إتسم به الإنجيل ، إذ قام فوت بطرح قصة سقوط الرجل على يد المرأة وموقف الكنيسة من النساء ، وأردفه بتساؤل : «**لمَ تعد هذه القصة مهينة للغاية للمرأة؟**» ثم أجاب : «**لأن الرجال هم من قاموا بكتابتها**» ، وإقترح أن يقوم الرجال والنساء سوية بكتابة النسخة المقبلة من الإنجيل ، لأنه من شأنه أن يُنتج نسخة أكثر تنقيحاً . أما دبليو . بي . بول فقد حاول تنقيح الإنجيل بنفسه بحيث تكون المرأة هي المهيمنة ، وطرح جي . أم . ويلر في عام ١٨٨٦ فكرة ولادة المسيح الفتاة من العذراء لسد ما إعتقده فراغاً في العقيدة التقليدية المتمحورة على الذكور . وفي المقابل ، ومن المثير للإهتمام أن أخذت على عاتقها بعض النساء المناهضات للطروحات العلمانية دحض طروحات فوت ضد الإنجيل عبر دورية Anti-Infidel والتذكير بأن الكتاب المقدس لا تكتنفه مزاعم الحط من قدر المرأة[٤] .

---

(١) صدر لأول مرة في عام ١٨٩٠ ، ويعد من أبرز أعمال جيمس فريزر في حقل الإنثروبولوجيا والدراسات المقارنة التي تعكس مدى علاقة الأسطورة بالدين . من الجدير بالذكر صدور ترجمة عربية له في جزأين . أنظر : فريزر ، سير جيمس ، الغصن الذهبي : دراسة في السحر والدين ، ترجم بإشراف : أحمد أبو زيد ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧١ .

(2) The Freethinker, 8 January 1888, 20 October 1892, 5 July 1908.

(3) The Secular Review, 20 October 1878.

(4) The Secular Review, 1 July 1882; The Freethinker, 30 August 1885, 19, 26 September 1886, 30 October 1887, 4 March 1888; Anti-Infidel, June 1892.

الخاتمة

* إستمدت العلمانية البريطانية جذورها الأولى ومرتكزاتها من مدارس فكرية عدة أسهمت في إثراء البعد الفكري المدني وتهيئة الأجواء للمرحلة اللاحقة التي صيغ خلالها مصطلح العلمانية الإنكليزي لأول مرة ؛ إذ نما النزوع العلماني داخل المنظومة الفكرية البريطانية كحصيلة معرفية متراكمة ، عبر عدة مراحل زمنية ، وكان من أبرز مظاهر تلك المدارس الفكرية وتجلياتها نمو التشكيك العقلي والبعد النقدي لدى النخبة الثقافية بالضد من التصورات والإرث الديني والكهنوتي التقليدي القائم الذي لم يُقدَّر لكثير من موروثه العقائدي الصمود أمام الدراسات المقارنة والنقدية للأديان التي إضطلع بها التقليد البيني- الكارليلي ، بحيث حقق هذا الرافد المهم دوره في إرساء البداية الحقيقية لتحقيق الغاية الممثلة في تنبيه الأذهان ومحاولة تغيير المجتمع من مجتمع ديني تقليدي إلى مجتمع علماني- مدني . ولم تكن وسائل بعض من هذه التوجهات العلمانية المبكرة خالية من نقد بنّاء تمثل في إظهار عيوب الدين والدولة ، في الوقت الذي أظهرت وسائل أخرى حدة بالغة تمثل في تعمد النيل من الرموز الدينية ومحاولة خلق البديل ؛ ولا سيما محاولة أنصار التقليد الكارليلي إقامة الكنائس الصغيرة Chapel بهدف إقامة التجمعات في يوم الاحد على نسق الكنائس المسيحية .
* مثّلت المرحلة التالية ، إنطلاقاً من العصر الفكتوري في عام ١٨٣٧ ، الحلقة الأبرز في تمكين الرؤى والطروحات العلمانية من الإستمرارية والإنتشار ، وغذت الطروحات الفكرية المدنية كالإشتراكية بوجهها التعاوني أو الراديكالي المنابع الفكرية اللازمة لدى الزعماء العلمانيين في إستلهام دورهم الرائد في الدعوة للفكر المدني أو في مناهضة الرؤى الدينية وبالنتيجة قيادة العلمانية وتوجيهها على نحو أمثل . وكان الزعيم العلماني جورج جاكوب هوليوك الأب الروحي لمفهوم العلمانية الذي أطلقه في عام ١٨٥١ ، فمن خلال خطوته تلك أُرسيَ البناء والإطار النظري اللازم للمفهوم والحركة العلمانية في آن واحد ؛ ومهد السبيل

بالمحصلة لتنامي الأخيرة من خلال إطارها التنظيمي المرتكز على إطلاق جمعيات تستخدم ، لأول مرة ، أسماء العلمانية عنواناً لإيديولوجيتها الفكرية . ولعبت الأصول الفكرية القيمية في المجتمع الفكتوري الدور المهم في تعزيز إطلاق مفهوم العلمانية ؛ فقد كان لتداول تهمتي الكفر والإلحاد لدى المؤسسة الكنسية على نطاق واسع بهدف كبح المخالفين للرؤى الدينية الأثر البالغ في إسباغ الشرعية عليهما لدى الجمهور المتدين . ولهذا جاء نحت هوليوك لمصطلح العلمانية في محاولة منه لتنبيه النخب الفكرية وتذكيرها بأن ليس كل من يخالف الفكر الديني ويشكك بالعقائد السائدة هو بالضرورة ملحد أو كافر .

* إن العلمانية التي أطلقها هوليوك بوصفها مفهوماً جاءت إستجابة للتحولات الإجتماعية والسياسية والفكرية والإقتصادية التي شهدتها بريطانيا في القرن التاسع عشر ، فالتطور المتسارع في الإصلاحات التي تبنتها بريطانيا منذ مطلع القرن التاسع عشر بفعل نمو النزعة الليبرالية والتغيرات الوظيفية التي حاقت ببعض قطاعات الشعب البريطاني ولا سيما الطبقة العاملة وجزء مهم من الشرائح العليا من الطبقة الوسطى نتيجة لإعتناقها مبادئ مخالفة للتوجهات الدينية أو تأثرها بالطابع المدني- المادي في تفسير الحياة وتغير مفاهيمها ونظرتها للدين ودرجة رغبتها بالتواصل مع المؤسسة الدينية ولا سيما في المناطق والمدن الصناعية ، فضلاً عن بروز المدرسة الإجتماعية في تفسير الحياة وما لعبه عدد من المفكرين الليبراليين في ذلك المضمار منذ منتصف القرن التاسع عشر أمثال المفكر الإنكليزي جون ستيوات مل ، كل ذلك لعب دوراً فاعلاً في بلورة تصورات ونضوج فكرة إطلاق العلمانية كمفهوم والدوريات والجمعيات العلمانية كبعد تنظيمي بعد أن هُيئت الأرضية اللازمة لها لتشق طريقها وتلقى مكانتها بين الرؤى المدنية . وجاءت العلمانية لتغدو الأداة اللازمة لتمكين الرؤى المدنية وتغليبها على حساب التصورات الدينية والغيبية والمفاهيم التقليدية السائدة .

* لعب العلمانيون دوراً بارزاً في تفعيل الرؤى والطروحات العلمانية ، وبرز جيل في أثناء زعامة جورج جاكوب هوليوك للحركة العلمانية وبعدها أخذ على عاتقه توجيه الأخيرة وتكريسها فكرياً وتنظيمياً ، وإذا كان الأخير الاب الروحي لمفهوم العلمانية فإن جميع الزعامات التي عاصرته أو التي تلته قد مثّلت الأوجه المتعددة لديمومة الحركة وترويج الإتجاهات العلمانية بجناحيها المعتدل والراديكالي . ووقفت

وراء نجاح النشاط العلماني مقومات ومرتكزات كثيرة كان من أبرزها الشخصية الكارزمية التي تمتع بها بعض الزعماء العلمانيين في إسلوبهم الخطابي أو الكتابي ودورهم في المساهمة في عدد كبير من المقالات والمؤلفات في المنشورات والمطبوعات التي تولوا إطلاقها كالدوريات العلمانية والكراريس والكتب والكتيبات . وكان لرخص الكثير من هذا النشاط الطباعي الأثر البالغ في سرعة إنتشار الأفكار المدنية- العلمانية ؛ فلم تتعدَ ، في كثير من الاحيان ، سعر الدوريات العلمانية الست بنسات في أغلب أوقات صدورها ، فضلاً عن تحلي بعضها بالبساطة وبعضها الآخر بعمق الطروحات الفكرية التي تضمنتها ، وتمتع بعضها بالإخراج الفني الجيد كما في بعض الكراريس الرخيصة الثمن التي لم يتعدَ سعر الكثير منها الخمس بنسات ، مما سهّل من تداول النشاط الفكري العلماني وإنتعاشه .

* لاقت الطروحات العلمانية إستجابتين إصلاحيتين نوعيتين سياسيتين خلال العصر الفكتوري كان لهما أبلغ الأثر في إرساء الأبعاد والتحولات الفكرية المدنية القيمية داخل المنظومة السياسية الممثلة بالبرلمان البريطاني ؛ فقد كان دخول اليهود في البرلمان البريطاني في عام ١٨٥٨ من أوائل تلك الإستجابات الإصلاحية التي أشّرت نقلة نوعية في الإنفتاح نحو الطوائف الدينية المنضوية داخل المجتمع البريطاني وعكست مدى تقلص الموانع والإعتراضات الدينية وتقهقرها التي كانت تحول دون إستكمال شروط المواطنة والمساواة في الحقل السياسي . وكان نزاع برادلو ، بوصفه زعيماً علمانياً ملحداً ، من أجل الدخول نائباً في البرلمان البريطاني ومن ثم قبوله فيه قد أشّر الإستجابة والنقلة النوعية الثانية للتحولات الإصلاحية المدنية ذات الطابع العلماني ؛ إذ تم على إثرها إستبدال القَسَم المتبع في العضوية البرلمانية بالتأكيد ، وحقق بالمحصلة سابقة قانونية عكست مدى المرونة والتأثر بالتحولات الفكرية السائدة في بريطانيا ونضوج الروح الليبرالية آواخر القرن التاسع عشر ، وبهذا تُعد تلك السابقة بمثابة بادرة أمل ليس فقط للملحدين وإنما لبقية الطوائف الدينية الأخرى إذا ما رغبت في التمثيل سياسياً في المستقبل .

* إمتاز النشاط العلماني بالتنوع والإنتشار ، فلم يقتصر على النشاط الفكري التنظيري الذي تبنته الدوريات العلمانية والكراريس والكتيبات والمؤلفات أو

تأسيس التنظيمات والإتحادات والجمعيات العلمانية فحسب ، وإنما شمل أيضاً إتخاذ وسائل أخرى كمحاضرات الهواء الطلق والتجمعات والأمسيات التي تولت عقد بعضها الكنائس الصغيرة والحانات والقاعات الخاصة بالعلمانيين بهدف خلق المكافئ الديني حيال المؤسسة الدينية المسيحية ومنشآتها الكنسية . وإضطلع جزء كبير من العلمانيين بالإهتمام بالجانب التعليمي والسعي لعلمنة المناهج التربوية المعتمدة لدى المدارس الحكومية وتنقيتها من الترسبات الطائفية- الفئوية التي كان يروج لها ويدعمها التحالف الانكليكاني- التوري في داخل المؤسسة البرلمانية ، ولهذا مثّل نجاح العلمانيين في دعم المجالس المدرسية الوليدة بعد مرسوم التربية لعام ١٨٧٠ ، البداية الفعلية للخروج على وصاية هذا التحالف في التأثير على المؤسسة التعليمية ، وخير دليل على ذلك تمرير مرسوم الإختبارات الجامعية لعام ١٨٧١ الذي أقر إلغاء الإختبارات الدينية بعد عام مباشرة من إقرار الأول ؛ وأزاح بالمحصلة من أمام النخبة الأكاديمية ومنتسبي التعليم العالي المعوقات الدينية- الفئوية في أعرق الأكاديميات البريطانية . في الواقع كان الأسلوب التنظيمي العلماني أشبه ما يكون بحركة أو حزب ، يقوده زعيم أو مجموعة زعماء يحظون بأنصار ويرتكز جزء كبير من فاعليته على أسلوب التمويل الذاتي المعتمد على الإشتراكات التي يمنحها الأعضاء دورياً إلى الجمعية الام أو الجميعات أو التنظيمات والإتحادات العلمانية الفرعية .

* لم يكن العلمانيون البريطانيون مجرد دعاة لدعوة إختزالية تدعو إلى فصل الدين عن الدولة أو فصل الدين عن الحياة ، وإنما كانوا مدركين للمعنى الحقيقي للدين والمكانة التي إحتلها في المجتمع ، وليس أدل على ذلك من محاولة خلق المكافئ الوظيفي الإجتماعي للحلول محل الدين السائد ومن خلال بناء مؤسسات ذات طابع روحي ، كما أسلفنا وبيّنا ، الأمر الذي فسّر هجوم مناهضي التوجهات العلمانية من خلال الترويج بأن العلمانيين يهدفون إلى محاربة الرب عبر إلغاء إسمه ومؤسسته الأرضية الممثلة بالكنيسة ، في المقابل إعتقد العلمانيون إنهم ذوو نزعة شكية- عقلانية إنصب هدفهم على التحقق من حقيقة وجود الرب في الكتاب المقدس فضلاً عن التحقق من نصوصه وأعماله ونبذ الخرافة المتضمنه فيه ، الأمر الذي رفضه المتدينون والمرتبطون بالسلك الكهنوتي لأن ذلك من شأنه أن يسحب إعتقادهم بالإمتياز الحصري لتفسير النص الديني المقدس وأثره في

تفسير الحياة . ولهذا فالعلمانية كانت في الواقع أشبه ما تكون بالحركة المضادة تجاه تزمت التيار الديني وتفسيراته الغيبية . وحاول بعض العلمانيين ترويج طروحاته الفكرية والتغلغل في حياة الأفراد وصياغة الحلول للمعضلات التي ألّمت بالفقراء عبر تبني المقولات التي تبنتها المالثوسية الجديدة التي دعت إلى تقنين الإنجاب أو التحكم به . وعلى الرغم مما وسم بعض أجنحة العلمانية البريطانية بالإلحاد ، وهو الجناح الذي جسّده برادلو ، إلا أن الجدل الذي أثارته المدرسة العلمانية الإلحادية ، قبل وبعد برادلو ، إنصبت غايته على إبراز ، في كثير من إنتقاداته الفكرية ، عيوب الحرفية التفسيرية للنص المقدس ، والمعنى الفيلولوجي- التاريخي لرب الكتاب المقدس ودلالاته وأرجحيته تاريخياً ؛ ولهذا فهي تمثل إمتداداً للمدرسة العقلانية- الشكية للفكر الديني ، تلك المدرسة التي أفضت إلى إعتناق الكثير من العلمانيين للنزعة اللاأدرية بحيث غدا الكثير منهم متشككين ولاأدريين في الوقت ذاته في أواخر القرن التاسع عشر .

الملاحق

ملحق رقم -١-

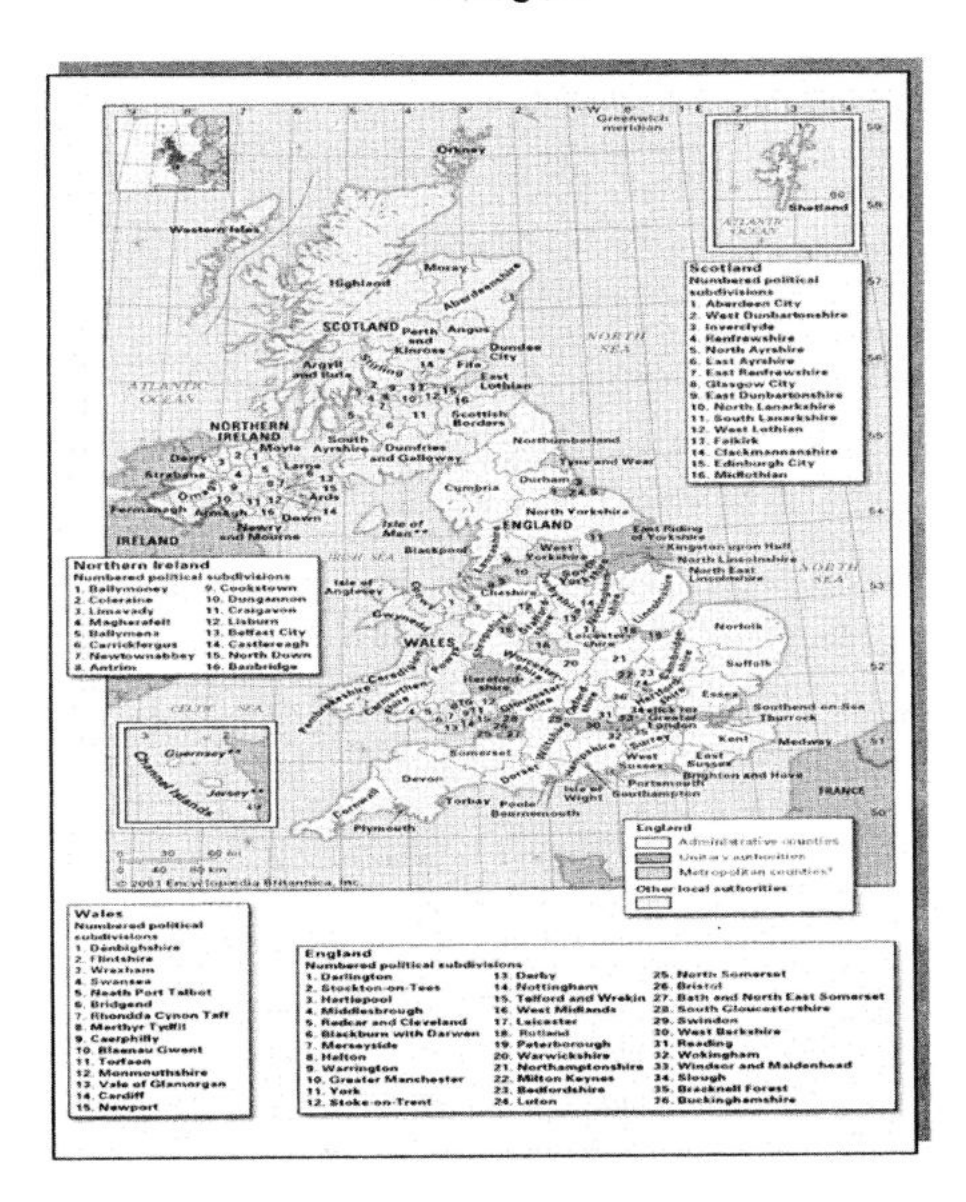
خارطة المملكة المتحدة

نموذج رقم -١-(١)



(1) Encyclopedia Britannica, CD., 2010: Green, John Richard, A Short History of The English People, New York, American Book Company, 1916.

نموذج رقم -٢-[1]



(1) Encyclopedia Britannica. CD., 2010; Cross, Arthur Lyon, A Shorter History of England and Great Britain, New York, The Macmillan Company, 1920.

ملحق رقم -٢-

بعض نماذج من واجهات الدوريات العلمانية

نموذج رقم -١-

THE

ORACLE OF REASON:

Or, Philosophy Vindicated.

"FAITH'S EMPIRE IS THE WORLD; ITS MONARCH, GOD; ITS MINISTERS, THE PRIESTS; ITS SLAVES, THE PEOPLE."

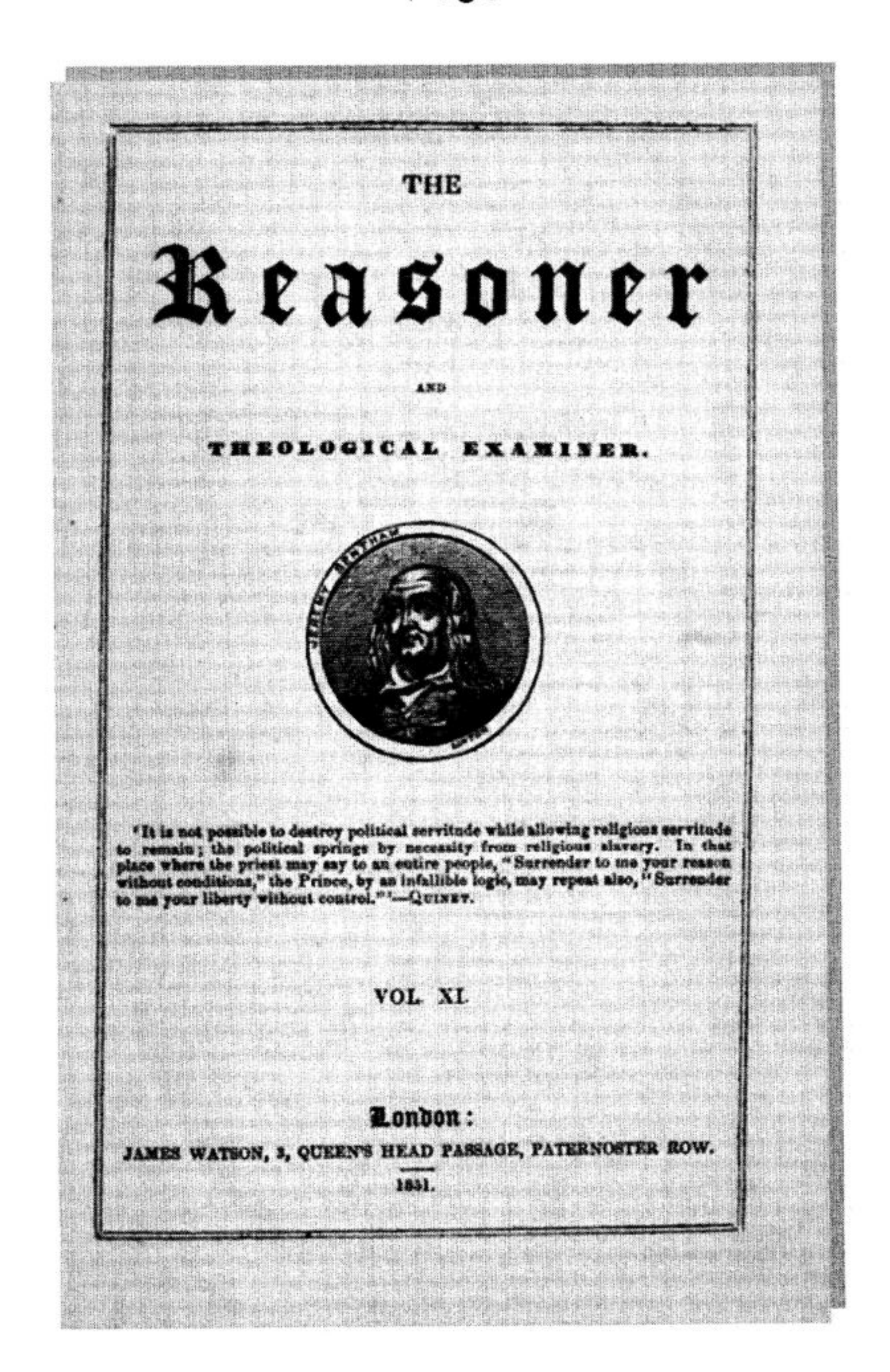
VOLUME I.

LONDON:

THOMAS PATERSON, 8, HOLYWELL-STREET, STRAND.

1842.

نموذج رقم -٢-



THE

Reasoner

AND

THEOLOGICAL EXAMINER.

"It is not possible to destroy political servitude while allowing religious servitude to remain; the political springs by necessity from religious slavery. In that place where the priest may say to an entire people, "Surrender to me your reason without conditions," the Prince, by an infallible logic, may repeat also, "Surrender to me your liberty without control."'—QUINET.

VOL. XI.

London:

JAMES WATSON, 3, QUEEN'S HEAD PASSAGE, PATERNOSTER ROW.

1851.

نموذج رقم -٣-

Registered at the G.P.O. as a Newspaper

Friday, January 1st, 1965

The Freethinker

Volume LXXXV—No. 1 | Founded 1881 by G. W. Foote | Price Sixpence

VIEWS AND OPINIONS

The Future of the Papacy

By F. A. RIDLEY

In his remarkable monastic autobiography, *Twelve Years in a Monastery*, the late Joseph McCabe concluded with a critical assessment of the future of the Roman Church and of its "infallible" chief, the Pope. McCabe's conclusion, based upon his exceptional knowledge of the practical working and theological teaching of the Church to which he had formerly belonged, was that by the end of this century, the then president of the Catholic Church would bear a generally analogous relationship to Pope Leo XIII (1878-1903) as by the same date the social democratic president of the then German Republic would bear to Kaiser Wilhelm II (1888-1918). For in both cases, so McCabe predicted, the medievally-derived regimes of pope and kaiser would have given way to democratic regimes of a more modern character.

The Second Vatican Council and the Papacy

This intriguing prediction of the former Father Anthony, seems already to be in process of effective fulfilment. For at least as regards the German empire, the medieval Hohenzollern dynasty has long since vanished from the map of Europe, and the bones of the last German kaiser moulder in foreign soil. It is true that the German Social Democratic Party—in its heyday the classic party of orthodox Marxism—has been nowadays superseded in that role and even within the confines of the German Reich has not quite made good its claim to be the authentic successor of the Hohenzollern kaisers.

However, it may still do so; and in any case the restoration of the monarchy in Germany seems to be definitely out of the question either now or at any foreseeable time. Regarding what was when McCabe wrote, the strongest and best-organised monarchical regime in Europe, McCabe's prediction may be said to have been already fulfilled. Will it also prove true with regard to the Papacy? Will what Lord Macaulay once described as "the most august dynasty on earth" also succumb to the changing facts of human evolution and develop into a democratic regime of the modern type? This question is not merely an academic one for, in particular since Pope John reassembled the Vatican Council (adjourned *sine die* in 1870) signs have been multiplying which indicate that the papal autocracy of the Counter-Reformation (which—mainly due to the untiring efforts of the Jesuits—received its final seal and official confirmation at the time of the original Vatican Council of 1870) is nowadays approaching its end.

It was the Papacy itself, then represented by that very remarkable pope, John XXIII (whom future historians will surely regard as one of the greatest popes) which initially called together the second Vatican Council, yet since the accession of the suave and subtle ex-papal career diplomatist, Cardinal Montini, the initiative appears quite unmistakably to have passed from the Papacy to the Council. And throughout the sequential sessions of the Council, power has been passing steadily from the formerly all-powerful and ultra-conservative Roman Italian-dominated Curia (the ecclesiastical "Whitehall" of the Papacy) to the bishops, who represent the overwhelming non-Italian majority of the Church and who are necessarily far more closely in touch with present-day social and cultural developments in all parts of the world.

The already announced intention of Pope Paul to set up a permanent advisory senate of bishops as a kind of apparently permanent ecclesiastical parliament to advise the Papacy would appear destined to foreshadow the perhaps gradual evaporation of the papal autocracy, traditionally based on the centralising despotism of the Curia in Rome, and its also perhaps slow but eventually sure reversion to the ecclesiastical equivalent of a constitutional monarchy. For it must always be remembered that papal infallibility *de jure* as defined in the Infallibility Decree of July 10th, 1870, is of comparatively recent origin—and, rather ironically, the result not so much of the efforts of the Papacy itself, but rather of the Jesuits who, ever since the Council of Trent at the Counter-Reformation (mid-16th century), have steadily advanced their own power under cover of advancing that of the Papacy. To adopt the apt analogy of a German (Protestant) historian of the Papacy: ever since the Counter-Reformation, the all-powerful successors of Loyola, so often the *real* rulers of the Church, have effectively transformed the pope into the role of the king upon the chess board; into a figure of majesty that nominally dominates the board, but in reality has little power of independent movement and has in practice frequently (as at the First Vatican Council of 1870), been little more than a papal puppet of the "black pope", i.e., the General of the Jesuits (Cf. Gustav Krueger—*History of the Papacy*).

For it must not be forgotten that papal *de facto* autocracy and *de jure* infallibility reality only date from the Counter Reformation along with the Jesuits themselves. In the Middle Ages, general councils asserted their independence of popes and even deposed them (as at the Council of Constance in 1415). And even in post-Reformation times, the powerful French Church energetically repudiated the dogma of papal infallibility, an opposition continued even in the first Vatican Council, which finally proclaimed the dogma (Cf. Pompanio Leto—*Six Months at Rome*).

New Trends in the Papacy

At present it would appear to be sufficiently clear that the Church of Rome, and the Papacy along with it, are moving into a new era. The often sensational developments at the present Council, if they do nothing else, at least afford fresh and striking proofs of that recurring resiliency that already in 1840 Lord Macaulay, had noted as the underlying characteristic of the Papacy.

Two new trends currently making their presence felt are the growing power of the hitherto immobile laity (now organised in Catholic Action and already vocal at the Council) and the dawning cosmopolitan trend inaugurated by Pope Paul's successive visits to Palestine and to India. The traditional role of the pope as both the centre of

ملحق رقم -٣-

نموذجين من كراريس الزعيم العلماني جورج جاكوب هوليوك

نموذج رقم -١-

مقتطفات من كراس «العلمانية: الفلسفة العملية للناس»

9

SECULARISM.

THE PRACTICAL

PHILOSOPHY OF THE PEOPLE.

BY G. J. HOLYOAKE.

'Each of us is aware, if he looks back upon his own history, that he was a theologian in his childhood, a metaphysician in his youth, and a natural philosopher in his manhood.'—AUGUSTE COMTE, *Positive Philosophy*, p. 3.

THIRD THOUSAND.

LONDON:
HOLYOAKE & CO., 147, FLEET STREET.

1854.

[PRICE ONE PENNY.]

SECULARISM, THE PHILOSOPHY OF THE PEOPLE.

In a state of society in which every inch of land, every blade of grass, every spray of water, every bird and flower, has an owner, what has the poor man to do with orthodox religion, which begins by proclaiming him a miserable sinner, and ends by leaving him a miserable slave?

The poor man finds himself in an *armed* world, where might is God, and Poverty is fettered. Abroad the hired soldier blocks up the path of freedom, and the Priest the path of progress. Every penniless man, woman, and child, is the property of the capitalist, no less in England than is the slave in New Orleans. Society blockades Poverty, scarce leaving it escape. The artisan is engaged in an imminent struggle against wrong and injustice —then what has he, the struggler, to do with Christianity, which tells him *not* to resist evil—which forbids him self-trust—which brands him with inherited guilt—which fetters him by an arbitrary faith—which denies saving power to good works—which menaces him with eternal damnation?

Political Economy has no higher consolation than the assurance that society is a scientific scramble, where it happens that Intellect and Capital get all the kernels, and Ignorance and Poverty all the husks. The poor man has seen his friends die. Did society seek to save them? Did it take care of him yesterday? Will it provide for him to-morrow? No; its internecine maxim is, 'Each has the right to do the best he can for himself.' Capital, law, and destitution, hem in the destiny of the poor man, who little needs an evangelical parsondom, or other self-elected tormentors, to make that destiny worse. Linked to ill-requited labour the six days, he can well spare being confronted with eternal Perdition on the seventh. The people have foes enough, without having, to use a phrase of Theodore Parker's, the 'dead hands' of Luther or Knox, Calvin or Wesley, clutching at their souls. Not from singularity, or vanity, or wantonness, or wilfulness—not from a carnal mind at enmity against God—but in mere self-defence, the poor man thinks for himself; he demands freedom of opinion, free from penal, social, or religious restriction.

Distracted by casuists who spend their lives in proving the pro-

upon us. It is mere irony to say, Search the scriptures, when the meaning is—you must accept the scriptures whether they seem true or not.

It is in vain the Christian quotes the apostolical injunction, 'Prove all things; hold fast that which is good,' if we are to hold fast to *his* good, which may be evil to us. For a man to prove all things needful, and hold fast to that which *he* considers good, is the true maxim of freedom and progress.

Secularism, therefore, proclaims and justifies the right to Differ, and the right to assert conscientious difference on the platform, through the press, in civil institutions, in parliament, in courts of law, where it demands that the affirmation of those who reject Christianity shall be as valid as the oath of those who accept it.

OUTLINE OF SECULAR PRINCIPLES.

Secularism is a development of freethinking, including its *positive* as well as its *negative* side. Secularists consider freethinking as a *double* protest—a protest against specific speculative error, and in favour of specific moral truth. The term Secularism has not been chosen as a concealment, or a disguise, or as an apology for free inquiry, but as expressing a certain positive and ethical element, which the terms 'Infidel,' 'Sceptic,' 'Atheist,' do not express. *When* the term 'Infidel' is used to express fair dissent from Christianity, or 'Sceptic' to express honest doubt of its principles, or 'Atheist' to signify pure intellectual inability to account for the origin of the universe, or to accept the Christian theory of its government, none of the Secularists object to the application of such terms respectively to themselves. But as these terms usually connote guilt and dissent, they prefer the term *Secularism*, as expressive of opinions which they hold to be affirmative, virtuous, and reasonable.

A *Secularist* is one who gives primary attention to those speculations the issues of which can be tested by the experience of this life.

Secularism, looking over human society, discerns numerous persons standing outside Christianity, who, for conscientious reasons, reject one or other of its fundamental principles. At this point of sight a serious question arises—are good citizenship, personal virtue, a calm conscience, and fair desert in death, possible to such persons? Secularism undertakes to solve that problem, and answers—*Yes*.

Its moral basis is, that Justification by Conduct is a higher and more reliable truth than 'Justification by Faith in Christ.'

Its province of Study is the Order, rather than the Origin, of Nature, the study of the Laws or Operations of Nature being the most fruitful for human guidance.

Its Practical Result is the discovery that Science is the Provi-

نموذج رقم -٢-

مقتطفات من كراس: «الكاثوليكية: دين الخوف»

10

CATHOLICISM,

THE RELIGION OF FEAR.

BY GEORGE JACOB HOLYOAKE.



AS OPENED BY THE CATHOLICS.

'It is not possible to destroy political servitude while allowing religious servitude to remain; the political springs by necessity from religious slavery. In that place where the Priest may say to an entire people, "Surrender to me your reason without conditions," the Prince, by an infallible logic, may repeat also, "Surrender to me your liberty without control."'—QUINET.

LONDON:

J. WATSON, 3, QUEEN'S HEAD PASSAGE, PATERNOSTER ROW.
1850.

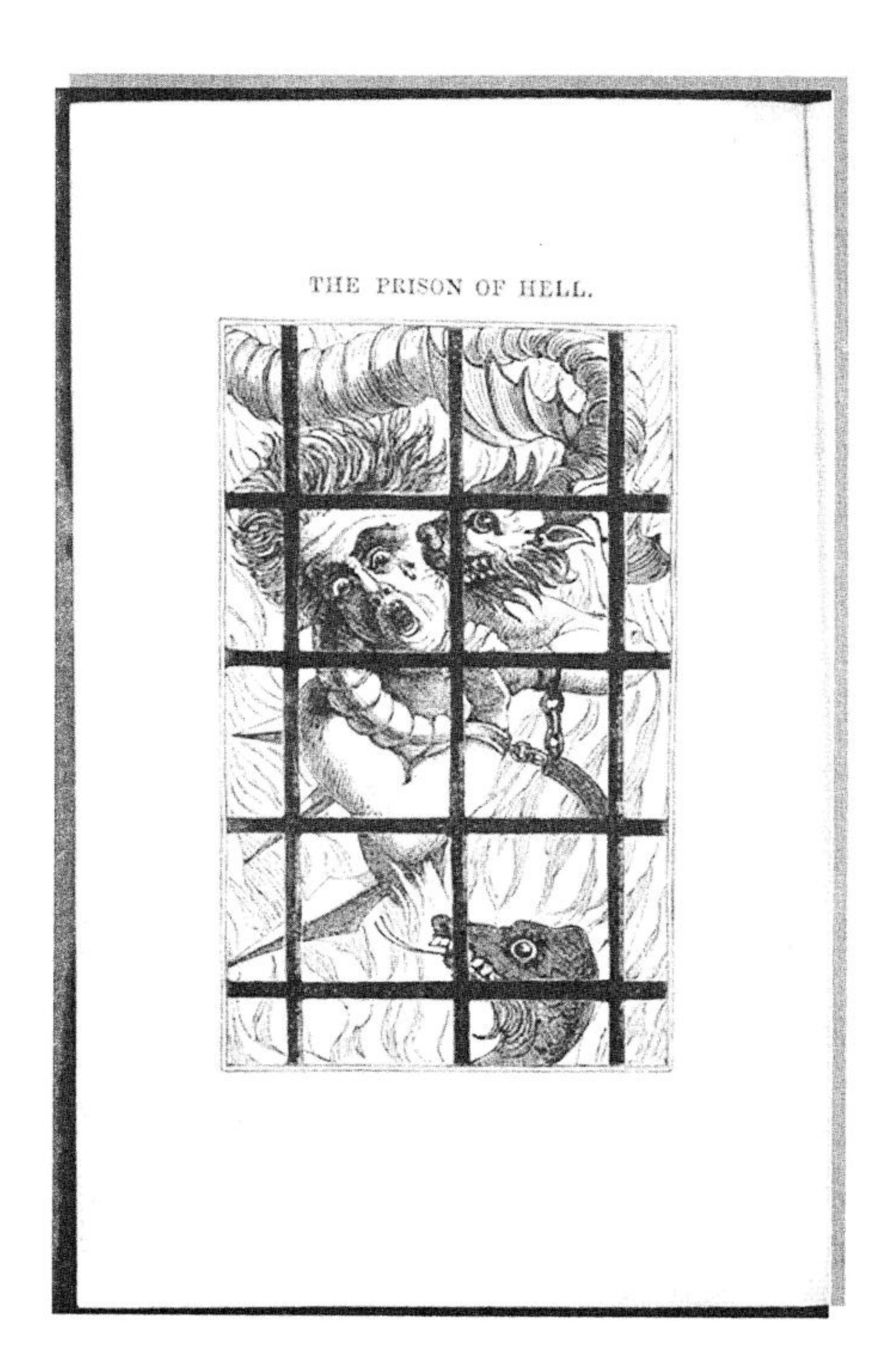
CHAP. I.

THE CASE STATED BETWEEN CATHOLICISM AND RATIONALISM.

We have suddenly come upon a conflict which has long been foreseen and frequently foretold—the conflict between Catholicism and Reason. The pretension of the Church of Rome is that she is the Church of God—that she has the most unquestionable authority to speak for God and think for the people—that she is the keeper of the Scriptures—and that she inherits that wisdom of Tradition by which the deficiencies of the Bible are supplied, and its mysteries interpreted beyond appeal. She denies the right of private judgment. She refuses to argue with the man who takes an opposite view—she announces her opinion, and enforces submission to it, under the penalties of the law and the terrors of hell.* Her plea is that the people are not able to judge for themselves, and her policy is to take care that they never shall be. Her pride is in unity, and to attain that she works by *fear*. Painting God as a terror, she uses him as a *rod*. All without her pale she subdues or destroys, and the apprehension of the fate of the heretic renders docile those within her communion. Her services are calculated to engross the thoughts, and her confessional to ensnare the life. The authority of the Church extorts the recital of every worldly transaction, and every human relation; and by this profound policy, personal liberty is at the mercy of those who have conquered the understanding.

Rationalism can make no terms with this Church. Every compromise it attempts to make leaves Rationalism insecure, because it leaves it illogical. Its only security is in revolt. Unitarianism seems to have risen in the repugnance which cultivated reason began to entertain to polytheism; and so strong has this repugnance been, that it has denied the divinity of Christ, the most seductive and consoling feature of the Christian system. The tenets of Unitarianism, proportionally consonant to reason, seem founded either in Tradition or Scripture. In the same way, Protestantism began in a revolt of the conscience. The weight of reason and of progress is on the side of Private Judgment; but the weight of Scripture and sequence is on the side of the

* See the 'End of Controversy,' by the Right Reverend Dr. John Milner, Bishop of Castabala, and Vicar Apostolic of the Midland District of England. Letter XII.



THE PRISON OF HELL.

CHAP. II.

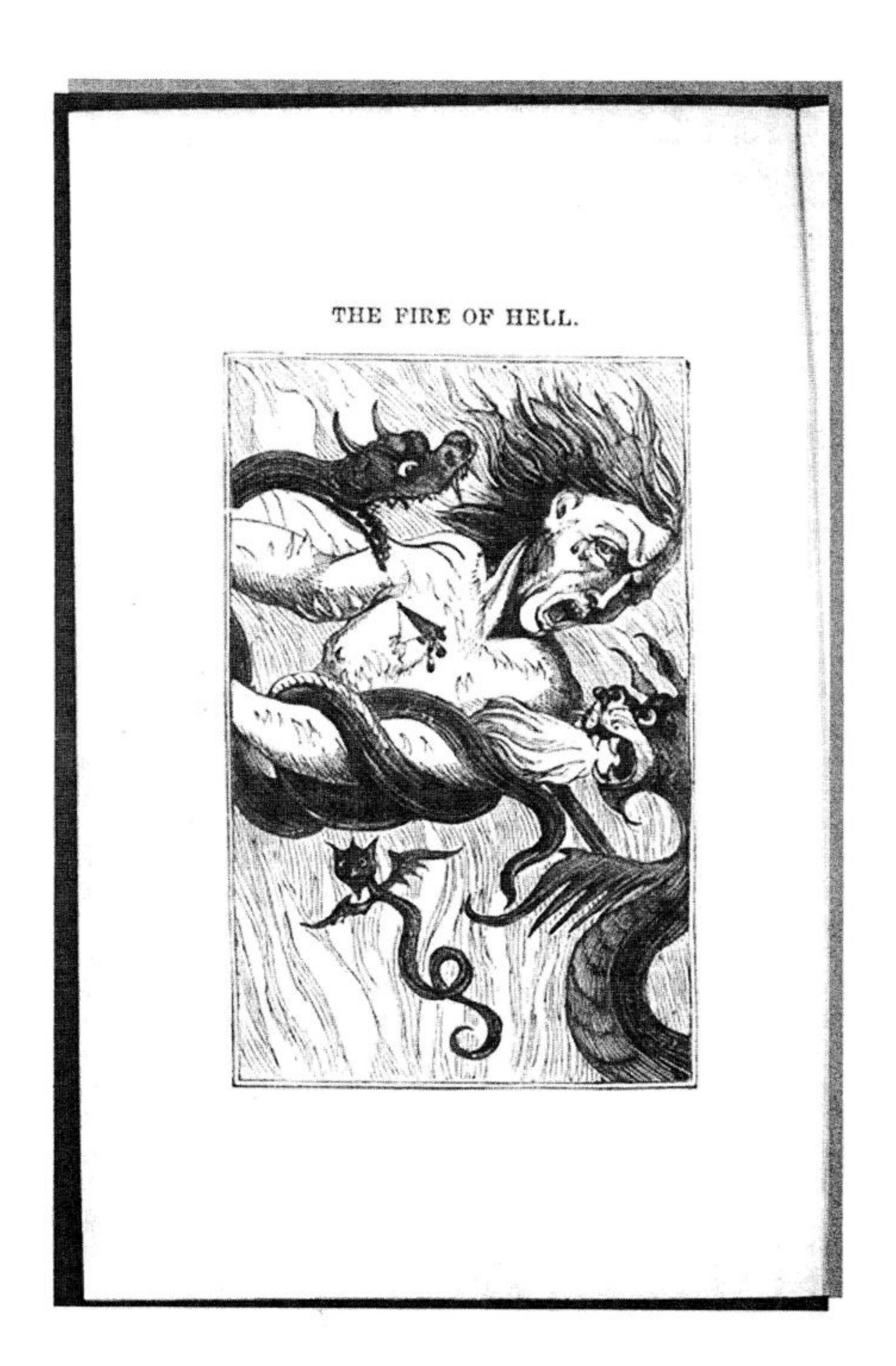
THE TERROR OF CATHOLICISM, AS EXEMPLIFIED BY ITS EXPOUNDERS.

The engraving which we have placed at the commencement of this book, is the title-page of a small volume published by Richardson, Fleet Street, and plentifully distributed by the Roman Catholic body, entitled 'Hell Opened to Christians!' and the only consolation is that it is not opened to Rationalists. 'Hell is opened to Christians,' so the book avers, 'to caution them from entering therein;' but they who believe there is a God, the author of such a place for the relentless punishment of erring men, have already entered into Hell, the worst of hells—the hell of apprehension; for as they who fear death die many times before their death, so they who live in apprehension of God's vengeance taste of Hell before their time.

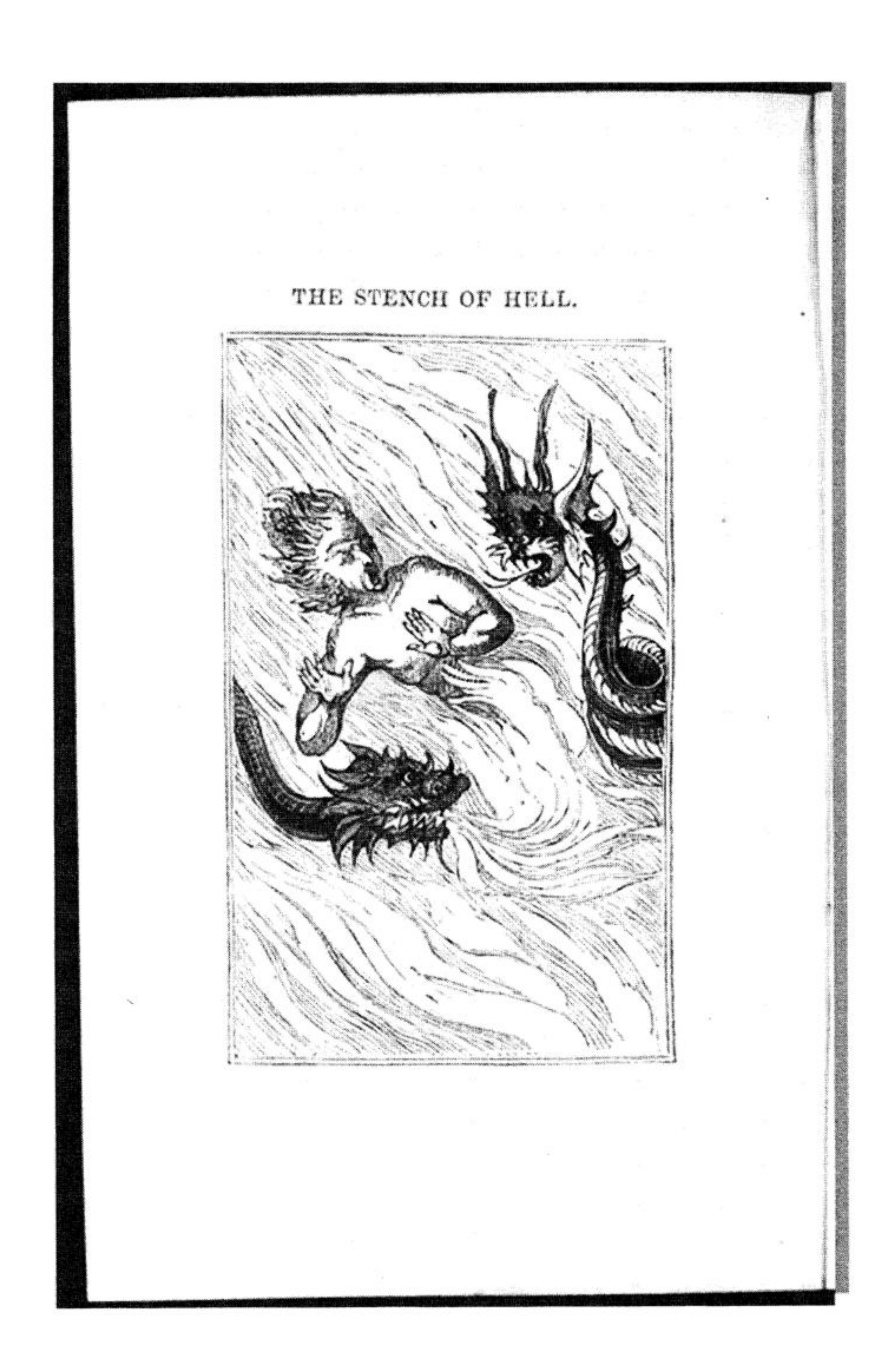
Father Pinamonti, of the Society of Jesus, who is the author of this book, 'published with authority,' as the title-page declares, prefaces his performance with the revolting combination of material fires and animal tortures, which the reader observes, and at which he may well exclaim 'how happy are they who never heard of Christianity!'

We are told that in Romish cities the Catholic Churches contain gross and revolting delineations of the torments of the damned. Even the walls of such cities are sometimes made lurid with infernal flames. But since the Reformation, which, with all its faults, was an European blessing, these scenes have been banished from England. Their return is, however, marked by the publication amongst us of Father Pinamonti's book, bearing the coarse title of 'Hell Opened.' It is divided into reflections for every day in the week, and each day is apportioned a plate; and the adjoining engraving is a fac-simile of the brutal representation prefixed to Sunday. Surely a more dismal beginning of the week was never before invented. Let men learn to be merciful to the aberrations and differences of opinion among their brethren, when people can be found to sincerely believe that a God of *love* has devised a scheme of such ferocious agony as is here pictured, as a punishment for his helpless and erring creatures.

When a skilful rhetorician invents a figure of speech, he chooses a simile which heightens what he intends to exalt, and lowers what he intends to degrade. Perfect in this art, Father Pinamonti likens his opponents unto *asps*, which have eyes on their temples, seeing what is on both sides of them but not what comes in front



THE FIRE OF HELL.



THE STENCH OF HELL.

CHAP. IV.

THE TASTE OF OUR AUTHOR.

A LADY, writing to us, asks, 'Are you aware that the author's name—Pinamonti—by the substitution of e's for i's, becomes Penamonte, *mountain of pain?*' Surely this must be the good Father's real name, and we would call him by it were it not that Father P. is not only a mountain of pain but a volcano of stench. What follows is his description of the effluvia of the bottomless pit. Did anybody, not a saint, ever dilate so unctuously on such an offensive subject? When I produced the book at the recent lecture at the City Road, I was obliged to ask the audience to hold their noses while I read it; and the reader will find it necessary to observe the same precaution as he proceeds. Hear now this filthy Father:—

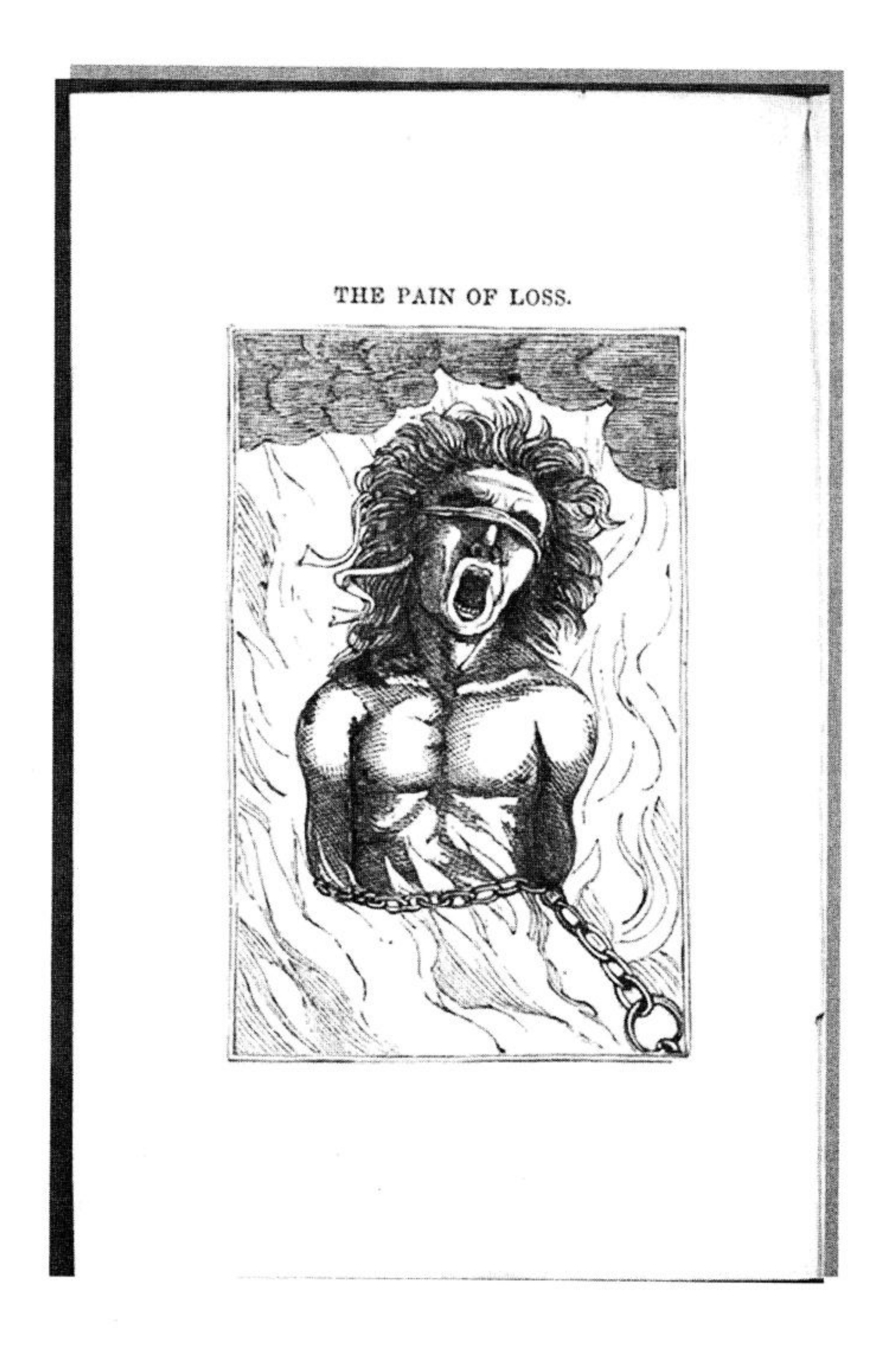
'Consider how much the misfortunes of this prison, so strait and obscure, must be heightened by the addition of the greatest stench. Firstly. Thither, as to a common sewer, all the filth of the earth shall run after the fire has purged it at the last day. Secondly. The brimstone itself continually burning in such prodigious quantity, will cause a stench not to be borne. Thirdly. The very bodies of the damned will exhale so pestilential a stink, that if any one of them were to be placed here on earth it would be enough, as St. Bonaventure observes, to cause a general infection. "A stench shall arise from their carcases," saith the prophet, for so he calls them, though they are living bodies, and will continue so as to the pain they shall suffer; but at the same time are worse than carcases as to the stench that will come from them. The devil appearing one day to St. Martin with purple robes and a crown on his head, "Adore me," said he, "because I am Christ, and deserve it;" but the saint, assisted by a celestial light, answered him, saying, "My Lord is crowned with thorns and covered with blood, I know him not in this new dress." The devil, being discovered, fled away, but left so great a stench behind him, that this alone was sufficient for the saint to discover him. If, then, one single devil could raise such a stench, what will that pestiferous breath be that shall be exhaled in that dungeon where all the whole crowd of tormenting devils, and all the bodies of the tormented, will be penned up together?'

If the reader can only admit these premises, he must be satisfied with the conclusion. If this book had been published when

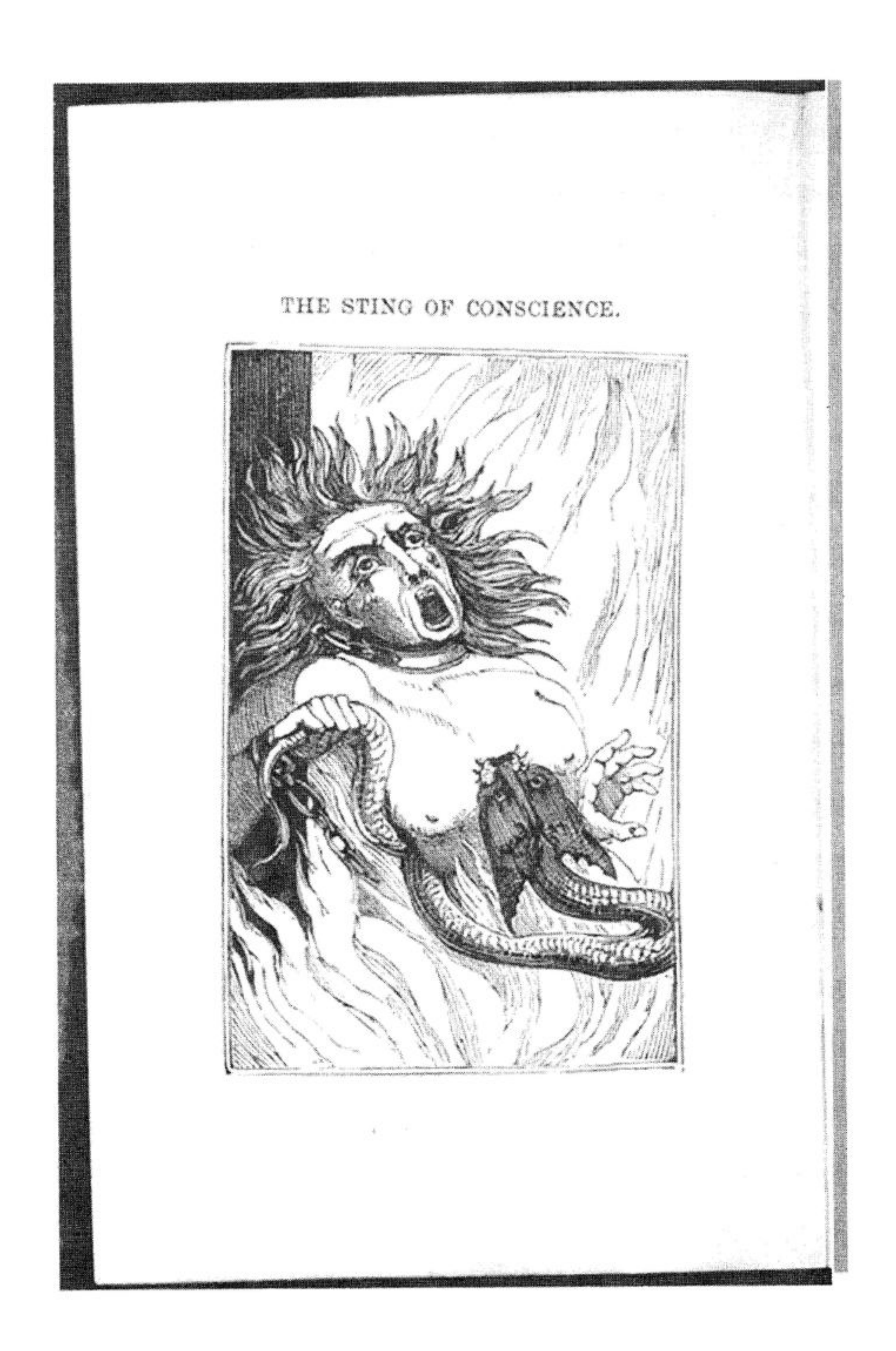
2

the cholera was about, it onght to have been put down as a nuisance by the Board of Health. 'Once,' says Coleridge, 'I sat in a coach opposite a Jew—a symbol of old clothes bags—an Isaiah of Holywell Street. He would close the window; I opened it. He closed it again; upon which, in a very solemn tone, I said to him, "Son of Abrabam! thou smellest; son of Isaac! thou art offensive; son of Jacob! thou stinkest foully. See the man in the moon! he is holding his nose at thee at that distance; dost hou think that I sitting here can endure it any longer?"' What would Coleridge have said to the pen and fancy of Father Pinamonti.

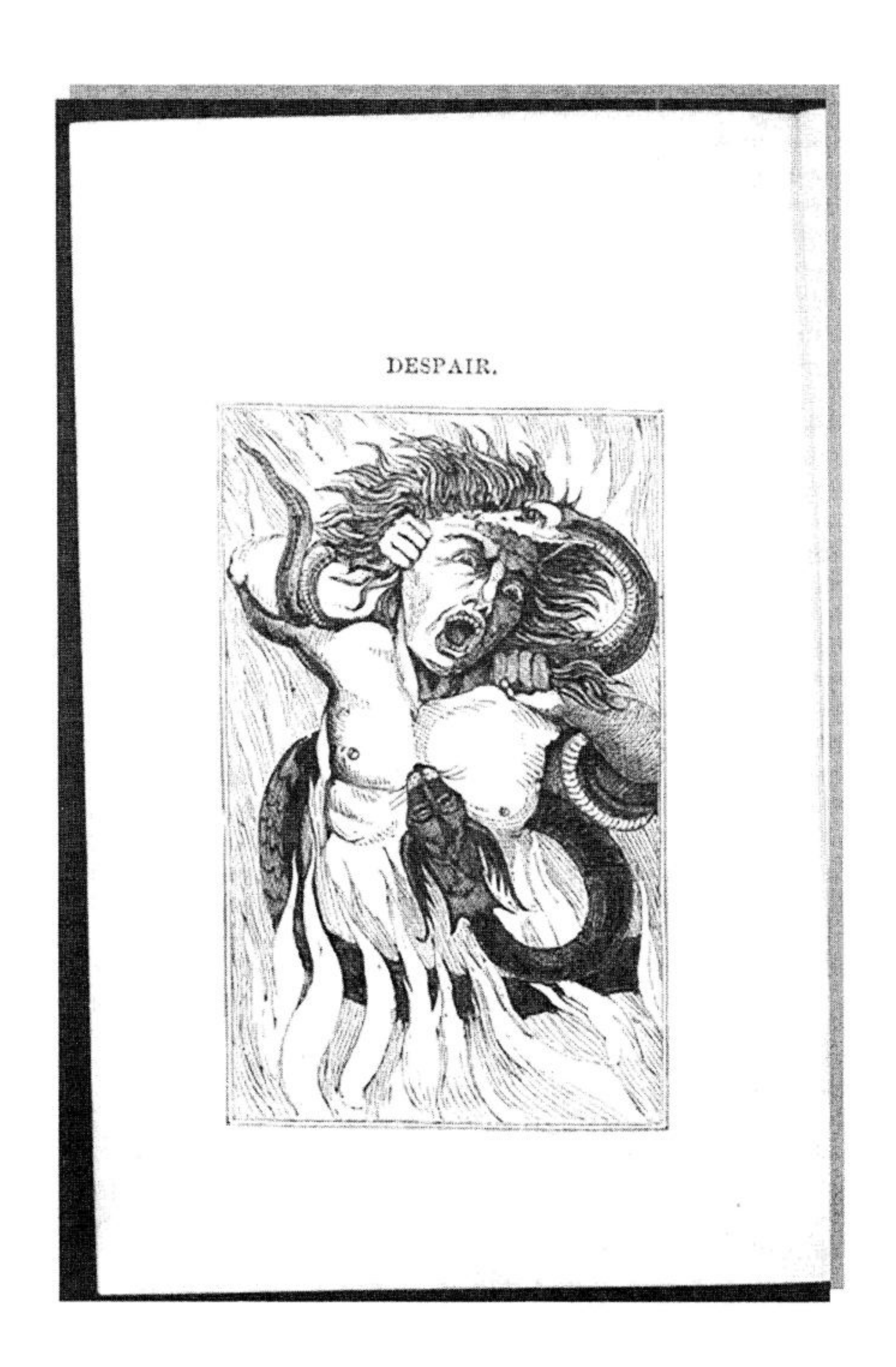
The Catholic Church is the predominant religious influence of Europe, and to combat that is to combat the great enemy of philosophy and freedom. Viewing, as in this country we do, all things through a Protestant medium, even moralists underrate the magnitude of the evil in their way—and even Freethinkers contribute to the ascendancy of error by a philosophical indifference which is at once the shame of reason and the strength of superstition. Father Pinamonti accumulates in his work touches of masterly rhetoric, *infernal* calculations of the greatest curiosity, as well as levity the most obscene and offensive. The next chapter presents a specimen.



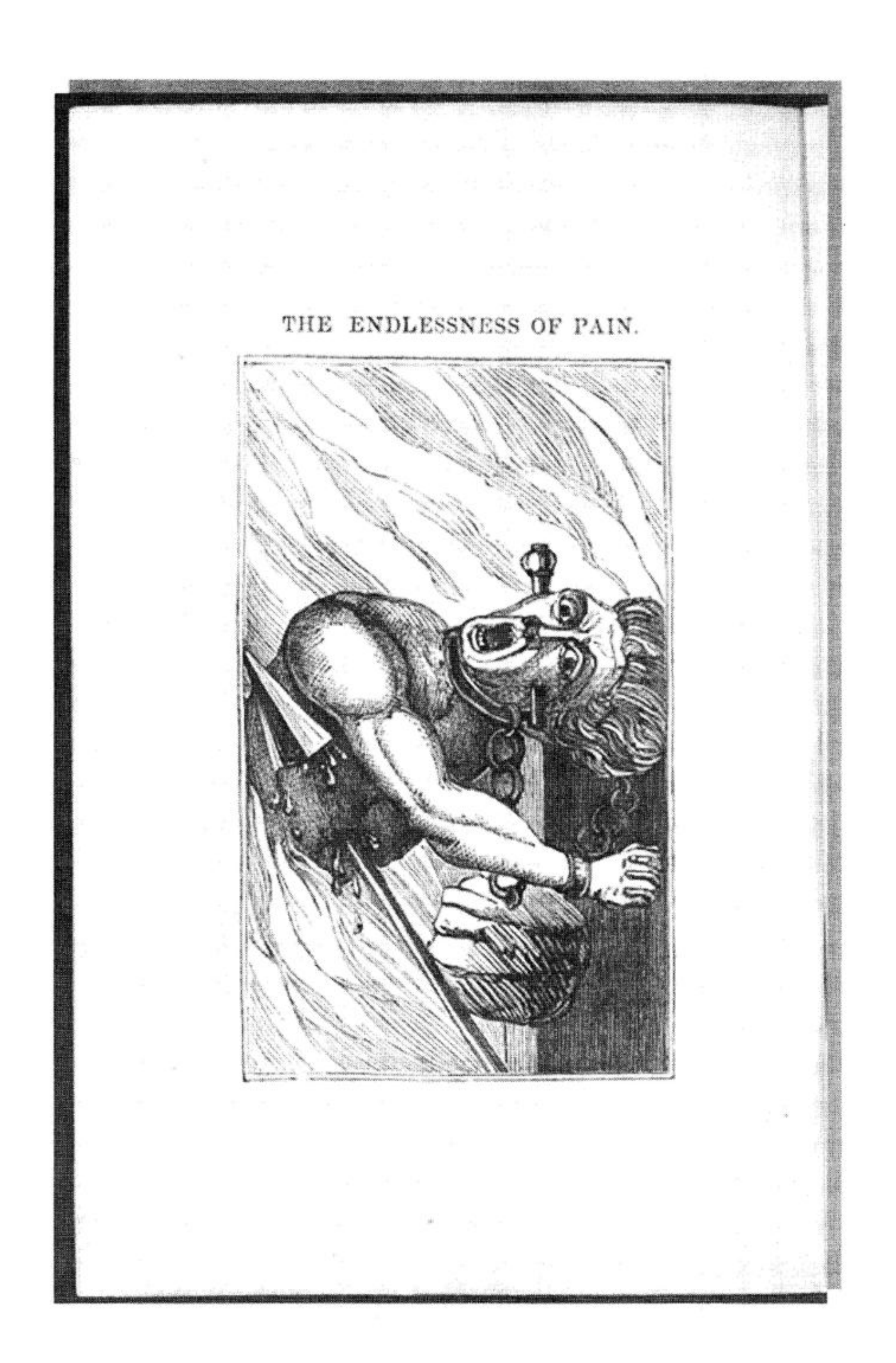
THE PAIN OF LOSS.



THE STING OF CONSCIENCE.



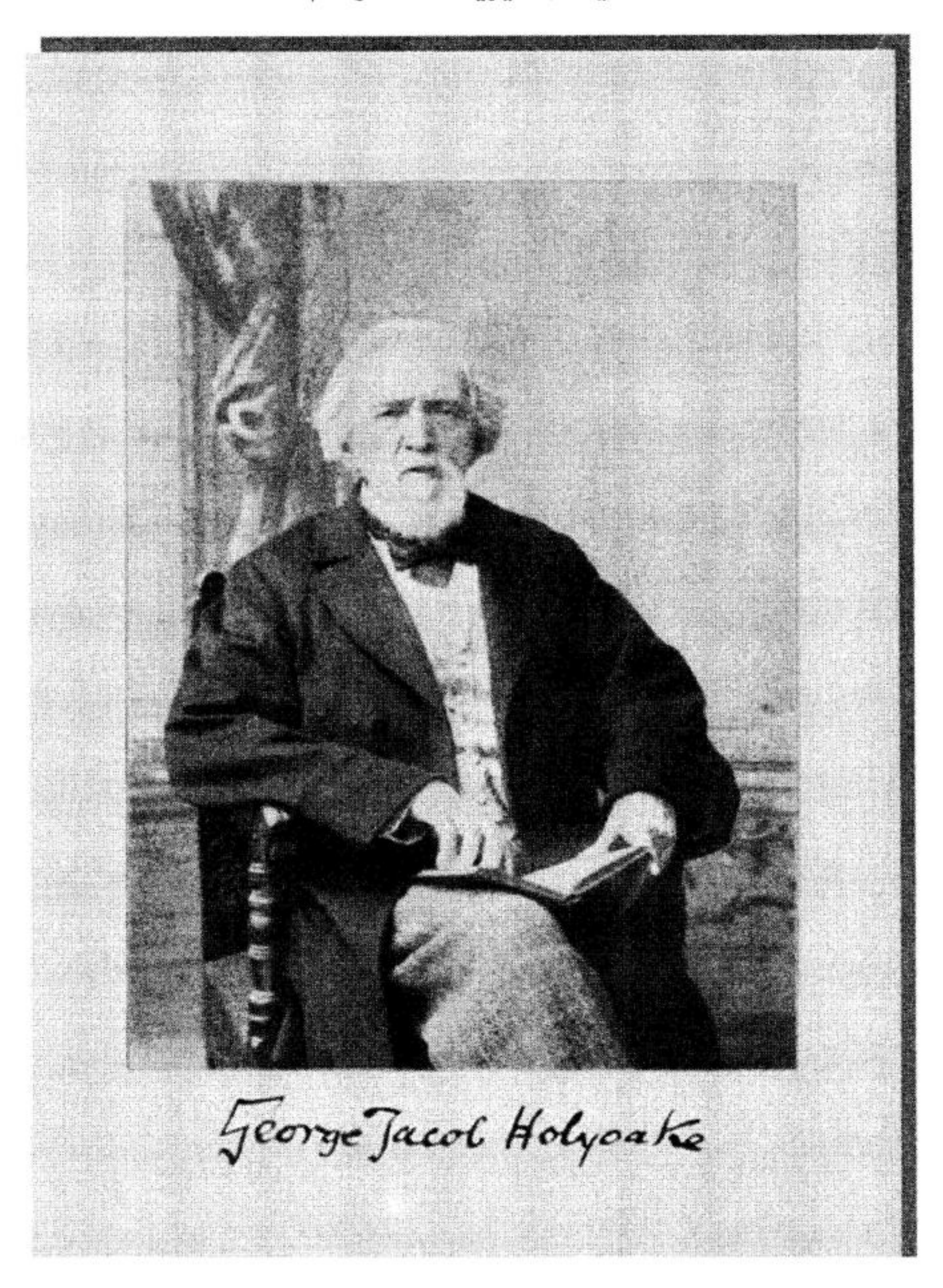
DESPAIR.


THE ENDLESSNESS OF PAIN.

ملحق رقم -٤-

صورة وواجهة غلاف كتاب الزعيم العلماني جورج جاكوب هوليوك المعنون:

«العلمانية الإنكليزية»- الصادر عام ١٨٩٦



ENGLISH SECULARISM

A CONFESSION OF BELIEF

BY

GEORGE JACOB HOLYOAKE

THINK

CHICAGO
THE OPEN COURT PUBLISHING COMPANY
1896

ملحق رقم -٥-

أهداف الجمعية العلمانية الوطنية ومبادئها في عام ١٨٦٦[1]

أهداف الجمعية العلمانية الوطنية:

١- تشكيل جمعية للتعاون المتبادل تُعنى بجميع المفكرين الأحرار في بريطانيا العظمى .

٢- توجيه دعاية الفكر الحر على نحو أكثر حدة في المملكة المتحدة ، ولا سيما في المقاطعات التي تشهد قلة من المفكرين الاحرار وندرة في محاضرات الفكر الحر .

٣- تأسيس صندوق لمساعدة كبار السن والمعوزين من المفكرين الأحرار .

٤- دعم البرلمان وأي فعل آخر يصب في إزالة جميع المعوقات التي تستند على الإعتبارات والآراء الدينية .

٥- إنشاء مدارس علمانية وصفوف لتعليم الراشدين تكون على إرتباط مع أية جمعية محلية ، وتحوي على عدد كافٍ من الأعضاء لدعم مثل مدارس وصفوف كهذه على نحوٍ واف .

مبادئ الجمعية العلمانية الوطنية:

١ - تعلن هذه الجمعية بأن ترقية التحسين والسعادة البشرية هو أسمى واجب .

٢- إن التعاليم اللاهوتية في العالم كانت وما تزال العائق الأكثر قوة في طريق التحسين والسعادة البشرية ؛ وإن النشاط البشري يوجه بإضطراد عبر الوعي بالوجود ، بينما يغدو الفكر مضللاً ومُعرقلاً بطريقة خبيثة للغاية حينما يخضع للخرافات الطفولية والسخيفة .

٣- من أجل ترقية التحسين والسعادة البشرية على نحوٍ فعال ، يجب وضع كل فرد من العائلة البشرية في مكان جيد وتعليم جيد ؛ ويجب على جميع أولئك الذين تكون أعمارهم ملائمة أن يوظفوا على نحوٍ مفيد لصالحهم وللصالح العام .

٤- إن تقدم البشرية وسعادتها لا يمكن أن يُرقيان بفعالية من دون توفر حرية مدنية ودينية ؛ ولذلك فإنه واجب على كل فرد- وهو واجب تم الإعتراف به عملياً من

---

(1) The National Reformer, 9, 23 September 1866; McGee, Op. Cit., pp.35-36.

أي عضو من أعضاء هذه الجمعية- أن يهاجم وبفعالية جميع الحواجز التي تعترض حرية الفكر والتحدث على نحوٍ متساوٍ في المواضيع السياسية واللاهوتية .

ملحق رقم -٦-

إعلان أهداف الجمعية العلمانية الوطنية ومبادئها في عام ١٨٧٤ (١)

١ - إنشاء نظام تعليمي علماني حقيقي ، حيث يوضع كل طفل مع بداية حياته في ظرف عادل من أجل تشكيل آراء صحيحة على نحو كبير ، وكذلك من أجل سلوك مفيد على نحوٍ مناسب . وإلغاء الصفة الرسمية للكنيسة فضلاً عن تجريدها من ممتلكاتها ، ووضع جميع الأديان وأشكال الآراء التخمينية على قدم المساواة أمام القانون .

٢- الشروع بتحسين أوضاع الطبقات الزراعية على نحوٍ خاص ، إذ إن وضعها الفظيع جراء إنحطاطها الإجتماعي في الوقت الحاضر هو عائق مدمر لتشكيل مكانة جيدة لها في المجتمع .

٣- القيام بتغيير قوانين الأرض من أجل تحطيم النظام الحالي الذي وضع مقاطعات هائلة تحت تصرف حفنة من الأيادي ، إذ إن كثير من هؤلاء ليس لهم أدنى إهتمام بالتربة ، ولهذا ومن أجل ضمان حق العامل الزراعي يتوجب منحه جزءاً من التحسين من الأرض التي تولى زرعها .

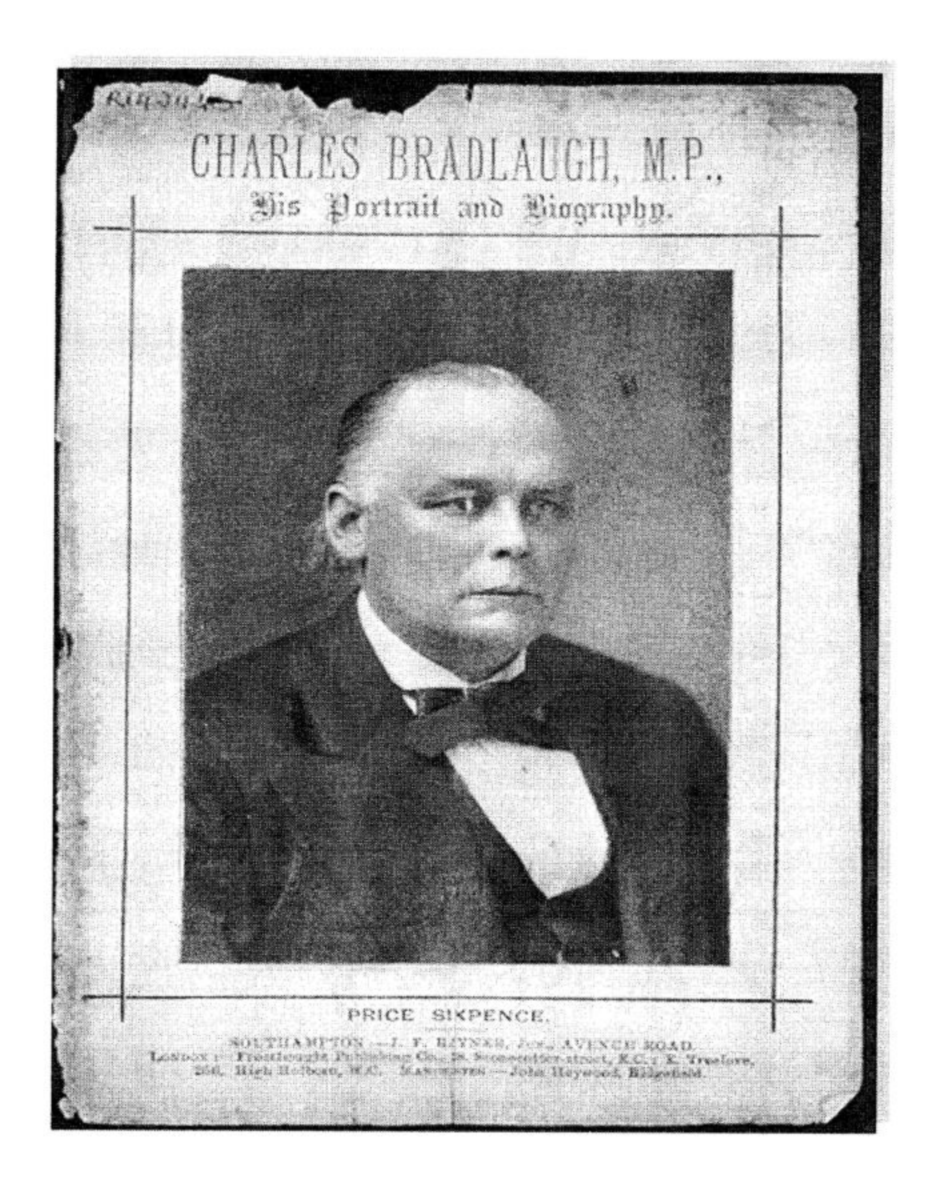
٤- السعي لتدمير مجلس اللوردات الوراثي الحالي ، وإستبداله بمجلس شيوخ مدى الحياة ينتخب أعضاؤه بناءً على ملاءمتهم ، وضرورة إيجاد دستور لحزب وطني يصبو لإنتزاع السلطة الحاكمة من العوائل الصغيرة الممثلة بالويك والتوري .

٥- إستقصاء السبب الذي وقف وراء الفقر في جميع البلدان القديمة من أجل معرفة كيف أسهم التوزيع غير العادل للثروة بذلك أو إحداث أسباب أكثر جذرية . والنقاش بشأن مختلف مخططات التحسين الإجتماعي ، والتأكد من إمكانية القوانين التي تحكم زيادة السكان والإنتاج وأثرها في إرتفاع وإنخفاض الأجور .

(1) The National Reformer, 14 June 1874; McGee, Op. Cit., p.36.

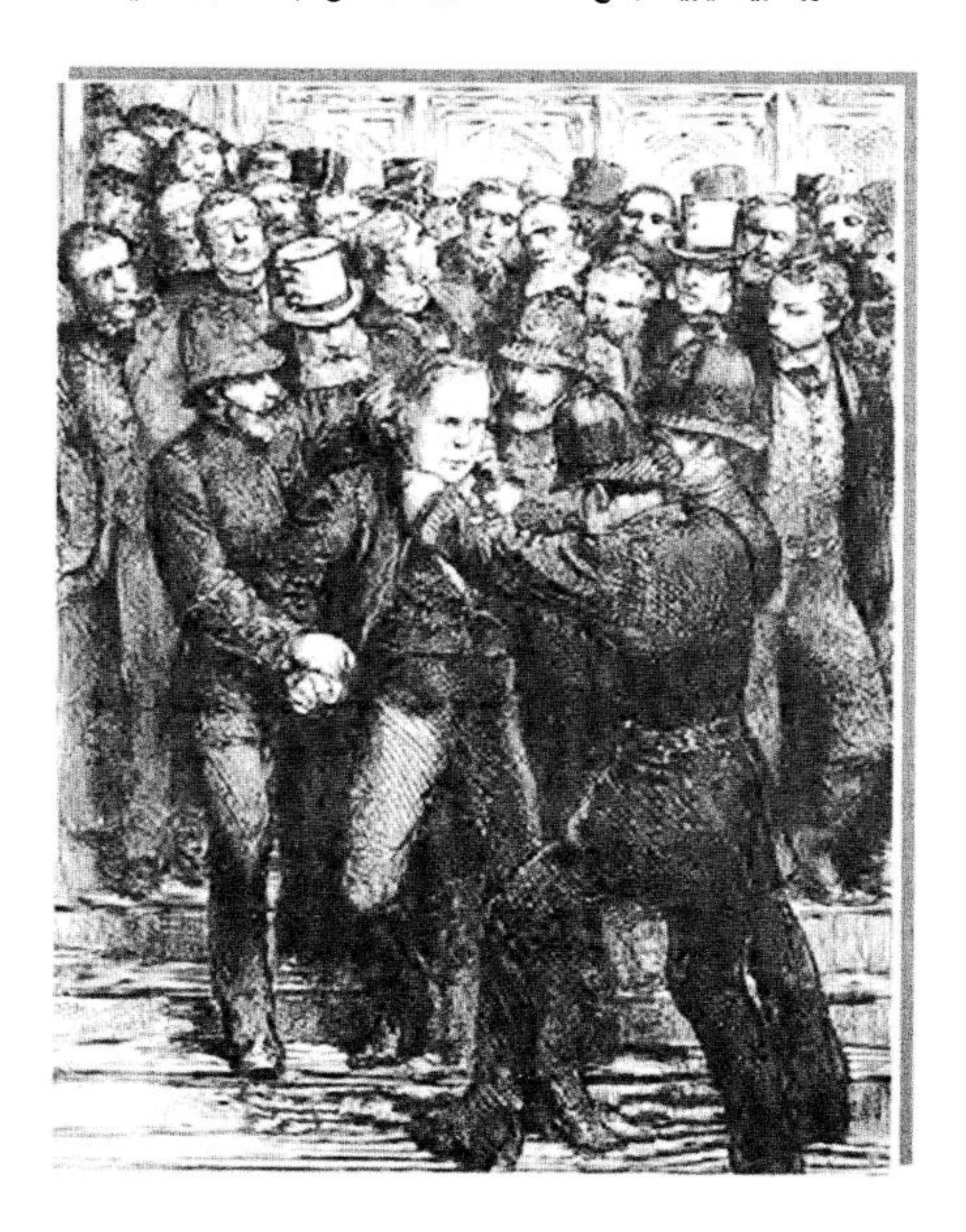
ملحق رقم -٧-

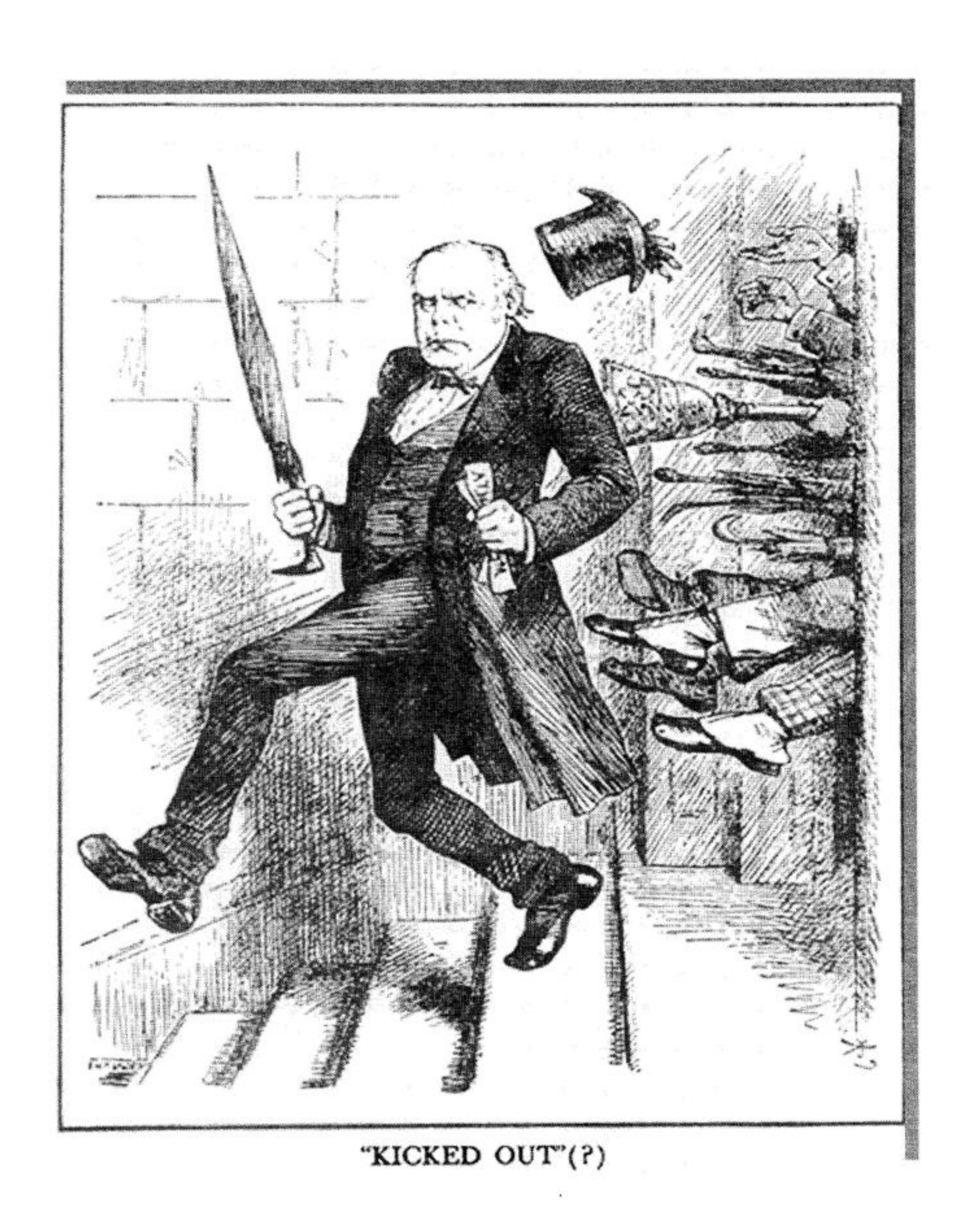
صورة الزعيم العلماني تشارلز برادلو(١)



(1) J. F. R., Charles Bradlaugh, M. P., His Portrait And Biography. *Manchester Selected Pamphlets*, 1881, p.1.

صور كاريكاتيرية توضح لحظة قذف برادلو خارج البرلمان البريطاني





"KICKED OUT"(?)

رُفسَ خارجاً (؟)

رسم كاريكاتيري يوضح طرد برادلو بالقوة خارج البرلمان، رسم من لدن جون تانل John Tanniel، ونشر في دورية The Punch بتاريخ ٣ تموز ١٨٨٠

قائمة المصادر والمراجع

١- المصادر الاجنبية:

أولاً: المصادر باللغة الانكليزية:

أ- الكتب الوثائقية:

* **Adams & Stephens (ed.),** George Burton & H. Morse, Select Documents of English Constitutional History, New York, The Macmillan Company, 1920.

* **Cole & Filson**, George Douglas Howard & Alexander Warnock, British Working Class Movements: Select Documents 1789-1875, London, Macmillan, 1951.

* **Hansard's Parliamentary Debates**, London, Longman, Hurst, Rees, Orme & Brown, 1819, 1840, 1880- 1883, 1886, 1888.

* **Maclure (ed.)**, J. Stuart, Educational Documents: England and Wales 1816 to The Present Day, New York, Routledge Reissues, 2006, Vol.II.

* **Young & Handcock**, G. M. & W. D., English Historical Documents 1833-1874, London, Eyre & Spottiswoode (Publishers) Ltd., 1970, Vol.XII.

ب- الموسوعات والقواميس:

١- الكتب:

* **Bouvier**, John, A Law Dictionary Adapted to The Constitution And Laws of The United States of America, Sixth Edition, Philadelphia, Childs & Peterson, 1856, Vol.II.

* **Brake & Demoor (ed.)**, Laurel & Marysa, Dictionary of Nineteenth Century Journalism in Great Britain and Ireland, First Published, London, Academia Press, 2009.

* **Chambers's Encyclopædia**, Philadelphia, Edinburgh, W. & R. Chambers, 1871, Vol.VIII.

* **Collins Concise Encyclopedia**, London, Peerage Books, 1985.
* **Donnald (ed.),** A. H., The Encyclopedia Americana, New York, Chicago, Americana Corporation, 1948, Vol.24.
* **Eaman**, Ross, Historical Dictionary of Journalism: The A to Z of Journalism, Maryland, Scarecrow Press, Inc., 2009.
* Encyclopedia Britannica, CD., 2010.
* **Fitzgerald (ed.)**, Allan D., Augustine Through The Ages: An Encyclopedia, Cambridge, Wm. B. Eerdmans Publishing Co., 1999.
* **Flynn (ed.)**, Tom, The New Encyclopedia of Unbelief, New York, Prometheus Books, 2007.
* **Furet & Ozouf**, Francois, A Critical Dictionary of The French Revolution, Translated By: Arthur Goldhammer, Harvard University Press, 1989.
* **Hastings & Selbie (eds.)**, James & John A., Encyclopedia of Religion and Ethics, Kessinger Publishing, 2003, Part 9.
* **Hawkesworth & Kogan (eds.),** Mary & Maurice, Encyclopedia of Government and Politics, London, Routledge, 2001, Vol.I.
* **Hodge (ed.),** Carl Cavanagh, Encyclopedia of The Age of Imperialism 1800-1914, First Published, Greenwood Publishing Group, Inc., 2008, Vol.I.
* **Jennings**, Ivor, Party Politics, Cambridge, Cambridge University Press, 2009, Vol.III (The Stuff of Politics).
* **Kenyon**, J. P., Dictionary of British History, London, Sphere Books Ltd., 1988.
* **McCabe**, Joseph, A Biographical Dictionary of Modern Rationalists, London, Watts & CO., 1920.
* **Merriam- Webster's Dictionary of Synonyms:** A Dictionary of Discriminated Synonyms With Antonyms and Analogous and Contrasted Words, Massachusetts, Merriam- Webster Inc., 1984.

* **Monroe (ed.),** Paul, Ancyclopedia of Education, New York, The Macmillan Company, 1913, Vol.5.

* **Murray (ed.),** James A. H., A New English Dictionary on Historical Principles, Oxford, The Clarendon Press, 1888, Vol.I.

* **Olson & Shadle (eds.),** James S. & Robert, Historical Dictionary of The British Empire, First Published, Greenwood Publishing Group, Inc., 1996, Vol.A-J.

* **Parrinder**, Geoffrey, The Routledge Dictionary of Religious & Spiritual Quotations, London, Routledge, 2005.

* **Plowright**, John, The Routledge Dictionary of Modern British History, First Published, New York, Taylor & Francis Group e-Library, 2006.

* **Roman & Roman**, Luke & Monica, Encyclopedia of Greek and Roman Mythology, New York, Infobase Publishing, 2010.

* **Sandford & Others**, D. K., The Popular Encyclopedia, Glasgow, Blackie & Son, 1841, Vol.VI, Part I.

* **Smith**, Warren Allen, Who's Who in Hell: A Handbook and International Directory For Humanists, Freethinkers, Naturalists, Rationalists, and Non-Theists, Barricade Books, 2000.

* **Soble (ed.),** Alan,- Sex From Plato to Paglia: A Philosophical Encyclopedia, First Published, Greenwood Publishing Group, Inc., 2006.

* **Swatos (ed.)**, William H., Encyclopedia of Religion and Society, London, Sage Publications, Inc., 1998.

* **The Catholic Encyclopedia**, New York, The Encyclopedia Press, Inc., 1913, Vol.XIII.

* **The International Standard Bible Encyclopedia**, Michigan, Wm. B. Eerdmans Publishing Co., 1979, Vol.1.

* **Tomlins**, Thomas Edlyne, The Law Dictionary, London, Longman, 1835, Vol.II.

* **Wilding & Laundy**, Norman & Philip, An Encyclopedia of Parliament, London, Cassell and Company Ltd, 1961.

٢- المواقع على شبكة المعلومات (الأنترنت):

* **http**://victoriancalendar.blogspot.com/2011/06/june-21-1877-dirty-filthy-book.html
* **http**://www.jewishencyclopedia.com/view.jsp?artid=375&letter=E#974
* **http**://www.ldoceonline.com/dictionary/public-school

جـ - الأطروحات والرسائل الجامعية المنشورة:

* **Gregory**, Raymond, A Study of Locke's Theory of Knowledge, Dissertation Presented in Partial Fulfillment of The Requirements for the Degree of Doctor of Philosophy in The Graduate School of The Ohio State University, Wilmington, Ohio, 1919.
* **Yeates**, Owen Dennis, Tolerating on Faith: Locke, Williams, and The Origins of Political Toleration, Doctor Dissertation Submitted in Department of Political Science in The Graduate School- Duke University, 2007.

د - الكتب:

* **A Full Report** of The Discussion Between The Rev. Brewin Grant B. A., And "Iconoclast" In The Mechanics' Hall, Sheffield on The 7th, 8th, 14th, & 15th June 1858, London, Jackson & Walford, St. Paul's Churchyard, 1858.
* **Adams & Sydie**, Bert N. & R. A., Sociological Theory, London, Sage Publications Ltd., 2001.
* **Adler (ed.),** Cyrus, The American Jewish Year Book: September 14, 1901, To October 1, 1902, Philadelphia, The Jewish Publication Society of America, 1901.

* **Aldred**, G. A., Richard Carlile: Agitator, Third Edition, Glasgow, 1941.

* **Aldred**, Guy Alfred, The Devil's Chaplain: The Story of Rev. Robert Taylor, M.A., M.R.C.S. (1784-1834), Glasgow, The Strickland Press, 1942.

* **Aldridge**, Alfred Owen, Man of Reason: The life of Thomas Paine, London, Lippincott, 1959.

* **Alexander**, John K., Samuel Adams: The Life on An American Revolutionary, Maryland, Rowman & Littlefield Publishers, Inc., 2011.

* **Archbold**, John Frederick, The Practice of Country Attornies and Their Agents in The Courts of Law at Westminster, London, Shaw and Sons, 1838.

* **Armytage**, W. H. G., Four Hundred Years of English Education, Second Edition, Cambridge, Cambridge University Press, 1970.

* **Arnstein**, Walter L., The Bradlaugh Case: A Study in Late Victorian Opinion and Politics, Oxford, Clarendon Press, 1965.

* **Aston & Cragoe (ed.),** Nigel & Matthew, Anticlericalism in Britain c.1500-1914, Gloucestershire, Sutton Publishing Limited, 2001.

* **Atkinson & Martineau**, Henry George & Harriet, Letters on The Laws of Man's Nature and Development, Boston, Josiah P. Mendum, 1851.

* **Autobiography of J. S. Mill & On Liberty**: Characteristics, Inaugural Address at Edinburgh & Sir Walter Scott: The Five Foot Classics, Cosimo, Inc., Vol.XXV.

* **Aveling**, Edward, The Student's Darwin, London, Freethought Publishing Co., 1881.

* **Bächli & Petrus (eds.),** Andreas & Klaus, Monism, Frankfurt, Ontos Verlag, 2003.

* **Banks & Banks**, Joseph Ambrose & Olive, Feminism and Family Planning in Victorian England, Liverpool, University Press, 1964.

* **Banks**, J. A., Victorian Values: Secularism and The Size of Families, First Published, London, Routledge & Kegan Paul Ltd, 1981.
* **Barker (ed.),** John Thomas, The Life of Joseph Barker, London, Hodder and Stoughton, 1880.
* **Barker**, A. G., Henry Hetherington, London, 1938.
* **Barker**, Joseph, The Abominations of Socialism Exposed, in Reply to The Gateshead Observer, Newcastle, 1840.
* **Barnard**, H. C., A History of English Education From 1760, Second Edition, London, University of London Press Ltd., 1961.
* **Baron**, G., Society, Schools and Progress in England, First Edition, London, Pergamon Press Ltd., 1965.
* **Bascom**, John, Natural Theology, New York, G. P. Putnam's Sons, 1880.
* **Bebbington**, D. W., Evangelicalism in Modern Britain: A History From the 1730s to The 1980s, London, Taylor & Francis e- Library, 2005.
* **Berkel & Other (eds.)**, Klass Van, A History of Science in The Netherlands: Survey, Themes and Reference, Brill, Leiden, 1999.
* **Berman**, David, A History of Atheism in Britain: From Hobbes to Russell, London, Routledge, 1990.
* **Berman**, Harold J., Law and Revolution: The Formation of The Western Legal Tradition, Harvard, Harvard University Press, 1983.
* **Berrow**, Capel, Deism Not Consistent With The Religion of Reason and Nature, London, Pall.Mall, 1780.
* **Besant**, Annie, An Autobiography, Second Edition, London, T. Fisher Unwin, 1893.
* ______, Autobiographical Sketches, Maryland, Arc Manor, 2008.
* ______, Theosophy, London & New York, Dodge Publishing Co., 1912.
* **Blakemore**, Steven, Crisis in Representation: Thomas Paine, Mary Wollstonecraft, Helen Maria Williams, and The Rewriting of The French

Revolution, London, Associated University Presses, 1997.

* **Blanchard**, Calvin, Complete Works of Thomas Paine, Chicago and New York, Belford, Clarke & CO., 1885.

* ______, The Life of Thomas Paine, New York, Calvin Blanchard, 1860.

* **Blenkinsopp**, Joseph, The Pentateuch: An Introduction to The First Five Books of The Bible, Yale University Press, 2000.

* **Bobzien**, Susanne, Determinism and Freedom in Stoic Philosophy, Oxford, Oxford University Press, 2004.

* **Bonner**, Hypatia Bradlaugh, Penalties Upon Opinion, Or, Some Records of The Laws of Heresy and Blasphemy, 3rd ed., London, Watts & Co., 1934.

* **Booth**, Charles, Life and Labour of The People in London, 3rd Series: Religious Influences, London, Macmillan and Co., Limited, 1902, Vols.I, II.

* **Bowen**, Desmond, The Idea of The Victorian Church: A Study of The Church of England 1833-1889, Montreal, McGill University Press, 1968.

* **Bradlaugh**, Charles, A Plea For Atheism, London, A. Bonner, 1895.

* **Brandon**, Eric, The Coherence of Hobbes's Leviathan: Civil and Religious Authority Combined, New York, Continuum International Publishing Group, 2007.

* **Bray**, Charles, The Philosophy of Necessity or The law of Consequences As Applicable to Mental, Moral, Social Science, London, Longman, Orme, Brown, Green and Longmans, 1841, Vol.I.

* **Brewster**, David, The Life of Sir Isaac Newton, New York, Harper & Brothers, 1836.

* **Brockett**, Allan, Nonconformity in Exeter 1650-1875, Manchester, Manchester University Press, 1962.

* **Bromley (ed.)**, David G., The Politics of Religious Apostasy: The Role of

Apostasy in The Transformation of Religious Movements, First Published, Greenwood Publishing Group, Inc., 1998.

* **Brown**, Richard, Church and State in Modern Britain 1700-1850, First Published, London, Routledge, 1991.

* **Büchner**, Ludwig, Force and Matter: or Principles of The Natural Order of The Universe, Fourth Edition, London, Asher and Co., 1884.

* **Buckland**, William, Vindiciae Geologicae: Or, The Connexion of Geology With Religion Explained, Oxford, 1820.

* **Buckle**, Henry Thomas, History of Civilization in England, London, Longmans, Green, and Co., 1871, 3 Vols.

* **Budd**, Susan, Varieties of Unbelief: Atheists and Agnostics in English Society 1850-1960, London, Heinemann Educational Books, 1977.

* **Burn**, William Laurence, The Age of Equipoise: A Study of The Mid-Victorian Generation, London, Routledge, 1994.

* **Burnett**, Thomas, Theory of The Earth, Third Edition, London, R. N. For Walter Kettilby, 1697.

* **Butler**, Perry, Gladstone, Church, State, And Tractarianism: A Study of His Religious Ideas and Attitudes 1809-1859, Oxford, Oxford University Press, 1982.

* **Calder-Marshall**, Arthur, Lewd, Blasphemous and Obscene, London, Hutchinson, 1972.

* **Campbell**, Colin B., Toward a Sociology of Irreligion, London, Macmillan, 1971.

* **Campbell**, Theophila Carlile, The Battle for The Freedom of The Press as Told in The Story of The Life of Richard Carlile, London, 1899.

* **Carr**, J. A., the Life and Times of Archbishop James Ussher, An Intriguing Look At The Man Behind The Annals of The World, Master Books, Inc., 2006.

* **Chadwick**, Owen, The Secularization of The European Mind in The Nineteenth Century, Cambridge, Cambridge University Press, 2002.

* ______, The Victorian Church: 1829-1859, London, Oxford University Press, Part 1.

* **Chandrasekhar (ed.),** Sripati, Reproductive Physiology and Birth Control: The Writings of Charles Knowlton & Annie Besant, New Jersey, Transaction Publishers, 2002.

* **Chappell (ed.),** Vere, Hobbes and Bramhall on Liberty and Necessity, Cambridge, Cambrudge University Press, 2003.

* **Charlton**, Doald Geofrey, Secular Religions in France 1815-1870, Oxford, Oxford University Press, 1963.

* **Chase & Dyck (ed.),** Malcolm & Ian, Living and Learning: Essays in Honour of J. F. C. Harrison, Scolar Press, 1996.

* **Chubb**, Thomas, A Discourse on Miracles, London, T. Cox, 1741.

* **Claeys**, Gregory, Thomas Paine: Social and Political Thought, First Published, London, Routledge Taylor & Francis Group, 1989.

* **Clark**, J. C. D., English Society 1660-1832: Religion, Ideology, and Politics During The Ancien Regime, Cambridge, Cambridge University Press, 2003.

* **Clarke**, Samuel, A Demonstration of The Being and Attributes of God, London, Elibron Classics, 2005.

* **Classen**, Albrecht, The Medieval Chastity Belt: A Making Process, Palgrave Macmillan, 2007.

* **Cleveland**, Charles D., English Literature of The Nineteenth Century, Philadelphia, E. C. Biddle, 1857.

* **Clifford**, William Kingdon, Lectures and Essays, London, Macmillan and Co., 1879, 2 Vols.

* **Cliteur**, Paul, The Secular Outlook: In Defense of Moral and Political

Secularism, First Published, Oxford, Wiley- Blackwell, 2010.

* **Clodd**, Edward, Thomas Henry Huxley, New York, Dodd, Mead and Company, 1902.

* **Cole**, G. D. H., Richard Carlile 1790-1843, London, Fabian Society, 1943.

* ______, The Life of Robert Owen, Third Edition, London, 1965.

* **Collini (ed.)**, Stefan, J. S. Mill, On Liberty and Other Writings, Cambridge, Cambridge University Press, 2003.

* **Collins (ed.),** H., The Rights of Man, London, 1969.

* **Conway (ed.),** Moncure Daniel, The Writings of Thomas Paine, New York & London, G. P. Putnam's Sons, 1906, 4 Vols.

* **Cooke**, Bill, The Gathering of Infidels: A Hundred Years of The Rationalist Press Association, Prometheus Books, 2003.

* **Cooke**, George Willis, George Eliot: A Critical Study of Her Life, Writings and Philosophy, Cambridge, Cambridge University Press, 2010.

* **Cooper**, Robert, The Infidel's Text- Book: Being The Substance of Thirteen Lectures on The Bible, London, Johnson, Savile- St., 1846.

* **Courtney**, Janet E., Freethinkers of the Nineteenth Century, London, Chapman & Hall, Ltd., 1920.

* **Cox**, Homersham, A History of The Reform Bills of 1866 and 1867, London, Longmans, Green, and Co., 1868.

* **Cross**, Arthur Lyon, A Shorter History of England and Great Britain, New York, The Macmillan Company, 1920.

* **Crumpton (ed.),** Philip, Movements in European History, Cambridge, Cambridge University Press, 2002.

* **Cruttwell**, C. T., Six Lectures on The Oxford Movement: And Its Results on The Church of England, London, Skeffington & Son, Piccadilly, W., 1899.

* **Cuhaj (ed.) & Others,** George S., Standard Catalog of World Coins 1801-1900, 6th Edition, Krause Publications, 2009.

* **Curtis & Boultwood**, S. J. & M. E. A., An Introductory History of English Education Since 1800, Second Edition, London, University Tutorial Press LTD, 1962.

* **Cutner**, Herbert, The Devil's Chaplain Robert Taylor (1784-1844), London, Pioneer Press, N.D.

* **D'Alviella**, Count Goblet, The Contemporary Evolution of Religious Thought in England, America and India, Trans. J. Moden, London, Williams & Norgate, 1885.

* **Daniel**, Glyn, The Idea of Prehistory, London, 1964.

* **Darwin (ed.),** Francis, The Life and Letters of Charles Darwin, New York, D. Appleton and Company, 1887, 2Vols.

* **Davidson & Scheick**, Edward H. & William J., Paine, Scripture, and Authority: The Age of Reason as Religious and Political Idea, London, Associated University Presses, 1994.

* **Davies**, Charles Maurise, Heterodox London: Phases of Free Thought in The Metropolis, London, Tinsley Brothers, 1874, Vol.I.

* **Davis & Helmstadter (eds.),** R. W. & R. J., Religion and Irreligion in Victorian Society: Essays in Honor of R. K. Webb, First Published, London, Routledge: Taylor & Francis Group, 1991.

* **Davis**, Joseph, A Digest of Legislative Enactments: Relating to The Society of Friends Commonly Called Quakers in England, London, Edward Marsh, 84, Houndsditch, 1849.

* **Desmond**, Cheryl Taylor, Shaping The Culture of Schooling: The Rise of Outcome- Based Education, New York, State University of New York Press, 1996.

* **Dicey**, A. V., Lectures on The Relation Between Law & Public Opinion in England During The Nineteenth Century, London, Macmillan and Co., Limited, 1914.

* **Dijk**, Danielle Van, Christ Consciousness: A Path of Inner Development, Translated By: Monique De Hoop, Temple Lodge Publishing, 2010.
* **Dolan (ed.),** Brian, Malthus, Medicine, & Morality: 'Malthusianism' After 1798, First Published, Amsterdam- Atlanta, Rodopi B. V., 2000.
* **Douglas**, Charles, John Stuart Mill: A Study of His Philosophy, Edinburgh & London, William Blackwood and Sons, 1895.
* **Draper**, John William, History of The Conflict Between Religion and Science, Sixth Edition, New York, D. Appleton and Company, 1875.
* **Drysdale**, George, The Elements of Social Sience: or Physical, Sexual, and Natural Religion, 3rd edn, London, 1860.
* **Dyck**, Ian, William Cobbett and Rural Popular Culture, Cambridge, Cambridge University Press, 1999.
* **Egan**, Charles, The Status of The Jews of England, London, 1848.
* **Embley**, Peter L., The Origins and Early Development of The Plymouth Brethren, Cheltenham, St. Paul's College, 1966.
* **Emmens**, S. H., Selections From Locke's Essay on The Human Understanding, Third Edition, London, Crosby Lockwood and Son, 1890.
* **Engels**, Frederick, Socialism: Utopian and Scientific, Translated By: Edward Eveling, Chicago, Charles H. Kerr & Company, 1907.
* **Finestein**, Israel, Anglo-Jewish Opinion During the Struggle for Emancipation, Trans. of The Jewish Hist. Soc. of England, XX (1959-1961).
* **Fisher**, Lyman J., That Day of Days: A Glimpse of The Millennium, Ohio, 1902.
* **Foner (ed.),** Philip Sheldon, The Complete Writings of Thomas Paine, New York, Citadel Press, 1945.
* **Foote**, G. W., Prisoner For Blasphemy, London, Progressive Publishing Company, 1886.

* ______, Mr. Bradlaugh's Trial and The Freethought Party, C. Watts, 1877.
Watts, Kate Eunice, Mr. Watts's Reply to Mr. Bradlaugh's Misrepresentations, 1877.
* ______, Secularism Restated: With a Revie of The Several Expositions of Charles Bradlaugh and George Jacob Holyoake, London, W. J. Ramsey, 1874.
* **Fowler**, Jeaneane, Humanism: Beliefs and Practices, Biddles Ltd, Guildford and King's Lynn, 1999.
* **Fox**, Lionel W., The English Prison and Borstal Systems, First Published, London, Routledge & Kegan Paul Limited, 1952.
* **Frost**, Thomas, Forty Years' Recollections, London, 1880.
* **Fruchtman**, Jack, The Political Philosophy of Thomas Paine, Maryland, The Johns Hopkins University Press, 2009.
* **Fryer**, Peter, The Birth Controllers, London, Secker & Warburg, 1965.
* **Gardiner**, Samuel Rawson, The Thirty Years' War 1618-1648, New York, Charles Scribner's Sons, 1895.
* **Garnett**, R. G., Co- operation and The Owenite Socialist Communities in Britain 1825-45, Manchester, Manchester University Press, 1972.
* **Gerrish**, Brian Albert, Continuing The Reformation: Essays on Modern Religious Thought, Chicago, University of Chicago Press, 1993.
* **Gilley & Sheils (eds.)**, Sheridan & W. J., A History of Religion in Britain: Practice and Belief From Pre- Roman Times to The Present, Blackwell, 1994.
* **Gillispie**, Charles Coulston, Genesis and Geology: A Study in The Relations of Scientific Thought, Natural Theology, And Social Opinion in Great Britain 1790-1850, Harvard University Press, 1996.
* ______, Pierre-Simon Laplace 1749-1827: A Life in Exact Science, New Jersey, Princeton University Press, 1997.

* **Gilmour**, James Pinkerton, Champion of Liberty: Charles Bradlaugh, London, Watts & The Pioneer Pr., 1933.
* **Gimson**, S. A., Random Recollections of The Leicester Secular Society, 1932, Part I, II.
* **Giustino**, David De, Conquest of Mind: Phrenology and Victorian Social Thought, First Published, London, Croom Helm Ltd, 1975.
* **Gladstone**, W. E.,The Irish Question, London, William Clows and Sons, Limited, 1886.
* **Glass (ed.),** David V., Introduction to Malthus, London, 1953.
* **Godwin**, Joscelyn, The Theosophical Enlightenment, New York, State University of New York Press, 1994.
* **Goodwin**, Albert, The Friends of Liberty: The English Democratic Movement in The Age of The French Revolution, Harvard University Press, 1979.
* **Gordon**, The Life and Correspondence of William Buckland, London, Watson, & Viney, Ld., 1894.
* **Gould**, F. J., Auguste Comte, London, Watts & Co., 1920.
* ______, The Life- Story of A Humanist, London, Watts, 1923.
* ______, The History of Leicester Secular Society, Leicester Secular Society, 1900.
* **Grant**, Edward, A History of Natural Philosophy: From The Ancient World to The Nineteenth Century, Cambridge, Cambridge University Press, 2007.
* **Gray & Smith (eds.),** John & G. W., J. S. Mill On Liberty in Focus, First published, London, Routledge, 2002.
* **Gray**, Edw. Mcqueen, Old Testament Criticism: Its Rise and Progress form The 2d Century to The End of The 18th, New York, 1923.
* **Green**, J. R., A Short History of The English People, London, Macmillan

and Co., Limited, 1903, 4 Vols.

* ______, A Short History of The English People, New York, American Book Company, 1916.

* **Grugel**, Lee E, George Jacob Holyoake: A Study in The Evolution of a Victorian Radical, Philadelphia, Porcupine Press, 1976.

* **Haakonssen (ed.)**, Knud, Enlightenment and Religion: Rational Dissent in Eighteenth- Century Britain, Cambridge, Cambridge University Press, 2003.

* ______________, Knud, The Cambridge History of Eighteenth- Century Philosophy, First Published, Cambridge, Cambridge University Press, 2006, Vol.II.

* **Hamburger**, Philip, Separation of Church and State, Fourth Printing, The President and Fellows of Harvard College, 2004.

* **Hampsher- Monk (ed.),** Iain, The Impact of The French Revolution: Texts From Britain in The 1790s, First Published, Cambridge, Cambridge University Press, 2005.

* **Harmer**, Harry, Tom Paine: The Life of a Revolutionary, First Published, London, Haus Publishing Limited, 2006.

* **Harrison**, J. F. C., Robert Owen and The Owenites in Britain and America, First Published, Oxford, The Alden Press, 1969.

* **Hartley**, John, The Politics of Pictures: The Creation of The Public in The Age of Popular Media, First Published, London, Butler & Tanner Ltd, 1992.

* **Hawkins**, Mike, Social Darwinism in European and American Thought 1860-1945: Nature as Model and Nature as Threat, Cambridge, Cambridge University Press, 2003.

* **Haworth**, Alan, Free Speech, London, Routledge: Taylor & Francis e-Library, 2002.

* **Hawthorn**, Geoffrey, The Sociology of Fertility, London, 1970.
* Healy, Timothy Michael, Letters and Leaders of My Day Memories, New York, Frederick A. Stokes Company, 1929, Vol.I.
* **Henriques**, H. S. Q., The Jews and The English Law, Oxford, 1908.
* Henriques, Ursula, Religious Toleration in England 1787-1833, London, 1961.
* **Herrick**, Jim, Against The Faith: Essays on Deists, Skeptics, and Atheists, Prometheus Books, 1985.
* **Himes**, Norman E., The Medical History of Cotraception, New York, Gamut Press, 1963.
* **Holdsworth**, W. A., Elementary Education Act 1870: Popularly Explained, London, George Routledge and Sons, 1870.
* **Hole**, Robert, Pulpits, Politics and Public Order in England 1760-1832, Cambridge, Cambridge University Press, 2004.
* **Hollis**, Patricia, The Pauper Press: A Study in Working- Class Radicalism of The 1830s, Oxford, U. P., 1970.
* **Holohan**, David, Christianity Unveiled By Baron d'Holbach: A Controversy in Documents, Hodgson Press, 2008.
* **Holyoake**, George Jacob, Bygones Worth Remembering, London, T. Fisher Unwin, 1905, Vol.II.
* ______ English Secularism: A Confession of Belife, Chicago, The Open Court Publishing Company, 1896.
* ______, Sixty Years of an Agitator's Life, Sixth Impression, London, Adelphi Terrace, 1909, Vol.1.
* ______, The History of Co-operation, London, T. Fisher Unwin I, Adelphi Terrace, Mcmvi, 1906, Vol.I.
* ______, The History of Co-operation, London, T. Fisher Unwin I, Adelphi Terrace, Mcmvi, 1908.

* ______, The Origin and Nature of Secularism, London, Watts & Co., 1896.

* **Horowitz**, Elliott, Reckless Rites: Purim and The legacy of Jewish Violence, New Jersey, Princeton University Press, 2006.

* **Hovell**, Mark, The Chartist Movement, Manchester, Manchester University Press, 1970.

* **Hull**, Gordon, Hobbes and The Making of Modern Political Thought, London, MPG Books Group, 2009.

* **Hunt**, John, Religious Thought in England in The Nineteenth Century, London, Gibbings & Co., Limited, 1896.

* **Hunter & Other (ed.)**, Ian, Heresy in Transition: Transforming Ideas of Heresy in Medieval and Early Modern Europe, London, Ashgate Publishing Limited, 2005.

* **Hunter**, Graeme, Radical Protestantism in Spinoza's Thought, Hampshire, Ashgate Published Limited, 2005.

* **Huxley**, Henrietta A., Aphorisms And Reflections, Kessinger Publishing, 2004.

* **Huxley**, Hume, New York, Happer & Brothers, Publishers, 1879.

* Huxley, Leonard, Life and Letters of Thomas Henry Huxley, London, Macmillan and Co., Limited, 1913, Vol.III.

* **Huxley**, Thomas H., Method and Results: Essays, London, Macmillan and Co., Limited, 1898.

* ______, Science and Christian Tradition: Essays, New York, D. Appleton And Company, 1894.

* ______, Science and Hebrew Tradition: Essays, London, Macmillan and Co., Limited, 1901.

* ______, The Interpreters of Genesis and The Interpreters of Nature, Ninetheenth Century, Vol. XVIII, Nos. CV, CVI, 1885.

* **Hyamson**, Albert M., A History of The Jews in England, London, Chatto & Windus, 1908.

* **Ingelhart**, Louis Edward, Press and Speech Freedoms in The World From Antiquity Until 1998: A Chronology, First Published, Greenwood Publishing Group, 1998.

* **Israel**, Jonathan I., Radical Enlightenment: Philosophy and The Making of Modernity 1650-1750, Oxford, Oxford University Press, 2002.

* **Jackson**, Patrick, The Last of The Whigs: A Political Biography of Lord Hartingtion, Later Eighth Duke of Devonshire (1833-1908), London, Associated University Presses, 1994.

* **Jackson**, Thomas Alfred, Trials of British Freedom: Being Some Studies in The History of The Fight for Democratic Freedom in Britain, New York, Burt Franklin, 1968.

* **Jephson**, Henry, The Platform: Its Rise and Progress, New York, Macmillan & Co., 1892, Vol.II.

* **Jones**, L., The Life, Times and Labours of Robert Owen, Fifth Edition, London, 1912.

* **Jütte**, Robert, Cotraception: A History, Cambridge, Polity Press, 2008.

* **Kargon**, Robert H., Science in Victorian Manchester: Enterprise and Expertise, New Jersey, Transaction Publishers, 2010.

* **Keane**, John, Tom Paine: A Political Life, London, Bloomsbury Publishing, 2009.

* **Kent**, John, From Darwin to Blatchford: The Role of Darwinism in Christian Apologetic 1875-1910, London, Dr. Williams's Trust, 1966.

* **Kent**, William, John Burns: Labour's Lost Leader: A Biograghy, London, Williams & Norgate, 1950.

* ______, The Testamnet of a Victorian Youth: An Autobiography, London, Heath Cranton, 1938.

* **Ketabgian**, Tamara Siroone, The Lives of Machines: The Industrial Imaginary in Victorian Literature and Culture, Michigan, The University of Michigan Press, 2011.

* **King & Begler (eds.),** Ronald F. & Elsie, Thomas Paine: Common Sense for The Modern Era, First Edition, San Diego State University Press, 2007.

* **Knowlton**, Charles, The Fruits of Philosophy: or The Private Companion of Young Married People, A M S Press, 1982.

* **Lalor**, Stephen, Matthew Tindal, Freethinker: An Eighteenth- Century Assaulat on Religion, New York, Continuum, 2006.

* **Langholm**, Odd, The Legacy of Scholasticism in Economic Thought: Antecedents of Choice and Power, First Published, Cambridge, Cambridge University Press, 1998.

* **Lawrence**, Michael A., Radicals in Their Own Time: Four Hundred Years of Struggle for Liberty and Equal Justice in America, First Published, Cambridge, Cambridge University Press, 2011.

* **Ledbetter**, Rosanna, A History of The Malthusian League 1877-1927, Ohio State University, 1976.

* **Lee**, Stephen J., Gladstone and Disraeli, First Published, New York, Taylor & Francis e- Library, 2005.

* **Legaspi**, Michael C., The Death of Scripture and The Rise of Biblical Studies, Oxford, Oxford University Press, 2010.

* **Levin**, Carole, The Reign of Elizabeth I, First Published, New York, Palgrave, 2002.

* **Levy**, leonard W., Blasphemy: Verbal, Offense Against The Sacred from Moses to Salman Rushdie, New York, Alfred A. Knopf, Inc., 1995.

* **Lightman**, Bernard V., The Origins of Agnosticism: Victorian Unbelief and The Limits of Knowledge, Baltimore, Johns Hopkins University Press, 1987.

* **Lipman**, V. D. (ed.), Three Centuries of Anglo- Jewish History, Cambridge, 1961.
* **Locke & Nuovo**, John & Victor, John Locke: Writings on Religion, Oxford, Oxford University Press, 2002.
* **Locke**, John, An Essay Concerning Human Understanding, London, R. Griffin and Co., 1829.
* **Logue**, Barbara J., Last Rights: Death Control and The Elderly in America, New York, Macmillan, Inc., 1993.
* **Lovett**, W., The Life and Struggles of William Lovett, London, 1876.
* Lucy, Henry W., A Diary of Two Parliaments: The Gladstone Parliament 1880-1885, Second Edition, London, Cassell & Company, Limited, 1886.
* **Lyons**, David, Forms and Limits of Utilitarianism, Oxford, Oxford University Press, 2002.
* **MacIntyre & Ricoeur**, Alasdair C. & Paul, The Religious Significance of Atheism London, Columbia University Press, 1969.
* **Mackay**, Charles R., The Life of Charles Bradlaugh, M. P., London, D. J. Gunn & Co., 1888.
* **Mackey**, Thomas C., Pornography on Trial: A Handbook With Cases, Laws, and Documents, California, ABC- CLIO, Inc., 2002.
* **Maclure**, Stuart, Our Hundred Years of London Education: 1870-1970, London, Allen Lane, 1970.
* **Malthus**, Thomas R., An Essay on The Principle of Population: As it Affect The Future Improvement of Society, 4th edn, London, 1803, 1817, Vols.2, 3.
* **Manning & Ingersoll**, Cardinal, Robert G., Rome or Reason, New York, C. P. Farrell, Publisher, 1898.
* **Manvell**, R., The Trail of Annie Besant and Charles Bradlaugh, London, Elek: Pemberton, 1976.

* **Marsh**, Joss, Word Crime: Blasphemy, Culture, and Literature in Nineteenth- Century England, Chicago, The University of Chicago Press, 1998.

* **Martineau**, Harriet, The Positive Philosophy of Auguste Comte, London, John Edward Taylor, 1853, 2 Vols.

* **Martinich**, A. P., Hobbes: A Biography, First Publishing, Cambridge, Cambridge University Press, 1999.

* ______, The Two Gods of Leviathan: Thomas Hobbes on Religion and Politics, Cambridge, Cambridge University Press, 2002.

* **Matz (ed.),** Louis J., Three Essays on Religion: John Stuart Mill, Sydney, Broadviewpress, 2009.

* **Mayhew**, Henry, London Labour and The London Poor, London, 1861-1862, Vol.II.

* **McCabe**, Joseph, Life and Letters of George Jacob Holyoake, London, Watts & CO., 1908, Vol.1.

* **McCalman**, Iain, Radical Underworld: Prophets, Revolutionaries and Pornographers in London 1795-1840, First Published, Cambridge, Cambridge University Press, 1988.

* **McGee**, John Edwin, A History of The British Secular Movement, E. Haldeman- Julius Publication, 1948.

* **Mcleod**, Hugh, Secularisation in Western Europe 1848-1914, First Published, New York, St. Martin's Press, LLC., 2000.

* **Mendum & Bennett**, J. P. & D. M., Revelations of Antichrist Concerning Christ and Christianity, Kessinger Publishing, 2003.

* **Mill**, John Stuart, Autobiography, New York, Columbia University Press, 1924.

* ______, Utilitarianism, Liberty, Representative Government, Introduction By: A. D. Lindsay, London J. M. Dent & Sons Ltd, 1954.

* **Miller & Others**, History of Condoms, Alphascript Publishing, 2010.

* Money, John, Experience and Identity Birmingham and The West Midlands 1760-1800, Manchester, Manchester University Press, 1977.

* **Moore (ed.),** James R., History, Humanity and Evolution: Essays For John C. Greene, Cambridge, Cambridge University Press, 1989.

* **Morgan**, R. W., Christianity and Modern Infidelity, New York, Daniel Dana, Jr., 1859.

* **Morison**, James Cotter, The Service of Man: An Essay Towards The Religion of The Future, Second Edition, London, Kegan Paul, Trench & Co., 1887.

* **Nethercot**, Arthur Hobart, The First Five Lives of Annie Besant, London, University of Chicago Press, 1961.

* **Nokes**, Gerald Dacre, A History of The Crime of Blasphemy, London, Sweet & Maxwell, 1928.

* **O'Donnell**, Bernard, The Old Bailey and Its Trials, New York, The Macmillan Company, 1950.

* **O'Hear (ed.),** Anthony, Philosophy, The Good, The True and The Beautiful, Cambridge, Cambridge University Press, 2000.

* **Okey**, Thomas, A Basketful of Memories: An Autobiographical Sketch, London, J. M. Dent, 1930.

* **Owen**, R., The Life of Robert Owen, London, 1857-1858, Vol.1.

* **Packard**, Alpheus S., Lamarck, The Founder of Evolution, Wildhern Press, 2008.

* **Paine**, Thomas, The Political and Miscellaneous Works of Thomas Paine, London, R. Carlile, 1819, Vol.II.

* **Paley**, William, A View of The Evidences of Christianity, London, Vernor, Hood, sharpe, 1811, 2 Vols.

* **Parker**, Joseph, John Stuart Mill on Liberty: A Critique, London, F.

Pitman, 20, Paternoster Row, E.C, 1865.

* **Parolin**, Christina, Radical Spaces: Venues of Popular Politics in London 1790-1845, Canberra, ANU E Press, 2010.

* **Pearson**, Thomas, Infidelity; Its Aspects, Causes, and Agencies, New York, Robert Carter & Brothers, 1854.

* **Perkin**, Harold, The Origins of Modern English Society 1780-1880, London, Routledge & Kegan Paul Ltd, 1971.

* **Phillips**, Paul T., The Controversialist An Intellectual Life of Goldwin Smith, First Published, Greenwood Publishing Group, Inc., 2002.

* **Picciotto**, James, Sketches of Anglo- Jewish History, London, 1875.

* **Podmore**, F., Robert Owen, London, 1923.

* **Priestley**, Joseph, The Doctrine of Philosophical Necessity Illustrated, London, J. Johnson, 1777.

* **Priestman**, Martin, Romantic Atheism: Poetry and Freethought 1780-1830, Cambridge, Cambridge University Press, 2004.

* **Prothero**, Iorwerth, Artisans and Politics in Early Nineteenth- Century London: John Gast and His Life, London, J. W. Arrowsmith Ltd, 1981.

* **Quin**, Malcolm, Memoirs of A Positivist, London, G. Allen & Unwin, 1924.

* **Ratcliffe**, Samuel Kerkham, The Story of South Place, London, 1955.

* **Raven**, C. E., John Ray: Naturalist, Cambridge, Cambridge University Press, 2000.

* **Reid**, William Hamilton, The Rise and Dissolution of The Infidel Societies in This Metropolis, Second Edition, London, 1800.

* **Rickaby**, Joseph, Scholasticism, London, Archibald Constable & Co. Ltd, 1908.

* **Rickards**, George K., Population and Capital: Being a Course of Lectures Delivered Before The University of Oxford in 1853-1854, London,

Longman, Brown, Green, and Longmans, 1854.

* **Rickards**, George Kettilby, The Statutes of The United Kingdom of Great Britain and Ireland, London, George E. Eyre and William Spottiswoode, 1869.

* **Robertson**, J. M., A History of Freethought in The Nineteenth Century, London, 1929, Vol.I.

* ______, Charles Bradlaugh: A Record of His Life and Work By His Daughter Hypatia Bradlaugh Bonner, London, T. Fisher Unwin, 1894, Vol.I.

* **Roscoe**, William, The Works of Alexander Pope, London, Harvard College Library, 1824, Vol.V.

* **Ross & Other (eds.),** Ralph, Thomas Hobbes in His Time, London, Oxford University Press, 1974.

* **Roth**, C., History of The Jews in England, London, 1941.

* **Royle**, Edward, Modern Britain: A Social History 1750-1997, Second Edition, London, J. W. Arrowsmith Ltd, 1997.

* ______, Radical Politics 1790-1900: Religion and Unbelief, London, Harlow- Longman, 1971.

* ______, Radicals, Secularists and The Republicans: Popular Freethought in Britain 1866-1915, First Published, Oxford, The Alden Press, 1980.

* ______, Victorian Infidels: The Origins of The British Secularist Movement 1791-1866, London, Butler & Tanner Ltd., 1974.

* **Sandoz**, Ellis, Republicanism, Religion, And The Soul of America, Missouri, University of Missouri Press, 2006.

* **Santoro**, Emilio, Autonomy, Freedom and Rights: A Critique of Liberal Subjectivity, Dordrecht, Kluwer Academic Publisher, 2003.

* **Saville (ed.),** John, A Selection of The Political Pamphlets of Charles Bradlaugh, New York, A. M. Kelley, 1970.

* **Schmidt**, Claudia M., David Hume: Reason in History, The Pennsylvania State University Press, 2003.
* **Schofield**, Robert E., The Enlightened Joseph Priestley: A Study of His life and Work From 1773 to 1804, The Pennsylvania State University Press, 2004.
* **Scott**, Mary Agusta, The Essays of Francis Bacon, New York, Charles Scribner's Sons, 1908.
* **Secularism**, Scepticism, and Atheism: Verbatim Report of The Proceedings of A Two Nights' Public Debate between Messrs. G. J. Holyoake and C. Bradlaugh London, Austin & Co., 1870.
* **Sell**, Alan P. F., Mill on God: The Pervasiveness and Elusiveness of Mill's Religious Thought, Hampshire, Ashgate Publishing Limited, 2004.
* **Sharma & Sharma**, S. K. & Urmila, Western Political Thought, New Delhi, Atlantic Publishers & Distributors, 2006, Vol.I.
* **Sheppard**, James, Christendom at The Crossroads: The Medieval Era, Westminster John Knox Press, 2005.
* **Shipley**, Joseph Twadell, The Origins of English Words: A Discursive Dictionary of Indo- European Roots, London, The Johns Hopkins Press Ltd., 1984.
* **Silver**, H., The Concept of Popular Education, London, 1965.
* **Simon**, B., Studies in The History of Education: Education and The Labour Movement 1870-1920, London, 1965.
* **Simon**, Brian, Studies in The History of Education 1780-1870, London, Lawrence & Wishart, 1960.
* **Smart & Other (eds.)**, Ninian, Nineteenth Century Religious Thought in The West, Cambridge, Cambridge University Press, 1988, Vol.I.
* **Smith & Hogan**, John Cyril & Brian, Criminal Law, London, Butterworths, 2002.

* **Smith**, Francis Barrymore, Radical Artisan, William James Linton 1812-1897, Manchester, Manchester University Press, 1973.

* **Smith**, James Hamblin, The Rudiments of English Grammar and Composition, Oxford University, 1876.

* **Smith**, Pogson, Hobbes's Leviathan, Second Edition, Oxford, Oxford University Press, 1929.

* **Snell**, Harry, Men, Movement and Myself, London, 1936.

* **Spalding**, Thomas Alfred, The Work of The London School Board, Second Edition, London, P. S. King & Son, 1900.

* **Spence**, H. Donald M., Early Christianity and Paganism, London, Cassell and Company, Limited, 1902.

* **Spencer & Others**, Herbert, John Stuart Mill: His Life and Works, Boston, James R. Osgood and Company, 1873.

* **Spiller**, Gustav, The Ethical Movement in Graet Britain, London, Farleigh Press, 1934.

* **Stack**, David, Nature and Artifice: The Life and Thought of Thomas Hodgskin 1787-1869, First Published, Woodbridge, Boydell & Brewer Ltd, 1998.

* **Stagaman**, David J., Authority in The Church, Liturgical Press, 1999.

* **Starkie**, Thomas, A Treatise on The Law of Slander and Libel, and Incidentally of Malicious Prosecutions, Second Edition, London, Law Booksellers and Publishers, 1830, Vol.I.

* **Steers & Others**, Richard M. Steers, Management Across Cultures: Challenges and Strategies, First Published, Cambridge, Cambridge University Press, 2010.

* **Stephen**, James Fitzjames, A Digest of Criminal Law (Crimes and Punishments), 3rd ed., London, Macmillan, 1883.

* ______, A History of Criminal Law of England, London, 1883, Vol.II.

* **Stephen**, Leslie, English Thought in the Eighteenth Century, London, Smith, Elder & Co., 1876, Vol.I.

* ______, Hobbes, London, Macmillan & Co., Limited, 1904.

* **Stone**, Julius, Human Law and Human Justice, California, Standford University Press, 1965.

* **Stopes**, Marie Carmichael, The Early Days of Birth Control, London, 1924.

* **Strauss**, Leo, Hobbes's Critique of Religion and Related Writings, Translated and Edited By: Gabriel Bartlett & Svetozar Minkov, Chicago, The University of Chicago Press, 2011.

* **Szreter**, Simon, Fertility, Class and Gender in Britain 1860-1940, Cambridge, Cambridge University Press, 2000.

* **Tapsell**, Grant, The Personal Rule of Charles II 1681-85, First Published, Suffolk, The Boydell Press, 2007.

* **Taylor**, George Robert Stirling, English Political Portraits of The Nineteenth Century, Ayer Company Publishers, 1967.

* **Taylor**, Robert, The Devil's Pulpit: or Astro- Theological Sermons, New York, Calvin Blanchard, 1857.

* **Thale (ed.),** Mary, Selections From The Papers of The London Corresponding Society 1792-1799, First Published, Cambridge, Cambridge University Press, 1983.

* **The Queen V. Charles Bradlaugh and Annie Besant**, London, Freethought Publishing Company, 1877.

* **The Theological Works of Thomas Paine**, London, R. Carlile, 1824.

* **The Works of John Reeve and Lodowicke Muggleton**: The Two Last Prophets of The Only True God, Our Lord Jesus Christ, London, Subscription, 1832, 3 Vols.

* **The Works of Thomas Paine**: A Hero in The American Revolution,

Philadelphia, E. Haskell, 1854, Vol.I.

* **Thompson**, E. P., The Making of The English Working Class, New York, Pantheon Books, 1964.
* **Thompson**, Paul Richard, Socialists, Liberals and Labour, London, Routledge & K. Paul, 1967.
* **Thorold**, Algar Labouchere, The Life of Henry Labouchere, New York & London, G. P. Putnam's Sons, 1913.
* **Thrupp**, S. L. (ed.), Millennial Dreams in Action: Essays in Comparative Study, The Hague, 1962.
* **Tingley**, Katherine, Helena Petrovna Blavatsky: Foundress of The Original Theosophical Society in The New York 1875, California, The Woman's International Theosophical League, 1921.
* **Torr**, Dona, Tom Mann and His Times, London, Lawrence & Wishart, 1956.
* **Tribe**, David H., 100 Years of Freethought, London, Elek, 1967.
* ______, President Charles Bradlaugh, M. P., London, 1971.
* **Troyer (ed.),** John, The Classical Utilitarians: Bentham and Mill, Indianapolis, Hackett Publishing Company, Inc., 2003.
* **Veitch**, George Stead, The Genesis of Parliamentary Reform, London, Archon Books, 1965.
* **Vincent**, Bernard, The Transatlantic Republican: Thomas Paine and The Age of Revolutions, Amsterdam, Amsterdam Monographs in American Studies, 2005.
* **Wallas**, Graham, The Life of Francis Place 1771-1854, London, 1918.
* Walters (ed.), Kerry, The Age of Reason: Thomas Paine, Toronto, True to Type, 2011.
* **Warnock (ed.),** Mary, Utilitarianism and on Liberty: Including Mill's 'Essay on Bentham' and Selections From The Writings of Jeremy Bentham

and John Austin, Second Edition, Oxford, Blackwell Publishing Ltd, 2003.
* **Warren**, Nathan Boughton, The Holidays: Christmas, Easter, and Whitsuntide, New York, H. O. Houghton and Company, 1868.
* **Warren**, Sindney, American Freethought: 1860-1914, New York, Columbia University Press, 1943.
* **Webb**, R. K., Harriet Martineau a Radical Victorian, London, 1960.
* **Weinstein**, D., Equal Freedom and Utility: Herbert Spencer's Liberal Utilitarianism, Cambridge, Cambridge University Press, 2003.
* **Whale**, John, Imagination Under Pressure 1789- 1832: Aesthetics, Politics and Utility, Cambridge, Cambridge University Press, 2004.
* **Wheeler (ed.),** Daniel Edwin, Life and Writings of Thomas Paine, New York, Vincent Parke and Company, 1908, 10 Vols.
* **Wickwar**, W. H., The Struggle For The Freedom of The Press 1819-1832, London, Johnson Reprint Corp., 1928.
* **Wiener**, Joel H., Radicalism and Freethought in Nineteenth- Century Britain: The Life of Richard Carlile, Greenwood Press, 1983.
* **Willey**, Basil, The Eighteenth Century Background: Studies on The Idea of Nature in The Thought of The Period, London, Chatto & Windus, 1962.
* **Williams**, E. N., The Eighteenth Century Constitution: Documents and Commentary, Cambridge, Cambridge University Press, 1970.
* **Williams**, Gwyn A., Artisans and Sans- culottes: Popular Movements in France and Britain During The French Revolution, London, Libris, 1989.
* ______, Rowland Detrosier: A Working Class Infidel 1800-1834, First Published, York, University of York- Borthwick Papers No.28, 1965.
* **Wilson (ed.),** Bryan R., Patterns of Sectarianism: Organisation and Ideology in Social and Religious Movements, London, Heinemann, 1967.
* **Wilson**, Joshua, An Historical Inquiry Concerning The Principles, Opinion and Usages, of The English Presbyterians, London, William Ball, 1836.

* **Wulf**, M. De, Scholasticism Old and New: An Interoduction to Scholastic Philosophy Medieval and Modern, Translated By: P. Coffey, Dublin, M. H. Gill & Son, Ltd., 1907.
* **Yrigoyen & Warrick (eds.),** Charles & Susan E., Historical Dictionary of Methodism, Second Edition, Maryland, Scarecrow Press, Inc., 2005.
* **Zola, Emile**, The Earth, London, Penguin Books Limited, 2006.

هـ - المواقع على شبكة المعلومات (الأنترنت):

* **http**://atheism.about.com/od/secularismseparation/a/HolyoakeSecular.htm
* **http**://www.secularism.org.uk
* **http**://www.worldlingo.com/ma/enwiki/en/Secularism

و- البحوث والدراسات:

* **Armytage**, W. H. G., The 1870 Education Act, *British Journal of Educational Studies*, Taylor & Francis, Ltd. on behalf of the Society for Educational Studies, Vol.18, No.2 (Jun., 1970).
* **Arnstein**, Walter L., Gladstone and The Bradlaugh Case, *Victorian Studies*, Indiana University Press, Vol.5, Vo.4 (Jun., 1962).
* ______, The Bradlaugh Case: A Reappraisal, *Journal of The History of Ideas*, University of Pennsylvania Press, Vol.18, No.2 (Apr., 1957).
* **Banks & Banks**, J. A. & Olive, The Bradlaugh- Besant Trial and The English Newspapers, *Population Studies*, Population Investigation Committee, Vol.8, No.1 (Jul., 1954).
* **Baum**, Bruce, J. S. Mill on Freedom and Power, *Polity*, Palgrave Macmillan Journals, Vol.31, No.2 (Winter, 1998).
* **Belchem**, J. C., Henry Hunt and The Evolution of The Mass Platform, *The English Historical Review*, Oxford University Press, Vol.93, No.369 (Oct., 1978).

* **Belchem**, John, Republicanism, Popular Constitutionalism and The Radical Platform in Early Nineteenth- Century England, *Social History*, Taylor & Francis, Ltd., Vol.6, No.1 (Jan., 1981).
* **Bhattacharya**, Malini, Utilitarianism and The Concept of Authorial Autonomy in Early 19th Century England, *Economic and Political Weekley*, Economic and Political Weekley, Vol.17, No.31 (Jul.31, 1982).
* **Bickerman**, Elias J., The Septuagint As a Translation, *Proceedings of The American Academy For Jewish Research*, American Academy For Jewish Research, Vol.28 (1959).
* **Bloomfield**, Maurice, Cerberus The Dog of Hades, *The Monist*, Hegeler Institute, Vol.14, No.4 (July, 1904).
* **Bouton**, Clark W., John Stuart Mill: On Liberty and History, *The Western Political Quarterly*, University of Utah on behalf of The Western Political Science Association, Vol.18, No.3 (Sep., 1965).
* **Brighouse**, Carolyn, Determinism and Modality, *The British Journal for The Philosophy of Science*, Oxford University Press on Behalf of The British Society for The Philosophy of Science, Vol.48, No.4 (Dec., 1997).
* **Brown**, Ira V., The Religion of Joseph Priestley, *Pennsylvania History*, Penn State University Press, Vol.24, No.2 (April, 1957).
* **Budd**, Susan, The Loss of Faith: Reasons for Unbelief Among Members of The Secular Movement in England 1850-1950, *Past & Present*, Oxford University Press on behalf of The Past and Present Society, No. 36 (Apr., 1967).
* ***Campbell*, F.**, Birth Control and The Christian Churches, *Population Studies*, 1960, Vol. 14.
* **Carneiro**, Robert L., Structure, Function, and Equilibrium in The Evolutionism of Herbert Spencer, *Journal of Anthropological Research*, University of New Mexico, Vol.29, No.2 (Summer, 1973).

* **Chabot**, Dana, Thomas Hobbes: Skeptical Moralist, *The American Political Science Review*, American Political Science Association, Vol.89, No.2 (Jun., 1995).

* ***Clark*, Michael**, Jewish Identity in British Politics: The Case of The First Jewish MPs 1858-87, *Jewish Social Studies*, Indiana University Press, Vol.13, No.2 (Winter, 2007).

* ______, Kant's Rhetoric of Enlightenment, *The Review of Politics*, Cambridge University Press for The University of Notre Dame Du Lac on Behalf of Review of Politics, Vol.59, No.1 (Winter, 1997).

* **Clausen**, Christopher, Religion, and Science: Some Unexamined Implications, *Rocky Mountain Review of language and Literature*, Rocky Mountain Modern language Association, Vol.30, No.2 (Spring, 1976).

* **Coffey**, John, Puritanism and Liberty Revisited: The Case for Toleration in The English Revolution, *The Historical Journal*, Cambridge University Press, Vol. 41, No.4 (Dec., 1998).

* **Costa**, James T., The Darwinian Revelation: Tracing The Origin and Evolution of an Idea, *BioScience*, University of California Press on Behalf of The American Institute of Biological Sciences, Vol.59, No.10 (November 2009).

* **Crimmins**, James E., Bentham on Religion: Atheism and the Secular Society, *Journal of The History of Ideas*, University of Pennsylvania Press, Vol.47, No.1 (Jan.- Mar., 1986).

* ______, Bentham and Hobbes: An Issue of Influence, *Journal of The History of Ideas*, University of Pennsylvania Press, Vol.63, No.4 (Oct., 2002).

* **D.**, Writ of Habeas Corpus, *The American Law Register*, The University of Pennsylvania Law Review, Vol.9, No.12 (Oct., 1861).

* **D'Arcy**, F., The Malthusian League and The Resistance to Birth Control

Propaganda in Late Victorian Britain, *Population Studies*, Population Investigation Committee, Vol.31, No.3 (Nov., 1977).

* **Donnelly**, James S., Propagating The Cause of The United Irishmen, *Studies: An Irish Quarterly Review*, Irish Province of The Society of Jesus, Vol.69, No.273 (Spring, 1980).

* **Doyle**, Phyllis, The Contemporary Background of Hobbes' "State of Nature", *Economica*, Blackwell Publishing on Behalf of The London School of Economics and Political Science, No.21 (Dec., 1927).

* **Dreyer**, Frederick, The Genesis of Burke's Reflections, *The Journal of Modern History*, The University of Chicago Press, Vol.50, No.3 (Sep., 1978).

* **Dunning**, Wm. A., The Political Philosophy of John Locke, *Political Science Quarterly*, The Academy of Political Science, Vol.20, No.2 (Jun., 1905).

* **Durey**, Michael, The Dublin Society of United Irishmen and the Politics of The Carey- Drennan Dispute 1792-1794, *The Historical Journal*, Cambridge University Press, Vol.37, No.1 (Mar., 1994).

* **Edmonds & Douglas**, J. M. & J. A., William Buckland, F.R.S. (1784-1856) and An Oxford Geological Lecture, 1823, *Notes and Records of The Royal Society of London*, The Royal Society, Vol.30, No.2 (Jan., 1976).

* **Fitzgerald**, Timothy, Herbert Spencer's Agnosticism, *Religious Studies*, Cambridge University Press, Vol.23, No.4 (Dec., 1987).

* **Frankel**, Steven, The Invention of Liberal Theology: Spinoza's Theological- Political Analysis of Moses and Jesus, *The Review of Politics*, Cambridge University Press for The University of Notre Dame Du Lac on Behalf of Review of Politics, Vol.63, No.2 (Spring, 2001).

* **George**, C. H., Puritanism as History and Historiography, *Past & Present*,

Oxford University Press on behalf of The Past and Present Society, No. 41 (Dec., 1968).

* **Gibbs**, Lee W., The Source of The Most Famous Quotation From Richard Hooker's Laws of Ecclesiastical Polity, *The Sixteenth Century Journal*, The Sixteenth Century Journal, Vol. 21, No. 1 (Spring, 1990).

* **Gilbert**, George H., The Apostles' Creed Revised by The Teaching of Jesus, *The Biblical World*, The University of Chicago Press, Vol.12, No.3 (Sep., 1898).

* **Gillespie**, Neal C., Divine Design and The Industrial Revolution: William Paley's Abortive Reform of Natural Theology, *Isis*, The University of Chicago Press on Behalf of The History of Science Society, Vol.81, No.2 (Jun., 1990).

* **Gilley & Loades**, Sheridan & Ann, Thomas Henry Huxley: The War Between Science and Religion, *The Journal of Religion*, The University of Chicago Press, Vol.61, No.3 (Jul., 1981).

* **Gilmartin**, Kevin, Popular Radicalism and The Public Sphere, *Studies in Romanticism*, Boston University, Vol.33, No.4 (Winter, 1994).

* **Gottschalk**, Louis, Reflections on Burke's Reflections on The French Revolution, *Proceedings of The American Philosophical Society*, American Philosophical Society, Vol.100, No.5 (Oct., 15, 1956).

* **Greach**, Peter, The Religion of Thomas Hobbes, *Religious Studies*, Cambridge University Press, Vol.17, No.4 (Dec., 1981).

* **Habakkuk**, H. J., Thomas Robert Malthus, F.R.S. (1766-1834), *Notes and Records of The Royal Society of London*, The Royal Society, Vol.14, No.1 (Jun., 1959).

* **Harris**, William T., Thoughts on The Basis of Agnosticism, *The Journal of Speculative Philosophy*, Penn State University Press, Vol.15, No.2 (April, 1881).

* **Heads**, Michael, Darwin's Changing Views on Evolution: From Centres of Origin and Teleology to Vicariance and Incomplete Lineage Sorting, *Journal of Biogeography*, Blackwell Publishing, Vol.36, No.6 (Jun., 2009).
* **Hefelbower**, S. G., Deism Historically Defined, *The American Journal of Theology*, The University of Chicago Press, Vol.24, No.2 (Apr., 1920).
* **Heinemann**, F. H., John Toland and The Age of Enlightenment, *The Review of English Studies*, Oxford University Press, Vol.20, No.78 (Apr., 1944).
* **Hendrix**, Richard, Popular Humor and "The Black Dwarf", *The Journal of British Studies*, The University of Chicago Press on Behalf of The North American Conference on British, Vol.16, No.1 (Autumn, 1976).
* **Henriques**, U. R. Q., The Jewish Emancipation Controversy in Nineteenth-Century Britain, *Past & Present*, Oxford University Press on behalf of The Past and Present Society, No.40 (Jul., 1968).
* **Himes**, Norman E., Birth Control in Historical and Clinical Perspective, *Annals of The American Academy of Political and Social Science*, Sage Publications Inc., Vol.160, (Mar., 1932).
* ______, McCulloch's Relation to The Neo- Malthusianism, *Journal of Political Economy*, Chicago, 1929, Vol.37.
* **Holland**, J. D., An Eighteenth- Century Pioneer Richard Price D.D, F.R.S. (1723-1791), *Notes and Records of The Royal Society of london*, The Royal Society, Vol.23, No.1 (Jun., 1968).
* **http**://www.jcpa.org/dje/articles3/british.htm
* **Hughes**, Thomas, The Public School of England, *The North American Review*, University of Northern Iowa, Vol.128, No.169 (Apr., 1879).
* **Infidelity**, *The Catholic Layman*, Catholic Layman, Vol.7, No.82 (Oct. 19, 1858).

* **Ingersoll**, Robert G., Professor Huxley and Agnosticism, *The North Amerrican Review*, University of Northern Iowa, Vol.148, No.389 (Apr., 1889).

* **Kates**, Gary, From Liberalism to Radicalism: Tom Paine's Rights of Man, *Journal of The History of Idea*, University Of Pennsylvania Press, Vol.50, No.4 (Oct.- Dec., 1989).

* **Kenny**, Courtney, The Evolution of The Law of Blasphemy, *The Cambridge Law Journal*, Cambridge University Press on Behalf of Editorial Committee of The Cambridge Law Journal, Vol.1, No.2 (1922).

* **Kraeling**, Emil G., the Earliest Hebrew Flood Story, *Journal of Biblical Literature*, The Society of Biblical Literature, Vol.66, No.3 (Sep., 1947).

* **Kramnick**, Isaac, on Anarchism and The Real World: William Godwin and Radical England, *The American Political Science Review*, American Political Science Association, Vol.66, No.1 (Mar., 1972).

* **Krasner**, Stephen D., Compromising Westphalia, *International Security*, The Mit Press, Vol.20, No.3 (Winter, 1995-1996).

* **Kraynak**, Robert P., John Locke: From Absolutism to Toleration, *The American Political Science Review*, American Political Science Association, Vol.74, No.1 (Mar., 1980).

* **Krüger**, Gustav, David Friedrich Strauss, The *American Journal of Theology*, The University of Chicago Press, Vol.4, No.3 (Jul., 1900).

* **Kumar**, Krishan, Utopian Thought and Communal Practice: Robert Owen and The Owenite Communities, *Theory and Society*, Springer, Vol.19, No.1 (Feb., 1990).

* **Langer**, William L., The Origins of The Birth Control Movement in England in The Early Nineteenth Century, *Journal of Interdisciplinary History*, The MIT Press, Vol.5, No.4, The History of the Family, II (Spring, 1975).

* **Leffmann**, Henry, The Real Thomas Paine, Patriot and Publicist, A Philosopher Misunderstood, *The Pennsylvania Magazine of History and Biography*, Historical Society of Pennsylvania, Vol.46, No.2 (1922).

* **Letwin**, Shirley Robin, Hobbes and Christianity, Daedalus, The MIT Press on Behalf of American Academy of Arts & Sciences, Vol.105, No.1 (Winter, 1976).

* **Lieberman**, Janet J., A Short History of Contraception, *The American Biology Teacher*, University of California Press, Vol. 35, No. 6 (Sep., 1973).

* **Lightman**, Bernard, Huxley and Scientifc Agnosticism: The Strange History of a Failed Rhetorical Strategy, *The British Journal For The History of Science*, Cambridge University Press on Behalf of The British Society For The History of Science, Vol.35, No.3 (Sep., 2002).

* **Llano**, Antonio, Agnosticism and Disguised Materialism, *The Philosophical Review*, Duke University Press on Behalf of Philosophical Review, Vol.6, No.2 (Mar., 1897).

* **Lobban**, Michael, From Seditios Libel to Unlawful Assembly: Peterloo and The Changing Face of Political Crime c1770-1820, Oxford Journal of Legal Studies, *Oxford University Press*, Vol.10, No.3 (Autumn, 1990).

* **Lorenzo**, David J., Tradition and Prudence in Locke's Exceptions to Toleration, *American Journal of political Science*, Midwest Political Science Association, Vol.47, No.2 (Apr., 2003).

* **Lovejoy**, O., The Parallel of Deism and Classicism, *Modern Philology*, The University of Chicago Press, Vol. 29, No. 3 (Feb., 1932).

* **Lubienski**, Z., Hobbes' Philosophy and Its Historical Background, *Journal of Philosophical Studies*, Cambridge University Press on Behalf of Royal Institute of Philosophy, Vol.5, No.18 (Apr., 1930).

* **Macdonell**, John, Blasphemy and The Common Law, *The Fortnightly*

Review, No. XXXIII (January- June 1883).

* **Marcham**, A. J., Educating Our Masters: Political Parties and Elementary Education 1867 to 1870, *British Journal of Educational Studies*, Taylor & Francis, Ltd. on Behalf of The Society for Educational Studies, Vol.21, No.2 (Jun., 1973).

* **Marshall**, Geoffrey, David Hume and Political Scepticism, *The Philosophical Quarterly*, Blackwell Publishing for The Philosophical Quarterly, Vol.4, No.16 (Jul., 1954).

* **McCalman**, Iain, Females, Feminism and Free Love in An Early Nineteenth Century Radical Movement, *Labour History*, Australian Society for The Study of Labour History, Inc., No.38 (May, 1980).

* ______, Ultra-Radicalism and Convivial Debating-Clubs in London 1795-1838, *The English Historical Review*, Oxford University Press, Vol.102, No.403 (Apr., 1987).

* **McCann**, W. P., Trade Unionists, Artisans and The 1870 Education Act, *British Journal of Educational Studies*, Blackwell Publishing on behalf of The Society For Educational Studies, Vol.18, No.2 (Jun., 1970).

* **McConnel**, Michael, Establishment and Toleration in Edmund Burke's "Constitution of Freedom", *The Supreme Court Review*, The University of Chicago Press, Vol.1995 (1996).

* **McGrade & Hooker**, Arthur S. & Richard, The Public and The Religious in Hooker's "Polity", *Church History*, Cambridge University Press on behalf of The American Society of Church History, Vol. 37, No. 4 (Dec., 1968).

* **McLaren**, Angus, Contraception and The Working Classes: The Social Ideology of The English Birth Control Movement in Its Early Years, *Comparative Studies in Society and History*, Cambridge University Press, Vol.18, No.2 (Apr., 1976).

* **McNeill**, John T., Anglicanism on The Eve of The Oxford Movement, *Church History*, Cambridge University Press on Behalf of The American Society of Church History, Vol.3, No.2 (Jun., 1934).
* **Micklewright**, F. H. Amphlett, The Rise and Decline of English Neo-Malthusianism, *Population Studies*, Population Investigation Committee, Vol.15, No.1 (Jul., 1961).
* **Miliband**, Ralph, The Politics of Robert Owen, *Journal of The History of Ideas*, University of Pennsylvania Press, Vol.15, No.2 (Apr., 1954).
* **Milner**, Benjamin, Hobbes: On Religion, *Political Theory*, Sage Publications, Inc., Vol.16, No.3 (Aug., 1988).
* **Nash**, David S., Unfettered Investigation: The Secularist Press and The Creation of Audience in Victorian England, *Victorian Periodicals Review*, The Johns Hopkins University Press on Behalf of The Research Society for Victorian Periodicals, Vol.28, No.2 (Summer, 1995).
* **Nethercot**, Arthur H., G.B.S. and Annie Besant, *Bullentin (Shaw Society of America)*, Penn State University, Vol.1, No. 9 (September, 1955).
* **Newbould**, Ian, Sir Robert Peel and The Conservative Party, 1832-1841: A Study in Failure?, *The English Historical Review*, Oxford University Press, Vol.89, No.388 (Jul., 1983).
* **Newland**, T. C., D'Holbach, Religion, and The "Encyclopédie", *The Modern Language Review*, Modern Humanities Research Association, Vol.69, No.3 (Jul., 1974).
* **Nix & Paris**, C. J. & J. B., A Note on Binary Inductive Logic, *Journal of Philosophical Logic*, Springer, Vol.36, No.6 (Dec., 2007).
* **Oaks**, Dallin H., The "Original" Writ of Habeas Corpus in The Supreme Court, *The Supreme Court Review*, The University of Chicago Press, Vol.1962 (1962).
* **Osgood**, Herbert L., Scientific Socialism, *Political Science Quarterly*, The

Academy of Political Science, Vol.1, No.4 (Dec. 1886).

* **Passmore**, John, Darwin's Impact on British Metaphysicas, *Victorian Studies*, Indiana University Press, Vol.3, No.1 Darwin Anniversary Issue (Sep., 1959).

* **Petersen**, William, Malthus and The Intellectuals, *Population and Development Review*, Population Council, Vol.5, No.3 (Sep., 1979).

* **Peterson**, Susan Rae, The Compatibility of Richard Price's Politics and Ethics, *Journal of the History of Ideas*, University of Pennsylvania Press, Vol.45, No.4 (Oct.- Dec., 1984).

* **Pinsker**, Polly, English Opinion and Jewish Emancipation (1830-1860), *Jewish Social Studies*, Indiana University Press, Vol.14, No.1 (Jan., 1952).

* **Pionke**, Albert D., "I Do Swear": Oath- Taking Among The Elite Public in Victorian England, *Victorian Studies*, Indiana University Press, Vol.49, No.4 (Summer, 2007).

* **Platten**, Stephen G., The Conflict Over The Control of Elementary Education 1870-1902 and Its Effect Upon The Life And Influence of The Church, *British Journal of Educational Studies*, Society For Educational Studies, Vol.23, No.3 (Oct., 1975).

* **Podmore**, Frank, Robert Owen and Cooperation, *The Economic Journal*, Blackwell Publishing for The Royal Economic Society, Vol.15, No.58 (Jun., 1905).

* **Prothero**, Iorwerth, Chartism in London, *Past & Present*, Oxford University Press, No.44 (Aug., 1969).

* **Rappaport**, Rhoda, Geology and Orthodoxy: The Case of Noah's Flood in Eighteenth- Century Thought, *The British Journal for the History of Science*, Cambridge Uinversity Press on Behalf of the British Society for The History of Science, Vol.11, No.1 (Mar., 1978).

* **Reedy**, Gerard, Socinians, John Toland, and The Anglican Rationalists,

The Harvard Theological Review, Cambridge University Press on Behalf of The Harvard Divinity School, Vol.70, No.3/4 (Jul.- Oct., 1977).

* **Richards**, N. J., Religious Controversy and The School Boards 1870-1902, *British Journal of Educational Studies*, Taylor & Francis, Ltd. on Behalf of The Society for Educational Studies, Vol.18, No.2 (Jun., 1970).
* **Roach**, J. P. C., Victorian Universities and The National Intelligentsia, *Victorian Studies*, Indiana University Press, Vol.3, No.2 (Dec., 1959).
* **Roberts**, David, Jeremy Bentham and The Victorian Administrative State, *Victorian Studies*, Indiana University Press, Vol.2, No.3 (Mar., 1959).
* **Roberts**, M. J. D., Morals, Arts, and The Law: The Passing of The Obscene Publications Act 1857, *Victorian Studies*, Indiana University Press, Vol.28, No.4 (Summer, 1985).
* **Robinson**, Warren C., Population Policy in Early Victorian England, *European Journal of Population*, kluwer Academic Publishers- Printed in The Netherlands, Vol. 18, No.2 (2002).
* **Royle**, Edward, Mechanics' Institutes and The Working Classes 1840-1860, *The Historical Journal*, Cambridge University Press,Vol.14, No.2 (Jun., 1971).
* **Schurman**, J. G., Agnosticism, *The Philosophical Review*, Duke University Press on Behalf of Philosophical Review, Vol.4, No.3 (May, 1895).
* **Schwartzman**, Micah, The Relevance of Lockes's Religious Arguments for Toleration, *Political Theory*, Sage Publications, Inc., Vol.33, No.5 (Oct., 2005).
* **Scrivener**, Michael, H., Godwin's Philosophy: A Revaluation, **Journal of The History of Ideas**, University of Pennsylvania Press, Vol.39; No.4 (Oct., Dec., 1978).

* **Secord**, Anne, Corresponding Interests: Artisans and Gentlemen in Nineteenth- Century Natural History, *The British Journal for The History of Science*, Cambridge University Press on Behalf of The British Society for The History of Science, Vol.27, No.4 (Dec., 1994).

* **Sheehan**, Thomas Canon, Father John McEnery and Palaeolithic Man 1796-1841, *Studies: An Irish Quarterly Review*, Vol.21, No.83 (Sep., 1932).

* **Short**, K. R. M., The English Indemnity Acts 1726-1867, *Chuch History*, Cambridge University Press on Behalf of The American Society of Church History, Vol.42, No.3 (Sep., 1973).

* **Solomon**, Robert C., On Fate and Fatalism, *Philosophy East and West*, University of Hawai'I Press, Vol.53, No.4 (Oct., 2003).

* **Stafleu**, Frans A., Lamarck: The Birth of Biology, *Taxon*, International Association for Plant Taxonomy (IAPT), Vol.20, No. 4 (Aug., 1971).

* **Staples**, W. E., The Hebrew of The Septuagint, *The American Journal of Semitic Languages and Literatures*, The University of Chicago Press, Vol.44, No.1 (Oct., 1927).

* **Stigler**, George J., Bernard Shaw, Sidney Webb, and The Theory of Fabian Socialism, *Proceedings of The American Philosophical Society*, American Philosophical Society, Vol.103, No.3 (Jun. 15, 1959).

* **Stillman**, Robert E., Hobbes's "Leviathan": Monsters, Metaphors, and Magic, *ELH*, The Johns Hopkins University Press, Vol.62, No.4 (Winter, 1995).

* **Straumann**, Benjamin, The Peace of Westphalia as a Secular Constitution, *Journal Compilation*, Oxford, Blackwell Publishing Ltd., Volume 15, No. 2, 2008.

* **Sutton**, M. A., Sir John Herschel and The Development of Spectroscopy, *The British Journal for The History of Science*, Cambridge University

Press on Behalf of The British Society for The History of Science, Vol.7, No.1 (Mar., 1974).

* **Szreter & Nye & Poppel**, Simon & Robert A. & Frans Van, Fertility and Cotraception During The Demographic Transition: Qualitative and Quantitative Approaches, *The Journal of Interdisciplinary History*, The MIT Press, Vol.34, No.2, (Autumn, 2003).

* **Tännsjö**, Torbjörn, Classical Hedonistic Utilitarianism, *Philosophical Studies: An International Journal for Philosophy in The Analytic Tradition*, Springer, Vol.81, No.1 (Jan., 1996).

* **Taylor**, Miles, Rethinking The Chartists: Searching for Synthesis in Historiography of Chartism, *The Historical Journal*, Cambridge University Press, Vol.39, No.2 (Jun., 1996).

* **Taylor**, Richard, Fatalism, *The Philosophical Review*, Duke University Press on Behalf of Philosophical Review, Vol.71, No.1 (Jan., 1962).

* **Ten**, C. L., Mill and Liberty, *Journal of the History of Ideas*, University of Pennsylvania Press, Vol.30, No.1 (Jan. - Mar., 1969).

* **Tinkler**, John F., J. S. Mill as a Nineteenth-Century Humanist, *Rhetorica: A Journal of The History of Rhetoric*, University of California Press, Vol.10, No.2 (Spring, 1992).

* **Tomlinson**, May, The Beginnings of George Eliot's Art: A Study of "Scenes of Clerical Life", *The Sewanee Review*, The Johns Hopkins University Press, Vol.27, No.3 (Jul., 1919).

* **Toohey**, Timothy J., Blasphemy in Nineteenth- Century England: The Pooley Case and Its Background, *Victorian Studies*, Indiana University Press, Vol.30, No.3 (Spring, 1987).

* **Topham**, Jonathan, Science and Popular Education in The 1830s: The Role of The "Bridgewater Treatises", *The British Journal for The History of Science*, Cambridge University Press on Behalf of The British Society

for The History of Science, Vol.25, No.4 (Dec., 1992).

* **Tuckness**, Alex, Rethinking The Intolerant Locke, *American Journal of political Science*, Midwest Political Science Association, Vol.46, No.2 (Apr., 2002).

* **Turner**, John, Burke, Paine, and the Nature of Language, *The Yearbook of English Studies*, Modern Humanities Research Association, Vol.19, (1989).

* **Visconsi**, Elliot, The Invention of Criminal Blasphemy: Rex v. Taylor (1676), *Representations*, University of California Press, Vol.103, No.1 (Summer 2008).

* **Walker & Wood**, Aileen & Edward, The Parliamentary Oath, Parliament and Constitution Centre, House of Commons Library, Research Paper 00/17, 2000.

* **Wallace**, Colin V. Murray, Understanding 'Deep' Time- Advances Since Archbishop Ussher?, *Archaeology in Oceania*, Oceania Publications, University of Sydney, Vol.31, No.3 (Oct., 1996).

* **Walle**, ?tienne Van De, Birth Prevention Before The Era of Modern Contraception, *Population & Societies*, No.418, December 2005.

* **Ward**, Ian, Thomas Hobbes and The Nature of Contract, *Studia Leibnitiana*, Franz Steiner Verlag, Bd.25, H.1 (1993).

* **Warren**, William F., The Origin of The Pentateuch, *The Biblical World*, The University of Chicago Press, Vol.18, No.3 (Sep., 1901).

* **Weindling**, Paul, Science and Sedition: How Effective Were the Acts Licensing Lectures and Meetings 1795-1819?, *The British Journal for The History of Science*, Cambridge University Press on Behalf of The British Society for The History of Science, Vol.13, No.2 (Jul., 1980).

* **Weinstein**, Benjamin, Popular Constitutionalism and The London Corresponding Society, *Albion: A Quarterly Journal Concerned With*

British Studies, The North American Conference on British Studies, Vol.34, No.1, (Spring, 2002).

* **Whittaker**, Edmund, Laplace, *The Mathematical Gazette*, The Mathematical Association, Vol.33, No.303 (Feb., 1949).

* **Whittaker**, Thomas, Giordano Bruno, *Mind*, Oxford University Press on Behalf of The Mind Association, Vol.9, No.34 (Apr., 1884).

* **Wiener**, Joel H., The Journalism of Richard Carlile, *Victorian Periodicals Newsletter*, The John Hopkins University Press on Behalf of The Research Society For Victorian Periodicals, Vol.9, No.3 (Sep., 1976).

* ______, The Press and The Working Class 1815-1840, *Victorian Periodicals Newsletter*, The Johns Hopkins University Press on Behalf of The Research Society For Victorian Periodicals, Vol.4, No.1 (Feb., 1971).

* ______, Richard Carlile and "The Republican", *Victorian Periodicals Review*, The Johns Hopkins University Press on Behalf of The Research Society for Victorian Periodicals, Vol.13, No.3 (Fall, 1980).

* **Wilder**, T. E., At The Origins of English Rationalism, *Contra Mundum*, No. 1 Fall 1991.

* **Williams**, C. R., The Welsh Religious Revival: 1904-1905, *The British Journal of Sociology*, Blackwell Publishing on behalf of The London School of Economics and Political Science, Vol.3, No.3 (Sep., 1952).

* **Williams**, Michael C., Reason and Realpolitik: Kant's "Critique of International Politics", *Canadian Journal of Political Science*, Canadian Political Science Association, Vol.25, No.1 (Mar., 1992).

* **Willman**, Robert, The Origins of Whig and Tory in English Political Language, *The Historical Journal*, Cambridge University Press, Vol.17, No.2 (Jun., 1974).

* **Winter**, James, The Cave of Adullam and Parliamentary Reform, *The English Historical Review*, Oxford University Press, Vol.81, No.318 (Jan.,

1966).

* **Zuckert**, Michael P., Locke: Religion: Equality, *The Review of Politics*, Cambridge University Press for The University of Notre Dame Du Lac on Behalf of Review of Politics, Vol.67, No.3 (Summer, 2005).

ز- الكراريس:

* **A Few Plain Words** on The Two Education Bills now Before the Country, London, 1852.

* **A Narrative** of The Case of Mr. Bradlaugh, *LSE Selected Pamphlets*, LSE Library, 1881.

* **Adler**, The Jews During The Victorian Era: A Sermon, London, Alfred J. Isaacs & Sons, 1897.

* **Barrister**, An Answer to The Speech of The Right Honourable Sir R. Peel, M.P. Upon The Second Reading of The Jewish Disabilities Bill, London, 1848.

* **Besant**, Annie, The Law of Population: Its Consequences, London, Freethought Publishing Company, 1877.

* **Birks**, T. R., A Letter to Lord John Russell M. P. on The Admission of Jews to Parliament, London, 1848.

* **Bradlaugh**, Charles, Half Hours with The Freethinkers, Cowen Tracts, Newcastle University, No.10, Sunday, February 15, 1857.

* ______, What did Jesus Teach?, *Bristol Selected Pamphlets*, University of Bristol Library, 1861.

* **Carlile**, R., A Letter to The Society For The Suppression of Vice, London, R. Carlile, 1819.

* **Cooper**, Robert, The Immortality of The Soul: Religiously & Philosophically Considered : A Series of Lectures, *Cowen Tracts*, Newcastle University, 1853.

* **Dean Stanley**, *Proceedings of the American Academy of Arts and Sciences*, American Academy of Arts & Sciences, Vol.17 (Jun., 1881-Jun., 1882).

* **Debates in The House of Commons** and in The House of Lords on The Bill for Removing The Civil Disabilities of The Jews, *Bristol Selected Pamphlets*, University of Bristol, 1834.

* **Elementary Education Act**, 1870, *Bristol Selected Pamphlets*, University of Bristol Library, 1870.

* **Forty Reasons** for Resisting the Removal of The Jewish Disabilities, London, 1853.

* **Free Press Defence Committee**, The Bedborough Case- Balance Sheet, *LSE Selected Pamphlets*, LSE Library, 1899.

* **Glen**, W. Cunningham, The Elementary Education Act 1870, London, Shaw and Sons, Fetter Lane, 1870.

* **Goldsmid**, F. H., Two Letters in Answer to The Objections Urged Against Mr. Grant's Bill for The Relief of The Jews, London, 1830.

* **Grant**, Brewin, Christianity and Secularism: Report of a Public Discussion Between The Rev. Brewin Grant, B. A., and George Jacob Holyoake, Bristol Selected Pamphlets, University of Bristol Library, 1853.

* **Holyoake**, George Jacob, A Short and Easy Method with The Saints, *Cowen Tracts*, Newcastle University, 1843.

* ______, Catholicism, The Religion of Fear, *Cowen Tracts*, London, J. Watson, 1850.

* ______, Paley Refuted in His own Words, *Cowen Tracts*, Newcastle University, 1847.

* ______, Principles of Secularism Briefly Explained, *Cowen Tracts*, Newcastle University, 1859.

* ______, Secularism The Practical Philosophy of The People, *Cowen*

Tracts, Newcastle University, 1854.

* ______, The History of the Fleet House: A Report of Sixteen Years, *Cowen Tracts*, Newcastle University, 1856.
* ______, The life and Character of Henry Hetherington, *Cowen Tracts*, London, 1849.
* ______, The life and Character of Richard Carlile, London, *Bristol Selected Pamphlets*, 1855.
* ______, The Logic of Death; or, Why Should The Atheist Fear to Die?, *Cowen Tracts*, London, 1850.
* ______, The Organization of Freethinkers, *Cowen Tracts*, Newcastle University, 1852.
* ______, The Spirit of Bonner in The Disciples of Jesus, *Bristol Selected Pamphlets*, University of Bristol Library, 1842.
* ______, The Trial of George Jacob Holyoake on an Indictment for Blasphemy , Before Mr. Justice Erskine, and a Common Jury, at Gloucester, August The 15th, 1842, *Hume Tracts*, 1842.
* **Houchen**, Charles, Infidelity: The Cause and Effects Asserted, *Bristol Selected Pamphlets*, University of Bristol Library, J. H. Purdy, 1861.
* **Hunter**, William Alexander, The Blasphemy Laws: Should They Be Abolished?, *LSE Selected Pamphlets*, 1884.
* **J. F. R.,** Charles Bradlaugh, M. P., His Portrait And Biography, *Manchester Selected Pamphlets*, 1881.
* **Leeds Secular Society**, The Converted Lecturer, or, Mr. Gordon's Repudiation of Secular Principles Examined, Leeds, New Agents' Newspaper and Pub., Ltd., 1862.
* **Mirror of Parliament**, 4th Session, 2 (5 April 1830).
* Mr. Bradlaugh and The House of Commons in 1886: The Oath of Allegiance, *Bristol Selected Pamphlets*, University of Bristol Library,

1886.

* **Owen**, Robert, Outline of The Rational System of Society, *Hume Tracts*, UCL Library Services, 1839.

* **Report From The Second Select Committee** on The Parliament Oath, Parliamentary Papers, 1880, Vol.XII.

* **Report of The Conversazione** of Friends and Supporters of The Manchester and Salford Bill, 28 August 1851.

* **Report of The First General Meeting** of Members of The National Education League, Held at Birmingham on Tuesday and Wednesday, Oct. 12 & 13, 1869, *Bristol Selected Pamphlets*, University of Bristol Library, 1869.

* **Richson**, C., The Scheme of Secular Education Proposed by The National Public Schools Association Compared with The Manchester and Salford **Borough's Education Bill**, London, Longman, Brown, Green, and Longmans, 1851.

* **Royle**, Edward, Religion, Radicalism and Freethought in Victorian & Edwardian Britain: Collection of Periodicals 1834-1916, University of York, 1981.

* **Rubinstein & Besant**, D. & Annie, The London School Board Election of 1888, East London Papers, XIII, Summer 1970.

* **Rubinstein**, D., School Attendance in London, 1870-1914, Hull, 1969.

* **Southwell**, Charles, Confessions of a Freethinker, *Cowen Tracts*, London, Newcastle University, 1848.

* ______, The Trial of Charles Southwell, (Editor of "The Oracle of Reason") For Blasphemy: Before Sir Charles Wetherall, Recorder of The City of Bristol, January The 14th, 1842, *Hume Tracts*, London, Hetherington, Wine Office Court, (1842).

* **Taylor**, G. H., A Chronology of British Secularism, National Secular

Society, 1957.

* **The Bedborough Case**, *LSE Selected Pamphlets*, LSE Library, 1898.

* **The Secular System**, The Manchester Bill and The Government Scheme Contrasted, London, 1852.

* **Veritas**, The Jew Question Considered: A Letter Addressed to Sir Robert H. Inglis, Bart. M.P., London, 1851.

ح- الدوريات:

* Anti-Infidel, 1892.
* The Agnostic Annual, 1898.
* The Agnostic Journal, 1898, 1902, 1906, 1907.
* The Barker's Review, 1861, 1862.
* The Cheltenham Mercury, 1891.
* The Co-operative Magazine, 1826.
* The Dublin Review, 1885.
* The Ethics, 1901, 1902.
* The Fortnightly Review, 1884.
* The Freethinker, 1881- 1906, 1908, 1909, 1911, 1913, 1915.
* The Herald of Progress, 1846.
* The Investigator, 1843, 1859.
* The Jerusalem Star, 1895, 1896.
* The Jewish Chronicle, 1847, 1853.
* The Lancashire Beacon, 1849.
* Leicester Secular Society, Minute Book II, 1881, 1883- 1885, 1894.
* The Lion, 1828, 1829.
* The London Investigator, 1854-1859.
* London Quarterly Review, 1880.
* The Malthusian, 1879, 1909, 1914, 1919.

* The Malthusim, 1909.
* The Manchester and Salford Advertiser, 1840.
* The Manchester Courier 1840.
* The Methodist Times, 1888.
* The Month and Catholic Review, 1880, 1882.
* The Movement, 1844, 1845.
* The National Reformer, 1860- 1893.
* The National Secular Society Almanack, 1878, 1880.
* The New Moral World, 1834, 1839- 1842, 1844, 1845.
* The Nineteenth Century, 1889.
* Northampton Daily Reoport, 1883.
* Northampton Mercury, 1850, 1874, 1922.
* The Northern Star, 1850.
* The Oracle of Reason, 1841-1843.
* Our Corner, 1883, 1886- 1888.
* The Progress, 1884- 1886.
* The Prompter, 1830, 1831.
* The Punch, 1880.
* The Radical Leader, 1888.
* The Radical, 1887.
* The Radical, 1889, 1897.
* The Reason, 1898.
* The Reasoner Gazette, 1860.
* The Reasoner, 1846-1861, 1865.
* The Reformer, 1897.
* The Republican, 1820, 1822- 1826, 1880- 1882, 1884.
* The Rock, 1887.
* The Saturday Review, 1866.

* The Secular Almanack, 1894, 1900.

* The Secular Chronicle,, 1872- 1879, 1881, 1884.

* The Secular Review, 1876- 1883, 1886, 1891.

* The Secular Work, 1896, 1897.

* The Secular World, 1862- 1864.

* The Secularist, 1876, 1877.

* The Spectator, 1888.

* The Spirit of The Age, 1849.

* The Truth Seeker, 1896.

* The Utilitarian Record, 1847.

* The Weekly Dispatch, 1879.

ثانياً: المصادر باللغة الفرنسية:

* **Bocthor**, Ellious, Dictionnaire Franais- Arabe, Revu Et Augmenté: Caussin De Perceval, Paris, Chez Firmin Didot Freres, Libraires, Rue Jacob, No.24, 1829, Tome Deuxieme.

٢- المصادر باللغة العربية:

أ- الاطروحات والرسائل الجامعية غير المنشورة:

* **البدري**، سهيلة شندي عوان راضي، وليم غلادستون والقضية الإيرلندية ١٨٦٨-١٨٩٤، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب- جامعة بغداد، ٢٠٠٥.

* **حسن**، علي جبر، الحركة الجارتية في بريطانيا ١٨٣٨-١٨٥٢، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب- جامعة بغداد، ٢٠٠٦.

* **الخيقاني**، حيدر صبري شاكر، الملكة فكتوريا وأثرها في السياسة البريطانية (١٨٣٧-١٩٠١)، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب- جامعة بغداد، ٢٠٠٩.

* **الموسوي**، ربيع حيدر طاهر، تطور البرلمان البريطاني ١٩١١-١٩٤٩، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب- جامعة بغداد، ٢٠٠٧.

* **الهاشمي** ، عدي محسن غافل ، الإصلاح البرلماني في بريطانيا في العصر الفكتوري ١٨٣٧-١٩٠١ ، أطروحة دكتوراه غير منشورة ، كلية التربية- الجامعة المستنصرية ، ٢٠٠٦ .

ب- المحاضرات غير المنشورة:

* **السوداني** ، صادق حسن ، التطورات السياسية في بريطانيا في العصر الفكتوري ، محاضرات غير منشورة ألقيت على طلبة الدكتوراه (التاريخ الحديث) ، قسم التاريخ ، كلية الآداب- جامعة بغداد ، ٢٠٠٩ .

جـ- الموسوعات والقواميس:

* **بالمر** ، الآن ، موسوعة التاريخ الحديث ، تر : سوسن فيصل السامر ويوسف محمد أمين ، ط١ ، بغداد ، دار الحرية للطباعة ، ١٩٩٢ ، ج١ ،٢ .
* **بدوي** ، أحمد زكي ، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية : إنجليزي- فرنسي- عربي ، بيروت ، مكتبة لبنان ، ١٩٨٢ .
* **بدوي** ، عبد الرحمن ، موسوعة المستشرقين ، ط٣ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٩٣ .
* **البستاني** ، بطرس ، محيط المحيط : قاموس مطول للغة العربية ، بيروت ، مكتبة لبنان ، ١٩٨٧ .
* **البعلبكي** ، منير ، المورد : قاموس إنكليزي- عربي ، ط ٣٨ ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ٢٠٠٤ .
* **خليل** ، خليل أحمد ، معجم المصطلحات الإجتماعية : عربي- فرنسي- إنكليزي ، ط١ ، بيروت ، دار الفكر اللبناني ، ١٩٩٥ .
* ـــــ ، معجم المصطلحات الدينية : عربي- فرنسي- إنكليزي ، ط١ ، بيروت ، دار الفكر اللبناني للطباعة والنشر ، ١٩٩٥ .
* **شنيرب** ، روبير ، تاريخ الحضارات العام : القرن التاسع عشر ، ط٢ ، تر : يوسف أسعد داغر & فريد م . داغر ، بيروت- باريس ، منشورات عويدات ، ١٩٨٧ ، م ٦ .
* **الصالح** ، مصلح ، الشامل : قاموس مصطلحات العلوم الإجتماعية : إنجليزي- عربي ، ط١ ، الرياض ، دار عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٩٩ .

* **غربال وآخرون** ، محمد شفيق ، الموسوعة العربية الميسرة ، بيروت ، دار نهضة لبنان للطبع والنشر ، ١٩٨٧ ، م١ ،٢ .
* **الفاروقي** ، حارث سليمان ، المعجم القانوني : إنكليزي- عربي ، ط٢ ، بيروت ، مكتبة لبنان ، ١٩٧٠ .
* **الموسوعة الفلسفية المختصرة** ، تر : فؤاد كامل وآخرون ، مراجعة : زكي محمود نجيب ، القاهرة ، مؤسسة طباعة الألوان المتحدة ، ١٩٦٣ .

د- المراجع العامة:

١- الكتب المترجمة والمعربة:

* **إسبينوزا** ، رسالة في اللاهوت والسياسة ، ط١ ، ترجمة وتقديم : حسن حنفي ، مراجعة : فؤاد زكريا ، بيروت ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، ٢٠٠٥ .
* **إهرنبرغ** ، جون ، المجتمع المدني : التاريخ النقدي للفكرة ، ط١ ، تر : علي حاكم صالح & حسن ناظم ، بيروت ، المنظمة العربية للترجمة ، ٢٠٠٨ .
* **برهييه** ، أميل ، تاريخ الفلسفة ، ط٢ ، تر : جورج طرابيشي ، بيروت ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، ١٩٩٣ ، ج٤ ، ٥ .
* **برينتون** ، كرين ، منشأ الفكر الحديث ، تر : عبد الرحمن مراد ، دمشق ، مطبعة المفيد الجديدة ، بلا .ت .
* **بواريير** ، فيليب ، نشأة حزب العمال البريطاني ، تر : محمد نبيل موسى علام ، مراجعة : إبراهيم جمعة ، الدار القومية للطباعة والنشر ، مجموعة إخترنا لك- ع ١٤٦ .
* **بيشوب** ، موريس ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، ط١ ، تر : علي السيد علي ، القاهرة ، المجلس الأعلى للثقافة ، ٢٠٠٥ ، العدد ٥٦٦ .
* **توشار** ، جان ، تاريخ الفكر السياسي ، ط٢ ، تر : علي مقلد ، بيروت ، الدار العالمية للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٣ .
* **دروز وآخرون** ، جاك ، التاريخ العام للإشتراكية من الأصول إلى عام ١٨٧٥ ، ط١ ، تر : أنطون حمصي ، دمشق ، مطابع وزارة الثقافة ، دراسات فكرية رقم «٤٧» ، ١٩٩٩ ، ج١ ، ق١ ، ج٢ ، ق٢ ، ٢٠٠١ .
* **دولوز** ، جيل ، التجريبية والذاتية : بحث في الطبيعة البشرية وفقاً لهيوم ، ط١ ،

تعريب : أسامة الحاج ، بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ١٩٩٩ .

* **ديلو** ، ستيفن م . ، التفكير السياسي والنظرية السياسية والمجتمع المدني ، ط١ ، تر : فريال حسن خليفة ، القاهرة ، مكتبة مدبولي ، ٢٠٠٨ ، ج ٢ .
* **رسل** ، برتراند ، حكمة الغرب ، تر : فؤاد زكريا ، الكويت ، سلسلة كتب عالم المعرفة- رقم ٦٢ ، ١٩٨٣ ، ج١ .
* **زولا** ، أميل ، تر : قتيبة معروفي & نديم مرعشلي ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، ١٩٦٨ ، ج ١ ، ٢ .
* **سباين** ، جورج ، تطور الفكر السياسي ، تر : حسن جلال العروسي ، مراجعة وتقديم : محمد فتح الله الخطيب ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠١٠ ، الكتاب الثاني .
* ــــــ ، تطور الفكر السياسي ، تر : راشد البراوي ، تقديم : أحمد سويلم العمري ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ٢٠١٠ ، الكتاب الثالث .
* **سوينكلر** ، ستيفن ، خلاصة الفكر السياسي منذ الثورة الفرنسية ، تر : مجيد عبد الله وخدوري خدوري ، بغداد ، مطبعة المعارف ، ١٩٤٥ .
* **شازار (تحرير)** ، زالمان ، تاريخ نقد العهد القديم من أقدم العصور حتى العصر الحديث ، تر : أحمد محمود هويدي ، تقديم ومراجعة : محمد خليفة حسن احمد ، بلا . م ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، المجلس الأعلى للثقافة ، المشروع القومي للترجمة- رقم ٢٠٤ ، ٢٠٠٠ .
* **شوفالييه** ، جان جاك ، تاريخ الفكر السياسي ، ط٥ ، تر : محمد عرب صاصيلا ، بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ٢٠٠٦ ، م١ .
* **غولدمان (تحرير) وآخرون** ، ل . أ . ، من تاريخ الحركات الإجتماعية والفكر الإجتماعي ، ط١ ، تر : طنوس شلهوب ، بيروت ، دار الفارابي ، ١٩٨٧ .
* **فريزر** ، سير جيمس ، الغصن الذهبي : دراسة في السحر والدين ، ترجم بإشراف : أحمد أبو زيد ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧١ ، ج١ ، ٢ .
* **كول** ، ج .د . هـ . ، رواد الفكر الاشتراكي ١٧٨٩-١٨٥٠ ، تر : منير البعلبكي ، بيروت ، دار العلم للملايين ، ١٩٦١ .

* **لوك** ، جون ، الحكومة المدنية وصلتها بنظرية العقد الاجتماعي لجان جاك روسو ، تر : محمد شوقي الكيال ، مطابع شركة الإعلانات الشرقية ، بلا .ت ، سلسلة إخترنا لك- رقم ٨١ .
* ـــــ ، رسالة في التسامح ، ط١ ، تر : عبد الرحمن بدوي ، بغداد ، مطبعة سرور ، ٢٠٠٦ .
* **ليدلر** ، هاري . و . ، الحركات الإشتراكية ، تر : محمد ماهر نور ، مراجعة : محمد حلمي مراد ، القاهرة ، مطابع الدار القومية ، ١٩٦٦ .
* **متس** ، رودلف ، الفلسفة الإنجليزية في مائة عام ، تر : فؤاد زكريا وزكي نجيب محمود ، القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٣ ، ج١ .
* **مل** ، جون ستيوارت ، أسس اللبرالية السياسية ، ترجمة وتقديم وتعليق : إمام عبد الفتاح إمام وميشيل متياس ، القاهرة ، مكتبة مدبولي ، ١٩٩٦ .
* **ميل** ، جون ستيوارت ، عن الحرية ، ط١ ، تر : هيثم كامل الزبيدي ، مراجعة وتدقيق : فادي حدادين ، الأهلية للنشر والتوزيع ، ٢٠٠٧ .
* **هوبز** ، توماس ، اللفياثان : الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة ، ط١ ، تر : ديانا حبيب حرب & بشرى صعب ، مراجعة وتقديم : د . رضوان السيد ، أبو ظبي ، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث (كلمة) ، ٢٠١١ .
* **ويتلر** ، ج ، الهرطقة في المسيحية : تاريخ البدع الدينية المسيحية ، تر : جمال سالم ، بيروت ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، ٢٠٠٧ .

٢- الكتب باللغة العربية:

* **أحمد** ، كمال مظهر ، النهضة ، بغداد ، دار الحرية للطباعة ، سلسلة الموسوعة الصغيرة- رقم ٣٧ ، ١٩٧٩ .
* **إسلام** ، عزمي ، جون لوك ، القاهرة ، دار المعارف بمصر ، سلسلة نوابغ الفكر الغربي- رقم ١٦ ، ١٩٦٤ .
* **إمام** ، إمام عبد الفتاح ، توماس هوبز فيلسوف العقلانية ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ١٩٨٥ .
* **بدوي** ، عبد الرحمن ، فلسفة العصور الوسطى ، ط٣ ، بيروت ، دار القلم ، ١٩٧٩ .

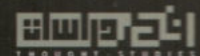
* **بلدي** ، نجيب ، ديكارت ، ط٢ ، القاهرة ، دار المعارف ، بلا .ت ، سلسلة نوابغ الفكر الغربي- رقم ١٢ .
* **خليفة** ، فريال حسن ، العقل والمقدس عند توماس بين ، ط١ ، القاهرة ، مكتبة مدبولي ، ٢٠٠٤ .
* ــــــ ، المجتمع المدني عند توماس هوبز وجون لوك ، ط١ ، القاهرة ، مكتبة مدبولي ، ٢٠٠٥ .
* ــــــ ، فكرة الإلوهية في فلسفة باركلي ، ط١ ، بلا .م ، مكتبة الجندي ، ١٩٩٧ .
* **الشاوي** ، منذر ، مذاهب القانون ، بغداد ، دار الحرية للطباعة ، بلا . ت .
* **زكي** ، رمزي ، المشكلة السكانية : وخرافة المالتوسية الجديدة ، الكويت ، سلسلة كتب عالم المعرفة رقم ٨٤ ، ١٩٨٤ .
* **عبد السلام** ، رفيق ، تفكيك العلمانية في الدين والديمقراطية ، ط١ ، بيروت ، دار لبنان للطباعة والنشر ، ٢٠١١ .
* ــــــ ، في العلمانية والدين والديمقراطية : المفاهيم والسياقات ، ط١ ، بيروت ، مطابع الدار العربية للعلوم ، ٢٠٠٨ .
* **العظمة** ، عزيز ، العلمانية من منظور مختلف ، ط٢ ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٩٨ .
* **عفيفي باشا** ، حافظ ، الإنجليز في بلادهم ، القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٣٥ .
* **عمارة** ، محمد ، العلمانية بين الغرب والإسلام ، ط١ ، المنصورة ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٩٦ .
* **عوض** ، رمسيس ، الإلحاد في الغرب ، ط١ ، القاهرة ، سينا للنشر ، ١٩٩٧ .
* **فضل الله** ، مهدي ، فلسفة ديكارت ومنهجه : دراسة تحليلية ونقدية ، ط٣ ، بيروت ، دار الطليعة للطباعة والنشر ، ١٩٩٦ .
* **قربان** ، ملحم ، قضايا الفكر السياسي- القانون الطبيعي ، ط١ ، بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، ١٩٨٢ .
* **قرم** ، جورج ، تعدد الأديان وأنظمة الحكم : دراسة سوسيولوجية وقانونية مقارنة ، بيروت ، دار النهار للنشر ، ١٩٧٩ .
* **كرم** ، يوسف ، تاريخ الفلسفة الحديثة ، ط٥ ، القاهرة ، دار المعارف ، بلا . ت .

* **محمد** ، أثمار أحمد ، اللاهوت المسيحي : نشأته- طبيعته ، ط١ ، دمشق ، دار الزمان للطباعة والنشر والتوزيع ، ٢٠١٠ .
* **المسيري & العظمة** ، عبد الوهاب & عزيز ، العلمانية تحت المجهر ، ط١ ، دمشق ، دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر ، ٢٠٠٠ .
* **المسيري** ، عبد الوهاب ، العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة ، ط١ ، القاهرة ، دار الشروق ، ٢٠٠٢ ، م١ .
* **اليوسف** ، عبد القادر ، العصور الوسطى الأوروبية ٤٧٦-١٥٠٠ ، بيروت ، دراسات تاريخية ٢ ، ١٩٦٧ .

هـ - البحوث والدراسات:

* **أبو زيد** ، أحمد ، حقوق الإنسان ، *مجلة عالم الفكر* ، الكويت ، وزارة الإرشاد والأنباء ، م١ ، ع٤ ، يناير- فبراير- مارس ١٩٧١ .
* **الحميد** ، عبد الله محمد صالح ، إدموند بيرك والثورة الفرنسية : تفسير بديل ، *مجلة كلية التجارة للبحوث العلمية* ، جامعة الاسكندرية ، م٤٤ ، ع٢ ، سبتمبر ٢٠٠٧ .
* **العظمة** ، عزيز ، جولة أفق في العلمانية وشأن الحضارة ، *مجلة الاداب* ، بيروت ، ٧/ ٨/ ٩ -٢٠٠٧ .

THE BRITISH SECULARISM
A STUDY OF THE EMERGENCE AND DEVELOPMENT OF THE CONCEPT



العلمانيّة البريطانيّة: دراسة في نشوء المفهوم وتطوّره

كتاب «العلمانيّة البريطانيّة: دراسة في نشوء المفهوم وتطوّره» جهد أربع سنوات من استقصاء المظانّ التاريخيّة الأصيلة المتعلّقة بنموّ مفهوم العلمانيّة البريطانيّ وتطوّره، وجذور الحركة العلمانيّة البريطانيّة، وأوّل دراسة تاريخيّة عربيّة تتابع وتفكك تاريخيّة مصطلح العلمانيّة SECULARISM البريطانيّ واتّجاهاته الفكريّة والمفاهيم المرتبطة به؛ فكثيرة هي الأعمال الّتي كتبت عن التجارب العلمانيّة في الآونة الأخيرة، إلّا أنّ فهم المدرسة البريطانيّة جزء مهمّ ومتمّم في فهم صيرورة تشكّل العقليّة العلمانيّة الأوروبيّة في زمن كانت فيه بريطانيا قائدة للعالم الرأسماليّ ومنبعًا للمدنيّة بأبرز تجلّياتها. الكتاب الحاليّ يكرّس الدعوة لفتح المجال في عقد مقارنة المدرسة العلمانيّة البريطانيّة مع المدارس العلمانيّة الشهيرة الأخرى كالفرنسيّة والأميركيّة والتركيّة، ويساعد في إماطة اللثام عن تساؤل ملحّ طالما كان يطرحه متابعو مصطلح العلمانيّة: هل العلمانيّة ندّ للدين، أم حركة تصحيحيّة وإصلاحيّة ولدت من رحم المجتمع المدنيّ وواقعه؟

قراءة هذا الكتاب ستساعد في تبديد هذا التساؤل بعيدًا عن المتخيّل المسبق والمتسرّع.

المؤلّف


ISBN 978-614-419-571-0

